رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

صيد الخاطر

للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد
المعروف بابن الجوزي
المتوفى سنة ٥٩٧ هـ

تحقيق وتعليق
عامر بن علي ياسين



التنسيق والفهرسة
مصطفى قرمد

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

صيد الخاطر

التنسيق والفهرسة
مصطفى قرمد

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

صيد الخاطر

للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد
المعروف بابن الجوزي
المتوفى سنة ٥٩٧ هـ

تحقيق وتعليق
عامر بن علي ياسين



التنسيق والفهرسة
مصطفى قرمد

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

دار ابن خزيمة
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية
الرياض - هاتف ٤٧٦٩٩٣٢

التنسيق والفهرسة
مصطفى قرمد



التنسيق والفهرسة
مصطفى قرمد

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

المقـــدّمَة

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله؛ فلا مضل له، ومن يضلل؛ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعـد أخي الكـريم! فهٰـذا «صيد الخاطر» بين يديك؛ اجتهدت ـ والله ـ في الإحسان إليه والنُّصْح له، وعملت جادًّا على تقديم طبعة لائقة رائقـة منـه؛ يُسَرُّ بها القارىء ويسعد باقتنائها ويرتاح للرجوع إليها، وقد سلكت في هٰذا السبيل الخطوات الآتية:

١ ـ كان متن الكتاب موضع عنايتي ومحط نظري، فعملت على إخراجه بصورة حسنة، واعتمدت لهٰذا الغرض على أربع نسخ مطبوعة من الكتاب، ذكر أصحابها جميعًا أنهم استفادوا من نسخة مخطوطة للكتاب! لٰكن ما ذكر أحدٌ منهم شيئًا عن محلِّ المخطوطة ولا رقمها ولا صفتها ولا عنوانها!! ولا نقل أحدٌ منهم صورة لها!! فاخترت اثنتين من هٰذه النسخ وجعلتهما أساسًا، وأما الأخريين فاستئناسًا. ومع هٰذا؛ فقد بقيت في المتن فجواتٌ قوية، ومواضع ضعف وركاكة، وأخطاء كثيرة جدًّا في أسماء الرجال والأسانيد أطبقت عليها المطبوعات كلها؛ مما يوحي بسوء الأصل الخطي،

أو سوء قراءته، أو اعتماد اللاحق من المطبوعات على السابق، أو اعتمادها جميعًا على مطبوع قديم. . . والمهم أنني اعتمدت في إصلاح هٰذه الفجوات على مصادر التحقيق ومراجع ابن الجوزي وكتب الرجال، وإلا؛ فأعملت الفكر والخيال وسجلت ما ترجح عندي صوابه أو أضفت ما يتمم النقص وأشرت إلى ذٰلك في الحاشية. وكلي أملٌ أن أكون قد وضعت بين يدي القارىء الكريم نصًا صحيحًا قريبًا من الكمال إن شاء الله.

٢ ـ ثم وشَّحتُ هٰذا النصَّ بعلامات الترقيم الضرورية وضبطته بالتشكيل الذي يعين القارىء على فهم المقصود وفكِّ ما في العبارة من غموض.

٣ ـ هٰذا؛ وقد وضعت لكل فصل جديد عنوانًا موضوعيًا مستمدًّا من محتواه، يقدم للقارىء فكرة أوليَّة عن الفصل تعينه على ربط أجزائه وجمع أفكاره، وتفيد في التقسيم الموضوعي للكتاب، ورقمت هٰذه الفصول ترقيمًا متسلسلاً يعين على الفهرسة والعودة إلى الموضوع المطلوب عند الحاجة أو الإحالة إليه.

٤ ـ وأما الآيات القرآنية؛ فكانت مخرجة في حواشي المطبوعات، فنقلتها إلى المتن، وضبطتها بالشكل الكامل.

٥ ـ وأما الأحاديث النبوية؛ فخرجتها جميعًا إن شاء الله؛ ما كان منها نصًّا وما ذكر عَرَضًا وسياقًا؛ فما كان في «الصحيحين» أو أحدهما؛ فاكتفيت بذٰلك، وإلاَّ؛ تجاوزت إلى «المسند» و «السنن»، وإلا؛ فمن المسانيد والمعاجم وما تيسَّر من كتب السنة. وقد عُنيت بدراسة السند ونقل أقوال أهل العلم والتحقيق فيه؛ كأبي داوود والترمذي والحاكم والمنذري

والـذهبي والبـوصيري والهيثمي والعـراقي والعسقـلاني، ثم أتبعت هٰذه الأقوال بحكم الشيخ محمد ناصر الدين الألباني حفظه الله وبارك في عمره على الحديث؛ فهو أستاذ هٰذا الفن ومرجعه في هٰذا العصر بلا ريب، وختم الحديث بحكمه أحب إلى أهل العلم وطلابه وأدعى لقبولهم واطمئنانهم، وما هو من التقليد في شيء إن شاء الله، بل هو اتباع أهل العلم بعد النظر في الأدلة والقرائن، والحق أحقُّ أن يُتَّبع.

٦ ـ وأمـا آثـار الصحابة والتابعين وأخبار من قبلهم ومن بعدهم؛ فأحلت ما تيسَّـر لي منهـا إلى مصـادره، فعـاد ذٰلـك على متن الكتـاب بالتصحيح والتنقيح، ولٰكنني لم استوعبها جميعًا لعسر ذٰلك وطول العناء به، وما هو بالدليل الشرعي المعتمد، وإنما يُذْكَرُ للاعتضاد لا للاعتماد.

٧ ـ وكذٰلك فقد شرحت الكلمات الغريبة، وبينت مقصود المؤلف من بعض الجمل الخفية والصور البيانية والاستعارات والكنايات وأشباهها.

٨ ـ وترجمت لجميع الأعلام الذين ذكرهم المؤلف في الكتاب، اللهم إلا الصحابة والأئمة الأربعة؛ فشهرتهم تغني عن الترجمة لهم إن شاء الله.

٩ ـ هٰذا؛ وقد تعقّبت الإمام ابن الجوزي رحمة الله عليه في عدد لا بأس به من المواضع التي نرجح عندي أنه جانَبَ الصوابَ فيها، وذكرت ما أراه الصواب في هٰذه المواضع، وما ذاك أني أرى نفسي أهلًا للوقوف أمام هٰذا الإمام العظيم ـ بل ولا خلفه والله ـ، وإنما ليقيني بأن كل بني آدم خطاء، فإن رأيت أنـا الخطأ وسكتُّ عليه؛ كنت الآثم الوحيد فيه، وفاز الإمام ابن الجوزي رحمة الله عليه بالأجر الواحد، وفي كل الأحوال فأنا

ما أتيت بشيء من عندي، وإنما تعقبت بما ترجَّح لي من أقوال أهل العلم ومذاهبهم، وحسبي في هٰذا عذرًا أنه ديدن أهل العلم ـ ألحقني اللهم بهم ـ مذ كانوا؛ فما منهم إلا رادٌّ أو مردودٌ عليه؛ فإن أصبت؛ فلله الحمد والمنة، وإن كانت الأخرى؛ فما أحوجني إلى مغفرته ورحمته!

١٠ ــ وأخيرًا؛ فقد قدمت لهٰذا العمل بفصل مطوَّل تناولت فيه حياة المؤلف من مختلف جوانبها، ثم بفصل آخر فيه تعريف عامٌّ مفيدٌ إن شاء الله بهٰذا الكتاب.

وكلي أملٌ ورجاءٌ أن أكون قد تفاديت الأخطاء التي وقعت فيها المطبوعات السابقة، وأضفت إلى الكتاب جهدًا خيرًا مفيدًا ومثمرًا.

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يغفر لي ذنبي وتقصيري وخطئي وعمدي، وكل ذٰلك عندي، وأن يتقبل عملي هٰذا، ويجعله في ميزان حسناتي، وينفعني به، ويكتب له القبول والرضى؛ إنه مجيب الدعاء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عامر بن علي ياسين

٢٢ ذي القعدة ١٤١٧هـ

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

تعريف عام بالإمام ابن الجوزي[١]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أكرم المرسلين.

وبعد؛ فلعلَّك اعتدتَ - أيها القارىء الكريم - أن تجد في مقدمة كل كتاب فصلاً مفردًا لمدح المؤلف والإشادة به وبعلمه وبدينه ومؤلفاته... وأما نقده وتخطئته؛ فمحلُّهما في غير كتبه؛ فإن ذُكرا في كتبه؛ فعلى سبيل الاعتذار والتبرئة... وأما هنا؛ فالأمر على غير ذٰلك؛ فلقد سعيت جاهدًا لأقدم لك في هٰذا الفصل صورة منصفة وصادقة عن الإمام ابن الجوزي؛ ما له وما عليه؛ فإن ذٰلك - فيما أرى - أعظم فائدةً لك، وأنت أشد حاجةً إليه. والله المستعان.

*** اسمه ونسبه وشهرته:**

هو الشيخ، الإمام، العلامة، شيخ الإسلام، مفخرة العراق، جمال الدين، أبو الفرج، عبد الرحمٰن بن علي بن محمد... الذي ينتهي نسبه إلى القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، الحنبلي، الواعظ، صاحب التصانيف.

(١) وجل ما كتبته في هٰذا الفصل مستفاد من ترجمته في «أعلام النبلاء» و«البداية والنهاية»، وقد أشرت إلى مواضع ترجمته فيها في آخر الفصل؛ فلا أطيل الحواشي بالإحالات إلى الأجزاء والصفحات.

وأما نسبته ابن الجوزي؛ فاختلف فيها على أقوال، وكلها آيِلَةٌ إلى أصل واحد، وهي أنها نسبة إلى الشجرة المعروفة؛ سواء أكان في بيته أو بيت أجداده شجرة جوز كبيرة نسبوا إليها، أو كان أحدهم يسكن فرضة الجوز أو مشرعة الجوز أو محلة الجوز بالبصرة، أو كان أحدهم يعمل في الجوز زراعةً أو بيعًا وشراءً.

وقد ذكر أهل العلم له نسبةً أخرى؛ فقد جاء اسمه في بعض السماعات: عبد الرحمٰن بن علي الصفَّار، وذٰلك أن أهله كانوا تجارًا في النحاس، فنُسِب إلى الصُّفْر، الذي هو نوع من خلائط النحاس والألمينيوم لها لمعان الذهب.

*** مولده ونشأته وطلبه للعلم:**

ولد الإمام ابن الجوزي سنة ٥٠٨ أو ٥٠٩ أو ٥١٠هـ، في عائلة ميسورة من عائلات بغداد التي لم تشتهر قبل ذٰلك بجاه أو علم؛ كما هو ظاهر من قوله رحمه الله في (فصل ١٦٨) من هٰذا الكتاب: «ولقد تأملت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا...»، وما لبث أن توفي أبوه وله من العمر ثلاث سنوات؛ كما ذكر رحمه الله في الفصل نفسه: «فإن أبي مات وأنا لا أعقل، والأم لم تلتفت إليَّ»، فاجتباه ربه جلَّ وعلا، وقيض له عمته المرأة الفاضلة، التي اعتنت به، وقامت على تربيته، ثم حملته لما ترعرع إلى الحافظ المحدث مفيد العراق محمد بن ناصر السلامي ليتلقى عنه أوائل سماعه في سنة ٥١٦هـ، فأسمعه الكثير.

ولم يرحل ابن الجوزي في طلب العلم، وله كل العذر في ذٰلك؛ فقد كانت بغداد إذ ذاك حاضرة العالم الإسلامي، ومقر الخليفة العباسي،

وقبلة أنظار أهل العلم في المشرق والمغرب، وكانت الرحلة إليها من سائر الأمصار؛ فلا غرابة بعد هٰذا أن تجد في مشيخة ابن الجوزي ـ والذين أربوا في عددهم عن ثمانين شيخًا ـ عددًا لا بأس به من غير علماء بلده.

وأنفق ابن الجوزي رحمة الله عليه زمن صبوته وشبابه في طلب العلم، وحُبِّب إليه العلم بمختلف فنونه وأفنانه، فأقبل يعبُّ وينهل من مختلف أصناف العلم في همة عالية لا تعرف الكلل، وعزيمة لا تفتُرُ ولا يتسلَّل إليها الملل، ونفس وثَّابة، وروح توَّاقة للمعالي رافقته منذ نعومة الأظفار...

قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»: «وكان وهو صبيٌّ دَيِّنًا، مجموعًا على نفسه، لا يخالط أحدًا، ولا يأكل ما فيه شبهة، ولا يخرج من بيته إلا للجمعة، وكان لا يلعب مع الصبيان» اهـ.

وقد وصف هو بنفسه في (فصل ١٦٨) طرفًا من سعيه وجده في تحصيل العلوم فقال: «ولقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل لأجل ما أطلب وأرجو، كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة، فأخرج في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء؛ فكلما أكلت لقمة؛ شربت عليها، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم» اهـ.

وبقيت هٰذه الهمة ملازمة له حتى آخر سنوات عمره؛ فقد نقل الذهبي عنه أنه لما انقضت محنته وأخلي سبيله في واسط؛ «أتى إليه ابنه يوسف، فخرج، وما ردَّ من واسط حتى قرأ هو وابنه بتلقينه بالعشر على ابن الباقلاني، وسن الشيخ نحو الثمانين». قال الذهبي متعجبًا: «فانظر إلى هٰذه الهمة»!

وكان بين هٰذا وذاك من أشد الناس عناية بوقته، لا يضيِّع منه شيئًا فيما لا فائدة فيه ولا طائل من ورائه، يبغض صحبة البطالين، ويرصد لزيارتهم الأعمال اليدوية والآلية التي لا بدَّ منها ولا تحتاج في الوقت نفسه إلى إعمال الفكر وتركيز الذهن؛ كما ستلمس ذٰلك بنفسك في كثير من فصول هٰذا الكتاب ولا سيما (فصل ١٦٤).

ولا غَرْوَ بعد هٰذا أن تجد لهٰذا الإمام مشاركةً قويةً فعالةً في مختلف علوم الشريعة؛ من القراءات والتفسير والوجوه والنظائر وعلوم الحديث ورجاله وعلله وصحيحه وسقيمه وواهيه وموضوعه وناسخه ومنسوخه والفقه والفقه المقارن والتاريخ والسير والتراجم والمواعظ والرقائق والأخلاق واللغة والغريب والنحو والشعر والطب والفلك. . . وغير ذٰلك مما شهد له به أهل العلم على اختلاف آرائهم ومذاهبهم.

قال الإمام الذهبي: «كان بحرًا في التفسير، علامةً في السير والتاريخ، موصوفًا بحسن الحديث ومعرفة فنونه، فقيهًا، عالمًا بالإجماع والاختلاف، جيد المشاركة في الطب، ذا تفنُّن وفهم وذكاء وحفظ واستحضار وإكباب على الجمع والتصنيف» اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير: «هٰذا؛ وله في العلوم كلها اليد الطولى والمشاركات في سائر أنواعها؛ من التفسير والحديث والتاريخ والحساب والنظر في النجوم والطب والفقه وغير ذٰلك من اللغة والنحو. . .» اهـ.

*** ابن الجوزي واعظاً:**

ولئن كان لابن الجوزي رحمة الله عليه حظٌّ وافرٌ من مختلف علوم الشريعة وفنونها؛ فإنه قد نال في فن الوعظ قصب السبق؛ فله فيه الحظ

الأسمى والقدح المعلى وإليه فيه المنتهى.

قال الإمام الذهبي رحمه الله: «أحب الوعظ ولهج به وهو مراهق، فوعظ الناس وهو صبي، ثم ما زال نافق السوق، معظمًا، متغالىً فيه، مزدحَمًا عليه، مضروبًا برونق وعظه المثل، كمالُهُ في ازدياد واشتهار، إلى أن مات رحمه الله وسامحه» اهـ.

وقال قبل ذٰلك: «وكان رأسًا في التذكير بلا مدافعة؛ يقول النظم الرائق والنثر الفائق بديهًا، ويُسهب ويعجب، ويُطرب ويُطنب، لم يأت قبله ولا بعده مثله؛ فهو حامل لواء الوعظ والقيم بفنونه، مع الشكل الحسن والصوت الطيب والوقع في النفوس وحسن السيرة» اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «تفرَّد بفن الوعظ الذي لم يُسبق إليه ولا يلحق شأوه فيه، وفي طريقته وشكله، وفي فصاحته وبلاغته وعذوبة كلامه وحلاوة ترصيعه ونفوذ وعظه وغوصه على المعاني البديعة وتقريبه الأشياء الغريبة فيما يشاهَد من الأمور الحسية بعبارة وجيزة سريعة الفهم والإدراك؛ بحيث يجمع المعاني الكثيرة في الكلمة اليسيرة... وقد حضر مجلس وعظه الخلفاء والوزراء والملوك والأمراء والعلماء والفقراء ومن سائر صنوف بني آدم، وأقل ما كان يجتمع في مجلس وعظه عشرة آلاف، وربما اجتمع فيه مئة ألف أو يزيدون[1]، وربما تكلم من خاطره على البديهة نظمًا ونثرًا، وبالجملة؛ كان أستاذًا فردًا في الوعظ وغيره» اهـ.

ومن لطائف وعظه ما نقله الذهبى وابن كثير من أنه «التفت إلى ناحية

(١) قال الذهبي معلقًا على هٰذا: «ولا ريب أن هٰذا ما وقع، ولو وقع؛ لما قدر أن يسمِعَهم، ولا المكان يسعهم».

الخليفة المستضيء وهو في الوعظ، فقال: يا أمير المؤمنين! إن تكلمتُ؛ خفتُ منكَ، وإن سكتُّ؛ خفتُ عليك، وإنَّ قول القائل لك: اتَّق الله! خير لك من قوله لكم: إنكم أهل بيت مغفور لكم! كان عمر بن الخطاب يقول: إذا بلغني عن عامل لي أنه ظلم فلم أغيره؛ فأنا الظالم. يا أمير المؤمنين! وكان يوسف لا يشبع في زمن القحط حتى لا ينسى الجائع، وكان عمر يضرب بطنه عام الرمادة ويقول: قرقر أو لا تقرقر! والله؛ لا ذاق عمر سمنًا ولا سمينًا حتى يُخْصِبَ الناس. قال: فبكى المستضيء، وتصدق بمال جزيل، وأطلق المحابيس، وكسى خلقًا من الفقراء» اهـ.

*** مذهب ابن الجوزي رحمه الله:**

تفقه ابن الجوزي بالمذهب الحنبلي، وتوسع في دراسته، واستوعب أصوله وفروعه ودقائقه، وعده مذهبه، وألف فيه، وكان عظيم التقدير للإمام أحمد، شديد المحبة له، معجبًا بمنهجه ومسلكه وحياته، ولٰكنه ـ وبتأثير تفننه وتوسعه في علوم القرآن والحديث ـ لم يكن مقلدًا للمذهب، بل كان صاحب دليل واتباع ودعوة إليهما، وقد نعى في غير ما فصل من كتابه هٰذا على المقلدة، وذم التقليد، ووصف أهله بخسة الهمة والعمى والجهل والعاميَّة، وأوصى طلاب العلم بأن لا يأخذوا عنهم ولا يتفقَّهوا بهم، ولا يقلدوا معظمًا مهما كان، بل بالغ فدعاهم إلى الاجتهاد وحضَّهم عليه، وخالف إمامه في عدد من المسائل ـ كما في مسألة المداواة في (فصل ٥١) ـ، وكذٰلك فإني لم أجد في هٰذا الكتاب شيئًا يدلُّ على تعصبه للمذهب الحنبلي وذمه لغيره من المذاهب، بل قد ظهر لي احترامه للأئمة الثلاثة وتقديره لفقههم وعلمهم وسمتهم، بل قد صنف كتاباً في مناقب الشافعي، وهو اللائق به وبعلمه ورتبته رحمة الله عليه.

*** عقيدة ابن الجوزي رحمه الله:**

وعلى ما تقدم من مذهب الشيخ وموقفه من إمامه أحمد بن حنبل رضي الله عنه ومشاركته الفعالة في علوم القرآن والحديث وبقية علوم الشريعة؛ فمن الطبيعي أن تكون عقيدة ابن الجوزي هي عقيدة إمامه أحمد بن حنبل أو عقيدة السلف أصحاب الحديث أهل السنة والجماعة، وقد كان الأمر كذلك ـ ولله الحمد ـ في أبواب الإيمان والقضاء والقدر وغيرها مما اتفقت عليه معظم المذاهب العقدية؛ إلا أنه ـ وللأسف الشديد ـ اختار لنفسه منهجًا مستقلاً في مسألة الأسماء والصفات؛ لم يخالف فيه مذهب إمامه فحسب، بل خالف فيه جميع المذاهب العقدية التي سادت عصره، بل إنه اضطرب هو نفسه في هٰذا الباب اضطرابًا كبيرًا؛ فلا تكاد تعرف له فيه مذهبًا محددًا، وإليك البيان والإيضاح من هٰذا الكتاب الذي بين يديك:

فتراه مثلاً في (فصل ٣٦٦) ينتقد المتكلمة على اختلاف طوائفهم، فيقول: «ثم نظر إبليس، فرأى في المسلمين قومًا فيهم فطنة، فأراهم أن الوقوف على ظواهر الشريعة حالة يشاركهم فيها العوامُّ، فحسَّن لهم علوم الكلام، وصاروا يحتجُّون بقول بقراط وجالينوس وفيثاغورس، وهٰؤلاء ليسوا بمتشرعين، ولا تبعوا نبيَّنا ﷺ، وإنما قالوا بمقتضى ما سوَّلت لهم أنفسهم» اهـ.

وربما ظنَّ ظانٌّ أو قال قائلٌ: هٰذا إنما يختصُّ بالفلاسفة والجهمية والمعتزلة، وأما الأشاعرة؛ فما هم مقصودون بهٰذا! والحق أن الأشاعرة هم طائفة من طوائف المتكلمة؛ فلا يُعقل إخراجهم من عمومهم بغير سلطان مبين، زد على ذٰلك أن ابن الجوزي اختصَّهم في (فصل ١٢٤) من دون

سائر طوائف المتكلمة بالانتقاد، فقال: «ثم لم يختلف الناس في غير ذٰلك (في أن القرآن مخلوق أو هو كلام الله) إلى أن نشأ علي بن إسماعيل الأشعري، فقال مرة بقول المعتزلة، ثم عنَّ له فادَّعى أن الكلام صفة قائمة بالنفس، فأوجبت دعواه هٰذه أنَّ ما عندنا مخلوقٌ، وزادت فخبطت العقائد؛ فما زال أهل البدع يجوبون في تيارها إلى اليوم» اهـ. بل يمكننا أن نلمس نوع عداوة بينه وبين أشاعرة عصره أشار إليه في (فصل ١٦٠) بقوله: «وقع بيني وبين أرباب الولايات نوع معاداة لأجل المذهب؛ فإني كنت في مجلس التذكير أنصر أن القرآن كلام الله وأنه قديم وأقدم أبا بكر، واتفق في أرباب الولايات من يميل إلى مذهب الأشعري وفيهم من يميل إلى مذهب الروافض، وتمالؤوا عليَّ في الباطن...» اهـ.

ولا يدورَنَّ بِخَلَدِك أن خلاف ابن الجوزي للأشاعرة إنما هو مقتصر على مسألة خلق القرآن، بل الأمر أوسع من ذٰلك بكثير؛ فقد وجه إليهم انتقاداتٍ موجعةً في كثير من فصول هٰذا الكتاب: فتراه يقول في (فصل ٦١): «من أضرِّ الأشياء على العوامِّ كلامُ المتأوِّلين والنفاة للصفات والإضافات... وكان هٰذا المنزِّه من العلماء ـ على زعمه ـ مقاومًا لإثبات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالمحو، وشارعًا في إبطال ما يفتون به...»، ثم شرع يتكلم في مسألة الاستواء. وأعاد مثل هٰذا الكلام في (فصل ٧١) في مسائل الاستواء والنزول واليدين. وقال في (فصل ١٢٤): «قدم إلى بغداد جماعة من أهل البدع الأعاجم، فارتقوا منابر التذكير للعوام، فكان معظم مجالسهم أنهم يقولون: ليس لله في الأرض كلام، وهل المصحف إلا ورق وعفص وزاج؟! وإن الله ليس في السماء، وإن الجارية التي قال لها النبي ﷺ: «أين الله؟»؛ كانت خرساء، فأشارت إلى

السماء؛ أي: ليس هو من الأصنام التي تُعبد في الأرض. ثم يقولون: أين الحروفيَّة الذين يزعمون أن القرآن حرفٌ وصوتٌ؟! هٰذا عبارة جبريل! فما زالوا كذٰلك حتى هان تعظيمُ القرآن في صدور أكثر العوام، وصار أحدهم يسمع فيقول: هٰذا هو الصحيح! وإلَّا؛ فالقرآن شيء يجيء به جبريل في كيس!!» اهـ. ثم كرر هٰذا المعنى في (فصل ١٩٥ و٣١٩).

ودعني أوفر عليك في هٰذا المقام السؤال والتساؤل، فأقول: لا؛ لم يسلم أهل السنة أيضًا من نقداته اللاذعة وسخريته وهزئه غفر الله له ورحمه؛ فقد تناولهم بشر الكلام، ووجه لهم أحدَّ السياط: فقال في (فصل ٤٩): «عجبت لأقوام يدعون العلم ويميلون إلى التشبيه بحملهم الأحاديث على ظواهرها. . . ولٰكنَّ أقوامًا قصرت علومهم، فرأت أن حمل الكلام على غير ظاهره نوع تعطيل، ولو فهموا سعة اللغة؛ لم يظنوا هٰذا! وما هم إلا بمثابة قول الحجاج لكاتبه. . . » ثم ذكر قصة ـ وما أظنها تصح ـ في حماقة كاتب الحجاج على سبيل التمثيل لأهل السنة به! وقال في (فصل ٧١): «وجاء آخرون، فلم يقفوا على ما حدَّه الشرع، بل عملوا فيه بآرائهم، فقالوا: الله على العرش، ولم يقنعوا بقوله: ﴿ثم استوى على العرش﴾، ودفن لهم أقوامٌ من سلفهم دفائنَ، ووضعتْ لهم الملاحدة أحاديثَ، فلم يعلموا ما يجوز عليه مما لا يجوز، فأثبتوا بها صفاتٍ، جمهور الصحيح منها آتٍ على توسع العرب، فأخذوه هم على الظاهر، فكانوا في ضرب المثل كجحا؛ فإن أمه قالت له: احفظ الباب! فقلعه ومشى به فأُخِذَ ما في الدار» اهـ. فهٰذا قدر أهل السنة عند الشيخ وهٰذا مثلهم!!

وربما اعتذر بعض الناس لابن الجوزي بأنه إنما يتناول المشبهة

المجسمة لا أهل السنة، وأولئك أهلٌ لمثل هذا الهزء والسخرية...

فأقول: لا؛ إنه ليس كذلك للأسف الشديد، ويا ليته كان كذلك! وأنى يكون كذلك وهو القائل في (فصل ٤٩) بعد أن ضرب مثل كاتب الحجاج الذي ذكرناه آنفًا: «ولقد عجبت لرجل أندلسي يقال له: ابن عبد البر، صنف كتاب «التمهيد»، فذكر فيه حديث النزول إلى السماء الدنيا، فقال: هذا يدل على أن الله تعالى على العرش؛ لأنه لولا ذلك؛ لما كان لقوله «ينزل» معنى. وهذا كلام جاهل المعرفة بالله عز وجل؛ لأن هذا استسلف من حسِّه ما يعرفه من نزول الأجسام، فقاس صفة الحق عليه!! فأين هؤلاء واتباعِ الأثر؟! ولقد تكلموا بأقبح ما يتكلم به المتأوِّلون، ثم عابوا المتكلِّمين» اهـ. وما إخالك تعد ابن عبد البر مجسمًا! حاشاه وحاشاك.

ثم انظر إلى قوله في ردِّ ما صح عن الأئمة رضي الله عنهم - وحاشاهم من التجسيم - من إثبات الصفات - بعد أن ذكر جملة منها في (فصل ٧١) -: «قال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه: من ضيق علم الرجل أن يقلد في دينه الرجال. فلا ينبغي أن تسمع من معظم في النفوس شيئًا في الأصول فتقلده فيه، ولو سمعت عن أحدهم ما لا يوافق الأصول الصحيحة؛ فقل: هذا من الراوي؛ لأنه قد ثبت عن ذلك الإمام أنه لا يقول بشيء من رأيه؛ فلو قدرنا صحته عنه؛ فإنه لا يقلَّد في الأصول، ولا أبو بكر ولا عمر رضي الله عنهما»!! ولا تستعظم مثل هذا! فمن تجرأ على كلام الله ورسوله وحَكَّم فيه عقلَه، وركب الصعب والذلول في تأويله وتحريفه وصرفه وردِّه؛ فلا عجب أن يردَّ قول أبي بكر وعمر رضي الله عنهما!

ولعلَّك بعد هذا تتساءل: فما هو مذهب الشيخ إذًا في أسماء الله وصفاته؟!

فأقول: ما أحسن قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه: «إن أبا الفرج نفسه متناقض في هٰذا الباب؛ لم يثبتْ على قَدَم النفي ولا على قَدَم الإثبات، بل له من الكلام في الإثبات نظمًا ونثرًا ما أثبت به كثيرًا من الصفات التي أنكرها في هٰذا المصنَّف (يعني: دفع شبهة التشبيه)؛ فهو في هٰذا البـاب مثل كثير من الخائضين في هٰذا الباب من أنواع الناس؛ يثبتون تارة وينفون أخرى في مواضع كثيرة من الصفات؛ كما هو حال أبي الوفاء بن عقيل وأبي حامد الغزالي» اهـ. من «مجموع الفتاوى» (٤ / ١٦٩).

وإليك مصداق هٰذا الكلام من كتابنا هٰذا:

فها هو في (فصل ٤٣) يشرح لنا مذهبه في الأسماء والصفات قائلًا: «ثم تُتَلَقَّى أوصافه من كتبه ورسله، ولا يزاد على ذٰلك، ولقد بحث خلق كثير عن صفاته بآرائهم، فعاد وبال ذٰلك عليهم، وإذا قلنا: إنه موجود، وعلمنـا من كلامـه أنه سميع بصير حيٌّ قادر؛ كفانا هٰذا في صفاته، ولا نخوض في شيء آخر، وكذٰلك نقول: متكلم، والقرآن كلامه، ولا نتكلف ما فوق ذٰلـك، ولم يقـل السلف تلاوة ومتلو، وقـراءة ومقروء، ولا قالوا: استوى على العرش بذاته، ولا قالوا: ينزل بذاته، بل أطلقوا ما ورد من غير زيادة، وهٰذه كلمات كالمثال؛ فقس عليها جميع الصفات؛ تفز سليمًا من تعطيل، متخلصًا من تشبيه» اهـ. وهٰذا كلام قريب جدًّا من مذهب أهل السنة. وله مثله وأقوى منه في (فصل ١٢٣). بل نقل الذهبي في «السير» قوله: «أهل الكلام يقولون: ما في السماء رب، ولا في المصحف قرآن، ولا في القبر نبي؛ ثلاث عورات لكم».

وأما في (فصل ٤٩) فيطالعنا بمسلك آخر بقوله: «عجبت من أقوام

يدعون العلم ويميلون إلى التشبيه بحملهم الأحاديث على ظواهرها؛ فلو أنهم أمرُّوها كما جاءت؛ سلموا؛ لأن من أمرَّ ما جاء ومرَّ من غير اعتراض ولا تعرُّض؛ فما قال شيئًا لا له ولا عليه... فكذلك الظاهرية الذين لم يسلموا بالتسليم؛ فإن من قرأ الآيات والأحاديث ولم يزد؛ لم أَلُمْهُ، وهٰذه طريقة السلف». فهٰذا انتصار ظاهر لمذهب المفوِّضة ووصمٌ للسَّلف به.

وفي (فصل ٢٥٦) يطرح لنا منهجه في تعليم العقيدة فيقول: «على العامي أن يؤمن بالأصول الخمسة؛ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويقنع بما قال السلف: القرآن كلام الله غير مخلوق، والاستواء حق والكيف مجهول». بل ويقبل من العامي في (فصل ٣١٩) بالتجسيم ويقرُّه عليه! ولٰكن إلى حين؛ كما أوضح ذٰلك في (فصل ٦١) حيث قال: «إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالغوا في الإثبات ليتقرر في أنفس العوام وجود الخالق(١)؛ فإن النفوس تأنس بالإثبات؛ فإذا سمع العاميُّ ما يوجب النفيَ؛ طَرَدَ عن قلبِهِ الإثباتَ، فكان أعظم ضرر عليه... وأكثر الخلق لا يعرفون الإثبات إلا على ما يعلمون من الشاهد(٢)، فَيُقْنَعُ منهم بذٰلك، إلى أن يفهموا التنزيه، فأما إذا ابتدىء بالعامي الفارغ من فهم الإثبات، فقلنا: ليس في السماء، ولا على العرش، ولا يوصف بيد، وكلامه صفة قائمة بذاته وليس عندنا منه شيء، ولا يُتَصَوَّرُ نزوله؛ انمحى من قلبه تعظيم المصحف، ولم يتحقق في سره إثبات إلٰه، وهٰذه جناية عظيمة على

---

(١) يعني أن كلامهم ليس حقًّا في نفسه!! وإنما هو مبالغة هدفها تقرير وجود الخالق عند العوام!! فهم قد كذبوا على ربهم على هٰذا!! والغاية عندهم تسوغ الواسطة!! ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾.

(٢) يعني: على التشبيه بالخلق والتجسيم!!

الأنبياء، توجب نقض ما تعبوا في بيانه، ولا يجوز لعالم أن يأتي إلى عقيدة عاميٍّ قد أنس بالإثبات فيهوِّشها؛ فإنه يفسده ويصعب صلاحه، فأما العالم؛ فإنا قد أمناه؛ لأنه لا يخفى عليه استحالة تجدد صفة الله تعالى، وأنه لا يجوز أن يكون استوى كما يعلم...» إلخ كلامه في التأويل.

وقد تأثر ابن الجوزي في مذهبه العقدي هٰذا إلى حد بعيد بشيخيه ابن الزاغوني وأبي الوفاء بن عقيل، وهو قد صرح بذٰلك في (فصل ١٢٤) حينما قال: «وقد كان ابن عقيل يقول: الأصلح لاعتقاد العوامِّ ظواهر الآي والسنن؛ لأنهم يأنسون بالإثبات؛ فمتى محونا ذٰلك من قلوبهم؛ زالت السياسات والحشمة، وتهافُتُ العوامِّ في الشُّبهة أحبُّ إليَّ من إغراقهم في التنزيه؛ لأن التشبيه يغمسهم في الإثبات فيطمعون ويخافون شيئاً قد أنسوا إلى ما يُخاف مثله ويُرجى، والتنزيه يرمي بهم إلى النفي، ولا طمع ولا مخافة من النفي، ومن تدبر الشريعة؛ رآها غامسة للمكلَّفين في التشبيه بالألفاظ التي لا يعطي ظاهرُها سواه» اهـ[1].

وعلى هٰذا؛ فليس من الغريب أن ينتقد كثير من أهل العلم على اختلاف مشاربهم ابن الجوزي، حتى قال الحافظ سيف الدين ابن

(١) وقد كفانا الإمام الذهبي رحمة الله عليه في «السير» (١٩ / ٤٤٩) الرد على الشيخ وتلميذه، فقال: «قد صار الظاهر اليوم ظاهرين: أحدهما حق، والثاني باطل. فالحق أن يقول: إنه سميع، بصير، مريد، متكلم، حي، عليم، كل شيء هالك إلا وجهه، خلق آدم بيده، وكلَّم موسى تكليماً، واتخذ إبراهيم خليلاً... وأمثال ذٰلك، فنُمِرُّه على ما جاء، ونفهم منه دلالة الخطاب كما يليق به تعالى، ولا نقول: له تأويل يخالف ذٰلك. والظاهر الآخر ـ وهو الباطل والضلال ـ: أن تعتقد قياس الغائب على الشاهد، وتمثل البارىء بخلقه، تعالى الله عن ذٰلك، بل صفاته كذاته؛ فلا عِدْل له، ولا ضد له، ولا نظير له، ولا مثل له، ولا شبيه له، وليس كمثله شيء؛ لا في ذاته، ولا في صفاته. وهٰذا أمرٌ يستوي فيه الفقيه والعامي. والله أعلم» اهـ.

المجد: «وقال جدي: كان أبو المظفر بن حمدي ينكر على أبي الفرج كثيرًا كلماتٍ يخالف فيها السنة». قال: «وعاتبه أبو الفتح بن المَنِّي في أشياء، ولما بان تخليطُه أخيرًا؛ رجع عنه أعيانُ أصحابنا وأصحابه». وقال: «ما رأيت أحدًا يعتمد عليه في دينه وعلمه وعقله راضيًا عنه». قال الذهبي: «قلت: إذا رضي الله عنه؛ فلا اعتبار بهم». فكأنه رحمه الله عذره بأنه اجتهد فأخطأ، وقد بيَّن خطأه في ألطف عبارة فقال: «رحمه الله وسامحه؛ فليته لم يَخُضْ في التأويل ولا خالف إمامه» اهـ.

هٰذا؛ وقد أطلت في هٰذا الفصل لأمور كثيرة؛ أهمها أمران:

أولهما: أن ابن الجوزي رحمه الله تعالى قد فرق في كتابه هٰذا عدة فصول للكلام في الأسماء والصفات، فرأيت أن أجمع هٰذه المسائل هنا على صعيد واحد؛ لبيان حقيقة حال ابن الجوزي في المسألة، وحتى لا يلتبس الأمر على قارىء الفصل والفصلين.

والآخر: أنني أردت أن أبيِّن حقيقة حال ابن الجوزي غفر الله له وسامحه في هٰذه القضية أجلى بيان وأوضحه حتى لا يحتجَّ به أصحاب الفتن على أهل السنة، وما هو حجة لهم لو كانوا يعقلون؛ فقد نالهم من نقده وتجريحه أضعاف ما نال أهل السنة، هٰذا فضلاً عن أنهم لا يرتضون منهجه ولا يقبلون مسلكه! فما أشبه حالهم بمن قال تعالى فيهم: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾!!

فإذا عرفت هٰذا؛ فاعلم أن لحوم العلماء مسمومة؛ فاتق الله في نفسك، وإياك أن تقع في هٰذا الإمام العظيم بالمذمة والتنقُّص؛ فما هو من مسلك أهل العلم في شيء، بل هو مسلك السوقة والرعاع، وابن الجوزي مجتهد مخطىء، وليس من شرط العالم ألا يخطىء؛ فحقه عليك الاحترام

والتبجيل والاستغفار. والحمد لله رب العالمين.

*** مؤلفات ابن الجوزي رحمه الله:**

وأما مؤلفات ابن الجوزي؛ فبحر ما له ساحل، حتى قيل: إن مصنفاته قد نيَّفت على الثلاث مئة، وسرد سبطه في «المرآة» جملة وفيرة منها ثم قال: «ومجموع تصانيفه مئتان ونيفٌ وخمسون كتابًا». قال الذهبي: «وكذا وجد بخطه قبل موته أن تواليفه بلغت مئتين وخمسين تأليفًا». وقال سبطه أيضًا: «سمعت جدي على المنبر يقول: بأصبعيَّ هاتين كتبت ألفي مجلَّدة». وقال الموفق عبد اللطيف: «كان لا يضيِّع من زمانه شيئًا؛ يكتب في اليوم أربع كراريس».

ولا تثريب علينا إن شاء الله إن اقتصرنا هنا على ذكر عدد يسير من هٰذه المصنفات؛ فله في علوم القرآن: تفسيره المشهور بـ «زاد المسير»، و«الوجوه والنظائر»، و«فنون الأفنان في علوم القرآن». وله في الحديث وعلومه: «الموضوعات»، و«الواهيات»، و«جامع المسانيد». وله في الفقه: «المُذْهَب في المَذْهَب»، و«البلغة في الفقه»، و«التلخيص في الفقه»، و«المنفعة في المذاهب الأربعة». وله في التاريخ: «المنتظم»، و«مثير العزم الساكن». وله في السير والأخبار والتراجم: «الوفا بأخبار المصطفى»، و«صفوة الصفوة»، و«مناقب» لأبي بكر وعمر وعلي وسعيد بن المسيب وعمر بن عبد العزيز والثوري وبشر الحافي ورابعة وأحمد والشافعي؛ كل واحد في مجلد. وله في الوعظ والأخلاق: «يواقيت الخطب»، و«خطب الجمع»، و«ذم الهوى»، و«ذم الحسد»، و«تلبيس إبليس». وله في الطب: «لقط المنافع في الطب»، و«طب الشيوخ»... وغيرها كثير وكثير جدًّا مما يوحي بأنه ما ترك علمًا ولا فنًّا من فنون الشريعة

إلا وله فيه مؤلف أو أكثر مما يضيق المقام هنا عن ذكر بعضه فضلاً عن الإحاطة به، كيف وقد ضاق المقام بالذهبي في «السير» عن استيعاب مؤلفاته، فقال: «ما عرفت أحدًا صنف ما صنف»، ثم ذكر قريبًا من المئتين من مصنفاته، ثم قال: «وأشياء كثيرة غيرها تركتُها ولم أرها»؟! وكذٰلك ضاق المقام بابن كثير في «بدايته»، فاقتصر على ذكر غيض من فيضها، وقال: «وله من المصنفات في ذٰلك (يعني: في مختلف علوم الشريعة) ما يضيق هٰذا المقام عن تعدادها وحصر أفرادها».

ومن المفيد هنا ـ بل والمهم أيضًا ـ أن نذكر أن هٰذا الكمَّ الهائل من المصنفات قد كان على حساب الدِّقَّة في عدد غير قليل منها، فوقعت له أغاليط كثيرة في كتبه انتقده عليها كثير من أهل العلم:

قال الموفق عبد اللطيف: «كان كثير الغلط فيما يصنفه؛ فإنه كان يفرغ من الكتاب ولا يعتبره». وعلق الذهبي على هٰذا قائلاً: «هٰكذا هو، له أوهامٌ وألوانٌ من ترك المراجعة وأخذ العلم من صحف، وصنَّف شيئًا لو عاش عمرًا ثانيًا؛ لما لحق أن يحرره ويتقنه» اهـ. فرحم الله الذهبيَّ ما أعظم إنصافه وما أجزل كلامه!

وقال الحافظ سيف الدين ابن المجد: «هو كثير الوهم جدًّا؛ فإن في مشيخته مع صغرها أوهامًا...» ثم ذكر جملة من هٰذه الأوهام، وعلق الذهبي على ذٰلك بقوله: «هٰذه عيوبٌ وحشةٌ في جزءين» اهـ.

وقيل لابن الأخضر: ألا تجيب عن بعض أوهام ابن الجوزي؟ قال: «إنَّما يتتبَّع على من قلَّ غلطه، فأمَّا هٰذا؛ فأوهامه كثيرة».

قلت: لٰكن لا ينبغي التسرع في تنزيل هٰذا الكلام على جميع كتبه؛

فقد نقل الحافظ ابن الدبيثي في «تاريخه» أنه بورك لابن الجوزي في وقته، وحدث بمصنفاته مرارًا؛ فمثل هٰذه المصنفات لا بدَّ أن يكون قد حرَّرها وأتقنها ونقَّحها. والله أعلم.

*** سمت ابن الجوزي وصلاحه وزهده:**

نقل سبط ابن الجوزي في «المرآة» عن جدِّه أنه كان يختم في الأسبوع، ولا يخرج من بيته إلا إلى الجمعة أو المجلس، وقال: «كان زاهدًا في الدنيا متقلِّلًا منها، وكان يجلس بجامع القصر والرصافة وبباب بدر وغيرها... وما مازح أحدًا قطُّ، ولا لعب مع صبيٍّ، ولا أكل من جهة لا يتيقَّن حلَّها» اهـ.

وقال الموفَّق عبد اللطيف: «كان ابن الجوزي لطيف الصورة، حلو الشمائل، رخيم النغمة، موزون الحركات والنغمات، لذيذ المفاكهة... وكان يراعي حفظ صحته، وتلطيف مزاجه، وما يفيد عقله قوةً وذهنه حدَّةً، جلُّ غذائه الفراريج والمزاوير، ويعتاض عن الفاكهة بالأشربة والمعجونات، ولباسه أفضل لباس؛ الأبيض الناعم المطيب، وله ذهن وقَّاد، وجواب حاضر، ومجون ومداعبة حلوة، ولا ينفك من جارية حسناء» اهـ.

وقد صدق كلاهما وبرَّ إن شاء الله؛ فالموفَّق إنما وصف الصورة والمنظر، وأبو المظفَّر السبط وصف الحال والمخبر...

وابن الجوزي كما تعرفتُ عليه من صفحات هٰذا الكتاب رجلٌ صالح عابدٌ تقيٌّ زاهد على طريقة السلف ـ أحسبه والله حسيبه ـ، لا يتكلف مفقودًا ولا يُتْبِعْه نفسه، إن أتاه غرضه من وجه حلال لا شبه فيه؛ فحيهلا؛

فللنفس حقٌّ، وللأهل حقٌّ، وللجسد حقٌّ؛ دون أن يخرجه ذاك عن حد الاعتدال... وأما الحرام؛ فلا كان له ولا لأهله... وأما المشبَّهات؛ فالأصل تركها ورعًا، فإن غلبت النفس عليها يومًا؛ وجد لذلك وحشةً في القلب، وفقدًا للحال مع الرب؛ فعاد على نفسه باللوم والتأنيب، وعاهدها على عدم الرجوع لمثله... ومعلوم أن من كان هذا حاله لم يضرَّه التجمُّل وإجمام النفس وطيب المطعم وحسن الملبس ولا طعن بزهده. والله أعلم.

*** محنة ابن الجوزي رحمة الله عليه:**

كان الإمام ابن الجوزي رحمة الله عليه لا يحبُّ الشيخ عبد القادر الجيلي ولا ينصفه ويغضُّ من قدره، وكان الرُّكن عبد السلام بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر رَجُلَ سَوْء فاسد العقيدة متفلسفًا، فأُحْرِقَتْ كتبُه بإشارة من ابن الجوزي، وأُخِذَتْ مدرستهم فأعطيت لابن الجوزي، فانسمَّ الرُّكن وحقد عليه، فلما وزر صاحبه ابن القصَّاب الرافضي؛ أغراه بابن الجوزي وقال: أين أنت من ابن الجوزي الناصبي وهو أيضًا من أولاد أبي بكر؟! فسعوا به إلى الخليفة الناصر، ودبَّروا له وشاية الله أعلم بها، فجاء الركن إليه فشتمه وأهانه وأخذه قبضًا باليد وختم على داره وشتَّت عياله، وعلى الشيخ غلالة بلا سراويل، وعلى رأسه تخفيفةٌ، ثم حمله معه في مركبٍ إلى مدينة واسطٍ، ولولا لطف الله به؛ لقتله! فحبس هناك في بيت حرجٍ؛ يخدم نفسه ويطبخ ويغسل وينظف وينضح الماء من البئر، فبقي على ذلك خمس سنين لم يدخل الحمام، حتى نشأ ولده يوسف، واشتغل بالوعظ وهو صبيٌّ، حتى توصل إلى أم الخليفة، فشفعت في الشيخ، فذهب إلى أبيه وأخرجه.

*** وفاة الشيخ رحمة الله عليه:**

وبعد عودة الشيخ من واسط عاش في بغداد معززًا مكرمًا مبجَّلاً، حتى أتاه القدر المحتوم بعد مرض قصير، فتوفي ليلة الجمعة بين العشاءين في ١٣ رمضان سنة ٥٩٧، وكان يومًا مشهودًا، وخرج في جنازته خلق لا يحصون، ودفن في تربة الإمام أحمد، وأوصى أن يكتب على قبره:

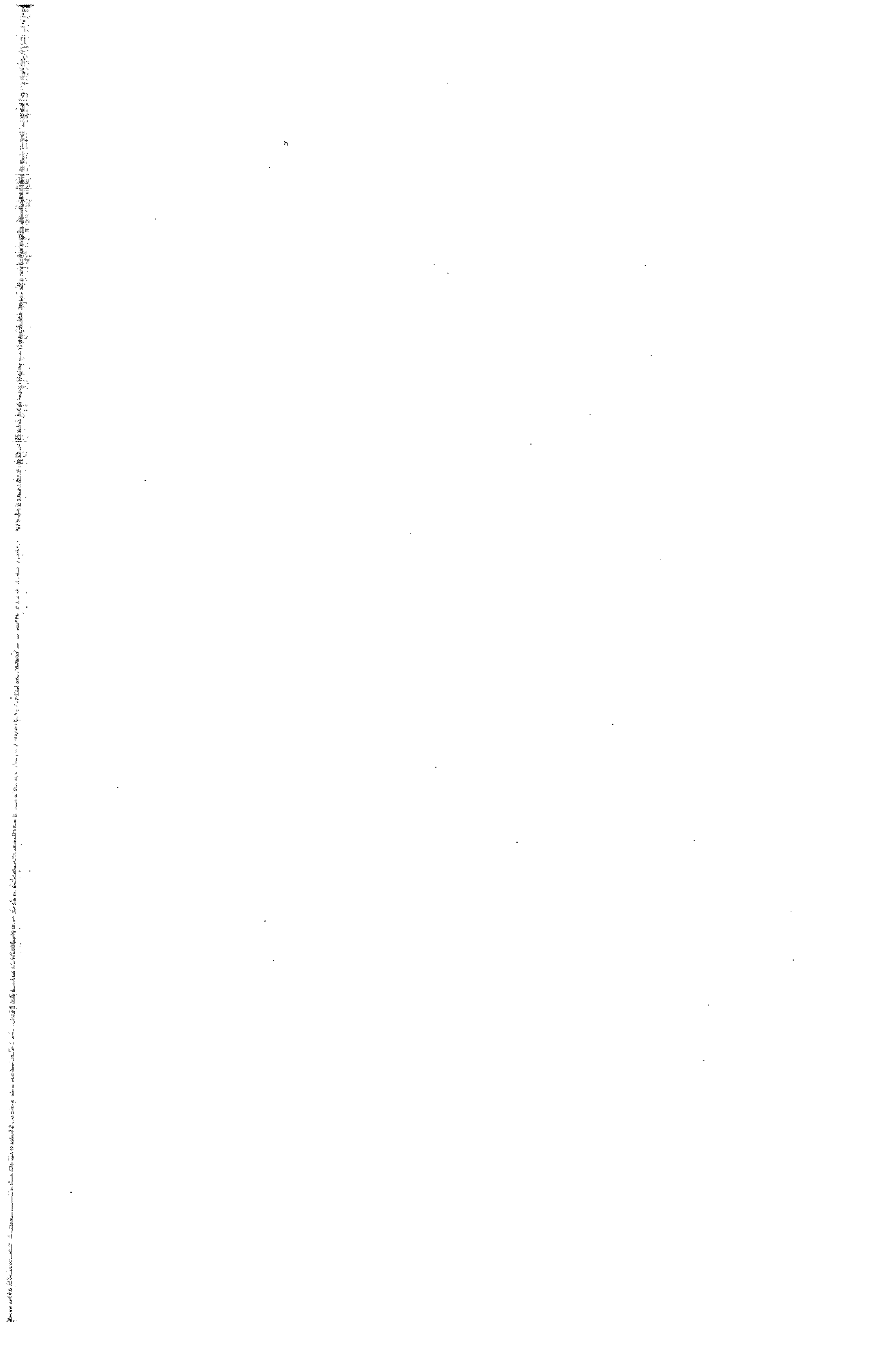
يا كَثيرَ العَفْوِ عَمَّنْ كَثُرَ الذَّنْبُ لَدَيْهِ
جَاءَكَ المُذْنِبُ يَرْجو الصْـ ـصَفْحَ عَنْ جُرْمِ يَدَيْهِ
أنا ضَيْفٌ وَجَزاءُ الضْـ ـضَيْفِ إحْسانٌ إليهِ

غفر الله له ورحمه وجعله من ورثة جنات النعيم.

*** مصادر ترجمته:**

ترجم له: ابن الأثير في «الكامل» (١٠ / ٢٧٦)، وابن الدبيثي في «ذيل تاريخ بغداد» (١٥ / ٢٣٨ ـ مختصره)، وابن النجار في «المستفاد من ذيل تاريخ بغداد» (١٩ / ١٥٥)، وسبطه في «مرآة الزمان» (٨ / ٤٨١)، والمنذري في «التكملة» (ت ٦٠٨)، وابن خلكان في «وفيات الأعيان» (٣ / ١٤٠)، والذهبي في «السير» (٢١ / ٣٦٥) و«العبر» (٤ / ٢٩٧) و«تذكرة الحفاظ» (٤ / ١٣٤٢)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٨ / ٥٣١)، وابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» (١ / ٣٩٩)، وابن العماد في «الشذرات» (٤ / ٣٢٩)، والزركلي في «الأعلام» (٣ / ٣١٦)... وغيرهم كثير.

والحمد لله رب العالمين.



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

تعريف عام بكتاب صيد الخاطر

*** فكرة الكتاب وسبب تأليفه:**

لا ريب أن أكثر الناس قد جرب في نفسه فكرةً مُعْجبةً أو نكتةً بديعةً أو إشـراقـةً سنيَّةً التمعت في ذهنـه وطـرأت على خاطره هٰكذا من غيرما استدعاء ولا إجهاد، فلما تفرَّغ مما يشغله ويلهيه وأقبل عليها راغبًا طالبًا؛ استعصت عليه وأعرضت عنه، فعاد فأعْمَلَ ذِهْنَه وكَدَّ فكره؛ فانقلب الفكر إليه خاسئًا وهو حسيرٌ. . . وطارت بغيته في مهب الريح.

وقـد رأى الإمام ابن الجوزي رحمة الله عليه من نفسه مثل هٰذا، فخشي أن تضيع منه سوانح وأفكارٌ يعزُّ عليه استرجاعها، فسارع إلى حفظها بالتقييد على طريقـة أصحـاب المذكرات واليوميات، فكان هٰذا الكتاب الذي بين يديك أخي القارىء. . .

وقد صرح بذٰلك في مقدمة كتابه فقال: «لما كانت الخواطر تجول في تصفُّح أشياء تَعْرِضُ لها ثم تُعْرِضُ عنها فتذهب؛ كان من أولى الأمور حفظ ما يخطر لكي لا ينسى، وقد قال ﷺ: «قيدوا العلم بالكتابة»، وكم قد خطر لي شيء، فأتشاغل عن إثباته، فيذهب، فأتأسف عليه» اهـ.

*** تحقيق نسبة الكتاب لمصنفه:**

ونسبة «صيد الخاطر» لابن الجوزي أشهر وأظهر من أن يتكلَّف المرء

إيراد الأدلَّة عليها؛ فقد نسبه إليه معظم أهل العلم ممن ذكر كتبه؛ منهم سبطه أبو المظفر في «مرآة الزمان»، والذهبي في «أعلام النبلاء» و«تذكرة الحفاظ»، والزركلي في «الأعلام»؛ في مواضع ترجمته.

ثم متن الكتاب حافل بالأدلة الأكيدة على صحة نسبته له: فهو في (فصل ١٦٨) مثلاً يتكلم عن طفولته وطلبه للعلم وشبابه، وفي (فصل ١٣٩) يذكر تاريخ كتابته وتأليفه، وفي فصول أخرى يذكر شيوخه الأنماطي والجواليقي وابن عقيل، وله في الكتاب روايات متعددة بأسانيده، وسمَّى فيه كثيرًا من كتبه؛ كـ «تلبيس إبليس» و «المنتظم» و «الأذكياء»، هذا فضلاً عن أسلوبه ومذهبه وعقيدته الظاهرة في الكتاب بما لا يخفى على من قرأ شيئًا يسيرًا لابن الجوزي.

* **قيمة الكتاب وأهميته:**

من المعلوم أن الخواطر والسوانح واليوميات والمذكرات هي أمور أقرب إلى الشخصية والفردية والخصوصية منها إلى العمومية والإنسانية، اللهم إلا نوادر منها يجتمع لها من الأسباب ما يجعلها موضع اهتمام وملاحظة من جيل كامل أو عدة أجيال. . .

و «صيد الخاطر» هو واحد من تلك الكتب المتجدِّدة الأهمية والمكانة على مر الأيام، وذلك أنه يحكي في طياته تجربة عالم بارع وعامل زاهد وواعظ بليغ، سلخ ما يزيد على نصف قرن من عمره في الدرس والبحث والتأليف، وقرأ جبالاً من الكتب والمصنفات، وعاشر عددًا غير قليل من طلاب العلم والعلماء والزهاد والخلفاء والوزراء، وعرف أحوالهم، واستبطن خفاياهم، فكانت كلماته ومواعظه وفوائده ووصاياه نتيجة لتجربة صقلها مرُّ الأيام والسنين، وجَلَتْها حياةٌ مليئة بالمتناقضات. . . فكانت

أقرب إلى الحِكَم في كثير من الأحيان.

ومع هٰذا كله؛ فيبقى للجانب الشخصي في هٰذه الكتاب أثرًا قويًّا، ولن يعدم القارىء الحصيف فيه فصولاً يصعب عليه الخروج بعبرةٍ حقيقيَّة منها أو إسقاطها على حياته اليومية أو حياتنا المعاصرة، وذٰلك لشدة خصوصيتها ولصوقها بحياة المصنف اليومية والظروف المعيشية والبيئية والبنية الاجتماعية التي أحاطت به.

ولن يعدم صاحب الذاكرة القوية شيئًا من الاختلاف والتضارب والتضاد بين بعض الفصول، وإن كان هٰذا قليلاً لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة، وذٰلك أن كثيرًا من خواطر المؤلف قد جاءت عفوًا وليدة ساعتها وبنت لحظتها، فلما مر الوقت وتغيرت الظروف والأحوال؛ تغيرت الآراء والأفكار. وهٰذا أمر يلحظه كل منا في نفسه بين الفينة والأخرى، وربما بين عشية وضحاها.

* **موضوع الكتاب:**

وأخيرًا؛ فـ «صيد الخاطر» حديقة غناء، واسعة الأرجاء، ظلالها وارفة، وقطوفها دانية؛ فالداخل إليها والمستظلُّ بظلِّها ـ مهما كان حاله ودرجة تحصيله ـ لن يخرج منها إلا شبعانَ ريَّانَ قد ملأ سلَّته بصنوفٍ مما لذَّ وطاب، وذٰلك أن ابن الجوزي رحمة الله عليه لا يختصُّ فئة معيَّنة بالتوجه إليها هنا، بل يتوجه تارةً إلى البشر بعمومهم، وتارةً إلى كل طائفة منهم على حدة:

* فتراه يتوجه إلى عموم البشر أن استيقظوا من غفلتكم الكبرى، وأفيقوا من رقادكم العميق، واصحوا من سكركم القتال، وتداركوا أحوالكم وأموركم، واستغلوا ساعات العمر ولحظاته، ولا تركنوا إلى حلم الله عليكم

فإن أخـذه أليمٌ شديدٌ، وإياكم وتنكُّب منهـج الله، وإياكم والغوص في الشهوات كالأنعام، وإياكم ومحقرات الذنوب . . .

* وتراه يرحمه الله يتوجه إلى الناس بما يصلح أمور دنياهم؛ من ضرورة النظر في عواقب الأمور، واتباع الحكمة في تحصيل الحاجات، والاحتياط والحذر في اختيار الأخلاء والأصدقاء، وعدم المجاهرة والفجور في العداوة، والاستعانة على قضاء الحوائج بالكتمان . . . وغير ذٰلك كثير وكثير في فصول كثيرة بديعة أفردها لكل أمر من هٰذه الأمور.

* وتراه يتوجه بالنصيحة إلى طلاب العلم؛ فيحثهم على تحصيل شيء من المال يغنيهم عن ذلِّ السؤال، وعلى الإخلاص في طلب العلم وقصـد الله والدار الآخرة، ويضع لهم المناهج العمليَّة والخطط المُعِينة لطالب العلم على الحفظ والفهم والأخذ بالأهم قبل المهم؛ فالعلم كثير والعمر قصير والفقه خير العلوم، ويحذرهم من خسة الهمة وتقليد المعظَّمين . . .

* وأمـا أهـل العلم؛ فصيدُهم من هٰذا الكتاب أعظم وأوفر؛ ففيه الحث لهم على إخلاص علمهم لله، وصدق التوجه إليه، وإصلاح القلوب من أدواء الكبر والعجب والرياء بقلة الخلطة والتفكر بآلاء الله ونعمه عليهم والاعتراف بالتقصير، وفيه الحث لهم على إعزاز علمهم وأنفسهم بحفظ المال والترفع عن أموال الأغنياء وهبات السلاطين، والوصية لهم بالصبر على قلة حظهم من الدنيا وعدم التحسُّر والجزع على ما فاتهم منها، وفيه النصيحة لهم بالأخذ بالعلم النافع الذي يورث خشية الله، والعمل به، وتـرك الكلام والسفسطة وما لا طائل تحته، واتقاء الرخص والمشبهات، واتباع الأدلة المحكمات، وعدم الإعراض عن الكتاب والسنة؛ فإنه أصل

البليَّات، وفيه الدلالة لهم على السبل الحكيمة في تعليم الناس ووعظ السلطان. . .

* وتـراه ينصـح أهـل الرواية بضرورة معرفة صحيح الحديث من ضعيفه، وعدم الاقتصار على جمع الطرق والنُّسْخ والسعي وراء الغرائب، ويحثهم على التفقُّه في معاني الحديث الذي يحملونه وعدم الاقتصار على النقل، ويدعوهم إلى إصلاح السرائر وطلب ما عند الله.

* وتـراه يعيب متزهِّدي عصره، ويذكِّرهم بمنهج السلف الصالح وزهـدهم، ويحـذرهم خطر العمل بلا علم، ويدعوهم إلى طلب الدار الآخـرة، وإصـلاح السـرائـر والضمـائر، وتجنب الرياء والتزهُّد الكاذب بالمـظاهـر الفـارغة وحمل النفس على المهلكات، ويبيِّن لهم أن العزلة الصحيحة هي العزلة عن الشرور والمعاصي لا عن طلب العلم ونشره.

* وأمـا المتصوفة؛ فقد نفض منهم اليد، وأزرى بهم أيما إزراء؛ ففضح سوء حالهم، وموبقات مجالسهم، وعظمة بطونهم، وطول غنائهم ورقصهم، وتلبيس إبليس عليهم في أحوالهم ومذاهبهم وتوكلهم ورهبانيتهم. . .

* وتراه يتكلم في مقاصد النكاح، وسر العلاقة بين الرجل والمرأة، ويحذر من المبالغة في الحبّ، ويبين خطر داء العشق وضرره، ويوصي الـرجـل باختيار المـرأة الصـالحـة الصيِّنـة التي يُسرُّ بها وتُعجِبُ ناظره، ويعاشرها بالمعروف ويتجمَّل لها كما تتجمَّل له، ولا يفتش عن عيوبها؛ فلا تخلو امرأة من عيب؛ فليصبر على ما عنده ويتق الله عز وجل.

* وتراه يتكلم في القدر والحكمة؛ فيوصي بأخذ الأسباب، ويوضح

أنهـا من القـدر، وينهى عن سبيل الكسـالى والبـطالين الـذين يتعللون بالأقـدار، ويبيِّن أن الـرضى بالمقـدَّر والتسليم والإذعان للمقدِّر هو باب السلامة، وأن الاعتراض على أقدار الله واتِّهام حكمته هو سبيل المتهوِّكين الـذين ما لهم عقـلٌ ولا تفكير، وأنـه لا يخلو خلقٌ لله ولا أمرٌ من حكم عظيمة؛ فإن أدرك العقل البشريُّ شيئًا منها؛ فبها ونعمت، وإلا؛ فما من سبيل إلا التسليم بأصل الحكمة للمولى تبارك وتعالى.

* وتراه يتوجه إلى تسلية المصاب المحزون بما يعينه ويهوِّن عليه مصائب الدنيا، فيحثه على أن لا يأسى عليها، ويذكره أن صروف الدهر ابتـلاء من الله له أيصبر أم يجزع، ثم يصف له أنفع الأدوية في تفريج الكرب؛ من الصبر الجميل، والرضى بالمولى الجليل، والاعتراف بالذنب والتقصير، ورد المصيبـة إلى نفسه وكسب يديه لا إلى ربه، ولزوم التوبة والدعاء وإن تأخَّر الفرج. . .

* وفي الكتـاب ما يشفي العليل ويروي الغليل من الـرقائق؛ من التذكير بنعم الله التي لا تحصى، والتنبيه لمننه وعطاياه التي لا تنتهي، وذكر مقامات العبودية والمحبة والرضى، ووصف أحوال الصالحين وذكر أقوالهم. . .

* هٰذا؛ ولا تعدم في الكتاب نكتة بديعة في معنى آية، أو قولاً حسنًا في شرح حديث، أو قصـة مفيدة فيهـا عبرة، أو خبرًا ظريفًا لا يخلو من حكمة، أو عرضًا لمسألة فقهية أو حديثية أو علمية. . .

وقد طال بنا الكلام في هٰذا المقام، فحسبنا هٰذا، ولْندَعِ القارىء الكريم يعاين الأمر بنفسه؛ فليس الخبر كالمعاينة. . .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

[مقدمة المؤلف]

بسم الله الرحمٰن الرحيم.

وَبه المستَعان وعَليه التكلان.

قال الشيخُ الإمامُ العالم أبو الفرج عبد الرحمٰن بنُ علي بنِ محمد بن الجوزيِّ رحمة الله عليه:

الحمدُ لله حمدًا يبلغُ رضاه، وصلَّى الله على أشرفِ مَنِ اجتباه، وعلى مَنْ صاحَبَهُ ووالاه، وسلَّم تسليمًا لا يُدْرَكُ مُنْتَهاه.

لما كانتِ الخواطر تَجول في تَصَفُّحِ أشياءَ تَعْرِضُ لها ثم تُعْرِضُ عنها فتذهب؛ كان مِن أولى الأمور حفظُ ما يَخْطُرُ لكيلا يُنْسى، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «قَيِّدوا العلمَ بالكتابةِ»[1].

---

(١) (صحيح موقوفًا ومرفوعًا). ورد من حديث عدة من الصحابة رضي الله عنهم:

فرواه: الحاكم (١ / ١٠٦) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقوفاً، وصححه، ووافقه الذهبي.

ورواه: أبو خيثمة في «كتاب العلم» (٢٩ / ١٢٠)، والدارمي (١ / ١٢٦)، والطبراني (١ / ٦٢ / ٢)، والحاكم (١ / ١٠٦)، والخطيب البغدادي في «تقييد العلم» (ص ٩٦)؛ من طرق عن أنس بن مالك موقوفاً، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

ورواه: أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢ / ٢٢٨)، والقضاعي في «الشهاب» (٥٣ =

وكم قد خطر لي شيءٌ، فأتشاغلُ عن إثباتِهِ، فيذهبُ، فأتأسَّفُ عليه!

ورأيتُ مِن نفسي أنني كُلَّما فتحت بَصَرَ التَّفَكُّرِ؛ سَنَحَ[١] له من عجائب الغيب ما لم يكنْ في حساب، فانثالَ[٢] عليه من كثيب التَّفْهيم ما لا يجوز التفريطُ فيه، فجعلتُ هٰذا الكتابَ قيدًا لصيد الخاطر.

والله ولي النفع؛ إنه قريب مجيب.

١ـ فصل

[في سبب عودة الغفلة والقسوة إلى القلب بعد انقضاء الموعظة]

قد يَعْرِضُ عند سماع المواعظ للسامع يَقَظَةٌ؛ فإذا انفصل عن

= / ٢)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١ / ٧٢)، والخطيب في «التاريخ» (١٠ / ٤٦) و«تقييد العلم» (ص ٦٩)؛ من طريقين يحسن أحدهما الآخر من حديث أنس مرفوعاً.

ورواه: الحاكم (١ / ١٠٦)، والخطيب في «تقييد العلم» (ص ٦٨)، وابن عساكر في «التاريخ» (١٢ / ٣٤٣ / ٢)؛ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعًا، وضعفه الحاكم والذهبي.

ورواه: أبو خيثمة في «كتاب العلم» (٣٤ / ١٤٨)، وابن عدي في «الكامل» (٢ / ٧٩٣)؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا بإسنادين فيهما ضعف.

والحديث صحيح موقوفاً ومرفوعاً بمجموع طرقه وشواهده، ولا تناقض بين وقفه ورفعه، بل الموقوف يزيد المرفوع قوة، وصححه الألباني، وانظر: «الصحيحة» (٥ / ٤٠ / ٢٠٢٦).

(١) سَنَحَ: عَرَض وبدا.

(٢) انثال: انصبَّ وتتابع فلم يدر بأيِّه يبدأ.

مجلس الذِّكْر؛ عادتِ القسوةُ والغفلةُ!

فتدبرت السبب في ذٰلك، فعرفتُه.

ثم رأيتُ الناس يتفاوتون في ذٰلك:

فالحالة العامة أنَّ القلب لا يكون على صفتِهِ من اليَقَظَة عند سماع الموعظةِ وبعدَها؛ لسببين:

أحدهما: أن المواعظ كالسِّياط، والسِّياط لا تُؤلِمُ بعد انقضائِها إيلامَها وقتَ وقوعِها.

والثاني: أن حالةَ سماع المواعظ يكونُ الإنسان فيها مُزاحَ العِلَّةِ[١]، قد تخلَّى بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا، وأنصتَ بحضور قلبِهِ؛ فإذا عاد إلى الشواغل؛ اجتذبته بآفاتها؛ فكيف يَصِحُّ أن يكونَ كما كان؟!

وهٰذه حالةٌ تَعُمُّ الخَلْقَ.

إلَّا أن أرباب اليقظة يتفاوتون في بقاء الأثر:

فمنهم مَنْ يَعْزِمُ بلا تردُّد، ويمضي من غير التفاتٍ؛ فلو توقَّف بهم رَكْبُ الطبع؛ لَضَجُّوا؛ كما قال حنظلة عن نفسه: نافَقَ حنظلة[٢].

---

(١) مزاح العلة: خال من الشواغل التي تمنعه من الإنصات والإقبال بقلبه وعقله على ما يسمعه.

(٢) روى مسلم (٤٩ ـ كتاب التوبة، ٣ ـ باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة، ٤ / ٢١٠٦ / ٢٧٥٠) عن حنظلة الأسيدي ـ وكان من كتاب رسول الله ﷺ ـ؛ قال: قلت: نافق حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «وما ذاك؟!». قلت: يا رسول الله! نكون عندك؛ تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين؛ فإذا خرجنا من عندك؛ عافسنا =

ومنهم أقوامٌ يميل بهم الطبعُ إلى الغفلة أحيانًا، ويدعوهم ما تقدَّم من المواعظ إلى العمل أحيانًا؛ فهم كالسُّنبلة تُميلها الرياح(١).

وأقوامٌ لا يؤثِّر فيهم إلَّا بمقدار سماعِهِ؛ كماءٍ دَحْرَجْتَهُ على صفوانٍ(٢).

٢ـ فصل

[الطبع بين جواذب الدنيا وذكر الآخرة]

جواذبُ الطبع إلى الدُّنيا كثيرةٌ، ثم هي من داخلٍ، وذِكْرُ الآخرة أمرٌ خارج عن الطَّبْع، من خارجٍ.

وربما ظنَّ مَن لا علم له أن جواذب الآخرة أقوى؛ لِما يسمعُ من الوعيد في القرآن.

وليس كذٰلك؛ لأن مَثَلَ الطبع في مَيْلِهِ إلى الدُّنيا كالماء الجاري؛ فإنه يطلُبُ الهبوطَ، وإنما رَفْعُهُ إلى فوقٍ يحتاجُ إلى التكلُّفِ، ولهٰذا أجاب معاونُ الشرع بالتَّرْغيب والتَّرْهيب يقوِّي جُنْدَ العقل.

= الأزواج والأولاد والضيعات؛ نسينا كثيراً. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده؛ إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر؛ لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولٰكن؛ يا حنظلة! ساعة وساعة (ثلاث مرات)».

(١) وقد صح عن النبي ﷺ من حديث عدة من الصحابة رضي الله عنهم: أنه قال: «مثل المؤمن مثل السنبلة؛ تميل أحياناً وتقوم أحياناً». وانظر تفصيل الكلام فيه وفي تخريجه في «الصحيحة» (٥ / ٣٥٣ / ٢٢٨٤).

(٢) الصفوان: الحجر الأملس الذي لا يتشرب الماء، وإنما يبتل به سطحه فحسب؛ فكذٰلك هٰؤلاء القوم يتأثرون بالموعظة ظاهريًا وآنيًا دون أن تصل إلى قلوبهم.

فأما الطبع؛ فجواذبُه كثيرةٌ، وليس العَجَبُ أن يَغْلِبَ، إنَّما العَجَبُ أن يُغْلَبَ.

٣ـ فصل

[في أن النظر في العواقب يورث السلامة]

مَنْ عايَنَ بعين بصيرتِهِ تَناهِيَ الأمور في بداياتها؛ نال خيرها، ونجا من شرِّها.

ومَنْ لم يَرَ العواقبَ؛ غَلَبَ عليه الحسُّ، فعاد عليه بالألم ما طَلَبَ منه السلامةَ، وبالنَّصَب ما رجا منه الراحةَ.

وبيان هٰذا في المستقبل يتبيَّنُ بِذِكْرِ الماضي:

وهو أنك لا تَخْلو أن تكون عصيتَ الله في عمُرك أو أطعتَه؛ فأين لَذَّةُ معصيتك؟! وأين تَعَبُ طاعتك؟! هيهات؛ رحل كلٌّ بما فيه!

فليت الذنوبَ إذا تخلَّت خَلَّتِ(١)!

وأزيدك في هٰذا بيانًا: مَثِّلْ ساعة الموت، وانظر إلى مرارة الحَسَرات على التَّفْريط، ولا أقولُ: كيف تَغْلِبُ حلاوةَ اللَّذَّات؛ لأن حلاوة اللَّذَّات استحالت حنظلًا، فبقيت مرارةُ الأسى بلا مقاومٍ.

أتُراك ما علمتَ أنَّ الأمر بعواقبه؟!

فراقبِ العواقبَ تَسْلَمْ، ولا تَمِلْ مع هوى الحسِّ فتندمْ.

---

(١) يعني: ليتها إذا مضت وانتهت لذتها؛ تركت الإنسان مرتاح البال من جريرتها وما تُعْقِبُه من الألم والندم.

٤ ـ فصل

[في أن الحياة الدنيا متاع الغرور]

مَن تفكَّر في عواقب الدُّنيا؛ أخذ الحذر، ومَن أيقن بطول الطريق؛ تأهَّبَ للسفر.

ما أعجب أمرك يا من يوقِنُ بأمرٍ ثم ينساه، ويتحقَّق ضرر حالٍ ثم يغشاه، وتخشى الناسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاه!

تغلِبُك نفسك على ما تظنُّ، ولا تغلِبُها على ما تستيقنُ!

أعجب العجائب: سرورُك بغرورِك، وسَهْوُك في لَهْوِك عمَّا قد خُبِىءَ لك! تغترُّ بصحتك وتنسى دُنُوَّ السَّقَم، وتفرحُ بعافيتك غافلاً عن قُرْبِ الألم! لقد أراك مصرعُ غيرِكَ مصرعَك، وأبدى مضجَعُ سواك قبل المماتِ مضجَعَك! وقد شَغَلَكَ نَيْلُ لَذَّاتِك عن ذِكْر خَراب ذاتِك.

كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بأَخْبارِ مَنْ مَضَى ... ولَمْ تَرَ في الباقينَ ما يَصْنَعُ الدَّهْرُ
فَإِنْ كُنْتَ لا تَدْرِي فَتِلْكَ دِيارُهُم ... مَحاها مَجَالُ الرِّيحِ بَعْدَكَ والقَبْرُ

كم رأيتَ صاحبَ منزلٍ ما نزل لَحْدَهُ حتى نزل[1]! وكم شاهدتَ والِيَ قصر وَلِيَه عَدُوُّه لما عُزِل!

فيا من كلُّ لَحْظِهِ إلى هٰذا يسري، وفعلُهُ فِعْلُ مَن لا يفهم ولا يدري!

وَكَيْفَ تَنامُ العَيْنُ وَهِيَ قَرِيرَةٌ ... ولَمْ تَدْرِ مِنْ أيِّ المَحَلَّيْنِ تَنْزِلُ

---

(١) نزل عن مكانته العالية التي هو فيها، أو نزل عن المنزل وتركه لغيره لما اشتدت به الحال، أو غير ذلك مما يشبهه.

٥ ـ فصل
[في أن السلامة رهينة بتجنب مواضع الفتن]

مَنْ قاربَ الفتنة؛ بَعُدت عنه السلامة، ومن ادَّعى الصبر؛ وُكِلَ إلى نفسه، ورب نظرة لم تُناظِرْ[١]، وأحقُّ الأشياء بالضَّبْط والقَهْر اللسانُ والعينُ.

فإياك إياك أن تغترَّ بعَزْمِك على ترك الهوى؛ مع مقاربةِ الفتنةِ؛ فإن الهوى مكايدٌ[٢]! وكم مِن شُجاع في صفِّ الحرب اغتيل، فأتاه ما لم يحتسبْ ممَّنْ يأنفُ النظرَ إليه!

واذكر حمزة مع وحشيٍّ[٣].

فَتَبَصَّرْ ولا تَشِمْ كُلَّ بَرْقٍ ... رُبَّ بَرْقٍ فيهِ صَواعِقُ حَيْنِ[٤]
واغْضُضِ الطَّرْفَ تَسْتَرِحْ مِنْ غَرامٍ ... تَكْتَسي فيهِ ثَوْبَ ذُلٍّ وَشَيْنِ
فَبَلاءُ الفتى مُوافَقَةُ النَّفْـ ... ـسِ وَبَدْءُ الهَوى طُموحُ العَيْنِ

---

(١) يعني: أصابت الإنسان بسهم مسموم ولم تمهله وأوقعته في الفتنة.

(٢) يعني: عظيم الكيد واسع الحيلة لا يدري المرء من أي باب يأتيه.

(٣) يعني: أن حمزة رضي الله عنه لم يكن في باله أنه سيقتل غِيلة على يد وحشي رضي الله عنه العبد الحبشي الذي لم يكن مقاتلاً أصلاً.

ومقتل حمزة رضي الله عنه قصة مشهورة في السير، وقد رواها البخاري (٦٤ ـ كتاب المغازي، ٢٣ ـ باب قتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، ٧ / ٣٦٧ ـ ٣٦٨ / ٤٠٧٢) من حديث وحشي نفسه.

(٤) شام البرق: نظر إليه أين يقصد وأين يُمطر، والحَيْن: الهلاك، والمعنى: تبصَّر وتنبَّه، ولا تركن إلى ظواهر الأمور ومباديها؛ فربما حملت إليك الهلاك والثبور من حيث لا تدري.

٦ ـ فصل
[في عقوبات أهل العلم والزهد]

أعظمُ المعاقبة أنْ لا يُحِسَّ المعاقَبُ بالعقوبة!

وأشدُّ من ذٰلك [أن] يَقَعَ السرورُ بما هو عقوبةٌ؛ كالفرح بالمال الحرام والتمكُّنِ من الذنوب!

ومَنْ هٰذه حالُهُ لا يفوز بطاعةٍ.

وإني تدبَّرْتُ أحوالَ أكثر العلماء والمتزهدين، فرأيتهم في عقوباتٍ لا يُحِسُّون بها، ومعظمُها من قِبَلِ طلبهم للرِّياسةِ؛ فالعالمُ منهم يغضبُ إن رُدَّ عليه خطؤُه، والواعظُ متصنِّعٌ بوعظِهِ، والمتزهِّدُ منافقٌ أو مُراءٍ.

فأول عقوباتِهِم: إعراضُهم عن الحقِّ شُغْلاً بالخَلْق.

ومن خَفِيِّ عقوباتهم: سَلْبُ حلاوة المناجاة ولَذَّة التعبُّد.

إلَّا رجالٌ مُؤمنون ونساءٌ مؤمنات، يحفظُ الله بهم الأرضَ؛ بواطنُهم كظواهرهم بل أجلى، وسرائرُهم كعلانيتهم بل أحلى، وهممُهم عند الثُّرَيَّا بل أعلى، إن عُرِفوا تنكَّروا، وإن رئِيَتْ لهم كرامةٌ أنكروا؛ فالناس في غَفَلاتهم، وهم في قَطْعِ فَلاتِهِم[1]، تحبُّهم بِقاعُ الأرض، وتفرحُ بهم أفلاكُ السماء.

نسأل الله عزَّ وجلَّ التوفيق لاتِّباعهم، وأن يجعلَنا مِن أتباعِهِم[2].

---

(١) الفلاة: الصحراء، والمعنى أنهم مشغولون في سعيهم لأخراهم.

(٢) الظاهر أن المصنف رحمه الله يشير إلى ما يسمى بالأبدال أو الأغواث أو =

٧ ـ فصل

[في أن علو الهمة من كمال العقل]

من علامة كمالِ العقل علوُّ الهمة، والراضي بالدُّون دنيٌّ.

وَلَمْ أَرَ في عُيوبِ النَّـاسِ عَيْبًـا   كَنَقْصِ القـادِرينَ على التَّمـامِ

٨ ـ فصل

[في عظيم فضل الله ومنته على عباده]

سبحان من سبقتْ محبتُه لأحبابه، فمدحهم على ما وَهَبَ لهم[1]، واشترى منهم ما أعطاهُم[2]، وقدَّم المتأخرَ من أوصافهم لموضِعِ إيثارِهم؛ فباهى بِهِم في صومهم، وأحَبَّ خُلُوفَ أفواهِهِم[3].

= الأقطاب، والأحاديث الواردة في هذه المعاني ضعيفة كلها.

قال ابن القيم رحمه الله في «المنار المنيف» (١٣٦ / ٣٠٧): «أحاديث الأبدال والأقطاب والأغواث والنقباء والنجباء والأوتاد كلها باطلة على رسول الله ﷺ».

(١) يعني: أن الصفات التي امتدح الله سبحانه بها عباده الصالحين إنما هي من نعمه عليهم أصلاً؛ كما قال سبحانه: ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم بل الله يمُنُّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ [الحجرات: ١٧].

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾ [التوبة: ١١١].

(٣) روى: البخاري (٣٠ ـ كتاب الصوم، ٢ ـ باب فضل الصوم، ٤ / ١٠٣ / ١٨٩٤)، ومسلم (١٣ ـ كتاب الصيام، ٣٠ ـ باب فضل الصيام، ٢ / ٨٠٦ ـ ٨٠٧ / ١١٥١)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «الصيام جُنة؛ فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه؛ فليقل: إني صائم، والذي نفسي بيده؛ لخلوف فم الصّائم أطيب عند الله من ريح المسك؛ يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، الصيام لي وأنا أجزي به، والحسنة بعشر أمثالها».

يا لهـا من حالة مصونة! لا يقدِرُ عليها كلُّ طالب، ولا يبلغ كُنْهَ[١] وصفِها كلُّ خاطب.

٩ـ فصل

[في وجوب أخذ العدة للرحيل]

الواجبُ على العاقل أخذُ العُدَّة لرحيلِه؛ فإنه لا يعلمُ متى يَفْجَؤُهُ أمرُ ربِّه؟ ولا يدري متى يُسْتَدْعى؟

وإني رأيتُ خلقًا كثيرًا غرَّهم الشباب، ونَسُوا فَقْدَ الأقرانِ، وألهاهم طولُ الأمل.

وربما قال العالم المحض لنفسه: أشتغلُ بالعلم اليوم ثم أعمل به غدًا! فيتساهلُ في الزَّلَلِ بحجة الراحة، ويؤخِّر الأُهْبَةَ لتحقيق التوبةِ، ولا يتحاشى من غِيبة أو سماعِها، ومِن كَسْبِ شُبهة يأمل أن يمحُوهَا بالورع، وينسى أن الموت قد يَبْغَتُ.

فالعـاقـل مَن أعـطى كلَّ لحظةٍ حقَّها من الواجب عليه؛ فإنْ بَغَتَهُ الموتُ؛ رئي مستعدًّا، وإن نال الأملَ؛ ازداد خيرًا.

١٠ـ فصل

[وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم]

خطرت لي فكـرةٌ فيمـا يَجْري على كثيرٍ مِن العالم مِن المصائب الشديدة والبلايا العظيمة التي تتناهى إلى نهاية الصعوبة!

---

(١) الكُنه: الحقيقة.

فقلت: سبحـــان الله! إن الله أكـــرمُ الأكـــرمين، والكـرمُ يوجبُ المسامحةَ؛ فما وجه هٰذه المعاقبة؟!

فتفكَّرْتُ؟!

فرأيتُ كثيرًا من النـاس في وجـودِهم كالعَـدَم، لا يتصفَّحونَ أدلَّة الـوَحْـدانيَّةِ، ولا ينـظُرون في أوامر الله تعالى ونواهيه، بل يَجْرون على عاداتِـهِم كالبهـائم؛ فإن وافق الشـرعُ مرادهم، وإلَّا؛ فَمُعَـوَّلُهم على أغراضهم! وبعد حُصول الدينار لا يبالون؛ أمِنْ حلالٍ كان أم من حرام؟ وإن سَهُلت عليهم الصلاة؛ فعلوها، وإنِ لم تَسْهُل؛ تركوها! وفيهم مَن يبارِز بالذنوب العظيمة؛ مع نوع معرفة الناهي، وربما قويَتْ معرفة عالمٍ منهم وتفاقمتْ ذنوبُه!!

فعلمتُ أنَّ العقوباتِ ـ وإنْ عَظُمَتْ ـ دون إجرامهم[1].

فإذا وقعتْ عقـوبةٌ لِتُمَحِّصَ ذنبًا؛ صاح مستغيثُهم: تُرَى هٰذا بأيِّ ذنبٍ؟! وينسى ما قد كان مما تتزلزل الأرضُ لبعضِهِ!

وقد يُهان الشيخ في كِبَرِهِ حتى ترحَمَهُ القلوب، ولا يدري أنَّ ذٰلك لإهماله حقَّ الله تعالى في شبابه!

فمتى رأيت مُعاقَبًا؛ فاعلم أنه لذنوبٍ[1].

---

(١) وقد جاءت كثير من آيات الكتاب الكريم بهذا المعنى؛ كقوله تعالى: ﴿أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هٰذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وغيرها، وإنما تكون هٰذه المصائب تكفيرًا لهٰذه الذنوب، وتذكرة للذين آمنـوا ليعـودوا إلى ربهم وينيبـوا إليه، ورفعًا لدرجاتهم؛ فإن تنبهوا لذٰلك؛ انقلبت المصيبة في حقهم رحمة من الله.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

١١ـ فصل

[بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة]

تأملتُ التَّحاسدَ بين العلماء، فرأيتُ منشأه من حبِّ الدنيا؛ فإن علماء الآخرة يتوادُّون ولا يتحاسَدُون:

كما قال عز وجل: ﴿ولا يَجِدونَ في صُدورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتوا﴾ [الحشر: ٩].

وقال تعالى: ﴿والَّذينَ جاؤوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقولونَ رَبَّنا اغْفِرْ لنا ولإِخْوانِنا الَّذينَ سَبَقونا بالإيمانِ ولا تَجْعَلْ في قُلوبِنا غِلًّا للَّذينَ آمنوا﴾ [الحشر: ١٠].

وقد كان أبو الدرداء يدعو كلَّ ليلة لجماعةٍ من إخوانِهِ[١].

وقال الإمام أحمد بن حنبلٍ لولدِ الشافعيِّ: أبوكَ من السِّتَّةِ الذين أدعو لهم كلَّ ليلةٍ وقتَ السَّحَرِ[٢].

والأمرُ الفارق بين الفئتين: أنَّ علماء الدُّنيا ينظُرون إلى الرِّياسة فيها ويحبُّونَ كَثْرَةَ الجمع والثَّناء، وعلماء الآخرة بِمَعْزِلٍ من إيثار ذلك، وقد كانوا يتخوَّفونَه وَيَرْحَمونَ مَنْ بُلِيَ به.

وكان النخعيُّ[٣] لا يستندُ إلى ساريةٍ.

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢ / ٣٥١).

(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٠ / ٤٥).

(٣) الإمام، الحافظ، فقيه العراق، أبو عمران، إبراهيم بن يزيد النخعي اليماني ثم الكوفي، صيرفي الحديث، وأحد الأئمة الأعلام المجتهدين الزهاد أصحاب السنة، توفي =

وقال علقمةُ[١]: أكرهُ أنْ يوطأ عَقِبي ويقالَ: علقمةُ.

وكان بعضُهم إذا جَلَسَ إليه أكثرُ من أربعةٍ؛ قام عنهم.

وكانوا يتدافَعونَ الفتوى[٢] ويحبُّون الخمولَ[٣].

مَثَلُ القوم كَمَثَلِ راكب البحر وقد خَبَّ[٤]؛ فعندَه شُغْلٌ إلى أن يوقنَ بالنجاة.

وإنَّما كان بعضُهم يدعو لبعضٍ ويستفيدُ منه؛ لأنهم رَكْبٌ تصاحَبوا فَتَوادُّوا، فالأيّام والليالي مراحلُهم إلى سفرِ الجنةِ.

١٢ـ فصل

[في أن تصفية الأحوال بتصفية الأعمال]

مَنْ أحبَّ تصفيةَ الأحوال[٥]؛ فليجتهدْ في تصفيةِ الأعمال.

قال الله عز وجل: ﴿وأَنْ لَوِ اسْتَقاموا على الطَّريقَةِ لأَسْقَيْناهُمْ ماءً

= سنة ٩٦ هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٤ / ٥٢٠)، و«تهذيب التهذيب» (١ / ١٧٧). وانظر الخبر في: «طبقات ابن سعد» (٦ / ٤٩٤)، و«الحلية» (٤ / ٢١٩).

(١) فقيه الكوفة وعالمها ومقرئها، الإمام، الحافظ، المجود، أبو شبل، علقمة بن قيس النخعي الكوفي، ولد في أيام الرسالة، وعداده في المخضرمين، ولازم ابن مسعود، وتوفي سنة ٦١ أو ٦٢ أو ٦٥هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٤ / ٥٣)، و«تهذيب التهذيب» (٧ / ٢٧٦). وانظر الخبر في: «الحلية» (٢ / ٩٩).

(٢) أي: يدفعها كل منهم إلى صاحبه تقوى وورعًا.

(٣) يعني: خمول الذكر والبعد عن الشهرة.

(٤) خبَّ البحر: اضطرب وماج.

(٥) يعني: أحوال القلوب، وهو مصطلح يكثر الصوفية من استعماله.

غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

وقال النبيُّ ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل: «لو أن عبادي أطاعوني؛ لسقيتُهُم المطرَ بالليل، وأطلعتُ عليهمُ الشمسَ بالنهار، ولم أُسْمِعْهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ»[1].

وقال ﷺ: «البِرُّ لا يَبْلى، والإثمُ لا يُنْسى، والدَّيَّان لا ينام، وكما تَدِينُ تُدان»[2].

وقال أبو سليمان الداراني[3]: مَن صَفَّى؛ صُفِّيَ له، ومَنْ كَدَّرَ؛ كُدِّرَ

(١) (ضعيف). رواه: الطيالسي (٢٥٨٦)، وأحمد (٢ / ٣٥٩)، والحاكم (٤ / ٢٥٦)؛ من طريق صدقة بن موسى، ثنا محمد بن واسع، عن شتير بن نهار، عن أبي هريرة مرفوعًا.

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وتعقبه الذهبي فقال: «صدقة ضعفوه». وشتير (ويقال فيه: سمير): نكرة؛ كما في ترجمته في «الميزان». فالسند ضعيف. والحديث ضعفه الألباني في «الضعيفة» (٢ / ٢٨٧ / ٨٨٣).

(٢) (ضعيف). رواه: عبد الرزاق في «المصنف» (١١ / ١٧٨ / ٢٠٢٦٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ١٠٠)، وابن الجوزي في «ذم الهوى» (٢١٠)؛ من طريق معمر عن أيوب عن أبي قلابة مرفوعًا. وهذا سند ضعيف لإرساله.

ورواه: أحمد في «الزهد» (ص ١٧٦) موقوفًا على أبي الدرداء من الطريق نفسها.

ورواه: ابن أبي شيبة (٧ / ١٢٧ / ٣٤٥٦٩)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (١ / ٢١٣)؛ موقوفًا أيضًا.

فهذه علة أخرى للحديث؛ فهو ضعيف، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤ / ٧٧ / ١٥٧٦).

(٣) الإمام، زاهد العصر، عبد الرحمن بن أحمد الداراني المذحجي، من أهل داريا بغوطة دمشق، ولد في حدود ١٤٠هـ، وتوفي سنة ٢٠٥هـ، وله أخبار في الزهد. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (١٠ / ٢٤٨)، و«سير أعلام النبلاء» (١٠ / ١٨٢).

عليه، ومنْ أحسن في ليلهِ؛ كُفِيَ[١] في نهـاره، ومن أحسن في نهـاره؛ كُفِيَ[١] في ليله[٢].

وكان شيخٌ يدورُ في المجالس ويقولُ: مَنْ سَرَّهُ أن تدومَ له العافيةُ؛ فليتَّقِ اللهَ عزَّ وجلَّ.

وكان الفُضيل بن عِياض[٣] يقولُ: إنِّي لأعصي الله فأعرفُ ذٰلك في خُلُق دابَّتي وجارِيَتي.

واعلم ـ وفَّقَك الله ـ أنه لا يُحِسُّ بضربةٍ مُبَنَّجٌ[٤]، وإنما يَعْرِفُ الزيادةَ من النُّقصانِ المحاسِبُ لنفسه.

ومتى رأيتَ تَكْديرًا في حال؛ فاذكرْ نِعْمَةً ما شُكِرَتْ أو زَلَّةً قد فُعِلَتْ.

واحذر مِنْ نِفار النِّعم ومفاجأة النِّقَم، ولا تَغْتَرِرْ بِسَعَةِ بساط الحِلْم؛ فربَّما عَجِلَ انقباضُه.

وقـد قال الله عز وجل: **﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حتَّى يُغَيِّروا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾** [الرعد: ١١].

---

(١) في الأصول: «كوفىء»، والتصحيح من «الحلية».

(٢) انظر الخبر في: «حلية الأولياء» (٩ / ٢٥٥).

(٣) الإمام، القدوة، الثبت، أبو علي التميمي الخراساني، ولد حوالي ١٠٥هـ، وجاور بحرم الله حتى توفي في حدود ١٨٧هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٨ / ٤٢١)، و«التهذيب» (٨ / ٢٩٤). وانظر الخبر في: «الحلية» (٨ / ١٠٩).

(٤) البِنْج من العربي الفصيح، وهو نبت مُسْبِتٌ (منوم) مسكن للأوجاع مخبط للعقل.

وكان أبو علي الرُّوذْبَاريُّ[1] يقول: من الاغترار أن تسيءَ، فَيُحْسِنَ إليك، فَتَتْرُكَ التوبةَ توهُّمًا أنك تُسامَحُ في الهفوات.

١٣ـ فصل

[في وجوب التسليم بحكمة الخالق سواء أدركها العقل أم لا]

تفكَّرْتُ يومًا في التكليف، فرأيته ينقسمُ إلى سهلٍ وصعبٍ:

فأما السَّهْلُ؛ فهو أعمالُ الجوارح؛ إلَّا أن منه ما هو أصعبُ من بعضٍ؛ فالوضوءُ والصلاةُ أسهلُ من الصوم، والصومُ ربما كان عند قوم أسهل من الزكاة.

وأما الصعب؛ فيتفاوتُ؛ فبعضُها أصعبُ من بعض:

فمن المستصعب: النظُر والاستدلالُ الموصلان إلى معرفة الخالق؛ فهٰذا صعبٌ عند مَن غَلَبَتْ عليه أمور الحس، سهلٌ عند أهل العقل.

ومن المستصعب: غلبةُ الهوى وقهرُ النفوس وكَفُّ أكُفِّ الطباع عن التصرُّف فيما يؤثره، وكل هٰذا يَسْهُلُ على العاقل النظرُ في ثوابهِ ورجاءُ عاقبتهِ، وإنْ شَقَّ عاجِلًا.

وإنما أصعب التكاليف وأعجبُها: أنه قد ثبتتْ حكمةُ الخالق عند العقل:

---

(١) محمد بن أحمد بن القاسم، فاضل، فصيح اللسان، نجيح البيان، من كبار الصوفية، بغدادي، توفي سنة ٣٢٢هـ. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (١ / ٣٢٩)، و«اللباب» (١ / ٤٨٠). وانظر الخبر في: «حلية الأولياء» (١٠ / ٣٥٧).

ثم نراه يُفْقِرُ المتشاغلَ بالعلمِ المقبلَ على العبادة حتى يَعَضَّهُ الفقرُ بناجِذَيْه فيذِلَّ للجاهل في طلب القوت، وَيُغْني الفاسقَ مع الجهل حتى تَفيضَ الدُّنيا عليه.

ثم نراه ينشىءُ الأجسام ويُحْكِمُها، ثم يَنْقُضُ بناء الشباب في مبدإ أمره وعند استكمال بنائه؛ فإذا به قد عاد هشيمًا.

ثم نراه يؤلمُ الأطفالَ حتى يرحَمَهُم كلُّ طبعٍ، ثم يُقال له: إياك أن تشكَّ في أنه أرحم الراحمين.

ثم يسمعُ بإرسال موسى إلى فرعون، ويُقال له: اعتقدْ أنَّ الله تعالى أضلَّ فرعون، واعلمْ أنَّه ما كان لآدَمَ بدٌّ من أكل الشجرة؛ وقد وُبِّخ بقوله: ﴿وعصى آدَمُ رَبَّهُ﴾ [طه: ١٢١].

وفي مثل هٰذه الأشياء تحيَّرَ خلقٌ حَتَّى خَرَجوا إلى الكُفْرِ والتَّكْذيب.

ولو فتَّشوا على سِرِّ هٰذه الأشياء؛ لعلموا أن تسليمَ هٰذه الأمور تكليفُ العقل لِيُذْعِنَ.

وهٰذا أصلٌ؛ إذا فُهِمَ؛ حَصَلَ منه السلامةُ والتسليم.

نسأل الله عز وجل أنْ يَكْشِفَ لنا الغوامض التي حَيَّرَتْ مَنْ ضَلَّ؛ إنه قريب مجيب[1].

---

(١) ولا يخلو شيء مما ذكره المصنف رحمه الله من حكمة ـ بل حكم ـ لله عظيمة، والمتأمل والمتفكر سيدرك من هٰذه الحكم أشياء كثيرة، ولن يحصيها.

وحسب العاقل في هٰذا المقام ـ قبل التسليم والإذعان ـ أن يعلم أن الدنيا ليست دار جزاء وإنما دار بلاء وابتلاء.

١٤ـ فصل
[في قيمة الوقت]

ينبغي للإنسان أن يعرفَ شَرَفَ زمانه وقَدْرَ وقتِه؛ فلا يُضيعَ منه لحظةً في غير قُرْبة، ويقدِّمَ الأفضلَ فالأفضلَ من القول والعمل.

ولتكنْ نيتهُ في الخير قائمةً مِن غير فُتورٍ بما لا يَعْجِزُ عنه البدن من العمل؛ كما جاء في الحديث: «نِيَّةُ المؤمن خيرٌ من عمله»(١).

وقد كان جماعةٌ من السلف يبادرون اللحظاتِ:

فنُقِلَ عن عامر بن عبد قيس(٢) أن رجلاً قال له: كلِّمْني! فقال له:

---

(١) (ضعيف). وقد ورد من حديث عدة من الصحابة رضي الله عنهم:

فراوه ابن عبدالبر في «التمهيد» (١٢ / ٢٦٥) من حديث علي مرفوعًا.

ورواه الطبراني (٦ / ٢٢٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣ / ٢٥٥)، والخطيب في «التاريخ» (٩ / ٢٣٧)؛ من حديث سهل بن سعد مرفوعًا.

ورواه القضاعي في «مسند الشهاب» (١ / ١١٩ / ١٤٨) من حديث النواس بن سمعان مرفوعًا.

ورواه: البيهقي في «الشعب»، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١ / ١١٩ / ١٤٧)؛ من حديث أنس مرفوعًا.

وأسانيدها متراوحة بين الضعيف والضعيف جدًّا، والحديث ضعفه: أبو نعيم، والحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٤ / ٣٦٦)، والألباني في «ضعيف الجامع» (رقم ٥٩٧٦ ـ ٥٩٧٧).

(٢) التابعي، القدوة، الزاهد، أبو عبد الله، العنبري، البصري، توفي في حدود ٥٥هـ في زمن معاوية رضي الله عنه. انظر ترجمته في: «الحلية» (٢ / ٨٧)، و«سير أعلام النبلاء» (٤ / ١٥).

أمسكِ الشمس!

وقال ابنُ ثابتٍ البُنانيِّ[1]: ذهبتُ ألقِّنُ أبي، فقال: يا بني! دَعْني؛ فإني في وِردي السادس.

ودخلوا على بعض السلف عند موته وهو يصلي، فقيل له؟ فقال: الآن تُطْوى صحيفتي.

فإذا علمَ الإنسانُ ـ وإنْ بالغَ في الجِدِّ ـ بأنَّ الموتَ يقطعهُ عن العمل؛ عَمِلَ في حياته ما يدومُ له أجرُه بعد موته: فإنْ كانَ له شيءٌ من الدُّنيا؛ وقف وقفًا، وغَرَسَ غرسًا، وأجرى نَهَرًا، ويسعى في تحصيل ذُرِّيَّةٍ تَذْكُرُ الله بعدَه فيكونُ الأجرُ له، أو أن يصنِّفَ كتابًا في العلم؛ فإن تصنيفَ العالم ولدُه المخلَّدُ، وأن يكونَ عاملاً بالخير عالمًا فيه، فَيُنْقَلَ من فِعْله ما يَقْتَدي الغير به؛ فذلك الذي لم يمتْ.

قد مات قومٌ وهم في الناس أحياءُ

١٥ ـ فصل

[في حقيقة الزهد]

« رأيتُ مِن أعظم حِيَل الشيطان ومَكْره أنْ يُحيطَ أربابَ الأموال بالآمالِ والتَّشاغل باللَّذَّاتِ القاطعة عن الآخرة وأعمالها! »

---

(١) الإمـام، القدوة، شيخ الإسلام، أبو محمد، ثابت بن أسلم البناني مولاهم البصري، من أئمة العلم والعمل، ولد في خلافة معاوية رضي الله عنه، وتوفي سنة ١٢٧هـ عن ست وثمـانين سنـة. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٥ / ٢٢٠)، و«تهذيب التهذيب» (٢ / ٢). وانظر الخبر في «حلية الأولياء» (٢ / ٣٢٢).

فإذا علَّقَهم بالمال تحريضًا على جمعه وحثًّا على تحصيله؛ أمرهم بحراستِهِ بُخلًا به؛ فذٰلك مِن متينِ حِيَلِهِ وَقَوِيِّ مكره.

ثم دَفَنَ في هٰذا الأمر من دقائق الحيل الخفيَّةِ أنْ خَوَّفَ من جمعه المؤمنين؛ فَنَفَرَ طالِبُ الآخرة منه، وبادَرَ التائبُ يُخْرِجُ ما في يده.

ولا يزال الشيطانُ يُحَرِّضُه على الزُّهد ويأمُرُه بالتَّرْك ويخوِّفُه من طُرُقات الكَسْب؛ إظهارًا لنُصْحِهِ وحفظِ دينه، وفي خفايا ذٰلك عجائبُ من مَكْرِهِ!

وربما تكلَّمَ الشيطانُ على لسان بعض المشايخ الذين يَقْتَدي بهمُ التائب، فيقول له: اخْرُجْ من مالك! وادخلْ في زمرة الزُّهاد! ومتى كان لك غداءٌ أو عشاءٌ؛ فلستَ من أهل الزُّهد، ولا تنال مراتبَ العزم . . . وربما كرَّرَ عليه الأحاديثَ البعيدةَ عن الصحة والواردة على سبب ولمعنى.

فإذا أخرج ما في يده، وتعطَّلَ عن مكاسبِهِ؛ عاد يعلِّقُ طَمَعَهُ بصلة الإخوان، أو يحسِّنُ عنده صحبةَ السلطان؛ لأنه لا يقوى على طريق الزُّهد والترك إلَّا أيامًا، ثم يعود الطبعُ فيتقاضى مطلوباتِهِ، فيقعُ في أقبح مما فرَّ منه، ويبذل أوَّلَ السلع في التحصيل دينَه وعِرْضَه، ويصيرُ مُتَمَنْدَلًا به، ويقف في مقام اليد السُّفلى[1].

---

(١) يعني: أنه يضطر لإجابة السلطان بما يرغب به من الفتاوى والرخص، فيصبح وسيلة له لتسويغ أعماله وإلباسها ثوب الشرع؛ كما المنديل الذي تنظف به الأيدي وتمسح به الأقذار، ويأخذ منه المال فيصبح في مقام اليد السفلى الآخذة.

وقد روى: البخاري (٢٤ ـ كتاب الزكاة، ١٨ ـ باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى، ٣ / ٢٩٤ / ١٤٢٩)، ومسلم (١٣ ـ كتاب الزكاة، ٣١ ـ باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة =

ولو أنه نظر في سِيَر الرجال ونبلائهم، وتأمل صحاح الأحاديث عن رؤسائِهم؛ لعلم أنَّ الخليل عليه الصلاة والسلام كانَ كثير المال حتى ضاقت بلدته بمواشيه(١)، وكذلك لوطٌ عليه الصلاة والسلام(٢)، وكثيرٌ من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والجمُّ الغفير من الصحابة.

وإنما صبروا عند العُدْم، ولم يمتنعوا من كَسْبِ ما يُصْلِحُهم، ولا من تناول المباح عند الوجودِ.

وكان أبو بكرٍ رضي الله عنه يَخْرُجُ للتجارة والرسولُ ﷺ حيٌّ.

وكان أكثرُهم يُخْرِجُ فاضلَ ما يأخذُ من بيت المال، ويَسْلَمُ من ذُلِّ الحاجة إلى الإخوان.

وقد كان ابن عمر لا يردُّ شيئًا ولا يسأل(٣).

= الصحيح الشحيح، ٢ / ٧١٧ / ١٠٣٣)؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا المنفقة، والسفلى السائلة».

(١) وهذا ظاهر مما جاء في القرآن الكريم في قصة ذبحه العجلَ لأضيافه وهو لا يعرفهم، وقد ذكر أهل التواريخ ما يؤيد هذا؛ فانظر قصة إبراهيم عليه السلام في «تاريخ الطبري» و«البداية والنهاية».

(٢) ذكر أهل التواريخ أنه كان للوط عليه السلام نعم وأموال، وأن أمواله كانت عطية من عمه إبراهيم عليه السلام. وانظر: «البداية والنهاية» (ذكر هجرة الخليل إلى بلاد الشام).

(٣) وكان هذا دأب أبيه قبله رضي الله عنهما، ووصية النبي ﷺ له؛ فقد روى البخاري (٩٣ ـ كتاب الأحكام، ١٧ ـ باب رزق الحاكم والعاملين عليها، ١٣ / ١٥٠ / ٧١٦٤)، ومسلم (١٢ ـ كتاب الزكاة، ٣٧ ـ باب إباحة الأخذ لمن أعطي من غير مسألة ولا إشراف، ٢ / ٧٢٣ / ١٠٤٥)؛ من حديث عبد الله بن عمر عن أبيه؛ قال: قد كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء، فأقول: أعطه أفقر إليه مني! حتى أعطاني مرة مالاً، فقلت: أعطه =

وإني تأملتُ على أكثرِ أهل الدين والعلم هٰذه الحالَ، فوجدتُ العلمَ شَغَلَهم عن المكاسب في بداياتهم، فلما احتاجوا إلى قِوامِ نفوسهم؛ ذَلُّوا، وهم أحقُّ بالعز.

وقد كانوا قديمًا يكفيهمْ بيتُ المالِ فضلاتِ الإخوان، فلما عُدِمَتْ في هٰذا الأوان؛ لم يقدِرْ متدينٌ على شيءٍ إلا ببذل شيء من دينه، وليته قَدَرَ، فربما تَلِفَ الدينُ ولم يَحْصُلْ له شيء.

فالواجب على العاقل أن يحفظَ ما معه، وأن يجتهدَ في الكَسْب ليربحَ[١] مداراة ظالم أو مداهنةَ جاهل، ولا يلتفتَ إلى تُرَّهات المتصوِّفَةِ الذين يَدَّعُون في الفقر ما يَدَّعون؛ فما الفقرُ إلَّا مرضُ العَجَزَة[٢]، وللصابر على الفَقْرِ ثوابُ الصابر على المرض، اللهم! إلَّا أن يكون جبانًا عن التصرُّف مقتنعًا بالكَفاف؛ فليس ذٰلك مِن مراتب الأبطال، بل هو من مقامات الجُبَناءِ الزُّهَّاد[٣]، وأما الكاسبُ ليكونَ المعطِيَ لا المعطى والمتصدِّقَ لا المتصدَّقَ عليه؛ فهي من مراتب الشُّجعان الفضلاء.

ومَن تأمَّلَ هٰذا؛ عَلِمَ شرفَ الغنى ومخاطرةَ الفَقْر.

= أفقر إليه مني! فقال رسول الله ﷺ: «خذه، وما جاءك من هٰذا المال وأنت غير مشرفٍ ولا سائلٍ؛ فخذه، وما لا؛ فلا تتبعه نفسك».

(١) ليربح نفسه فلا يضطر إلى مداراة أو مداهنة.

(٢) ولذٰلك صح عنه ﷺ الاستعاذة منه في كثير من النصوص، ولا محل للإطالة بسردها هنا.

(٣) لو قال المصنف رحمه الله: الجبناء المتزهدون؛ لكان أولى؛ فليس بين الزهد الحقيقي والجبن أدنى صلة.

١٦ـ فصل

[لا تأس على ما فاتك من الدنيا]

تأمَّلْتُ أحوال الفُضلاء، فوجدتُهم في الأغلب قد بُخِسُوا من حُظوظ الدنيا، ورأيت الدُّنيا غالبًا في أيدي أهل النَّقائص.

فنظرت في الفضلاء؛ فإذا هم يتأسَّفونَ على ما فاتهم مما ناله أولو النَّقْص، وربما تَقَطَّعَ بعضُهم أسفًا على ذٰلك!

فخاطبت بعضَ المتأسِّفين، فقلتُ له: ويحك! تدبَّرْ أمرَك؛ فإنك غالطٌ من وجوه:

أحدُها: أنه إنْ كانت لك همةٌ في طلب الدنيا؛ فاجتهد في طَلَبِها؛ تربحِ التأسفَ على فَوْتها؛ فإنَّ قعودَك متأسِّفًا على ما ناله غيرُك مع قُصورِ اجتهادِك غايةُ العجز.

والثاني: أنَّ الدُّنيا إنما تُراد لِتُعْبَرَ لا لِتُعْمَرَ، وهٰذا هو الذي يدلُّك عليه علمُك ويبلُغُه فَهْمُك، وما يناله أهل النَّقْصِ من فضولها يؤذي أبدانَهم وأديانَهم. فإذا عرفتَ ذٰلك، ثُم تأسَّفت على فَقْدِ ما فَقْدُهُ أصْلَحُ لك؛ كان تأسُّفُك عقوبةً لتأسِّفِك على ما تعلمُ المصلحةَ في بُعده؛ فاقنعْ بذٰلك عذابًا عاجلاً إن سلمتَ من العذاب الآجل.

والثالث: أنك قد علمتَ بَخْسَ حظِّ الآدميِّ في الجملة من مطاعم الدنيا ولَذَّاتها بالإضافة إلى الحيوان البهيم؛ لأنه يَنالُ ذٰلك أكثرَ مِقْدارًا مع أمنٍ، وأنت تنالُه مع خوفٍ وقلةِ مقدارٍ.

فإذا ضُوعِفَ حظُّك من ذٰلك؛ كان ذٰلك لاحقًا بالحيوان البهيم؛ من

جهة أنه يشغَلُه ذٰلك عن تحصيل الفضائل، وتخفيفُ المُؤَنِ يَحُثُّ صاحبه على نيل المراتب.

فإذا آثرتَ الفضولَ مع قلةِ الفضولِ؛ عُدْتَ على ما عَلِمْتَ بالإزراءِ، فَشِنْتَ علمَك، ودللتَ على اختلاطِ رأيِكَ[1].

١٧ـ فصل
[في أسباب مواقعة الناس للمحظورات]

تأملتُ إقدام العلماء على شَهَوات النفس المنهيِّ عنها، فرأيتُها مَرْتَبَةً تزاحمُ الكفرَ لولا تلوُّحُ[2] معنى هو أنَّ الناس عند مواقعة المحظور ينقسمون:

فمنهم جاهلٌ بالمحظور أنَّه محظورٌ؛ فهٰذا له نوعُ عذر.

ومنهم مَن يَظُنُّ المحظورَ مكروهًا لا محرَّمًا؛ فهٰذا قريبٌ من الأول، وربَّما دخل في هٰذا القسم آدمُ ﷺ.

ومنهم مَن يتأوَّل فيَغْلَطُ؛ كما يُقال: إن آدم عليه الصلاة والسلام نُهِيَ عن شجرة بعينها، فأكل من جِنْسها لا من عينها!

ومنهم مَن يعلمُ التَّحْريمَ؛ غير أنَّ غَلَبات الشهوة أنسته تَذَكُّر ذاك، فشغله ما رأى عما يعلمُ.

---

(١) يعني: إذا رغبت في الاستزادة من حظوظ الدنيا، مع أن هٰذه الزيادة حقيرة؛ فقد انتقصت نفسك وأظهرت تناقضك.

(٢) لاح وتلوَّح: ظهر وبدا.

ولهٰذا لا يذكرُ السارقُ القطعَ، بل يغيب بكلِّيته في نَيْل الحظِّ، ولا يذكر راكبُ الفاحشة الفضيحةَ ولا الحدَّ؛ لأنَّ ما يرى يُذهله عما يعلم.

ومنهم مَن يعلمُ الحَظْرَ ويذكرُه؛ [غير أنَّه يغترُّ بالحِلمِ والعفوِ.

وهٰذا وإن كان صحيحًا][1]؛ غير أنَّ الأخذ بالحزم أولى بالعاقل؛ كيف وقد علم أنَّ هٰذا المَلِكَ الحكيم قَطَعَ اليد في رُبُع دينار، وهَدَمَ بناء الجسم المُحْكَم بالرجم بالحجارة لالتذاذ ساعة، وخسف، ومسخ، وأغرق...؟!

١٨ـ فصل

[ميزان العدل لا يحابي، وسنة الله في خلقه لا تتخلف]

مَن تأمَّلَ أفعال الباريء سبحانه؛ رآها على قانونِ العدلِ، وشاهَدَ الجزاءَ مُرْصَدًا للمُجازى، ولو بعد حينٍ؛ فلا ينبغي أن يَغْتَرَّ مُسامَحٌ؛ فالجزاءُ قد يتأخرُ.

ومن أقبح الذُّنوب التي قد أُعِدَّ لها الجزاءُ العظيم الإصرارُ على الذنب، ثم يصانِعُ صاحبُه باستغفارٍ وصلاةٍ وتعبُّد، وعنده أن المصانعةَ تنفعُ[2]!

وأعظمُ الخلق اغترارًا مَنْ أتى ما يكرهُهُ الله، وطلبَ منه ما يحبُّه هو؛ كما روي في الحديث: «والعاجِزُ مَن أَتْبَعَ نفسَه هواها وتمنَّى على الله

---

(١) زيادة من هامش النسخة الخطية؛ كما في بعض المطبوعات.

(٢) يعني: أنه يبقى مقيمًا على المعصية مصرًا عليها مع صلاته وتعبده؛ ظانًا أنه ينجو بذلك من عقوبة هٰذه المعصية.

الأماني»[١].

ومما ينبغي للعاقل أن يترصَّدَ وقوعَ الجزاء:

فإنَّ ابن سِيرين[٢] قال: عَيَّرْتُ رجلًا فقلتُ: يا مفلسُ! فأفلستُ بعد أربعين سنة.

وقال ابن الجلَّاء[٣]: رآني شيخٌ لي وأنا أنظرُ إلى أمردَ! فقال: ما هٰذا؟! لَتَجِدَنَّ غِبَّها. فَنُسِّيتُ القرآن بعد أربعين سنة.

وبالضدِّ من هٰذا؛ كل مَن عَمِلَ خيرًا أو صَحَّحَ نية؛ فلينتظرْ جزاءها الحسنَ، وإنِ امتدَّت المدةُ.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

---

(١) (ضعيف). جزء من حديث رواه: أحمد (٤ / ١٢٤)، وابن ماجه (٣٧ ـ كتاب، ٣١ ـ باب ذكر الموت والاستعداد له، ٢ / ١٤٢٣ / ٤٢٦٠)، والترمذي (٣٨ ـ كتاب صفة القيامة، ٢٥ ـ باب، ٤ / ٦٣٨ / ٢٤٥٩)، والحاكم (١ / ٥٧)؛ من طريق أبي بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب، عن شداد بن أوس؛ مرفوعًا.

قال الترمذي: «هٰذا حديث حسن». وصححه الحاكم على شرط البخاري، فتعقبه الذهبي فقال: «لا والله؛ أبو بكر واه»، وضعفه الألباني.

(٢) شيخ الإسلام، أبو بكر، محمد، الأنصاري، البصري، مولى أنس بن مالك رضي الله عنه. ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه، وتوفي سنة ١١٠هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٤ / ٦٠٦)، و«تهذيب التهذيب» (٩ / ٢١٤). وانظر الخبر في: «الحلية» (٢ / ٢٧١)، و«السير» (٤ / ٦١٦).

(٣) هو أحمد (وقيل: محمد) بن يحيى، أبو عبدالله، صحب أبا تراب النخشبي وذا النون المصري، وتوفي سنة ٣٠٦هـ. انظر ترجمته وخبره في: «تاريخ بغداد» (٥ / ٢١٣)، و«سير النبلاء» (١٤ / ٢٥١)، و«صفة الصفوة» (٢ / ٤٤٣). وغِبُّها: عاقبتها.

المُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وقال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عن محاسنِ امرأةٍ؛ أثابه الله إيمانًا يَجِدُ حلاوتَهُ في قلبه»[1].

فليعلمِ العاقلُ أنَّ ميزان العدل لا يُحابي.

١٩ـ فصل

[في تلبيس إبليس على الصوفية]

تأملتُ أحوال الصوفيَّةِ والزُّهَّاد[2]، فرأيتُ أكثرها منحرفًا عن الشريعة؛ بين جهلٍ بالشرع، وابتداعٍ بالرأي؛ يستدلُّون بآياتٍ لا يفهمون معناها،

(١) (ضعيف جدًّا). رواه: الحاكم (٤ / ٣١٣)، والقضاعي في «الشهاب» (رقم ٢٩٢)؛ من طريق إسحاق بن عبد الواحد القرشي، ثنا هشيم، عن عبد الرحمٰن بن إسحاق، عن محارب بن دثار، عن صلة بن زفر، عن حذيفة... فذكره قريبًا منه مرفوعًا.

وصححه الحاكم، فتعقبه الذهبي فقال: وفيه «إسحاق بن عبد الواحد القرشي واه، وعبد الرحمٰن هو الواسطي ضعفوه». وأيضًا هشيم مدلس وقد عنعنه؛ فالسند ضعيف جدًّا.

ورواه الطبراني أيضًا (١٠٣٦٢) بنحوه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه؛ كما ذكر المنذري في «الترغيب» (٢ / ٦٥١ / ٢٨٣٨) والهيثمي في «المجمع» (٨ / ٦٦) وضعفاه بعبد الرحمٰن الواسطي نفسه، فكأنه اضطرب فيه، فذكره تارة عن حذيفة وتارة عن ابن مسعود. وهٰذه علة رابعة للحديث السابق.

ورواه أحمد (٥ / ٢٦٤)، والطبراني في «الكبير» (٧٨٤٢)؛ من حديث أبي أمامة بهٰذا اللفظ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨ / ٦٦): «رواه [أحمد و] الطبراني، وفيه علي بن يزيد الألهاني، وهو متروك». فالسند ضعيف جدًّا.

وعليه؛ فلا تقوم هٰذه الشواهد ببعضها لشدة ضعفها، ويبقى الحديث على ضعفه الشديد. وانظر: «الضعيفة» (٣ / ١٧٧ / ١٠٦٥).

(٢) هناك فارق شاسع بين الزهد والتصوف؛ فلا ينبغي الخلط بينهما؛ فالصوفية =

وبأحاديثَ لها أسبابٌ، وجمهورُها لا يَثْبُتُ.

فمِن ذٰلك أنَّهم سمعوا في القرآن العزيز: ﴿وما الحياةُ الدُّنيا إلَّا متاعُ الغُرورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿أنَّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠]، ثم سمعوا في الحديث: «لَلدُّنيا أهونُ على الله من شاةٍ ميتةٍ على أهلها»[1]؛ فبالغوا في هَجْرِها من غير بحثٍ عن حقيقتها! وذٰلك أنه ما لم يُعْرَف حقيقةُ الشيء؛ فلا يجوز أن يُمْدَحَ ولا أن يُذَمَّ.

فإذا بحثنا عن الدُّنيا؛ رأينا هٰذه الأرض البسيطة التي جُعِلَتْ قرارًا للخلق؛ تَخْرُجُ منها أقواتُهم، ويُدْفَنُ فيها أمواتُهم. ومثل هٰذا لا يذمُّ لموضع المصلحة فيه. ورأينا ما عليها من ماء وزرع وحيوان؛ كلُّه لمصالح الآدميِّ، وفيه حفظٌ لسبب بقائه، ورأينا بقاءَ الآدميِّ سببًا لمعرفةِ ربه وطاعتهِ إيَّاه وخدمتِهِ[2]. وما كان سببًا لبقاء العارف العابد يُمْدَحُ ولا يُذَمُّ.

= مذهب فكري ومنهج عقدي ومسلكي انحرف أكثر أهله عن الجادة في أمور الشرع، وأما الزهد؛ فهو التقلل من فضول الدنيا على منهج الأنبياء والصحابة وصالحي أهل العلم.

(١) رواه مسلم (٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق، ٤ / ٢٢٧٢ / ٢٩٥٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) من غير المستحسن استخدام لفظ (الخدمة) في وصف الصلة بين العبد وربه، وإن كان له تأويل في الجملة، وإن كان استخدمه بعض أهل العلم، ومنهم ابن الجوزي رحمه الله، وذٰلك لأنه لفظ ليس له ما يدعمه عقلاً ولا شرعًا:

فأما في العقل؛ فلأن الخدمة هي قضاء لحوائج المخدوم وقيام بأموره، مهما كانت مرتبة هٰذا المخدوم، وسواء أكانت الخدمة لقاء أجر أو بدونه، ومعلوم أن الله غني عن عباده وعن طاعاتهم، ولا حاجة له عندهم ولا فيهم أصلاً حتى يقضوها له ويخدموه فيها؛ تعالى الله عن ذٰلك علوًّا كبيرًا.

وأما في الشرع؛ فلأن الله عز وجل أبدلنا ما هو خير منه، ألا وهو (العبادة) =

فبان لنا أنَّ الذمَّ إنما هو لأفعالِ الجاهلِ أو العاصي في الدنيا.

فإنَّه إذا اقتنى المال المباح، وأدَّى زكاتَه؛ لم يُلَمْ:

فقد عُلِمَ ما خلَّفَ الزبيرُ وابن عوف وغيرُهما(١).

وبلغتْ صدقةُ عليٍّ رضي الله عنه أربعين ألفًا(٢).

وخلَّف ابنُ مسعود تسعين ألفًا(٣).

وكان الليثُ بن سعدٍ يستغلُّ(٤) كلَّ سنة عشرين ألفًا(٥).

وكان سفيانُ يتَّجِرُ بمالٍ(٦).

= و(الطاعة) وأمثالهما مما له أصل في كتاب أو سنة؛ فمن غير المستحب هجر تلك التسميات المحكمة واللجوء إلى متشابه التسميات التي تسربت إلى المسلمين ـ ولا سيما جمهور المتصوفة ـ من الوثنيات القديمة التي كان فيها خدام للرب وسدنة لبيوته، أو من أهل الكتاب الذين تفرغ أحبارهم ورهبانهم لخدمة الله ـ زعموا ـ في البيع والكنائس.

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١ / ٤١ و٦٨).

(٢) انظر: «تاريخ المدينة» لابن شبة (١ / ٢١٣ ـ ٢٢٠)، و«الملل والنحل» لابن حزم (٤ / ١٤٢).

(٣) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١ / ٤٩٧).

(٤) يعني: تخرج أرضه غلة هٰذا مقدارها.

(٥) الليث بن سعد: هو الإمام، الحافظ، شيخ الإسلام، ولد بمصر سنة ٩٤هـ، وتوفي ١٧٥هـ. انظر ترجمته وخبره هٰذا في: «وفيات الأعيان» (٤ / ١٢٧)، و«سير أعلام النبلاء» (٨ / ١٣٦)، و«تهذيب التهذيب» (٨ / ٤٥٩).

(٦) يعني: ابن سعيد بن مسروق الثوري، إمام الحفاظ، وسيد العلماء العاملين في زمانه، وأمير المؤمنين في الحديث، مولده سنة ٩٧هـ، ووفاته سنة ١٦١هـ. انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» (٦ / ٣٥٦)، و«سير أعلام النبلاء» (٧ / ٢٢٩).

وكان ابن مهديٍّ يستغلُ كلَّ سنة ألفَيْ دينار[١].

وإنْ أكْثَرَ من النِّكاح والسراريِّ؛ كان ممدوحًا لا مذمومًا:

فقد كان للنبيِّ ﷺ زوجاتٌ وسراريُّ.

وجمهور الصحابة كانوا على الإكثار في ذلك.

وكان لعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه أربعُ حرائر وسبع عشرة أمَةً[٢].

وتزوَّج ولدُه الحسنُ نحوًا من أربع مئة[٣].

فإنْ طلب التزوُّج للأولادِ؛ فهو الغاية في التعبُّد، وإن أراد التلذُّذ؛ فمباحٌ، يندرِجُ فيه مِن التعبُّد ما لا يُحصى؛ مِن إعفافِ نفسه والمرأة... إلى غير ذلك.

وقد أنفق موسى عليه السلام من عُمُرِه الشريفِ عشرَ سنين في مَهْرِ ابنةِ شُعَيْبٍ[٤].

---

(١) هو الإمام، الناقد، المجود، سيد الحفاظ، القدوة في العلم والعمل والإتقان، عبد الرحمن بن مهدي بن حسان، أبو سعيد العنبري، ولد سنة ١٣٥هـ، وتوفي في البصرة سنة ١٩٨هـ. انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» (٩ / ٣)، «سير أعلام النبلاء» (٩ / ١٩٢).

(٢) انظر: «تاريخ الطبري» (٣ / ١٦٢)، و«الملل والنحل» لابن حزم (٤ / ١٤٢)، و«الكامل في التاريخ» لابن الأثير (٣ / ٢٦٢ ـ ٢٦٣).

(٣) وقد لامه أبوه على ذلك، وأوصى الناس ألا يزوجوه. وانظر: «سير أعلام النبلاء» (٣ / ٢٤٥).

(٤) قال تعالى: ﴿قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني =

فلولا أن النِّكاحَ من أفضلِ الأشياء؛ لما ذهبَ كثيرٌ من زمان الأنبياءِ فيه.

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: خيار هٰذه الأمة أكثرها نساءً[1].

وكان يطأ جاريةً له، وينزل في أخرى.

وقالت سُرِّيةُ[2] الرَّبيع بن خُثَيْم: كان الربيعُ يَعْزِلُ[3].

وأمـا المَطْعَمُ؛ فالمرادُ منه تقويةُ هٰذا البدن لخدمة الله عزَّ وجلَّ، وَحَقٌّ على ذي الناقة أنْ يُكْرِمَها لِتَحْمِلَهُ.

وقد كان النبيُّ ﷺ يأكلُ ما وجد؛ فإن وجد اللحمَ؛ أكله[4]، ويأكلُ

= ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك﴾ [القصص: ٢٧]. ولٰكننا لا نعلم يقينًا بأن موسى إنما صاهر شعيبًا عليهما الصلاة والسلام؛ فما في المسألة خبر عن المعصوم، بل ولا يقوله أهل الكتاب، وإن كان عليه كثير من أهل العلم. فالله أعلم.

وروى البخاري (٥٢ـ كتاب الشهادات، ٢٨ ـ باب من أمر بإنجاز الوعد، ٥ / ٢٨٩ ـ ٢٩٠ / ٢٦٨٤): أن سعيد بن جبير سأل ابن عباس: أي الأجلين قضى موسى؟ فقال: «قضى أكثرهما وأطيبهما». وهٰذا له حكم الرفع، بل قد ورد مرفوعًا من حديث ابن عباس وغيره عند غير البخاري. أفاده الحافظ في «الفتح».

(١) رواه البخاري (٦٧ ـ كتاب النكاح، ٤ ـ باب كثرة النساء، ٩ / ١١٣ / ٥٠٦٩).

(٢) السُّرِّيَّة: الأمة التي تُبَوَّأ بيتًا وتجامع.

(٣) هو أبو يزيد، الربيع بن خثيم بن عائذ، الإمام، القدوة، العابد، أدرك زمان النبي ﷺ ولم يره، وتوفي سنة ٦٥هـ. انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» (٢ / ١٠٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٤ / ٢٥٨).

(٤) وانظر ما سيأتي في هٰذا في (فصل ١٩).

لحم الدجاج[١]، وأحبُّ الأشياء إليه الحلوى والعسل[٢]، وما نُقِلَ عنه أنه امتنع من مباح.

وجيء عليٌّ رضي الله عنه بفالوذَجٍ، فأكل منه، وقال: ما هٰذا؟ قالوا: يومُ النوروز. فقال: نَوْرِزونا كلَّ يوم[٣].

وإنما يُكْرَهُ الأكلُ فوق الشِّبَع، واللُّبْسُ على وجه الاختيال والبَطَر.

وقد اقتنع أقوامٌ بالدُّون من ذٰلك؛ لأن الحلال الصافي لا يكادُ يُمْكِنُ فيه تحصيلُ المراد، وإلَّا؛ فقد لبس النبي ﷺ حُلَّةً اشْتُرِيَتْ له بسبعةٍ وعشرين بعيرًا[٤]، وكان لتميمٍ الداريِّ حُلَّةٌ اشْتُرِيَتْ بألفِ درهم يصلِّي

---

(١) رواه: البخاري (٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد، ٢٦ ـ باب لحم الدجاج، ٩ / ٦٤٥ / ٥٥١٧ و٥٥١٨)، ومسلم (٢٧ ـ كتاب الأيمان، ٣ ـ باب ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها أن يأتي الذي هو خير، ٣ / ١٢٦٨ / ١٦٤٩)؛ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٧٠ ـ كتاب الأطعمة، ٣٢ ـ باب الحلوى والعسل، ٩ / ٥٥٧ / ٥٤٣١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) رواه البيهقي في «الكبرى» (٩ / ٢٣٥) عن ابن سيرين أنه قال: أتي علي رضي الله عنه بهدية النيروز، فقال: ما هٰذه؟! قالوا: يا أمير المؤمنين! هٰذا يوم النيروز. قال: فاصنعوا كل يوم نيروز! قال أبو أسامة (الراوي): كره أن يقال: نيروز.

قال البيهقي: «وفي هٰذا كالكراهة لتخصيص يوم بذٰلك لم يجعله الشرع مخصوصًا».

ومنه تعلم خطأ المصنف رحمه الله في الاستشهاد بهٰذا الأثر على رغبة علي رضي الله عنه بالأكل من هٰذا يوميًّا، بل أراد رضي الله عنه النهي والكراهة لاختصاص يوم بذٰلك دون تخصيص له من الشرع.

(٤) لعله يعني ما رواه أبو داوود (٢٦ ـ كتاب اللباس، ٧ ـ باب لبس المرتفع من =

فيها بالليل(١).

فجاء أقوامٌ، فأظهروا التزهُّدَ، وابتكروا طريقة زيَّنها لَهم الهوى، ثم تَطَلَّبوا لها الدليل، وإنما ينبغي للإنسان أن يَتَّبِعَ الدليل؛ لا أن يتَّبِعَ طريقًا ويتطَلَّب دليلها(٢)! ثم انقسموا:

فمنهم متصنِّعٌ في الظاهر، ليثُ الشرى في الباطن، يتناول في خَلَواتِهِ الشهوات، وينْعَكِفُ على اللَّذَّات، ويُري الناسَ بزِيِّه أنه متصوِّف متزهِّد، وما تزهَّد إلَّا القميصُ، وإذا نُظِرَ إلى أحواله؛ فعنده كِبْرُ فرعون.

ومنهم سليم الباطن؛ إلَّا أنه في الشرع جاهلٌ.

ومنهم من تصدَّر، وصَنَّفَ، فاقتدى به الجاهلون في هٰذه الطريقة، وكانوا كعُمْيٍ اتَّبعوا أعمى، ولو أنهم تلمَّحوا للأمر الأول الذي كان عليه الرسولُ ﷺ والصحابةُ رضي الله عنهم؛ لما زَلُّوا.

ولقد كان جماعةٌ من المحقِّقين لا يبالون بمُعَظَّمٍ في النفوس إذا حاد عن الشريعة، بل يوسِعونَه لَوْمًا:

= الثياب، ٢ / ٤٤٢ / ٤٠٣٤) عن أنس بن مالك: أن ملك ذي يزن أهدى إلى رسول الله ﷺ حلة أخذها بثلاثة وثلاثين بعيرًا فقبلها.

وفيه عمارة بن زاذان؛ صدوق كثير الخطأ كما في «التقريب»؛ فلا يصح، وقد ضعفه الألباني.

(١) رواه الطبراني (٢/٤٩/١٢٤٨) من طريق أبي كريب، عن وكيع، عن همام، عن قتادة، عن ابن سيرين... فذكره. قال الهيثمي في «المجمع» (٥/١٣٥): «ورجاله رجال الصحيح». وتميم الداري صحابي معروف. انظر: «الإصابة» (١ / ٣٠٤).

(٢) وهٰذا حال المسلمين اليوم؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فَنُقِلَ عن أحمد أنه قال له المَرْوَزِيُّ: ما تقول في النكاح؟ فقال: سنةُ النبيِّ ﷺ. فقال: فقد قال إبراهيمُ[١]. قال: فصاح بي وقال: جئتنا بِبُنَيَّات الطريق؟

وقيل له: إن سَرِيًّا السَّقَطِيَّ[٢] قال: لما خَلَقَ الله تعالى الحروف؛ وقف الألفُ وسجدتِ الباء. فقال: نَفِّروا الناس عنه.

واعلم أن المحقِّق لا يهولُه اسم معظَّم؛ كما قال رجلٌ لعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أتظنُّ أنَّ طلحة والزبير كانا على الباطل؟ فقال له: إنَّ الحقَّ لا يُعْرَفُ بالرجال، اعرفِ الحقَّ؛ تعرفْ أهلَه.

ولَعَمْري؛ إنه قد وَقَرَ في النفوس تعظيمُ أقوام؛ فإذا نُقِلَ عنهم شيءٌ، فسمعه جاهلٌ بالشرع؛ قَبِلَهُ؛ لتعظيمهم في نفسه.

كما ينقل عن أبي يزيد[٣] رضي الله عنه: أنه قال: تراعَنَتْ[٤] عليَّ

(١) المقصود بقوله «إبراهيم» هنا: الإمام، العارف، الزاهد، إبراهيم بن أدهم، المتوفى سنة ١٦٢هـ؛ فهو الذي لم يتزوج واشتهرت أقواله في الزهد، وسيكرر المصنف هذا الخبر مع التصريح بما قلناه في (فصل ٣٤). وانظر ترجمته في: «حلية الأولياء» (٧ / ٣٦٧)، و«أعلام النبلاء» (٧ / ٣٨٧). وبنيات الطريق: الترهات التي لا أصل لها.

(٢) هو أبو الحسن بن مغلس، من المشايخ المذكورين، وأحد العباد المشهورين، صاحب معروف الكرخي والجنيد. ولد في حدود ١٦٠هـ، وتوفي سنة ٢٥٣هـ. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٩ / ١٨٧)، و«سير أعلام النبلاء» (١٢ / ١٨٥).

(٣) طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي، أحد الزهاد، توفي سنة ٢٦١هـ. قال الذهبي: «له هكذا نكت مليحة، وجاء عنه أشياء مشكلة لا مساغ لها، الشأن في ثبوتها عنه، أو أنه قالها في حال الدهشة والسكر والغيبة والمحو، فيطوى، ولا يحتج بها؛ إذ ظاهرها إلحاد». انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» (١٠ / ٣٣)، و«سير أعلام النبلاء» (١٣ / ٨٦).

(٤) تراعنت: تطاولت وهاجت؛ يعني أنها تطلبت وتطلعت إلى مالا يرضاه لها.

نفسي، فَحَلَفْتُ لا أشربُ الماء سنةً.

وهٰـذا إذا صحَّ عنه؛ كان خطأً قبيحًا وزَلَّةً فاحشة؛ لأن الماءَ يُنْفِذُ الأغذيةَ إلى البدن، ولا يقوم مقامه شيءٌ؛ فإذا لم يَشْرَبْ؛ فقد سعى في أذى بدنه، وقد كان يُسْتَعْذَبُ الماءُ لرسول الله ﷺ[1].

أفَتَرى هٰذا فِعْلَ مَنْ يَعْلَمُ أنَّ نفسه ليست له وأنه لا يجوزُ التصرُّف فيها إلَّا عن إذن مالكها؟!

وكذٰلك ينقلُون عن بعض الصوفية: أنه قال: سِرتُ إلى مكة على طريق التوكُّلِ حافيًا، فكانتِ الشوكةُ تدخُلُ في رجلي، فأحُكُّها بالأرض ولا أرفعها، وكان عليَّ مِسْحٌ[2]، فكانت عيني إذا آلمتني؛ أدلُكُها بالمِسْح، فذهبتْ إحدى عينيَّ.

وأمثال هٰذا كثيرٌ، وربما حَمَلَها القُصَّاصُ على الكرامات، وعظَّموها عند العوامِّ، فيُخايَلُ لهم أنَّ فاعلَ هٰذا أعلى مرتبةً من الشافعيِّ وأحمد!!

ولَعَمْري؛ إنَّ هٰذا من أعظم الذنوب وأقبح العيوب:

لأن الله تعالى قال: ﴿ولا تَقْتُلوا أنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

وقال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «إن لنفسك عليك حقًّا»[3].

(١) (حسن). رواه: أبو داوود (٢٠ ـ كتاب الأشربة، ٢٢ ـ باب في إيكاء الآنية، ٢ / ٣٦٦ / ٣٧٣٥)، والحاكم (٤ / ١٣٨)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

وصححه الحاكم على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي والمنذري في «مختصر السنن»، وجود إسناده الحافظ في «الفتح»، وحسنه الألباني.

(٢) المسح: ثوب غليظ خشن يكون من الشعر عادة.

(٣) جزء من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص الطويل في سرده الصيام والقيام =

وقد طَلَبَ أبو بكر رضي الله عنه في طريق الهجرة للنبيِّ ﷺ ظلاًّ، حتى رأى صخرةً، فَفَرَشَ له في ظِلِّها[(١)].

وقد نُقِلَ عن قدماء هٰذه الأمة بداياتُ هٰذا التفريط، وكان سببُهُ من وجهين: أحدهما: الجهلُ بالعلم. والثاني: قربُ العهد بالرَّهْبانِيَّة.

وقد كان الحسنُ[(٢)] يَعيبُ فَرْقَدًا السبخيَّ[(٣)] ومالكَ بن دينار[(٤)] في زهدهما، فَرُئِي عنده طعامٌ فيه لحم، فقال: لا رَغِيفَيْ مالكٍ، ولا صَحْنَيْ فَرْقَدٍ.

ورأى على فَرْقَدٍ كساءً، فقال: يا فرقدُ! إنَّ أكثر أهل النار أصحابُ الأكسية[(٥)].

= الذي رواه: البخاري (١٩ ـ كتاب التهجد، ٢٠ ـ باب، ٣ / ٣٨ / ١١٥٣)، ومسلم (١٣ ـ كتاب الصيام، ٣٥ ـ باب النهي عن صوم الدهر، ٢ / ٨١٢ / ١١٥٩).

(١) رواه البخاري (٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار، ٤٥ ـ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ٧ / ٢٥٥ / ٣٩١٧) من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

(٢) أبو سعيد بن يسار البصري، شيخ أهل البصرة، وسيد أهل زمانه علمًا وعملاً، ومولى زيد بن ثابت صاحب رسول الله ﷺ، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر، وتوفي سنة ١١٠هـ، انظر ترجمته في: «أعلام النبلاء» (٤ / ٥٦٣)، و«التهذيب» (٢ / ٢٦٣).

(٣) هو فرقد بن يعقوب، أحد زهاد البصرة، كان صدوقًا عابدًا، حدث بأشياء ولم يكن من أهل الحديث بل كانت فيه غفلة ورداءة حفظ وفي حديثه نكارة، مات سنة ١٣١هـ. انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» (٣ / ٤٤)، و«ميزان الاعتدال» (٣ / ٣٤٥).

(٤) علم العلماء الأبرار، وأحد ثقات التابعين، ومن أعيان كتبة المصاحف. ولد في أيام ابن عباس رضي الله عنهما، وتوفي سنة ١٢٧هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٥ / ٣٦٢)، و«تهذيب التهذيب» (١٠ / ١٤).

(٥) انظر قريبًا من هٰذا في: «الزهد» للإمام أحمد (ص ٣٢٧).

وكم قد زَوَّقَ قاصٌّ مجلسه بذكر أقوامٍ خرجوا إلى السِّياحة بلا زادٍ ولا ماءٍ، وهو لا يعلم أن هٰذا من أقبح الأفعال، وأن الله تعالى لا يُجَرَّبُ عليه؛ فربما سمعه جاهلٌ من التائبين، فخرجَ، فماتَ في الطريق، فصار للقائل نصيبٌ مِن إثمهِ!!

وكم يروون عن ذي النُّونِ[1]: أنه لَقِيَ امرأةً في السياحة، فكلَّمها وكلَّمته، وينسون الأحاديث الصحاح: «لا يَحِلُّ لامرأةٍ أنْ تسافِرَ يومًا وليلةً إلَّا بِمَحْرَمٍ»[2]!!

وكم ينقُلون أن أقوامًا مَشَوْا على الماء؛ وقد قال إبراهيم الحربيُّ[3]: لا يصحُّ أنَّ أحدًا مشى على الماء قطُّ! فإذا سمعوا هٰذا؛ قالوا: أتُنْكِرونَ كراماتِ الأولياء الصالحين؟! فنقول: لسنا من المنكرين لها، بل نَتَّبِعُ ما

---

(١) هو ثوبان بن إبراهيم (وقيل: فيض بن إبراهيم، وقيل: فيض بن أحمد)، النوبي، المصري، أبو الفيض، الزاهد المشهور، ولد في أواخر أيام المنصور، ودخل على المتوكل واعظًا، وتوفي سنة ٢٤٦هـ. انظر ترجمته في: «وفيات الأعيان» (١ / ٣١٥)، و«أعلام النبلاء» (١١ / ٥٣٢). وانظر الخبر في «حلية الأولياء» (٩ / ٣٤٠).

(٢) رواه: البخاري (١٨ ـ كتاب تقصير الصلاة، ٤ ـ باب في كم يقصر الصلاة، ٢ / ٥٦٦ / ١٠٨٨)، ومسلم (١٥ ـ كتاب الحج، ٧٤ ـ باب سفر المرأة مع محرم إلى الحج، ٢ / ٩٧٧ / ١٣٣٩)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ورواه: البخاري أيضًا (١٨ ـ كتاب تقصير الصلاة، ٤ ـ باب في كم يقصر الصلاة، ٢ / ٥٦٦ / ١٠٨٦ و١٠٨٧)، ومسلم (١٥ ـ كتاب الحج، ٧٤ ـ باب سفر المرأة مع محرم إلى الحج، ٢ / ٩٧٥ / ١٣٣٨)؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) الشيخ، الإمام، الحافظ، العلامة، أبو إسحاق، إبراهيم بن إسحاق، صاحب «غريب الحديث»، مولده سنة ١٩٨هـ، وتوفي سنة ٢٨٥هـ. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٦ / ٢٨)، و«سير أعلام النبلاء» (١٣ / ٣٥٦).

صحَّ، والصالحون هم الذين يَتَّبِعون الشرع ولا يتعبَّدون بآرائِهم. وفي الحديث: «إنَّ بني إسرائيل شَدَّدوا فشَدَّدَ اللهُ عليهم»[١].

وكم يحثُّون على الفقر، حتى حَمَلُوا أقوامًا على إخراج أموالِهم، ثم آل بهم الأمرُ: إما إلى التَّسَخُّط عند الحاجة، وإما إلى التعرُّض بسؤال الناس!

وكم تأذَّى مسلمٌ بأمرِهم الناسَ بالتقلُّل! وقد قال النبي ﷺ: «ثلثٌ طعامٌ، وثلثٌ شرابٌ، وثلثٌ نَفَسٌ»[٢]؛ فما قنعوا حتى أمروا بالمبالغة في التقلل.

---

(١) (حسن). جزء من حديث طويل رواه أبو داوود (٣٥ ـ كتاب الأدب، ٤٤ ـ باب في الحسد، ٢ / ٦٩٣ ـ ٦٩٤ / ٤٩٠٤) من حديث أنس بن مالك بلفظ: «لا تشددوا على أنفسكم؛ فيشدد الله عليكم؛ فإن قومًا شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم...».

وفي سنده سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء؛ قال الحافظ في «التقريب»: «مقبول»؛ يعني: عند المتابعة، وإلا؛ فلين الحديث؛ فهو ضعيف، وقد ضعفه ابن القيم في «تهذيب السنن»، وتابعه الألباني في «ضعيف السنن».

لكن لهذه القطعة من الحديث شواهد كثيرة مرفوعة وموقوفة ومرسلة عن عدد من الصحابة والتابعين رواها ابن جرير في «التفسير» (١ / ٣٨٩ / ١٢٣٩ ـ ١٢٥١)؛ فهي حسنة بها إن شاء الله. وانظر: «الدر المنثور» (١ / ١٥٠ / البقرة ٧١).

(٢) (صحيح). جزء من حديث رواه: ابن ماجه (٢٩ ـ كتاب الأطعمة، ٥٠ ـ باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع، ٢ / ١١١ / ٣٣٤٩)، والترمذي (٣٧ ـ كتاب الزهد، ٤٧ ـ باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، ٤ / ٥٩٠، برقم ٢٣٨٠)، وابن حبان (٢ / ٤٤٩ / ٦٧٤)، والحاكم (٤ / ١٢١)؛ من حديث المقدام بن معدي كرب.

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح». وسكت عنه الحاكم، وصححه الذهبي والألباني.

فحكى أبو طالب المكيُّ في «قوت القلوب»: أن فيهم من كان يزن قوتـه بِكَرَبَةٍ رطبة؛ ففي كلِّ ليلةٍ يذهب من رطوبتها قليل! وكنتُ أنا ممَّن اقتدى بقوله في الصِّبا، فضاق المَعْيُ، وأوجب ذلك مرضَ سنين!

أفترى هٰذا شيئًا تقتضيه الحكمةُ أو نَدَبَ إليه الشرعُ؟!

وإنما مَطِيَّةُ الآدميِّ قُواه؛ فإذا سعى في تقليلها؛ ضَعُفَ عن العبادة.

ولا تقولنَّ: الحصولُ على الحلال المَحْضِ مستحيلٌ؛ لذٰلك وجب الـزُّهـد؛ تجنُّبًا للشبهـات؛ فإن المؤمن حَسْبُـهُ أن يتحرَّى في كَسْبه هو الحلال، ولا عليه من الأصول التي نبتتْ منها هٰذه الأموال؛ فإنا لو دَخَلْنا ديار الروم، فوجدنا أثمانَ الخمور وأجرة الفجور؛ كان لنا حلالاً بوصفِ الغنيمةِ.

أفتريدُ حلالاً على معنى أن الحَبَّةَ من الذهب لم تنتقلْ مُذْ خَرَجَتْ من المعدن على وجهٍ لا يجوز؟! فهٰذا شيءٌ لم ينظرْ فيه رسولُ الله ﷺ.

أَوَلَيس قد سمعتَ أن الصدقةَ عليه حرامٌ، فلما تُصُدِّقَ على بَريرةَ بلحمٍ، فأهدتْه؛ جاز له أكلُ تلك العين لتغيُّر الوصف[1].

وقد قال أحمدُ بن حنبل: أكره التقلُّل من الطعام؛ فإن أقوامًا فَعَلوه؛

(١) روى: البخاري (٥١ ـ كتاب الهبة، ٧ ـ باب قبول الهدية، ٥ / ٢٠٣ / ٢٥٧٨)، ومسلم (١٢ ـ كتاب الزكاة، ٥٢ ـ باب إباحة الهدية للنبي ﷺ وإن كان المهدي ملكها بطريق الصدقة، ٢ / ٧٥٥ / ١٠٧٥)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها؛ قالت: أتي النبي ﷺ بلحم بقر، فقيل: هٰذا ما تصدق به على بريرة، فقال: «هو لها صدقة ولنا هدية».

وفي الباب عن أنس رضي الله عنهما عندهما.

فَعَجَزوا عن الفرائض[١].

وهٰذا صحيحٌ؛ فإن المتقلِّل لا يزال يتقلَّل إلى أن يَعْجِزَ عن النوافل، ثم الفرائض، ثم يَعْجِزُ عن مباشرة أهله وإعفافِهم، وعن بذل القُوى في الكَسْبِ لهم، وعن فعلِ خيرٍ قد كان يفعلُه.

ولا يَهولَنَّكَ ما تسمعهُ من الأحاديث التي تحثُّ على الجوع؛ فإن المراد بها: إما الحثُّ على الصوم، وإما النهي عن مقاومة الشبع[٢]؛ فأما تنقيص المَطْعَم على الدوام؛ فمؤثِّر في القُوى؛ فلا يجوزُ.

ثم في هٰؤلاء المذمومين مَن يَرَى هَجْر اللحم، والنبيُّ ﷺ كان يَوَدُّ أن يأكله كل يوم[٣].

واسمع مني بلا محاباة: لا تحتجنَّ عليَّ بأسماء الرجال، فتقول: قال بِشْرٌ[٤]، وقال إبراهيم بن أدهم[٥]؛ فإن من احتجَّ بالرسول ﷺ وأصحابه

(١) لعله يعني به مالك بن دينار؛ كما ذكره الذهبي في ترجمته في «السير» (٥ / ٣٦٤).

(٢) يعني: الاستمرار عليه والمداومة، أو النهي عن الشبع المفرط، والعبارة ضعيفة ركيكة في كل الأحوال.

(٣) والآثار في أكل النبي ﷺ اللحم كلما توفر كثيرة، ولم يكن ﷺ يتكلف مفقودًا ولا يرد موجودًا، وانظر حاشية الصفحة السابقة؛ يستبن لك ما ذكرنا. وانظر ما ذكره ابن القيم من ذاك في (اللحم) من «زاد المعاد» (٤ / ٣٧١).

(٤) هناك كثير من الزهاد والصالحين ممن يسمى بشرًا، ولٰكن المقصود به عند الإطلاق: بشر بن الحارث بن عبد الرحمٰن الحافي، الإمام، العالم، الزاهد، ولد سنة ١٥٢هـ، وتوفي سنة ٢٢٧هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (١٠ / ٤٦٩)، و«تهذيب التهذيب» (١ / ٤٤٤).

(٥) تقدمت ترجمته في أول هٰذا الفصل.

رضوان الله عليهم أقوى حُجَّةً.

على أنَّ لأفعال أولٰئك وجوهًا نحمِلُها عليهم بحسن الظن:

ولقد ذاكرتُ بعضَ مشايخنا ما يُروى عن جماعةٍ من الساداتِ أنهم دفنوا كتبهم! فقلتُ له: ما وجهُ هٰذا؟ فقال: أحسنُ ما نقول أنْ نَسْكُتَ! يشيرُ إلى أن هٰذا جَهْلٌ من فاعله.

وتأولتُ أنا لهم، فقلتُ: لعلَّ ما دفنوا من كتبهم فيه شيءٌ من الرأي؛ فما رأوا أنْ يعملَ الناس به.

ولقد روينا في الحديث عن أحمد بن أبي الحواري[1]: أنه أخذ كُتُبَهُ، فرمى بها في البحر، وقال: نعم الدليلُ كنتِ، ولا حاجة لنا إلى الدليلِ بعد الوصول إلى المدلول! وهٰذا؛ إذا أحْسَنَّا به الظنَّ؛ قلنا: كان فيها مِن كلامِهم ما لا يرتضيه. فأما إذا كانت علومًا صحيحةً؛ كان هٰذا من أفحش الإضاعة.

وأنا، وإن تأوَّلْت لهم هٰذا؛ فهو تأويلٌ صحيحٌ في حق العلماء منهم: لأنا قد روينا عن سفيان الثوريِّ أنه قد أوصى بدفن كُتبه، وكان نَدِمَ على أشياء كتبها عن قومٍ، وقال: حملني شهوة الحديث[2]. وهٰذا لأنه كان يكتب عن الضعفاء والمتروكين، فكأنه لما عَسُر عليه التمييزُ؛ أوصى بدفن

---

(١) أبو الحسن، الثعلبي، الغطفاني، الزاهد، ولد سنة ١٦٤هـ، وتوفي سنة ٢٤٦هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (١٢ / ٨٥)، و«تهذيب التهذيب» (١ / ٤٩). وانظر الخبر في: «حلية الأولياء» (١٠ / ٦).

(٢) انظر الخبر في: «حلية الأولياء» (٧ / ٣٨). وانظر أيضًا: «السير» (٧ / ٢٥٥ و ٢٥٦ و ٢٦١).

الكلِّ . وكذلك مَن كان له رَأيٌ من كلامه ثم رجع عنه؛ جاز أن يدفُنَ الكتب التي فيها ذلك. فهذا وجه التأويل للعلماء.

فأما المتزهِّدون الذين رأوا صورةَ فعل العلماء ودَفَنوا كُتبًا صالحةً لئلا تَشْغَلَهم عن التعبُّد؛ فإنه جهلٌ منهم؛ لأنهم شَرَعوا في إطفاء مصباحٍ يضيء لهم، مع الإقدام على تضييعِ مالٍ لا يَحِلُّ تضييعُه.

ومن جُملة من عَمِلَ بواقعةِ دَفْنِ كتب العلم يوسفُ بنُ أسباط[1]، ثم لم يَصْبِرْ عن التحديثِ، فخلَّط، فَعُدَّ في الضعفاء.

أنبأنا عبدُ الوهاب بن المبارك؛ قال: أخبرنا محمدُ بن المظفَّر الشاميُّ؛ قال: أخبرنا أحمدُ بن محمد العتيقيُّ؛ قال: حدثنا يوسفُ بن أحمد؛ قال: حدثنا محمد بن عمرو العُقَيْلِيُّ؛ قال: حدثنا محمدُ بن عيسى؛ قال: أخبرنا أحمد بن خالد الخَلَّالُ؛ قال: سمعتُ شعيب بن حَرْبٍ يقولُ: قلت ليوسف بن أسباط: كيف صنعتَ بكُتُبِكَ؟ قال: جئتُ إلى الجزيرة، فلما نَضَبَ الماءُ؛ دفنتُها، حتى جاء الماء عليها، فذهبتْ. قلتُ: ما حملك على ذلك؟ قال: أردتُ أنْ يكونَ الهمُّ هَمًّا واحدًا.

قال العُقَيْلِيُّ: وحدثني آدم؛ قال: سمعتُ البخاريَّ؛ قال: قال صدقةُ: دفن يوسفُ بنَ أسباط كُتُبَه، وكان بعدُ يَغْلِبُ عليه الوَهَم فلا يجيء كما ينبغي[2].

(١) الزاهد، أحد سادات المشايخ، صاحب المواعظ والحكم، انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» (٨ / ٢٣٧)، و«ميزان الاعتدال» (٤ / ٤٦٢).

(٢) انظر الخبر في: «التاريخ الكبير» للبخاري (٨ / ٣٨٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٩ / ١٧١).

قال المؤلف: قلتُ: الظاهر أن هٰذه كتب علم ينفعُ، ولٰكنَّ قلةَ العلم أوجبتْ هٰذا التفريطَ الذي قُصِدَ به الخيرُ، وهو شرٌّ؛ فلو كانت كتُبُهُ من جنس كتبِ الثوريِّ ـ فإن فيها عن ضعفاءَ ولم يصحَّ له التمييزُ ـ؛ قَرُبَ الحال، إنما تعليلهُ بجمع الهمِّ هو الدليلُ على أنها ليست كذٰلك!

فانظرْ إلى قلةِ العلم ماذا تؤثِّرُ مع أهلِ الخير!

ولقد بَلَغَنا في الحديث عن بعض مَن نعظِّمُه ونزورُه: أنه كان على شاطىء دجلة، فبال، ثم تيمَّم! فقيل له: الماءُ قريبٌ منك! فقال: خِفْتُ أن لا أبلغه!

وهٰذا، وإن كان يدلُّ على قِصَر الأمل؛ إلَّا أن الفقهاء إذا سمعوا عنه مثل هٰذا الحديث؛ تلاعبوا به، من جهة أنَّ التيمُّم إنما يصحُّ عند عدم الماء؛ فإذا كان الماءُ موجودًا؛ كان تحريك اليدين بالتيمُّم عبثًا، وليس من ضروريِّ وجود الماء أن يكونَ إلى جانب المُحْدِثِ، بل لو كان على أذرعٍ كثيرةٍ؛ كان موجودًا؛ فلا فعلَ للتيمُّم ولا أثرَ حينئذٍ.

ومَن تأمَّل هٰذه الأشياء؛ علم أن فقيهًا واحدًا ـ وإن قلَّ أتباعه وخَفَّتْ إذا مات أشياعُه ـ أفضلُ من ألوفٍ تتمسَّحُ العوامُّ بهم تبرُّكًا! ويُشَيِّعُ جنائزَهم ما لا يحصى.

وهل الناس إلَّا صاحبُ أثر يتبِّعُه، أو فقيهٌ يفهم مُراد الشرع ويُفتي به؟!

نعوذ بالله من الجَهْل وتعظيمِ الأسلافِ تقليدًا لهم بغير دليل!

فإنَّ مَن وَرَدَ المشربَ الأوَّلَ؛ رأى سائرَ المشاربِ كَدِرَةً.

والمِحْنَةُ العظمى مدائحُ العوام؛ فكم غرَّتْ! كما قال عليٌّ رضي الله عنه: ما أبقى خَفْقُ النِّعال وراء الحمقى من عقولهم شيئًا[١].

ولقد رأينا وسمعنا من العوام أنهم يمدحون الشخص، فيقولون: لا ينامُ الليل، ولا يفطِرُ النهار، ولا يعرِفُ زوجةً، ولا يذوق من شَهَواتِ الدُّنيا شيئًا؛ قد نَحَلَ جسمُه، ودَقَّ عظمُه، حتى إنه يصلِّي قاعدًا؛ فهو خيرٌ من العلماء الذين يأكلون ويتمتَّعون! ذٰلك مبلغُهم من العلم! ولو فَقِهوا؛ علموا أن الدُّنيا لو اجتمعتْ في لقمةٍ، فتناولها عالمٌ يُفتي عن الله ويُخْبِرُ بشريعته؛ كانتْ فتوى واحدةٌ منه يُرْشِدُ بها إلى الله تعالى خيرًا وأفضلَ من عبادة ذٰلك العابد باقي عمره.

وقد قال ابن عباس رضيَ الله عنهما: فقيهٌ واحدٌ أشدُّ على إبليس من ألف عابدٍ[٢].

ومَنْ سمع هٰذا الكلام؛ فلا يَظُنَّنَّ أنني أمدح مَن لا يعملُ بعلمه، وإنما أمدحُ العاملين بالعلم، وهم أعلَمُ بمصالح أنفسِهِم؛ فقد كان فيهم

(١) وقد صحت هٰذه المقولة عن كثير من ثقات أهل العلم؛ كالحسن، وابن سيرين، وغيرهما.

(٢) (ضعيف جدًّا). رواه: ابن ماجه (المقدمة، ١٧ ـ باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ١ / ٨١ / ٢٢٢)، والترمذي (٤٢ ـ كتاب العلم، ١٩ ـ باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، ٥ / ٤٨ / ٢٦٨١)؛ من طريق الوليد بن مسلم، ثنا روح بن جناح، عن مجاهد، عن ابن عباس مرفوعًا.

قال الترمذي: «هٰذا حديث غريب، ولا نعرفه إلا من هٰذا الوجه من حديث الوليد بن مسلم». لٰكن الأولى إعلال الحديث بروح بن جناح؛ فهو ضعيف جدًّا، اتهمه ابن حبان، وقد ساق الذهبي هٰذا الحديث في «الميزان» في منكراته. وقال الألباني: «موضوع».

مَن يَصْلُحُ على خَشِنِ العيش؛ كأحمد بن حنبلٍ، وكان فيهم مَن يستعملُ رقيق العيش؛ كسفيانَ الثوريِّ مع ورعه، ومالكٍ مع تديُّنه، والشافعيِّ مع قوة فقهه.

ولا ينبغي أنْ يُطالَبَ الإنسانُ بما يَقْوى عليه غيرُه فيضعُفُ هو عنه؛ فإنَّ الإنسانَ أعرفُ بصلاح نفسه.

وقد قالتْ رابعةُ[1]: إنْ كان صلاحُ قلبِك في الفالوذج؛ فَكُلْهُ.

ولا تكوننَّ أيُّها السامع ممَّنْ يرى صُوَرَ الزُّهد؛ فرُبَّ متنعِّمٍ لا يريد التنعُّم، وإنما يقصِدُ المصلحةَ، وليس كلُّ بدن يَقْوى على الخشونة، خصوصًا مَنْ قد لاقى الكَدَّ وأجهده الفكرُ، أو أمَضَّهُ[2] الفقر؛ فإنه إن لم يَرْفُق بنفسه؛ ترك واجبًا عليه من الرِّفْق بها.

فهٰذه جملة؛ لو شرحتُها بذكر الأخبار والمنقولات؛ لطالت، غير أني سطَّرْتُها على عجلٍ حين جالتْ في خاطري. والله وليُّ النفع برحمته.

٢٠ـ فصل

[قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا]

قد أَشْكَلَ على الناس أمرُ النفس وماهيتُها[3]؛ مع إجماعهم على

(١) العدوية، البصرية، الزاهدة، الخاشعة، العابدة، أم عمرو بنت إسماعيل، عاشت ثمانين سنة، وتوفيت سنة ١٨٠هـ. انظر ترجمتها في: «وفيات الأعيان» (٣ / ٢١٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٨ / ٢٤١).

(٢) أمضَّه: أوجعه.

(٣) يعني بالنفس هنا الروح، وقد تستعملان لمعنيين مختلفين.

وجودِها، ولا يضرُّ الجهل بذاتها مع إثباتها.

ثم أَشْكَلَ عليهم مصيرُها بعد الموت.

ومذهبُ أهل الحقِّ أنَّ لها وجودًا بعد موتها، وأنها تُنَعَّمُ وتُعَذَّبُ.

قال أحمد بن حنبل: أرواحُ المؤمنين في الجنة، وأرواحُ الكفَّار في النار.

وقد جاء في أحاديث الشهداء: «أنها في حواصل طيرٍ خُضْرٍ تعلق من شَجَرِ الجنة»[1].

وقد أخذ بعضُ الجَهَلة بظواهر أحاديث النعيم؛ فقال: إن الموتى يأكُلون في القبور وينكِحونَ!!

والصوابُ من ذٰلك أن النفس تَخْرُجُ بعد الموت إلى نعيمٍ أو عذابٍ، وأنها تَجِدُ ذٰلك إلى يوم القيامة؛ فإذا كانتِ القيامةُ؛ أُعيدتْ إلى الجسدِ؛ ليتكامَلَ لها التنعُّم بالوسائط.

وقوله: «في حواصل طير خضر»: دليلٌ على أن النفوس لا تنال لَذَّةً إلَّا بواسطة؛ إنْ كانتْ تلكَ اللَّذَّةُ لَذَّةَ مَطْعَم أو مَشْرَب، فأما لَذَّاتُ المعارف والعلوم؛ فيجوزُ أن تنالَها بذاتِها مع عدم الوسائط.

والمقصـود من هٰذا المذكور أني رأيتُ بعضَ الانزعاجِ من الموت وملاحظةَ النفس بعين العدمِ عنده، فقلتُ لها: إن كنتِ مصدقةً للشريعة؛

(١) رواه مسلم (٣٣ ـ كتاب الإمارة، ٣٣ ـ باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، ٣ / ١٥٠٢ / ١٨٨٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

فقـدْ أُخْبِرْتِ بما تعرفين ولا وجهَ للإنكار، وإن كان هناك رَيْبٌ في أخبار الشريعة؛ صار الكلامُ في بيان صحَّةِ الشريعة. فقالت: لا ريبَ عندي. قلتُ: فاجتهـدي في تصحيح الإيمـان وتحقيق التقوى، وأبشري حينئذٍ بالراحة من ساعة الموت؛ فإني لا أخاف عليك إلَّا من التقصير في العمل، واعلمي أن تفاوتَ النعيم بمقدار درجاتِ الفضائل؛ فارتفعي بأجنحة الجَدِّ إلى أعلى أبراجِها، واحذري من قانصِ هوىً، أو شَرَكِ غِرَّةٍ[١].

والله الموفق.

٢١ـ فـصـل

[بين العلم والعمل]

قلت يومًا في مجلسي: لو أنَّ الجبال حَمَلَتْ ما حُمِّلْتُ؛ لَعَجَزَتْ.

فلما عُدت إلى منزلي؛ قالت لي النفس: كيف قلتَ هٰذا؛ وربما أوهم الناسَ أنَّ بك بلاءً، وأنت في عافية في نفسك وأهلك؟! وهل الذي حُمِّلْتَ إلَّا التكليفُ الذي يحمِله الخلقُ كلُّهم؟! فما وجهُ هٰذه الشكوى؟!

فأجبتها: إني لما عجزتُ عمَّا حُمِّلْتُ؛ قلتُ هٰذه الكلمة، لا على سبيل الشكـوى، ولٰكن للاسترواح، وقد قال كثيرٌ من الصحابة والتابعين قبلي: ليتنا لم نُخْلَقْ! وما ذاك إلَّا لأثقالٍ عَجَزوا عنها.

ثم مَن ظنَّ أن التكاليف سهلة؛ فما عَرَفَها.

أتُرَى يظنُّ الظانُّ أنَّ التكاليفَ غسلُ الأعضاء برطل من الماء، أو

---

(١) الغِرَّة: الغفلة والخديعة.

الـوقوف في محرابٍ لأداء ركعتين؟! هيهات! هٰذا أسهل التَّكْليف! وإنَّ التَّكليفَ(١) هو الـذي عَجَـزَتْ عنه الجبال(٢)، ومن جملته أنني إذا رأيتُ القَدَر يجري بما لا يفهمهُ العقلُ؛ ألزمتُ العقلَ الإذعانَ للمُقَدِّر، فكان من أصعب التَّكْليف، وخصوصًا فيما لا يعلم العقلُ معناه؛ كإيلام الأطفال، وذبح الحيوانِ؛ مع الاعتقاد بأن المقدِّرَ لذٰلك والآمرَ به أرحمُ الراحمين؛ فهٰذا مما يتحيَّرُ العقلُ فيه، فيكون تكليفهُ التسليمَ وتركَ الاعتراض.

فكم بين تكليفِ البدن وتكليفِ العقل؟!

ولو شرحتُ هٰذا؛ لطالَ؛ غير أني أعتذر عما قلته، فأقولُ عن نفسي ـ وما يلزمني حال غيري ـ:

إني رجل حُبِّب إليَّ العلمُ من زمن الطُّفولة، فتشاغلتُ به.

ثم لم يحبَّبْ إليَّ فنٌّ واحدٌ منه، بل فنونُه كلُّها.

ثم لا تقتصر هِمَّتي في فنٍّ على بعضه، بل أرومُ استقصاءَه، والزمان لا يَسَعُ، والعمُرُ أضيق، والشوق يقوى، والعَجْزُ يظهر، فيبقى وقوفُ بعض المطلوبات حَسَراتٍ.

ثم إن العلم دلَّني على معرفة المعبود، وحثَّني على خدمته.

ثم صاحتْ بي الأدلةُ عليه إليه، فوقفتُ بين يديه، فرأيتُه في نَعْتِهِ،

(١) يعني: التكليف الحقيقي، أو أعظم التكليف وأشده.

(٢) قال تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وعرفتُه بصفاتِهِ، وعايَنتْ بصيرتي من ألطافه ما دعاني إلى الهَيَمان[١] في محبتـه، وحـرَّكني إلى التخلِّي لخدمته، وصار يملِكُني أمرٌ كالوَجْدِ كلَّما ذكرتُه، فعادت خَلْوتي في خدمتي له أحلى عندي من كلِّ حلاوةٍ.

فكلَّمـا مِلْتُ إلى الانقـطاع عنِ الشـواغـل إلى الخَلْوة؛ صاح بي العلمُ: أين تمضي؟! أتُعْرِضُ عني وأنا سببُ معرفتِكَ به؟! فأقول له: إنما كنتَ دليلاً، وبعد الوصول يُسْتَغنى عن الدليل. قال: هيهات! كُلَّما زِدْتَ؛ زادت معرفتُك لمحبوبك، وفَهِمْتَ كيف القربُ منه. ودليل هٰذا: أنك تعلمُ غدًا أنَّك اليوم في نقصان. أوَما تسمعهُ يقول لنبيه ﷺ: ﴿وقُلْ رَبِّ زِدْني عِلْمًا﴾ [طٰه: ١١٤]؟! ثم ألست تبغي القربَ منه؟! فاشتغلْ بِدِلالةِ عباده عليه؛ فهي حالاتُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام! أما علمتَ أنَّهم آثروا تعليم الخَلْق على خَلَوات التعبُّد؛ لعلمِهم أنَّ ذٰلك آثرُ عند حبيبهم؟! أما قال الرسول ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه: «لأنْ يَهْدِيَ الله بكَ رَجُلاً خَيْرٌ لك مِنْ حُمْرِ النَّعَم»[٢]؟!

فلما فهمتُ صِدْقَ هٰذه المقالة؛ تَهَوَّسْتُ[٣] على تلك الحالة، وكلما تشاغلتُ بجمع الناس؛ تفرق همِّي[٤]، وإذا وجدتُ مُرادي من نفعِهِم؛

(١) الهيمان: مرتبة من مراتب العشق الشديد.

(٢) رواه: البخاري (٦٢ ـ كتاب فضائل الصحابة، ٩ ـ باب مناقب علي بن أبي طالب، ٧ / ٧٠ / ٣٧٠١)، ومسلم (٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة، ٤ ـ باب من فضائل علي بن أبي طالب، ٤ / ١٨٧٢ / ٢٤٠٦)؛ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٣) الهَوْس: المشي الذي يعتمد صاحبه على الأرض، والسوق اللين، والمعنى هنا ـ والله أعلم ـ بقيت على حالتي التي أنا عليها.

(٤) يعني: تشتت ذهني وفقدت جمعيتي على الله.

ضَعُفْتُ أنا، فأبقى في حَيِّزِ التحيُّر متردِّدًا، لا أدري على أي القدمين أعتمد؟

فإذا وقفت متحيِّرًا؛ صاح العلم: قمْ لكسبِ العيال، وادأبْ في تحصيل ولدٍ يَذْكُرُ الله!

فإذا شرعتُ في ذٰلك؛ قَلَصَ[١] ضَرْعُ الدنيا وقتَ الحَلْب، ورأيتُ باب المعاش مسدودًا في وجهي؛ لأن صناعة العلم شغلتني عن تعلُّم صناعة.

فإذا التفتُّ إلى أبناء الدُّنيا؛ رأيتُهم لا يبيعون شيئًا من سِلَعِها إلَّا بدين المشتري! وليت مَنْ نافقهم أو راءاهم نال من دنياهم، بل ربما ذَهَبَ دينُه ولم يُحَصِّلْ مُراده!!

فإن قال الضَّجَر: اهربْ! قال الشرعُ: «كفى بالمرء إثمًا أن يضيِّعَ مَنْ يقوتُ»[٢]، وإن قال العزمُ: انفردْ! قال: فكيفَ بِمَنْ تَعولُ؟!

فغاية الأمر أنني أشرع في التقلُّل من الدنيا؛ وقد رَبِيْتُ في نعيمها، وغُذِيتُ بِلِبانِها، ولَطُفَ مِزاجي فوق لُطْفِ وَضْعِهِ بالعادة:

فإذا غيَّرتُ لباسي وخَشَّنْتُ مَطْعَمي لأنَّ القوت لا يحتمل الانبساط؛ نَفَرَ الطبع لفراق العادة، فحلَّ المرضُ، فقطعَ عن واجباتٍ، وأوقع في

(١) قَلَصَ الضرع: جفَّ وتوقف دره، والمعنى ظاهر فيما بعده من الكلام.

(٢) رواه مسلم (١٢ـ كتاب الزكاة، ١٢ ـ باب فضل النفقة على العيال والمملوك، ٢ / ٦٩٢ / ٩٩٦)، وأبو داوود ـ واللفظ له ـ (٣ ـ كتاب الزكاة، ٤٥ ـ باب في صلة الرحم، ١ / ٥٢٩ / ١٦٩٢)؛ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

آفاتٍ! ومعلوم أنَّ لينَ اللقمة بعد التَّحْصيل من الوجوه المستطابة ثم تَخْشينَها لمنْ لم يألفْ سعيٌ في تلفِ النفس. فأقول: كيف أصنعُ؟! وما الذي أفعلُ؟! وأخلو بنفسي في خَلَواتي، وأتزيَّدُ من البكاء على نقص حالاتي، وأقول: أصفُ حالَ العلماء؛ وجسمي يَضْعُفُ عن إعادة العلم!! وحالَ الزهاد؛ وبدني لا يَقْوى على الزُّهد!! وحالَ المحبِّين؛ ومخالطةُ الخلق تُشَتِّتُ همِّي وتَنْقُشُ صورَ المحبوبات من الهوى في نفسي فتصدأ مرآةُ قلبي!! وشجرةُ المحبة تحتاجُ إلى تربيةٍ في تُربة طيبة تُسقى ماء الخَلْوة من دولاب[1] الفكرة.

وإن آثرتُ التكسُّب؛ لم أُطِق!

وإن تعرضتُ لأبناء الدنيا؛ مع أنَّ طبعيَ الأنفةُ من الذلِّ وتديُّني يمنعني؛ فلا يبقى للميل مع هٰذين الجاذبين أثرًا! ومخالطةُ الخلق يؤذي النفس مع الأنفاس؛ فلا تحقيقَ التوبةِ أقدرُ عليه، ولا نيلَ مرتبةٍ من علمٍ أو عملٍ أو محبةٍ يصحُّ لي.

فإذا رَأيْتني كما قال القائل:

أَلقاهُ في الْيَمِّ مَكْتوفًا وَقالَ لَهُ ... إيَّاكَ إيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ بالماءِ

تحيرتُ في أمري، وبكيتُ على عُمُري، وأنادي في فَلَوات خَلَواتي بما سمعتُه من بعضِ العوامِّ وكأنه وصف حالي:

وَا حَسْرَتا كَمْ أُداري فيكَ تَعْثيري ... مِثْلَ الأسيرِ بِلا حَبْلٍ وَلاَ سَيْري[2]

---

(١) الدولاب: هو الناعورة التي يستقى بها الماء.

(٢) السَّير: القطعة من الجلد، تستعمل للربط والشد.

ما حيلتي في الهوى قَدْ ضاع تَدْبيري لَمَّا شَكَلْتَ جَناحي قُلْتَ لي طِيري(١)

٢٢ ـ فصل
[في بعض الأدوية النافعة لصلاح القلوب]

تأمَّلتُ أمرَ الدنيا والآخرة، فوجدتُ حوادثَ الدُّنيا حِسِّيَّةً طَبَعِيَّةً وحوادث الآخرة إيمانيَّةً يقينيَّةً. والحسياتُ أقوى جذبًا لمن لم يقْوَ علمُه ويقينُه.

والحوادثُ إنما تبقى بكثرةِ أسبابها: فمُخالطةُ الناس، ورؤيةُ المستحسنات، والتعرُّضُ بالملذوذاتِ؛ يقوِّي حوادثَ الحس. والعُزْلَةُ والفِكْرُ، والنَّظَرُ في العلم؛ يقوِّي حوادثَ الآخرة.

ويَبِينُ هذا بأنَّ الإنسان إذا خرج يمشي في الأسواق ويُبْصِرُ زينة الدنيا، ثم دخل إلى المقابر فتفكَّرَ وَرَقَّ قلبُه؛ فإنَّه يُحِسُّ بين الحالتين فرقًا بيِّنًا، وسببُ ذلك التعرُّض بأسباب الحوادث.

فعليك بالعُزلةِ والذِّكْرِ والنظرِ في العلم؛ فإن العزلةَ حِمْيَةٌ، والفكرَ والعلمَ أدويةٌ، والدواءُ مع التخليط لا ينفعُ، وقد تمكَّنَتْ منك أخلاطُ المخالطةِ للخَلْق والتخليطِ في الأفعال؛ فليس لك دواءٌ إلَّا ما وصفتُ لك.

فأما إذا خالطتَ الخلق وتعرضتَ للشَّهوات، ثم رُمْتَ صلاحَ القلب؛ رُمْتَ الممتنعَ.

---

(١) شكل الجناح: ربطه، من باب شكلت المرأة شعرها: ضفرته وربطته.

٢٣ ـ فصل

[أحب شيء إلى الإنسان ما منعا]

تأملتُ حرص النفس على ما مُنِعَتْ منه، فرأيتُ حِرْصَها يزيدُ على قَدْرِ قوةِ المنع.

ورأيتُ في الشَّرْبِ الأوَّلِ[1]: أنَّ آدم عليه السلام لما نُهِيَ عن الشجرة؛ حَرَصَ عليها مع كَثْرة الأشجار المغنية عنها.

وفي الأمثال: المرءُ حريصٌ على ما مُنِع، وتوَّاقٌ إلى ما لم يَنَل.

ويقال: لو أُمِرَ الناس بالجوع؛ لَصَبروا، ولو نُهوا عن تفتيت البَعْر؛ لَرَغِبوا فيه وقالوا: ما نُهينا عنه إلَّا لشيءٍ.

وقد قيل: أَحَبُّ شَيْءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِعَا

فلما بحثتُ عن سبب ذلك؛ وجدتُ سببين:

أحدُهما: أنَّ النفس لا تصبرُ على الحصر؛ فإنه يكفي حصرُها في صورة البدن؛ فإذا حُصِرَتْ في المعنى بمنعٍ؛ زاد طَيْشُها. ولهذا؛ لو قعد الإنسان في بيته شهرًا؛ لم يَصْعُبْ عليه، ولو قيل له: لا تَخْرُجْ من بيتك يومًا؛ طال عليه.

والثاني: أنها يشقُّ عليها الدُّخول تحتَ حُكْمٍ، ولهذا تَسْتَلِذُّ الحرام، ولا تكادُ تستطيبُ المباح. ولذلك يَسْهُلُ عليها التعبُّدُ على ما ترى

---

(١) الشَّرْب: القوم يشربون، والمقصود هنا: الرعيل الأول.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

وتؤثِرُهُ، لا على ما يُؤْثَر(١).

٢٤ ـ فصل

[في أن العزلة والانقطاع إنما يكونان عن الشرور لا عن الخيرات]

ما زالت نفسي تُنازعني ـ بما يوجِبُه مجلسُ الوعظ وتوبةُ التائبين ورؤيةُ الزاهدين ـ إلى الزُّهْدِ والانقطاعِ عن الخَلْق والانفرادِ بالآخرة.

فتأملتُ ذٰلك، فوجدت عمومَه من الشيطان:

فإنَّ الشيطانَ يَرى أنَّه لا يخلو لي مجلسٌ مِن خَلْقٍ لا يُحْصَوْنَ يبكونَ ويَنْدُبون على ذنوبهم، ويقوم في الغالب جماعةٌ يتوبون ويقطَعون شُعور الصِّبا، وربما اتفق خمسون ومئةٌ، ولقد تاب عندي في بعض الأيام أكثرُ من مئةٍ، وعمومُهم صبيانٌ قد نُشِّئوا على اللَّعِب والانهماك في المعاصي.

فكأنَّ الشيطانَ ـ لِبُعْدِ غَوْره في الشرِّ ـ رآني أجتذِبُ إليَّ مَنْ أجتذبُ منه، فأراد أن يَشْغَلَني عن ذٰلك بما يُزَخْرِفُه؛ لِيَخْلُو هو بِمَنْ أجتذِبُهُ من يده.

ولقد حسَّن ليَ الانقطاعَ عن المجالس، وقال: لا يخلو مِن تَصَنُّع للخَلْق!

فقلت: أمَّا زخرفةُ الألفاظ وتزويقُها وإخراجُ المعنى من مُسْتَحْسَنِ العبارة؛ ففضيلةٌ لا رذيلةٌ، وأما أن أقصِدَ الناسَ بما لا يجوز في الشَّرْع؛ فمعاذَ الله.

---

(١) أي: تتعبد كما تشاء بالبدع والأهواء، ولٰكن الالتزام بما يؤثر من السنن صعب ويحتاج إلى صبر ومعاناة.

ثم رأيتهُ يريني في التزهُّد قطعَ أسبابٍ ظاهرةِ الإباحة من الاكتساب!

فقلتُ له: فإن طاب لي الزُّهد، وتمكنتُ من العُزلة، فَنَفَذَ ما بيدي، أو احتاج بعضُ عائلتي؛ ألستُ أعودُ القَهْقَرى؟! فدعني أجْمَعْ ما يسدُّ خَلَّتي ويصونُني عن مسألة الناس؛ فإن مُدَّ عُمُري؛ كان نِعْمَ السببُ، وإلَّا؛ كان للعائلة، ولا أكونُ كراكبٍ أراق ماءه لرؤية سَرابٍ، فلما نَدِمَ وقتَ الفواتِ؛ لم ينتفعْ بالندم... وإنَّما الصوابُ توطئةُ المَضْجَع قبل النوم، وجمعُ المال السادِّ للخَلَّةِ قبل الكِبَر؛ أخذًا بالحزم؛ وقد قال الرسولُ ﷺ: «لأنْ تتركَ وَرَثَتَكَ أغنياء خيرٌ لك مِن أن تتركَهُم عالةً يتكفَّفُون الناس»[1]، وقال: «نعمَ المالُ الصالح للرجلِ الصالح»[2].

وأمَّا الانقطاعُ؛ فينبغي أن تكون العُزْلَةُ عن الشرِّ لا عَنِ الخير، والعُزلة عن الشرِّ واجبةٌ على كل حال.

وأمَّا تعليمُ الطالبين وهدايةُ المريدين؛ فإنه عبادةُ العالم.

وإنَّ من تَغفيلِ[3] بعضِ العلماء إيثارَه للتنفُّل بالصلاة والصوم عن

(١) رواه: البخاري (٦٩ ـ كتاب النفقات، ١ ـ باب فضل النفقة على الأهل، ٩ / ٤٩٧ / ٥٣٥٤)، ومسلم (٢٥ ـ كتاب الوصية، ١ ـ باب الوصية بالثلث، ٣ / ١٢٥٠ ـ ١٢٥١ / ١٦٢٨)؛ من حديث سعد رضي الله عنه.

(٢) (صحيح). رواه: أحمد (٤ / ١٩٧ و٢٠٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٩)، وابن حبان (٨ / ٦ / ٣٢١٠ و٣٢١١)، والحاكم (٢ / ٢ و٢٣٦)، والبغوي (١٠ / ٩١ / ٢٤٩٥)؛ من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وصححه الحاكم على شرط مسلم مرة، وعلى شرطهما في الأخرى، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

(٣) في الأصول: «تفضيل»، وما أثبتناه أولى.

تصنيف كتابٍ أو تعليمِ علمٍ ينفعُ ؛ لأنَّ ذلك بَذْرٌ يَكْثُرُ رَيْعُهُ ويمتدُّ زمانُ نفعِهِ.

وإنما تميلُ النفس إلى ما يزخرِفُهُ الشيطان من ذلك لمعنيين:

أحدُهما: حبُّ البطالة ؛ لأن الانقطاعَ عندها أسهلُ.

والثاني: حبُّ المِدْحَةِ ؛ فإنها إذا توسَّمتْ بالزُّهْدِ ؛ كان مَيْلُ العوامِّ إليها أكثر.

فعليك بالنَّظرِ في الشَّرْبِ الأوَّلِ ، فكنْ مع الشَّرْبِ المُتَقدِّم ، وهم الرسول ﷺ وأصحابُهُ رضي الله تعالى عنهم.

فهل نُقِلَ عن أحدٍ منهم ما ابتدعه جَهَلَةُ المتزهِّدين والمتصوِّفة من الانقطاعِ عن العلم والانفراد عن الخَلْق؟!

وهل كان شُغْلُ الأنبياءِ إلَّا معاناةَ الخلقِ وحثَّهم على الخيرِ ونَهْيَهُم عن الشرِّ؟!

إلَّا أن ينقطع مَن ليس بعالمٍ بقصدِ الكفِّ عن الشرِّ ؛ فذاك مرتبةُ المُحْتَمِي يخافُ شرَّ التخليط ؛ فأما الطبيبُ العالم بما يتناول ؛ فإنه ينتفعُ بما ينالهُ.

٢٥ ـ فصل

[في أن الاعتراف بالذل والنقص والتقصير مراد من الخلق]

تأملتُ المرادَ من الخَلْق ؛ فإذا هو الذُّلُّ واعتقادُ التقصيرِ والعَجْزِ.

وَمَثَّلْتُ العلماءَ والزُّهَّادَ العاملين صِنْفَيْن : فأقمت في صفِّ العلماء :

مالكًا، وسفيانَ[١]، وأبا حنيفة، والشافعيَّ، وأحمدَ. وفي صفِّ العُبَّادِ: مالكَ بن دينارٍ[٢]، ورابعة[٣]، ومعروفًا الكَرْخِيَّ[٤]، وبِشْرَ بن الحارث[٥].

فكلَّما جَدَّ العبَّادُ في العبادة؛ صاح بهم لسانُ الحال: عباداتُكم لا يتعدَّاكُم نفعُها، وإنما يتعدَّى نفعُ العلماءِ، وهُم وَرَثَةُ الأنبياء، وخلفاءُ الله في الأرض[٦]، وهم الذين عليهم المُعَوَّلُ ولهم الفضلُ إذا أطرقوا وانْكَسَروا وعلموا صدقَ تلك الحال. . . وجاء مالكُ بن دينارٍ إلى الحسن يتعلَّم منه، ويقول: الحسنُ أستاذُنا.

وإذا رأى العلماءُ أنَّ لهم بالعلم فضلًا؛ صاح لسانُ الحال بالعلماء: وهل المراد من العلم إلَّا العملُ؟!

وقال أحمدُ بن حنبل: وهل يُراد بالعلم إلَّا ما وصل إليه معروفٌ[٧]؟!

وصح عن سفيان الثَّوْرِيِّ؛ قال: وَدِدْتُ أنَّ يدي قُطِعَتْ ولم أكتبِ الحديثَ[٨].

(١، ٢، ٣، ٥) تقدمت تراجمهم في (فصل ١٩).

(٤) علم الزهاد، صاحب المناقب والأقوال الحسنة، المتوفى سنة ٢٠٠هـ. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (١٣ / ١٩٩)، و«سير أعلام النبلاء» (٩ / ٣٣٩).

(٦) ليس الإنسان خليفة لله في الأرض! كيف والخليفة إنما يخلف عن غائب؟! كيف والنبي ﷺ يقول: «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل والمال»؟!

(٧) انظر الخبر في: «تاريخ بغداد» (١٣/ ٢٠٠)، و«أعلام النبلاء» (٩/ ٣٤٠).

(٨) الناظر في ترجمة سفيان في «الحلية» (٦ / ٣٥٦) سيجد كثيرًا من الأخبار في الحض على علم الحديث واستماعه، وكثيرًا من الأخبار في الخوف منه وأنه ليس من زاد الآخرة. . . إلخ، والحق أن كلا الأمرين صحيح؛ ففي تعلم الحديث وحفظه وفهمه خير كثير، لكن على أن يخلص المرء فيه وجهه لله، ولا يطلب الشهرة والعلو، ولا يقصر في =

وقالتْ أمُّ الدرداء لرجلٍ : هل عملتَ بما علمتَ؟ قال: لا . قالت : فَلِمَ تستكثرُ مِن حجةِ الله عليك[١]؟!

وقال أبو الدرداء: ويلٌ لمن لم يعلمْ ولم يعملْ مرةً، وويلٌ لمن علمَ ولم يعملْ سبعين مرة[٢].

وقال الفضيلُ: يُغْفَرُ للجاهل سبعونَ ذنبًا قبلَ أنْ يُغْفَرَ للعالم ذنبٌ واحد[٣].

فما يبلغ من الكلِّ قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمونَ والَّذينَ لا يَعْلَمونَ﴾ [الزمر: ٩].

وجاء سفيانُ إلى رابعةَ، فجلسَ بين يَدَيْها ينتفعُ بكلامها[٤].

فدلَّ العلماءَ العلمُ على أنَّ المقصودَ منه العملُ به، وأنه آلةٌ، فانكسروا واعترفوا بالتَّقْصيرِ.

فحصلَ الكلُّ على الاعتراف والذُّلِّ، فاسْتَخْرَجَتِ المعرفةُ منهم حقيقةَ العُبوديَّةِ باعترافِهم؛ فذٰلك هو المقصودُ من التَّكْليفِ.

= العمل بما حفظ وسمع، ولا يستغني به عن الاهتمام بالقرآن الكريم حفظًا ودرسًا وفهمًا، ولا يقصر في تهذيب النفس والإقبال على الله بالطاعات. والله أعلم.

(١) صاحبة هٰذا القول هي أم الدرداء الصغرى، السيدة، العالمة، الفقيهة، هجيمة (وقيل: جهيمة)، الأوصابية، الحميرية، التابعية، المشهورة بالعلم والعمل والزهد. انظر ترجمتها في: «سير أعلام النبلاء» (٤ / ٢٧٧)، و«تهذيب التهذيب» (١٢ / ٤٦٥).

(٢) انظر الخبر في: «حلية الأولياء» (١ / ٢١١).

(٣) انظر الخبر في: «حلية الأولياء» (٧ / ٢٨٦، ٨ / ١٠٠).

(٤) انظر الخبر في: «سير أعلام النبلاء» (٨ / ٢٤١ ـ ٢٤٣).

٢٦ـ فصل

[في أن مقام المحبة من أعظم مقامات العبودية]

تأملتُ قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]؛ فإذا النفسُ تأبى إثباتَ محبةٍ للخالق توجب قلقًا[1]، وقالت: محبتُه طاعتُه.

فتدبرتُ ذلك؛ فإذا بها قد جهلتْ ذلك لِغَلَبَةِ الحسِّ.

وبيان هذا: أنَّ محبة الحسِّ لا تتعدَّى الصُّوَر الذاتيَّةَ، ومحبَة العلم والعمل تَرَى الصُّوَرَ المعنويَّةَ فَتُحِبُّها.

فإنَّا نرى خلقًا يحبُّون أبا بكر رضي الله عنه، وخلقًا يحبُّون عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقومًا يتعصَّبون لأحمد بن حنبل، وقومًا للأشعريِّ، فيقتتلون ويبذُلون النفوسَ في ذلك، وليسوا ممَّنْ رأى صُوَرَ القوم، ولا صورُ القوم توجبُ المحبةَ، ولكن لما تَصَوَّرتْ لهم المعاني، فدلَّتْهُم على كمالِ القوم في العلوم؛ وقع الحبُّ لتلك الصور التي شوهدت بأعين البصائر.

فكيف بمن صَنَعَ تلك الصورَ المعنويَّةَ وبَذَلَها؟!

وكيف لا أحبُّ مَن وهب لي ملذوذاتِ حِسِّي وعـرَّفَني ملذوذاتِ علمي؟! فإن التـذاذي بالعلم وإدراك العلوم أولى من جميع اللَّذَّات الحسِّيَّةِ؛ فهو الذي علَّمني وخلق لي إدراكًا وهداني إلى ما أدركتُه. ثم إنه يتجلَّى لي في كلِّ لحظة في مخلوقٍ جديدٍ، أراه فيه بإتقانِ ذلك الصُّنْعِ وحسنِ ذلك المصنوع. فكلُّ محبوباتي منه وعنه وبه، الحسيةِ والمعنويةِ،

(١) يعني بالقلق: الانفعال العاطفي والتأثر الوجداني.

وتسهيلُ سُبُل الإِدراك به، والمدركاتُ منه، وأَلَذُّ من كل لَذَّةٍ عِرْفاني له؛ فلولا تعليمهُ؛ ما عرفتُه.

وكيف لا أحبُّ من أنـا بِهِ، وبقائي منه، وتدبيري بيده، ورجوعي إليه، وكلُّ مستحسنٍ محبوبٍ هو صَنَعَه وحَسَّنه وعَطَفَ النفوس إليه؟!

فذلك الكاملُ القدرة أحسنُ من المقدور، والعجيبُ الصَّنْعَةِ أكملُ من المصنوع، ومعنى الإِدراك أحلى عِرفانًا مِنَ المُدْرَك.

ولـو أننـا رأينا نقشًا عجيبًا؛ لاسْتَغْرَقَنا تعظيمُ النقَّاش وتهويلُ شأنه وظريفُ حكمته عن حُبِّ المنقوش.

وهٰذا مما تترقَّى إليه الأفكارُ الصافيةُ إذا خَرَقَ نَظَرُها الحسِّيَّاتِ ونَفَذَ إلى ما وراءها؛ فحينئذٍ تقع محبةُ الخالق ضرورةً.

وعلى قَدْرِ رؤية الصـانـع في المصنوع يقعُ الحبُّ له: فإنْ قَوِيَ؛ أوجبَ قلقًا وشوقًا(١)، وإنْ مال بالعارف إلى مقام الهيبة؛ أوجبَ خوفًا، وإنِ انحرفَ به إلى تَلَمُّحِ الكرم؛ أوجبَ رجاءً قويًّا. . . ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

٢٧ ـ فصل

[في أنه لا بد من التسليم لحكمة المولى سبحانه]

تأملتُ حالًا عجيبـةً، وهي أنَّ الله سبحـانـه وتعـالى قد بَنَى هٰذه

(١) وهٰذا أمر صحيح ومطلوب شرعًا، وهو مقام عال من أعظم مقامات العبودية، إذا لم يشتط المرء فيه ويشطح، فيجعل هٰذا الحب عشقًا، ويصور إلٰهه تعالى عما يفعل الظالمون امرأة يتدله في حبها ويطلب وصالها؛ كما جرى مع بعض أرباب التصوف!

الأجسام متقنةً على قانون الحِكْمة، فدلَّ بذٰلك المصنوعِ على كمال قدرتِهِ ولطيفِ حكمته، ثم عاد فَنَقَضَها.

فتحيَّرَتِ العقولُ بعدَ إذعانِها له بالحكمةِ في سرِّ ذٰلك الفعل؟! فأُعْلِمَتْ أنها سَتُعاد للمعاد، وأن هٰذه البُنْيَةَ لم تُخْلَقْ إلَّا لِتَجوزَ في مجاز المعرفة وتَتَّجِرَ في موسم المعاملةِ. فسكنَتِ العقولُ لذٰلك.

ثم رأيتُ أشياء من هٰذا الجنس أظرفَ منه: مثل اخْترام شابٍّ ما بلغ بعضَ المقصودِ بنيانُه! وأعجبُ من ذٰلك أخذُ طفلٍ من أكفِّ أبويه؛ يَتَمَلْمَلانِ، ولا يظهر سرُّ سلبِهِ، والله الغنيُّ عن أخذه، وهما أشدُّ الخلق فَقْرًا إلى بقائه! وأظرفُ منه إبقاءُ هَرِمٍ لا يدري معنى البقاء، وليس له فيه إلَّا مجرَّدُ أذى! ومن هٰذا الجنس تقتير الرِّزْقِ على المؤمن الحكيم، وتوسعتُه على الكافرِ الأحمق... وفي نظائرَ لهٰذه المذكورات يتحيَّرُ العقلُ في تعليلها فيبقى مبهوتًا.

(فلم أزل أتلمَّحُ جملةَ التكاليف؛ فإذا عجزتْ قُوى العقل عن الاطِّلاع على حكمةِ ذٰلك، وقد ثبت لها حكمةُ الفاعل؛ علمتْ قصورَها عن دَرْكِ جميع المطلوبِ، فأذعنتْ مُقِرَّةً بالعجز، وبذٰلك تؤدي مفروضَ تكليفها.)

ولو قيل للعقل: قد ثبت عندك حكمةُ الخالق بما بنى؛ أفيجوزُ أن يقدح[1] في حكمته أنه نَقَضَ؟ لقال: لأني عرفتُ بالبرهان أنه حكيمٌ، وأنا أعجِزُ عن إدراكِ عِلَلِ حكمتِهِ، فأسلِّمُ على رغمي مُقِرًّا بعَجْزي[2].

(١) في الأصول: «ينقدح»، وما أثبتناه أولى.

(٢) وقد سبق للمصنف كلام قريب من هٰذا، انظره مع تعليقنا عليه في (فصل ١٣).

رَفْعُ عبد الرحمن النجدي أسكنه الله الفردوس

٢٨ ـ فصل
[في مقاصد النكاح وحكم الزواج]

تأملتُ في فوائد النِّكاح ومعانيه وموضوعِهِ، فرأيتُ أنَّ الأصلَ الأكبر في وَضْعِهِ وجودُ النسل؛ لأنَّ هٰذا الحيوان لا يزال يتحلَّل، ثم يُخْلِفُ المتحلِّلَ الغذاءُ، ثم يتحلَّلُ من الأجزاء الأصليَّةِ ما لا يُخْلِفُهُ شيءٌ؛ فإذا لم يكن بدٌّ من فنائِهِ، وكان المرادُ امتدادَ أزمان الدُّنيا؛ جُعِل النسلُ خَلَفًا عن الأصل.

ولما كانتْ صورةُ النِّكاح تأباها النفوسُ الشريفةُ؛ مِن كَشْفِ العَوْرَةِ، وملاقاةِ ما لا يُسْتَحْسَنُ لنفسه؛ جُعِلَتِ الشهوةُ تحثُّ عليه؛ لِيَحْصُلَ المقصودُ.

ثم رأيتُ هٰذا المقصودَ الأصليَّ يتبعُهُ شيءٌ آخر، وهو استفراغُ هٰذا الماء الذي يؤذي دوامُ احتقانِهِ؛ فإن الْمَنِيَّ ينفصلُ من الهضم الرابع؛ فهو مِن أصفى جوهر الغذاء وأجودِهِ، ثم يجتمعُ؛ فهو أحدُ الذخائر للنفس؛ فإنها تدَّخِرُ ـ لبقائِها وقوَّتها ـ الدمَ ثم المنيَّ، ثم تدخر الثُّفْلَ[1] الذي هو من أعمدة البدن؛ كأنه لخوف عدم غيره؛ فإذا زاد اجتماعُ المنيِّ؛ أقلقَ على نحوِ إقلاقِ البَوْلِ للحاقن؛ إلَّا أنَّ إقلاقَه من حيث المعنى أكثرُ من إقلاق البَوْلِ من حيثُ الصُّورةُ، فتوجبُ كثرةُ اجتماعِهِ وطولُ احْتباسِهِ أمراضًا صعبةً؛ لأنه يترقَّى مِن بُخاره إلى الدماغ فيؤذي، وربما أحدث سُمِّيَّةً . . . ومتى كان المزاجُ سليمًا؛ فالطبع يطلُبُ بروزَ المَنِيِّ إذا اجتمع كما يطلُبُ

(١) الثُّفْل: اللعاب.

بروزَ البول.

وقد ينحرف بعضُ الأمزجة فيقِلُّ اجتماعُه عنده فيندُرُ طلبه لإخراجه، وإنما نتكلَّم عن المِزاج الصحيح، فأقولُ: قد بيَّنتُ أنه إذا وقع به احتباسُه؛ أوجب أمراضًا، وجدَّد أفكارًا رديئةً، وجلب العشقَ والوسوسةَ... إلى غير ذٰلك من الآفات.

وقد نجدُ صحيحَ المِزاج يُخْرِجُ ذٰلك إذا اجتمعَ وهو بعدُ مُتَقَلْقِلٌ، فكأنه الآكلُ الذي لا يشبعُ! فبحثتُ عن ذٰلك، فرأيتُه وقوعَ الخلل في المنكوح: إما لِدَمامَتِه وقُبح منظره، أو لآفةٍ فيه، أو لأنه غيرُ مطلوبٍ للنفس؛ فحينئذٍ يَخْرُجُ منه ويبقى بعضُه.

فإذا أردتَ معرفةَ ما يدلُّك على ذٰلك؛ فقس مقدار خروج المنيِّ في المحل المشتهى، وفي المحلِّ الذي هو دونه؛ كالوطءِ بين الفَخِذَيْن، بالإضافة إلى الوطءِ في محلِّ النِّكاح، وكَوَطْءِ البكر بالإضافة إلى وَطْءِ الثَّيِّب!

فَعُلِمَ حينئذ أن تخيُّر المنكوح يستقصي فضولَ المنيِّ، فيحصُل للنفس كمالُ اللَّذَّة؛ لموضِعِ كمال بُروز الفضول.

ثم قد يؤثر هٰذا في الولد أيضًا؛ فإنه إذا كان ـ أي: الولد ـ من شابَّيْن قد حَبَسا أنفسَهما عن النكاح مُدَّة مديدةً؛ كان الولدُ أقوى منه من غيرهما أو من المدمن على النكاح في الأغلب.

ولهٰذا كُرِهَ نكاحُ الأقارب؛ لأنه مما يَقْبُضُ النفس عن انبساطها، فيتخيَّلُ الإنسانُ أنه ينكِحُ بعضَه، ومُدِحَ نِكاح الغرائب لهٰذا المعنى.

ومن هٰذا الفنِّ يحصُلُ كثيرٌ من المقصود من دَفْع هٰذه الفُضول المؤذيةِ بمنكوحٍ مُسْتَجَدٍّ، وإنْ كان مستقبحَ الصُّورة، ما لا يحصلُ به في العادة.

ومثال هٰذا أنَّ الطاعم إذا امتلأ خبزًا ولحمًا حيث لم يبقَ فيه فَضْلٌ لِتَناوُل لقمةٍ، إذا قُدِّمَتْ إليه الحلوى؛ فيتناولُ، فلو قُدِّمَ أعجبُ منها؛ لتناولَ، لأن الجِدَّةَ لها معنى عجيبٌ، وذٰلك أن النفس لا تميل إلى ما أَلِفَتْ، وتطلبُ غير ما عَرَفَتْ، ويتخايل لها في الجديد نوعُ مُرادٍ؛ فإذا لم تجدْ مرادَها؛ صَدَفَتْ[1] إلى جديدٍ آخر، فكأنها قد علمتْ وجودَ غرض تامٍّ بلا كَدَرٍ، وهي تتخايلُه فيما تراه.

وفي هٰذا المعنى دليلٌ مدفونٌ على البَعْث؛ لأن في خَلْقِ مَنْ هِمَّتُهُ متعلِّقةٌ بلا متعلَّقٍ نوعُ عَبَث[2]؛ فافهمْ هٰذا!

فإذا رأتِ النفسُ عيوبَ ما خالطت في الدُّنيا؛ عادتْ تطلبُ جديدًا.

ولذٰلك قال الحكماء: العِشْقُ: العمى عن عُيوب المحبوب؛ فمَنْ تأمَّلَ عُيوبه؛ سَلا.

ولذٰلك يُستحبُّ للمرأة أن لا تَبْعُدَ عن زوجها بُعدًا تنسيه إياها، ولا تَقْرُبَ منه قُربًا يَمَلُّها معه، وكذٰلك يستحبُّ ذٰلك له؛ لئلا يَمَلَّها أو تظهرَ لديه مكنوناتُ عُيوبِها.

(١) الصُّدوف: الإعراض والانصراف.

(٢) يعني أن نفس الإنسان تطلب الاستزادة دائمًا؛ فلا بد من البعث والحشر والجنة والنار، حتى تصل إلى المراد الأعظم الذي لا زيادة بعده، وإلا؛ فالتسلسل الذي لا نهاية له في هٰذه الدنيا في طلب الزيادة عبثٌ يتنزه الخالق عنه.

وينبغي له أن لا يطَّلع منها على عورةٍ، ويجتهدَ في أن لا يَشُمَّ منها إلَّا طِيْبَ ريحٍ . . . إلى غير ذٰلك من الخِصال التي تستعملُها النساء الحكيمات؛ فإنهنَّ يَعْلَمْنَ ذٰلك بِفِطَرِهِنَّ من غير احتياجٍ إلى تعليم، فأما الجاهلاتُ؛ فإنهنَّ لا يَنْظُرْنَ في هٰذا، فيتعجَّلُ التفاتُ الأزواج عنهنَّ.

فمن أراد نجابة الولدِ وقضاءَ الوَطَرِ؛ فلْيَتَخَيَّرِ المنكوح:

إن كان زوجةً؛ فلينظرْ إليها؛ فإذا وقعتْ في نفسه؛ فليتزوجْها، ولينظرْ في كيفية وقوعها في نفسه؛ فإن علامة تَعَلُّقِ حُبِّها بالقلب ألَّا يُصْرَفَ الطرفُ عنه؛ فإذا انصرف الطرفُ؛ قَلِقَ القلبُ بتقاضي النظرة[1]؛ فهٰذا الغايةُ، ودونَه مراتبُ على مقاديرِها يكونُ بلوغُ الأغراض.

وإن كان جاريةً تُشْتَرى؛ فلينظرْ إليها أبلغَ من ذٰلك النَّظر.

ومَن قَدَرَ على مناطقةِ المرأةِ أو مكالمتِها بما يوجِبُ التنبيهَ، ثم ليرى ذٰلك منها؛ فإنَّ الحُسْنَ في الفم والعينين.

وقد نَصَّ أحمدُ على جواز أن يُبْصِرَ الرجلُ من المرأة التي يريدُ نِكاحَها ما هو عورةٌ؛ يشير إلى ما يزيدُ على الوجه.

ومَن أمكنه أن يؤخِّرَ العقدَ أو شراءَ الجارية لينظرَ كيفَ تَوقانُ قلبه؛ فإنه لا يخفى على العاقل تَوَقانُ النفس لأجل المستجدِّ، وتوقانُها لأجلِ الحبِّ؛ فإذا رأى قَلَقَ الحبِّ؛ أقدم؛ فإنه قد أخبرنا محمد بن عبد الباقي؛ قال: أخبرنا حمد بن أحمد؛ قال: أخبرنا أبو نعيم؛ قال: حدثنا سليمان بن أحمد؛ قال: حدثنا عبد الجبار بن أبي عامر؛ قال: حدثني أبي؛ قال:

---

(١) يعني: انشغل بطلب نظرة جديدة إلى المحبوب.

حدثني خالد بن سلام؛ قال: حدثنا عطاءُ الخُراسانيُّ؛ قال: مكتوبٌ في التَّوراة: كلُّ تزويجٍ على غيرِ هوىً حسرةٌ وندامةٌ إلى يوم القيامة(١).

ثم ينبغي للمتخيِّر أن يتفرَّسَ في الأخلاق؛ فإنها من الخفيِّ، وإن الصورة إذا خَلَتْ من المعنى؛ كانت كخضراءِ الدِّمَن(٢)، ونَجابةُ الوَلَدِ مقصودةٌ.

وفراغُ النفس من الاهتمام بما حَصَّلَتْ من رغباتٍ أصلٌ عظيمٌ يوجبُ إقبال القلب على المُهِمَّات، ومَنْ فَرَغَ من المُهِمَّاتِ العارضةِ؛ أقبل على المُهِمَّاتِ الأصليةِ، ولهٰذا جاء في الحديث: «لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبانُ»(٣)، و: «إذا وُضِعَ العَشاء، وحضرتُ العِشاءُ؛ فابدؤوا بالعَشاء»(٤).

فمن قَدَرَ على امرأة صالحةٍ في الصُّورة والمعنى؛ فلْيُغْمِضْ عن

(١) ظاهر أن هٰذا من الإسرائيليات، والهوى هنا ليس العشق والهيام، وإنما هو الاستحسان الذي يجده الرجل للمرأة التي يخطبها، وما كان الله ليأمر عباده بالهوى والعشق والحب قبل الزواج!!

(٢) الدِّمَن والدِّمْن: البعر ومخلفات الحيوانات، وخضراء الدمن: ما ينبت في مواضع هٰذا البعر من النبات الأخضر.

(٣) رواه البخاري (٩٣ ـ كتاب الأحكام، ١٣ ـ باب هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان، ١٣ / ١٣٦ / ٧١٥٨)، ومسلم (٣٠ ـ كتاب الأقضية، ٧ ـ باب كراهة قضاء القاضي وهو غضبان، ٣ / ١٣٤٣ / ١٧١٧)؛ عن أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٤) رواه: البخاري (١٠ ـ كتاب الأذان، ٤٢ ـ باب إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة، ٢ / ١٥٩ / ٦٧٣)، ومسلم (٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ١٦ ـ باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام ومع مدافعة الأخبثين، ١ / ٣٩٢ / ٥٥٩)؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

عوراتها[١]، ولتجتهدْ هي في مَراضيه؛ من غير قربٍ يُمِلّ ولا بُعْدٍ يُنْسي، ولْتَقْدِمْ على التَّصَنُّعِ[٢] له؛ يَحْصُل الغرضان منها؛ الولدُ وقضاءُ الوَطَر، ومع الاحتراز الذي أوصيتُ به تدومُ الصُّحبة ويحصُلُ الغَنَاء بها عن غيرها.

فإذا قَدَرَ على الاستكثار، فأضاف إليها سِواها، عالمًا أنه بذلك يبلغُ الغرض الذي يُفْرِغُ قلبَه زيادةَ تفريغٍ؛ كان أفضل لحاله.

فإن خاف من وجود الغَيْرَةِ ما يَشْغَلُ القلبَ الذي قد اهتممنا بجمع هِمَّته، أو خاف وجودَ مُسْتَحْسَنَةٍ تَشْغَلُ قلبَه عن ذِكر الآخرة، أو تطلُبُ منه ما يوجب خروجَه عن الورع؛ فحسبُهُ واحدةٌ.

ويدخُلُ فيما أوصيتُ به أنه يَبْعُدُ في المستحسنات العفاف؛ فلْيبالغِ الواجدُ لهنَّ في حفظهنَّ وسترهنَّ؛ فإنْ وَجَدَ ما لا يُرضيه؛ عَجَّلَ الاستبدال؛ فإنه سبب السُّلُوِّ، وإن قَدَرَ على الاقتصار؛ فإن الاقتصار على الواحدة أولى؛ فإن كانتْ على الغَرَضِ؛ قَنَعَ، وإن لم تكنِ؛ استبدلَ.

ونكاح المرأةِ المحبوبةِ يَسْتَفْرِغُ الماء المجتمعَ، فيوجب نجابةَ الولد وتمامه، وقضاء الوَطَر بكمالِهِ.

ومن خاف وجود الغَيْرَة؛ فعليه بالسراري؛ فإنهنَّ أقلُّ غيرةً، والاستظراف لهنَّ أمكنُ من استظراف الزوجات.

وقد كانت جماعةٌ يمكنُهُم الجمعُ، وكان النساءُ يَصْبِرْنَ:

---

(١) العورات هنا: العيوب.

(٢) التزيُّن والتجمل.

فكان لداوود عليه الصلاة والسلام مئةُ امرأةٍ[1].

ولسليمانَ عليه الصلاة والسلام ألفُ امرأةٍ[2].

(١) إنما ورد ذٰلك في قصة زواج داوود عليه السلام من امرأة أوريا، وهي قصة غير صحيحة، من الإسرائيليات المستبشعة المذمومة التي أولع كثير من المفسرين والمتكلمين والقصاص بذكرها وإثارتها في الناس، وهي لا تليق بآحاد الناس، فضلًا عن أتقيائهم، بل أنبيائهم.

ولا تكاد تجد نبيًا من أنبياء بني إسرائيل إلا وقد صنعوا له قصة كهٰذه أو أشد وأخزى؛ مما يشير إلى حقيقة نظرتهم إلى أنبياء الله ورسله واتهامهم لهم بما يأباه آحاد الناس فضلًا عن صالحيهم. ولهٰذا أوصانا الله تعالى أن لا نكون مثلهم فقال سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وما أحسن ما فعله الحافظ ابن كثير رحمه الله عندما أعرض عن هٰذه القصة في «تفسيره» (٤ / ٣٢ / صٓ ٢٥) وانتقدها فقال: «قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ولٰكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثًا لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه، ويزيد؛ وإن كان من الصالحين، لٰكنه ضعيف الحديث عند الأئمة؛ فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هٰذه القصة (يعني: الآيات القرآنية الواردة فيها)، وأن يرد علمها إلى الله عز وجل؛ فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضًا».

(٢) ذكر قريبًا منه غير واحد من السلف، وغالبها مرويات معضلة ومنقطعة، زد على ذٰلك اضطرابها؛ ففي بعضها ست مئة امرأة، وفي بعضها ألف امرأة، وفي بعضها ألف ومئتي امرأة، ولا يرجع شيء منها إلى سند صحيح مرفوع إلى المعصوم يعتمد عليه ويؤخذ به، وإنما هي من الإسرائيليات.

وانظر: «تفسير ابن جرير» (٤ / ١٤٣ / النساء ٥٤) و(١٠ / ٥٨٦ / صٓ ٤٠)، و«المستدرك» (٢ / ٥٨٩)، و«الدر المنثور» (٢ / ٣٠٩ / النساء ٥٤).

والذي صح من هٰذا ما رواه: البخاري (٦٠ ـ كتاب أحاديث الأنبياء، ٤٠ ـ باب قول الله تعالى: ﴿ووهبنا لداوود سليمان نعم العبد إنه أواب﴾، ٦ / ٤٥٨ / ٣٤٢٤)، ومسلم (٢٧ ـ كتاب الإيمان، ٥ ـ باب الاستثناء، ٣ / ١٢٧٥ / ١٦٥٤)؛ من حديث أبي هريرة =

وقد عُلِم حالُ نبيِّنا ﷺ وأصحابه[1].

وكان لأمير المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه أربع حرائر وسبع عشرة سُرِّيَّةً[2].

وتزوَّج ابنه الحسن رضي الله عنه بنحو من أربع مئة[3].

... وإلى غير هٰذا مما يطول ذِكرُه.

فافهم ما أشرتُ إليه؛ تَفُزْ بِهِ إن شاء الله تعالى[4].

٢٩ ـ فصل

[حلاوة الطاعة وشؤم المعصية]

كل شيءٍ خَلَقَ الله تعالى في الدنيا؛ فهو أنموذجٌ في الآخرة، وكلُّ شيء يجري فيها أنموذجُ ما يجري في الآخرة.

فأما المخلوق منها؛ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الجنة شيءٌ يُشْبِهُ ما في الدُّنيا إلا الأسماءَ[5].

= مرفوعًا: «قال سليمان بن داوود: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة منهن فارسًا... » الحديث، ووقع في بعض الروايات: «ستين امرأة»، وفي بعضها: «تسعين»، وفي بعضها: «مئة».

(١، ٢، ٣) تقدم ذكره وتخريجه في (فصل ١٩).

(٤) وقد أورد المصنف رحمه الله في هٰذا الفصل جملة من الآراء الطبية والعلمية لا يصح منها شيء تقريبًا من وجهة نظر الطب الحديث، وإنما هي صدى للنظرية الطبية اليونانية وللمعارف الطبية التي سادت عصره.

(٥) أخرجه مسدد وهناد في «الزهد» وابن جرير (١ / ٢١٠ / ٥٣٤ و ٥٣٥) وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في «البعث». وانظر: «الدر المنثور» (١ / ٨٢ / البقرة ٢٥).

وهذا لأن الله تعالى شَوَّقَ بنعيمٍ إلى نعيمٍ، وَخَوَّف بعذابٍ من عذابٍ.

فأما ما يجري في الدُّنيا؛ فكلُّ ظالم معاقَبٌ في العاجل على ظُلمه قبل الآجل، وكذلك كلُّ مذنب ذنبًا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سوءً يُجزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

وربما رأى العاصي سلامةَ بدنِهِ ومالِهِ، فظنَّ أنْ لا عقوبةَ، وغفلتُهُ عما عوقِبَ به عقوبةٌ.

وقد قال الحكماء: المعصيةُ بعد المعصيةِ عقابُ المعصيةِ، والحسنةُ بعد الحسنةِ ثوابُ الحسنة.

وربما كان العقاب العاجل معنويًّا؛ كما قال بعض أحبار بني إسرائيل: يا رب! كم أعصيكَ ولا تعاقِبُني! فقيل له: كم أعاقبُك وأنت لا تدري! أليس قد حَرَمْتُكَ حَلَاوَةَ مُناجاتي؟

فَمَنْ تأمَّلَ هذا الجنس من المعاقبة؛ وَجَدَهْ بالمرصاد، حتى قال وُهَيْب بن الورد[1]؛ وقد سئل: أيجدُ لَذَّةَ الطاعة من يعصي؟ فقال: ولا مَنْ هَمَّ.

فربَّ شخصٍ أطلق بَصَرَهُ فحرمَهُ اللهُ اعتبارَ بصيرتِهِ، أو لسانَهُ فحرمَهُ الله صفاءَ قلبه، أو آثر شُبهةً في مطعمِهِ فأظلم سِرُّه وحُرِم قيامَ الليل وحلاوة

---

(١) في الأصول: «وهب»، والصحيح ما أثبتناه، وهو: العابد الرباني، أبو أمية، وهيب بن الورد (ويقال اسمه: عبد الوهاب)، توفي سنة ١٥٣هـ. انظر ترجمته في: «سير النبلاء» (٧/١٩٨)، و«التهذيب» (١١/١٧٠). وخبره في: «الحلية» (٨/١٤٤).

المناجاة. . . إلى غير ذٰلك.

وهٰذا أمرٌ يعرفُه أهلُ محاسبة النفس.

وعلى ضدِّه يجدُ من يتَّقي الله تعالى من حسن الجزاء على التَّقوى عاجلاً؛ كما في حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ: «يقول الله تعالى: النظرة إلى المرأة سهمٌ مسمومٌ مِنْ سِهامِ الشَّيْطانِ، مَنْ تَرَكَهُ ابتغاءَ مَرْضاتي؛ آتيتُه إيمانًا يَجِدُ حلاوتَهُ في قلبِهِ»(١).

فهٰذه نَبْذَةٌ من هٰذا الجنس تُنَبِّه على مُغْفَلِها.

فأما المقابلة الصريحة في الظاهر؛ فَقَلَّ أن تحتبس، ومن ذٰلك قول النبي ﷺ: «الصُّبْحَةُ(٢) تمنعُ الرِّزق»(٣)، و«إن العبدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بالذنب يُصيبهُ»(٤).

---

(١) (ضعيف جدًّا). تقدم تخريجه والكلام عليه في (فصل ١٨) تحت حديث: «من غض بصره عن محاسن امرأة. . .» إلخ؛ فلينظر هناك.

(٢) الصُّبحة والصَّبحة: نوم الغداة؛ يعني: أول النهار.

(٣) (ضعيف جدًّا). أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على «المسند» (١ / ٧٣) من حديث إسماعيل بن أبي عياش، عن ابن أبي فروة، عن محمد بن يوسف، عن عمرو بن عثمان بن عفان، عن أبيه مرفوعًا.

قال الهيثمي في «المجمع» (٤ / ٦٢): «فيه إسحاق بن أبي فروة، وهو ضعيف». وإسحاق له ترجمة مظلمة في «الميزان»، وإسماعيل بن عياش منكر الحديث في الحجازيين وهٰذا منه. وقد ساق الذهبي في «الميزان» هٰذا الحديث وعده من منكراتهما، وضعفه الألباني جدًّا في «ضعيف الجامع» (رقم ٣٥٣١).

(٤) (حسن). جزء من حديث رواه: أحمد (٥ / ٢٧٧ و ٢٨٠ و ٢٨٢)، وابن ماجه (٢٦ ـ كتاب الفتن، ٢٢ ـ باب العقوبات، ٢ / ١٣٣٤ / ٤٠٢٢)، والحاكم (١ / ٤٩٣)، وابن حبان (٣ / ١٥٣ / ٨٧٢)، والبغوي (١٣ / ٦ / ٣٤١٨)؛ من طرق عن سفيان، عن =

وقد روى المفسرون: أن كل شخص من الأسباط جاء باثني عشر ولدًا، وجاء يوسف بأحد عشر بالهَمَّة[1].

= عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبي الجعد، عن ثوبان... فذكره مرفوعًا.

وعبد الله هذا: وثقه ابن حبان، وروى عن اثنين، وروى عنه اثنان، وقال الحافظ في «التقريب»: «مقبول»؛ فالحديث قابل للتحسين.

ويشهد له ما رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠ / ٢٧) من حديث أبي أمامة مرفوعًا: «ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق على أن يطلبه بمعصية الله؛ فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠٨٥).

ويشهد له أيضًا قوله تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولٰكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ [الأعراف: ٩٦].

والحديث صححه أبو حاتم السجستاني؛ فقد أورد البغوي تأويله لمعانيه والتأويل فرع التصحيح، وصححه ابن حبان، والحاكم، ووافقه الذهبي، وقال البوصيري: «وسألت شيخنا أبا الفضل العراقي عن هٰذا الحديث؟ فقال: هٰذا حديث حسن».

(١) رواه: ابن جرير في «التفسير» (٧ / ١٨٥ / ١٩٠٦٢ و ١٩٠٧٧) موقوفًا على علي بن بذيمة وسعيد بن جبير بأسانيد ضعيفة. وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤ / ٢٣ / يوسف ٢٤) وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

وهٰذه حكاية من مستبشعات الإسرائيليات التي لا ينبغي أن تذكر في حق نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام، وهي مردودة من أوجه كثيرة:

فأولها: أنه لا يصح فيها شيء عن المعصوم ﷺ، بل هي روايات موقوفة ضعيفة؛ إنما تسربت من أحبار اليهود إلى علماء المسلمين.

وثانيها: أنها روايات متناقضة؛ فقد جاء في روايات أخرى عند ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه لم يولد له إلا غلامان!!

وثالثها: أنه لو كانت المسألة بكثرة الولد؛ لكان أكثر الناس عقوبة نبينا محمد ﷺ!

ورابعها: أن الهم بالسيئة ثم تركها خوفًا من الله داخل في باب الحسنات، بل هو الذي رفع ذكر يوسف عليه السلام في العالمين.

وخامسها: أن إخوة يوسف أحق بالعقوبة إذ هموا بأذية أخيهم وفعلوا ما فعلوا به، =

ومثل هٰذا إذا تأمَّله ذو بصيرةٍ؛ رأى الجزاء، وفهم:

كما قال الفُضَيْلُ[١]: إني لأعصي الله عز وجل فأعرفُ ذٰلك في خُلُقِ دابتي وجاريتي.

وعن أبي عثمان النيسابوريِّ[٢]: أنه انقطع شِسْعُ نعله في مُضِيِّه إلى الجُمعة، فَتَعَوَّق لإِصلاحِهِ ساعةً، ثم قال: ما انقطعَ إلَّا لأني ما اغتسلتُ غُسْلَ الجُمعة.

ومن عجائب الجزاء في الدُّنيا أنه:

لما امتدَّت أيدي الظُّلم من إخوَة يوسفَ ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠]؛ امتدَّتْ أَكُفُّهُمْ بين يديه بالطلب يقولون: ﴿وتَصَدَّقْ علينا﴾ [يوسف: ٨٨].

ولما صبر هو يوم الْهَمَّة؛ مَلَكَ المرأة حلالاً.

ولما بغتْ عليه بدعواها ﴿ما جزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سوءً﴾ [يوسف: ٢٥]؛ أنْطَقَها الحقُّ بقولها: ﴿أنا راوَدْتُهُ﴾ [يوسف: ٥١].

ولـو أن شخصًا ترك معصيةً لأجـل الله تعالى؛ لَرَأَى ثمرة ذٰلك، وكذٰلك إذا فعل طاعة.

= وأبعدوه عن أبيه، حتى ذاقا ما ذاقا عليهما الصلاة والسلام من الآلام والأحزان. فقاتل الله اليهود؛ فما تركوا نبيًّا من أنبياء الله تعالى من شرهم وأذاهم.

(١) تقدمت ترجمته وتخريج خبره هٰذا في (فصل ١٢).

(٢) في الأصـول: «عن عثمان النيسابوري»! والصواب ما أثبتناه، وهو سعيد بن إسماعيل الواعظ، كان مجاب الدعوة، توفي سنة ٢٩٨هـ. ترجمته في «البداية والنهاية» (٧ / ٥٠٠)، وستأتي له قصة مليحة في (فصل ٢٩٦).

وفي الحديث: «إذا أَمْلَقْتُمْ؛ فتاجِروا الله بالصَّدَقة»(١)؛ أي: عاملوه لزيادة الأرباح العاجلة.

ولقد رأينا مَنْ سامح نفسَه بما يمنعُ منه الشرعُ طلبًا للراحةِ العاجلةِ، فانقلبتْ أحوالُه إلى التنغُّصِ العاجل، وعُكِسَتْ عليه المقاصدُ.

حكى بعضُ المشايخ أنه اشترى في زمن شبابه جاريةً. قال: فلما مَلَكْتُها؛ تاقتْ نفسي إليها، فما زلت أسأل الفقهاء لعلَّ مخلوقًا يرخِّصُ لي، فكلُّهم قال: لا يجوز النظرُ إليها بشهوةٍ ولا لمسُها ولا جماعُها إلَّا بَعْدَ حيضها. قال: فسألتُها؟ فأخبرتني أنها اشْتُرِيَتْ وهي حائضٌ. فقلتُ: قَرُبَ الأمر. فسألتُ الفقهاء؟ فقالوا: لا يُعْتَدُّ بهٰذه الحيضة حتى تَحيضَ في ملكهِ. قال: فقلتُ لنفسي وهي شديدةُ التَّوَقان لقوة الشهوة وتمكُّن القدرة وقُرب المصاقبة(٢): ما تقولين؟ فقالت: الإِيمانُ بالصَّبْر على الجمرِ شئتَ أو أبيتَ. فصبرتُ إلى أن حان ذٰلك، فأثابني الله تعالى على ذٰلك الصبر بنَيْلِ ما هو أعلى منها وأرفعُ.

٣٠ ـ فصل

[من أخفى خبيئة ألبسه الله ثوبها]

نظرت في الأدلة على الحقِّ سبحانه وتعالى، فوجدتُها أكثرَ من الرمل، ورأيتُ من أعجبها:

(١) لم أجده بعد طول بحث، والغالب على مثل هٰذه الأحاديث الضعف، وإن كان المعنى صحيحًا جدًا. والله أعلم. والإملاق: الافتقار.

(٢) المصاقبة: المواجهة.

أنَّ الإنسان قد يُخْفِي ما لا يرضاه الله عزَّ وجلَّ فيُظْهِرُهُ الله سبحانه عليهِ ولو بعد حينٍ، ويُنْطِقُ الألسنةَ به وإنْ لم يشاهِدْهُ الناس، وربما أوقع صاحبَـه في آفة يفضحُهُ بها بين الخلق، فيكونُ جوابًا لكلِّ ما أخفى من الذُّنوب، وذٰلك ليعلمَ الناسُ أن هنالك مَنْ يجازي على الزَّلَل، ولا ينفعُ مِن قَدَرِهِ وقُدْرَتِهِ حجابٌ ولا استتار، ولا يُضاع لديه عمل.

وكذٰلك يُخْفي الإنسان الطاعةَ، فتظهرُ عليه، ويتحدَّثُ الناس بها وبأكثر منها، حتى إنهم لا يعرِفون له ذنبًا ولا يذكُرونه إلَّا بالمحاسنِ؛ ليعلمَ أنَّ هنالك ربًّا لا يُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ.

وإنَّ قلوبَ الناس لَتَعْرِفُ حال الشخص وتحبُّه، أو تأباه وتذمُّه، أو تمدحُه وَفْقَ ما يتحقَّق بينَه وبين الله تعالى؛ فإنه يكفيه كلَّ هَمٍّ، ويدفع عنه كلَّ شَرٍّ.

وما أصلحَ عبدٌ ما بينه وبين الخلقِ دونَ أنْ يَنْظُرَ [إلى] الحقِّ؛ إلَّا انْعَكَسَ مَقصُودُهُ، وعاد حامدهُ ذامًّا[١].

٣١ ـ فصل

[في أن الناس معادن كمعادن الذهب والفضة]

تأملتُ الأرضَ ومن عليها بعَيْنِ فِكْري، فرأيتُ خرابَها أكثرَ من عِمْرانها.

ثم نظرتُ في المعمور منها، فوجدتُ الكُفَّارَ مستولينَ على أكثره،

(١) ورد هٰذا المعنى مرفوعاً وسيأتي بلفظه وتخريجه في (فصل ٣٤٧).

ووجدتُ أهل الإسلام في الأرض قليلاً بالإضافة إلى الكفارِ.

ثم تأملتُ المسلمين، فرأيت المكاسبَ قد شغلتْ جمهورَهم عن الرَّازِقِ، وأعرضتْ بهم عن العلم الدالِّ عليه.

فالسلطانُ مشغولٌ بالأمر والنهي واللَّذَّات العارضةِ له، ومياهُ أغراضِهِ جاريةٌ لا سَكْرَ[1] لها، ولا يتلقَّاه أحدٌ بموعظةٍ، بل بالمِدْحَةِ التي تُقَوِّي عنده هَوى النفس!! وإنما ينبغي أن تُقاومَ الأمراضُ بأضدادِها؛ كما قال عمرُ بن المهاجر: قال لي عمرُ بن عبد العزيز: إذا رَأَيْتَني قَدْ حِدْتُ عن الحقِّ؛ فخذْ بثيابي، وهُزَّني، وقلْ: ما لك يا عمرُ[2]؟! وقال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: رَحِمَ الله من أهدى إلينا عيوبَنا. فأحوجُ الخلق إلى النَّصائح والمواعظِ السُّلطانُ.

وأما جنودُه؛ فجمهورُهم في سُكْرِ الهوى وزينةِ الدُّنيا، وقدِ انضاف إلى ذٰلك الجهلُ وعدمُ العلم؛ فلا يؤلِمُهُم ذنبٌ، ولا ينزعجون من لُبْسِ حرير أو شُرْبِ خمر، حتى ربما قال بعضهم: إيشِ يعملُ الجنديُّ؟! أَيَلْبَسُ القطنَ؟! ثم أخْذُهم للأشياء من غير وَجْهها؛ فالظُّلم معهم كالطبع!

وأربابُ البوادي قد غَمَرَهُم الجهلُ.

وكـذٰلـك أهلُ القرى؛ ما أكثر تَقلُّبَهم في الأنجاس وتهوينَهم لأمر الصلوات!! وربما صلَّتِ المرأةُ منهنَّ قاعدةً!

ثم نظرتُ في التُّجّـار؛ فرأيتُهم قد غَلَبَ عليهم الحِرْصُ، حتى لا

(١) السَّكر: السَّد والسُّدادة التي تستعمل لفتح الماء ووقفه.

(٢) انظر الخبر في: «حلية الأولياء» (٥ / ٢٩٢).

يَرَوْنَ سوى وجوهَ الكسب كيف كانت، وصار الرِّبا في معاملتهم فاشيًا، فلا يبالي أحدُهم من أين تحصُلُ له الدنيا! وهم في باب الزكاة مُفَرِّطون، ولا يستوحشون مِن تركها؛ إلَّا مَنْ عَصَمَ الله.

ثم نظرتُ في أرباب المعاش، فوجدت الغِشَّ في معاملاتهم عامًّا، والتَّطْفيفَ، والبَخْسَ، وهم مع هٰذا مغمورون بالجهل!

ورأيتُ عامة من له ولدٌ يشغلُه ببعض هٰذه الأشغالِ طلبًا للكَسْب قبل أن يعرِفَ ما يجبُ عليه وما يتأدَّبُ به.

ثم نظرتُ في أحوال النساء، فرأيتُهن قليلاتِ الدين، عظيماتِ الجهل، ما عندهنَّ[1] من الآخرة خبرٌ إلَّا مَنْ عَصَمَ الله.

فقلتُ: واعجبًا! فمن بقي لخدمة الله عزَّ وجلَّ ومعرفته؟!

فنظرتُ؛ فإذا العلماءُ، والمتعلمون، والعبَّادُ، والمتزهِّدون:

فتأملتُ العُبَّاد والمتزهِّدين، فرأيتُ جمهورهم يتعبَّدُ بغير علم، ويأنَسُ إلى تعظيمهِ وتقبيلِ يده وكَثْرَةِ أتباعه، حتى إن أحدهم لو اضْطُرَّ أن يشتريَ حاجة من السوق؛ لم يفعل؛ لئلا يَنْكَسِرَ جاهُه! ثم تَتَرَقَّى بهم رُتْبَةُ الناموس إلى أن لا يعودوا مريضًا، ولا يَشْهَدوا جنازةً؛ إلَّا أن يكونَ عظيمَ القَدْر عندهم، ولا يتزاورونَ، بل ربما ضَنَّ بعضُهم على بعضٍ بلقاءٍ؛ فقد صارت النواميسُ كالأوثان يعبُدونها ولا يعلمونَ! وفيهم مَنْ يُقْدِمُ على الفتوى وهو جاهلٌ؛ لئلا يُخِلَّ بناموس التَّصَدُّر! ثم يعيبون العلماءَ لحرصهم على الدُّنيا، ولا يعلمون أن المذموم من الدُّنيا ما هم فيه لا تناولُ المباحات!

---

(١) في الأصول: «عندهم»! والصواب ما أثبتناه.

ثم تأملتُ العلمـاءَ والمتعلِّمين؛ فرأيت القليل من المتعلِّمين عليه أمارة النَّجابة؛ لأن أمارةَ النَّجابة طلبُ العلم للعمل به، وجمهورُهم يطلُبُ منه ما يصيِّرُه شبكةً للكَسْب: إمّا ليأخذَ به قضاءَ مكانٍ، أو ليصيرَ به قاضيَ بلدٍ، أو قَدْرَ ما يتميَّزُ به عن أبناء جنسه، ثم يكتفي.

ثم تأملتُ العلماء، فرأيت أكثَرَهُم يتلاعبُ به الهوى ويستخدمُه؛ فهو يُؤْثِرُ ما يَصُدُّه العلمُ عنه، ويُقْبِلُ على ما ينهاه، ولا يكاد يَجِدُ ذوق معاملةٍ لله سبحانه، وإنما هِمَّتُهُ أنْ يقولَ وحسبُ.

إلَّا أنَّ الله لا يُخْلي الأرضَ مِنْ قائِمٍ له بالحُجَّةِ، جامعٍ بين العلم والعمل، عارفٍ بحقوق الله تعالى، خائفٍ منه؛ فذلك قُطْبُ الدُّنيا، ومتى مات؛ أخلفَ الله عِوَضَهُ، وربما لم يمتْ حتى يرى مَنْ يَصْلُحُ للنِّيابة عنه في كل نائبة، ومثل هٰذا لا تخلو الأرض منه؛ فهو بمقام النبيِّ في الأمة[١].

وهٰذا الذي أصفُهُ يكون قائمًا بالأصول، حافظًا للحدود، وربما قَلَّ علمُه أو قَلَّتْ معاملتُه؛ فأما الكاملون في جميع الأدوات؛ فيندُرُ وجودُهم، فيكون في الزمان البعيد منهم واحدٌ.

ولقد سَبَرْتُ[٢] السَّلَفَ كلَّهم، فأردتُ أن أستخرجَ منهم مَنْ جَمَعَ بين العلم حتى صار من المجتهدين وبين العمل حتى صار قدوةً للعابدين، فلم أر أكثَرَ من ثلاثـة: أولهم: الحسنُ البَصْرِيُّ، وثانيهم: سفيانُ الثوريُّ،

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله تعالى في «المنار المنيف» (ص ١٣٦): «أحاديث الأبدال والأقطاب والأغواث والنقباء والنجباء والأوتاد كلها باطلة على رسول الله ﷺ».

(٢) سبر: فحص غور الأمر والتعمق به.

وثالثُهم: أحمدُ بن حنبلٍ، وقد أفردتُ لأخبارِ كلِّ واحد منهم كتابًا، وما أُنْكِرُ على من ربَّعهم بسعيد بن المسيَّب[١].

وإن كان في السلف ساداتٌ؛ إلَّا أنَّ أكثرهم غَلَبَ عليه فنٌّ فَنَقَصَ من الآخرِ؛ فمنهم مَن غَلَبَ عليه العلمُ، ومنهم مَن غَلَبَ عليه العملُ، وكلُّ هٰؤلاء كان له الحظُّ الوافرُ من العلم والنصيبُ الأوفى من المعاملةِ والمعرفةِ.

ولا يأس من وجود مَنْ يَحذو حَذْوَهم، وإن كانَ الفضلُ بالسَّبْقِ لهم؛ فقد أطلعَ الله عزَّ وجلَّ الخَضِرَ على ما خَفِيَ على موسى عليهما السلام[٢]؛ فخزائنُ الله مملوءةٌ، وعطاؤه لا يقتصرُ على شخص.

ولقد حُكي لي عن ابن عَقيلٍ[٣]: أنه كان يقول عن نفسه: أنا عُمْتُ في قاربٍ ثم كُسِرَ.

وهٰذا غلطٌ؛ فمن أين له؟! فكم من معجبٍ بنفسه كُشِفَ له من غيره ما عاد يَحْقِرُ نفسَه على ذٰلك!! وكم من متأخرٍ سَبَقَ متقدِّمًا!! وقد قيل:

إنَّ اللَّيالِيَ والأيَّامَ حامِلَةٌ ... ولَيْسَ يَعْلَمُ غَيْرُ اللهِ ما تَلِدُ

---

(١) وهٰذه مبالغة كبيرة؛ فأين أبو حنيفة والشافعي ومالك والأوزاعي والليث بن سعد وعبد الله بن المبارك والبخاري ومسلم وأصحاب السنن وغيرهم كثير؟!

(٢) قصة موسى والخضر عليهما السلام معروفة ومخرجة في «الصحيحين» وغيرهما من كتب السنة وفي كتب التفسير، واطلاع الخضر عليه السلام على ما لم يطلع عليه موسى عليه السلام لا يعني أنه أكثر منه علمًا ولا أعلى منه رتبة؛ كما يظن بعض الجهلة، بل لقد أطلع الله موسى عليه السلام على ما لم يطلع عليه الخضر أيضًا، وكلم الله موسى تكليمًا.

(٣) الإمام، العلامة، البحر، شيخ الحنابلة، أبو الوفاء، محمد بن عقيل البغدادي، ولد سنة ٤٣١هـ، وتوفي سنة ٥١٣هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (١٩ / ٤٤٣).

٣٢ ـ فصل

[في بعض الأدوية التي ترد شهوات النفس]

رأيتُ مَيْلَ النفس إلى الشَّهوات زائدًا في المقدار، حتى إنَّها إذا مالتْ؛ مالتْ بالقلب والعقلِ والذِّهْن؛ فلا يكادُ المرءُ يَنْتَفِعُ بشيءٍ من النُّصْح!

فَصِحْتُ بها يومًا وقد مالتْ بِكُلِّيَّتِها إلى شهوةٍ: وَيْحَكِ! قفي لحظةً؛ أكَلِّمْكِ كلماتٍ، ثم افعلي ما بدا لكِ!

قالتْ: قلْ؛ أسمعْ.

قلتُ: قد تقرَّرَ قِلَّةُ مَيْلِكِ إلى المباحات من الشَّهَوات، وأمَّا جُلُّ مَيْلِكِ؛ فإلى المحرَّمات، وأنا أكشِفُ لك عن الأمرين؛ فربما رأيت الحُلْوَيْنِ مُرَّيْنِ:

أما المباحاتُ مِن الشَّهَوات؛ فمطلَقَةٌ لك، ولٰكنَّ طريقَها صعبٌ: لأنَّ المالَ قد يعجزُ عنها، والكسبَ قد لا يُحَصِّلُ مُعْظَمَها، والوقتَ الشريفَ يذهبُ بذٰلك. ثم شُغْلُ القلبِ بها وقتَ التَّحْصيل، وفي حالة الحُصول، وبحَذَرِ الفوات. ثم يُنَغِّصُها من النَّقْصِ ما لا يخفى على مميِّزٍ: إن كان مَطْعَمًا؛ فالشِّبَع يُحْدِثُ آفاتٍ، وإن كان شخصًا؛ فالمللُ أو الفراقُ أو سوء الخُلُق، ثم ألذُّ النكاحِ أكثرُه إيهانًا للبدن. . . إلى غير ذٰلك مما يطول شرحُه.

وأما المحرماتُ؛ فتشتملُ على ما أشرْنا إليه من المباحاتِ، وتزيدُ عليها بأنها آفةُ العِرْضِ، ومَظِنَّةُ عقاب الدُّنيا وفضيحتها، وهناك وعيدُ

الآخرة، ثم الجَزَعُ كلَّما ذَكَرَها التائبُ.

وفي قُوَّةِ قهرِ الهوى لَذَّةٌ تزيد على كل لَذَّةٍ، ألا ترى إلى كلِّ مغلوب بالهوى كيف يكونُ ذليلاً لأنه قُهِرَ؛ بخلاف غَالبِ الهوى؛ فإنه يكونُ قَوِيَّ القلبِ عزيزًا لأنه قَهَر؟!

فالحذرَ الحذرَ من رؤية المُشْتَهى بعين الحُسْنِ كما يرى اللِّصُّ لَذَّةَ أَخْذِ المال مِنَ الحِرْز(١) ولا يرى بِعَيْنِ فِكْرِهِ القَطْعَ!

وليفتح [الإنسانُ] عينَ البصيرة؛ لِتَأمُّلِ العواقب، واستحالةِ اللَّذَّة نَغْصةً، وانقلابِها عن كونها لَذَّةً؛ إمّا لمللٍ، أو لغيره من الآفات، أو لانقطاعها بامتناعِ الحبيب، فتكونُ المعصية الأولى كلقمةٍ تناولها جائعٌ، فما رَدَّتْ كَلَبَ الجوع، بل شهَّتِ الطعام.

وليتذكرِ الإنسانُ لَذَّةَ قَهْرِ الهوى مع تأمُّلِ فوائدِ الصبر عنه؛ فَمَنْ وُفِّقَ لذلك؛ كانتْ سلامتُه قريبةً منه.

٣٣ ـ فصل

[النفس بين نفحات الرحمن ووسوسة الشيطان]

خطر لي خاطرٌ؛ والمجلسُ قد طاب، والقلوبُ قد حضرتْ، والعيونُ جاريةٌ، والرؤوس مُطْرِقةٌ، والنفوسُ قد ندمتْ على تفريطِها، والعزائمُ قد نهضتْ لإصلاح شؤونها، وألسنةُ اللَّوْم تعملُ في الباطل على تضييع الحَزْم وتَرْكِ الحذر، فقلت لنفسي: ما بال هٰذه اليقظة لا تدوم؟! فإني أرى النفس

(١) الحرز: الموضع الحصين.

واليَقَظَة في المجلس متصادقَيْن متصافيَيْن؛ فإذا قُمنا عن هٰذه التربة؛ وقعتِ الغُربة.

فتأملتُ ذٰلك، فرأيتُ أنَّ النفسَ ما تزال متيقِّظةً، والقلبَ ما يزال عارفًا؛ غير أن القواطع كثيرةٌ، والفِكْرُ الذي ينبغي استعمالُه في معرفةِ الله سبحانه وتعالى قد كَلَّ مما يُسْتَعْمَلُ في اجتلاب الدُّنيا وتحصيلِ حوائج النفوس، والقلبُ منغمسٌ في ذٰلك، والبدنُ أسيرٌ مستخدَم.

وبينما الفِكْر يجولُ في اجتلاب الطعام والشراب والكِسْوَةِ، وينظر في صدد ذٰلك، وما يدَّخِرُه لِغَدِهِ وسَنَتِهِ؛ اهتمَّ بخروجِ الحدثِ وتشاغلَ بالطَّهارةِ، ثم اهتمَّ بخروج الفضلاتِ المؤذيةِ، ومنها المنيُّ[1]، فاحتاج إلى النِّكاح، فَعَلِمَ أنه لا يصِحُّ إلَّا باكتساب كَسْبِ الدنيا، فتفكَّر في ذٰلك وعمل بمقتضاه، ثم جاء الولدُ، فاهتمَّ به وله، وإذا الفكر عاملٌ في أصول الدُّنيا وفروعها.

فإذا حَضَرَ الإنسانُ المجلسَ؛ فإنه لا يحضُرُ جائعًا ولا حاقنًا، بل يحضُرُه جامعًا لِهمَّتِهِ، ناسيًا ما كان من الدُّنيا على ذكره، فيخلو الوعظُ بالقلب، فَيُذَكِّره بما أَلِفَ، ويجذِبُهُ بما عَرَفَ، فينهض عمالُ القلب في زوارق عِرفانه، فيُحْضِرون النفسَ إلى باب المطالبة بالتَّفْرِيط، ويؤاخذون الحسَّ بما مضى من العيوبِ، فتجري عيونُ النَّدَم، وتنعقدُ عزائمُ الاستدراك.

(١) هٰذا صدى للمفهوم الطبي السائد في عصر المصنف، وللنظرية الطبية اليونانية التي اعتنى المسلمون في ذاك العصر بدراستها، ولا يؤيد الطب الحديث هٰذا المعنى إطلاقًا.

ولو أنَّ هٰذه النفس خَلَتْ عن المعهوداتِ التي وَصَفْتُها؛ لتشاغلتْ بِخِدْمَةِ باريها، ولو وقعتْ في سَوْرَة حُبِّه[١]؛ لاستوحشت عن الكُلِّ شُغلاً بِقُرْبه.

ولهٰذا سَكَنَ الزُّهَّاد الخَلَواتِ، وتشاغلوا بقطع المُعَوِّقاتِ، وعلى قَدْرِ مجاهدتهم في ذٰلك نالوا من الخدمةِ مرادَهم؛ كما أن الحصادَ على مقدارِ البَذْرِ.

غير أني تَلَمَّحْتُ في هٰذه الحالة دقيقةً، وهو أنَّ النفس لو دامت لها اليَقَظَةُ؛ لوقعتْ فيما هو شرٌّ من فَوْت ما فاتها، وهو العُجْبُ بحالها، والاحتقارُ لِجِنْسِها[٢]! وربما تَرَقَّتْ بقوة عِلْمِها وعِرْفانها إلى دعوى قولها: لي، وعندي، وأستحق. . . فَتَركَها في حَوْمة ذنوبها تتخبَّطُ؛ فإذا وقفتْ على الشاطىء؛ قامتْ بحقِّ ذِلَّةِ العُبوديَّةِ، وذٰلك أولى لها.

هٰذا حكم الغالب من الخلق، ولذٰلك شُغِلوا عن هٰذا المقام؛ فَمَن بذر، فَصَلَحَ له؛ فلا بدَّ له من هفوةٍ تراقبُها عينُ الخوف من عقابها رفقًا بها، بها تَصِحُّ له عبوديَّته، وتَسْلَم له عبادتُه.

وإلى هٰذا المعنى أشار الحديثُ الصحيح: «لو لم تذْنِبُوا؛ لَذَهَبَ الله بكم، وجاء بقومٍ يُذْنبونَ، فيستغفِرُونَ، فَيَغْفِرُ لهم»[٣].

---

(١) سَوْرة الحب: حدته وشدته.

(٢) يصدق ذٰلك قوله ﷺ: «لو لم تذنبوا؛ لخشيت عليكم ما هو أكبر منه؛ العجب». رواه البزار والبيهقي في «الشعب» من حديث أنس رضي الله عنه، وجود إسناده المنذري والهيثمي وحسنه الألباني. وانظر: «الصحيحة» (٢ / ٢٥٩ / ٦٥٨).

(٣) رواه مسلم (٤٩ ـ كتاب التوبة، ٢ ـ باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، ٤ / ٢١٠٥ / ٢٧٤٨ و ٢٧٤٩) من حديث أبي أيوب الأنصاري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

رَفْعُ عبد الرحمن النجدي أسكنه الله الفردوس

٣٤ ـ فصل
[في فساد توكل المتصوفة بخروجهم من أموالهم]

تفكرتُ، فرأيتُ أنَّ حِفْظَ المال من المتعيِّن، وما يسمِّيه جَهَلَةُ المتزهِّدين توكُّلاً ـ من إخراج ما في اليد ـ ليس بالمشروع! فإن النبيَّ ﷺ قال لكعب بن مالك: «أمسكْ عليك بعضَ مالك»(١)، أو كما قال له. وقال لسعد: «لأن تَتْرُكَ وَرَثَتَكَ أغنياءَ خيرٌ من أن تَتْرُكَهم عالةً يتكفَّفون الناسَ»(٢).

فإن اعترضَ جاهلٌ فقال: جاء أبو بكرٍ رضي الله عنه بكلِّ مالِهِ(٣).

فالجواب: أنَّ أبا بكر صاحبُ معاشٍ وتجارةٍ؛ فإذا أخرجَ الكلَّ؛ أمكَنَهُ أن يستدينَ عليه فيَتَعَيَّشَ؛ فمَنْ كان على هٰذه الصفة؛ لا أذُمُّ إخراجَه لِمَالِهِ.

---

(١) جاء هٰذا في حديث كعب بن مالك الطويل في توبته عن تخلفه في غزوة تبوك الذي رواه: البخاري (٦٥ ـ كتاب التفسير، ٩ ـ سورة براءة، ١٧ ـ باب ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾، ٨ / ٣٤١ / ٤٦٧٦)، ومسلم (٤٩ ـ كتاب التوبة، ٩ ـ باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، ٤ / ٢١٢٠ / ٢٧٦٩).

(٢) تقدم تخريجه في (فصل ٢٤).

(٣) فقال له النبي ﷺ: «يا أبا بكر! ما أبقيت لأهلك؟». فقال: أبقيت لهم الله ورسوله.

رواه: أبو داوود (٣ ـ كتاب الزكاة، ٤٠ ـ باب الرخصة في ذٰلك، ١ / ٥٢٦ / ١٦٧٨)، والترمذي (٥٠ ـ كتاب المناقب، ١٦ ـ باب في مناقب أبي بكر وعمر كليهما، ٥ / ٦١٤ / ٣٦٧٥)، والحاكم (١ / ٤١٤)؛ من حديث عمر رضي الله عنه.

قال الترمذي: «حسن صحيح». وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني.

وإنما الذمُّ متطرِّقٌ إلى مَنْ يُخْرِجُ مالَه وليس من أرباب المعائش، أو يكون من أولٰئك؛ إلَّا أنه ينقطعُ عن المعاش، فيبقى كَلًّا[١] على الناس؛ يستَـعْطيهم، ويعتقدُ أنه على الفُتوحِ، وقلبُه متعلِّقٌ بالخلق، وطمعهُ ناشبٌ فيهم، ومتى حُرِّكَ بابُه؛ نَهَضَ قلبُه، وقال: رزقٌ قد جاء!!

وهٰذا أمرٌ قبيحٌ بمن يقدِرُ على المعاش، وإنْ لم يقدرْ؛ كان إخراجُ ما يَمْلِكُ أقبحَ؛ لأنه يتعلَّقُ قلبُه بما في أيدي الناس، وربما ذَلَّ لبعضهم أو تَزَيَّنَ له بالزُّهد، وأقلُّ أحواله أن يزاحِمَ الفقراء والمكافيف والزَّمْنَى[٢] في الزكاة.

فعليك بالشَّرْبِ الأوَّلِ[٣]؛ فانظر: هل فيهم مَنْ فَعَلَ ما يفعلُه جَهَلَةُ المتزهِّدين؟!

وقد أشرتُ في أول هٰذا إلى أنَّهم كَسَبوا وخلَّفوا الأموال.

فَرِدْ إلى الشِّرْبِ الأوَّل[٤] الذي لم يُطْرَقْ؛ فإنه الصافي، واحذرْ من المشارعِ المطروقة بالآراء الفاسدةِ الخارجةِ في المعنى على الشريعة، مدعيةً بلسانِ حالها أن الشرعَ ناقصٌ يحتاج إلى ما يَتِمُّ به!

واعلم ـ وفَّقك الله تعالى ـ أنَّ البَدَنَ كالمَطِيَّةِ، ولا بدَّ من عَلْفِ المَطِيَّةِ والاهتمام به؛ فإذا أهملتَ ذٰلك؛ كان سببًا لوقوفِكَ عن السَّيْر.

---

(١) الكَلّ: العبء الثقيل.

(٢) الزمنى: أصحاب العاهات والأمراض الطويلة المقعدة.

(٣) الشَّرْب: القوم يشربون، ويقصد بهم هنا السلف الصالح.

(٤) الشِّرْب: الماء، ويقصد به هنا المنبع الصافي الذي هو الكتاب والسنة.

وقد رُئِيَ سلمانُ رضي الله عنه يحمِلُ طعامًا على عاتقه، فقيل له: أتفعلُ هٰذا وأنت صاحبُ رسول الله ﷺ؟! فقال: إنَّ النفس إذا أحرَزَتْ قوتَها؛ اطمأنَّتْ[١].

وقال سفيانُ الثوريُّ: إذا حَصَّلْتَ قوتَ شهرٍ؛ فَتَعَبَّدْ[٢].

وقد جاء أقوامٌ ليس عندهم سوى الدَّعاوى، فقالوا: هٰذا شكٌّ في الرَّازق، والثقةُ به أولى!! فإياك وإياهم.

وربما ورد مثل هٰذا عن بعض صدور الزُّهَّادِ من السلف؛ فلا يُعَوَّلُ عليه، ولا يهولَنَّكَ خلافُهم.

فقـد قال أبو بكر المرُّوذيُّ[٣]: سمعت أحمد بن حنبل يرغِّبُ في النكـاح، فقلت له: قال ابن أدهم[٤]. فمـا تركني أتمِّمُ حتى صاح عليَّ وقال: أذكُرُ لك حالَ رسول الله ﷺ وأصحابه؛ وتأتيني ببُنَيَّاتِ الطريق؟!

واعلم ـ وفَّقك الله ـ أنه لو رَفَضَ الأسْبَابَ شَخْصٌ يَدَّعي التَّزَهُّدَ، وقال: لا آكلُ، ولا أشربُ، ولا أقومُ من الشمس في الحر، ولا أستدفىء من البرد! كان عاصيًا بالإجماع، وكذٰلك لو قال ـ وله عائلةٌ ـ: لا أكتسبُ،

---

(١) انظر الخبر في: «حلية الأولياء» (١ / ٢٠٧).

(٢) انظر الخبر في: «حلية الأولياء» (٧ / ١٧).

(٣) في الأصول: «المروزي»، والصواب ما أثبتناه، وهو الإمام، القدوة، الفقيه، المحدث، شيخ الإسلام، أحمد بن محمد بن الحجاج، صاحب الإمام أحمد، ولد في حدود المئتين، وتوفي سنة ٢٧٥هـ. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٤ / ٤٢٣)، و«سير أعلام النبلاء» (١٣ / ١٧٣).

(٤) تقدمت ترجمة إبراهيم بن أدهم وخبره هٰذا في (فصل ١٩).

ورزقُهم على الله تعالى! فأصابهم أذىً؛ كان آثمًا؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: «كفى بالمرءِ إثْمًا أن يُضَيِّعَ مَن يقوتُ»[1].

واعلم أنَّ الاهتمام بالكسب؛ يَجْمَعُ الهمَّ، ويُفْرِغُ القلبَ، ويقطعُ الطَّمَعَ في الخلق؛ فإن الطبعَ له حقٌّ يتقاضاه.

وقد بيَّن الشرعُ ذلك فقال [ﷺ]: «إن لنفسكَ عليك حقًّا، وإن لعينِكَ عليك حقًّا»[2].

ومثالُ الطبع مع المريد السالِك كَمَثَلِ كلبٍ لا يعرِفُ الطَّارِقَ؛ فكلُّ مَن رآه يمشي؛ نَبَحَ عليه، فإن أَلْقَى إليه كِسْرَةً؛ سكت عنه.

فالمرادُ من الاهتمام بذلك جَمْعُ الهمِّ لا غير.

فافهمْ هذه الأصولَ؛ فإن فهمها مهمٌّ.

٣٥ ـ فصل

[في أن شهوات الدنيا مصائد هلاك وفخوخ تلف]

تأملتُ في شَهَوات الدُّنيا، فرأيتُها مصائدَ هلاكٍ وفُخوخَ تَلَفٍ؛ فمَن قَوِيَ عَقْلُه على طَبْعِه وحَكَم عليه؛ يَسْلَمْ، ومَن غَلَبَ طبعُه؛ فيا سُرْعة هَلَكَتِهِ!

ولقد رأيتُ بعضَ أبناء الدنيا كان يَتوقُ إلى التَّسَرِّي، ثم يستعمل الحراراتِ المُهَيِّجَةَ للباهِ[3]؛ فما لَبِثَ أنِ انحلَّتْ حرارتُه الغريزيةُ وتَلِفَ.

---

(١) تقدم تخريجه في (فصل ٢١).

(٢) تقدم تخريجه في (فصل ١٩).

(٣) الباه: النكاح.

ولم أر في شَهَواتِ النفس أسرعَ هلاكًا من هٰذه الشهوة؛ فإنه كلَّما مال الإنسان إلى شخصٍ مستحسنٍ؛ أوجب ذٰلك حركةَ الباه زائدًا عن العادة، وإذا رأى أحسنَ منه؛ زادتِ الحركةُ، وكَثُر خروجُ المنيِّ زائدًا عن الأول، فيفنى جوهر الحياةِ أسرع شيء، وبالضِّدِّ مِنْ هٰذا أن تكونَ المرأةُ مستقبحةً، فلا يوجبُ نكاحُها خروجَ الفضلةِ المؤذيةِ كما ينبغي، فيقع التأذِّي بالاحتباس وقُوَّةِ التَّوْقِ إلى منكوحٍ[1].

وكذٰلك المُفْرِط في الأكل؛ فإنه يَجْني على نفسه كثيرًا من الجنايات، والمقصِّرُ في مقدار القوت كذٰلك.

فعلمتُ أن أفضل الأمور أوساطها.

والدُّنيا مفازةٌ[2]؛ فينبغي أنْ يكونَ السابقُ فيها العقلُ؛ فمن سَلَّمَ زمام راحلته إلى طبعه وهواه؛ فيا عَجَلَةَ تَلَفِهِ!

هٰذا فيما يتعلق بالبدن والدنيا؛ فقسْ عليه أمرَ الآخرة؛ فافهمْ.

٣٦ ـ فصل

[الزهد الحقيقي هو ما كان عليه النبي وأصحابه]

بلغني عن بعض زُهَّاد زماننا أنه قُدِّمَ إليه طعامٌ، فقال: لا آكل! فقيل له: لم؟! قال: لأن نفسي تشتهيهِ، وأنا منذُ سنين ما بَلَّغْتُ نفسي ما تشتهي!

---

(١) هٰذا صدى للمفاهيم الطبية التي سادت عصر المصنف، ولا يؤيد الطب الحديث شيئًا من هٰذا القبيل.

(٢) المفازة: الصحراء المهلكة.

فقلتُ: لقد خَفِيَتْ طريقُ الصواب عن هٰذا من وجهين، وسببُ خفائها عدمُ العلم:

أما الوجه الأول: فإنَّ النبيَّ ﷺ لم يكنْ على هٰذا ولا أصحابُه.

وقد كان عليه الصلاة والسلام يأكلُ لحم الدجاج[1]، ويحبُّ الحلوى والعسل[2].

ودخل فَرْقَدٌ السَّبَخِيُّ على الحسن[3] وهو يأكل الفالوذَج، فقال: يا فَرْقَدُ! ما تقول في هٰذا؟ فقال: لا آكلهُ ولا أحِبُّ مَن أكله. فقال الحسنُ: لُعاب النحل، بِلُباب البُرِّ، مع سمن البقر؛ هل يَعيبُهُ مسلمٌ؟!

وجاء رجل إلى الحسن، فقال: إن لي جارًا لا يأكل الفالوذج. فقال: ولم؟! قال: يقولُ: لا أؤدي شُكْرَهُ. فقال: إن جارك جاهلٌ، وهل يؤدِّي شكرَ الماء البارد؟!

وكان سفيان الثوريُّ[4] يحمل في سفره الفالوذجَ والحَمَلَ المشويَّ، ويقول: إن الدَّابَّةَ إذا أُحْسِنَ إليها؛ عملتْ.

وما حدث في الزُّهَّاد بعدهم من هٰذا الفنِّ؛ فأمورٌ مسروقةٌ من الرهبانية، وأنا خائف من قوله تعالى: ﴿لا تُحَرِّموا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ولا تَعْتَدوا﴾ [المائدة: ٨٧].

ولا يُحْفَظُ عن أحد من السلف الأُوَل من الصحابة من هٰذا الفنِّ شيءٌ، إلَّا أن يكون ذٰلك لعارضٍ.

(١، ٢، ٣) تقدم تخريج الحديثين وترجمة الحسن وفرقد في (فصل ١٩).

(٤) تقدمت ترجمته في (فصل ١٩).

وأما سببُ ما يُروى عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه اشتهى شيئًا فآثــر به فقيرًا، وأعتق جاريته رميثة وقال: إنها أحب الخَلْقِ إليَّ[١]؛ فهٰذا وأمثاله حسنٌ؛ لأنه إيثارٌ بما هو أجودُ عند النفس من غيره، وأكثرُ لها من سواه؛ فإذا وقـع في بعض الأوقات؛ كُسِرَت بذٰلك الفعل سَوْرَةُ هواها أن تطغى بِنَيْلِ كلِّ ما تريد، فأما من دام على مخالفتها على الإطلاق؛ فإنه يُعْمِي قلبَها، ويُبَلِّدُ الخواطرَ، ويشتِّتُ عزائمَها؛ فيؤذيها أكثرَ مما ينفعُها.

وقد قال إبراهيم بن أدهم: إن القلب إذا أُكْرِهَ؛ عَمِي[٢].

وتحت مقالته سرٌّ لطيفٌ، وهو أن الله عزَّ وجلَّ قد وضع طبيعة الآدميٍّ على معنى عجيبٍ، وهـو أنها تختارُ الشيء من الشَّهَوات مما يُصْلِحُها، فتعلم باختيارِها لهُ صلاحَه وصلاحَها به.

وقـد قال حكمـاء الطبِّ: ينبغي أنْ يُفْسَحَ للنفس فيما تشتهي من المطاعم، وإن كانَ فيه نوعُ ضررٍ؛ لأنَّها إنَّما تختار ما يلائمُها؛ فإذا قَمَعَها الـزاهـدُ في مثل هٰذا؛ عاد على بدنه بالضرر، ولولا جواذبُ الباطن من الـطبيعة؛ ما بقي البدنُ؛ فإنَّ الشهوة للطعام تثورُ، فإذا وقعتِ الغُنْيَةُ بما يتناولُ؛ كَفَّتِ الشهوةَ.

فالشهوةُ مريدٌ ورائدٌ، ونِعْمَ الباعثُ هي على مصلحة البدن؛ غير أنها إذا أفرطتْ؛ وقعَ الأذى، ومتى مُنِعَتْ ما تريد على الإطلاق مع الأمن من فسـاد العاقبة؛ عاد ذٰلك بفساد أحوال النفس، ووَهَنِ الجسم، واختلافِ

(١) انظر هٰذين الخبرين ومثلهما كثير في: «حلية الأولياء» (١ / ٢٩٥ - ٢٩٧).
(٢) تقدمت ترجمته في (فصل ١٩).

السَّقَمِ الـذي تتـداعى به الجملةُ؛ مثـلَ أنْ يمنعهـا المـاءَ عنـد اشتداد العطش، والغذاءَ عند الجوع، والجماعَ عند قوة الشهوة، والنومَ عند غلبته، حتى إن المُغْتَمَّ إذا لم يتروَّحْ بالشكوى؛ قَتَلَهُ الكمدُ.

فهٰذا أصلٌ؛ إذا فهمه هٰذا الزاهدُ؛ علم أنه قد خالفَ طريقَ الرسول ﷺ وأصحابِهِ من حيث النقلُ، وخالف الموضوعَ من حيث الحكمةُ.

ولا يلزم على هٰذا قولُ القائل: فمن أين يصفو المطعم؟ لأنه إذا لم يَصْفُ؛ كان التركُ ورعًا، وإنما الكلامُ في المَطْعَم الذِي ليس فيه ما يؤذي في باب الوَرَع، وكان ما شرحتُه جوابًا للقائل: ما أُبَلِّغُ نفسي شهوةً على الإطلاق.

والوجه الثاني: أني أخاف على الزاهد أن تكون شهوتُه انقلبتْ إلى التَّـرْكِ، فصار يشتهي أن لا يتناولَ، وللنفسِ في هٰذا مكرٌ خَفِيٌّ، ورياءٌ دقيقٌ، فإن سلمت من الرياء للخَلْق؛ كانت الآفَةُ من جهة تعلُّقِها بمثل هٰذا الفعل وإدلالِها في الباطن به؛ فهٰذه مخاطرةٌ وغلطٌ.

وربما قال بعضُ الجهَّال: هٰذا صدٌّ عن الخير وعنِ الزُّهد!

وليس كذٰلك؛ فإن الحديث قد صحَّ عن النبي ﷺ: أنه قال: «كلُّ عملٍ ليس عليه أمرُنا؛ فهو ردٌّ»[1]، ولا ينبغي أن يُغْتَرَّ بعبادة جُريج[2]، ولا

(١) رواه: البخاري (٥٣ ـ كتاب الصلح، ٥ ـ باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، ٥ / ٣٠١ / ٢٦٩٧)، ومسلم (٣٠ ـ كتاب الأقضية، ٨ ـ باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، ٣ / ١٣٤٣ / ١٧١٨)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها، واللفظ لمسلم.

(٢) قصة جريج الراهب رواها: البخاري (٦٠ ـ كتاب أحاديث الأنبياء، ٤٨ ـ باب =

بتقوى ذي الخويصرة[1].

ولقد دخل المتزهِّدون في طرقٍ لم يسلكْها الرسولُ ﷺ ولا أصحابُهُ؛

= قول الله: ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها﴾، ٦ / ٤٧٦ / ٣٤٣٦)، ومسلم (٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب، ٢ ـ باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة وغيرها، ٤ / ١٩٧٦ / ٢٥٥٠)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «... كان في بني إسرائيل رجل يقال له: جريج، كان يصلي، جاءته أمه فدعته، فقال: أجيبها أو أصلي؟ فقالت: اللهم! لا تمته حتى تريه وجوه المومسات. وكان جريج في صومعته، فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى، فأتت راعيًا، فأمكنته من نفسها، فولدت غلامًا، فقالت: من جريج! فأتوه، فكسروا صومعته، وأنزلوه، وسبوه، فتوضأ، وصلى، ثم أتى الغلام، فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: الراعي! قالوا: نبني صومعتك من ذهب؟ قال: لا؛ إلا من طين».

وهٰذا لفظ البخاري الذي اختصر به القصة، وهي في مسلم بأطول من هٰذا بكثير.

(١) قصة ذي الخويصرة التميمي رواها: البخاري (٦١ ـ كتاب المناقب، ٢٥ ـ باب علامات النبوة في الإسلام، ٦ / ٦١٧ / ٣٦١٠)، ومسلم (١٢ ـ كتاب الزكاة، ٤٧ ـ باب ذكر الخوارج وصفاتهم، ٢ / ٧٤١ / ١٠٦٤)؛ من حديث أبي سعيد الخدري؛ قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسمًا؛ أتاه ذو الخويصرة، وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله! اعدل. قال رسول الله ﷺ: «ويلك! ومن يعدل إن لم أعدل؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل». فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله! ائذن لي فيه أضرب عنقه. قال رسول الله ﷺ: «دعه؛ فإن له أصحابًا؛ يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية؛ ينظر إلى نصله؛ فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه؛ فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه؛ فلا يوجد فيه شيء (وهو القدح)، ثم ينظر إلى قذذه؛ فلا يوجد فيه شيء، سبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسود، إحدى عضديه مثل ثدي المرأة (أو: مثل البضعة تدردر)، يخرجون على حين فرقة من الناس».

وعليه؛ فمن العجيب صنيع المصنف رحمه الله في الجمع بين جريج الراهب وذي الخويصرة في صعيد واحد!!

من إظهار التخشُّع الزائد في الحدِّ، والتَّنَوُّقِ(١) في تخشين الملبس، وأشياء صار العوامُّ يستحسنونها، وصارت لأقوامٍ كالمعاشِ؛ يجتنونَ مِن أرباحها تقبيلَ اليدِ وتوفيرَ التوقيرِ وحراسةَ الناموس! وأكثرُهم في خَلْوَتِهِ على غير حالته في جَلْوَتِهِ!! وقد كان ابنُ سيرينَ يضحكُ بين الناس قهقهةً، وإذا خلا بالليل؛ فكأنَّهُ قَتَلَ أهل القرية(٢).

فنسأل الله تعالى علمًا نافعًا؛ فهو الأصلُ؛ فمتى حَصَلَ؛ أوجب معرفة المعبود عزَّ وجلَّ، وحرَّكَ إلى خدمتهِ بِمُقتضى ما شَرَعَهُ وأَحَبَّهُ، وسَلَكَ بصاحبه طريقَ الإخلاص.

وأصلُ الأصول العلمُ، وأنفعُ العلوم النظرُ في سِيَرِ الرسول ﷺ وأصحابه؛ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٣٧ ـ فصل

[في حقيقة جهاد النفس وطريق تزكيتها]

تأملت جهادَ النفس، فرأيتُه أعظمَ الجهاد، ورأيتُ خَلْقًا من العلماء والزُّهَّاد لا يفهمونَ معناه؛ لأن فيهم مَنْ مَنَعَها حظوظَها على الإطلاق، وذلك غلطٌ من وجهين:

أحدهما: أنه رُبَّ مانعٍ لها شَهْوَةً أعطاها بالمنع أوفى منها: مثلُ أنْ يمنَعَها مباحًا، فيُشْتَهَر بمنعه إيَّاها ذلك، فترضى النفسُ بالمنع لأنها قد

(١) التنوق: المبالغة.

(٢) تقدمت ترجمة ابن سيرين في (فصل ١٨)، وانظر هذا الخبر في «الزهد» للإمام أحمد (ص ٣٧٤).

استبدلتْ به المدخَ. وأخفى من ذٰلك أن يَرَى ـ بمنعه إياها ما مَنَعَ ـ أنه قد فَضَلَ سوَاه مِمَّن لم يمنعْها ذٰلك.

وهٰذه دفائنُ تحتاج إلى مِنْقاشِ[١] فَهْمٍ يُخَلِّصُها.

والوجه الثاني: أننا قد كُلِّفْنا حِفْظَها، ومن أسباب حفظِها ميلُها إلى الأشياء التي تُقيمُها؛ فلا بدَّ من إعطائها ما يُقيمها، وأكثرُ ذٰلك أو كلُّه مما تشتهيه، ونحن كالوكلاء في حفظها؛ لأنها ليستْ لنا، بل هي وديعةٌ عندنا؛ فمنعُها حقوقَها على الإطلاق خطرٌ.

ثم رُبَّ شَدٍّ أوجب استرخاءً، ورُبَّ مُضَيِّقٍ على نفسه فَرَّتْ منه فصَعُبَ عليه تلافيها.

وإنما الجهادُ لها كجهاد المريض العاقل؛ يحملُها على مكروهِها في تناول ما ترجو به العافيةَ، ويذوِّب في المرارة قليلاً من الحلاوةِ، ويتناولُ من الأغذية مقدارَ ما يصفهُ الطبيب، ولا تحمِلُه شهوتهُ على موافقة غرضِها من مَطْعَمٍ ربما جرَّ جوعًا، ومن لُقمةٍ ربما حَرَمَتْ لُقْماتٍ.

فكـذٰلـك المؤمنُ العاقل؛ لا يترك لِجامَها، ولا يُهْمِلُ مِقْوَدَها، بل يُرخي لها في وقتٍ والطِّوَلُ[٢] بيده؛ فما دامت على الجادَّة؛ لم يضايقْها في التضييق عليهـا، فإذا رآها قد مالتْ؛ رَدَّهَا باللُّطف، فإن وَنَتْ[٣] وأبت؛ فبـالعنف، ويحسِبُهـا في مقـام المـداراة كالزوجة التي مبنى عقلها على

(١) المنقاش: الملقط الذي يستخرج به الشوك.

(٢) الطِّوَل: الحبل الذي تشد به الدابة ويمسك طرفه ثم ترسل الدابة للرعي.

(٣) وَنَتْ: تعبت أو فترت.

الضَّعْف والقِلَّة؛ فهي تُدارى عند نشوزها بالوَعْظِ، فإن لم تَصْلُح؛ فبالهجر، فإن لم تستقمْ؛ فبالضرب، وليس في سياطِ التأديبِ أجودُ من سَوْطِ عَزْم.

هذه مجاهدةٌ من حيث العمل.

فأما من حيثُ وعظُها وتأنيبُها؛ فينبغي لمن رآها تسكنُ للخلق وتتعرضُ بالدناءة من الأخلاق أن يُعَرِّفَها تعظيمَ خالِقها لها، فيقولَ: ألستِ التي قال فيك: خلقتكِ بيديَّ[1]، وأسجدتُ لكِ ملائكتي، وارتضاكِ للخلافة في أرضه، وراسلَكِ[2]، واقترض منكِ واشترى[3]؟! فإن رآها تتكبَّرُ؛ قال لها: هل أنتِ إلَّا قطرةٌ من ماء مَهين، تقتُلُكِ شَرْقَةٌ، وتُؤلِمُكِ بَقَّةٌ؟! وإن رأى تقصيرها؛ عَرَّفَها حقَّ الموالي على العبيدِ. وإن وَنَتْ في العمل؛ حدَّثها بجزيل الأجر. وإن مالتْ إلى الهوى؛ خوَّفها عظيم الوزر، ثم يحذِّرُها عاجِلَ العقوبة الحسيَّةِ؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦]، والمعنويَّةِ؛ كقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

فهٰذا جهادٌ بالقول، وذاك جهادٌ بالفعل.

---

(١) وذٰلك في قوله تعالى: ﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾ [صٓ: ٧٥].

(٢) يعني: أرسل لك الرسل وأنزل عليك الكتب.

(٣) وذٰلك في قوله تعالى: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وفي قوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن له الجنة﴾ [التوبة: ١١١].

٣٨ـ فصل
[في أسباب تخلف إجابة الدعاء]

رأيت من البلاء أنَّ المؤمنَ يدعو فلا يُجاب، فيكررُ الدعاءَ، وتطولُ المدةُ، ولا يرى أثرًا للإجابةِ!

فينبغي له أن يعلمَ أنَّ هٰذا من البلاء الذي يحتاجُ إلى الصبر، وما يَعْرِضُ للنفس مِن الوَسْواس في تأخير الجواب مرضٌ يحتاج إلى طبٍّ.

ولقد عَرَضَ لي شيء من هٰذا الجنس؛ فإنه نزلت بي نازلةٌ، فَدَعَوْتُ وَبالَغْتُ، فلم أرَ الإجابةَ، فأخذ إبليسُ يجولُ في حَلَبات كَيْدِهِ.

فتارة يقولُ: الكرمُ واسعٌ والبُخل معدومٌ؛ فما فائدةُ تأخير الجواب؟!

فقلتُ له: اخسأ يا لَعينُ! فما أحتاجُ إلى تَقاضٍ، ولا أرضاك وكيلًا.

ثم عدتُ إلى نفسي فقلتُ: إياكِ ومساكنةَ وسوستهِ؛ فإنه لو لم يكنْ في تأخيرِ الإجابة إلَّا أن يَبْلُوَكِ المقدِّرُ في محاربة العدوِّ؛ لَكفى في الحكمة.

قالت: فَسَلِّني عن تأخيرِ الإجابةِ في مثل هٰذه النازلةِ!

فقلتُ: قد ثَبَتَ بالبرهانِ أن الله عزَّ وجلَّ مالكٌ، وللمالك التصرُّف بالمنع والعطاءِ؛ فلا وجهَ للاعتراضِ عليه.

والثاني: أنه قد ثبتتْ حكمتُه بالأدلةِ القاطعةِ؛ فربما رأيتِ الشيءَ مصلحةً والحكمةُ لا تقتضيه، وقد يخفى وجهُ الحكمة فيما يفعلُه الطبيبُ مِن أشياءَ تؤذي في الظاهرِ يقصِدُ بها المصلحةَ؛ فلعلَّ هٰذا من ذاك.

والثالث: أنه قد يكون التأخيرُ مصلحةً والاستعجالُ مَضَرَّةً، وقد قال النبي ﷺ: «لا يزال العبدُ في خيرٍ ما لم يَسْتَعْجِلْ؛ يقولُ: دعوتُ فلم يُسْتَجَبْ لي!»(١).

والرابع: أنه قد يكونُ امتناع الإجابة لآفةٍ فيكِ؛ فربما يكون في مأكولكِ شُبهةٌ، أو قَلْبُكِ وقتَ الدُّعاء في غفلةٍ، أو تزاد عقوبتكِ في مَنْعِ حَاجتِك لِذَنْبٍ ما صَدَقْتِ في التوبة منه.

فابحثي عن بعض هٰذه الأسباب؛ لعلَّك توفَّقين بالمقصود.

كما روي عن أبي يزيد رضي الله عنه: أنه نزل بعضُ الأعاجم في داره، فجاء، فرآه، فوقفَ بباب الدارِ، وأمر بعضَ أصحابه، فدخلَ، فقلع طينًا جديدًا قد طَيَّنَهُ، فقام الأعجميُّ وخرجَ، فسُئِل أبو يزيدَ عن ذٰلك؟

(١) **(صحيح)**. رواه: أحمد في «المسند» (٣ / ١٩٣ و ٢١٠)، وأبو يعلى في «المسند» (٥ / ٢٤٨ / ٢٨٦٥)؛ من طرق عن أبي هلال الراسبي، عن قتادة، عن أنس مرفوعًا.

قال المنذري في «الترغيب» (٢ / ٤٨٨ / ٢٤٥٧): «رواتهما محتج بهم في الصحيح إلا أبا هلال الراسبي». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠ / ١٥٠): «رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والبزار والطبراني في «الأوسط»، وفيه أبو هلال الراسبي، وهو ثقة، وفيه خلاف، وبقية رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح». وأبو هلال هٰذا صدوق فيه لين كما ذكر الحافظ في «التقريب».

لٰكن لحديث أنس طريق أخرى أخرجها أبو نعيم في «الحلية» (٦ / ٣٠٩) بسند ضعيف.

وله شاهد في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة بلفظ قريب جدًا من هٰذا.

فالحديث صحيح بمجموع هٰذه الطرق والشواهد، والله أعلم.

فقال: هٰذا الطينُ من وجهٍ فيه شُبهةٌ، فلما زالتِ الشبهة؛ زال صاحبُها[١].

وعن إبراهيم الخَوَّاص[٢] رحمةُ الله عليه: أنه خرجَ لإنكارِ منكَرٍ، فَنَبَحَهُ كلبٌ له، فمنعَه أن يمضيَ، فعاد، ودخلَ المسجدَ، وصلَّى، ثم خرج، فَبَصْبَصَ الكلب له[٣]، فمضى، وأنكـرَ، فزال المنكرُ، فسُئِلَ عن تلك الحال؟ فقال: كان عندي منكرٌ، فمنعني الكلبُ، فلما عُدْتُ؛ تُبْتُ من ذٰلك، فكان ما رأيتم.

والخامس: أنه ينبغي أن يقعَ البحثُ عن مقصودِكِ بهٰذا المطلوب؛ فربما كان في حصوله زيادةُ إثمٍ، أو تأخيرٌ عن مرتبة خيرٍ؛ فكان المنعُ أصلحَ.

وقد روي عن بعض السلف: أنه كان يسألُ الله الغزوَ، فهتفَ به هاتفٌ: إنك إن غَزَوْتَ؛ أُسِرْتَ، وإنْ أُسِرْتَ؛ تنصَّرْتَ.

والسادس: أنه ربما كان فَقْدُ ما فَقَدْتِهِ سببًا للوقوف على الباب واللَّجَإ، وحصولُه سببًا للاشتغال به عن المسؤول.

وهٰذا الظاهر؛ بدليل أنه لولا هٰذه النازلةُ؛ ما رأيناكِ على باب اللَّجَإ.

فالحقُّ عزَّ وجلَّ عَلِمَ من الخلق اشتغالَهم بالبرِّ عنه، فَلَذَعَهُم في

---

(١) تقدمت ترجمة أبي يزيد في (فصل ١٩).

(٢) إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل أبو إسحاق الخواص، من أقران الجنيد، ولد في سر من رأى، ومات في جامع الري سنة ٢٩١هـ. انظر ترجمته وأخباره في: «حلية الأولياء» (١٠ / ٣٢٥)، و«تاريخ بغداد» (٦ / ٧).

(٣) بصبص الكلب: هز بذيله رضىً.

خلال النعم بعوارضَ تدفعُهم إلى بابه؛ يستغيثونَ به؛ فهٰذا من النِّعَم في طيِّ البلاء، وإنما البلاءُ المَحْضُ ما يَشْغَلُكِ عنه، فأما ما يُقيمُكِ بين يديه؛ ففيه جمالُكِ.

وقد حُكِيَ عن يحيى البَكَّاءِ[١] أنه رأى ربَّه عزَّ وجلَّ في المنام، فقال: يا ربِّ! كم أدعوك ولا تجيبُني؟ فقال: يا يحيى! إنِّي أحبُّ أنْ أسمعَ صوتَكَ.

وإذا تدبَّرْتِ هٰذه الأشياءَ؛ تشاغلتِ بما هو أنفعُ لكِ من حصول ما فاتَكِ؛ من رفع خللٍ، أو اعتذارٍ من زللٍ، أو وقوفٍ على الباب إلى ربِّ الأرباب.

٣٩ ـ فصل

[في بعض الأدوية الناجعة في الشدائد]

من نزلت به بَلِيَّةٌ، فأراد تمحيقَها[٢]؛ فليتصوَّرْها أكثرَ مما هي؛ تَهُنْ، ولْيَتَخايَلْ ثوابَها، ولْيَتَوَهَّمْ نزولَ أعظم منها؛ يَرَ الرِّبْحَ في الاقتصار عليها، ولْيتلمح سرعةَ زوالها؛ فإنه لولا كَرْبُ الشدة؛ ما رُجِيَتْ ساعاتُ الراحة، وليعلمْ أن مدة مُقامها عنده كمدةِ مُقام الضيف؛ فلْيَتَفَقَّدْ حوائجَه في كلِّ لحظةٍ؛ فيا سرعةَ انقضاء مُقامه! ويا لذةَ مدائحه وبشرِهِ في المحافل

(١) شيخ، بصري، ضعيف الحديث قليله، من موالي الأزد، مختلف في اسم أبيه، معدود في جملة التابعين، توفي سنة ١٣٠هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٥ / ٣٥٠)، و«تهذيب التهذيب» (١١ / ٢٧٨).

(٢) التمحيق: كالمحق، وهو الإبطال والمحو وإذهاب البركة.

ووصفِ المضيف بالكرم!

فكذٰلك المؤمنُ في الشدَّةِ؛ ينبغي أن يراعيَ الساعاتِ، ويتفقَّدَ فيها أحوالَ النفس، ويتلمحَ الجوارحَ؛ مخافةَ أن يبدوَ من اللسان كلمةٌ، أو من القلب تَسَخُّطٌ، فكأنْ قد لاحَ فجرُ الأجر، فانجابَ[1] ليلُ البلاء ومُدِحَ الساري بِقَطْعِ الدُّجى؛ فما طلعتْ شمسُ الجزاء؛ إلَّا وقد وَصَلَ إلى منزل السلامةِ.

٤٠ ـ فصل

[في ضرورة اقتران العمل بالعلم]

لما رأيتُ رأيَ نفسي في العلم حسنًا؛ فهي تُقَدِّمُه على كلِّ شيءٍ، وتعتقدُ الدليلَ، وتُفَضِّلُ ساعةَ التشاغل به على ساعات النوافل، وتقولُ: أقوى دليل لي على فَضْلِهِ على النوافل: أني رأيتُ كثيرًا ممَّن شَغَلَتْهُم نوافلُ الصلاة والصَّوم عن نوافل العلم عاد ذٰلك عليهم بالقَدْحِ في الأصول؛ فرأيتها في هٰذا الاتِّجاه على الجادَّةِ السَّهلةِ والرأي الصحيح.

إلَّا أني رأيتُها واقفةً مع صورة التشاغُل بالعلم، فصِحْتُ بها: فما الذي أفادَكِ العلمُ؟! أين الخوفُ؟! أين القلقُ؟! أين الحَذَرُ؟!

أوما سمعتِ بأخبار أخيارِ الأحبار في تعبُّدِهم واجتهادِهم؟!

أما كان الرسولُ ﷺ سيدَ الكلِّ، ثم إنَّه قام حتى وَرِمَتْ قدماه[2]؟!

---

(١) انجاب: انكشف وانقضى.

(٢) روى: البخاري (١٩ ـ كتاب التهجد، ٦ ـ باب قيام النبي ﷺ الليل، ٣ / ١٤ / ١١٣٠)، ومسلم (٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، ١٨ ـ باب إكثار الأعمال =

أما كان أبو بكرٍ رضي لله عنه شَجِيَّ النَّشيجِ كثيرَ البكاءِ؟!

أما كان في خدِّ عمرَ رضي الله عنه خَطَّانِ من آثارِ الدُّموعِ؟!

أما كان عثمانُ رضي الله عنه يَخْتِمُ القرآنَ في رَكْعَةٍ[1]؟!

أما كان عليٌّ رضي الله عنه يبكي بالليل في محرابِهِ حتى تَخْضَلَّ لحيتُه بالدموع، ويقولُ: يا دُنْيا: غُرِّي غَيْري؟!

أما كان الحسنُ البَصْريُّ يحيا على قُوَّةِ القَلَقِ.

أما كان سعيدُ بن المسيَّبِ ملازِمًا للمسجد، فلم تَفُتْهُ صلاةٌ في جماعةٍ أربعين سنة[2]؟!

أما صام الأسودُ بن يزيدَ حتى اخْضَرَّ واصْفَرَّ[3]؟!

= والاجتهاد في العبادة، ٤ / ٢١٧١ ـ ٢١٧٢ / ٢٨١٩)؛ عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه؛ قال: إن كان النبي ﷺ ليصلي حتى ترم قدماه، فيقال له؟ فيقول: «أفلا أكون عبدًا شكورًا؟».

(١) ذكره الترمذي في «السنن» (٤٧ ـ كتاب القراءات، ١٣ ـ باب، ٥ / ١٩٧ / ٢٩٤٦) بصيغة (روي) التي هي للتضعيف، ثم قال: «والترتيل في القراءة أحب إلى أهل العلم»، وعثمان والله منهم، وماكان له أن يخالف ما ثبت عن النبي ﷺ من أمره لابن عمرو رضي الله عنهما: «فاقرأه في سبع ولا تزد»؛ كما في «الصحيحين»، وما ثبت عنه أيضًا في «السنن»: «لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث».

(٢) الخبر في: «الحلية» (٢ / ١٦٢)، و«سير أعلام النبلاء» (٤ / ٢٢١).

وسعيد هو الإمام، العلم، المشهور، سيد التابعين في زمانه، المولود لسنتين مضتا من خلافة عمر، والمتوفى سنة ٩٣هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٤ / ٢١٧)، و«تهذيب التهذيب» (٤ / ٨٤).

(٣) قال الذهبي في «السير» (٤ / ٥٢): «وكأنه لم يبلغه النهي عن ذلك أو تأول»؛ =

أما قالتِ ابنةُ الربيع بن خُثَيْم له: ما لي أرى الناس ينامون وأنت لا تنامُ؟! فقال: إنَّ أباكِ يخافُ عذابَ البيات[1]؟!

أما كان أبو مسلم الخَوْلانيُّ يُعلِّقُ سَوْطًا في المسجد يؤدِّبُ به نفسَه إذا فَتَر[2]؟!

أما صام يزيدُ الرقاشيُّ أربعين سنةً، وكان يقول: والهفاهُ! سبقني العابدونَ وقُطِعَ بي[3]؟!

أما صام منصورُ بنُ المعتمرِ أربعين سنة[4]؟!

= يعني: عن صيام الدهر.

والأسود هو الإمام القدوة، العلم، من المخضرمين، كان يضرب بعبادته المثل، توفي سنة ٧٥هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٤ / ٥٠)، و«تهذيب التهذيب» (١ / ٣٤٢).

(١) عذاب البيات: هو الأخذ بغتة في الليل. والخبر في: «حلية الأولياء» (٢ / ١١٤) لأبي نعيم. وقد تقدمت ترجمة الربيع في (فصل ١٩).

(٢) هو عبد الله بن ثوب، الداراني، الخولاني، سيد التابعين، وزاهد عصره، أسلم أيام النبي ﷺ، ودخل المدينة في خلافة الصديق، توفي في حدود ٦٢هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٤ / ٧)، و«تهذيب التهذيب» (١٢ / ٢٣٥). وانظر هذا الخبر في: «حلية الأولياء» (٢ / ١٢٧) لأبي نعيم.

(٣) هو أبو عمرو، يزيد بن أبان، الرقاشي، البصري، القاص، الزاهد، ضعيف منكر الحديث، له أخبار كثيرة في الزهد والعبادة والمجاهدة، توفي بين ١١٠ ـ ١٢٠هـ. انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» (٣ / ٥٠)، و«تهذيب التهذيب» (١١ / ٢٧٠). وانظر خبره هذا في: «حلية الأولياء» (٣ / ٥٠).

(٤) هو أبو عتاب، السلمي، الكوفي، الحافظ، الثبت، القدوة، أحد الأعلام، توفي سنة ١٣٣هـ. انظر ترجمته وخبر صيامه هذا في: «حلية الأولياء» (٥ / ٤٠)، و«سير أعلام النبلاء» (٥ / ٤٠٢).

أما كان سفيانُ الثوريُّ يبكي الدَّمَ من الخوفِ[1]؟!

أما كان إبراهيمُ بن أدهمَ يَبول الدَّمَ من الخوفِ[1]؟!

أما تعلمين أخبار الأئمة الأربعة في زهدِهم وتعبُّدهم؛ أبو حنيفةَ، ومالكٌ، والشافعيُّ، وأحمدُ؟!

فاحْذَري من الإخلادِ إلى صورةِ العلم مع تركِ العَمَل به؛ فإنها حالةُ الكُسالى الزَّمْنى:

وَخُـذْ لَكَ مِنْـكَ على مُهْـلَةٍ ... ومُـقْـبِـلُ عَيْشِـكَ لَمْ يُدْبِـرِ
وَخَـفْ هَجْمَـةً لا تُقيلُ العِثـا ... رَ وتَـطْوي الـوُرودَ على المَصْـدَرِ
وَمَـثِّـلْ لِنَفْسِـكَ أيَّ الـرعيـ ... ـلِ يضمُّـكَ في حَلْبَـةِ المَحْشَـرِ

٤١ ـ فصل

[في فضل أهل العلم على الزهاد والمتعبدين]

مما يزيدُ العلمَ عندي فضلًا: أنَّ قومًا تشاغلوا بالتعبُّد عن العلم، فوقَفوا عن الوصول إلى حقائق الطَّلَبِ.

فَرُوِيَ عن بعض القدماء أنه قالَ لرجل: يا أبا الوليدِ! إنْ كنتَ أبا الوليد! يتورَّعُ أنْ يَكْنِيه ولا وَلَدَ له!

ولو أوغلَ هٰذا في العلم؛ لَعَلِمَ أنَّ النبيَّ ﷺ كنى صهيبًا أبا يحيى[2]،

(١) تقدمت ترجمته في (فصل ١٩).

(٢) وذلك في قوله ﷺ: «ربح البيع أبا يحيى».

أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣ / ٣٩٨) من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس. وقال: «صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». وسكت عنه الذهبي. =

وكنى طفلاً فقال: «يا أبا عُمَيْرٍ! ما فَعَلَ النُّغَيْرُ[(١)]؟»[(٢)].

وقال بعض المتزهِّدين: قيل لي يومًا: كُلْ من هٰذا اللبنِ! فقلتُ: هٰذا يضرُّني. ثم وقفتُ بعد مدةٍ عند الكعبةِ، فقلتُ: اللهمَّ! إنَّكَ تعلَمُ أني ما أشركتُ بكَ طرفةَ عينٍ. فَهَتَفَ بي هاتفٌ: ولا يومَ اللَّبَنِ؟!

وهٰذا لو صحَّ؛ جاز أن يكونَ تأديبًا له؛ لئلَّا يَقِفَ مع الأسباب ناسيًا للمسبِّب، وإلَّا؛ فالرسولُ ﷺ قد قال: «ما زالت أكْلَةُ خَيْبَر تعاوِدُني حتى الآنَ قَطَعَتْ أبْهَري»[(٣)]، وقال: «ما نَفَعني مالٌ كمال أبي بكرٍ»[(٤)].

= وأخرجه الحاكم أيضًا (٣ / ٤٠٠) من طريق حصين بن حذيفة بن صيفي بن صهيب، حدثني أبي وعمومتي، عن سعيد بن المسيب، عن صهيب... فذكره في قصة هجرته. وقال الحاكم: «هٰذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي. لٰكن فيه جهالة.

وله أسانيد أخرى عند: ابن سعد (٣/١٢١)، وابن جرير (٢/٣٣٣)، والطبراني (٨/٣١/٧٢٩٦)، وأبي نعيم في «الحلية» (١/١٥١)، وابن عساكر في «التاريخ» (٢٤/٢١٨)، وغيرها... يجزم الناظر فيها بأن للحديث أصلاً صحيحًا.

وانظر: «سير أعلام النبلاء» (٢ / ٢٢)، و«الإصابة» (٢ / ١٩٥)، و«الدر المنثور» (١ / ٤٣٠ - ٤٣١).

(١) النغير: تصغير النُّغَر، وهو البلبل، ونوع من الحُمَّر، وفراخ العصافير.

(٢) رواه: البخاري (٧٨ ـ كتاب الأدب، ٨١ ـ باب الانبساط إلى الناس، ١٠ / ٥٢٦ / ٦١٢٩)، ومسلم (٣٨ ـ كتاب الآداب، ٥ ـ باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يسميه، ٣ / ١٦٩٢ / ٢١٥٠)؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤ ـ كتاب المغازي، ٨٣ ـ باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ٨ / ١٣١ / ٤٤٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) (**صحيح**). رواه: أحمد (٢ / ٢٥٣)، وابن ماجه (المقدمة، ١١ ـ باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ، ١ / ٣٦ / ٩٤)، وابن حبان (١٥ / ٢٧٣ / ٦٨٥٨)؛ =

ومن المتزهِّدين أقوامٌ يَرَوْنَ التوكُّلَ قطعَ الأسباب كلِّها.

وهٰذا جهلٌ بالعلم؛ فإن النبي ﷺ: دخلَ الغارَ[١]، وشاورَ الطبيبَ[٢]، ولَبِسَ الدِّرْعَ[٣]، وحَفَرَ الخندق[٤]، ودَخَلَ مكةَ في جوار

= من طرق عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة.

قال في «الزوائد»: «إسناده إلى أبي هريرة فيه مقال؛ لأن سليمان بن مهران الأعمش يدلس، وكذا أبو معاوية إلا أنه صرح بالتحديث فزال التدليس، وباقي رجاله ثقات».

لٰكن رواه الترمذي (٥٠ ـ كتاب المناقب، ١٥ ـ باب، ٥ / ٦٠٩ / ٣٦٦١) من طريق أخرى، وقال: «حسن غريب من هٰذا الوجه». وليس كذٰلك؛ ففيه داوود بن يزيد الأودي؛ ضعيف، ومحبوب بن محرز؛ لين الحديث.

وله طريق ثالثة أخرجها ابن أبي عاصم في «السنة» (٥٦٣ / ١٢٣٠)، وسنده حسن.

فالحديث صحيح بمجموع هٰذه الطرق، وله شواهد تقويه أخرجاها في «الصحيحين» من حديث ابن مسعود وابن عباس وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم، وصححه الألباني في «تخريج مشكلة الفقر» (١٦ / ١٣).

(١) والحديث في هٰذا مشهور ومخرج في «الصحاح» و «السنن».

(٢) أما لنفسه ﷺ؛ فلم يصح عنه ﷺ أنه راجع طبيبًا أو شاوره في مرض أو علاج؛ إلا أن يكون قصده احتجامه ﷺ واستعانته بالحجام، وأما غير ذٰلك؛ فإما صحيح غير صريح، وإما صريح غير صحيح، وهٰذا كتاب «الطب النبوي» لابن القيم ليس فيه شيء يصح من هٰذا على توسعه وشموله.

نعم؛ قد صح أن النبي ﷺ استعان بالطبيب لعلاج بعض أصحابه؛ كما روى مسلم (٣٩ ـ كتاب السلام، ٢٦ ـ باب لكل داء دواء واستحباب التداوي، ٤ / ١٧٣٠ / ٢٢٠٧) عن جابر؛ قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبي بن كعب طبيبًا، فقطع منه عرقًا، ثم كواه عليه.

(٣) وهٰذا معلوم ومشهور من سنته ﷺ، بل إنه ﷺ ظاهر يوم أحد بين درعين؛ أخرج ذٰلك أصحاب «السنن» بالأسانيد الصحيحة.

(٤) وهٰذا أيضًا معلوم ومتواتر ومخرج في معظم كتب السنة.

المُطْعِمِ بن عديٍّ وكان كافرًا[١]، وقال لسعدٍ: «لأنْ تَدَعَ وَرَثَتَك أغنياءَ خيرٌ لك مِنْ أنْ تَدَعَهُم عالةً يتكَفَّفونَ الناس»[٢]؛ فالوقوفُ مع الأسبابِ مع نسيانِ المسبِّبِ غَلَطٌ.

وكلُّ هٰذه الظُّلُماتِ إنما تُقْطَعُ بمصباح العلم.

ولقد ضلَّ مَن مشى في ظُلمة الجهل أو في زُقاقِ الهوى.

٤٢ ـ فصل

[بين الملائكة والبشر]

ما أزال أتعجَّبُ ممن يرى تفضيلَ الملائكةِ على الأنبياءِ والأولياءِ!

فإن كان التفضيلُ بالصُّوَرِ؛ فصورةُ الآدميِّ أعجبُ من ذوي أجنحةٍ.

وإنْ تُرِكَتْ صورةُ الآدميِّ لأجلِ أوساخها المَنوطة بها؛ فالصورةُ ليستِ الآدميَّ، إنما هي قالَبٌ! ثم قد استُحْسِنَ منها ما يُستقبَحُ في العبادةِ؛ مثلُ: خُلوفِ فم الصائم[٣]، ودمِ الشُّهداءِ[٤]، والنومِ في

(١) ذكره: الطبري في «تاريخ الأمم والملوك» (١ / ٥٥٥)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٢ / ١٥٠).

(٢) تقدم تخريجه في (فصل ٢٤).

(٣) وذلك فيما رواه: البخاري (٣٠ ـ كتاب الصوم، ٢ ـ باب فضل الصوم، ٤ / ١٠٣ / ١٨٩٤)، ومسلم (١٣ ـ كتاب الصيام، ٣٠ ـ باب فضل الصيام، ٢ / ٨٠٦ / ١١٥١)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «... والذي نفسي بيده؛ لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك».

(٤) وذلك فيما رواه: البخاري (٤ ـ كتاب الوضوء، ٦٧ ـ باب ما يقع من النجاسات في السمن والماء، ١ / ٣٤٤ / ٢٣٧)، ومسلم (٣٣ ـ كتاب الإمارة، ٢٨ ـ باب فضل =

الصَّلاة[١]؛ فبقيتْ صورةً معمورةً، وصار الحكمُ للمعنى.

ألهم مرتبةٌ يحبُّهم [بها] أو فضيلةٌ يباهي بهم؟!

وكيف دار الأمرُ؛ فقد سَجَدوا لنا، وهو صريحٌ في تفضيلِنا عليهم.

فإن كانتِ الفضيلةُ بالعِلْم؛ فقد علمتَ القصةَ يومَ ﴿لا عِلْمَ لنا... يا آدَمُ أنْبِئْهُمْ﴾ [البقرة: ٣٢ ـ ٣٣].

وإن فُضِّلَتِ الملائكةُ بجوهريَّةِ ذواتِهم؛ فجَوْهَرِيَّةُ أرواحِنا من ذلك الجنس، وعلينا أثقالُ أعباءِ الجسم.

بالله؛ لولا احتياجُ الراكب إلى الناقةِ؛ فهو يتوقَّفُ لطلب عَلَفِها، ويرفُقُ في السَّيْرِ بها؛ لَطَرَقَ أرضَ مِنى قبل العشر[٢].

وا عجباً! أتفضَّلُ الملائكةَ بكَثْرَةِ التعبُّد؟! فما ثَمَّ صادٌّ.

أوَيُتَعَجَّبُ من الماءِ إذا جرى أو من مُنْحَدِرٍ يُسْرِعُ؟! إنما العجبُ من

= الجهاد والخروج في سبيل الله، ٣ / ١٤٩٥ / ١٨٧٦)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «كل كلم يكلمه المسلم في سبيل الله تكون يوم القيامة كهيئتها إذ طعنت؛ تفجر دمًا، اللون لون الدم، والعرف عرف المسك».

(١) لعله يقصد به حديث: أبي داوود في «السنن» (٢ ـ كتاب الصلاة، ٢٠ ـ باب من نوى القيام فنام، ١ / ٤١٩ ـ ٤٢٠، برقم ١٣١٤)، والنسائي في «السنن» (٢٠ ـ كتاب قيام الليل، ٦١ ـ باب من كان له صلاة بالليل فغلبه عليها النوم، ٣ / ٢٥٧ ـ ٢٥٨، برقم ١٧٨٣ و ١٧٨٤)؛ عن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا: «ما من امرىء تكون له صلاة بليل، فغلبه عليها نوم؛ إلا كتب الله له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه». وصححه الألباني.

(٢) يعني: عشر ذي الحجة؛ كناية عن انطلاق الروح بسرعة إلى الله تعالى لو أنها تخلصت من إسار الجسد.

مُصاعِدٍ يَشُقُّ الطريقَ ويغالِبُ العَقَباتِ!

بلى؛ قد يُتصَوَّرُ منهم الخلافُ ودعوى الإلٰهية؛ لِقُدْرَتِهم على دكِّ الصُّخور وشقِّ الأرض؛ لذلك تُوُعِّدوا: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، لٰكنهم يعلمونَ عقوبةَ الحقِّ فيحْذَرونه.

فأما بُعْدُنا عن المعرفةِ الحقيقيةِ، وضَعْفُ يقينِنا بالنَّاهي، وغلبةُ شهوتِنا مع الغفلةِ؛ [فـ] يحتاجُ إلى جهادٍ أعظمَ من جهادِهِم.

تالله؛ لو ابْتُلِيَ أحدُ المقرَّبين بما ابْتُلينا به؛ لم يَقْدِرْ على التَّماسُك.

يصبحُ أحدُنا؛ وخطابُ الشَّرْعِ يقولُ له: اكسِبْ لعائلتِك، واحذَرْ في كَسْبِكَ! وقد تمكَّنَ منه ما ليس من فعلِهِ؛ كحبِّ الأهل، وعُلوقِ الولَدِ بِنِياطِ القَلْب، واحتياجِ بدنِهِ إلى ما لا بدَّ منه.

فتارةً يُقال للخليل عليه السلام: اذبحْ ولدك بيدك! واقطعْ ثمرة فؤادك بكفِّك! ثم قُمْ إلى المنجنيق لِتُرمى في النار[1]!

وتارةً يُقال لموسى عليه السلام: صُمْ شهرًا؛ ليلاً ونهارًا[2].

ثم يُقالُ للغضبانِ: اكظِمْ! وللبصيرِ: اغْضُضْ! ولذي المِقْوَلِ: اصمُتْ! ولمستلذِّ النوم: تَهَجَّدْ! ولمن مات حبيبُه: اصبرْ! ولمن أصيبَ في

---

(١) هٰذا معلوم ومشهور من قصة خليل الله إبراهيم ﷺ. وراجع: «البداية والنهاية» (١ / ٢٣٩ وما بعدها).

(٢) أخرجه الديلمي في «الفردوس» عن ابن عباس مرفوعًا؛ كما ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣ / ٢١٥). وانظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١ / ٣٩٠).

بدنه: اشكُرْ! وللواقف في الجهاد بين اثنين: لا يحلُّ أن تَفِرَّا! ثم اعلمْ أن الموت يأتي بأصعبِ المراراتِ، فينزعُ الرُّوحَ عن البدنِ؛ فإذا نَزَلَ؛ فاثْبُتْ! واعلمْ أنَّك مُمَزَّقٌ في القبرِ؛ فلا تَتَسَخَّطْ؛ لأنه مما يَجْري به القَدَرُ! وإن وَقَعَ بك مرضٌ؛ فلا تَشْكُ إلى الخلق!

فهل للملائكةِ من هٰذه الأشياءِ شيءٌ؟! وهل ثَمَّ إلَّا عبادة ساذَجَةٌ[1] ليس فيها مقاومةُ طبعٍ ولا ردُّ هوىً؟! وهل هي إلَّا عبادةٌ صُورِيَّةٌ بين ركوع وسجودٍ وتسبيح؟! فأين عبادتُهم المعنويةُ من عبادتِنا؟!

ثم أكثرُهم في خِدمتنا؛ بين كَتَبَةٍ علينا، ودافعينَ عنَّا، ومسخَّرينَ لإرسال الريح والمطر، وأكبرُ وظائِفِهِمُ الاستغفارُ لنا[2].

فكيف يُفَضَّلون علينا بلا عِلَّةٍ ظاهرةٍ؟!

وإذا ما حُكَّتْ على مَحَكِّ التجارب طائفةٌ منهم ـ مثلُ ما رُوِيَ عن هاروتَ وماروتَ ـ؛ خرجوا أقبحَ من بَهْرَجٍ[3].

---

(١) الساذج: معرَّب، ومعناه السادة، وتستعمل غالبًا لوصف البسطاء الأغبياء الذين يتصرفون بغير وعي ولا تفكير! ومنه تعلم مجازفة المؤلف وجرأته في وصف الملائكة عباد الله المكرمين بهٰذا!!

(٢) وكل ذٰلك معلوم مشهور قد جاءت به آيات الكتاب الكريم.

(٣) البهرج: الرديء والباطل!!

وقصة هاروت وماروت رواها: أحمد (٢ / ١٣٤)، والبزار (٢٩٣٨)، وابن حبان (١٤ / ٦٣ / ٦١٨٦)، والبيهقي في «السنن» (١٠ / ٤)؛ من طريق يحيى بن أبي بكير، عن زهير بن محمد، عن موسى بن جبير، عن نافع، عن ابن عمر: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن آدم لما أهبط إلى الأرض؛ قالت الملائكة: أي رب! ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون﴾ =

. . . .

= [البقرة: ٣٠]. قالوا: ربنا! نحن أطوع لك من بني آدم. قال الله لملائكته: هلموا ملكين من الملائكة، فننظر كيف يعملان؟ قالوا: ربنا! هاروت وماروت. قال: فاهبطا إلى الأرض. قال: فمثلت لهم الزهرة امرأة من أحسن البشر، فجاءاها، فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تكلما بهٰذه الكلمة من الإشراك، قالا: والله لا نشرك بالله أبدًا، فذهبت عنهما، ثم رجعت بصبي تحمله، فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تقتلا هٰذا الصبي، فقالا: لا والله لا نقتله أبدًا، فذهبت ثم رجعت بقدح من خمر تحمله، فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تشربا هٰذا الخمر، فشربا فسكرا، فوقعا عليها، وقتلا الصبي، فلما أفاقا، قالت المرأة: والله ما تركتما من شيء أثيمًا إلا فعلتماه حين سكرتما، فخُيِّرا عند ذٰلك بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا».

وهٰذا الإسناد ضعيف:

موسى بن جبير: ذكره ابن حبان في «الثقات» وقال: «يخطىء ويخالف». وقال ابن القطان: «لايعرف حاله». ولخص الحافظ في «التقريب» حاله فقال: «مستور». وانظر: «تهذيب التهذيب» (١٠ / ٣٠٢).

وزهير بن محمد، وإن روى له الستة؛ فقد قال ابن حبان: محله الصدق، وفي حفظه سوء، وكان حديثه بالشام أنكر من حديثه بالعراق؛ لسوء حفظه. وضعفه النسائي، وقال عثمان الدارمي: وله أغاليط كثيرة. وانظر: «التقريب»، و«التهذيب» (٣ / ٣٠١).

وقد رواه: عبد الرزاق في «تفسيره» (١ / ٧٣ / ٩٧)، وعنه ابن جرير في «التفسير» (رقم ١٦٨٤ و ١٦٨٥)؛ عن سفيان الثوري، عن موسى بن عقبة، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه، عن كعب الأحبار موقوفًا عليه.

وهٰذا سند صحيح على شرط الشيخين؛ فعليه العمدة، والمرفوع خطأ.

ولذٰلك قال البزار: «رواه بعضهم عن نافع عن ابن عمر موقوفًا، وإنما أتى رفع هٰذا عندي من زهير؛ لأنه لم يكن بالحافظ».

وقال البيهقي: «رواه موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر، عن كعب؛ قال: ذكرت الملائكة أعمال بني آدم. . . فذكر بعض هٰذه القصة، وهٰذا أشبه».

وقال الحافظ ابن كثير في «التفسير» (١ / ١٣٢): «وأقرب ما يكون في هٰذا أنه من =

ولا تظننَّ أني أعتقـدُ في تعبُّد الملائكة نوعَ تقصيرٍ؛ لأنهم شديدو الإشفاق والخوف؛ لِعِلْمِهِم بعظمة الخالق، لٰكِنْ طمأنينةً من لم يخطىء تُقَوِّي نفسَه، وانزعاجُ الغائصِ في الزَّلَل يُرقي روحَه إلى التَّراقي.

فاعـرفوا - إخواني - شَرَفَ أقدارِكم، وصونوا جواهِرَكُم عن تدنيسِها بلُؤْمِ الذنوبِ؛ فأنتم مَعْرِضُ الفضل على الملائكةِ؛ فاحذَروا أن تَحُطَّكُمُ الذُّنوبُ إلى حضيض البهائم!

= رواية عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار لا عن النبي ﷺ... (ثم ذكرها، ثم قال:) فهٰذا أصح وأثبت إلى عبد الله بن عمر من الإسنادين المتقدمين، وسالم أثبت في أبيه من مولاه نافع، فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار عن كتب بني إسرائيل. والله أعلم».

وذكر مثله أيضًا في «البداية والنهاية» (١ / ٧١ - ٧٢) وزاد: «فهٰذا أظنه من وضع الإسرائيليين، وإن كان قد أخرجه كعب الأحبار، وتلقاه عنه طائفة من السلف، فذكروه على سبيل الحكاية والتحديث عن بني إسرائيل».

وقال الحافظ العسقلاني في «القول المسدد في الذب عن المسند» (٤٠ - ٤١): «للحديث طرق كثيرة جمعتها في جزء مفرد يكاد الواقف عليه يقطع بوقوع هٰذه القصة لكثرة الطرق الواردة فيها وقوة مخارج أكثرها».

ورده عليه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله فقال في «شرح المسند» (٦١٧٨): «أما هٰذا الذي جزم به الحافظ بصحة وقوع هٰذه القصة صحة قريبة من القطع لكثرة طرقها وقوة مخارج أكثرها؛ فلا؛ فإنها كلها طرق معلولة أو واهية، إلى مخالفتها الواضحة للعقل، لا من جهة عصمة الملائكة القطعية فقط، بل من ناحية أن الكوكب الذي نراه صغيرًا في عين الناظر قد يكون حجمه أضعاف حجم الكرة الأرضية بالآلاف المؤلفة من الأضعاف؛ فأنى يكون جسم المرأة الصغير إلى هٰذه الأجرام الفلكية الهائلة».

وبهٰذا تعلم مجازفة المؤلف رحمه الله في استشهاده بهٰذه القصة الضعيفة وفحش قوله في عباد الله المكرمين!

وقد استفدنا كثيرًا من هٰذا التعليق مما كتبه الشيخ الأرنؤوط في «صحيح ابن حبان».

ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله العليِّ العظيم[1].

٤٣ ـ فصل

[ولا تقف ما ليس لك به علم]

رأيتُ كثيرًا مِنَ الخَلْق وعالِمًا من العلماءِ لا يَنْتَهون عن البحثِ عن أصول الأشياء التي أُمِروا بعلم جُلِّها من غير بحثٍ عن حقائقِها!

كالرُّوح مثلًا؛ فالله تعالى سترها بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، فلم يَقْنَعوا، وأخذوا يبحثونَ عن ماهِيَّتها، ولا يقعونَ بشيءٍ، ولا يَثْبُتُ لأحدٍ منهم برهانٌ على ما يدَّعيه!

وكذلك العقلُ؛ فإنه موجودٌ بلا شكٍّ؛ كما أنَّ الرُّوح موجودةٌ بلا شكٍّ، كلاهما يُعْرَفُ بآثارِه لا بحقيقةِ ذاتِه.

فإن قال قائلٌ: فما السرُّ في كَتْم هٰذه الأشياء؟

قلت: لأنَّ النفس ما تزال تترقَّى من حالةٍ إلى حالةٍ؛ فلو اطَّلَعَتْ على هٰذه الأشياءِ؛ لَتَرَقَّتْ إلى خالقِها؛ فكان سَتْرُ ما دونه زيادةً في تعظيمِهِ؛ لأنه إذا كان بعضُ مخلوقاتهِ يُعْلَمُ جُمْلَةً؛ فهو أجلُّ وأعلى.

ولو قال قائلٌ: ما الصَّواعقُ؟ وما البَرْقُ؟ وما الزَّلازلُ؟ قلنا: شيءٌ

---

(١) وقد تكلم طائفة من أهل العلم في مسألة التفضيل بين الملائكة والبشر، واختلفوا فيها على أقوال، وأكثر ما توجد هٰذه المسألة في كتب المتكلمين، والخلاف فيها مع المعتزلة ومن وافقهم، وليس من ورائها طائل، ولا كلفنا الله البحث والتمحيص فيها، بل هي نوع من الخوض فيما لا علم لنا به، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولٰئك كان عنه مسؤولا﴾ [الإسراء: ٣٦].

مزعجٌ، ويكفي.

والسرُّ في سَتْرِ هٰذا: أنه لو كُشِفَتْ حقائقُه؛ خَفَّ مقدارُ تعظيمِهِ.

ومن تلمَّحَ هٰذا الفصل؛ علم أنه فصل عزيزٌ.

فإذا ثبتَ هٰذا في المخلوقات؛ فالخالقُ أجلُّ وأعلى.

فينبغي أن يوقَف في إثباتِهِ على دليل وجودِهِ، ثم يُسْتَدَلَّ على جواز بَعْثِهِ رُسُلَه، ثم تُتَلَقَّى أوصافُه من كُتُبِهِ ورُسُلِهِ، ولا يُزاد على ذٰلك، ولقد بحثَ خلقٌ كثيرٌ عن صفاتِهِ بآرائهم، فعادَ وبالُ ذٰلك عليهم.

وإذا قلنا: إنه موجودٌ، وعلِمْنا من كلامِهِ أنه سميعٌ بصيرٌ حَيٌّ قادرٌ.. كفانا هٰذا في صفاتِهِ، ولا نخوضُ في شيءٍ آخر. وكذٰلك نقولُ: متكلِّمٌ، والقرآنُ كلامُه، ولا نتكلَّفُ ما فوق ذٰلك.

ولم يقل السلفُ: تلاوةٌ ومتلوٌّ، وقراءةٌ ومقروءٌ. ولا قالوا: استوى على العرش بذاتِهِ. ولا قالوا: ينزل بذاتِهِ... بل أطلقوا ما ورد من غير زيادةٍ.

وهٰذه كلماتٌ كالمثال؛ فقسْ عليها جميعَ الصفاتِ؛ تَفُزْ سليمًا من تعطيل متخلِّصًا من تشبيه[1].

(١) قد أورد المصنف رحمه الله في هٰذا الفصل عدة قضايا، فجمع ما حقه التفريق، وأجمل ما حقه التفصيل:

فأما الروح؛ فالروح من أمر ربي، والبحث في حقائقها كالقبض على السراب.

وأما العقل ـ بمعنى التفكير ـ؛ فبينه وبين الروح مفاوز، ولا مانع من البحث فيه والنظر في حقيقته، نعم؛ مازال العلم عاجزًا عن فهم هٰذه الحقيقة، ولٰكن إدراك كنهها ليس بالبعيد ولا المستحيل.

وأما البرق والرعد والزلازل والبراكين؛ فظواهر طبيعية دعت الشريعة السمحاء إلى =

رَفْعُ عبد الرحمن النجدي أسكنه الله الفردوس

٤٤ ـ فصل
[في حكمة الله سبحانه في خلقه]

رأيتُ أكثـرَ الخلق في وجودِهم كالمعدومينَ؛ فمنهم مَنْ لا يعرِفُ الخالقَ. ومنهم مَنْ يُثْبِتُهُ على مقتضى حسِّه. ومنهم من لا يفهمُ المقصودَ

= النظر فيها والاعتبار، والنظر قسيم الفهم والإدراك، والعلم الحديث قد كشف اللثام عن حقيقة هٰذه الظواهر، وما زالت تحتفظ بعظمتها ورهبتها عند الناس جميعًا.

وأما إثبات وجود الله عز وجل؛ فمركوز في فطر البشر جميعًا، لا يرد هٰذا إلا معاند مستكبر يريد العلو والفساد في الأرض، ومثل هٰؤلاء الناس لا تفيد معهم أدلة المتكلمين وكلامهم في الأسباب والدور وغير ذٰلك. . . مما جربه كثير من الناس في العصر الحاضر وفي مناسبات مختلفة، ودونما جدوى.

وأما أن صفات الله عز وجل إنما يرجع فيها إلى نصوص الكتاب والسنة لا إلى نتائج الأفكار وزبالات الأذهان؛ فصحيح بلا شك.

وأما أننا لا نتكلف ما فوق إثبات الصفة: فإن كان المقصود أننا نؤمن بها على حقيقتها ونلجم ألسنتنا وأفكارنا عن الخوض في كيفيتها؛ فتلك عقيدة أهل السنة والجماعة، وأما أن نؤمن بها إمرارًا على أنها ألفاظ مفرغة من معانيها الحقيقية؛ فهٰذه عقيدة المفوضة الذين هم شر من الجهمية والمعطلة.

وأما مسألة التلاوة والمتلو؛ فهي مسألة اللفظ التي نهى أهل السنة والجماعة عن الكلام فيها سدًّا للباب على المعطلة والجهمية حتى لا يقولوا بخلق القرآن.

وأما زيادة (الذات) في مسألة النزول والاستواء والإتيان؛ فأمر لا حاجة إليه بعد الإيمان بهٰذه الصفات على حقيقتها؛ لأنه لم يأتنا به علم ولا أثر، وإنما زاده من زاده اضطرارًا لمواجهة من قال بنزول رحمته أو ملائكته وإتيان أمره.

وقد قدمنا في أول الكتاب فصلًا طويلًا عن عقيدة ابن الجوزي تكلمنا فيه عن معظم هٰذه المسائل وبينا الحق فيها؛ فانظره أيها القارىء الكريم؛ فإنه مهم حقًّا وضروري لقارىء هٰذا الكتاب حتى لا تختلط عليه الأمور.

من التكليفِ. وترى المتوسِّمينَ بالزُّهْدِ يدأبون في القيام والقعودِ، ويتركُونَ الشَّهَواتِ، وينسَوْن ما قد أنِسوا به من شهوةِ الشُّهرةِ وتقبيل الأيادي!! ولو كُلِّم أحدُهم؛ لقالَ: ألمثلي يُقال هٰذا؟! ومن فلانٍ الفاسق؟! فهٰؤلاء لا يفهمونَ المقصودَ. وكذٰلك كثيرٌ من العلماءِ في احتقارِهِم غيرَهُم والتكبُّرِ في نفوسِهِم.

فتعجبتُ؛ كيف يَصْلُحُ هٰؤلاء لمجاورةِ الحقِّ وسُكْنى الجنةِ؟!

فرأيتُ أن الفائدةَ في وجودِهم في الدُّنيا تُجانِسُ الفائدةَ في دُخولِهم الجنةَ؛ فإنَّهم في الدُّنيا بين مُعْتَبَرٍ به؛ يُعَرِّفُ عارفَ الله سبحانه نعمةَ اللهِ عليه بما كَشَفَ له مما غَطَّى عن ذاك، ويُتِمُّ النظامَ بالاقتداءِ بصُوَرِ[1] أولٰئكَ، [أو تابعٍ يَتِمُّ به العمرانُ وتقومُ به المعايشُ. وإنَّما تَصْلُحُ الحياةُ بهٰذا التفاوتِ البعيد.

ثم بين الخاصَّة فروقٌ:][2]

فإن العارفَ لا يتَّسِعُ وقتُه لمخالطةِ من يَقِفُ مع الصُّورة؛ فالزاهدُ كراعي البَهْم، والعالم كمؤدِّبِ الصبيانِ، والعارفُ كملقِّنِ الحكمةِ.

ولولا نفَّاطُ الملكِ وحارسهُ ووقادُ أتُّونِهِ؛ ما تمَّ عيشُه[3].

فمِن تمام عيشِ العارفِ استعمالُ أولٰئك بحسَبِهم؛ فإذا وَصَلوا إليه؛ حَرَّرَ مانعهم، وفيهم مَن لا يَصِلُ إليه، فيكونُ وجودُ أولٰئك كزيادة (لا) في

---

(١) في الأصول: «تصور»، ولا محل لها، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) زيادة من بعض المطبوعات يتم بها الكلام ويتضح المعنى.

(٣) النفَّاط: الموكَّل بالنفط. والأتون: الفرن الذي يطهى به الطعام.

الكلامِ ، هي حشوٌ، وهي مؤكِّدةٌ.

فإنْ قالَ قائلٌ: فهبْ هٰذا يصحُّ في الدُّنيا؛ فكيفَ في الجنةِ؟!

والجوابُ: أنَّ الأنْسَ بالجيرانِ مطلوبٌ، ورؤيةُ القاصِرِ مِن تَمام لَذَّةِ الكامل، ولكلٍّ شِرْبٌ.

ومَن تأمَّلَ ما أشرتُ إليه؛ كفاه رمزُ لفظي عن تَطْويل الشَّرْح[1].

٤٥ ـ فصل

[من دروس الطبيعة]

لما تلمَّحْتُ تدبير الصانع في سَوْق رزقي؛ بتَسْخير السَّحابِ، وإنزال المطرِ برفقٍ، والبِذْرُ دفينٌ تحت الأرضِ؛ كالموتى، قد عَفِنَ، ينتظر نفخةً من صُورِ الحياة؛ فإذا أصابتْه؛ اهتزَّ خَضِرًا، وإذا انقطعَ عنه الماءُ؛ مدَّ يدِ الطلبِ يستعطي، وأمالَ رأسَهُ خاضعًا، ولبس حُلَلَ التغيُّر؛ فهو محتاجٌ إلى ما أنا محتاجٌ إليه من حرارةِ الشمس، وبرودةِ الماء، ولُطفِ النسيم، وتربيةِ الأرض!

فسبحان من أراني ـ فيما يُرَبِّيني به ـ كيف تَرْبيتي في الأصل.

فيا أيتُها النفسُ التي قد اطَّلَعتْ على بعض حِكَمِهِ! قبيحٌ بك واللهِ

---

(١) ولا يوافَق المصنف رحمه الله على هٰذا التصور جملة ولا تفصيلاً، والعلماء الربانيون ـ ولا نقول: العارفين كما قال المؤلف ـ لا ينظرون للناس بهٰذا المنظار الذي فيه ما فيه من العجب والكبر والاستعلاء واستصغار الناس، كيف وقد قال الصديق خير الخلق بعد الأنبياء: وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن؟!

الإقبالُ على غيرِه. ثم العجبُ! كيف تُقْبِلين على فقيرٍ مثلك، يناديني لسانُ حاله: بي مثلُ ما بكَ يا حَمَامُ؟!

فارْجعي إلى الأصل الأوَّل، واطلُبي من المسبِّبِ، ويا طُوبى لكِ إن عرفْتيهِ! فإنَّ عرفانَه مُلْكُ الدُّنيا والآخرة.

٤٦ ـ فصل
[في ضرورة العزلة لمن خشي على دينه]

كنتُ في بداية الصَّبْوة قد أُلْهِمْتُ سلوكَ طريقِ الزُّهادِ بإدامةِ الصوم والصَّلاة، وحُبِّبَتْ إليَّ الخَلْوَةُ، فكنتُ أجِدُ قلبًا طيِّبًا، وكانتْ عينُ بصيرتي قويةَ الحِدَّةِ، تتأسَّفُ على لحظةٍ تمضي في غير طاعةٍ، وتبادِرُ الوقتَ في اغتنام الطاعاتِ، ولي نوعُ أنسٍ وحلاوةُ مناجاةٍ.

فانتهى الأمـرُ إلى أن صار بعضُ ولاةِ الأمـور يستحسنُ كلامي، فأمالني إليه، فمالَ الطبعُ، ففقدتُ تلك الحلاوةَ.

ثم استمالَني آخَرُ، فكنتُ أتَّقي مخالطتَهُ ومطاعِمَهُ لخوفِ الشُّبهاتِ، وكانت حالتي قريبةً، ثم جاء التأويلُ، فانبسطتُ فيما يُباحُ، فَعُدِمَ ما كنتُ أجد من استنارةٍ وسَكينةٍ، وصارتِ المخالطةُ توجبُ ظُلْمَةً في القلب، إلى أن عَدِمَ النورَ كلَّه.

فكـانَ حَنيني إلى ما ضاعَ منِّي يوجِبُ انـزعـاجَ أهلِ المجلسِ، فيتوبونَ ويَصْلُحونَ، وأخرُجُ مفلِسًا فيما بيني وبين حالي!

وكثُر ضَجيجي من مرضي، وعَجَزْتُ عن طبِّ نفسي، فلجأتُ إلى

قبورِ الصالحين[١]، وتوسلتُ في صلاحي، فاجتذبَني لُطْفُ مولايَ بي إلى الخَلْوَةِ على كراهةٍ مني، وردَّ قلبي عليَّ بَعْدَ نفورٍ منِّي، وأراني عيبَ ما كنتُ أوثره، فأفقتُ من مرض غَفْلَتي، وقلتُ في مناجاة خَلْوَتي:

سيدي! كيف أقدِرُ على شكركَ، وبأيِّ لسانٍ أنطقُ بِمَدْحِكَ؛ إذ لم تؤاخذْني على غفلتي، ونبهتَني من رَقْدَتي، وأصلحتَ حالي على كُرْهٍ من طبعي؟!

فما أرْبَحَني فيما سُلِبَ مني إذا كانتْ ثمرتُهُ اللجأَ إليك! وما أوفرَ جَمْعي إذ ثمرتُهُ إقبالي على الخَلْوة بك! وما أغناني إذ أفْقَرْتَني إليك! وما آنَسني إذا أوحَشْتَني من خَلْقِك!

آهٍ على زمانٍ ضاع في غير خِدمتك! أسفًا لوقتٍ مضى في غير طاعتك.

قد كنتُ إذا انتبهتُ وقتَ الفَجْرِ لا يؤلمني نومي طولَ الليل، وإذا انسلخَ عنّيَ النهارُ لا يوجِعُني ضَياعُ ذلك اليوم، وما علمتُ أن عدمَ الإحساس لقوةِ المرض... فالآنَ قد هَبَّتْ نسائمُ العافيةِ، فأحسستُ بالألم، فاستدللتُ على الصحة... فيا عظيمَ الإنعام! تممِّمْ ليَ العافيةَ.

آه من سُكْرٍ لم يُعْلَمْ قَدْرُ عَرْبَدَتِهِ إلَّا في وقتِ الإفاقةِ!

---

(١) زيارة القبور مطلوبة شرعًا؛ لأنها تذكر بالآخرة وتبصر الإنسان في حقيقة مآله وتنفع الموتى بالدعاء لهم، وأما زيارة قبور الصالحين بالذات؛ فالظاهر أن المؤلف قصد بها ـ فوق ذلك ـ استذكار أحوالهم وما كانوا عليه؛ حثًا للهمة وسعيًا للحاق بهم ـ كما سيأتي في (فصل ٤٨) ـ وإلا؛ فزيارة القبور للتبرك بها والتوسل بها والدعاء عندها والاستمداد منها باب من أبواب الشرك ومدخل من أعظم مداخله، بل هو ـ والله ـ أصله وأسه.

لقد فتقتُ ما يَصْعُبُ رَتْقُه، فوا أسفًا على بضاعةٍ ضاعتْ، وعلى ملَّاحٍ تعبَ في موجِ الشَّمال مصاعدًا مدةً، ثم غلبه النومُ فَرُدَّ إلى مكانه الأول.

يا منْ يقرأُ تحذيري من التخليط! فإني - وإن كنتُ خُنت نفسي بالفعل - نصيحٌ لإخواني بالقول:

احذروا - إخواني - من الترخُّص فيما لا يُؤْمَنُ فسادُه؛ فإن الشيطان يُزَيِّنُ المباحَ في أول مرتبةٍ، ثمن يَجُرُّ إلى الجُناح؛ فتلمَّحوا المآل، وافهموا الحال! وربما أراكُمُ الغايةَ الصالحةَ، وكان في الطريق إليها نوعُ مخالفةٍ!

فيكفي الاعتبارُ في تلك الحال بأبيكم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الْخُلْدِ ومُلْكٍ لا يبلى﴾ [طه: ١٢٠]؛ إنما تأمل آدمُ الغايةَ - وهي الخلدُ - ولٰكنه غَلِطَ في الطريق.

وهٰذا أعجب مصايدِ إبليسَ التي يصيدُ بها العلماءَ؛ يتأوَّلون لعواقبِ المصالح، فيستعجلونَ ضَرَرَ المفاسدِ!!

مثالُه: أنْ يقولَ للعالم: ادْخُلْ على هٰذا الظالم؛ فاشفعْ في مظلوم! فيستعجلُ الداخلُ رؤيةَ المنكَراتِ، ويتزلزلُ دينُه، وربما وَقَعَ في شَرَكٍ صار به أظلمَ من ذٰلك الظالم.

فمن لم يثقْ بدينِه؛ فليحذرْ من المصائدِ؛ فإنها خَفِيَّةٌ.

وأسلمُ ما للجبان العزلةُ، خصوصًا في زمانٍ قد مات فيه المعروفُ وعاش المنكرُ، ولم يبقَ لأهل العلم وَقْعٌ عند الولاةِ؛ فمَنْ داخَلَهم؛ دَخَلَ معهم فيما لا يجوزُ، ولم يقدِرْ على جذبِهم مما هم فيه.

ثم مَن تأمَّلَ حال العلماء الذين يعملون لهم في الولاياتِ؛ يراهُم مُنْسَلِخين من نفع العلم، قد صاروا كالشُّرْطةِ.

فليس إلَّا العزلةُ عن الخَلْق والإعراضُ عن كلِّ تأويل فاسدٍ في المخالطةِ، ولَأنْ أنفع نفسي وحدي خيرٌ لي من أن أنفع غيري وأتضرَّرَ.

فالحذَر الحذرَ من خوادع التأويلاتِ وفواسدِ الفتاوى! والصبرَ الصبرَ على ما توجبُهُ العزلةُ! فإنه إنِ انفردْتَ بمولاك؛ فَتَحَ لك بابَ معرفتهِ، فهان كلُّ صعبٍ، وطاب كلُّ مُرٍّ، وتيسَّرَ كلُّ عَسِرٍ، وَحَصَّلْتَ كلَّ مطلوبٍ.

والله الموفق بفضلِه، ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا به.

٤٧ـ فصل

[في ضرورة اتقاء الشبهات]

تأملتُ في نفسي تأويلاً في مباح أنالُ به شيئًا من الدُّنيا؛ إلَّا أنه في بابْ الوَرَعِ كَدِرٌ؛ فرأيتُه أولاً قد احتلب درَّ الدين فذهبت حلاوةُ المعاملة لله تعالى، ثم عاد فَقَلَصَ[1] ضَرْعُ حَلْبي له، فوقع الفقدُ للحالين.

فقلت لنفسي: ما مَثَلُك إلَّا كَمَثَلِ والٍ ظالم، جمعَ مالاً من غير حِلِّه، فصودِرَ، فأُخِذَ منه الذي جمعَ، وأُلْزِمَ ما لم يجمعْ.

فالحذرَ الحذرَ من فسادِ التأويل؛ فإن الله تعالى لا يخادَعُ، ولا يُنال ما عنده بمعصيتِه.

---

(١) قلص الضرع: توقف حلبه؛ يعني: أنه فقد ما كان يأتيه من الدنيا بتأوله.

٤٨ ـ فصل

[في حمل النفس على ما تطيق وترك التنطع]

رأيتُ نفسي كلَّما صَفا فكرُها، أو اتَّعَظَتْ بدارِجٍ[١]، أو زارتْ قبورَ الصالحين[٢]؛ تتحركُ همَّتُها في طلبِ العُزْلَةِ والإقبال على معاملةِ الله تعالى.

فقلتُ لها يوماً وقد كَلَّمَتْني في ذلك:

حدِّثيني؛ ما مقصودُكِ؟! وما نهايةُ مطلوبكِ؟!

أتُــراكِ تريدين مني أن أسْكُنَ قَفْــرًا لا أنيسَ به؛ فتفوتُني صلاةُ الجماعةِ، ويضيعُ مني ما قد علمتُه لِفَقْدِ مَن أعلِّمُه، وأن آكلَ الجَشْبَ[٣] الذي لم أتعوَّدْه؛ فَيَقَعَ نِضْوي طَلْحًا[٤] في يومين، وأن ألبسَ الخَشِنَ الذي لا أطيقُه؛ فلا أدري من كَرْبِ مَحْمولي من أنا، وأن أتشاغَلَ عن طلبِ ذُرِّيَّةٍ تتعبَّدُ بعدي؛ مع بقاء القدرة على الطَّلَب؟!

بالله؛ ما نفعني العلم الذي بذلتُ فيه عُمُري إن وافقتُكِ!

وأنا أعَرِّفُكِ غلط ما وقع لكِ بالعلم:

اعلمي أنَّ البدنَ مطيَّةٌ، والمطيَّةُ إذا لم يُرْفَق بها؛ لم تصلْ براكبها إلى المنزل، وليس مرادي بالرِّفْق الإكثارَ من الشَّهوات، وإنما أعني أخذَ

(١) الدَّارج: الذي مات ومضى.

(٢) انظر ما قدمناه عن هذا قبل قليل.

(٣) الجَشْب: الغليظ الخشن من المأكل وغيره.

(٤) النضو: المهزول من الإبل، والطلح: العيي المريض. وعنى بذلك بدنه.

البُلْغَةِ[١] الصالحة للبدن؛ فحينئذٍ يصفو الفكرُ، ويصحُّ العقلُ، ويقوى الذِّهْنُ.

ألا تَرَيْن إلى تأثير المعوِّقاتِ عن صفاء الذِّهْنِ في قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يَقْضي القاضي بين اثنين وهو غضبانُ»[٢]، وقاس العلماء على ذٰلك الجوعَ وما يجري مجراه مِنْ كَوْنِه حاقِنًا أو حاقِبًا[٣]؟! وهل الطبع إلَّا ككلب يَشْغَلُ الآكلَ؛ فإذا رمى له ما يَتَشاغلُ به؛ طابَ له الأكلُ؟!

فأما الانفرادُ والعُزلة؛ فعن الشرِّ لا عن الخير، ولو كان فيها لكِ وَقْعُ خيرٍ؛ لَنُقِلَ ذٰلك عن رسول الله ﷺ وعن أصحابِهِ رضي الله عنهم.

هيهاتَ! لقد عرفتِ أن أقوامًا دام بهم التقلُّلُ واليُبْسُ إلى أن تغيَّرَ فكرُهم، وقوي الخِلْطُ السَّوداويُّ عليهم، فاسْتَوْحَشوا من الناس! ومنهم من اجتمعتْ له من المآكلِ الرَّديَّة أخلاط مَجَّةٌ، فبقي اليومَ واليومين والثلاثةَ لا يأكلُ، وهو يَظُنُّ ذٰلك من أمداد اللُّطْفِ، وإذا به من سوءِ الهَضْم! وفيهم من تَرَقَّى به الخِلْطُ إلى رؤيةِ الأشباح، فيظُنُّها الملائكةَ!!

فاللهَ اللهَ في العلم! واللهَ اللهَ في العقل! فإنَّ نورَ العقل لا ينبغي أن يُتعَرَّضَ لإطفائِه، والعلمُ لا يجوزُ الميلُ إلى تنقيصهِ؛ فإذا حُفِظا؛ حَفِظا وظائفَ الزمان، ودفعا ما يؤذي، وجَلَبا ما يُصْلِحُ، وصارتِ القوانينُ مستقيمةً في المَطْعَمِ والمَشْرَب والمخالطةِ.

---

(١) البلغة: ما يسد الرمق ويتبلغ به العيش.

(٢) تقدم تخريجه في (فصل ٢٨).

(٣) الحاقن: من احتبس بوله، والحاقب: من احتبس غائطه.

فقالتْ لي النفسُ: فوظِّفْ لي وظيفةً، واحْسِبْني مريضًا قد كتبتَ له شَرْبَةً.

فقلتُ لهـا: قد دللتُك على العلم، وهو طبيبٌ ملازِمٌ، يَصِفُ كلَّ لحظةٍ لكلِّ داءٍ يَعْرِضُ دواءً يلائمُ.

وفي الجملة: ينبغي لكِ ملازمـةُ تقـوى الله عزَّ وجلَّ في المنطِق والنَّظَر وجميع الجوارح، وتحقُّقُ الحلال في المَطْعَم، وإيداعُ كلِّ لحظةٍ ما يَصْلُحُ لها من الخير، ومناهَبَةُ الزمان[1] في الأفضل، ومجانبةُ ما يؤدِّي إلى ما يؤذي من نَقْص ربح أو وقوع خُسْرانٍ! ولا تعملي عملاً إلاَّ بعد تقديم النيَّةِ. وتأهَّبي لمزعج الموت؛ فكأن قد[2]، وما عندك من مجيئه في أيِّ وقتٍ يكون! ولا تتعرضي لمصالح البدنِ، بل وفِّريها عليه، وناوليه إياها على قانـونِ الصوابِ، لا على مقتضى الهوى؛ فإن إصلاحَ البَدَنِ سببٌ لإصلاح الدِّين! ودعي الرُّعونَةَ التي يَدُلُّ عليها الجهلُ لا العلمُ؛ من قول النفس: فلانٌ يأكلُ الخلَّ والبَقْلَ! وفلانٌ لا ينام الليلَ! فاحْمِلي ما تُطيقينَ وما قد علمتِ قوةَ البدن عليه؛ فإنَّ البهيمةَ إذا أقبلتْ إلى نهر أو ساقيةٍ، فَضُرِبَتْ لِتَقْفِزَ؛ لم تفعلْ حتى تَزِنَ نفسَها؛ فإنْ علمتْ فيها قوة الطَّفْر[3]؛ طَفَرَتْ، وإن علمتْ أنها لا تطيقُ؛ لم تفعلْ ولو قُتلتْ، وليس كلُّ الأبدانِ تتساوى في الإطاقة، ولقد حُمِّلَ أقوامٌ من المجاهدات في بداياتهم أشياءَ أوجبتْ أمـراضًـا قَطَعَتهم عن خيرٍ، وتسخَّـطَتْ قلوبُهم بوقوعِها؛ فعليكِ

(١) مناهبة الزمان: اغتنام كل لحظة وفرصة فيه.

(٢) يعني: فكأن قد جاء، وهو أسلوب فصيح مستعمل.

(٣) الطَّفْر: الوثب في ارتفاع.

بالعلم؛ فإنه شفاءٌ مِن كلِّ داءٍ.

والله الموفق.

٤٩ ـ فصل

[شبهات في توحيد الأسماء والصفات]

عجبتُ من أقوام يدَّعون العلم، ويميلونَ إلى التشبيهِ؛ بحملِهم الأحاديثَ على ظواهِرِها؛ فلو أنهم أمرُّوها كما جاءت؛ سَلِموا؛ لأنَّ مَن أمرَّ ما جاء ومرَّ من غير اعتراض ولا تَعرُّض؛ فما قال شيئًا، لا له ولا عليه(١).

ولٰكنَّ أقوامًا قَصُرت علومُهم، فرأت أنَّ حَمْلَ الكلام على غير ظاهره نوعُ تعطيل، ولو فهموا سَعَةَ اللغةِ؛ لم يظنُّوا هٰذا، وما هُم إلَّا بمثابة قول الحجاج لكاتبه وقد مدحتْه الخنساءُ فقالتْ:

إذا هَبطَ الحجَّاجُ أرْضًا مَريضَةً تَتَبَّعَ أقْصى دائِها فَشَفاها
شَفاها مِنَ الدَّاءِ العُضالِ الذي بها غلامٌ إذا هَزَّ القَناةَ شَفاها

فلما أتمتِ القصيدةَ؛ قال لكاتبِهِ: اقطعْ لسانَها! فجاء ذاكَ الكاتبُ المُغَفَّلُ بالموسى، فقالتْ له: ويلكَ! إنَّما قال: أجْزِلْ لها العطاءَ. ثم ذهبتْ إلى الحجَّاج، فقالتْ: كادَ والله يَقْطَعُ مِقْوَلي(٢).

---

(١) ظاهر من هٰذا أن دعوة المؤلف لإمرار الأسماء والصفات كما جاءت ليست بعد الإيمان بحقيقتها، وإنما بعد تفريغ ألفاظها من معانيها، ولذٰلك قال: «فما قال شيئًا؛ لا له ولا عليه»، وهو ما يسمى بالتفويض، وليس هٰذا مذهب السلف كما قدمنا عند الكلام عن عقيدة ابن الجوزي في المقدمة.

(٢) المِقْول: اللسان.

فكذلك الظاهريةُ الذين لم يسلِّموا بالتَّسْليم؛ فإنَّه من قَرَأ الآياتِ والأحاديثَ ولم يَزِدْ؛ لمْ أَلُمْهُ، وهٰذه طريقةُ السلفِ[١].

فأما من قال: الحديثُ يقتضي كذا، ويُحمل على كذا؛ مثل أن يقول: استوى على العرش بذاتِهِ، وينزل إلى السماء الدُّنيا بذاته؛ فهٰذه زيادةٌ فهمها قائلها من الحسِّ لا مِنَ النقل[٢].

ولقد عَجِبْتُ لرجل أندلسيٍّ يُقال له: ابنُ عبد البرِّ[٣]، صنَّفَ كتابَ

= ولمتسائل أن يقول: من هم أولٰئك الذين هم ككاتب الحجاج المغفَّل لم يفهموا سعة اللغة؟! إنهم أبو حنيفة وصاحباه، ومالك، والشافعي، وأحمد، والسفيانان، والحمادان، والأوزاعي، والأصمعي وأبو عبيد القاسم بن سلام إماما اللغة العربية، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني، وإسحاق بن راهويه، وعبد الله بن المبارك، وأبو حاتم وأبو زرعة الرازيان، والإمام البخاري. . . وغير هٰؤلاء كثير من الأئمة الأعلام حفاظ الإسلام. . . هٰؤلاء هم الذين قصرت علومهم ولم يفهموا سعة اللغة!! فلا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) هٰذه طريقة المفوضة، الذين هم شر أصناف المعطلة، والسلف رضي الله عنهم قد آمنوا بحقيقة صفات الله، وعلموا معانيها، ونزهوه سبحانه عن مشابهة خلقه، وسكتوا عن الكيف، ووكلوه إليه سبحانه، على ما يليق به.

(٢) انظر ما قدمناه عن زيادة لفظة (الذات) في (فصل ٤٣).

(٣) هو الإمام، العلامة، حافظ المغرب، شيخ الإسلام، أبو عمر، يوسف بن عبد الله، الذي خضع لعلمه علماء الزمان، وصنف التصانيف الفائقة التي سار بذكرها الركبان، صاحب «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» الذي لم يسبق إلى مثله، و«الاستذكار لمذهب علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار»، و«الاستيعاب في معرفة الأصحاب»، و«جامع بيان العلم وفضله». . . وغير ذٰلك من التصانيف الرائقة. توفي سنة ٤٦٣هـ وقد استكمل خمسًا وتسعين، وأثنى عليه علماء المسلمين وأئمتهم حتى يومنا هٰذا. انظر ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٧ / ٦٦)، و«سير أعلام النبلاء» (١٨ / ١٥٣).

«التمهيد»، فَذَكَرَ فيه حديثَ النُّزول إلى السماءِ الدُّنيا، فقال: هٰذا يَدُلُّ على أن الله تعالى على العرش؛ لأنه لولا ذٰلك؛ لما كان لقوله «ينزلُ» معنىً.

وهٰذا كلامُ جاهلٍ بمعرفةِ الله عزَّ وجلَّ؛ لأن هٰذا استسلفَ من حِسِّهِ ما يعرِفُه من نزول الأجسام، فقاسَ صفةَ الحقِّ عليه(١).

فأين هٰؤلاء واتباعَ الأثرِ؟!

ولقد تكلَّموا بأقبحِ ما يتكلَّمُ به المتأوِّلون، ثم عابوا المتكلِّمين(٢).

واعلمْ أيُّها الطالب للرشاد أنه قد سَبَقَ إلينا من العقل والنقل أصلان راسخان عليهما مَرُّ الأحاديثِ كُلِّها:

أما النقلُ؛ فقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:

(١) بل هو قول رجل آمن بما وصف الله به نفسه في كتابه ووصفه به رسوله، وصدق بما جاء على حقيقة معناه، من غير تشبيه ولا قياس له بخلقه، تعالى الله عن ذٰلك علوًّا كبيرًا.

والحق أن المصنف غفر الله له هو ـ لا ابن عبد البر ـ الذي استسلف من حسه ما يعرف من نزول الأجسام، فظن أن الاستواء والنزول الإلٰهيين كذٰلك، فهرب إلى التنزيه، فوقع في التعطيل.

وإلا؛ فلو آمن بمثل ما آمن به ابن عبد البر رحمه الله؛ لعلم أن استواء الله سبحانه ونزوله غير مجهول (يعني: حقيقي معلوم المعنى)، والكيف غير معقول (يعني: لا يشبه المخلوقات)، والإيمان به واجب، والسؤال عنه (الجدال به والكلام بتكييفه) بدعة.

ووصف المؤلف رحمه الله وغفر له لابن عبد البر بالجهل لا يضير ابن عبد البر؛ فهو عند أهل التحقيق أعلى من المؤلف درجات؛ فضلاً وعلمًا وزهدًا وورعًا وتقوى.

غفر الله لهما ورحمهما وآواهما في فردوسه؛ إنه خير مسؤول.

(٢) وهٰذه نهاية كل من ابتدأ للناس بالتفويض والإمرار؛ فإنه لا بدَّ منته إلى التأويل والكلام والانتصار لأهل الكلام.

١١]، ومَنْ فَهِمَ هٰذا؛ لَمْ يَحْمِلْ وصفًا له على ما يوجِبُهُ الحسُّ[١].

وأما العقلُ؛ فإنه قد عَلِمَ مباينةَ الصانع للمصنوعاتِ، واسْتَدَلَّ على حُدوثِها بتغيُّرها ودخول الانفعال عليها، فَثَبَتَ له قِدَمُ الصَّانع[٢].

وا عجبًا كلَّ العجبِ مِن رادٍّ لم يفهمْ طبيعةَ الكلام!

أليس في الحديثِ الصَّحيح: أن الموت يُذْبَحُ بين الجنة والنار[٣]؟!

أوليسَ العقلُ إذا استُفْتِيَ في هٰذا؛ صَرَفَ الأمر عن حقيقتِهِ؛ لِما ثَبَتَ عند مَنْ يفهمُ ماهِيَّةَ الموتِ، فقال: الموتُ عَرَضٌ يوجِبُ بُطْلانَ الحياةِ؛ فكيفَ يُماتُ الموتُ[٤]؟! فإذا قيل له: فما تصنعُ بالحديثِ؟! قال: هٰذا ضَرِبَ

(١) وهٰذا صحيح تمامًا، وأهل السنة ـ ومنهم ابن عبد البر رحمه الله ـ على ذٰلك.

(٢) القول بالقدم «زيادة فهمها المصنف من الحس لا من النقل»؛ فانظر كيف وقع فيما اتهم به غيره قبل قليل!! ولم يأت وصف الله بالقدم في شيء من نصوص الكتاب والسنة، بل هٰذا من أقوال المتكلمين، وإنما جاء في الكتاب قوله تعالى: ﴿هو الأول والآخر﴾ [الحديد: ٣]، والقديم قد يكون له سابق أقدم منه، والأول ليس كذٰلك، وليس هٰذا محل التفصيل في هٰذا الأمر؛ فلينظر في الموسعات.

(٣) رواه: البخاري (٦٥ ـ كتاب التفسير، ١٩ ـ ﴿كهيعص﴾، ١ ـ باب ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾، ٨ / ٤٢٨ / ٤٧٣٠)، ومسلم (٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ١٣ ـ باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، ٤ / ٢١٨٨ / ٢٨٤٩)؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) وهٰذا قول مردود، ومن الثابت شرعًا أن كثيرًا من الأعراض يحولها الله إلى جواهر يوم القيامة؛ فالأعمال الصالحة والطالحة تتحول إلى جواهر توزن، والمال الممنوع الزكاة يتحول إلى شجاع أقرع، بل وقبل يوم القيامة؛ فالعمل الصالح يأتي الميت على شكل رجل صالح، والعمل الطالح يأتيه على شكل رجل سوء... وغير ذٰلك كثير مما هو ثابت في «الصحيحين» وغيرهما، وليس هٰذا بمستحيل عقلاً حتى نتكلف الرد والتأويل!!

مَثَلاً بإقامةِ صُورةٍ؛ لِيُعْلَمَ بتلك الصورةِ الحِسِّيَّةِ فواتُ ذلك المعنى[١].

قلنا له: فقد رُوِي في الصحيح: «تأتي البَقَرةُ وآلُ عِمْرانَ كأنَّهما غمامتانِ»[٢]. فقال: الكلامُ لا يكونُ غَمامةً ولا يَتَشَبَّه بها. قلنا له: أفتُعَطِّلُ النقلَ؟! قال: لا، ولكن يأتي ثوابُهما.

قلنا: فما الدَّليلُ الصارفُ لك عن هذه الحقائقِ. فقال: علمي بأنَّ الكلامَ لا يَتَشَبَّهُ بالأجسام والموتَ لا يُذْبَحُ ذَبْحَ الأنعام، ولقد علمتُم سَعَةَ لغة العرب، ما ضاقتْ أعطانكم[٣] من سماع مثل هذا.

فقال العلماءُ: صَدَقْتَ، هكذا نقولُ في تفسيرِ مجيءِ البقرةِ، وفي ذَبْح الموت[٤].

فقال: وا عجبًا لكم! صرفتُم عن الموتِ والكلامِ ما لا يَليق بِهِما حفظًا لما علمتُم من حقائِقِهما؛ فكيف لم تصرِفوا عن الإلٰهِ القديم[٥] ما

---

(١) يقصد المؤلف بهذا أن هناك كبشًا يذبح حقيقة بين الجنة والنار، ولكنه ليس الموت حقيقة، وإنما هو صورة تقريبية تشبيهية ليفهم أهل الجنة والنار من خلالها أنه ليس هناك موت بعد هذا!! وهذا خلاف النص والأصل، ولا دليل عليه، بل هو تكذيب للنصوص وتعقيد للأمور بغير حاجة ولا فائدة.

(٢) جزء من حديث رواه مسلم (٦ ـ كتاب صلاة المسافرين، ٤٢ ـ باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، ١/٥٥٣/٨٠٤و٨٠٥)؛ من حديث أبي أمامة والنواس.

(٣) ما اتسعت عقولكم لفهم هذا واستيعابه.

(٤) وهـذه مجازفة؛ فلأهل العلم خلاف في هذا، وأكثرهم على الإقرار بحقيقة تجسم المـوت وذبحـه وحقيقـة مجيء الثواب. وانظر: «مجموع الفتاوى» (٥ / ٣٩٨)، و «الفتح» (١١ / ٤٣٠).

(٥) قد علمت ما في استعمال هذه اللفظة في وصف الله عز وجل قبل قليل.

يوجبُ التَّشبيهَ له بِخَلْقِهِ بما قد دلَّ الدَّليلُ على تنزيهه عنه[١]؟!

فما زال يجادلُ الخصومَ بهٰذه الأدلةِ، ويقول: لا أقطعُ حتى أُقْطَعَ. فما قَطَعَ حتى قُطِعَ.

٥٠ ـ فصل
[من حكم نسخ آية الرجم لفظاً وثبوتها حكماً]

تفكرتُ في السِّرِّ الذي أوجَبَ حذفَ[٢] آية الرجم من القرآنِ لَفْظًا مع ثُبوتِ حُكْمِها إجماعًا[٣]؟! فوجدتُ لذٰلك معنيين[٤]:

أحدُهما: لُطْفُ الله تعالى بعبادِهِ في أنه لا يواجِهُهم بأعظم

---

(١) إثبات ما جاء به الكتاب والسنة في الصفات على ما يليق به عز وجل لا يقتضي التشبيه. وانظر الفصل الذي قدمناه في أول الكتاب عن عقيدة ابن الجوزي رحمه الله.

(٢) لو استعمل ابن الجوزي رحمه الله لفظ (النسخ) عوضًا عن (الحذف)؛ لكان أولى وأحرى عقلاً ونقلاً.

(٣) روى: البخاري (٨٦ ـ كتاب الحدود، ٣١ ـ باب رجم الحبلى من الزنى إذا أحصنت، ١٢ / ١٤٤ / ٦٨٣٠)، ومسلم (٢٩ ـ كتاب الحدود، ٤ ـ باب رجم الثيب في الزنى، ٣ / ١٣١٧ / ١٦٩١)؛ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ قال: «إن الله قد بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه آية الرجم؛ قرأناها ووعيناها وعقلناها، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف».

(٤) وهناك حكم أخرى أظهر وأقوى ذكرها الحافظ في «الفتح» (١٢ / ١٤٣) ولا محل للتفصيل بذكرها هنا؛ فليراجعها من شاء.

المشاقِّ، بل ذَكَرَ الجَلْدَ وسَتَرَ الرجم.

ومـن هٰذا الـمـعنى قال بعض العلمـاء: إن الله تعـالى قال في المكروهات: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]؛ على لفظٍ لم يُسَمَّ فاعلُه، وإن كانَ قد عَلِمَ أنه هو الكاتبُ. فلما جاء إلى ما يوجِبُ الراحةَ؛ قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

والوجه الثاني: أنه يَبينُ بذٰلك فضلُ الأمةِ في بَذْلِها النفوسَ قُنوعًا ببعض الأدلةِ؛ فإنَّ الاتفاقَ لَمَّا وَقَعَ على ذٰلك الحكم؛ كان دليلًا، إلَّا أنه ليس كالدليل المقطوع بنصِّه.

ومن هٰذا الجنسِ شروعُ الخليل عليه الصلاةُ والسلام في ذَبْحِ ولدِهِ بمنامٍ، وإنْ كان الوحيُ في اليقظةِ آكَدَ.

٥١ـ فصل

[في أن الأسباب من قدر الله]

عَرَضَتْ لي حالةٌ لجأتُ فيها بقلبي إلى الله تعالى وحدَه؛ عالمًا بأنه لا يَقْدِرُ على جَلْبِ نفعي ودَفْع ضُرِّي سواه، ثم قُمْتُ أتعرَّضُ بالأسبابِ.

فأنكرَ عليَّ يقيني، وقال: هٰذا قدحٌ في التوكُّل!

فقلتُ: ليس كذٰلك؛ فإنَّ الله تعالى وَضَعها[١] من الحِكَم، وكان معنى حالي: أنَّ ما وَضَعْتَ لا يُفيدُ وأنَّ وجودَه كالعدم[٢]!

(١) يعني: وضع الأسباب.

(٢) يعني: كان معنى حالي في تركي الأسباب التي وضعها الله عز وجل كأني أقول له: يا رب! إن ما وضعتَ من الأسباب لا يفيد، ووجوده كعدمه، ولذٰلك فلن آخذ بها.

وما زالتِ الأسبابُ في الشرع:

كقـولـه تعالى: ﴿وإذا كُنتَ فيهم فأقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ منهم مَعَكَ ولْيأخُذوا أسلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿فَذَروهُ في سُنْبُلِهِ﴾ [يوسف: ٤٧].

وقد ظاهر النبي ﷺ بين درعين[١].

وشاور طبيبين[٢].

ولما خرج إلى الطائف؛ لم يقدِرْ على دُخول مكةَ، حتى بعثَ إلى المُطْعِمِ بن عديٍّ، فقال: «أدخلُ في جوارك»[٣]؛ وقد كانَ يُمْكِنُهُ أنْ يَدْخُلَ متوكِّلًا بلا سببٍ.

فإذا جَعَلَ الشرعُ الأمورَ مَنوطةً بالأسبابِ؛ كان إعراضي عن الأسبابِ دفعًا للحكمةِ.

ولهٰذا أرى أنَّ التَّداويَ مندوبٌ إليه.

وقد ذهب صاحبُ مذهبي[٤] إلى أنَّ تَرْكَ التَّداوي أفضلُ، ومنعني الدَّليلُ من اتِّبَاعِهِ في هٰذا:

فإنَّ الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «ما أنزلَ الله داءً؛ إلَّا وأنزلَ له دواءً؛ فتداوَوْا»[٥]، ومرتبةُ هٰذه اللفظةِ الأمرُ، والأمرُ إما أنْ يكونَ واجبًا أو

(١، ٢، ٣) تقدم تخريجه في (فصل ٤١).

(٤) يعني: الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، وما كان صاحب مذهب، ولا دعا تلامذته لاتباع ما يقول، بل دعاهم رضي الله عنه للعودة إلى الأصول.

(٥) جاء هٰذا الحديث عن عدة من الصحابة بألفاظ متقاربة جدًّا: =

ندبًا، ولم يَسْبِقْهُ حَظْرٌ؛ فيقالُ: هو أمرُ إباحةٍ.

وكانت عائشةُ رضي الله عنها تقول: تعلمتُ الطبَّ من كَثْرَةِ أمراضِ رسولِ الله ﷺ وما يُنْعَتُ له(١).

وقال عليه الصلاة والسلام لعليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: «كُلْ مِنْ هٰذا؛ فإنَّهُ أوفقُ لكَ مِنْ هٰذا»(٢).

= فرواه: البخاري (٧٦ ـ كتاب الطب، ١ ـ باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، ١٠/١٣٤/٥٦٧٨)؛ من حديث ابن مسعود. ورواه الطحاوي وأبو نعيم من حديث ابن عباس بمثله. ورواه أحمد من حديث أنس بمثله. ورواه أحمد والبخاري في «الأدب» وأصحاب «السنن» من حديث أسامة بن شريك بمثله. وانظر: «الفتح» (١٠/١٣٥).

(١) **(حسن بغير هٰذا اللفظ)**. أخرجه: أحمد في «المسند» (٦ / ٦٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢ / ٥٠)؛ بلفظ: «كان يسقم في آخر عمره...».

ذكره الهيثمي في «المجمع» (٩ / ٢٤٥) وزاد نسبته للبزار والطبراني في «الأوسط» و «الكبير»، وقال: «وفيه عبد الله بن معاوية الزبيري، قال أبو حاتم: مستقيم الحديث وفيه ضعف، وبقية رجال أحمد والطبراني في «الكبير» ثقات». وعبد الله بن معاوية الزبيري ترجمه الذهبي في «الميزان» وابن حجر في «اللسان» بما يخلص منه إلى ضعفه.

وله طريق أخرى أخرجها الحاكم (٤/١١) بلفظ مقارب وسكت عنها الذهبي.

وطريق أخرى أخرجها أبو نعيم في «الحلية» (٢ / ٤٩) بلفظ مقارب.

وطريق رابعة أخرجها الحاكم في «المستدرك» (٤ / ١١) بلفظ «المسند» وحذفها الذهبي من «التلخيص»، وإسنادها ضعيف جدًّا مسلسل بالمجاهيل.

وطريقان آخران ذكرهما الذهبي في «السير» (٢/١٨٢)، ورجالهما ثقات.

وبهٰذا المجموع؛ فللحديث أصل حسن. والله أعلم.

(٢) **(حسن)**. رواه: ابن ماجه (٣١ ـ كتاب الطب، ٣ ـ باب الحمية، ٢ / ١١٣٩ / ٣٤٤٢)، وأبو داوود (٢٢ ـ كتاب الطب، ٢ ـ باب في الحمية، ٢ / ٣٩٦ / ٣٨٥٦)، والترمذي (٢٩ ـ كتاب الطب، ١ ـ باب ما جاء في الحمية، ٤ / ٣٨٢ / ٢٠٣٧)، والحاكم (٤ / ٤٠٧)؛ من طرق عن فليح بن سليمان، عن أيوب بن عبد الرحمٰن، عن يعقوب، عن =

ومَن ذَهَبَ إلى أنَّ تَرْكَهُ أفضلُ؛ احتجَّ بقوله عليه الصلاة والسلام: «يدخلُ الجنةَ سبعونَ ألفًا بلا حساب...»، ثم وَصَفَهُم فقال: «لا يَكْتَوونَ، ولا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتَطَيَّرونَ، وعلى رَبِّهِم يتوكَّلونَ»[١].

وهٰذا لا ينافي التَّداويَ؛ لأنه قد كان أقوامٌ يَكْتَوونَ لئلَّا يمرضوا، ويَسْتَرْقُون لئلَّا تُصيبَهم نَكْبَةٌ، وقد كوى عليه الصلاةُ والسلام أسعدَ بنَ زُرارةَ[٢]، ورَخَّصَ في الرُّقْيَةِ في الحديثِ الصَّحيح[٣]، فعلِمْنا أن المرادَ ما

= أم المنذر الأنصارية... فذكرته.

قال الترمذي: «هٰذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث فليح»، ثم ذكر له إسنادًا آخر فيه فليح هٰذا وقال: «هٰذا حديث جيد غريب». وفليح صدوق كثير الخطأ كما في «التقريب»؛ إلا أنه لم ينفرد به كما ذكر الترمذي؛ فقد تعقبه المنذري في «مختصر السنن» (٥ / ٣٤٧) فقال: «وفي قوله: لا نعرفه إلا من حديث فليح بن سليمان: نظر؛ فقد رواه غير فليح، ذكره الحافظ أبو القاسم الدمشقي». وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١ / ١٢٧ / ٥٩).

(١) رواه: البخاري (٧٦ ـ كتاب الطب، ٤٢ ـ باب من لم يرق، ١٠ / ٢١١ / ٥٧٥٢)، ومسلم (١ ـ كتاب الإيمان، ٩٤ ـ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب، ١ / ١٩٩ / ٢٢٠)؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) (**صحيح**). رواه الترمذي (٢٩ ـ كتاب الطب، ١١ ـ باب ما جاء في الرخصة في الكي، ٤ / ٣٩٠ / ٢٠٥٠) من طريق حميد بن مسعدة، ثنا يزيد بن زريع، أنا معمر، عن الزهري، عن أنس... فذكره. وحسنه. وهو كما قال.

ورواه ابن ماجه (٣١ ـ كتاب الطب، ٢٤ ـ باب من اكتوى، ٢/١١٥٥/٣٤٩٢)؛ من طريق محمد بن عبدالرحمٰن بن سعد يحدث أن النبي ﷺ كوى جده. وسنده ضعيف.

ورواه أحمد (٤ / ٦٥، ٥ / ٣٧٨)؛ من طريق أبي الزبير، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن بعض أصحاب النبي ﷺ. وفيه عنعنة أبي الزبير.

ولا ريب أن الحديث صحيح بشواهده، وقد صححه الألباني.

(٣) رواه: البخاري (٧٦ ـ كتاب الطب، ٣٧ ـ باب رقية الحية والعقرب، ١٠ / =

أشرنا إليه[١].

وإذا عرفتُ الحاجةَ إلى إسهالِ الطبع؛ رأيتُ أنَّ أكلَ البَلُّوطِ مما يَمْنَعُ عنه علمي، وشربَ ماء التمر هندي أوفقُ، وهٰذا طبٌّ؛ فإذا لم أشربْ ما يوافِقُني، ثم قلتُ: اللهمَّ! عافِني! قالتْ ليَ الحكمـةُ: أما سمعتَ: «اعْقِلْها وتَوَكَّلْ»[٢]؟! اشربْ! وقلْ: عافِني! ولا تكنْ كَمَنْ بينَ زَرْعِهِ وبينَ النهرِ كفٌّ من ترابٍ؛ تكاسلَ أنْ يرفَعَهُ بيدِهِ، ثم قام يصلي صلاةَ الاستسقاءِ!

وما هٰذه الحالةُ إلاَّ كَحالِ من سافَرَ على التَّجْريدِ[٣]، وإنما سافر على

= ٢٠٥ / ٥٧٤١)، ومسلم (٣٩ ـ كتـاب السـلام، ٢١ ـ باب استحبـاب الرقية من العين والنملة، ٤ / ١٧٢٤ / ٢١٩٣)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١) يعني: أن النهي عن الاكتواء إنما يقع على الاكتواء قبل وقوع المرض لا بعد وقوعه، وهو مأذون به عند الحاجة إليه. كذا قال، وللعلماء تفصيل طويل في هٰذه المسألة ذكره ابن القيم يرحمه الله في «زاد المعاد» (٤ / ٦٣)؛ فلينظره من شاء.

(٢) (صحيح). رواه: ابن حبان (٢ / ٥١٠ / ٧٣١)، والحاكم (٣ / ٦٢٣)؛ من طريق يعقوب بن عمرو بن عبد الله بن أمية الضمري، عن جعفر بن عمرو بن أمية، عن أبيه: أنه قال: يا رسول الله! أرسل راحلتي وأتوكل؟ فقال رسول الله ﷺ: «اعقلها وتوكل».

والحديث سكت عنه الحاكم، وجود الذهبي إسناده، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ٣٠٦): «رواه الطبراني من طرق، ورجال أحدها رجال الصحيح، غير يعقوب بن عبد الله بن عمرو بن أمية، وهو ثقة». ويعقوب هٰذا روى عنه اثنان، ووثقه ابن حبان في «الثقات» (٧ / ٦٤٠)؛ فالحديث حسن لأجله.

وله شاهد فيه ضعف عند الترمذي (٣٨ ـ كتاب صفة القيامة، ٦٠ ـ باب، ٤ / ٦٦٨ / ٢٥١٧)؛ من حديث أنس بن مالك.

والحديث صحيح بشاهده، وصححه الألباني في «مشكلة الفقر» (٢٣/٢٢).

(٣) دون زاد ولا صاحب ولا راحلة.

التَّجْريد لأنه يُجَرِّبُ بربِّه عزَّ وجلَّ؛ هل يرزقُهُ أو لا؟ وقد تقدَّمَ الأمرُ إليه: ﴿وتَزَوَّدوا﴾ [البقرة: ١٩٧]، فقال: لا أتزوَّدُ! فهٰذا هالكٌ قبل أن يُهْلِكَه، ولو جاء وقتُ صلاةٍ وليسَ معه ماءٌ؛ لِيْمَ على تفريطِهِ، وقيل له: هَلَّا استصحبتَ الماءَ قبل المفازَةِ!

فالحذرَ الحذرَ من أفعال أقوام دَقَّقوا فَمَرَقوا[1] عن الأوضاع الدينية، وظنوا أنَّ كمالَ الدين بالخروج عن الطِّباعِ والمخالفةِ للأوضاعِ.

ولولا قوةُ العلم والرسوخُ فيه؛ لما قدرتُ على شَرْحِ هٰذا ولا عرفتُهُ.

فافهم ما أشرتُ إليه؛ فهو أنفعُ لك من كراريسَ تسمعُها، وكنْ مع أهل المعاني لا مع أهل الحَشْوِ.

٥٢ ـ فصل

[في أن الإسلام دين النظافة]

تَلَمَّحْتُ على خُلُقِ كثيرٍ من الناس إهمالَ أبدانِهم؛ فمنهم مَن لا يُنَظِّفُ فمه بالخِلالِ[2] بعد الأكل، ومنهم مَنْ لا يُنَقِّي يديه في غَسْلِهما من الزَّهَم[3]، ومنهم مَن لا يكادُ يستاكُ، وفيهم من لا يكتحلُ، وفيهم من لا يراعي الإبطَ... إلى غير ذٰلك، فيعود هٰذا الإهمالُ بالخلل في الدينِ والدُّنيا.

أما الدينُ؛ فإنه قد أَمَرَ المؤمن بالتنظُّف والاغتسال للجمعةِ لأجل

(١) يعني: خرجوا عنها.

(٢) الخلال: العود الذي يُتَخلَّل به بعد الطعام.

(٣) الزَّهَم: الريح المنتن للحم والدهن.

اجتماعِهِ بالناس[١]، ونهى عن دُخول المسجدِ إذا أكل الثُّومَ، وأمر الشرعُ بتنقيةِ البراجم[٢] وقصِّ الأظفار والسواكِ والاستحدادِ[٣]. . . وغير ذٰلك من الآداب[٤]؛ فإذا أُهْمِلَ ذٰلك؛ تُرِكَ مسنونُ الشرع، وربما تعدَّى بعضُ ذٰلك إلى فسادِ العبادةِ؛ مثل أن يُهْمِلَ أظفارَه، فَيَجْمَعَ تحتَه الوسخَ المانعَ للماء في الوضوءِ أن يصلَ.

وأما الدُّنيا؛ فإني رأيتُ جماعةً من المهمِلين أنفسَهُم يتقدَّمون إلى السِّـرار[٥]، والغفلةُ التي أوجبتْ إهمالَهم أنفسَهم أوجبتْ جهلَهُم بالأذى الحادثِ عنهم؛ فإذا أخذوا في مناجاةِ السِّرِّ؛ لم يمكنْ أنْ أصدِفَ[٦] عنهم؛ لأنهم يقصِدونَ السِّرَّ، فألقى الشدائدَ مِن ريح أفواهِهِم، ولعلَّ أكْثَرَهم من وقتِ انتباهِهِم ما أمرَّ أصبعَه على أسنانِهِ!!

ثم يوجبُ مثلُ هٰذا نفورَ المرأةِ، وقد لا تستحسنُ ذِكْرَ ذٰلك للرجلِ، فَيُثْمِرُ ذٰلك التفاتَها عنه.

وقد كان ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما يقول: إني لأحبُّ أن أتزيَّن للمرأة كما أحبُّ أن تتزينَ لي.

وفي الناس من يقول: هٰذا تصنُّعٌ! وليس بشيءٍ؛ فإن الله تعالى زيَّنَنَا

---

(١) ولأجلِ أمور أخرى كثيرة؛ فحكم الغسل للجمعة أضعاف هٰذا.
(٢) البراجم: جمع بُرْجُمة، وهي المفصل الظاهر أو الباطن من الأصابع.
(٣) الاستحداد: حلق شعر العانة.
(٤) وكلها ثابتة مشهورة من مخرجات «الصحيحين»؛ فلا نطيل في ذكرها.
(٥) السِّرار: المناجاة عن قرب بالسر.
(٦) صدف عن الشيء: أعرض عنه.

لَمَّا خَلَقَنا؛ لأنَّ للعين حظًّا في النظر، ومن تأمَّل أهدابَ العين والحاجبين وحسنَ ترتيبِ الخِلْقَةِ؛ علمَ أن الله زَيَّنَ الآدميَّ(١).

وقد كان النبيُّ ﷺ أنظفَ الناس وأطيبَ الناس(٢).

وفي الحديث عنه ﷺ: يرفع يديه حتى تَبِينَ عَفْرَةُ إبطيه(٣).

وكان ساقُه ربما انكشفتْ، فكأنَّها جُمَّارةٌ(٤).

وكان لا يفارِقُه السِّواكُ(٥).

وكان يكرهُ أنْ يُشَمَّ منه ريحٌ ليستْ طيبةً(٦).

وفي حديثِ أنس الصَّحيح: ما شانَهُ الله ببيضاءَ(٧).

وقد قالتِ الحكماء: من نظَّفَ ثوبَه؛ قَلَّ همُّه، ومن طاب ريحُه؛ زاد عقلُه.

---

(١) وقد قال سبحانه: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [التين: ٤].

(٢) والأحاديث في ذٰلك عن أصحابه صحيحة وكثيرة جدًّا.

(٣) يعني: بياضه.

وقد وقع منه هٰذا كثيرًا في خطبه ودعائه واستسقائه وعند غضبه ﷺ، وكله مخرج بالأسانيد الصحيحة، ولا محل للتفصيل فيه هنا.

(٤) جمَّارة النخل: باطن جذعها؛ يشير بذٰلك إلى بياض ساقيه ﷺ ونظافتهما.

(٥) وأحاديث السواك أشهر من أن يتشاغل بتخريجها.

(٦) ولذٰلك أذن بأكل الثوم واعتذر هو عنه بالمناجاة كما في «الصحيحين».

(٧) رواه: البخاري (٦١ ـ كتاب المناقب، ٢٣ ـ باب صفة النبي ﷺ، ٦ / ٥٦٤ / ٣٥٥٠)، ومسلم (٤٣ ـ كتاب الفضائل، ٢٩ ـ باب شيبه ﷺ، ٤ / ١٨٢١ / ٢٣٤١)؛ من حديث أنس بن مالك، واللفظ لمسلم.

وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «ما لكم تدخلون عليَّ قُلْحًا؟! استاكوا»[١].

وقد فُضِّلَتِ الصلاةُ بالسواكِ على الصلاةِ بغيرِ سِواكٍ[٢].

---

(١) (ضعيف). رواه أحمد في «المسند» (١ / ٢١٤) من حديث سفيان، عن أبي علي الزراد؛ قال: حدثني جعفر بن تمام بن عباس، عن أبيه... فذكره مرفوعًا.

وهٰذا سند ضعيف فيه علل:

فالأولى: أن أبا علي الزراد (ويعرف بأبي علي الصيقل أيضًا) مجهول؛ كما في «الميزان» و«اللسان». ولذٰلك قال الهيثمي في «المجمع» (١ / ٢٢٦) بعد أن ذكره: «رواه أحمد والطبراني في «الكبير»، واللفظ له، وفيه أبو علي الصيقل، وهو مجهول».

والعلة الثانية: الإرسال؛ فتمام بن عباس هٰذا له رؤية في أحسن الأحوال، وحديثه عن النبي ﷺ مرسل؛ كما في «الإصابة». لٰكن مرسلات الصحابة مقبولة.

والثالثة: أن هناك سقطًا في السند بين سفيان وأبي علي هٰذا كما أفاده الحافظان الذهبي والعسقلاني، وهو منصور بن المعتمر. وانظر تفصيل ذٰلك في «اللسان».

والرابعة: أن فيه اضطرابًا؛ فقد رواه أحمد في «المسند» (٣ / ٤٤٢) من طريق سفيان، عن أبي علي الصيقل، عن قثم بن تمام (أو تمام بن قثم)، عن أبيه... فذكره. فهٰذا نوع اضطراب، وقد ذكر الحافظ في «الإصابة» (١ / ١٨٧) أوجهًا أخرى لهٰذا الاضطراب لا نطيل بذكرها.

والخلاصة أن الحديث ضعيف في أحسن أحواله، وقد ضعفه الألباني في «الضعيفة» (٤ / ٢٣٢ / ١٧٤٨).

(٢) (ضعيف). رواه: أحمد (٦ / ٢٧٢)، والحاكم (١ / ١٤٦)، والبيهقي في «الكبرى» (١ / ٣٨)؛ من طريق محمد بن إسحاق؛ قال: وذكر محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ: أنه قال: «تفضل الصلاة التي يستاك لها على الصلاة التي لا يستاك لها سبعين ضعفًا».

وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال البيهقي: «وهٰذا الحديث أحد ما يخاف أن يكون من تدليسات محمد بن إسحاق بن يسار، وأنه لم يسمعه من الزهري، =

فالمتنظِّفُ يُنَعِّمُ نفسَه، ويرفعُ منها عندَها.

وقد قال الحكماءُ: مَن طالَ ظُفُرُهُ؛ قَصُرَتْ يدُه.

ثم إنه يَقْرُبُ من قلوبِ الخَلْق، وتحبُّه النُّفوسُ؛ لنظافته وطيبِهِ.

وقد كان النبيُّ ﷺ يحبُّ الطِّيب(١).

ثم إنه يُؤْنِسُ الزوجةَ بتلك الحال؛ فإنَّ النساءَ شقائقُ الرِّجال؛ فكما أنه يكرهُ الشيءَ منها؛ فكذلك هي تكرهُه، وربما صَبَرَ هو على ما يكرهُ، وهي لا تَصْبِرُ.

وقد رأيت جماعةً يزعُمون أنهم زهَّادٌ، وهم مِن أقذرِ الناس، وذلك أنهم ما قوَّمهُمُ العلمُ.

وأما ما يُحكى عن داودَ الطائيِّ: أنه قيل له: لو سَرَّحْتَ لحيتَكَ؟ فقال: إني عنها مشغولٌ(٢).

فهذا قولُ معتذرٍ عن العمل بالسُّنة، والإخبارُ عن غَيْبَتِهِ عن نفسه

= وقد رواه معاوية بن يحيى الصدفي عن الزهري، وليس بالقوي، وروي من وجه آخر عن عروة عن عائشة، ومن وجه آخر من عمرة عن عائشة، فكلاهما ضعيف». وضعفه الألباني في «المشكاة» (١ / ١٢٤ / ٣٨٩).

(١) كما في الحديث الذي أخرجه النسائي وأحمد والحاكم والبيهقي من حديث أنس مرفوعًا: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة». وانظر: «صحيح الجامع» (٣١٢٤).

(٢) هو الزاهد، القدوة، أبو سليمان، داوود بن نصير الطائي. ولد بعد المئة بسنوات، وتوفي سنة ١٦٢هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٧ / ٤٢٢)، و«تهذيب التهذيب» (٣ / ٢٠٣). وانظر خبره هذا في: «حلية الأولياء» (٧ / ٣٣٩).

بشدَّة خوفه من الآخرةِ، ولو كان مُفيقًا لذٰلك؛ لم يتركْهُ؛ فلا يُحتجُّ بحال المغلوبينَ.

ومَنْ تأمَّل خصائصَ الرسول ﷺ؛ رأى كاملاً في العلم والعمل؛ فبه يكونُ الاقتداءُ، وهو الحجةُ على الخلق.

٥٣ ـ فصل

[في أن التأقلم مع ظروف البيئة من مصلحة البدن]

تأملتُ مبالغةَ أربابِ الدُّنيا في اتِّقاء الحرِّ والبَرْدِ، فرأيتُها تعكِسُ المقصود في بابِ الحكمةِ، وإنما تُحَصِّلُ مجردَ لَذَّةٍ، ولا خير في لَذَّةٍ تُعْقِبُ ألمًا.

فأما في الحر؛ فإنَّهم يشربونَ الماءَ المثلوجَ، وذٰلك على غايةٍ في الضَّررِ، وأهلُ الطِّبِّ يقولون: إنه يُحْدِثُ أمراضًا صعبةً، يَظْهَرُ أثرُها في وقت الشيخوخةِ، وَيَضَعونَ الخُيوش المضاعَفَةَ(١).

وفي البردِ يَصْنَعونَ اللُّبودَ(٢) المانعةَ للبردِ.

وهٰذا من حيثُ الحكمةُ يضادُّ ما وَضَعَهُ الله تعالى؛ فإنَّه جَعَلَ الحرَّ لتحلُّلِ الأخلاطِ، والبردَ لجُمودِها، فيجعلونَ هم جميعَ السَّنَةِ ربيعًا، فتنعكسُ الحكمةُ التي وُضِعَ الحرُّ والبردُ لها، ويرجِعُ الأذى على الأبدان.

ولا يَظُنَّنَّ سامعُ هٰذا أني آمُرُهُ بملاقاةِ الحرِّ والبردِ.

---

(١) يعني: يضعون للنوافذ والأبواب ستائر من الخيش ـ وهو نسيج خشن جدًا من صنف الكتان ـ ويرشونها بالماء للتبريد. عن الشيخ علي الطنطاوي.

(٢) اللُّبود: جمع، ومفرده: لِبْد ولِبدة ولُبدة، وهي ثياب الصوف أو الشعر.

وإنما أقولُ له: لا يفرطْ في التوقِّي، بل يتعرَّضْ في الحرِّ لما يحلِّلُ بعضَ الأخلاطِ إلى حدٍّ لا يؤثِّرُ في القوةِ، وفي البردِ بأن يصيبَكَ منهُ الأمرُ القريبُ لا المؤذي؛ فإن الحرَّ والبردَ لمصالح البدنِ.

وقد كان بعضُ الأمراء يصونُ نفسه من الحرِّ والبرد أصلاً، فتغيرتْ حالتُه فمات عاجلاً، وقد ذكرتُ قصَّتَه في كتاب «لقط المنافع في علم الطبِّ».

٥٤ ـ فصل

[فيما ينفع من الدواء في الصبر على مر البلاء]

ليس في التَّكليفِ أصعبُ من الصَّبرِ على القضاءِ، ولا فيه أفضلُ من الرِّضى به.

فأما الصبرُ؛ فهو فرضٌ، وأما الرِّضى؛ فهو فضلٌ.

وإنما [صَعُبَ] الصبرُ؛ لأنَّ القَدَرَ يجري في الأغلبِ بمكروهِ النفس.

وليس مكروهُ النَّفْسِ يَقِفُ على المرضِ والأذى في البدنِ، بل هو يتنوَّعُ، حتى يتحيَّرَ العقلُ في حكمةِ جَرَيانِ القدرِ.

فمن ذلك أنَّك إذا رأيتَ مغموراً بالدُّنيا؛ قد سالتْ له أوديتُها، حتى لا يدري ما يصنعُ بالمال؛ فهو يَصوغُهُ أوانِيَ يستعمِلُها، ومعلومٌ أنَّ البلورَ والعقيقَ والشَّبَهَ قد يكونُ أحسنَ منها صورةً؛ غير أنَّ قِلَّةَ مبالاتِهِ بالشريعةِ جعلتْ عنده وجودَ النهي كعدمِهِ! ويَلْبَسُ الحريرَ، ويظلِمُ الناسَ، والدُّنيا

مُنْصبَّةٌ عليه، ثم ترى خَلْقًا من أهل الدِّين وطُلَّابِ العلم؛ مغمورينَ بالفَقْر والبلاء، مقهورين تحتَ ولايةِ ذٰلك الظالم؛ فحينئذٍ يَجدُ الشيطانُ طريقًا للوَسْواس، ويبتدي بالقَدْح في حكمةِ القَدَرِ؛ فيحتاجُ المؤمنُ إلى الصبرِ على ما يلقى من الضُّرِّ في الدُّنيا وعلى جدال إبليسَ في ذٰلك.

وكذٰلك في تسليطِ الكُفَّارِ على المسلمين والفُسَّاقِ على أهل الدِّين.

وأبلغُ من هٰذا إيلامُ الحيوانِ وتعذيبُ الأطفالِ.

ففي مثل هٰذه المواطن يتمحَّصُ الإيمان.

ومما يُقَوِّي الصَّبْرَ على الحالتين: النقلُ، والعقلُ.

أما النقلُ؛ فالقرآنُ والسُّنَّةُ.

أما القرآنُ؛ فمنقسمٌ إلى قسمينِ:

أحدُهما: بيانُ سببِ إعطاءِ الكافر والعاصي:

فمن ذٰلك قوله تعالى: ﴿إنَّما نُمْلي لَهُمْ لِيَزْدادوا إثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، ﴿ولَوْلا أنْ يَكونَ النَّاسُ أمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمٰنِ لِبُيوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الزخرف: ٣٣]، ﴿وإذا أردنا أن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفيها فَفَسقوا فيها﴾ [الإسراء: ١٦]... وفي القرآنِ من هٰذا كثيرٌ.

والقسم الثاني: ابتلاءُ المؤمنِ بما يَلْقى:

كقوله تعالى: ﴿أم حَسِبْتُمْ أن تَدْخلوا الجَنَّةَ ولَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذينَ جاهَدوا مِنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ﴿أمْ حَسِبْتُمْ أنْ تَدْخُلوا الجَنَّةَ ولَمَّا يَأتِكُمْ مَثَلُ الَّذينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البأساءُ والضَّرَّاءُ وزُلْزِلوا﴾ [البقرة:

٢١٤]، ﴿أم حَسِبْتُمْ أنْ تُتْرَكُوا ولَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذينَ جاهَدوا مِنكُم﴾ [التوبة: ١٦]... وفي القرآن من هٰذا كثيرٌ.

وأما السُّنَّةُ؛ فمنقسمةٌ إلى قولٍ وحالٍ:

أما الحالُ؛ فإنه ﷺ كان يَتَقَلَّبُ على رمال حَصيرٍ[1] تؤثِّرُ في جنبِهِ، فبكى عمرُ رضي الله عنه، وقال: كسرى وقيصرُ في الحريرِ والدِّيباج! فقال ﷺ: «أفي شكٍّ أنت يا عمرُ؟! ألا ترضى أن تكونَ لنا الآخرةُ ولَهُم الدُّنيا؟!»[2].

وأما القولُ؛ فكقولِهِ عليه الصلاةُ والسلام: «لو أن الدُّنيا تساوي عند الله جَناحَ بعوضةٍ؛ ما سقى كافرًا منها شَرْبَةَ ماء»[3].

(١) الحصير: هو أي منسوج يوضع على الأرض، وهو هنا مصنوع من سعف النخيل، ورماله: هو الضلوع المتداخلة بمنزلة الخيوط.

(٢) جزء من حديث عمر بن الخطاب الطويل في إيلاء النبي ﷺ من أزواجه الذي رواه البخاري (٤٦ ـ كتاب المظالم، ٢٥ ـ باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة، ٥ / ١١٤ / ٢٤٦٨).

(٣) (صحيح). وقد ورد عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم:

فرواه ابن ماجه (٣٧ ـ كتاب الزهد، ٣ ـ باب مثل الدنيا، ٢ / ١٣٧٧ / ٤١١٠) من طريق زكريا بن منظور، ثنا أبو حازم، عن سهل بن سعد... فذكره مرفوعًا في قصة.

وزكريا بن منظور ضعيف، ولذٰلك ضعف البوصيري في «الزوائد» هٰذا السند.

لٰكنه توبع، فرواه الترمذي (٣٧ ـ كتاب الزهد، ١٣ ـ باب ما جاء في هوان الدنيا على الله عز وجل، ٤ / ٥٦٠ / ٢٣٢٠)؛ من طريق عبد الحميد بن سليمان، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد... به.

وعبد الحميد هٰذا ضعيف أيضًا، ولذٰلك قال الترمذي: «غريب من هٰذا الوجه».

لٰكن الحديث حسن بمجموع الطريقين؛ كما أفاده الترمذي والبوصيري. =

وأما العقلُ؛ فإنَّه يقوِّي عساكرَ الصبرِ بجنودٍ:

منها: أن يقول: قَد ثبتتْ عندي الأدلةُ القاطعةُ على حكمةِ المقدِّرِ؛ فلا أترُكُ الأصلَ الثابتَ لما يظنُّه الجاهلُ خللًا.

ومنها: أن يقولَ: ما قد استهولْتَهُ أيُّها الناظرُ من بَسْطِ يد العاصي هي قَبْضٌ في المعنى، وما قد أثَّرَ عندكَ من قَبْضِ يدِ الطائعِ بَسْطٌ في المعنى؛ لأن ذٰلك البسطَ يوجِبُ عقابًا طويلًا، وهٰذا القبضَ يؤثِّرُ انبساطًا في الأجرِ جزيلًا؛ فزمانُ الرجلين ينقضي عن قريبٍ، والمراحلُ تُطوى، والرُّكبانُ في [السَّيْر] الحثيثِ.

ومنها: أن يقولَ: قد ثَبَتَ أنَّ المؤمنَ بالله كالأجيرِ، وأنَّ زمنَ التَّكليفِ كبياضِ نهارٍ، ولا ينبغي للمُسْتَعْمَل في الطِّين أن يَلْبَسَ نظيفَ الثيابِ، بل ينبغي أن يصابِرَ ساعاتِ العملِ؛ فإذا فَرَغَ؛ تَنَظَّفَ ولَبِسَ أجودَ ثيابه؛ فمن تَرَفَّهَ وقتَ العملِ؛ نَدِمَ وقتَ تفريقِ الأجرةِ، وعوقبَ على التواني فيما كُلِّفَ.

فهٰذه النُّبْذَةُ تقوِّي أزْرَ الصبرِ.

وأزيدُها بسطًا فأقولُ: أتَرى إذا أُريد اتِّخاذُ شُهداءَ؛ فكيف يُخْلَقُ أقوامٌ يبسُطونَ أيدِيَهم لقتلِ المؤمنينَ؟! أفيجوزُ أن يَفْتِكَ بِعُمَرَ إلَّا مِثْلُ أبي

= وفي الباب عن أبي هريرة عند ابن عدي والقضاعي، وعن ابن عمر عند الخطيب في «التاريخ»، وعن ابن عباس عند أبي نعيم في «الحلية».

ويمجموع هٰذه الطرق والشواهد؛ فالحديث صحيح بلا ريب، وقد فصل الألباني في «الصحيحة» (٢ / ٢٩٩ / ٦٨٦، ٢ / ٦٢٢ / ٩٤٣) في ذكر طرقه وشواهده، وانتهى إلى صحته؛ فلينظرها من شاء.

لؤلؤة[١]؟! وبعليٍّ إلَّا مِثْلُ ابنِ مُلْجِمٍ[٢]؟! أفيصحُّ أنْ يَقْتُلَ يحيى بن زكريا إلَّا جَبَّارٌ كافرٌ[٣]؟!

ولو أن عينَ الفَهْمِ زال عنها غشاءُ العَشَا؛ لرأتِ المسبِّبَ لا الأسبابَ، والمقدِّرَ لا الأقدارَ، فصبرتْ على بلائِهِ؛ إيثارًا لما يريد. ومن ها هنا ينشأ الرِّضى؛ كما قيل لبعض أهل البلاء: ادعُ الله بالعافيةِ! فقال: أَحَبُّهُ إليَّ أَحَبُّهُ إلى الله عزَّ وجلَّ!!

إنْ كانَ رِضاكُمْ في سَهَرِي فَسَلامُ اللهِ على وَسَني

٥٥ـ فصل

[في مقام الرضى عن الله عز وجل]

لما أنهيتُ كتابةَ الفصل المتقدِّم؛ هتفَ بي هاتفٌ من باطني: دَعْني من شرح الصَّبر على الأقدار؛ فإني قد اكتفيتُ بأُنْموذَج ما شرحتَ! وَصِفْ حالَ الرِّضى؛ فإني أجدُ نسيمًا مِن ذِكْره فيه رَوْحٌ للرُّوح[٤]!

فقلتُ: أيها الهاتفُ! اسمعِ الجوابَ! وافهمِ الصوابَ! إنَّ الرِّضى من جملةِ ثمرات المعرفةِ؛ فإذا عرفتَهُ؛ رضيتَ بقضائِهِ، وقد يجري في ضمن القضاءِ مراراتٌ يَجِدُ بعضَ طَعْمِها الراضي، أما العارفُ؛ فتَقِلُّ عندَه المرارةُ لقوَّةِ حلاوةِ المعرفة، فإذا ترقَّى بالمعرفة إلى المحبَّةِ؛ صارتْ مرارةُ

---

(١) فيروز، الفارسي، المجوسي، الصنع، غلام المغيرة بن شعبة.

(٢) عبدالرحمٰن بن ملجم، الخارجي، الخبيث، قاتل علي رضي الله عنه.

(٣) وهو أحد ملوك بني إسرائيل. وانظر «البداية والنهاية» (١ / ٥٢٥).

(٤) يعني: فيه راحة ونعيم للروح.

الأقدارِ حلاوةً:

كما قال القائلُ:

عذابُـهُ فيكَ عَذْبُ وبُـعْـدُهُ فيكَ قُرْبُ
وأنـتَ عِنْـدي كَرُوحـي بلْ أنـتَ مِنْـهـا أَحَبُّ
حَسْبـي مِنَ الـحُبِّ أني لِمَـا تُحِـبُّ أُحِـبُّ

وقال بعضُ المحبِّين في هٰذا المعنى:

وَيَقْبُـحُ مِنْ سِواكَ الفِعْـلُ عِنْـدي فَتَـفْـعَـلُهُ فَيَحْـسُـنُ مِنْـكَ ذاكـا

فصـاحَ بيَ الهاتفُ: حدِّثْني؛ بماذا أرضى؟! قدِّر أني أرضى في أقـداره بالمـرضِ والفقـرِ؛ أفأرضى بالكسلِ عن خِدْمته والبعدِ عن أهل محبَّتِهِ؟! فبيِّنْ لي ما الذي يدخُلُ تحتَ الرِّضى مما لا يدخُلُ!

فقلتُ له: نِعْمَ ما سألتَ؛ فاسمعِ الفرقَ سماعَ من ألقى السمعَ وهو شهيدٌ: ارضَ بما كان منه، فأما الكسلُ والتخلُّفُ؛ فذاكَ منسوبٌ إليك؛ فلا تَرْضَ به مِن فعلكَ. وكنْ مستوفيًا حقَّهُ عليك، مناقشًا نفسكَ فيما يقرِّبُك منـه، غيرَ راضٍ منهـا بالتواني في المجاهدة. فأما ما يصدُرُ من أقضيته المجرَّدةِ التي لا كَسْبَ لك فيها؛ فكنْ راضيًا بها؛ كما قالتْ رابعةُ رحمةُ الله عليها؛ وقد ذُكِرَ عندها رجلٌ من العُبَّاد يلتقطُ من مزبلةٍ فيأكلُ، فقيلَ: هلَّا سألَ الله تعالى أنْ يَجْعَلَ رِزْقَهُ من غير هٰذا؟! فقالت: إنَّ الراضي لا يَتَخَيَّرُ، ومَن ذاقَ طَعْمَ المعرفة؛ وجد فيه طَعْمَ المحبةِ، فوقعَ الـرِّضى عنـده ضرورةً[1].

---

(١) تقدمت ترجمة رابعة العدوية في (فصل ١٩).

فينبغي الاجتهـادُ في طلب المعـرفـةِ بالأدلةِ، ثم العملُ بمقتضى المعـرفـة بالجِدِّ في الخدمةِ، لعلَّ ذٰلك يورِثُ المحبَّةَ؛ فقد قالَ سبحانه وتعالى: «لا يزالُ العبدُ يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أحِبَّهُ؛ فإذا أحببتهُ؛ كنتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به...»[1].

فذٰلك الغنى الأكبرُ... ووا فقراه!

٥٦ـ فصل

[في حكمة قصور حظ أهل العلم من الدنيا]

رأيتُ جمهـورَ العلمـاءِ يشغَلُهم طلبُهم للعلم في زمـان الصِّبا عن المعاشِ، فيحتاجونَ إلى ما لا بدَّ منه، فلا يصِلُهم من بيتِ المال شيءٌ ولا من صِلاتِ الإخوان ما يكفي، فيحتاجونَ إلى التعرُّضِ بالإذلالِ!

فلم أر في ذٰلك من الحكمةِ إلَّا سببينِ: أحدُهما: قَمْعُ إعجابِهم بهٰذا الإذلال. والثاني: نفع أولٰئك بثوابِهم.

ثم أمعنتُ الفِكْـرَ، فَتَلَمَّحْتُ نُكْتَةً لطيفةً، وهو أن النفسَ الأبيَّة إذا رأت حالَ الدُّنيا كذٰلك؛ لم تساكنْها بالقلب، ونَبَتْ[2] عنها بالعزم، ورأتْ أقربَ الأشياءِ شَبَهًا بها مزبلةً عليها الكلابُ أو غائطًا يؤتى لضرورةٍ؛ فإذا نزل الموتُ بالرِّحْلَةِ عن مثل هٰذه الدارِ؛ لم يكنْ للقلبِ بها متعلَّقٌ متمكِّنٌ، فتهونُ حينئذٍ.

---

(١) جزء من حديث طويل رواه البخاري (٨١ـ كتاب الرقاق، ٣٨ ـ باب التواضع، ١١ / ٣٤٠ / ٦٥٠٢)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) نَبَتْ: تجافت وتباعدت.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

٥٧ـ فصل

[بين العلماء والمتزهدين]

ما زال جماعةٌ من المتزهِّدين يُزْرون[١] على كثيرٍ من العلماءِ إذا انْبَسَطوا في مباحاتٍ، والذي يحمِلُهم على هٰذا الجهلُ؛ فلو كان عندَهُم فضلُ علمٍ؛ ما عابوهم، وهٰذا لأن الطِّباعَ لا تتساوى؛ فَرُبَّ شخص يَصْلُحُ على خُشونةِ العيش، وآخرَ لا يَصْلُحُ على ذٰلك، ولا يجوزُ لأحدٍ أن يَحْمِلَ غيرَهُ على ما يُطيقُه هو؛ غير أنَّ لنا ضابطًا ـ هو الشرعُ ـ فيه الرُّخْصَةُ وفيه العزيمةُ؛ فلا يَنْبَغي أن يُلام من حَصَرَ نفسَه في ذٰلك الضابطِ، ورُبَّ رخصةٍ كانت أفضلَ من عزائمَ لتأثيرِ نفعِها.

ولو علم المتزهِّدون أنَّ العلمَ يوجِبُ المعرفةَ بالله تعالى، فَتَنْبَتُّ[٢] القلوبُ من خوفِهِ، وتنحلُّ الأجسام للحَذَرِ منه، فوجب التلطُّف بالأجسامِ حفظًا لقوةِ الراحلةِ، ولأنَّ آلةَ العلم والحفظِ القلبُ والفِكْرُ؛ فإذا رُفِّهَتِ الآلةُ؛ جادَ العمل.

وهٰذا أمرٌ لا يُعْلَمُ إلَّا بالعلم؛ فلجهل المتزهِّدينَ بالعلم أنكروا ما لم يعلموا، وظنُّوا أن المرادَ إتعابُ الأبدان وإنضاءُ[٣] الرَّواحل، وما علموا أن الخوفَ المُضْنِي يحتاجُ إلى راحةٍ مقاوِمةٍ؛ كما قال القائلُ: رَوِّحوا القلوبَ تَعِ الذِّكْرَ.

(١) يُزرون: يعيبون.
(٢) تنبتُّ: تنقطع.
(٣) إنضاء الرواحل: إتعابها حتى تهزل.

٥٨ ـ فصل
[في تلبيس إبليس على المتصوفة]

ليس في الوجودِ شيءٌ أشرفُ من العلم.

كيف لا وهو الدليلُ؛ فإذا عُدِمَ؛ وَقَعَ الضلالُ؟!

وإنَّ من خفِيِّ مكائدِ الشيطانِ أنْ يُزَيِّنَ في نفسِ الإنسانِ التعبُّدَ؛ لِيَشْغَلَهُ عن أفضل التعبُّد، وهو العلمُ؛ حتى إنه زيَّن لجماعةٍ من القدماءِ أنهم دفنوا كُتُبَهم ورمَوْها في البحرِ! وهٰذا قد وردَ عن جماعةٍ.

وأحسنُ ظنِّي بهم أن أقولَ: كان فيها شيءٌ من رأيهم وكلامِهم فما أحبُّوا انتشارَه، وإلاَّ؛ فمتى كان فيها علمٌ مفيدٌ صحيحٌ لا يُخافُ عواقبُه؛ كان رميُها إضاعةً للمال لا يَحِلُّ.

وقد دنتْ حيلةُ إبليس إلى جماعةٍ من المتصوِّفةِ، حتى منعوا من حملِ المحابر تلامذتَهم، وحتى قال جعفرٌ الخُلْدِيُّ[1]: لو تركَني الصوفيَّةُ؛ جئتُكم بإسنادِ الدُّنيا، كتبتُ مجلسًا عن عباسٍ الدُّوْرِيِّ[2]، فلقيني بعضُ

---

(١) هو الشيخ، الإمام، القدوة، المحدث، شيخ الصوفية، أبو محمد، جعفر بن محمد الخلدي البغدادي، المتوفى سنة ٣٤٨هـ عن خمس وتسعين سنة. انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» (١٠ / ٣٨١)، و«سير أعلام النبلاء» (١٥ / ٥٥٨).

(٢) في الأصول: «عن أبي العباس الدوري»!! وهو خطأ ظاهر. وهو الإمام، الحافظ، الثقة، الناقد، أبو الفضل، عباس بن محمد، الدوري، ثم البغدادي. ولد سنة ١٨٥هـ، وتوفي سنة ٢٧١هـ. انظر ترجمته في: «أعلام النبلاء» (١٢ / ٥٢٢)، و«التهذيب» (٥ / ١٢٩). وانظر هٰذا الخبر في: «تاريخ بغداد» (٧ / ٢٢٧).

الصوفيةِ، فقال: دعْ علم الورق، وعليك بعلمِ الخِرَق. ورُئيَتْ محبرةٌ مع بعضِ الصوفيةِ، فقال له صوفِيٌّ آخرُ: استرْ عورتَكَ! وقد أنشدوا للشِّبْليِّ:

إذا طالَبوني بِعِلْمِ الوَرَقْ بَرَزْتُ عليهِمْ بِعِلْمِ الخِرَقْ

وهٰذا من خفيِّ حيل إبليس، ﴿ولَقَدْ صَدَّقَ عليهم إبليسُ ظَنَّهُ﴾ [سبأ: ٢٠]، وإنما فعل وزيَّنَه عندهم لسببين:

أحدهما: أنه أرادَهُم يمشونَ في الظُّلمةِ.

والثاني: أنَّ تصفُّحَ العلمِ كلَّ يوم يزيدُ في العالم، ويكشِفُ له ما كان خَفِيَ عنه، ويقوِّي إيمانَه ومعرفتَه، ويُريه عيبَ كثيرٍ من مسالكهِ؛ إذا تصفَّحَ منهاجَ الرسول ﷺ والصحابةِ.

فأراد إبليسُ سدَّ تلك الطُّرقِ بأخفى حيلةٍ، فأظهرَ أنَّ المقصودَ العملُ لا العلمُ لنفسهِ، وخفي على المخدوع أنَّ العلمَ عملٌ، وأيُّ عملٍ!

فاحذرْ من هٰذه الخديعةِ الخفيَّةِ؛ فإن العلمَ هو الأصلُ الأعظمُ والنورُ الأكبرُ.

وربما كان تَقْليبُ الأوراقِ أفضلَ من الصوم والصلاةِ والحجِّ والغَزْو.

وكم من مُعْرِضٍ عن العلم يخوضُ في عذابٍ من الهوى في تعبُّده، ويضيِّعُ كثيرًا من الفرضِ بالنفلِ، ويشتغلُ بما يزعُمُه الأفضلَ عن الواجبِ، ولو كانت عنده شُعْلَةٌ من نور العلمِ؛ لاهتدى.

فتأمَّلْ ما ذكرتُ لك؛ تَرْشُدْ إن شاء الله تعالى.

٥٩ ـ فصل

[تعليل النفس يعين على تحمل المشاق]

مرَّ بي حمَّالانِ تحتَ جذعٍ ثقيل، وهما يتجاوبانِ بإنشادِ النَّغَمِ وكلماتِ الاستراحةِ؛ فأحدُهما يُصْغي إلى ما يقولُه الآخرُ، ثم يعيدُه أو يُجيبُهُ بمثلِهِ، والآخرُ هِمَّتُه مثلُ ذٰلك.

فرأيتُ أنَّهما لو لم يفعلا هٰذا؛ زادتِ المَشَقَّةُ عليهما، وثَقُلَ الأمرُ، وكلَّما فَعَلا هٰذا؛ هانَ الأمرُ.

فتأملتُ السببَ في ذٰلك؛ فإذا به تعليقُ فِكْرِ كلِّ واحدٍ منهما بما يقولُه الآخرُ، وطَرَبُهُ به، وإجالةُ فكرِهِ في الجوابِ بمثل ذٰلك، فينقطعُ الطريقُ، وينسى ثقلَ المحمول.

فأخذتُ من هٰذا إشارةً عجيبةً، ورأيتُ الإنسانَ قد حُمِّلَ من التكليفِ أموراً صعبةً، ومن أثقل ما حُمِّلَ مداراةُ نفسِهِ وتكليفُها الصَّبْرَ عما تحبُّ وعلى ما تكرهُ، فرأيتُ الصوابَ قطعَ طريقِ الصبرِ بالتسليةِ والتلطُّفِ للنفس؛ كما قالَ الشاعرُ:

فإنْ تَشَكَّتْ فَعَلِّلْهـا المَجَـرَّةَ من ضَوْءِ الصَّباحِ وعِدْها بالرَّواحِ ضُحى

ومن هٰذا ما يُحكى عن بشرٍ الحافي رحمة الله عليه: سارَ ومعه رجلٌ في طريقٍ، فعطشَ صاحبُه، فقال له: نشربُ من هٰذا البئرِ؟ فقال بشرٌ: اصبرْ إلى البئرِ الأخرى! فلما وَصَلا إليها؛ قال له: البئرَ الأخرى! فما زال يعلِّلُهُ، ثم التفتَ إليه، فقال له: هٰكذا تنقطِعُ الدُّنيا[1].

(١) تقدمت ترجمته في (فصل ١٩).

ومن فهم هٰذا الأصل؛ علَّل النفسَ، وتلطَّف بها، ووعدَها الجميلَ؛ لتصبرَ على ما قد حُمِّلَتْ.

كما كان بعضُ السلف يقولُ لنفسه: والله؛ ما أريدُ بمنعِكِ من هٰذا الذي تحبِّينَ إلَّا الإشفاقَ عليك.

وقال أبو يزيدَ رحمة الله عليه: ما زلتُ أسوقُ نفسي إلى الله تعالى وهي تبكي، حتى سُقْتُها وهي تضحكُ(١).

واعلم أن مداراة النفس والتلطُّفَ بها لازمٌ، وبذٰلك ينقطعُ الطريقُ.

فهٰذا رمزٌ إلى الإشارةِ، وشرحُه يطولُ.

٦٠ ـ فصل

[في تلبيس إبليس على بعض الوعاظ]

تأملتُ أشياء تجري في مجالس الـوَعْظِ، يعتقِدُها العوامُّ وجُهال العلماءِ قُربةً، وهي منكرٌ وبُعْدٌ.

وذاك أن المقرىء يُطْرِبُ ويُخْرِجُ الألحانَ إلى الغناء، والواعظَ ينشدُ بتطريبِ أشعارَ المجنون وليلى، فيصفِّق هٰذا! ويَخْرِقُ ثوبَه هٰذا! ويعتقدون أن ذٰلك قُربةٌ!!

ومعلومٌ أن هٰذه الألحانَ كالموسيقى، توجب طربًا للنفس ونشوةً؛ فالتعرُّضُ بما يوجبُ الفسادَ غلطٌ عظيمٌ، وينبغي الاحتسابُ على الوعَّاظِ

(١) تقدمت ترجمته في (فصل ١٩).

في هٰذا[1].

وكـذٰلـك المقابريُّون[2] منهم؛ فإنهم يُهيجونَ الأحزانَ؛ ليكثُرَ بكاءُ النساءِ، فيُعْطَوْن على ذٰلك الأجرةَ، ولو أنهم أمروا بالصبر؛ لم تُرِدِ النسوةُ ذٰلك! وهٰذه أضدادٌ للشرع.

قال ابنُ عقيلٍ: حَضَرْنا عزاءَ رجلٍ قد ماتَ له ولدٌ، فقرأ المقرىءُ: ﴿يا أَسَفى على يوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]، فقلتُ له: هٰذه نِياحةٌ بالقرآنِ!

وفي الوعاظِ من يتكلَّم على طريق المعرفةِ والمحبَّةِ، فترى الحائك والسُّوقيَّ الذي لا يعرف فرائضَ تلك الصلاةِ يمزِّقُ أثوابَه؛ دعوى لمحبةِ الله تعالى!! والصافي حالاً منهم ـ وهو أصلحُهم ـ يَتَخَايَلُ بِوَهْمِهِ شخصًا هو الخالقُ، فَيُبْكِيه شوقُه إليه لما يَسْمَعُ من عظمتِهِ ورحمتِهِ وجمالِهِ.

وليس ما يتخايلونَهُ المعبودَ؛ لأنَّ المعبودَ لا يقعُ في خيال.

وبعـد هٰذا؛ فالتحقيقُ مع العوامِّ صعبٌ، ولا يكادونَ ينتفعون بمُرِّ الحقِّ؛ إلَّا أنَّ الـواعظ مأمـورٌ بأن لا يتعـدَّى الصـواب، ولا يتعرَّضَ لما يُفْسِـدُهم، بل يجـذِبُهم إلى ما يَصْلُحُ بألـطفِ وجـهٍ، وهٰذا يحتاجُ إلى صناعةٍ؛ فإنَّ من العوامِّ من يعجبُهُ حسنُ اللفظِ، ومنهم من يعجبُهُ الإشارةُ، ومنهم مَن ينقادُ ببيتٍ من الشعر.

---

(١) يعني: ينبغي أن يطوف المحتسبون على الوعاظ ويراقبوا ما يجري في مجالسهم ويؤاخذوهم على تجاوزاتهم إن وجدت.

(٢) القياس لغة أن يقول: «المقبريون». وهم فئة تطوف المقابر، وغالبًا ما يقرؤون القرآن بالأجر ويهدونه للأموات! وكل هٰذا من الضلالات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

وأحوجُ الناس إلى البلاغةِ الواعظُ؛ ليجمعَ مطالِبَهم، لٰكنه ينبغي أن يَنْظُرَ في اللازِمِ الواجبِ، وأن يُعْطِيَهم من المباح في اللفظِ قَدْرَ الملحِ في الطعام، ثم يجتذبهم إلى العزائمِ، ويعرِّفَهم الطريقَ الحقَّ.

وقد حضرَ أحمدُ بن حنبلٍ، فسمعَ كلام الحارثِ المحاسبيِّ، فبكى، ثم قال: لا يعجبني الحضورُ[1].

وإنما بكى؛ لأنَّ الحالَ أوجبتِ البكاءَ.

وقد كان جماعةٌ من السلفِ يَرَوْنَ تخليطَ القُصَّاصِ، فينهونَ عن الحضورِ عندهم، وهٰذا على الإطلاق لا يَحْسُنُ اليومَ؛ لأنه كان الناس في ذٰلك الزمانِ متشاغلين بالعلم، فرأوا حضورَ القَصَصِ صادًّا لهم، واليومَ كَثُرَ الإعراضُ عن العلم، فأنفعُ ما للعاميِّ مجلسُ الوعظِ، يردُّه عن ذنبٍ، ويحرِّكُه إلى توبةٍ، وإنَّما الخلل في القاصِّ؛ فليتَّقِ الله عزَّ وجلَّ.

٦١ ـ فصل

[في توحيد الأسماء والصفات]

مِنْ أضَرِّ الأشياء على العوامِّ كلامُ المتأوِّلينَ والنُّفاةِ للصفاتِ والإضافاتِ.

فإنَّ الأنبياءَ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ بالغوا في الإثباتِ؛ ليتقرَّرَ في أنفس العوامِّ وجودُ الخالقِ؛ فإنَّ النفوسَ تأنسُ بالإثباتِ؛ فإذا سَمِعَ العاميُّ

(١) وذٰلك لمخالفة هٰذا لمنهج السلف وطريقتهم، والغايَة لا تسوغ الواسطة.
وقد حاول بعضهم تأويل موقف الإمام أحمد هٰذا وتوجيهه بمتمحل الأعذار؛ فما صنع شيئًا. وانظر: «سير أعلام النبلاء» (١٢ / ١١٢)، و«طبقات الشافعية» (٢ / ١١٨).

ما يوجبُ النفيَ ؛ طَرَدَ عن قلبهِ الإثباتَ، فكان أعظمَ ضررٍ عليه، وكان هٰذا المنـزِّه من العلمـاء ـ على زعمـهِ ـ مقـاومًا لإثباتِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالمحو، وشارعًا في إبطال ما يُفتونَ به(1).

وبيانُ هٰذا: أنَّ الله تعالى أخبـر باستـوائِـهِ على العرش، فأنِسَتِ النفوسُ إلى إثبات الإلٰه ووجوده:

قال تعالى: ﴿ويَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمٰن: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿بَلْ يداهُ مَبْسوطَتانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقال: ﴿وغَضِبَ اللهُ عليهِمْ﴾ [الفتح: ٦].

﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وأخبر [الرسول ﷺ] أنه ينزل إلى السماء الدُّنيا(2).

وقال: «قلوبُ العِبادِ بين أُصْبُعَيْنِ»(3).

وقال: «كَتَبَ التوراةَ بيده»(4).

---

(1) وهٰذا حق لا ريب فيه؛ فما زال هٰؤلاء المنزهون لله ـ على زعمهم ـ يقاومون آيات الكتاب وأحاديث النبي ﷺ.

(2) هٰذا جزء من حديث النزول المشهور الذي رواه: البخاري (١٩ ـ كتاب التهجد، ١٤ ـ باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، ٣ / ٢٩ / ١١٤٥)، ومسلم (٦ ـ كتاب صلاة المسافرين، ٢٤ ـ باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، ١ / ٥٢١ / ٧٥٨)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) رواه مسلم (٤٦ ـ كتاب القدر، ٣ ـ باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء، ٤ / ٢٠٤٥ / ٢٦٥٤)؛ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(4) جزء من حديث احتجاج آدم وموسى الذي رواه: البخاري (٨٢ ـ كتاب القدر، =

«وكَتَبَ كتابًا فهو عنده فوقَ العرش»(١).

. . . إلى غير ذٰلك مما يطولُ ذِكرُه.

فإذا امتلأ العاميُّ والصبيُّ من الإثباتِ، وكاد يأنَسُ من الأوصافِ بما يفهمُه الحسُّ؛ قيل له: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فمحا من قلبِه ما نَقَشَهُ الخيالُ، وتبقى ألفاظُ الإثباتِ متمكنةً(٢).

ولهٰذا أقرَّ الشَّرْعُ مثلَ هٰذا:

فسمع [النبيُّ ﷺ] منشدًا يقولُ: وفوقَ العرش ربُّ العالمينا.

فضحكَ(٣).

= ١١ ـ باب تحاج آدم وموسى عند الله، ١١ / ٥٠٥ / ٦٦١٤)، ومسلم (٤٦ ـ كتاب القدر، ٢ ـ باب حجاج آدم وموسى، ٤ / ٢٠٤٢ / ٢٦٥٢)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) رواه: البخاري (٥٩ ـ كتاب بدء الخلق، ١ ـ باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾، ٦ / ٢٨٧ / ٣١٩٤)، ومسلم (٤٩ ـ كتاب التوبة، ٤ ـ باب في سعة رحمة الله، ٤ / ٢١٠٧ / ٢٧٥١)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وهٰذا مذهب السلف رضي الله عنهم، لٰكن لا فرق في ذٰلك عندهم بين صبي وكبير ولا عامي وعالم؛ فكلهم يؤمن بصفات الله ويثبتها ولا يتخيلها كصفات المخلوقات؛ تعالى الله عن ذٰلك علوًّا كبيرًا.

(٣) (**ضعيف**). قال الحافظ ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٢ / ٢٩٦): «وقصته [يعني: عبد الله بن رواحة في حين وقع على أمته المشهورة، رويناها من وجوه صحاح، وذٰلك أنه مشى ليلة إلى أمة له، فنالها وفطنت له امرأته، فلامته، فجحدها، وكانت قد رأت جماعه لها، فقالت له: إن كنت صادقًا؛ فاقرأ القرآن. . . (فقال أبيات شعر منها هٰذا الشطر المذكور) فقالت امرأته: صدق الله وكذبت عيني. وكانت لا تحفظ القرآن ولا تقرؤه».

وليس فيه ذكر لضحك النبي ﷺ ولا علمه بالقصة! ولذٰلك قال الذهبي في «العلو» (ص ١٠٦): «روي من وجوه مرسلة. . . » ثم ذكرها. وضعفه الألباني في «تخريج =

وقال له آخر: أوَيَضْحَكُ ربُّنا؟ فقال: «نعم»[١].

وقال: «إنَّه على عرشِهِ هٰكذا»[٢].

الطحاوية» (٢٨٢ / ٣٠٦).

(١) (ضعيف). رواه: أحمد (٤ / ١١ و ١٢ و ١٣)، وابن ماجه في «السنن» (المقدمة، ١٣ ـ باب فيما أنكرت الجهمية، ١ / ٦٤ / ١٨١)؛ من طريق وكيع بن حدس عن أبي رزين مرفوعًا.

قال صاحب «الزوائد»: «وكيع ذكره ابن حبان في الثقات، وباقي رجاله احتج بهم مسلم». وقال الذهبي في وكيع هٰذا: «لا يعرف». وقال الحافظ في «التقريب»: «مقبول»؛ يعني عند المتابعة، وإلا؛ فلين الحديث. فالحديث ضعيف، وقد ضعفه الألباني في «ظلال الجنة» (٢٤٤ / ٥٥٤).

نعم؛ لا ريب أن صفة الضحك ثابتة لله عز وجل، لٰكن بغير هٰذا السياق.

(٢) (ضعيف). رواه: أبو داوود (٣٤ ـ كتاب السنة، ١٨ ـ باب في الجهمية والمعتزلة، ٢ / ٦٤٤ / ٤٧٢٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٥٢ / ٥٧٥)؛ من طريق محمد بن إسحاق، يحدث عن يعقوب بن عتبة وجبير بن محمد، عن أبيه، عن جده. . . فذكره مرفوعًا في قصة طويلة.

وهٰذا سند ضعيف، فيه عدة علل: فأولاها أن محمد بن إسحاق مدلس ولم يصرح بالتحديث. قال المنذري في «تهذيب السنن» (٧ / ٩٧): «قال أبو بكر البزار: وهٰذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ من وجه من الوجوه إلا من هٰذا الوجه، ولم يقل فيه محمد بن إسحاق: حدثني يعقوب بن عقبة. هٰذا آخر كلامه. ومحمد بن إسحاق مدلس، وإذا قال المدلس: عن فلان، ولم يقل: حدثنا، أو: سمعت، أو: أخبرنا؛ لا يحتج بحديثه. وإلى هٰذا أشار البزار، مع أن ابن إسحاق إذا صرح بالسماع اختلف الحفاظ في الاحتجاج بحديثه؛ فكيف إذا لم يصرح به؟!».

والثانية والثالثة: الاختلاف الواقع في سنده ومتنه، وقد أشار إلى ذٰلك أبو داوود بعد الحديث مباشرة والمنذري في «تهذيب السنن».

والحديث ضعفه الألباني في «ظلال الجنة».

كل هٰذا ليقرِّرَ الإثباتَ في النفوس!

وأكثرُ الخلقِ لا يعرفون الإثباتَ إلَّا عَلَى ما يَعْلَمونَ من الشاهدِ، فيُقْنَعُ منهم بذٰلك، إلى أن يَفْهَموا التَّنْزيهَ.

فأما إذا ابتُدِىء بالعاميِّ الفارغ مِن فَهْم الإثباتِ، فقُلْنا: ليس في السماءِ! ولا على العرش! ولا يوصفُ بيدٍ! وكلامُهُ صفةٌ قائمةٌ بذاتِه، وليس عندنا منه شيءٌ! ولا يُتَصَوَّرُ نزولُه. . . انمحى من قلبِهِ تعظيمُ المصحفِ، ولم يتحقق في سِرِّه إثباتُ إلٰه.

وهٰذه جنايةٌ عظيمةٌ على الأنبياء، توجبُ نَقْضَ ما تَعِبوا في بيانِهِ، ولا يجوزُ لعالمٍ أنْ يأتي إلى عقيدةِ عاميٍّ قد أنِسَ بالإثبات فيهوِّشَها؛ فإنه يُفْسِدُه، ويَصْعُبُ صلاحُه.

فأمَّا العالم؛ فإنا قد أمِنَّاهُ؛ لأنه لا يخفى عليه استحالةُ تجدُّدِ صفةِ الله تعالى، وأنه لا يجوزُ أن يكونَ استوى كما يُعْلَمُ، ولا يجوزُ أن يكونَ محمولاً، ولا أن يوصفَ بملاصقةٍ ومَسٍّ، ولا أن يَنْتَقِلَ. ولا يخفى عليه أن المرادَ بتقليب القلوبِ بين إصْبَعَيْن الإعلامُ بالتحكُّمِ في القلوب؛ فإنَّ ما يُديرُه الإنسانُ بين إصْبَعَيْن هو متحكِّمٌ فيه إلى الغاية، ولا يحتاجُ إلى تأويل مَنْ قال: الإصْبَعُ الأثرُ الحسنُ؛ فالقلوبُ بين أثرين من آثار الربوبيةِ، وهما: الإقامةُ، والإزاغةُ. ولا إلى تأويل من قال: يداه: نعمتاه؛ لأنه إذا فَهِم أنَّ المقصودَ الإثباتُ، وقد حُدِّثْنا بما نَعْقِلُ، وضُرِبَتْ لنا الأمثالُ بما نعلمُ، وقد ثبتَ عندنا بالأصلِ المقطوع به أنه لا يجوزُ عليه ما يعرفُه الحسُّ؛ عَلِمْنا المقصودَ بذِكْر ذٰلك.

وأصلحُ ما نقولُ للعوامِّ: أَمِرُّوا هٰذه الأشياءَ كما جاءتْ، ولا تتعرَّضُوا لتأويلِها، وكلُّ ذٰلك يُقْصَدُ به حفظُ الإثباتِ، وهٰذا الذي قَصَدَهُ السلفُ.

وكان أحمدُ يَمْنَعُ مِن أنْ يُقالَ: لفظي بالقرآنِ مخلوقٌ أو غيرُ مخلوقٍ[١].

كلُّ ذٰلك لِيَحْمِلَ على الاتِّباع، وتبقى ألفاظُ الإثباتِ على حالِها.

وأجهلُ الناس مَن جاءَ إلى ما قَصَدَ النبيُّ ﷺ تعظيمَه، فأضعفَ في النفوس قُوى التعظيم:

قال النبيُّ ﷺ: «لا تسافِرُوا بالقرآنِ إلى أرض العدوِّ»[٢]؛ يشير إلى المصحفِ.

ومنَع الشافعيُّ أن يحمله المُحْدِثُ بعِلاقَتِه[٣]؛ تعظيمًا له.

فإذا جاء متحذلقٌ[٤] فقال: الكلامُ صفةٌ قائمةٌ بذات المتكلم! فمعنى قولِهِ هٰذا أنْ ما ها هنا شيءٌ يُحْتَرَم! فهٰذا قد ضادَّ بما أتى به مقصودَ الشرع.

---

(١) وهٰذا صحيح ثابت عنه رضي الله عنه من غيرما وجه، وقد نقله جل من ترجم له رضي الله عنه أو تكلم في عقيدة أهل السنة.

(٢) رواه: البخاري (٥٦ ـ كتاب الجهاد، ١٢٩ ـ باب كراهية السفر بالمصاحف إلى أرض العدو، ٦ / ١٣٣ / ٢٩٩٠)، ومسلم (٣٣ ـ كتاب الإمارة، ٢٤ ـ باب النهي أن يسافر بالمصحف إلى أرض الكفار، ٣ / ١٤٩٠ / ١٨٦٩)؛ من حديث ابن عمر.

(٣) العِلاقة: ما يتعلق به الشيء؛ يعني: ولو أنه لم يمس المصحف مباشرة، بل حمله بواسطة عِلاقة. وهٰذا هو المشهور من مذهبه رضي الله عنه، وعليه الفتوى.

(٤) المقصود به هنا الأشاعرة؛ فهم أصحاب هٰذا القول وأضرابه.

وينبغي أن يُفْهَمَ أوضاعُ الشرع ومقاصدُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد مَنَعُوا من كشفِ ما قد قَنَّعَ الشرعُ؛ فنهى رسولُ الله ﷺ عن الكلام في القَدَر[١]، ونهى عن الاختلاف[٢]؛ لأن هٰذه الأشياءَ تَخْرُجُ إلى ما يؤذي؛ فإنَّ الباحثَ عن القدر إذا بلغ فهمُهُ إلى أن يقولَ: قضى وعاقب؛ تزلزلَ إيمانُه بالعدل، وإن قالَ: لم يُقَدِّرْ ولم يقضِ؛ تزلزلَ إيمانُه بالقُدرةِ والمُلْكِ؛ فكان الأولى تركَ الخوضِ في هٰذه الأشياءِ.

ولعلَّ قائلاً يقولُ: هٰذا منعٌ لنا عن الاطِّلاع على الحقائقِ وأمرٌ بالوقوفِ مع التقليدِ!

فأقول: لا؛ إنما أعلمكَ أنَّ المُرادَ منك الإيمانُ بالجمل، وما أمِرْتَ

---

(١) (صحيح). رواه: الطبراني (١٠ / ١٩٨ / ١٠٤٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤ / ١٠٨)؛ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١ / ٥٠): «رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد حسن». وتبعه على ذٰلك الحافظ العسقلاني في «فتح الباري» (١١ / ٤٧٧). وقال الهيثمي في «المجمع» (٧ / ٢٠٢): «رواه الطبراني، وفيه مسهر بن عبد الملك؛ وثقه ابن حبان وغيره وفيه خلاف، وبقية رجاله رجال الصحيح».

لٰكن له طريق أخرى ضعيفة عن ابن مسعود رواها اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» وابن عساكر في «التاريخ».

وله شاهد صحيح مرسل رواه عبد الرزاق في «أماليه» (٢/٣٩/١) عن طاووس.

والحديث صحيح بمجموع طرقه وشواهده. وانظر: «الصحيحة» (١/٧٥/٣٤).

(٢) رواه البخاري (٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن، ٣٧ ـ باب اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، ٩ / ١٠١ / ٥٠٦٢) عن ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال: «لاتختلفوا؛ فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا».

بالتَّنْقيرِ لمعرفةِ الكُنْه، مع أن قُوى فهمِك تعجِزُ عن إدراكِ الحقائقِ.

فإنَّ الخليلَ عليه الصلاةُ والسلامُ قال: أرِني كيف تحيي. فأراه ميتًا حَيِيَ، ولم يُرِهِ كيف أحياه؛ لأن قُواه تعجِزُ عن إدراك ذٰلك.

وقد كان النبي ﷺ ـ وهو الذي بُعِثَ لِيُبَيِّنَ للناس ما نُزِّلَ إليهم ـ يَقْنَعُ من الناس بنفس الإقرارِ واعتقادِ الجُمل.

وكذٰلك كانتِ الصحابةُ، فما نُقِلَ عنهُم أنهم تكلَّموا في تلاوةٍ ومتلوٍّ، وقراءةٍ ومقروءٍ، ولا أنهم قالوا: استوى بمعنى استولى! وينزلُ بمعنى يرحم! بل قَنَعوا بإثبات الجمل التي تُثْبِتُ التَّعْظيمَ عند النفوس، وكفُّوا كفَّ الخيال بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١][1].

ثم هٰذا منكرٌ ونكيرٌ؛ إنما يسألانِ عن الأصول المُجْمَلَةِ، فيقولانِ: من ربُّك؟ وما دينُك؟ ومن نبيُّك؟

ومن فهم هٰذا الفصلَ؛ سَلِمَ من تشبيهِ المُجَسِّمةِ، وتعطيلِ المُعَطِّلةِ، ووَقَفَ على جادَّةِ السلفِ الأول[2]. والله الموفق.

---

(١) فلا وسَّع الله على من لم يسعه ما وسع النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

(٢) والمتأمل في هٰذا الفصل سيجد فيه واحدة أخرى من صور تناقض ابن الجوزي رحمه الله في مسألة الأسماء والصفات؛ فهو يقترب من مذهب السلف تارة حتى يكاد يحققه، ثم يعود فينقض ما بنى ويتبع زبالات الأذهان وبنيات الطريق!!

١ ـ فهو يقرر في أول الفصل طريقة الكتاب والسنة في إثبات الصفات ويصف المنزهين ـ زعموا ـ بأنهم مقاومون لإثبات الأنبياء.

٢ ـ ثم يسرد بعض آيات الصفات وأحاديثها وكأنه مؤمن بحقيقتها مثبت لها.

٣ ـ ثم يعود فيفرق بين العالم والعامي، فيقبل من الأخير مذهب السلف من الإثبات =

٦٢ ـ فصل

[في كيفية أخذه تعالى للأسماع والأبصار]

قرأت هٰذه الآية: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وأَبْصارَكُمْ وخَتَمَ على قُلوبِكُمْ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتيكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦]، فلاحت لي فيها إشارةٌ كِدْتُ أطيشُ منها، وذٰلك أنه:

إنْ كان عنى بالآية نفسَ السمعِ والبصرِ؛ فإن السمعَ آلةٌ لإدراكِ المسموعاتِ، والبصرَ آلةٌ لإدراكِ المبصَراتِ؛ فهما يَعْرِضانِ ذٰلك على القلبِ، فيتدبَّرُ ويعتبرُ؛ فإذا عُرِضَتِ المخلوقاتُ على السمعِ والبصرِ؛ أوصلا إلى القلبِ أخبارَها؛ من أنها تَدُلُّ على الخالقِ، وتحمِلُ على طاعةِ الصانعِ، وتحذِّرُ من بطشِهِ عند مخالفتِهِ.

وإنْ عنى معنى السمعِ والبصرِ؛ فذٰلك يكون بذُهولِهما عن حقائقِ ما أدركا شُغْلًا بالهوى، فيعاقَبُ الإنسانُ بِسَلْبِ معاني تلك الآلاتِ، فيرى وكأنَّهُ ما رأى، ويسمعُ وكأنَّه ما سَمِعَ، والقلبُ ذاهلٌ عما يتأذَّى به؛ لا يدري

= مع محو الخيال والتشبيه، ويطلب من العالم التأويل. وهٰذا مذهب لا يرضاه أهل السنة ولا الأشاعرة.

٤ ـ ثم يعود فيثبت، ويذم الأشاعرة ويصفهم بالمتحذلقين، ويقترب من جديد من عقيدة أهل السنة، فيدعو إلى الإيمان المجمل بالصفات وترك التنقير عن الكنه. والإيمان المجمل هو إثبات معنى الصفة حقيقة، وترك الكنه هو السكوت عن الكيف. وهٰذه عقيدة السلف رضي الله عنهم.

وقد تبع ابن الجوزي في هٰذا الفصل تمامًا كلام أبي الوفاء بن عقيل. وانظر: «سير أعلام النبلاء» (١٩ / ٤٤٨). وراجع أيضًا ما قدمناه في ترجمة ابن الجوزي عن عقيدته.

ما يُراد به، لا يؤثِّر عنده أنه يبلى، ولا تنفعه موعظة تُجْلى، ولا يدري أينَ هو، ولا ما المرادُ منه، ولا إلى أين يُحْمَلُ، وإنما يلاحِظُ بالطَّبْعِ مصالحَ عاجلتِهِ، ولا يتفكَّرُ في خُسرانِ آجلته، لا يعتبرُ برفيقِهِ، ولا يتَّعظ بصديقِهِ، ولا يتزوَّدُ لطريقِهِ؛ كما قال الشاعرُ:

النـاسُ في غَفْلَةٍ والمَوْتُ يوقِظُهُمْ ... ومـا يُفيقـونَ حَتَّى يَنْفَـدَ العُمُـرُ
يُشَيِّعـونَ أهـالِيْهِـمْ بِجَـمْعِهِـمُ ... ويَنْـظُرونَ إلـى ما فيهِ قدْ قُبِـروا
ويَرْجِـعـونَ إلى أحْـلامِ غَفْلَتِهِمْ ... كأنَّـهُـم ما رَأوْا شَيْئًـا ولا نَظَروا

وهٰذه حالةُ أكثرِ الناس؛ فنعوذُ بالله من سَلْبِ فوائدِ الآلاتِ؛ فإنها أقبحُ الحالاتِ.

٦٣ ـ فـصـل
[في أن العشق داء الجامدين الواقفين]

نظرتُ فيما تكلَّمَ به الحكماءُ في العشقِ وأسبابِهِ وأدويتِهِ، وصنَّفْتُ في ذٰلك كتابًا سميتُه بـ «ذمِّ الهوى»، وذكرتُ فيه عن الحكماءِ أنَّهم قالوا: سببُ العشق حركةُ نفسٍ فارغةٍ، وأنَّهُم اختلفوا: فقال قومٌ منهم: لا يعرِضُ العشقُ إلَّا لِظِرافِ الناس. وقال آخرونَ: بل لأهلِ الغفلةِ منهم عن تأمُّلِ الحقائِقِ.

إلَّا أنه خَطَرَ لي بعد ذٰلك معنى عجيبٌ أشرحُهُ ها هنا، وهو أنه لا يتمكَّنُ العشقُ إلَّا مع واقفٍ جامدٍ، فأما أربابُ صعود الهِمم؛ فإنها كلَّما تَخَـايَلَتْ ما توجِبُـهُ المحبـةُ، فلاحتْ عيوبُـهُ لهـا ـ إمـا بالفِكْـرِ فيه أو بالمخالطةِ ـ؛ تسلَّتْ أنفسُهُم وتَعَلَّقَتْ بمطلوبٍ آخرَ.

فلا يقفُ على درجـةِ العشقِ، المـوجبِ للتمسُّكِ بتلك الصورةِ، العامِيْ عن عيوبِها؛ إلَّا جامدٌ واقفٌ.

وأما أربابُ الأَنَفَةِ من النقائص؛ فإنهم أبدًا في الترقِّي، لا يصدُّهم صادٌّ، فإذا عَلِقَتِ الطباعَ محبةُ شخصٍ؛ لم يبلُغوا مرتبةَ العِشْق المستأثِر، بل ربما مالوا ميلًا شديدًا؛ إما في البداية لقلةِ التفكُّرِ، أو لقلةِ المخالطةِ والاطـلاع على العيوبِ، وإما لتشبُّثٍ بعض الخلال الممدوحةِ بالنفوس من جهةِ مناسبةٍ وقعتْ بين الشخصين؛ كالظَّريفِ مع الظَّريفِ، والفَطِنِ مع الفَطِنِ، فيوجب ذٰلك المحبةَ؛ فأما العشقُ؛ فلا؛ فَهُمْ أبدًا في السَّيْرِ فلا يُوقَفُ، وإبـلُ الـطَّبْـع تتبعُ حادِيَ الفهم؛ فإنَّ للطَّبْع متعلَّقًا لا تجدهُ في الدُّنيا؛ لأنه يرومُ ما لا يصحُّ وجودُه من الكمال في الأشخاصِ؛ فإذا تَلَمَّحَ عيوبَها؛ نَفَرَ.

وأمـا متعلَّقُ القلوبِ من محبـةِ الخالق البارىء؛ فهو مانعٌ لها من الـوقوفِ مع سواه، وإن كانتْ محبته لا تجانِسُ محبةَ المخلوقينَ؛ غير أنَّ أربابَ المعرفةِ وَلْهى[1]، قد شَغَلَهُم حبُّه عن حبِّ غيره، وصارت الطباعُ مستغرقةً لقوَّةِ معرفة القلوب ومحبَّتها.

كما قالتْ رابعةُ:

أُحِبُّ حَبِيبًـا لا أُعـابُ بِحُبِّـهِ وأحْـبَـبْـتُـمُ[2] مَنْ في هواه عيوبُ

ولقد روي عن بعض فقراءِ الزُّهادِ: أنه مَرَّ بامرأةٍ، فأعجبتْهُ، فخَطَبَها

---

(١) الوَلَه: مرتبة مترقية من مراتب الحب يستلب فيها عقل العاشق الولهان.

(٢) في الأصول: «وأحببتهم»! وقد تقدمت ترجمة رابعة في (فصل ١٩).

إلى أبيها، فَزَوَّجَهُ، وجاء به إلى المنزلِ، وألبسَه غير خَلْقانِه، فلما جَنَّ الليلُ؛ صاح الفقيرُ: ثيابي! ثيابي! فَقَدْتُ ما كُنْتُ أَجِدُهْ!

فهٰذه عَثْرَةٌ في طريق هٰذا الفقير دَلَّتْهُ على أنه منحرفٌ عن الجادَّةِ.

وإنما تَعْتَرِي هٰذه الحالاتُ أربابَ المعرفةِ بالله عزَّ وجلَّ وأهلَ الأَنَفَةِ من الرذائل.

وقد قال ابنُ مسعودٍ: إذا أَعْجَبَتْ أَحَدَكُمُ امرأَةٌ؛ فَلْيَتَذَكَّرْ مثانَتَها.

ومثالُ هٰذه الحال أنَّ العقلَ يغيبُ عند استحلاءِ تناولِ المشتهى من الطعام عن التفكيرِ في تَقَلُّبِهِ في الفم وبَلْعِهِ، ويَذْهَلُ عند الجماع عن ملاقاةِ القاذورات لقوَّةِ غَلَبَةِ الشهوة، وينسى عند بَلْعِ الرُّضابِ[1] استحالَتَهُ عن الغذاءِ وفي تغطيةِ تلك الأحوال مصالحُ.

إلَّا أنَّ أربابَ اليَقَظةِ يعتريهم هٰذا الإحساسُ من غير طلبٍ له في غالب أحوالهم، فينغِّصُ عليهم لذيذَ العيش، ويوجِبُ الأَنَفَةَ من رذالةِ الهوى.

وعلى قَدْرِ النظرِ في العواقبِ يَخِفُّ العشقُ عن قلب العاشقِ، وعلى قَدْرِ جُمودِ الذِّهْنِ يقوى القَلَقُ.

قال المتنبي:

لَوْ فَكَّرَ العاشِقُ في مُنْتَهى ... حُسْنِ الذي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ

ومجموعُ ما أردتُ شرحهُ: أنَّ طباعَ المتيقِّظينَ تَتَرَقَّى فلا تقفُ مع

---

(١) الرُّضاب: الريق، اللعاب.

شخصٍ مستحسَنٍ، وسببُ ترقِّيها التفكيرُ في نقصِ ذٰلك الشخصِ وعيوبِهِ أوْ في طَلَبِ ما هو أهمُّ منه، وقلوبُ العارفين تترقَّى إلى معروفها فَتَعْبُرُ في مَعْبَرِ الاعتبار، فأما أهلُ الغَفْلة؛ فجمودُهم في الحالتينِ، وغفلتُهم عن المقامينِ؛ يوجبُ أسْرَهُمْ وقَسْرَهم وحَيْرَتَهم.

٦٤ ـ فـصـل

[في أحسن الأبواب للدعاء المستجاب]

عرض لي أمرٌ يحتاجُ إلى سؤال الله عزَّ وجلَّ ودعائِهِ، فدعوتُ وسألتُ، فأخذَ بعضُ أهل الخير يدعو معي، فرأيتُ نوعًا من أثر الإجابةِ.

فقالت لي نفسي: هٰذا بسؤال ذٰلك العبدِ لا بسؤالكَ.

فقلتُ لها: أمَّا أنا؛ فإنِّي أعْرفُ من نفسي من الذُّنوب والتقصير ما يوجِبُ منعَ الجواب؛ غير أنه يجوزُ أن يكونَ أنا الذي أُجِبْتُ؛ لأن هٰذا الداعيَ الصالحَ سليمٌ مما أظنُّه من نفسي؛ لأنَّ مَعِيَ انكسارُ تقصيري، ومعه الفرحُ بمعاملتهِ، وربَّما كان الاعترافُ بالتقصيرِ أنجحَ في الحوائج؛ على أنني أنا وهو نطلُبُ من الفضل لا بأعمالِنا؛ فإذا وَقَفْتُ أنا على قدم الانكسارِ معترِفًا بذُنوبي، وقلتُ: أعطوني بفضلِكُم؛ فما لي في سؤالي شيءٌ أمنُّ به، وربما تلمَّحَ ذاك حُسْنَ عملِهِ وكان صادًّا له.

فلا تكسريني أيتها النفسُ؛ فيكفيني كَسْرُ علمي بي لي!

ومعي من العلم الموجب للأدبِ والاعترافِ بالتقصير وشدةِ الفَقْرِ إلى ما سألتُ ويقيني بِفَضْلِ المطلوبِ عنه ما ليس مع ذٰلك العابدِ؛ فباركَ الله في عبادتِهِ؛ فربَّما كان اعترافي بتقصيري أوفى.

٦٥ ـ فصل
[التفكر في آلاء الله وآياته من أعظم القرب]

قرأتُ من غرائبِ العِلْمِ وعجائبِ الحِكَم على بعضِ مَنْ يدَّعي العلم، فرأيتُه يَتَلوَّى من سماع ذٰلك، ولا يَطَّلعُ على غَوْره، ولا يَشْرَئبُّ(١) إلى ما يأتي، فَصَدَفْتُ عن إسماعِهِ شيئًا آخر، وقلتُ: إنما يَصْلُحُ مثلُ هٰذا لذي لُبٍّ يتلقَّاه تلقيَ العطشانِ الماءَ.

ثم أخذتُ من هٰذه إشارةً، هي أنه لو كان هٰذا يفهمُ ما جرى، ومَدَحني لِحُسْنِ ما صَنَعْتُ؛ لَعَظُم قدْرُه عندي، ولأريتُه محاسنَ مجموعاتي وكلامي، ولٰكنه لما لم أره لها أهلاً؛ صرفتُها عنه، وصَدَفْتُ بنظري إليه.

وكانت الإشارةُ: أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد صَنَّفَ هٰذه المخلوقاتِ فأحسنَ التركيبَ وأحكمَ الترتيبَ، ثم عرضَها على الألبابِ؛ فأيُّ لُبٍّ أوغل في النظرِ؛ مُدِحَ على قَدْرِ فهمِه، فأَحَبَّهُ المصنِّفُ.

وكذٰلك أنزلَ القرآنَ يحتوي على عجائبِ الحِكَم؛ فَمَنْ فَتَّشَهُ بيدِ الفهم وحَادَثَه في خَلْوةِ الفكرِ؛ استجلبَ رضى المتكلِّم به وحَظِيَ بالزُّلفى(٢) لديه، ومَنْ كانَ ذهنُه مُسْتَغْرِقَ الفهم بالحِسِّيَّات؛ صُرِفَ عن ذٰلك المقام.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿سأَصْرِفُ عن آياتيَ الَّذينَ يَتَكَبَّرونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

---

(١) لا يشرئب: لا يتطلع ويتشوق لما يأتي.
(٢) الزُّلفى: القرب والمنزلة.

٦٦ ـ فصل

[خير الناس من طال عمره وحسن عمله]

دعوتُ يومًا فقلتُ: اللهم! بَلِّغْني آمالي من العلم والعمل، وأطِلْ عُمُري لأبْلُغَ ما أحِبُّ من ذٰلك.

فعارضَني وَسْوَاسٌ من إبليسَ، فقالَ: ثم ماذا؟ أليسَ الموتُ؟ فما الذي ينفعُ طولُ الحياةِ؟!

فقلت له: يا أبلهُ! لو فَهِمْتَ ما تحتَ سؤالي؛ علمتَ أنه ليس بِعَبَثٍ. أليس في كلِّ يوم يزيدُ علمي ومعرفتي، فتكثُرُ ثِمارُ غَرْسي، فأُشْكَرَ يوم حصادي؟! أفيسرُّني أنني متُّ منذ عشرينَ سنةً؟! لا والله؛ لأني ما كنتُ أعرفُ الله تعالى عُشْرَ معرفتي به اليوم. وكلُّ ذٰلك ثمرةُ الحياةِ؛ التي فيها اجْتَنَيْتُ أدلةَ الوحدانيةِ، وارتقيتُ عن حَضيض التقليدِ إلى يَفَاع[1] البَصيرةِ، واطَّلَعْتُ على علومٍ زَادَ بها قَدْرِي وَتَجَوْهَرَتْ بها نفسي، ثم زاد غَرْسي لآخرتي، وقويتْ تِجارتي في إنقاذ المُباضِعينَ من المتعلِّمينَ[2].

وقد قال الله لسيدِ المرسلين: ﴿وقُلْ رَبِّ زِدْني عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ: أنه قال: «لا يزيدُ المؤمنَ عُمُرُهُ إلَّا خيرًا»[3].

---

(١) الحضيض: القرار من الأرض، على عكس اليفاع الذي هو ما ارتفع منها.

(٢) المباضعون من المتعلمين: الشركاء والمخالطون.

(٣) في (٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، ٤ ـ باب كراهة تمني الموت لضر نزل به، ٤ / ٢٠٦٥ / ٢٦٨٢).

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ مِنَ السَّعادةِ أنْ يَطولَ عُمُر العبدِ وَيرْزُقَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ الإنابةَ»[1].

فيا ليتني قَدَرْتُ على عُمُر نوحٍ؛ فإنَّ العلمَ كثيرٌ، وكلَّما حَصَلَ منه حاصلٌ؛ رَفَعَ وَنَفَعَ.

٦٧ ـ فصل

[التعلق بالمسبب لا بالأسباب]

قلوبُ العارفين يُغار عليها من الأسباب، وإن كانتْ لا تساكِنُها؛ لأنَّها لَمَّا انْفَرَدَتْ لمعرِفتها؛ انْفَرَدَ لَها بِتَوَلِّي أمورِها؛ فإذا تعرَّضَتْ بالأسبابِ؛ مَحا أثر الأسباب.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥].

وتأمَّلْ في حال يعقوبَ وحَذَرِهِ على يوسفَ عليهما السلام، حتى قال: ﴿وأخافُ أنْ يَأكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣]، فقالوا: ﴿فأكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧]، فلما جاءَ أوانُ الفَرَجِ؛ خرجَ يهوذا بالقميصِ،

(١) (ضعيف). رواه: أحمد (٣ / ٣٣٢)، والحاكم (٤ / ٢٤٠)؛ من طريق كثير بن زيد، ثنا الحارث بن أبي يزيد؛ قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول... فذكره مرفوعًا.

وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ٢٠٦): «رواه أحمد والبزار، وإسناده حسن»، وليس كذلك؛ ففيه كثير بن زيد: قال الحافظ في «التقريب»: «صدوق يخطىء». وقد اضطرب فيه: فرواه مرة عن الوليد بن رباح عن أبي هريرة، ومرة عن الحارث بن يزيد عن جابر، ولذا أعله الذهبي في «الميزان» (٣ / ٤٠٤)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٠٠٦).

فَسَبَقَهُ الريحُ : ﴿إنِّي لأجِدُ ريحَ يوسُفَ﴾ [يوسف : ٩٤].

وكـذلـك قولُ يوسُفَ عليه السلامُ للساقي : ﴿اذْكُرْني عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف : ٤٢]، فعوقِبَ بأن لَبِثَ سبعَ سنين، وإن كان يوسُفُ عليه السلامُ يعلمُ أنه لا خَلاصَ إلَّا بإذنِ الله، وأنَّ التَّعَرُّضَ بالأسبابِ مشروعٌ؛ غير أنَّ الغَيْرَةَ أثَّرتْ في العقوبةِ[1].

ومن هذه قصةُ مريم عليها السلام : ﴿وكَفَّلَها زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران : ٣٧]، فغـار المسبِّب من مسـاكنـةِ الأسبـابِ : ﴿كُلَّمـا دَخَلَ عليها زَكَرِيَّا المِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقًا﴾ [آل عمران : ٣٧].

ومن هذا القبيل ما يُروى عن النبي ﷺ : أنه قال : «أبى الله أن يَرْزُقَ عَبْدَهُ المؤمنَ إلَّا مِنْ حَيْثُ لا يحتسبُ»[2].

---

(١) هذا الكلام صدى لحديث منكر ضعيف جدًّا رواه : ابن جرير (٧ / ٢٢١ / ١٩٣٢٢)، والطبراني (١١ / ١٩٩ / ١١٦٤٠)؛ من حديث ابن عباس؛ قال : قال ﷺ : «لو لم يقل يوسف الكلمة التي قال؛ ما لبث في السجن طول ما لبث». قال الهيثمي (٧ / ٤٢) : «فيه إبراهيم بن يزيد القرشي المكي وهو متروك». وضعفه جدًّا الحافظ ابن كثير في «التفسير».

وله شاهد من حديث أبي هريرة عند ابن حبان (١٤ / ٨٦ / ٦٢٠٦)، واستنكره الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» والألباني في «الصحيحة» (٤ / ٤٨٤ / ١٨٦٧).

ورواه ابن جرير مرسلاً عن الحسن وقتادة. وردهما الحافظ ابن كثير.

(٢) (منكر). رواه : القضاعي في «الشهاب» (١ / ٣٤١ / ٥٨٥)؛ من طريق أحمد بن طاهر بن حرملة، نا جدي، عن عمر بن راشد المدني، ثني مالك، عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده . . . فذكره مرفوعًا ضمن حديث طويل.

وأحمـد بن طاهـر : كذاب، وعمـر بن راشـد المـدني : منكر الحديث؛ كما في ترجمتهما في «الميزان»، وقال : «وأتى بحديث منكر متنه» . . . ثم ذكره.

=

والأسبابُ طريقٌ، ولا بدَّ من سلوكِها، والعارفُ لا يساكِنُها؛ غيرَ أنه يُجَلَّى له من أمرِها ما لا يُجَلَّى لغيرِهِ من أنها لا تساكَنُ، وربما عُوقِبَ إن مالَ إليها، وإنْ كان مَيْلًا لا يقبلُهُ؛ غير أنَّ أقلَّ الهَفَواتِ يوجبُ الأدبَ.

وتأمَّلْ عقبى سليمان عليه السلام لما قال: «لأطوفَنَّ الليلةَ على مئةِ امرأةٍ، تَلِدُ كلُّ واحدةٍ منهنَّ غلامًا، ولم يقلْ: إن شاءَ اللهُ! فما حَمَلَتْ إلَّا واحدةٌ، جاءتْ بِشِقِّ غُلام»[1].

ولقد طَرَقَتْني حالةٌ أوجبتِ التَّشَبُّثَ ببعضِ الأسبابِ؛ إلَّا أنه كان من ضرورةِ ذٰلك لقاءُ بعضِ الظَّلَمَة ومداراتُهُ بكلمةٍ، فبينما أنا أفكِّرُ في تلك الحال؛ دَخَلَ عليَّ قارىءٌ، فاستفتحَ، فتفاءلتُ بما يقرأ، فقرأ: ﴿ولا تَرْكَنوا إلى الَّذين ظَلَموا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وما لَكُمْ مِن دونِ اللهِ مِنْ أولياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرونَ﴾ [هود: ١١٣]، فَبُهِتُّ من إجابتي على خاطري، وقلت لنفسي: اسمعي! فإنني طلبتُ النَّصْرَ في هٰذه المداراةِ، فأعلمني القرآنُ أنني إذا ركنتُ إلى ظالم؛ فاتني ما رَكَنْتُ لأجلهِ من النصرِ.

فيا طوبى لمن عرفَ المسبِّبَ وتَعَلَّقَ به؛ فإنها الغايةُ القُصوى، فنسألُ الله أنْ يَرْزُقَنا.

= ورواه ابن عبد البر في «التمهيد» (٢١ / ٢٠)؛ من طريق أحمد بن داوود الحراني، ثنا أبو مصعب، ثنا مالك. . . به، وقال: «غريب من حديث مالك، وهو حديث حسن، ولٰكنه منكر عندهم عن مالك، ولا يصح عنه، ولا له أصل في حديثه».

ورواه أيضًا من حديث علي بسند ضعفه الحافظ في «اللسان» (١ / ١٧٩).

وبالجملة؛ فالحديث واهٍ جدًا، وقد استنكره ابن عبد البر والذهبي وابن حجر والألباني في «الضعيفة» (٣ / ٦٨٢ / ١٤٩٠).

(١) تقدم تخريجه في (فصل ٢٨).

٦٨ ـ فصل
[المؤمن بين الذنب والتوبة]

المؤمنُ لا يُبالغُ في الذُّنوبِ، وإنما يَقْوَى الهوى وتتوقَّدُ نيرانُ الشهوةِ، فَيَنْحَدِرُ؛ وله مرادٌ لا يعزِمُ المؤمنُ على مواقعتهِ، ولا على العَوْدِ بعد فراغهِ، ولا يستقصي في الانتقام إن غَضِبَ، وينوي التوبةَ قبل الزَّلل.

وتأمَّلْ إخوةَ يوسفَ عليهم السلامُ؛ فإنَّهم عَزَموا على التوبةِ قبلَ إبعادِ يوسفَ، فقالوا: ﴿اقْتُلُوا يوسُفَ﴾، ثم زادَ ذٰلك تعظيمًا فقالوا: ﴿أوِ اطْرَحوهُ أرْضًا﴾، ثم عزموا على الإنابةِ فقالوا: ﴿وتكونوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صالِحينَ﴾، فلمَّا خَرَجوا به إلى الصَّحراءِ؛ هَمُّوا بقتلهِ بمقتضى ما في القلوب من الحسدِ، فقال كبيرُهم: ﴿لا تَقْتُلوا يوسُفَ وألْقوهُ في غَيابَةِ الجُبِّ﴾ [يوسف: ٩ ـ ١٠]، ولم يُرِدْ أن يموتَ، بل يلتقطُه بعضُ السَّيَّارةِ، فأجابوا إلى ذٰلك.

والسَّبَبُ في هٰذه الأحوال أن الإيمان [إنما يقمعُ النُّفوس] على حسب قوتهِ؛ فتارةً يَرُدُّها عند الهمِّ، وتارةً يَضْعُفُ فيرُدُّها عند العزمِ، وتارةً عن بعضِ الفعل، فإذا غلبتِ الغفلةُ، وواقَعَ الذَّنْبَ؛ فَتَرَ الطبعُ، فنهض الإيمانُ للعملِ، فيُنَغِّصُ بالندم أضعافَ ما الْتَذَّ.

٦٩ ـ فصل
[في أن العُجْبَ يحبس العالم عن إدراك الصواب]

أفضلُ الأشياء التَّزَيُّد من العلم.

مَن اقتصر على ما يَعْلَمُهُ، فَظَنَّهُ كافيًا؛ استبدَّ برأيهِ، وصار تعظيمُه

لنفسِهِ مانعًا له من الاستفادةِ، والمذاكرةُ تُبَيِّنُ له خطأه، وربما كان معظَّمًا في النفوس فلم يُتَجاسَرْ على الردِّ عليه، ولو أنه أظْهَرَ الاستفادةَ؛ لأهْدِيَتْ إليه مساويهِ، فعادَ عنها.

ولقد حكى ابنُ عَقيلٍ[1] عن أبي المعالي الجُوَيْنيِّ[2]: أنه قال: إن الله تعالى يعلم جُمَلَ الأشياءِ ولا يَعْلَمُ التفاصيلَ[3]!

ولا أدري أيَّ شُبْهةٍ وقعتْ في وجهِ هٰذا المسكينِ حتى قال هٰذا!

وكذٰلك أبو حامدٍ[4] حين قال: النزولُ التنقلُ، والاستواءُ مماسةٌ[5].

وكيف أصفُ هٰذا بالفقهِ، أو هٰذا بالزُّهدِ، وهو لا يدري ما يجوزُ على

---

(١) تقدمت ترجمته في (فصل ٣١).

(٢) إمام الحرمين، شيخ الشافعية، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، صاحب التصانيف، المولود سنة ٤١٩هـ، والمتوفى سنة ٤٧٨هـ. انظر ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٣ / ١٦٧)، و«سير أعلام النبلاء» (١٨ / ٤٦٨).

(٣) لعله قاله في معرض الرد لا في معرض الإقرار والإثبات، وما نظنه يصح عنه ذٰلك، وإن كنا على يقين من وقوع تناقضات عظيمة عند جميع المتكلمة دون استثناء، وأنهم يقعون في مطبات وطوام يعجب صغار طلاب العلم من صدورها عن مثلهم.

(٤) الشيخ، الإمام، البحر، صاحب التصانيف والذكاء المفرط، محمد بن محمد الغزالي، المولود سنة ٤٥٠هـ، والمتوفى سنة ٥٠٥هـ. انظر ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٤ / ٢١٦)، و«سير أعلام النبلاء» (١٩ / ٣٢٢).

(٥) أبو حامد الغزالي من الأشاعرة، وهم مؤولون في مسألة الصفات، فلعله ذكر هٰذا القول في معرض الرد على أهل السنة المثبتين للصفات؛ من باب التهويل والنكير عليهم، ولا يلزمهم ذٰلك؛ لأنهم يثبتون جميع ما أثبته الكتاب والسنة من الصفات على الحقيقة دون تأويل ولا تشبيه بصفات المخلوقات وإنما على ما يليق بالله سبحانه وتعالى عما يقوله المعطلة والمجسمة.

الله مما لا يجوز؟! ولو أنه ترك تعظيمَ نفسهِ؛ لَرَدَّ صِبْيانُ الكُتَّابِ رأيَهُ عليه، فبان له صدقُهم.

ومن هٰذا الفنِّ أبو بكرِ بنُ مِقْسَمٍ[1]؛ فإنه عمل كتاب «الاحتجاج» للقرَّاء، فأتى فيه بفوائدَ؛ إلَّا أنه أفسَدَ علمَهُ بإجازتِهِ أنْ يُقرَأَ بما لم يُقرَأْ به، ثم تفاقم ذٰلك منه حتى أجازَ ما يُفْسِدُ المعنى؛ مثلَ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسوا منه خَلَصوا﴾ [يوسف: ٨٠]، فقال: يَصْلُحُ أن يُقالَ هنا: ﴿نَجِيًّا﴾؛ أي: خَلَصوا كرامًا برآءَ من السرقةِ.

وهٰذا سُوءُ فَهْمٍ للقصةِ؛ فإن الذي نُسِبَ إلى السَّرقةِ فظهرتْ معه ما خَلَصَ؛ فما الذي ينفع خلاصُهم؟! وإنما سيقتِ القصةُ لِيُبَيِّنَ أنهم انفردوا وتشاوروا فيما يَصْنَعونَ، وكيف يرجِعونَ إلى أبيهم وقدِ احتبسَ أخوهم؛ فأيُّ وجهٍ للنجاةِ ها هنا؟!

ومَن تأمَّلَ كتابه؛ رأى فيه من هٰذا الجنس ما يزيدُ على الإحصاءِ من هٰذا الفنِّ القبيحِ، ولو أنه أصغى إلى علماءِ وقتِه، وترك تعظيمَ نفسِهِ؛ لَبانَ له الصوابُ.

غير أنَّ اقتصارَ الرجل على علمِهِ إذا مازَجَهُ نوعُ رؤيةٍ للنفسِ؛ حَبَسَ عن إدراكِ الصوابِ. نعوذُ بالله من ذٰلك.

---

(١) هو العلامة، المقرىء، محمد بن الحسن، البغدادي، العطار، شيخ القراء، المولود سنة ٢٦٥هـ، والمتوفى سنة ٣٥٤هـ، قال الخطيب: طعن عليه بأنه عمد إلى حروف تخالف الإجماع فأقرأ بها. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٢ / ٢٠٦ ـ ٢٠٨)، و«سير أعلام النبلاء» (١٦ / ١٠٥).

٧٠ ـ فصل

[في أن التوفيق للطاعات نعمة تحتاج إلى شكر]

تأمَّلْتُ قولَه عزَّ وجلَّ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَموا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُم أَنْ هداكُمْ للإِيمانِ﴾ [الحجرات: ١٧]، فرأيتُ فيه معنى عجيبًا:

وهو أنهم لما وُهِبَتْ لهمُ العُقولُ، فتدبَّروا بها عَيْبَ الأصنام، وعلموا أنها لا تَصْلُحُ للعبادةِ، فَوَجَّهُوا العبادةَ إلى مَنْ فَطَرَ الأشياءَ؛ كانتْ هٰذه المعرفةُ ثمرةَ العقلِ الموهوبِ الذي به بايَنوا البهائم؛ فإذا آمنوا بِفِعْلِهِم الذي نَدَبَ إليه العقلُ الموهوبُ؛ فقد جَهلوا قَدْر المَوْهوب، وغَفَلوا عمَّن وَهَبَ. وأي شيءٍ لهم في الثمرةِ والشجرةُ ليست مُلْكًا لهم؟!

فعلى هٰذا؛ كلُّ متعبِّدٍ ومجتهدٍ في علم وعمل إنما رأى بنور اليَقَظَة وقُوَّةِ الفهم والعقلِ صوابًا، فوقع على المطلوبِ؛ فينبغي أن يوجِّهَ الشُّكْرَ إلى مَن بَعَثَ له في ظلام الطبع القَبَس.

ومن هٰذا الفنِّ حديثُ الثلاثةِ الذين دخلوا الغارَ، فانْحَطَّتْ عليهم صخرةٌ، فَسَدَّتْ بابَ الغار، فقالوا: تعالَوْا نَتَوَسَّلْ بصالح أعمالِنا! فقالَ كلٌّ منهم: فعلتُ كذا وكذا[١].

(١) حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار مشهور: رواه: البخاري (٣٤ ـ كتاب البيوع، ٩٨ ـ باب إذا اشترى شيئًا لغيره بغير إذنه فرضي، ٤ / ٤٠٨ / ٢٢١٥)، ومسلم (٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، ٢٧ ـ باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، ٤ / ٢٠٩٩ / ٢٧٤٣)؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وهٰؤلاء: إن كانوا لاحظوا نعمةَ الواهبِ للعصمةِ عن الخطإ، فتوسَّلوا بإنعامهِ عليهم الذي أوجبَ تخصيصَهم بتلك النعمةِ عن أبناءِ جنسِهم؛ فبهِ توسَّلوا إليه. وإن كانوا لاحظوا أفعالَهم، فلَمَحوا جزاءَها، ظنًّا منهم أنهم هم الذين فعلوا؛ فَهُمْ أهلُ غَيْبَةٍ لا حُضورٍ، ويكون جوابُ مسألتِهم لِقَطْعِ مِنَنِهم الدائمةِ[1].

ومثلُ هٰذه رؤيةُ المتَّقي تقواه، حتى إنه يرى أنه أفضلُ من كثيرٍ من الخَلْقِ، وربما احْتَقَرَ أهلَ المعاصي وشَمَخَ عليهم! وهٰذه غفلةٌ عن طريقِ السُّلوكِ، وربما أخرجتْ.

ولا أقولُ لك: خالطِ الفُسَّاق احتقارًا لنفسكَ! بل اغضبْ عليهم في الباطنِ، وأعْرِضْ عنهم في الظَّاهرِ، ثم تَلَمَّحْ جَرَيانَ الأقدارِ عليهم!

فأكثرُهم لا يعرفُ مَن عصى! وجمهورُهم لا يقصِدُ العصيانَ، بل يريد موافَقَةَ هواه، وعزيزٌ عليه أن يَعْصِيَ! وفيهم من غلب عليه تلمُّحُ العفوِ والحِلْم، فاحْتَقَرَ ما يأتي؛ لقوَّةِ يقينه بالعفو! وهٰذه كلُّها ليستْ بأعذارٍ لهم.

ولٰكنْ؛ تلمَّحْه أنت يا صاحبَ التقوى! واعلمْ أنَّ الحجةَ عليك أوْفى من الحجةِ عليهم؛ لأنك تعرِفُ مَنْ تَعْصي وتعلمُ ما تأتي، بل انظرْ إلى تقليبِ القلوبِ بين إصبعينِ[2]؛ فربَّما دارتِ الدائرةُ فَصِرْتَ المنقطعَ ووُصِل المقطوعُ.

---

(١) رحم الله ابن الجوزي؛ سيتوسل هو بصالح عمله في (فصل ١٦٠)، ثم سيعود لهٰذا الكلام في (فصل ٢٨٨)، وقد طولنا في رد قوله هناك ونقل كلام أهل العلم في ذٰلك؛ فلينظره من شاء.

(٢) تقدم الكلام على هٰذا الحديث في (فصل ٦١).

فالعجبُ ممَّنْ يُدِلُّ[1] بخيرِ عَمِلَهُ وينسى مَنْ أنعمَ ووفَّق.

٧١ ـ فصل

[في توحيد الأسماء والصفات]

اعلمْ أنَّ شرعَنا مضبوطُ الأصول، محروسُ القواعدِ، لا خَلَلَ فيه ولا دَخَلَ، وكذٰلك كلُّ الشرائع، إنما الآفةُ تدخُلُ من المبتدعين في الدِّينِ أو الجُهَّال.

مثلُ ما أُثِرَ عند النصارى حين رأوا إحياءَ الموتى على يدِ عيسى عليه السلام، فتأمَّلوا الفعلَ الخارقَ للعادةِ الذي لا يَصْلُحُ للبشر، فنَسَبوا الفاعلَ إلى الإلٰهيةِ[2]، ولو تأمَّلوا ذاتَه[3]؛ لعلِموا أنها مركَّبةٌ على النقائص والحاجاتِ، وهٰذا القَدْرُ يكفي في عدم صلاح إلٰهيَّتِهِ، فيُعْلَم حينئذٍ أنَّ ما جَرى على يديه فِعْلُ غيرِه.

وقد يُؤَثِّرُ ذٰلك في الفروع؛ مثلُ ما رُوِي أنه فُرِض على النصارى صومُ شهرٍ، فزادوا عشرينَ يومًا، ثم جعلوهُ في فصلٍ من السنة بآرائهم[4].

---

(١) يتدلل به ويعجب به ويرى لنفسه في ذٰلك فضلاً.

(٢) ليس هٰذا موضع ضلال النصارى، بل هو شبهة خلق المسيح عليه السلام من غير أب، ولذٰلك قال الله تعالى بعد أن ذكر قصته عليه السلام: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ [آل عمران: ٥٩]؛ يعني: أنه خلقه من غير أم وأبٍ أصلاً، وهٰذا أعجب من خلق عيسى عليه السلام من غير أب فحسب.

(٣) يعني: ذات المسيح عليه السلام.

(٤) رواه ابن جرير (٢/١٣٤/٢٧٢٧ و٢٧٢٨) موقوفًا على الشعبي والسدي.

ورواه: الطبراني من حديث دغفل بن حنظلة موقوفًا ومرفوعًا. قال الهيثمي في =

ومن هٰذا الجنس تخبيطُ اليهودِ في الأصول والفروع.

وقد قاربَ الضَّلال في أمتنا هٰذه المسالكَ، وإن كان عمومُهم قد حُفِظَ من الشِّرْكِ والشكِّ والخلافِ الظاهرِ الشَّنيع؛ لأنَّهم أعقلُ الأمم وأفهمُها؛ غيرَ أن الشيطانَ قارَبَ بهم، ولم يطمعْ في إغراقِهم، وإن كان قد أغرقَ بعضَهم في بحارِ الضَّلال.

فمن ذٰلك أنَّ الرسول ﷺ جاء بكتابٍ عزيزٍ من الله عزَّ وجلَّ، قيل في صفته: ﴿ما فَرَّطْنا في الكِتابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وبَيَّنَ ما عساه يُشْكِلُ[1] مما يُحتاج إلى بيانِهِ بسُنَّتِهِ؛ كما قيل له: ﴿لِتُبَيِّنَ للنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فقال بعد البيان: «تركتُكُم على بيضاءَ نقيَّةٍ»[2].

فجاء أقوامٌ فلم يَقْنَعوا بِتَبْيِينِهِ، ولم يرضَوْا بطريقةِ أصحابِهِ، فَبَحثوا، ثم انقسموا:

= «المجمع» (٣ / ١٤٢): «رواه الطبراني في «الأوسط» مرفوعًا كما تراه، ورواه الطبراني في «الكبير» موقوفًا على دغفل، ورجال إسنادهما رجال الصحيح». ودغفل من المخضرمين، ولا تصح له صحبة؛ فهو مرسل. وانظر: «الدر» (١/ ٣٢٣/البقرة ١٨٣).

(١) يُشْكِل: يلتبس معناه.

(٢) (صحيح). وهو جزء من حديث العرباض بن سارية الطويل في اتباع السنة الذي رواه: ابن ماجه (المقدمة، ٦ ـ باب سنة الخلفاء الراشدين، ١ / ١٦ / ٤٣ و ٤٤)، وأبو داوود (٣٤ ـ كتاب السنة، ٥ ـ باب في لزوم السنة، ٢ / ٦١١ / ٤٦٠٧)، والترمذي (٤٢ ـ كتاب العلم، ١٦ ـ باب ما جاء في الأخذ بالسنن واجتناب البدع، ٥ / ٤٤ / ٢٦٧٦)، وغيرهم كثير.

وصححه جمع كبير من الحفاظ؛ منهم الترمذي وابن حبان والحاكم والبزار والذهبي وابن القيم والألباني. وانظر: «الصحيحة» (٢ / ١٦٠ / ٩٣٧).

فمنهم مَنْ تعرَّضَ لما تَعِبَ الشرعُ في إثباته في القلوب فمحاه منها؛ فإنَّ القرآن والحديث يُثْبتانِ الإلٰه عزَّ وجلَّ بأوصافٍ تُقَرِّرُ وجودَه في النفوس؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوى على العَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ يداهُ مَبْسوطَتانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿ولِتُصْنَعَ على عَيْني﴾ [طه: ٣٩]، وقول النبي ﷺ: «ينزلُ الله إلى السماءِ الدُّنيا»[1]، «ويَبْسُطُ يده لمسيء الليلِ والنَّهار»[2]، ويضحك[3]، ويغضب[4]...

وكل هٰذه الأشياء ـ وإنْ كان ظاهِرُها يوجِبُ تَخايُلَ التشبيه ـ فالمرادُ منها إثباتُ موجودٍ، فلما علم الشرع ما يطْرُقُ القلوبَ من التَّوهُّمات عند سماعِها؛ قَطَعَ ذٰلك بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١][5].

ثم إن هٰؤلاء القوم عادُوا إلى القرآنِ الذي هو المُعْجِزُ الأكبرُ، وقد قَصَدَ الشرعُ تقريرَ وجودِهِ، فقال: ﴿إنَّا أنْزَلْناهُ﴾ [القدر: ١]، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ﴾ [الشعراء: ٩٣]، ﴿فَذَرْني وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهٰذا الْحَديثِ﴾

---

(١) تقدم تخريجه في (فصل ٦١).

(٢) رواه مسلم (٤٩ ـ كتاب التوبة، ٥ ـ باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، ٤ / ٢١١٣ / ٢٧٥٩)؛ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٣) روى: البخاري (٥٦ ـ كتاب الجهاد، ٢٨ ـ باب الكافر يقتل المسلم ثم يسلم فيسدد بعد ويقتل، ٦ / ٣٩ / ٢٨٢٦)، ومسلم (٣٣ ـ كتاب الإمارة، ٣٥ ـ باب بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة، ٣ / ١٥٠٤ / ١٨٩٠)؛ من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة...».

(٤) الآيات في إثبات هٰذه الصفة لله عز وجل كثيرة جدًا.

(٥) ظاهر نصوص الصفات مراد ومطلوب لإثبات حقائق هٰذه الصفات لا لإثبات وجود الله تعالى كما ذكر ابن الجوزي رحمه الله، وهو لا يقتضي التشبيه؛ كما ذكرنا مرارًا.

[القلم: ٤٤]، ﴿وهٰذا كِتابٌ أنْزَلْناهُ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وأثبَته في القلوبِ بقوله تعالى: ﴿في صُدورِ الَّذينَ أوتوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وفي المصاحفِ بقوله تعالى: ﴿في لَوْحٍ مَحْفوظٍ﴾ [البروج: ٢٢]، وقول الرسول ﷺ: «لا تسافِروا بالقُرْآنِ إلى أرضِ العدوِّ»(١).

فقال قومٌ من هٰؤلاء: مخلوقٌ! فأسقَطوا حُرْمَتَهُ من النُّفوس، وقالوا: لم ينزلْ! ولا يُتَصَوَّرُ نزولُه! وكيف تنفصلُ الصفةُ عن الموصوف؟! وليس في المصحف إلَّا حِبْرٌ وورقٌ! فعادوا على ما تعب الشارِعُ في إثباته بالمَحْوِ.

كما قالوا: إن الله عزَّ وجلَّ ليس في السماءِ! ولا يُقال: استوى على العرشِ! ولا يَنْزِلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا! بل ذاك رحمتُه!! فمَحَوا من القلوب ما أريد إثباتُهُ فيها، وليس هٰذا مُراد الشارع(٢).

وجاء آخرونَ، فلم يَقِفُوا على ما حَدَّه الشرعُ، بل عَمِلوا فيه بآرائِهم، فقالوا: الله على العرشِ، ولم يَقْنَعوا بقولِهِ: ﴿ثُمَّ اسْتَوى على العَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ودفن لهم أقوامٌ مِن سلفهم دَفائِنَ، ووضعتْ لهمُ الملاحدةُ أحاديثَ، فلم يعلموا ما يجوزُ عليه مما لا يجوزُ، فأثبتوا بها صفاتٍ جمهورُ الصَّحيح منها آتٍ على توسُّع العرب، فأخذوا هُم على الظَّاهر، فكانوا في ضربِ المثل كَجُحا؛ فإنَّ أمَّه قالتْ له: احفظِ البابَ! فَقَلَعَهُ ومشى به، فأخِذَ ما في الدارِ، فلامَتْهُ أمُّه، فقال: إنما قُلْتِ: احفظِ البابَ، وما قلتِ:

(١) تقدم تخريجه في (فصل ٦١).

(٢) وهٰؤلاء هم الجهمية والمعتزلة ثم أفراخهم من الأشاعرة.

احفظِ الدار[١]!!

ولما تَخايلوا صورةً عظيمةً على العرش؛ أخذوا يتأوَّلونَ ما يُنافي وجودَها على العرش:

مثل قوله: «ومَنْ أتاني يمشي؛ أتيتُهُ هرولةً»[٢]، فقالوا: ليس المرادُ به دنوَّ الاقتراب، وإنما المرادُ قربَ المنزل والحظِّ!!

وقالوا في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يأتِيَهُمُ اللهُ في ظُلَلٍ﴾ [البقرة: ٢١٠]: هو محمولٌ على ظاهِرها في مجيء الذَّات.

فهم يُحِلُّونَهُ عامًا ويُحَرِّمونَهُ عامًا[٣].

ويسمُّون الإضافاتِ إلى الله تعالى صفاتٍ؛ فإنه قد أضافَ إليه النَّفْخَ والرُّوحَ[٤].

---

(١) ترى من هم هؤلاء الذين يشبهون جحا؟! انظر (فصل ٤٩)؛ تعرفهم!

(٢) رواه: البخاري (٩٧ ـ كتاب التوحيد، ١٥ ـ باب قوله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، ١٣ / ٣٨٠ / ٣٤٠٥)، ومسلم (٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، ١ ـ باب الحث على ذكر الله، ٤/٢٠٦١/٢٦٧٥)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) وهذا الكلام مردود على المؤلف رحمه الله؛ فمذهب السلف في كلتا المسألتين واحد، وهو إثبات صفتي الهرولة والإتيان لله حقيقة على ظاهرهما اللائق به سبحانه والذي لا يشبه إتيان المخلوقات ولا هرولتها تعالى الله عما يقوله المعطلة والمجسمة علوًّا كبيرًا.

(٤) أما النفخ؛ فهو من فعله تبارك وتعالى؛ كما قال عز وجل: ﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه﴾ [السجدة: ٩] في آيات كثيرة لا محل لذكرها؛ فعقيدة السلف الإيمان به على ظاهره الذي يليق بالله تعالى ولا يشبه نفخ المخلوقات تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وأما إضافة الروح إليه؛ فهي إضافة تشريف واختصاص؛ لأن الروح من أمر الله، وإضافتها كإضافة بيت الله وناقة الله؛ فعليه؛ فلا علاقة لها في باب الصفات.

وأثبتوا خَلْقَهُ باليدِ؛ فلو قالوا: خَلَقَهُ[١]؛ لم يمكنْ إنكارُ هٰذا، بل قالوا: هي صفةٌ تولَّى بها خَلْقَ آدمَ دون غيرِه؛ فأيُّ مزيَّةٍ كانتْ تكونُ لآدمَ؟! فشَغَلَهُمُ النظرُ في فضيلةِ آدمَ عن النظرِ إلى ما هو يليقُ بالحقِّ مما لا يَليقُ به؛ فإنه لا يجوزُ عليه المسُّ ولا العملُ بالآلاتِ، وإنما آدمُ أضافَهُ إليه[٢].

فقالوا: نُطْلِقُ على الله تعالى اسمَ الصُّورةِ؛ لقوله: «خَلَقَ آدمَ على صورتِهِ»، وفهموا هٰذا [من] الحديثِ، وهو قولُه عليه السلام: «إذا ضَرَبَ أحدُكم؛ فَلْيَجْتَنِبِ الوَجْهَ، ولا يقلْ: قَبَّحَ اللهُ وَجْهَكَ، ولا وجهًا أشبهَ وَجْهَكَ؛ فإنَّ اللهَ خَلَقَ آدم على صورتِهِ»[٣].

فلو كان المرادَ به اللهُ عزَّ وجلَّ؛ لكانَ وجهُ الله سبحانَهُ يشبهُ وَجْهَ هٰذا المخاصمِ؛ لأنَّ الحديثَ كذا جاء! ولا وجهًا أشبه وجهَكَ!!

ورووْا حديثَ خولةَ بنتِ الحكيم: «وإنَّ آخرَ وطأةٍ وَطِئَها اللهُ بِوَجٍّ»[٤]!! وما علموا النقلَ ولا السِّيَرَ وقولَ الرسول ﷺ: «اللهمَّ! اشدُدْ

---

(١) يعني: خلق آدم عليه السلام.

(٢) استسلف المؤلف رحمه الله أن خلق الله آدم بيده يوجب المس والعمل بالآلات والمباشرة... إلخ من قياس صفات رب العالمين على صفات المخلوقات!! فهو قد شبه ابتداءً ثم فر إلى التنزيه فوقع في التعطيل!! ولو أثبت صفة اليد على مذهب السلف على ظاهرها اللائق به عز وجل والذي لا يشبه صفات المخلوقين؛ لنجا من كل هٰذه المهاترات، ولما لزمه شيء مما ذكره.

(٣) أخرجه: البخاري (٤٩ ـ كتاب العتق، ٢٠ ـ باب إذا ضرب العبد فليجتنب الوجه، ٥ / ١٨٢ / ٢٥٥٩)، ومسلم (٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب، ٣٢ ـ باب النهي عن ضرب الوجه، ٤ / ٢٠١٦ / ٢٦١٢)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) (منكر). رواه: الحميدي (١/ ١٦٠/ ٣٣٤)، وأحمد (٦/ ٤٠٩)، والطبراني =

. . . .

= (٢٤/ ٢٤١/ ٦١٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ٥٨١)؛ من حديث سفيان، عن إبراهيم بن ميسرة، عن ابن أبي سويد، عن عمر بن عبد العزيز؛ قال: زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم. . . فذكره مرفوعاً.

وهٰذا سند ضعيف فيه ثلاث علل:

فقد قال الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ٥٧): «رواه أحمد والطبراني، ورجالهما ثقات؛ إلا أن عمر بن عبدالعزيز لا أعلم له سماعاً من خولة». ففيه انقطاع.

ومحمد بن أبي سويد مجهول لا يعرف؛ كما أفاد الذهبي في «الميزان».

وسفيان: هو ابن عيينة، وهو على إمامته وحفظه قد تغير في آخره، وربما دلس، وقد عنعن هنا. نعم؛ قد صرح بالسماع عند الترمذي (٢٨ ـ كتاب البر والصلة، ١١ ـ باب ما جاء في حب الولد، ٤/٣١٧/١٩١٠)؛ إلا أنه لم يذكر قوله: «وإن آخر. . .» إلخ، وهو ما صرح به المزي في «التحفة» (١١/٢٩٩/١٥٨٢٨)؛ فهي زيادة منكرة في هٰذا المتن.

نعم؛ قد أخرج هٰذه الزيادة: أحمد (٤/١٧٢)، والطبراني (٢٢/٢٧٥/٧٠٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص ٥٨١)؛ كلهم من طريق ابن خثيم، عن سعيد بن أبي راشد، عن يعلى بن مرة. . . فذكره مرفوعًا. وقال في «المجمع» (١٠ / ٥٤): «ورجالهما ثقات». وليس كذٰلك: ففيها أربع علل:

فسعيد بن أبي راشد: لم يوثقه إلا ابن حبان، ولم يرو عنه إلا رجل واحد؛ فهو مجهول، ولين أمره الحافظ في «التقريب».

وعبد الله بن عثمان بن خثيم: صدوق، ولين أمره الذهبي في «الميزان».

ثم الحديث رواه: عبدالرزاق (١١/١٤٠/٢٠١٤٣)، وأحمد (٤/١٧٢)، وابن ماجه (المقدمة، ١١ ـ باب في فضائل أصحاب الرسول ﷺ، ١/٥١/١٤٤)، والترمذي (٥٠ ـ كتاب المناقب، ٣١ ـ باب مناقب الحسن والحسين، ٥/٦٥٨/٣٧٧٥)، وابن حبان (١٥/٤٢٧/٦٩٧١)؛ جميعهم من الوجه نفسه، ولم يذكروا فيه: «وإن آخر. . .» إلخ. ورواه أيضًا ابن ماجه من وجهين آخرين في الموضع السابق وبرقم (٣٦٦٦) ولم يذكر فيهما أيضًا هٰذه الزيادة؛ فهي زيادة منكرة هنا أيضًا.

وقد وقع اضطراب في متن الحديث؛ فتارة جاء بذكر قصة للحسين وحده، وتارة =

وطأتَكَ على مُضَرَ»[١]، وأنَّ المرادَ به آخرُ وقعةٍ قاتلَ فيها المسلمونَ بِوَجٍّ، وهي غزاةُ حُنينٍ، فقالوا: نَحْمِلُ الخبرَ على ظاهِرِه، وأنَّ الله وَطِىءَ ذٰلك المكانَ!! ولا شكَّ أنَّ عندَهم أنَّ الله تعالى كان في الأرض، ثم صَعِدَ إلى السماءِ[٢]!!

وكذٰلك قالوا في قولِهِ: «إن الله لا يَمَلُّ حتى تَمَلُّوا»[٣]، قالوا: يجوزُ أنَّ الله يُوصف بالملل، فجَهِلوا اللغة، وما علموا أنه لو كانت (حتى) ها هنا للغايةِ؛ لم تكنْ بمدحٍ؛ لأنه إذا مَلَّ حين يُمَلُّ؛ فأيُّ مدحٍ؟! وإنما هو كقول الشاعر:

جَلَبَتْ مِنِّي هُذَيْلٌ بِخَرِقْ لا يَمَلُّ الشَّرَّ حَتَّى يَمَلُّوا

= جاءت بذكر قصة أخرى للحسن والحسين معًا.

وبالجملة؛ فقوله: «وإن آخر وطئة. . . »إلخ: زيادة منكرة، وقد ضعفها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ كما في «مجموع الفتاوى» (٢٧ / ١٥)، ونقل هناك تضعيفها عن الإمام أحمد. والله أعلم.

(١) رواه: البخاري (١٠ ـ كتاب الأذان، ١٢٨ ـ باب يهوي بالتكبير حين يسجد، ٢ / ٢٩٠ / ٨٠٣)، ومسلم (٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ٥٤ ـ باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، ١ / ٤٦٦ / ٦٧٥)؛ من حديث أبي هريرة.

(٢) سبحان الله!! وهل يقول هٰذا أحد من أهل العلم أو من السلف؟! والله لا يقول هٰذا إلا مشبه أفاك أثيم، والسلف وأهل السنة برآء من مثل هٰذه التهم، هٰذا فضلاً عن أن الحديث منكر كما بيناه قبل قليل.

(٣) رواه: البخاري (٢ ـ كتاب الإيمان، ٣٢ ـ باب أحب الدين إلى الله أدومه، ١ / ١٠١ / ٤٣)، ومسلم (٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها، ٣١ ـ باب أمر من نعس في صلاة بأن يرقد. . . ، ١ / ٥٤٢ / ٧٨٥)؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

والمعنى: لا يَمَلُّ وإنْ مَلُّوا[١].

وقالوا في قولِهِ عليه الصلاة والسلام: «الرَّحِمُ شُجْنَةٌ[٢] من الرحمٰن تَتَعَلَّقُ بِحَقْوَي[٣] الرحمٰنِ»[٤]، فقالوا: الحَقْوُ صفةُ ذاتٍ[٥].

وذَكَروا أحاديثَ لو رُوِيَتْ في نقضِ الوضوءِ؛ ما قُبِلَتْ، وعمومُها وضعتْهُ الملاحدةُ.

كما يُروى عن عبد الله بن عمرو؛ قال: «خَلَقَ اللهُ الملائكةَ من نور الذِّراعينِ والصَّدْرِ»[٦]؛ فقالوا: نُثْبتُ هٰذا على ظاهِرِه، ثم أرضَوُا العوامَّ

---

(١) وهٰذا تفسير وارد، قبله بعض أهل العلم، وإن كان الأولى الإثبات على طريقة السلف دون تشبيه ولا تكييف، وصفات الله كلها كمال مطلق.

(٢) الشجنة: الشعبة من كل شيء، والمعنى: قرابة مشتبكة كاشتباك العروق.

(٣) الحقو: موضع عقد الإزار وشده.

(٤) (صحيح). رواه: أحمد (١ / ٣٢١)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٣٧ / ٥٣٨)؛ من طريق ابن جريج؛ قال: حدثنا زياد: أن صالحًا مولى التوأمة أخبره عن ابن عباس. . . فذكره مرفوعًا.

قال الهيثمي في «المجمع» (٨ / ١٥٣): «رواه أحمد والبزار والطبراني بنحوه، وفيه صالح مولى التوأمة، وقد اختلط، وبقية رجاله رجال الصحيح». ولٰكن زيادًا قد روى عن صالح قبل الاختلاط كما أفاده الحافظ في «التهذيب»؛ فالسند لا بأس به.

وله شاهد من حديث أم سلمة بلفظ قريب جدًا، ذكره الهيثمي في «المجمع» (٨ / ١٥٣)، وقال: «رواه الطبراني، وفيه موسى بن عبيدة الربذي، وهو ضعيف».

وله شواهد أخرى كثيرة بألفاظ قريبة في «الصحيحين».

والحديث صحيح بمجموع شواهده، وقد صححه الألباني في «الصحيحة» (٤ / ١٣٢ / ١٦٠٢).

(٥) وهو الحق، ولا فرق بينه وبين غيره من الصفات.

(٦) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» (ص ١٥١) من كلام عبد الله بن عمرو، =

بقولِهِم: ولا نُثْبِتُ جوارحَ(١)! فكأنَّهُم يقولونَ: فلانٌ قائمٌ وما هو قائمٌ!!

فاختلفَ قولُهم: هل يُطْلَقُ على الله عزَّ وجلَّ أنه جالسٌ أو قائمٌ؛ كقوله تعالى: ﴿قائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨](٢).

وهٰؤلاءِ أخسُّ فَهْمًا من جُحا؛ لأنَّ قوله: ﴿قائِمًا بِالْقِسْطِ﴾: لا يُراد به القيامُ، وإنما هو كما يقالُ: الأميرُ قائمٌ بالعدل.

وإنما ذكرتُ بعض أقوالهم؛ لئلَّا يُسْكَنَ إلى شيءٍ منها؛ فالحذرُ من هٰؤلاء عبادةٌ، وإنَّما الطريقُ طريقُ السَّلَف.

على أنني أقول لك: قد قال أحمدُ بن حَنْبلٍ رحمةُ الله عليه: مِنْ ضيقِ عِلْمِ الرَّجُل أنْ يُقلِّدَ في دينه الرجالَ. فلا ينبغي أن تَسْمَعَ من معظَّمٍ في النفوس شيئًا في الأصول فَتُقَلِّدَه فيه، ولو سمعتَ عن أحدِهم ما لا يوافقُ الأصولَ الصحيحةَ؛ فقلْ: هٰذا من الراوي؛ لأنَّه قد ثَبَتَ عن ذٰلك الإمام أنه لا يقولُ بشيءٍ من رأيِهِ؛ فلو قَدَّرْنا صِحَّتَهُ عنه؛ فإنَّهُ لا يُقَلَّدُ في الأصول ولا أبو بكرٍ ولا عمرُ رضي الله عنهما(٣).

= ولم يرد فيه شيء مرفوع.

قال الشيخ الألباني حفظه الله في «الصحيحة» (١ / ٨٢٠ / ٤٥٨): «هٰذا كله من الإسرائيليات التي لا يجوز الأخذ بها؛ لأنها لم ترد عن الصادق المصدوق ﷺ».

(١) وهٰذا ـ والله ـ عجيب من ابن الجوزي رحمة الله عليه؛ فلا نعلم أحدًا من السلف من أهل السنة قد أثبت لله صفة بهٰذه الإسرئيليات الشنيعة!! بل حتى المشبهة المجسمة لا نعلم عنهم مثل هٰذا!!

(٢) وهٰذا كسابقه؛ فأهل السنة لم يثبتوا لله قيامًا ولا قعودًا تعالى الله عن ذٰلك علوًّا كبيرًا، وإنما أثبتوا له بهٰذا وأمثاله صفة القيومية.

(٣) وهٰذا عجيب وخطير!! =

فهٰذا أصلٌ يجبُ البناءُ عليه؛ فلا يَهولَنَّكَ ذِكْرُ معظَّمٍ في النفوس.

وكان المقصودُ من شرح هٰذا أنَّ ديننا سليمٌ، وإنما أدخل أقوامٌ فيه ما تأذَّيْنا به.

٧٢ ـ فصل

[في الكلام عن الزهاد والمتصوفة]

ولقد أدخلَ المتزهِّدونَ في الدِّين ما يُنَفِّرُ الناسَ، حتى إنهم يَرَوْنَ أفعالَهم فيستَبْعِدون الطريقَ.

وأكثرُ أدلة هٰذه الطريق القُصَّاصُ؛ فإنَّ العاميَّ إذا دَخَلَ إلى مجلسهم وهو لا يُحْسِنُ الوضوءَ؛ كلَّموهُ بدقائِقِ الجُنَيْدِ وإشاراتِ الشبليِّ، فرأى ذٰلك العاميُّ أنَّ الطريقَ الواضحَ لزومُ زاويةٍ، وتركُ الكسب للعائلة، ومناجاةُ الحقِّ في خلوةٍ على زعمِهِ؛ مع كونه لا يعرفُ أركانَ الصلاةِ، ولا أدَّبَهُ العلمُ، ولا قوَّمَ أخلاقَهُ شيءٌ من مخالطةِ العلماء!! فلا يستفيدُ من خلوتِهِ إلَّا كما يستفيدُ الحمارُ من الإصطبلِ؛ فإنِ امتدَّ عليه الزمانُ في تَقَلُّلِهِ؛ زادَ يُبْسُهُ، فربَّما خايَلَتْ له الماليخوليا[1] أشباحًا يظنُّهُم الملائكةَ، ثم يطأطِىء رأسَه، ويمدُّ يَدَهُ للتَّقبيلِ[2]!!

فإذا كان ظاهر أحاديث الصفات لا يصح القول به!! ولا ينبغي لنا أن نقلد في معناه أحدًا من السلف والأئمة، حتى ولو كان أبا بكر أو عمر!! فعلى ماذا نعوِّل إذًا؟! لم يبق إلا أقوال المتكلمة وحجج أهل الجدل ومنطق يونان وزبالات العقول والأذهان!! فقل: على الإسلام الخراب والدمار... فاعتبروا يا أولي الأبصار!!

(١) نوع من أنواع الاضطرابات النفسية.

(٢) وهٰذه ـ والله ـ الحال في هٰذا العصر؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فكم قدْ رأيْنا من أكَّارٍ[1] تَرَكَ الزرعَ وقعدَ في زاويةٍ، فصار إلى هٰذه الحالةِ، فاستراح من تعبِهِ!! فلو قيلَ له: عُدْ مريضًا! قال: ما لي عادةٌ.

فلَعَنَ اللهُ عادةً تخالفُ الشريعةَ.

فيرى العامةُ بما يورده القُصَّاصُ أنَّ طريقَ الشرع هٰذه لا التي عليها الفقهاءُ، فيقعونَ في الضَّلال.

ومن المتزهِّدين من لا يُبالي عَمِلَ بالشرعِ أم لا!!

ثم يتفاوتُ جُهَّالُهم؛ فمنهُم مَنْ سَلَكَ مذهبَ الإباحةِ، ويقولُ: الشيخُ لا يعارَضُ، وينهمِكُ في المعاصي!! ومنهم مَنْ يَحْفَظُ ناموسَه، فيُفتي بغيرِ علمٍ؛ لئلَّا يُقالَ: الشيخُ لا يدري!!

ولقد حدَّثني الشيخُ أبو حكيمٍ رحمةُ الله عليه: أنَّ الشريفَ الدَّحالتيَّ ـ وكان يُقصَدُ فيُزَارُ ويُتَبَرَّكُ به ـ حضر عنده يومًا، فسُئِلَ أبو حكيمٍ: هل تَحِلُّ المطلقةُ ثلاثًا إذا وَلَدَتْ ذَكَرًا؟ قال: فقلتُ: لا والله. فقال لي الشريفُ: اسكتْ! فوالله؛ لقد أفتيتُ الناسَ بأنها تَحِلُّ من ها هنا إلى البصرة.

وحكى لي الشيخُ أبو حكيم أنَّ جدَّ آذاد الحداد ـ وكان يتوسَّمُ بالعلم ـ جاءتْ إليه امرأةٌ، فزوَّجَها من رجلٍ، ولم يسألْ عن انقضاءِ العِدَّةِ، فاعترضَها الحاكمُ، وفَرَّقَ بينَها وبينَ الزَّوْجِ، وأنكرَ على المُزَوِّجِ، فلقيتْهُ المرأةُ، فقالتْ: يا سيدي! أنا امرأةٌ لا أعلمُ؛ فكيفَ زوَّجْتني؟! فقال: دعي حديثَهم! ما أنت إلَّا طاهرةٌ مطهَّرةٌ!!

---

(١) الأكَّار: الحراث الذي يعمل في الأرض.

وحدَّثني بعضُ الفقهاءِ عن رجلٍ من العبَّاد أنه كان يسجدُ للسهو سنينَ، ويقولُ: والله؛ ما سهوتُ، ولكن أفعلهُ احترازًا! فقال له الفقيهُ: قد بَطَلَتْ صلاتُك كلُّها؛ لأنك زدتَ سُجودًا غير مشروع!!

ثم مِنَ الدَّخَلِ الذي دَخَلَ دينَنا طريقُ المتصوفةِ؛ فإنهم سَلَكوا طُرُقًا أكثرُها تنافي الشريعةَ، وأهلُ التديُّن منهم يقلِّلون ويخفِّفون، وهٰذا ليس بشرعٍ.

حتى إنَّ رجلًا كان قريبًا من زماني، يُقال له: كثيرٌ، دَخَلَ إلى جامع المنصور، وقال: عاهدتُ اللهَ عهدًا ونقضتُه؛ فقد ألزمتُ نفسي أن لا تأكلَ أربعين يومًا! فحدثني من رآه أنه بقيَ عشرةَ أيام، ثم في العشرِ الرابع أشرفَ على الموتِ. قال: فما انقضتْ حتى تَفَرَّغَ[1]، فصُبَّ في حلقهِ ماءٌ، فسمِعْنا له نشيشًا[2] كنشيشِ المِقْلاةِ، ثم ماتَ بعد أيام.

فانظروا إلى هٰذا المسكين وما فَعَلَهُ به جَهْلُهُ!!

ومنهم من فَسَحَ لنفسه في كلِّ ما يُحِبُّ من التَّنَعُّم واللَّذَّات، واقتنع من التصوُّف بالقميص والفوطةِ والعِمامة اللطيفةِ، ولم ينظرْ من أين يأكلُ ولا من أين يشربُ، وخالطَ الأمراءَ من أربابِ الدُّنيا ولُبَّاس الحريرِ وشُرَّابِ الخمورِ؛ حفظًا لمالِهِ وجاهِهِ[3].

ومنهم أقوامٌ عملوا سُننًا لهم تَلَقَّوْها من كلماتٍ أكثرُها لا يَثْبُتُ!!

---

(١) معناه: اشتد إعياؤه وهزاله حتى قارب الموت.

(٢) النشيش: صوت الماء وغيره عند الغليان.

(٣) وأكثر متصوفة عصرنا هٰذا من هٰذا الصنف.

ومنهم مَن أكبَّ على سماع الغناء والرقص واللعب، ثم انقسم هٰؤلاءِ؛ فمنهم من يَدَّعِي العِشْقَ فيه، ومنهم من يقولُ بالحُلول، ومنهم يسمعُ على وجه الهوى واللَّعِبِ، وكلا الطريقين يُفْسِدُ العوامَّ الفسادَ العامَّ.

وهٰذا الشرحُ يطولُ، وقد صنفتُ كُتبًا ترى فيها البَسْطَ الحسنَ إن شاء الله تعالى، منها «تلبيس إبليس»[١].

والمقصودُ أنْ تعلم أنَّ الشرعَ تامٌّ كاملٌ؛ فإن رُزِقْتَ فهمًا لهُ؛ فأنت تَتَبعُ الرسولَ ﷺ وأصحابَه، وتتركُ بُنَيَّاتِ الطريق، ولا تقلِّدُ في دينك الرجال؛ فإن فعلتَ؛ فإنك لا تحتاجُ إلى وصيةٍ أخرى.

واحذرْ جُمود النَّقَلَةِ، وانبساطَ المتكلِّمين، وجموحَ المتزهِّدين، وشَرَهَ أهْلِ الهوى، ووقوفَ العلماء على صورةِ العلم من غير عملٍ، وعملَ المتعبِّدين بغير علم.

ومن أيده الله تعالى بلُطْفِهِ؛ رَزَقَهُ الفهمَ، وأخْرَجَهُ عن رِبْقَةِ التقليدِ، وجعلهُ أمةً وحدَه في زمانه؛ لا يبالي بمن عَبَثَ، ولا يلتفتُ إلى من لامَ، قد سلَّمَ زِمامه إلى دَليلِهِ في واضح السَّبيل[٢].

عَصَمَنا الله وإياكُم من تقليد المعظَّمينَ، وألهَمَنا اتباعَ الرسولِ ﷺ؛ فإنه درةُ الوجودِ، ومقصودُ الكونِ[٣] ﷺ وعلى آلهِ وأصحابهِ وأتباعهِ، ورزقَنا اتِّباعَه مع أتباعهِ.

---

(١) مطبوع متداول، وهو كتاب جيد على العموم، وعليه بعض المآخذ.

(٢) وهٰذه والله الوصية حق الوصية، نفعنا الله وإياكم فيما نقرأ ونسمع ونعلم.

(٣) محمد ﷺ هو درة الكون، وأفضل الخلق، وأكرمهم على الله عز وجل، ولٰكنه =

٧٣ ـ فصل
[في أن التقوى أصل السلامة]

اعلمْ أنَّ الزمان لا يَثْبُتُ على حالٍ؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وتِلْكَ الأيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]؛ فتارةً فقرٌ، وتارةً غنىً، وتارةً عزٌّ، وتارةً ذلٌّ، وتارةً يفرحُ الموالي، وتارةً يشمتُ الأعادي.

فالسعيدُ من لازم أصلًا واحدًا على كلِّ حالٍ، وهو تقوى الله عزَّ وجلَّ؛ فإنه إن استغنى؛ زانَتْهُ، وإن افتقرَ؛ فتحتْ له أبوابَ الصبر، وإن عوفي؛ تمتِ النعمةُ عليه، وإن ابْتُلِيَ؛ حملتْه، ولا يضرُّه إن نَزَلَ به الزمانُ أو صَعِدَ أو أعراه أو أشْبَعَهُ أو أجاعه؛ لأنَّ جميع تلك الأشياءِ تزولُ وتتغيَّرُ، والتقوى أصلُ السلامةِ، حارسٌ لا ينامُ، يأخذُ باليد عند العَثْرَةِ، ويواقِفُ[1] على الحدودِ.

والمُنْكَرُ مَن غَرَّتْهُ لَذَّةٌ حصلتْ مع عدمِ التَّقْوى؛ فإنها سَتَحولُ وتُخَلِّيه خاسرًا.

ولازِمِ التَّقوى في كلِّ حالٍ؛ فإنك لا ترى في الضِّيق إلَّا السَّعَةَ، وفي المرضِ إلَّا العافيةَ؛ هٰذا نقدُها العاجلُ، والآجلُ معلومٌ.

= ليس مقصود الكون (يعني: مقصود الخلق)، وإنما هو الدليل على هٰذا المقصود، وهو إخلاص العبادة لله وحده؛ كما قال سبحانه: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات: ٥٦].

(١) يواقف؛ من باب المفاعلة؛ يعني: أن التقوى تعين صاحبها على الوقوف عند حدود الشرع، وتمسك بيده فتثنيه عن الوقوع فيما حرم الله تعالى.

٧٤ ـ فصل

[في فضائل الصبر عن المعاصي]

تأملتُ أمرًا عجيبًا وأصلاً ظَريفًا، وهو انهيالُ الابتلاءِ على المؤمنِ، وعرضُ صورةِ اللَّذَّاتِ عليه؛ مع قدرتِه على نَيْلِها، وخُصوصًا ما كان في غيرِ كُلْفَةٍ مِن تحصيلِهِ؛ كمحبوبٍ موافقٍ في خَلْوةٍ حصينةٍ.

فقلتُ: سبحانَ الله! ها هنا يَبِينُ أثرُ الإيمانِ؛ لا في صَلاةِ ركْعَتَيْنِ.
والله؛ ما صَعِدَ يوسفُ عليه السلام ولا سَعِدَ إلَّا في مثل ذٰلك المقام.

فبالله عليكم يا إخواني؛ تأمَّلوا حالَهُ لو كان وافَقَ هواه؛ منْ كانَ يكونُ؟! وقيسوا بين تلكَ الحالةِ وحالةِ آدمَ عليه السلامُ، ثم زِنُوا بميزانِ العقل عُقبى تلكَ الخطيئةِ وثمرةَ هٰذا الصبر، واجْعلوا فَهْمَ الحالِ عُدَّةً عند كلِّ مشتهى.

وإنَّ اللَّذَّاتِ لَتَعرِضُ على المؤمنِ؛ فمتى لَقِيَها في صفِّ حربِهِ وقد تأخَّرَ عنه عسكرُ التدبُّر للعواقبِ؛ هُزِمَ.

وكأني أرى الواقعَ في بعضِ أشْراكِها ولسانُ الحالِ يقولُ له: قفْ مكانَكَ؛ أنتَ وما اخترتَ لنفسكَ.

فغايةُ أمرِهِ الندمُ والبكاءُ.

فإنْ أمِنَ إخراجَه من تلك الهوَّةِ؛ لم يخرجْ إلَّا مَدْهونًا بالخُدوش.

وكم مِن شخصٍ زَلَّتْ قدمُهُ فما ارتفعت بعدَها.

ومَن تأمَّلَ ذُلَّ إخوةِ يوسفَ عليهم السلام يومَ قالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾

[يوسف: ٨٨]؛ عَرَفَ شُؤْمَ الزَّلَل، ومَن تدبَّرَ أحوالَهم؛ قاس ما بينَهم وبين أخيهم من الفروقِ، وإن كانتْ توبتُهم قُبِلَتْ؛ لأنه ليس مَنْ رَقَعَ وخاطَ كَمَنْ ثَوْبُهُ صحيحٌ(١).

وربَّ عَظْمٍ هِيْضَ لم ينجبِرْ، فإنْ جُبِرَ؛ فعلى وَهىً(٢).

فتيقَّظوا - إخواني - لِعَرْضِ المشتَهيات على النُّفوس، واستوثِقُوا من لُجُمِ الخَيْل، وانتبهـوا للغيم إذا تَراكَمَ بالصُّعـودِ إلى تَلْعَةٍ(٣)؛ فربما مُدَّ الوادي فراح بالركب(٤).

٧٥ ـ فصـل

[في بعض لطائف تأخير إجابة الدعاء]

تأمَّلْتُ حالةً عجيبةً، وهي أنَّ المؤمنَ تنزلُ به النازلةُ، فيدعو، ويبالغُ، فلا يرى أثـرًا للإجابةِ، فإذا قاربَ اليأسَ؛ نُظِرَ حينئذٍ إلى قلبِهِ؛ فإنْ كان راضيًا بالأقدار، غيرَ قَنوطٍ من فضلِ الله عزَّ وجلَّ؛ فالغالبُ تعجيلُ الإجابةِ حينئذٍ؛ لأنَّ هناك يَصْلُحُ الإيمانُ ويُهْزَمُ الشيطانُ، وهناك تَبِينُ مقاديرُ الرجال.

وقد أُشيرَ إلى هٰذا في قوله تعالى: ﴿حَتَّى يقولَ الرَّسولُ والَّذينَ آمَنوا

(١) في المسألة تفصيل ذكره ابن القيم رحمه الله في «الداء والدواء» وغيره من كتبه نقلًا عن شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فربما أثمرت التوبة بعد الذنب إصلاحًا عظيمًا في الحال فعاد التائب خيرًا مما كان، وربما عاد إلى ما كان عليه، وربما عاد إلى أقل مما كان عليه.

(٢) الوهى: الضعف.

(٣) التلعة: ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها.

(٤) يعني: فربما عُمِّي على الصاعد فسقط في الوادي وهو لا يدري.

مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وكذلك جرى ليعقوبَ عليه السلام؛ فإنه لما فَقَدَ وَلَدًا وطالَ الأمرُ عليه؛ لم يَيْأَسْ من الفرج، فأُخِذَ ولدُه الآخرُ، ولم ينقطعْ أملُه من فضلِ ربِّه: ﴿أن يأتِيَني بِهِمْ جَميعًا﴾ [يوسف: ٨٣].

وكـذلـك قالَ زكريّا عليه السلام: ﴿ولَمْ أكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣].

فإياك أنْ تستطيلَ مُدَّةَ الإجابةِ!

وكنْ ناظرًا إلى أنه المالِكُ، وإلى أنه الحكيمُ في التدبيرِ، والعالمُ بالمصالحِ، وإلى أنه يريدُ اختبارَكَ لِيَبْلُوَ أسرارَك، وإلى أنه يريدُ أن يرى تَضَرُّعَك، وإلى أنه يريدُ أن يأجُرَكَ بصبرِكَ... إلى غير ذلك، وإلى أنه يَبْتَليكَ بالتأخيرِ لتحارِبَ وسوسةَ إبليسَ، وكلُّ واحدةٍ من هذه الأشياءِ تقوِّي الظنَّ في فضلِهِ، وتوجِبُ الشُّكْرَ له؛ إذْ أهَّلَكَ بالبلاءِ للالتفاتِ إلى سؤالِهِ، وفَقْرُ المُضْطَرِّ إلى اللَّجَإِ إليه غنىً كلُّه.

٧٦ ـ فصل

[في شيء من حكم حاجات الإنسان وغرائزه]

لما كان بدنُ الآدميِّ لا يقومُ[1] إلَّا باجتلابِ المصالح ودفعِ المؤذي؛ رُكِّبَ فيه الهوى؛ ليكونَ سببًا لجلبِ المنافع، والغضبُ؛ ليكون سببًا لدَفْعِ المؤذي.

---

(١) أي: لا ينتظم أمره ويستوي حاله.

ولولا الهوى في المَطْعَمِ؛ ما تناوَلَ الطعامَ، فلم يَقُمْ بدنُهُ، فجُعِلَ له إليه ميلٌ وتَوْقٌ(١)؛ فإذا حَصَلَ له قَدْرُ ما يُقيم بدَنَه؛ زال التَّوْقُ.

وكذلك في المَشْرَبِ والمَلْبسِ والمَنْكَحِ.

وفائدةُ المَنْكَحِ من وجهين: أحدُهما: إبقاءُ الجنس، وهو معظمُ المقصودين. والثاني: دفعُ الفَضْلَةِ المحتقنةِ المؤذي احتقانُها(٢).

ولولا تركيبُ الهوى المائلُ بصاحِبِه إلى النِّكاح؛ ما طَلَبَهُ أحدٌ، ففات النسلُ وآذى المحتقِنُ.

فأمّا العارفون؛ فإنهم فَهِموا المقصودَ.

وأمَّا الجاهلونَ؛ فإنهم مالوا مع الشَّهوة والهوى، ولم يفهموا مقصودَ وَضْعِها، فضاعَ زمانُهم فيما لا طائلَ فيه، وفاتهم ما خُلِقوا لأجلِه، وأخرجهم هواهُم إلى فسادِ المال وذَهابِ العِرْض والدين، ثم أدَّاهم إلى التَّلَف.

وكم قد رأينا من متنعِّم يبالغُ في شراءِ الجواري ليحرِّكَ طبعَه بالمستَجِدِّ؛ فما كان بأسرعَ من أنْ وَهَنَتْ قُواه الأصليةُ، فتعجَّلَ تَلَفَهُ.

وكذلك رأينا مَن زاد غضبُهُ، فخرجَ عن الحدِّ، ففتكَ بنفسه وبمن يحبُّه.

(فمَن عَلِمَ أنَّ هٰذه الأشياء إنما خُلِقَتْ إعانةً للبدنِ على قطع مراحل

---

(١) التوق: الشوق الشديد.

(٢) هٰذا بحسب المعلومات الطبية السائدة في عصر المؤلف، ولا يقر معظمها الطب الحديث.

الـدُّنيا، ولـم يُخْلَقْ لنفسِ الالتذاذِ، وإنما جُعِلَتِ اللَّذَّةُ فيها كالحيلةِ في إيصالِ النفع بها؛ إذْ لو كان المقصودُ التنعُّم بها؛ لما جُعِلَتِ الحيواناتُ البهيميةُ أوفى حظًّا من الآدميِّ منها.

فطوبى لمن فَهِمَ حقائقَ الوضع، ولم يَمِلْ به الهوى عن فَهْم حِكَمِ المخلوقاتِ.

٧٧ـ فـصـل
[في شؤم المعصية وبركة الطاعة]

مَن تأمَّلَ عواقبَ المعاصي؛ رآها قبيحةً.

ولقـد تفكَّـرْتُ في أقـوام أعرِفُهم، يُقِرُّون بالزِّنى وغيره، فَأرى مِنْ تعثُّرِهم في الدُّنيا مع جلادتِهم ما لا يَقِفُ عندَ حَدٍّ، وكأنَّهُم قد أُلْبِسوا ظُلمةً؛ فالقلوبُ تَنْفُرُ عنهم؛ فإن اتَّسَعَ لهم شيءٌ؛ فأكثرُهُ من مالِ الغيرِ، وإن ضاقَ بهم أمرٌ؛ أخذوا يَتَسَخَّطونَ على القَدَرِ. هٰذا وقد شُغِلوا بهٰذه الأوساخ عن ذِكْرِ الآخرةِ.

ثم عكستُ، فتفكَّرْتُ في أقوام صابَروا الهوى، وتَركوا ما لا يَحِلُّ؛ فمنهم من قد أينعتْ له ثمراتُ الدُّنيا؛ من قوتٍ مستلذٍّ، ومِهادٍ مُستطابٍ، وعيشٍ لذيذٍ، وجاهٍ عريضٍ؛ فإن ضاقَ بهم أمرٌ؛ وسَّعَهُ الصبرُ، وطيَّبَهُ الرِّضى.

ففهمتُ بالحال معنى قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

٧٨ ـ فصل
[في لزوم باب المولى سبحانه على كل حال]

يَنْبغي للعاقل أن يلازِمَ بابَ مولاه على كلِّ حالٍ، وأن يتعلَّقَ بذيلِ فضلهِ إن عصى وإن طاعَ، وليكنْ له أنسٌ في خَلْوَتِهِ به؛ فإنْ وقعتْ وَحْشَةٌ؛ فليجتهدْ في رفع الموحِش؛ كما قال الشاعر:

أمُسْتَوْحِشٌ أنتَ مِمَّا جَنَيْـ ـتَ فأحْسِنْ إذا شِئْتَ واسْتَأْنِسِ

فإن رأى نفسَه مائلاً إلى الدُّنيا؛ طَلَبَها منه، أو إلى الآخرةِ؛ سألَه التوفيقَ للعملِ لها؛ فإن خاف ضررَ ما يَرُومُه من الدُّنيا؛ سألَ الله إصلاحَ قلبِه وطِبَّ مرضِهِ؛ فإنه إذا صَلَحَ؛ لم يطلبْ ما يؤذيهِ.

ومَن كان هٰكذا؛ كان في العيش الرَّغَد.

غيرَ أنَّ من ضرورةِ هٰذه الحال ملازمةُ التقوى؛ فإنه لا يَصْلُحُ الأنسُ إلَّا بها.

وقد كان أربابُ التَّقوى يتشاغلونَ عن كلِّ شيءٍ إلَّا عن اللَّجَإِ والسؤالِ.

وفي الخبرِ[1]: أنَّ قُتيبةَ بن مسلم لما صافَّ التُّرْكَ؛ هاله أمرُهم، فقال: أين محمدُ بنُ واسعٍ؟ فقيل: هو في أقصى الميمنةِ، جانحٌ على

(١) أما قتيبة؛ فهو الأمير المشهور، أبو حفص، فاتح خوارزم وبخارى وسمرقند وفرغانة وبلاد الترك، توفي سنة ٩٦هـ. ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٤/ ٨٦)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٤١٠).

وأما محمد بن واسع؛ فهو الإمام، القدوة، الزاهد، أحد الأعلام، توفي ١٢٧هـ. =

سِيَةِ قَوْسِهِ، يومىء بإِصْبَعِهِ نحو السماءِ. فقال قتيبةُ: تلك الإِصبعُ الفاردةُ أحبُّ إليَّ من مئةِ ألفِ سيفٍ شهيرٍ وسنان طريرٍ. فلما فُتِحَ عليهم؛ قال له: ما كنتَ تصنعُ؟ قال: آخذُ لك بمجامعِ الطُّرقِ.

٧٩ ـ فصل

[استعينوا على إنجاح أموركم بالكتمان]

ينبغي لمَن تظاهرتْ نِعَمُ الله عزَّ وجلَّ عليه أن يُظْهِرَ منها ما يُبِينُ أثَرَها ولا يكشِفَ جملتَها، وهٰذا من أعظم لَذَّات الدُّنيا التي يأمرُ الحزمُ بتركِها؛ فإن العينَ حقٌّ[١].

وإني تَفَقَّدْتُ النِّعَمَ، فرأيتُ إظهارَها حُلوًا عند النفس؛ إلَّا أنها إن أُظْهِرَتْ لوديدٍ[٢]؛ لَمْ يُؤْمَنْ تَشَعُّثُ باطِنِهِ بالغيظِ، وإن أُظْهِرَتْ لِعَدُوٍّ؛ فالظاهرُ إصابتُه بالعينِ لموضعِ الحسدِ!

إلَّا أنني رأيتُ شرَّ الحسودِ كاللازِم؛ فإنَّه في حال البلاءِ يَتَشَفَّى، وفي حال النِّعم يصيبُ بالعينِ.

= ترجمته في: «أعلام النبلاء» (٦/١١٨)، و«التهذيب» (٩/٤٩٩).

والمصافة: المواجهة في ساحة القتال. وسية القوس: ما انعطف من طرفيه. والفاردة: الوحيدة. والشهير: المشهور في وجه العدو. والطرير: الحاد القاطع. والخبر في «السير» (٦/١٢١).

(١) روى: البخاري (٧٦ ـ كتاب الطب، ٣٦ ـ باب العين حق، ١٠ / ٢٠٣ / ٥٧٤٠)، ومسلم (٣٩ ـ كتاب السلام، ١٦ ـ باب الطب والمرض والرقى، ٤ / ١٧١٩ / ٢١٨٧)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: «العين حق».

(٢) يعني: لمن يودك ويحبك.

ولَعَمْري؛ إنَّ المُنْعَمَ عليه يشتهي غيظَ حسودِه، ولٰكنَّه لا يؤمَنُ أنْ يخاطِرَ بنعمتِه؛ فإنَّ الغالبَ إصابةُ الحاسدِ لها بالعينِ؛ فلا يساوي الالتذاذُ بإظهارِ ما غِيظَ به ما أفسدتْ عينهُ بإصابتها.

وكتمانُ الأمور في كلِّ حالٍ فعلُ الحازم: فإنَّه إنْ كَشَفَ مقدارَ سِنِّه؛ اسْتَهْرَموهُ إنْ كان كبيرًا، واحتقروهُ إنْ كانَ صغيرًا. وإنْ كَشَفَ ما يعتقدهُ؛ ناصَبَهُ الأضدادُ بالعداوةِ. وإنْ كَشَفَ قَدْرَ مالِه؛ استحقَروه إنْ كان قليلًا، وحَسَدوه إنْ كان كثيرًا. وفي هٰذه الثلاثةِ يقول الشاعرُ:

احْفَظْ لِسانَكَ لا تَبُحْ بِثَلاثَةٍ ... سِنٍّ ومالٍ ما اسْتَطَعْتَ ومَذْهَبِ
فعلى الثَّلاثَةِ تُبْتَلى بِثَلاثَةٍ ... بِمُمَوِّهٍ ومُمَخْرِقٍ ومُكَذِّبِ

وقِسْ على ما ذكرتُ ما لم أذكُرْه، ولا تكنْ من المذاييع الغُرِّ[1]، الذين لا يحمِلون أسرارَهُم حتى يُفْشوها إلى مَن لا يَصْلُحُ!

وربَّ كلمةٍ جرى بها اللسانُ هَلَكَ بها الإنسانُ.

٨٠ ـ فصل

[في عبرة العثرة]

رأيتُ كلَّ مَن يَعْثُرُ بشيءٍ أو يَزْلَقُ في مطرٍ يلتفتُ إلى ما عَثَرَ به فينظرُ إليه؛ طَبْعًا موضوعًا في الخلقِ: إما لِيَحْذَرَ منه إن جازَ عليه مرةً أخرى، أو لِيَنْظُرَ ـ مع احترازِه وفهمِه ـ كيف فاتَه التحرُّزُ مِن مثل هٰذا؟! فأخذتُ من ذٰلك إشارةً، وقلتُ:

---

(١) الغِرّ: الذين لا تجربة لهم.

يا من عَثَرَ مرارًا! هَلاَّ أبصرتَ ما الذي عَثَّرَكَ؛ فاحترزتَ من مثلِه، أو قَبَّحْتَ لنفسكَ ـ مع حَزْمِها ـ تلكَ الواقعةَ؟! فإنَّ الغالبَ ممَّن يلتفِتُ أنَّ معنى التفاتِه: كيفَ عَثَرَ مثلي ـ مع احترازِهِ ـ بمثلِ ما أرى؟!

فالعجبُ لك! عثرتَ بمثل الذنبِ الفلانيِّ والذنبِ الفلانيِّ! كيف غَرَّكَ زُخْرُفُ تَعْلَمُ بعقلكَ باطنَه، وترى بعينِ فكرِكَ مآلَه؟! كيف آثرْتَ فانيًا على باقٍ؟! كيف بِعْتَ بِوَكْسٍ[1]؟ كيف اخترتَ لَذَّةَ رَقْدَةٍ على انتباهِ معاملةٍ؟!

آهٍ لك! لقدِ اشتريتَ بما بعتَ أحمالَ ندمٍ لا يُقِلُّها ظَهْرٌ[2]، وتنكيسَ رأسٍ أمسى بعيدَ الرفعِ، ودموعَ حُزْنٍ على قُبْحِ فعلٍ ما لِمَدَدِها انقطاعٌ... وأقبحُ الكلِّ أن يُقالَ لك: بماذا؟! ومِن أجل ماذا؟! وهذا على ماذا؟!

يا من قَلَبَ الغُرورُ عليه الصَّنْجَة ووُزِنَ له والميزانُ راكبٌ[3]!

٨١ـ فصل

[في أن التقوى سعادة في الدنيا ونجاة في الآخرة]

تأملتُ قولَه تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فلا يَضِلُّ ولا يَشْقى﴾ [طه: ١٢٣]: قال المفسرون: ﴿هُدايَ﴾: رسولُ الله ﷺ وكتابي. فوجدتُه على الحقيقة: أنَّ كُلَّ مَنِ اتَّبَعَ القرآنَ والسنَّة، وعَمِلَ بما فيهما؛ فقد سَلِمَ من

(١) الوكس: النقص والخسران.
(٢) لا يُقِلُّها ظهر: لا يقوى على حملها.
(٣) الصنجات: وحدات الوزن. والميزان الراكب: المتعطل الذي لا يتحرك.

الضَّلال بلا شكٍّ، وارتفعَ في حقِّه شقاءُ الآخرةِ بلا شكٍّ، إذا مات على ذٰلك، وكذٰلك شقاءُ الدُّنيا؛ فلا يَشْقى أصلاً، ويُبَيِّنُ هٰذا قولُه تعالى: ﴿ومَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

فإن رأيتَه في شِدَّةٍ؛ فلهُ من اليقين بالجزاءِ ما يُصَيِّرُ الصَّابَ(١) عنده عسلاً، وإلَّا؛ غَلَبَ طيبُ العيش في كلِّ حال.

والغالبُ أنه لا ينزِلُ به شدَّةٌ إلَّا إذا انحرفَ عن جادَّةِ التَّقْوى، فأمَّا الملازمُ لطريق التَّقْوى؛ فلا آفة تَطْرُقُه ولا بَلِيَّةَ تَنْزِلُ به. هٰذا هو الأغلبُ.

فإن نَدَر من تطرقُهُ البلايا مع التَّقوى؛ فذاك في الأغلبِ لتقدُّم ذنبٍ يُجازى عليه.

فإنْ قدَّرْنا عدمَ الذَّنْب؛ فذاك لإدخال ذَهَبِ صَبْرِه كِيْرَ البلاءِ، حتى يَخْرُجَ تِبْرًا أحمرَ؛ فهو يرى عُذوبةَ العذابِ؛ لأنه يشاهِد المبتَلي في البلاءِ الآلِم.

قال الشِّبْليُّ: أَحَبَّكَ الناسُ لِنَعْمائِك، وأنا أحبُّك لبلائِك(٢).

٨٢ ـ فصل

[في أن المؤمن لا يتلذذ بالمعاصي]

لا ينالُ لَذَّةَ المعاصي إلَّا سكرانُ الغفلةِ.

فأما المؤمنُ؛ فإنَّه لا يلتذُّ؛ لأنه عند التذاذِهِ يقفُ بإزائِهِ عَلَمُ التَّحريمِ

(١) الصاب: المر الشديد المرارة.

(٢) أبو بكر البغدادي، صاحب الجنيد، مختلف في اسمه، توفي ٣٣٤هـ، له شطحات وعجائب. ترجمته في: «الحلية» (١٠/٣٦٦)، و«السير» (١٥/٣٦٧).

وحَذَرُ العقوبةِ.

فإن قويتْ معرفتُه؛ رأى بعينِ علمِهِ قربَ الناهي، فيتنغَّصُ عيشُه في حال التذاذِهِ.

فإن غَلَبَ سُكْرُ الهوى؛ كانَ القلبُ متنغِّصًا بهٰذه المراقباتِ، وإنْ كان الطبعُ في شهوتِهِ.

وما هي إلَّا لحظةٌ، ثم خُذْ من غَريمِ نَدَمٍ ملازمٍ، وبكاءٍ متواصل، وأسفٍ على ما كانَ مع طولِ الزَّمان، حتَّى إنه لو تَيَقَّنَ العفوَ؛ وقَفَ بإزائِهِ حَذَرَ العتابِ.

فأُفٍّ للذُّنوب! ما أقبحَ آثارَها! وما أسوأَ أخبارَها!

ولا كانتْ شهوةٌ لا تُنالُ إلَّا بمقدارِ قوةِ الغفلةِ.

٨٣ ـ فصل
[في تلبيس إبليس على الزهاد]

بَكَّرْتُ يومًا أطلبُ الخَلْوَةَ إلى جامع الرُّصَافةِ، فجعلتُ أجولُ وحدي وأتفكَّرُ في ذٰلك المكانِ ومَنْ كانَ به من العلماءِ والصَّالحينَ، ورأيتُ أقوامًا قد جاوروا فيه، فسألتُ أحدَهُم: منذُ كم أنت ها هنا؟ فأومأ إلى قريبٍ من أربعين سنةً! فرأيتُه في بيتٍ كثيرِ الدَّرَنِ والوَسَخِ، وجعلتُ أتفكَّرُ في حبسهِ لنفسهِ عن النِّكاحِ هٰذه المدةَ!!

فأخذتِ النفسُ تُحَسِّنُ ذٰلك، وتَذُمُّ الدُّنيا والاغترارَ بها.

فأقبلَ العلمُ ينكِرُ على النفس، ونَهَضَ الفهمُ لحقائقِ الأمورِ

وموضوع الشرع يُقَوِّي ما قال العلمُ، فتجلَّى[١] من ذلك أن قلتُ للنفس: اعلمي أن هٰؤلاء على ضربين:

منهم مَن يجاهدُ نفسَه في الصَّبْرِ على هٰذه الأحوال، فتفوتُه فضائلُ المخالطةِ لأهل العلم، والعملُ، وطلبُ الولد، ونفعُ الخلق، وانتفاعُ نفسه بمجالسةِ أهلِ الفَهْم، فَيَحْدُثُ له من نفسه حالةٌ تشابهُ فيها الوَحْشَ، فتؤثِرُ الانفرادَ لنفسِ الانفرادِ، وربما يَبِسَ الطبعُ وساء الخُلُق، وربما حَدَثَ من حبس مائِهِ المحتقنِ سُمِّيَّةٌ أفسدتْ بدنَه وعقلَه، وربما أورثْته الخلوةُ وسوسةً، وربما ظَنَّ أنه من الأولياءِ واستغنى بما يعرفُه، وربما خَيَّلَ له الشيطانُ أشياءَ من الخيالات وهو يَعُدُّها كراماتٍ!! وربما ظَنَّ أن الذي هو فيه الغايةُ، ولا يدري أنه إلى الكراهةِ أقربُ؛ فإنَّ رسولَ الله ﷺ نهى أن يبيتَ الرجلُ وحدَه[٢]؛ وهٰؤلاء كلٌّ منهم يبيتُ وحده! ونهى عن التَّبَتُّل[٣]؛ وهٰذا تبتل! ونهى عن الرَّهْبانِيَّةِ[٤]... وهٰذا من خفيٍّ خدعِ إبليس التي

---

(١) في الأصول: «فينحل»!! ولا معنى لها، والأقرب ما أثبتناه، والله أعلم.

(٢) (صحيح). رواه أحمد (٢ / ٩١) من طريق أبي عبيدة الحداد، عن عاصم بن محمد، عن أبيه، عن ابن عمر؛ مرفوعًا.

قال الهيثمي في «المجمع» (٨ / ١٠٧): «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح». ولمعناه شواهد بعضها مخرج في «الصحيحين»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١ / ١٢٩ / ٦٠) على شرط البخاري.

(٣) رواه: البخاري (٦٧ ـ كتاب النكاح، ٨ ـ باب ما يكره من التبتل والخصاء، ٩ / ١١٧ / ٥٠٧٣)، ومسلم (١٦ ـ كتاب النكاح، ١ ـ باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ٢ / ١٠٢٠ / ١٤٠٢)؛ من حديث سعد: أن عثمان بن مظعون أراد التبتل فنهاه رسول الله ﷺ.

(٤) (صحيح). وهي زيادة رواها الدارمي (٢ / ١٣٣) في حديث «الصحيحين» =

يوقِعُ بها في وَرَطاتِ الضلال بألطف وجهٍ وأخفاه.

والضرب الثاني: مشايخُ قد فَنُوا فانقطعوا ضرورةً؛ إذ ليس لأحدِهم مأوى؛ فهم في مقام الزَّمْنى.

وإنْ كانَ الضربُ الأولُ قد قطعوا حَبْلَ نفوسِهم في العلم والعمل والكَسْب، وتعلَّقَتْ هممهُم بفُتوحٍ يَطْرُقُ عليهم الباب، فرضُوا بالعمى بعد البصر، وبالزَّمَنِ بعد الإطلاق[١].

فقالت لي النفسُ: لا أرضى هٰذا الذي تقولُه؛ فإنك إنما تميلُ إلى إيثارِ نِكاحِ المُسْتَحْسَناتِ والمطاعمِ المُشْتَهياتِ؛ فإذا لم تكنْ من أهل التعبُّد؛ فلا تطعنْ فيهم.

فقلتُ لها: إنْ فهمتِ؛ حدَّثْتُك، وإن كنتِ تقلِّدين صُوَرَ الأحوال؛ فلا فَهْمَ لك.

أمـا المستحسنـاتُ؛ فإنَّ المقصـودَ من النكاح أشياءُ: منها طَلَبُ الولدِ، ومنها شفاءُ النفس بإخراجِ الفضلةِ المؤذيةِ، وكمالُ خروجِها لا يكونُ إلَّا بوجـودِ المُسْتَحْسَن! واعتبـرْ هٰذا بالـوطءِ دونَ الفرج؛ فإنه يُخْرِجُ من

= السابق بسند حسن في الشواهد.

وقد جاءت أيضًا في قصة عثمان بن مظعون نفسها لٰكن من حديث عائشة رضي الله عنها عند: أحمد (٦ / ٢٢٦)، وابن حبان (١ / ١٨٥ / ٩).

قال الهيثمي في «المجمع» (٤ / ٣٠٤) بعد أن ذكر عدة روايات في حديث عائشة عند أحمد: «وأسانيد أحمد رجالها ثقات؛ إلا أن طريق «إن أخشاكم» (يعني: هٰذا الحديث) أسندها أحمد ووصلها البزار برجال ثقات». وصححه الألباني في «الإرواء» (٧ / ٧٩) على شرطهما.

(١) يعني: رضي بالقعود كالمرضى العجزة بعد أن أصح الله جسده وأطلق رجليه.

الفضلاتِ ما لا يَخْرُجُ بالوطءِ من الفرج! وبتمام خروج تلك الفضلةِ تَفْرُغُ النفس عن شواغِلِها فتدري أين هي؛ كما نأمرُ القاضي بالأكلِ قبل الحُكم، وننهاهُ عن الحُكْمِ وهو غضبانُ أو حاقنٌ[١]. وبكمالِ بلوغ هٰذا الغرضِ يكونُ كمالُ الولدِ بتمامِ النُّطْفَةِ التي تَخَلَّقَ منها[٢]. ثم للنفسِ حظٌّ؛ فهو يستوفيه استيفاءَ الناقةِ حظَّها من العَلَفِ في السفر، وذٰلك يُعين على سَيْرِها.

وأما المطاعمُ؛ فالجاهلُ مَن يطلُبها لذاتها أو لنفسِ لَذَّاتِها، وإنما المرادُ إصلاحُ الناقةِ لجمعِ هَمِّها ونيلِ مُرادها من غَرَضِها الصارفِ لها عن الفكرِ في هواها.

وإذا تأمَّلْتَ حالَ الشَّرْب الأولِ؛ رأيتَ من هٰذا عجبًا:

فإنَّ النبيَّ ﷺ اختار لنفسه عائشة رضي الله عنها وكانت مستحسنةً[٣]. ورأى زينبَ، فاستحْسَنَها، فتزوَّجَها[٤]. وكذٰلك اختارَ

---

(١) جاء هٰذا في حديث مرفوع صحيح تقدم لفظه وتخريجه في (فصل ٢٨).

(٢) وهٰذا من المعلومات الطبية التي سادت عصر المؤلف، ولا يقر الطب الحديث هٰذه الافتراضات.

(٣) نعم؛ كانت عائشة رضي الله عنها مستحسنة، ولٰكن النبي ﷺ لم يخترها، وإنما زوجه الله إياها؛ كما روى البخاري (٦٧ ـ كتاب النكاح، ٣٥ ـ باب النظر إلى المرأة قبل التزويج، ٩ / ١٨٠ / ٥١٢٥)، ومسلم (٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة، ١٣ ـ باب في فضل عائشة رضي الله تعالى عنها، ٤ / ١٨٨٩ / ٢٤٣٨)؛ عن عائشة أنها قالت: قال ﷺ: «أريتك في المنام ثلاث ليال، جاء بك الملك في سَرَقة من حرير، فيقول: هٰذه امرأتك، فأكشف عن وجهك؛ فإذا أنت هي، فأقول: إن يك هٰذا من عند الله؛ يُمْضِه».

(٤) قصة زواجه ﷺ من زينب رضي الله عنها رواها: البخاري (٩٧ ـ كتاب =

صَفِيَّةَ[١]. وكان إذا وُصِفَتْ له امرأةٌ؛ بَعَثَ يخطِبُها[٢].

= التوحيد، ٢٢ ـ باب ﴿وكان عرشه على الماء﴾، ١٣/ ٤٠٣ / ٧٤٢٠ و ٧٤٢١)، ومسلم (١٦ ـ كتاب النكاح، ١٥ ـ باب زواج زينب بنت جحش، ٤ / ١٠٤٨ / ١٤٢٨)؛ من حديث أنس، وليس في ذلك كله ولا غيره مما صح أنه ﷺ رآها فاستحسنها فأحبها فتزوجها! ولم يكن الأمر كذلك، بل جاء هذا في خبر منكر جدًا رواه: ابن سعد في «الطبقات» (٨ / ٢٩٥)، والحاكم (٤ / ٢٣)، وسكت عنه الذهبي، وفيه الواقدي المتروك.

وقد أنكر المحققون من أهل العلم القصة بهذا السياق: فأطال الإمام ابن القيم في «الزاد» (٤ / ٢٦٦) في ردها، وكذلك أعرض عنها الحافظ ابن كثير في «التفسير» (٣ / ٤٧٢ / الأحزاب ٣٧)، وردها أيضًا الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٨ / ٥٢٣ / ٤٧٨٧).

ولا نود أن نطيل بذكر أقوالهم على أهميتها الكبيرة، ولكن من الضروري أن نشير إلى أن محصل كلامهم أن قوله تعالى: ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه﴾ [الأحزاب: ٣٧]: لم ينزل في شأن رؤية النبي ﷺ لزينب رضي الله عنها واستحسانها وعشقها كما ظن من لم يقدر رسول الله ﷺ حق قدره، ولكن الذي أخفاه النبي ﷺ هو إخبار الله تعالى إياه بأنها ستصير زوجته؛ خشية من الناس أن يقولوا: تزوج امرأة ابنه!

(١) روى: البخاري (٨ ـ كتاب الصلاة، ١٢ ـ باب ما يذكر في الفخذ، ١ / ٤٧٩ / ٣٧١)، ومسلم (١٦ ـ كتاب النكاح، ١٤ ـ باب فضيلة إعتاقه أمة ثم يتزوجها، ٢ / ١٠٤٣ / ١٣٦٥)؛ عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أصاب خيبر عنوة، وجمع السبي، فجاءه دحية، فقال: يا رسول الله! أعطني جارية من السبي. فقال: «اذهب فخذ جارية». فأخذ صفية بنت حيي. فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله! أعطيت دحية صفية بنت حيي سيد قريظة والنضير؟ ما تصلح إلا لك. قال: «ادعوه بها». قال: فجاء بها، فلما نظر إليها النبي ﷺ؛ قال: «خذ جارية من السبي غيرها». قال: وأعتقها، وتزوجها.

(٢) وهذا توسع غير مستساغ من المؤلف رحمه الله، فكأن النبي ﷺ لم يكن له شغل إلا تتبع أوصاف النساء وخطبتهن!! وليس هناك ما يشهد لهذه المبالغة في السنة، نعم؛ من الطبيعي أنه ﷺ كان يخطب المرأة التي تعجبه بعد أن ينظر إليها، ولكن عبارة ابن الجوزي تحمل ما هو فوق ذلك مما يطير به المرجفون ومن في قلبه مرض.

وكان لعليٍّ رضي الله عنه أربعُ حرائرَ، وسبعَ عشرة سُرِّيَّةً مات عنهن[١].

وقبل هٰذه الأمة؛ فقد كان لداوودَ عليه السلام مئةُ امرأةٍ[٢]، ولسليمان عليه السلام ألفُ امرأةٍ[٢].

فمن ادَّعى خَللاً في هٰذه الطرق، أو أنَّ هٰؤلاء آثروا هواهم، وأنفقوا بضائعَ العُمُر في هٰذه الأغراض، وغيرُها أفضلُ؛ فقد ادَّعى على الكاملينَ النقصانَ، وإنما هو الناقصُ في فهمهِ لا هُمْ.

وقد كان سفيانُ الثوريُّ إذا سافر؛ ففي سُفْرَتِهِ حَمَلٌ مشويٌّ وفالوذجٌ، وكان حَسَنَ المَطْعَمِ، وكان يقولُ: إن الدَّابَّةَ إذا لم تُحْسِنْ إليها؛ لم تعملْ.

وهٰذه الفنونُ التي أشرتُ إليها؛ إنْ قُصِدَتْ للحاجة إليها، أو لقضاءِ وَطَرِ النفس منها، أو لِبلوغِ الأغراض الدينيَّة والدُّنيويَّة منها؛ فكلُّه قصدٌ صحيحٌ، لا يعكِّرُ عليه مَن يقومُ ويقعُدُ في ركعاتٍ لا يفهمُ معناها وفي تسبيحاتٍ أكثرُ ألفاظِها رَدِيَّةٌ.

كلَّا؛ ليس إلَّا العلمُ الذي هو أفضلُ الصفاتِ، وأشرفُ العباداتِ، وهو الآمرُ بالمصالح، والناطقُ بالنصائح.

ثم منفعة العلم معروفةٌ، وزهدُ الزاهدِ لا يتعدَّى عتبةَ بابه؛ وقد قال ﷺ: «لأنْ يَهْدِيَ الله بكَ رجلاً خيرٌ لك مما طَلَعَتْ عليه الشمسُ»[١].

---

(١) انظر ما تقدم في (فصل ١٩ و٢١).

(٢) تقدم الكلام عن وهاء هٰذه القصة في (فصل ٢٨).

ثم اعتبرْ فَضْلَ الرُّسُلِ على الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلام، والجوارحِ على التي لا تصيدُ، والطينِ الذي يُعْمَلُ منه ما يُنْتَفَعُ به على الطينِ في المُطَّلَع(١).

وغايةُ العلماء تصرُّفُهم بالعلم في المباح، وأكثرُ المتزهِّدين جهلةٌ يستعبِدُهم تقبيلُ اليَدِ لأجل تَرْكِهِم ما أبيحَ.

فكم فَوَّتَتِ العُزْلَةُ علمًا يَصْلُحُ به أصلُ الدين، وكم أوقعتْ في بَلِيَّةٍ هَلَكَ بها الدينُ، وإنما عُزلة العالم عن الشرِّ فحسبُ.

والله الموفق.

٨٤ـ فصل

[إياكم والاغترار بحلم الله وكرمه]

ينبغي لكلِّ ذي لُبٍّ وفِطْنَةٍ أن يحذرَ عواقبَ المعاصي؛ فإنه ليس بين الآدميِّ وبين الله تعالى قرابةٌ ولا رَحِمٌ، وإنما هو قائمٌ بالقِسْطِ حاكمٌ بالعدل.

وإن كان حِلْمُهُ يَسَعُ الذُّنوبَ؛ إلَّا أنه إذا شاء؛ عفا، فَعَفَّى(٢) كلَّ كثيفٍ من الذُّنوب، وإذا شاء أخذ باليسير. فالحذرَ الحذرَ!

ولقد رأيتُ أقوامًا من المُتْرَفين، كانوا يتقلَّبونَ في الظُّلْم والمعاصي

---

(١) في الأصول: «المقلع»! ولا معنى لها، والتصويب من بعض المطبوعات، والمطَّلع: الطريق. وهو الذي يؤذي طينه ولا ينفع.

(٢) فعفَّى: فمحا وأزال.

باطنةً وظاهرةً، فتُبِعوا[١] من حيثُ لم يَحْتَسِبوا، فقُلِعَتْ أصولُهم، ونُقِضَ ما بَنَوْا من قواعدَ أحكَموها لِذَرارِيهم، وما كان ذٰلك إلَّا أنَّهم أهْمَلوا جانبَ الحقِّ عزَّ وجلَّ، وظنُّوا أن ما يفعلونَه من خيرٍ يقاوِمُ ما يجري من شرٍّ، فمالتْ سفينةُ ظنونِهم، فدخَلَها من ماءِ الكَيْدِ ما أغرقهم.

ورأيتُ أقوامًا من المنتسبينَ إلى العلم أهملوا نَظَرَ الحقِّ عزَّ وجلَّ إليهم في الخَلَوات، فمَحا محاسنَ ذِكْرِهم في الجَلَواتِ، فكانوا موجودينَ كالمعدومينَ، لا حلاوةَ لرؤيتِهم، ولا قلبَ يَحِنُّ إلى لقائِهم.

فاللهَ اللهَ في مراقبةِ الحقِّ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ ميزانَ عدلِه تَبينُ فيه الذَّرَّةُ، وجزاؤُهُ مُراصِدٌ للمخطىءِ ولو بعدَ حينٍ، وربما ظَنَّ أنه العفوُ، وإنما هو إمهالٌ، وللذُّنوبِ عواقبُ سيئةٌ.

فاللهَ اللهَ! الخلواتِ الخلواتِ! البواطنَ البواطنَ! النياتِ النياتِ؛ فإن عليكم من الله عينًا ناظرةً! وإياكم والاغترارَ بحِلْمه وكرمه؛ فكم قدِ استدرجَ! وكونوا على مراقبةِ الخطايا، مجتهدينَ في مَحْوِها! وما شيءٌ ينفعُ كالتضرُّعِ مع الحِمْية عن الخطايا؛ فلعلَّه[٢].

وهٰذا فصلٌ إذا تأمَّلَهُ المعامِلُ لله تعالى؛ نَفَعَهُ.

ولقد قال بعضُ المراقبين لله تعالى: قَدَرْتُ على لَذَّةٍ وليست بكبيرةٍ، فنازعتني نفسي إليها؛ اعتمادًا على صِغَرِها وعِظَمِ فَضْلِ الله تعالى وكرمِهِ، فقلتُ لنفسي: إن غَلَبْتِ هٰذه؛ فأنتِ أنتِ، وإذا أتَيْتِ هٰذه؛ فمن أنت؟!

---

(١) في الأصول: «فتعبوا»! ولا معنى لها، والأقرب ما أثبتناه.

(٢) يعني: فلعله ينفع، وهو أسلوب عربي فصيح.

وذكَّرتُها حالةَ أقوام كانوا يفسحونَ لأنفسِهم في مسامحةٍ؛ كيف انطوتْ أذكارُهم، وتمكَّن عقوبةُ الإعراضِ منهم، فارعوتْ[1] ورجعتْ عما هَمَّتْ به.

والله الموفق.

٨٥ـ فصل

[إياكم ومحقرات الذنوب]

كثيرٌ من الناس يتسامَحون في أمور يظنُّونها قريبةً وهي تقدَحُ في الأصول؛ كاستعارةِ طلابِ العلم جُزْءًا لا يردُّونه، وقصدِ الدُّخول على من يأكُلُ ليُؤكَلَ معه، والتسامح بِعِرْضِ العدوِّ التذاذًا بذلك واستصغارًا لمثل هذا الذنبِ، وإطلاقِ البصرِ استهانةً بتلك الخطيئةِ، وفتوى مَن لا يَعْلَمُ لئلا يُقال: هو جاهلٌ . . . ونحوِ ذلك مما يظنُّه صغيرًا وهو عظيم[2].

وأهونُ ما يَصْنَعُ ذلك بصاحبِهِ أن يَحُطَّهُ من مرتبةِ المتميِّزينَ بين الناس، ومن مَقام رِفْعَةِ القَدْرِ عند الحقِّ . . . وربما قيلَ له بلسانِ الحق: يا مَنِ اؤْتُمِنَ على أمرٍ يسيرٍ فخانَ! كيف ترجو بِتَدَلِّيك[3] رضى الديَّان؟!

قال بعض السلف: تسامحتُ بلُقمةٍ، فتناولتُها، فأنا اليوم من أربعين سنةً إلى خَلْف.

---

(١) ارعوت: تراجعت واتعظت وامتنعت عن المعصية.

(٢) وقع قوله: «وفتوى من . . . عظيم» في الأصول بعد الفقرة التالية، وهو خطأ ظاهر، والتصويب من بعض المطبوعات.

(٣) التدلِّي: هو مواقعة المعاصي والوقوع في الآثام مع الاغترار بعفو الله.

فاللهَ اللهَ! اسمعوا ممَّنْ قد جرَّبَ! كونوا على مراقبةٍ! وانظُروا في العواقبِ! واعرِفوا عَظَمَةَ الناهي! واحذَروا من نفخةٍ تُحْتَقَرُ وشَرَرَةٍ تُسْتَصْغَرُ؛ فربما أحرقتْ بلدًا!

وهذا الذي أشرتُ إليه؛ يسيرٌ يَدُلُّ على كثيرٍ، وأُنموذَجٌ يُعَرِّفُ باقي المحقَّراتِ من الذُّنوب.

والعلمُ والمراقبةُ يُعَرِّفَانِك ما أخللتَ بذِكْرِه، ويعلِّمانِك إنِ تلمَّحْتَ بعينِ البصيرةِ أثرَ شؤمِ فعلِه، ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله العليِّ العظيم.

٨٦ ـ فصل

[في تقديم التوبة بين يدي طلب الحوائج]

رأيتُ من نفسي عَجبًا! تَسْأَلُ اللهَ عزَّ وجلَّ حاجاتِها، وتنسى جِناياتِها!!

فقلتُ: يا نفسَ السَّوْءِ! أَوَمثلُك يَنْطِقُ؟! فإنْ نَطَقَ؛ فينبغي أن يكونَ السؤالُ العفوَ فَحَسْبُ.

فقالتْ: فمِمَّنْ أطلُبُ مراداتي؟!

قلتُ: ما أمنعُك من طلبِ المُرادِ، إنما أقولُ: حَقِّقي التوبةَ وانطِقي؛ كما نقولُ في العاصي بِسَفَرِه إذا اضْطُرَّ إلى المَيْتَةِ: لا يجوزُ له أنْ يأكلَ. فإنْ قيلَ لنا: أفيموتُ؟! قُلنا: لا؛ بل يتوبُ ويأكُلُ.

فاللهَ اللهَ من جراءةٍ على طلب الأغراضِ مع نسيانِ ما تَقَدَّمَ من الذُّنوبِ التي توجبُ تَنْكيسَ الرأسِ، ولئنْ تشاغلتِ بإصلاحِ ما مضى والندمِ عليه؛ جاءَتْكِ مراداتُك.

كما رُوِيَ: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْري عن مَسْألتي؛ أعْطَيْتُهُ أفضلَ ما أُعطي السائلينَ»(١).

وقد كان بِشْرُ الحافي يَبْسُطُ يَدَيْهِ للسؤالِ، ثم يُسْبِلُهُما ويقولُ: مثلي لا يسألُ! ما أبقتِ الذُّنوبُ لي وجهًا(٢).

وهٰذا يختصُّ ببشرٍ لقوَّةِ معرفتِهِ، كان وقتَ السُّؤالِ كالمُخاطِبِ كِفاحًا، فاسْتَحْيا للزَّلل. فأما أهلُ الغفلةِ؛ فسؤالُهم على بُعْدٍ.

فافهم ما ذكرتُه، وتشاغَلْ بالتَّوْبَةِ من الزَّلَلِ.

ثم العجبُ من سُؤالاتِكَ! فإنك لا تكادُ تسألُ مهمًّا من الدُّنيا، بل فضولَ العيش، ولا تسألُ صَلاحَ القلبِ والدِّين مِثْلَ ما تسألُ صَلاحَ الدُّنيا.

فاعقلْ أمرَكَ؛ فإنَّكَ من الانبساطِ والغفلةِ على شَفَا جُرُفٍ، ولْيَكُنْ حُزْنُكَ على زَلَّاتِكَ شاغِلاً لك عن مُراداتِكَ؛ فقد كان الحسنُ البصريُّ

---

(١) (ضعيف). رواه: الدارمي (٢ / ٤٤١)، والترمذي (٤٦ ـ كتاب فضائل القرآن، ٢٥ ـ باب، ٥/١٨٤/٢٩٢٦)؛ من طريق محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قال الترمذي: «هٰذا حديث حسن غريب»! كذا! وفيه عطية العوفي: ضعيف. ومحمد بن الحسن بن أبي يزيد: متروك متهم. ولذٰلك ساق الذهبي هٰذا الحديث فيما أنكر عليه في «الميزان» وقال: «حسنه الترمذي فلم يحسن». وكذٰلك أيضًا ضعفه العراقي في «تخريج الإحياء» (١ / ٢٩٥)، والحافظ في «الفتح» (٩ / ٦٦ / ٥٠٢١).

نعم؛ للحديث شواهد كثيرة عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم؛ إلا أنها متراوحة بين الضعف والضعف الشديد؛ فلا تصلح للاعتبار، وقد فصل الألباني الكلام فيها في «الضعيفة» (٣ / ٥٠٦ / ١٣٣٥)، وخلص إلى ضعف الحديث؛ فلينظره من شاء.

(٢) تقدمت ترجمة بشر الحافي في (فصل ١٩).

شديد الخوف، فلما قيل له في ذٰلك؟ قال: وما يؤمِنُني أنْ يكونَ اطَّلَعَ على بعض ذُنوبي فقالَ: اذهبْ؛ لا غفرتُ لك(١)؟!

٨٧ ـ فصل

[في أن العجب داء الجهلة والغافلين]

أعجبُ العَجَبِ دعوى المعرفةِ مع البُعْدِ عن العِرْفانِ بالله!

ما عَرَفَهُ إلَّا مَنْ خافَ منه؛ فأما المطمئنُّ؛ فليس من أهلِ المعرفةِ.

وفي المتزهِّدين أهلُ تغفيلٍ . . . يكادُ أحدُهم يوقِنُ أنَّه وليٌّ محبوبٌ ومقبولٌ! وربما توالتْ عليه ألطافٌ ظنَّها كراماتٍ، ونسي الاستدراجَ الذي لَفَّتْ مساكنتهُ الألطافَ! وربما احتقرَ غيرَهُ، وظَنَّ أن مَحِلَّته(٢) محفوظةٌ به! تَغُرُّهُ رُكَيْعاتٌ يَنْتَصِبُ فيها، أو عبادةٌ يَنْصَبُ بها! وربما ظَنَّ أنه قُطْبُ الأرضِ! وأنه لا ينالُ مقامَه بعدَه أحدٌ!! وكأنَّهُ ما علمَ أنه بينا موسى مكالَمٌ؛ نُبِّىءَ يوشعُ(٣)! وبينا زكريَّا عليه السلام مجابُ الدَّعوةِ؛ نُشِرَ بالمنشار(٤)! وبينا يحيى عليه السلام يوصَفُ بأنه سَيِّدٌ؛ سُلِّطَ عليه كافرٌ احتزَّ

---

(١) تقدمت ترجمة الحسن في (فصل ٩)، وانظر الخبر في «الزهد» (ص ٣٤١).

(٢) المَحِلَّة: البلدة التي يسكن فيها.

(٣) تابع المؤلف رحمه الله في هٰذا كلامًا جاء في الإسرائيليات حكاه ابن جرير في «التفسير» وغيره عن محمد بن إسحاق مقتضاه أن النبوة حولت آخر عمر موسى منه إلى يوشع بن نون!! ورد هٰذا الكلام ابن كثير في «البداية والنهاية» (١ / ٤٣٥) بأوضح الأدلة وأنصع البراهين من الكتاب والسنة، بل ومن كلام أهل الكتاب في كتابهم؛ ولا نحب أن نطيل بإيراده؛ فليراجعه من شاء؛ فإنه نفيس.

(٤) (منكر). أخرجه: إسحاق بن بشر في كتابه «المبتدأ» (١ / ٥٢٥ ـ بداية =

رأسه[١]! وبينا بَلْعامُ معه الاسمُ الأعظمُ؛ صارَ مَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْب[٢]! وبينا الشريعةُ يُعْمَلُ بها؛ نُسِخَتْ وبَطَلَ حكمُها! وبينا البدنُ معمورٌ؛ خَربَ وسُلِّطَ البلى عليه! وبينا العالِمُ يدأبُ حتى ينال مرتبةً يعتقدُها؛ نشأ طفلٌ في زمانهِ ترقَّى إلى سَبْرِ عيوبهِ وغلطهِ...

وكم من متكلِّمٍ يقول: ما مثلي! لو عاش فسمعَ ما حَدَثَ بعدَه من الفصاحةِ؛ عَدَّ نفسه أخرسَ! هٰذا وعظُ ابنِ السمَّاكِ وابنِ عمارٍ وابنِ سمعونَ؛ لا يَصْلُحُ لبعض تلامذتِنا ولا يرضاهُ.

فكيف يَعْجَبُ من يَنْفَقُ شيئًا؟! وربما أتى بعدَنا من لا يَعُدُّنا!!

= ونهاية): أنبأنا يعقوب الكوفي، عن عمرو بن ميمون، عن أبيه، عن ابن عباس... فذكره في سياق طويل غريب في قصة إسراء النبي ﷺ.

قال الحافظ ابن كثير: «هٰذا سياق غريب جدًّا وحديث عجيب ورفعه منكر، وفيه ما ينكر على كل حال، ولم يرد في شيء من أحاديث الإسراء ذكر زكريا عليه السلام إلا في هٰذا الحديث».

وأما مرويات أهل الكتاب في هٰذا؛ فمتناقضة أيضًا:

قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (١ / ٥٢٣): «وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبه: هل مات زكريا عليه السلام موتًا أو قتل قتلاً على روايتين...»، ثم ذكرهما.

(١) وقد اتفقت على هٰذا جميع مرويات السلف، لكن اختلفوا في سبب مقتله عليه السلام وموضعه. وانظر للتفصيل: «البداية والنهاية» (١ / ٥٢٥).

(٢) ذكر كثير من أهل التفسير أنه المقصود بقوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولٰكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]، ورووا في ذٰلك مرويات متعددة عن كثير من السلف، وليس فيها شيء مرفوع صحيح يعتمد عليه، بل عامتها مأخوذ من الإسرائيليات؛ فالله أعلم. والآيات - في كل الأحوال - أعم وأوسع من أن تقصر على هٰذه القصة أو غيرها.

فاللهَ اللهَ من مساكنةِ مسكنٍ ومخالفةِ مقامٍ . . . وليكنِ المتيقظُ على انـزعـاجٍ ، محتقرًا للكثيرِ من طاعاتِهِ ، خائفًا على نفسه من تقلُّباتِه ونفوذِ الأقدارِ فيه .

واعلمْ أن تَلَمُّحَ هذه الأشياءِ التي أشَرْتُ إليها يَضرِبُ عُنُقَ العُجْبِ ويُذْهِبُ كِبْرَ الكِبْرِ(١) .

٨٨ ـ فصل

[في ضرورة الإعداد لساعة الشدة]

من عاشَ معَ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ طَيِّبَ النفس في زمنِ السلامةِ ؛ خِفْتُ عليه زمنَ البلاءِ ؛ فهناك المحكُّ .

إنَّ الملِكَ عزَّ وجلَّ بَيْنا يبني نقضَ وبَيْنا يُعطي سَلَبَ ؛ فَطيبُ النفس والرضى هناك يَبِينُ(٢) .

فأما مَن تواصلتْ لديه النِّعمُ ؛ فإنه يكونُ طَيِّبَ القلبِ لتواصُلِها ؛ فإذا مَسَّتْهُ نفحةٌ من البلاءِ ؛ فبعيدٌ ثباتُه .

قال الحسنُ البصريُّ : كانوا يتساوَوْن في وقتِ النِّعم ؛ فإذا نزلَ البلاءُ ؛ تباينوا(٣) .

---

(١) كِبْر الكبر : عُظمه وجُلّه .

(٢) يعني : الرضى وطيب النفس في حالات الرخاء أمر معهود مشهود .

(٣) تقدمت ترجمة الحسن في (فصل ١٩) . والخبر في «الزهد» (ص ٣٤٣) بعكس ما هنا ؛ ففيه : «قد والله رأيتهم يتفاوتون في العافية ؛ فإذا نزل البلاء ؛ تساووا» .

فالعاقلُ من أعدَّ ذُخرًا، وحصَّل زادًا، وازداد من العُدَدِ؛ للقاءِ حَرْبِ البلاء. . . ولا بدَّ من لقاءِ البلاءِ، ولو لم يكنْ إلَّا عندَ صَرْعَةِ الموتِ؛ فإنها إن نزلتْ ـ والعياذُ بالله ـ فلم تجدْ معرفةً توجبُ الرِّضى أو الصبرَ؛ أخرجتْ إلى الكفرِ.

ولقد سمعتُ بعضَ من كنتُ أظنُّ فيه كَثْرَةَ الخير وهو يقولُ في ليالي موتِهِ: ربي هو ذا يظلِمُني! فلم أزلْ منزعِجًا مهتمًّا بتحصيلِ عُدَّةٍ ألقى بها ذلك اليومَ.

كيف؛ وقد رُوِيَ أن الشيطانَ يقولُ لأعوانِهِ في تلك الساعة: عليكم بهٰذا؛ فإنْ فاتكم؛ فلَم تقدِروا عليه[1]؟!

وأيُّ قلبٍ يَثْبُتُ عند إمساكِ النَّفَس، والأخذِ بالكَظَم[2]، ونَزْعِ النَّفْس، والعلم بمفارقةِ المحبوباتِ إلى ما لا يدري ما هو، وليس في ظاهرهِ إلَّا القبرَ والبلاءَ.

فنسألُ الله عزَّ وجلَّ يقينًا يَقِيْنا[3] شرَّ ذلك اليوم؛ لعلَّنا نصبِرُ للقضاءِ أو نرضى به، ونرغبُ إلى مالكِ الأمورِ في أنْ يَهَبَ لنا من فواضلِ نِعَمِهِ على أحبابِهِ؛ حتى يكونَ لقاؤهُ أحبَّ إلينا مِن بقائِنا، وتفويضُنا إلى تقديرِه أشهى لنا مِن اختيارِنا.

ونعوذُ بالله من اعتقادِ الكمال لتدبيرِنا، حتى إذا انعكسَ علينا أمْرٌ؛

(١) هٰذا المعنى صحيح بلا شك، ولا نعلمه في المرفوع؛ فلعله من أقوال الصحابة أو التابعين. والله أعلم.

(٢) الكظم: مخرج النَّفَس.

(٣) يقينًا يقينا: إيمانًا يحفظنا.

عُدْنا إلى القَدَرِ بالتسخُّطِ، وهٰذا هو الجهلُ المحضُ والخِذْلانُ الصَّريحُ، أعاذنا الله منه.

٨٩ـ فصل

[معرفة الله الحقة تورث سعادة الدنيا والآخرة]

ليس في الدُّنيا ولا في الآخرةِ أطيبُ عيشًا من العارفينَ بالله عزَّ وجلَّ.

فإن العارفَ به مستأنسٌ به في خَلْوَتِهِ؛ فإنْ عَمَّتْ نعمةٌ؛ عَلِمَ مَن أهداها، وإنْ مَرَّ مرٌّ؛ حَلا مذاقُه في فيه؛ لمعرفتهِ بالمُبْتَلي، وإنْ سألَ فتعوَّقَ مقصودُه؛ صار مرادُهُ ما جرى به القَدَرُ؛ عِلْمًا منه بالمصلحةِ بعد يقينهِ بالحكمةِ وثقتهِ بحسنِ التدبيرِ.

وصفةُ العارف: أنَّ قلبَه مراقِبٌ لمعروفهِ[1]، قائمٌ بين يديهِ، ناظرٌ بعينِ اليقين إليه؛ فقدْ سرى من بركةِ معرفتهِ إلى الجوارح ما هَذَّبَها.

فإنْ نَطَقْتُ فَلَمْ أَنْطِقْ بِغَيْرِكُمُ وإنْ سَكَتُّ فأنتم عَقْدُ إضْماري

إذا تسلَّط على العارف أذىً؛ أعرضَ نظرُه عن السَّبب، ولم يَرَ سوى المسبِّب؛ فهو في أطيبِ عيشٍ معه: إن سَكَتَ؛ تَفَكَّرَ في إقامة حقِّه، وإن نَطَقَ؛ تَكَلَّمَ بما يُرضيه، لا يسكُنُ قلبُه إلى زوجةٍ ولا إلى ولدٍ، ولا يتشبَّثُ بذيل محبةِ أحدٍ، وإنما يعاشِرُ الخَلْقَ ببدنهِ، وَروحُهُ عِنْدَ مالِكِ روحِهِ.

فهٰذا الذي لا هَمَّ عليه في الدُّنيا، ولا غمَّ عندَه وقتَ الرحيل عنها،

---

(١) يعني: مراقب لربه.

ولا وَحْشَةَ له في القَبْرِ، ولا خوفَ عليه يومَ المحشرِ.

فأما مَنْ عَدِمَ المعرفةَ؛ فإنه مُعَثَّرٌ: لا يزال يَضِجُّ من البلاءِ، لأنه لا يعرِفُ المبتلي، ويستوحشُ لفقدِ غرضهِ؛ لأنه لا يعرف المصلحةَ، ويستأنسُ بجنسهِ؛ لأنه لا معرفةَ بينَه وبينَ ربِّه، ويخافُ من الرحيلِ؛ لأنَّه لا زادَ له ولا معرفةَ بالطَّريقِ.

وكم مِن عالمٍ وزاهدٍ لم يُرْزَقا من المعرفةِ إلَّا ما رُزِقَهُ العاميُّ البطَّالُ! وربما زادَ عليهما!

وكم من عاميٍّ رُزِقَ منها ما لم يُرْزَقاه مع اجتهادِهِما!

وإنما هي مواهبُ وأقسامٌ.

﴿ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتيهِ مَنْ يَشاءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

٩٠ ـ فصل

[الصبر على المعاصي يورث عز الدنيا وشرف الآخرة]

باللهِ عليكَ يا مرفوعَ القَدْرِ بالتَّقوى؛ لا تَبِعْ عِزَّها بذُلِّ المعاصي! وصابِرْ عَطَشَ الهوى في هَجِيرِ المشتهى وإن أمضَّ وأرمضَ[١]؛ فإذا بلغتَ النهايةَ من الصبرِ؛ فاحتكمْ وقُلْ[٢]؛ فهو مقامُ مَن لو أقسمَ على الله لأبرَّه.

(١) الهجير: شدة الحر. أمض: آلم وأوجع. أرمض: أحرق بشدة حره. والمعنى: أن صاحب الشهوة كالظمآن الذي اشتد ظمؤه وألمه وهو تحت الشمس المحرقة؛ فهو تواق إلى قطرة الماء؛ فإن صبر عليها لله؛ نال بذلك جزيل الأجر.

(٢) أصحاب هٰذا المقام لا يحتكمون ولا يقولون، بل هم في حال أسى وحزن وخوف ورؤية لتقصيرهم.

تالله لولا صَبْرُ عُمَرَ؛ ما انبسطتْ يدُهُ بضَرْبِ الأرضِ بالدِّرَّةِ[١].

ولولا جِدُّ أنس بن النَّضْرِ في تركِ هواه، وقد سمعتَ من آثارِ عَزْمَتِهِ: لئنْ أشهدني اللهُ مشهدًا؛ ليرينَّ الله ما أصنعُ. فأقبلَ يومَ أُحُدٍ يقاتلُ حتى قُتِلَ فلم يُعْرَفْ إلَّا ببَنانِهِ[٢]؛ فلولا هٰذا العزمُ؛ ما كان انبساطُ وجههِ يوم حَلَفَ: والله؛ لا تُكْسَرُ سِنُّ الرُّبَيِّع[٣].

بالله عليك؛ تذَوَّقْ حلاوةَ الكفِّ عن المنهيِّ؛ فإنها شجرةٌ تُثْمِرُ عزَّ الدُّنيا وشرف الآخرة.

ومتى اشتدَّ عطشُك إلى ما تهوى؛ فابسُطْ أناملَ الرجاءِ إلى مَن عندَه الرِّيُّ الكاملُ، وقلْ: قد عيلَ صَبْرُ الطبعِ في سِنيهِ العجافِ[٤]؛ فعجِّلْ ليَ العامَ الذي فيه أُغاثُ وأُعْصِرُ.

(١) الدِّرَّة: عصا لينة يضرب بها.

(٢) قصة أنس بن النضر في غزوة أحد رواها: البخاري (٦٤ ـ كتاب المغازي، ١٧ ـ باب غزوة أحد، ٧ / ٣٥٤ / ٤٠٤٨)، ومسلم (٣٣ ـ كتاب الإمارة، ٤١ ـ باب ثبوت الجنة للشهيد، ٣ / ١٥١٢ / ١٩٠٣)؛ من حديث أنس بن مالك.

(٣) روى: البخاري (٥٣ ـ كتاب الصلح، ٨ ـ باب الصلح في الدية، ٥ / ٣٠٦ / ٢٧٠٣)، ومسلم (٢٨ ـ كتاب القسامة، ٥ ـ باب إثبات القصاص في الأسنان وما في معناها، ٣ / ١٣٠٢ / ١٦٧٥)؛ عن أنس بن مالك: أن الربيع بنت النضر كسرت ثنية جارية، فطلبوا الأرش وطلبوا العفو، فأبوا، فأتوا النبي ﷺ، فأمرهم بالقصاص، فقال أنس بن النضر: أتكسر ثنية الربيع يا رسول الله؟! لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها. فقال: «يا أنس! كتاب الله القصاص». فرضي القوم وقبلوا الأرش. فقال النبي ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله؛ لأبره».

(٤) عيل الصبر: فُقِد وغُلِب. والعجاف: الهزيلة.

بالله عليكَ؛ تَفَكَّرْ فيمنْ قَطَعَ أكثرَ العُمُرِ في التقوى والطاعةِ، ثم عَرَضَتْ له فتنةٌ في الوقتِ الأخيرِ، كيف نَطَحَ مركَبُهُ الجُرُفَ[١] فغرقَ وقتَ الصعودِ!

أفٍّ واللهِ للدُّنيا ـ لا بل للجنَّةِ ـ إنْ أوجبَ نيلُها إعراضَ الحبيبِ[٢]!

إنَّما نَسَبُ العاميِّ باسمِهِ واسمِ أبيهِ، فأما ذَوو الأقدارِ؛ فالألقابُ قبلَ الأنسابِ.

قل لي: مَن أنت؟ وما عملُك؟ وإلى أيِّ مقامٍ ارْتَفَعَ قَدْرُك؟ يا من لا يصبرُ لحظةً عما يشتهي!

بالله عليك؛ أتدري منِ الرجلُ؟! الرجلُ ـ والله ـ مَنْ إذا خَلا بما يُحِبُّ مِنَ المُحَرَّمِ، وَقَدَرَ عليهِ، وتَقَلْقَلَ[٣] عطشًا إليه؛ نَظَرَ إلى نَظَرِ الْحَقِّ إِلَيْهِ، فاستحى من إجالةِ همِّه فيما يكرهُه، فذهبَ العطشُ.

كأنَّك لا تتركُ لنا إلَّا ما لا تَشْتهي، أو ما لا تَصْدُقُ الشهوةَ فيه، أو ما لا تقدِرُ عليه!!

كذا والله عادتُك! إذا تَصَدَّقْتَ؛ أعطيتَ كسرةً لا تَصْلُحُ لك، أو في جماعةٍ يمدحونكَ.

هيهات! واللهِ؛ لا نلتَ ولايَتنا حتى تكونَ معاملتُك لنا خالصةً، تبذُلُ

---

(١) يعني: اصطدم بصخر الوادي الصلب.

(٢) إن كان الحبيب هو الله عز وجل؛ فنيل الجنة يعني نيل رضاه ورضوانه، وإن كان الحبيب من أهل الدنيا؛ فأفٍّ له هو لا للجنة!

(٣) في الأصول: «وتقلل»! ولا معنى لها، والتصويب من بعض المطبوعات.

أطـايبَك، وتترُكُ مشتهياتِكَ، وتصبرُ على مكروهاتِكَ؛ علمًا منك ـ تَدَّخِرُ ثوابَكَ لدينا إن كنتَ معامِلاً ـ بأنَّك أجيرٌ وما غربتِ الشمسُ(١).

فإنْ كنتَ محبًّا؛ رأيتَ ذٰلك قليلاً في جنب رضى حبيبِك عنكَ.

وما كلامنا مع الثالث(٢).

٩١ـ فـصـل

[في ضرورة التسليم بحكمة المولى وإن لم تدرك]

رأيتُ في العقلِ نَوْعَ منازعةٍ للتَّطَلُّعِ إلى معرفةِ جميعِ حِكَمِ الحقِّ عزَّ وجلَّ في حُكْمِهِ!

فربَّما لم يتبيَّنْ له شيءٌ منها ـ مثلُ النقضِ بعدَ البناءِ ـ فيقفُ متحيِّرًا!

وربما انتهزَ الشيطانُ تلك الفرصةَ، فوسوسَ إليه: أين الحكمةُ من هٰذا؟!

فقلتُ له: احذرْ أن تُخْدَعَ يا مسكينُ! فإنه قد ثبتَ عندكَ بالدليلِ القاطعِ ـ لِما رأيتَ من إتقانِ الصَّنائعِ ـ مبلغُ حكمةِ الصانعِ؛ فإنْ خَفِيَ عليك بعضُ الحِكَمِ؛ فَلِضَعْفِ إدراكِك.

ثم ما زالتْ للملوكِ أسرارٌ؛ فمَن أنتَ حتى تَطَّلع بِضعْفِكَ على جميعِ حِكَمِهِ؟! يكفيكَ الجُمَلُ!

وإياكَ إياكَ أن تتعرَّضَ لما يَخْفى عليكَ؛ فإنك بعضُ موضوعاتِهِ وذرَّةٌ

(١) يعني: ما انتهى النهار حتى تأخذ أجرتك.

(٢) الثالث: هو الذي ليس بالمحب ولا بالأجير، وهو صاحب المعاصي.

من مصنوعاتِهِ؛ فكيف تتحكَّمُ على مَنْ صَدَرْتَ عنهُ؟!

ثم قد ثبتتْ عندكَ حكمتُه في حُكْمِه ومُلْكِه؛ فأَعْمِلْ آلَتَكَ على قَدْرِ قوَّتِك في مطالعةِ ما يمكنُ من الحِكَم؛ فإنه سيورِّثُك الدَّهَشَ! وغَمِّضْ عما يخفى عليك؛ فحقيقٌ بذي البصرِ الضعيفِ ألا يُقاوِيَ[1] نورَ الشمس.

٩٢ـ فصل
[في سياسة النفس بالحكمة والحزم]

أعجبُ الأشياءِ مجاهدةُ النَّفْسِ؛ لأنها تحتاجُ إلى صِناعةٍ عجيبةٍ:

فإنَّ أقوامًا أطْلَقوها فيما تحبُّ، فأوقعتْهم فيما كَرِهوا.

وإنَّ أقوامًا بالَغوا في خلافِها، حتى مَنَعوها حقَّها وظَلَموها، وأثَّرَ ظلمُهم لها في تعبُّداتِهم:

فمنهم مَن أساءَ غذاءَها، فأثَّرَ ذلك ضَعْفَ بدنِها عن إقامةِ واجبِها.

ومنهم مَنْ أفردَها في خَلْوَةٍ؛ أثمرتِ الوَحْشَةَ من الناسِ، وآلَتْ إلى تركِ فرضٍ أو فضلٍ؛ من عيادةِ مريضٍ، أو برِّ والدةٍ.

وإنَّما الحازمُ مَنْ تَعلَمُ منه نفسُه الجِدَّ وحفظَ الأصولِ؛ فإذا فَسَحَ لها في مباحٍ؛ لم تتجاسرْ أن تتعدَّاه، فيكونُ معها كالمَلِكِ إذا مازحَ بعضَ جندِهِ؛ فإنه لا يَنْبَسِطُ إليه الغلامُ؛ فإنِ انبسطَ؛ ذَكَرَ هيبةَ المملكة.

فكذلك المحقِّقُ؛ يُعْطيها حظَّها، ويستوفي منها ما عليها.

---

(١) يقاوي: يغالب ويقاوم.

٩٣ ـ فصل
[الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك]

رأيتُ عُمومَ الخلائقِ يَدْفعونَ الزَّمانَ دَفْعًا عجيبًا: إنْ طالَ الليلُ؛ فبحديثٍ لا ينفعُ، أو بقراءةِ كتابٍ فيه غَزاةٌ وسَمَرٌ! وإنْ طال النهارُ؛ فبالنوم! وهم في أطرافِ النهارِ على دِجْلَةَ أو في الأسواقِ! فشبَّهْتُهم بالمتحدثينَ في سفينةٍ، وهي تجري بهم، وما عندَهُم خبرٌ!

ورأيتُ النادرينَ قد فَهِموا معنى الوجودِ؛ فهم في تعبئةِ الزَّادِ والتأهُّبِ للرحيلِ؛ إلاّ أنهم يتفاوتونَ، وسببُ تفاوُتِهم قلةُ العلمِ وكثرتُه بما يَنْفَقُ في بلدِ الإقامةِ[١]:

فالمتيقِّظونَ منهم يتطلَّعونَ إلى الأخبارِ بالنَّافِقِ هناكَ، فيستكثرونَ منه، فيزيدُ رِبْحُهُم.

والغافلونَ منهم يحمِلونَ ما اتَّفَقَ، وربما خَرَجوا لا مع خفيرٍ[٢]؛ فكم ممَّنْ قد قُطِعَتْ عليه الطريقُ فبقيَ مفلِسًا!

فاللهَ اللهَ في مواسم العمرِ! والبدارَ البدارَ قبلَ الفَواتِ! واستشْهِدوا العلمَ، واستدِلُّوا الحكمةَ، ونافِسوا الزمانَ، وناقِشوا النفوسَ، واستظهِروا بالزَّادِ؛ فكأنْ قد حَدَا الحادي فلم يُفْهَمْ صوتُه من وَقْعِ دَمْعِ الندمِ[٣].

---

(١) بلد الإقامة: هي الدار الآخرة، والعلم الذي يَنْفَق فيها هو علم الكتاب والسنة وما أعان عليه إن عمل به بإخلاص لوجه الله تعالى.

(٢) الخفير هنا هو كتاب الله تعالى وسنة النبي ﷺ.

(٣) استدلوا الحكمة: اجعلوها دليلكم. نافسوا الزمان: سابقوه واستكثروا من =

٩٤ ـ فصل
[في تخليط العلماء والزهاد]

أَضَرُّ ما على المريض التَّخْليطُ. وما مِن أحدٍ إلَّا وهو مريضٌ بالهوى. والحِمْيَةُ هي رأسُ الدَّواءِ، والتَّخْليطُ يُديمُ المرضَ.

وتخليطُ أربابِ الآخرةِ على ضربين:

أحدهما: تخليطُ العلماءِ، وهو إمّا لمخالطةِ الأضدادِ كالسلاطينِ؛ فإنهم يُضْعِفونَ قُوى يقينِهم، وكلَّما زادتِ المخالطةُ؛ يفقدونَ دليلَهم عند المريدينَ؛ فإني إذا رأيتُ طبيبًا يُخَلِّطُ ويَحْميني؛ شككتُ أو وقفتُ.

والثاني: تخليطُ الزُّهادِ، وقد يكونُ بمخالطةِ أربابِ الدُّنيا، وقد يكونُ بحفظِ الناموس في إظهارِ التَّخشُّع لاجتلابِ محبَّةِ العوامِّ.

فاللهَ اللهَ؛ فإنَّ ناقِدَ الجزاءِ بصيرٌ، والإخلاصُ في الباطنِ، والصدقُ في القلبِ، ونعم طريقُ السَّلامةِ سَتْرُ الحالِ.

٩٥ ـ فصل
[في أن بركة العلم في العمل به]

لَقيتُ مشايخَ، أحوالُهم مختلفةٌ، يتفاوتونَ في مقاديرِهم في العلم، وكانَ أنفعَهم لي في صحبتِهِ العاملُ منهم بعلمِهِ، وإنْ كانَ غيرُه أعلمَ منه.

= الصالحات قبل أن يأتي الموت. استظهروا بالزاد: تزودوا بما يعينكم على آخرتكم ويكون ظهيرًا لكم. فكأن قد حدا الحادي: فكأن منادي الموت قد صرخ بكم: هلموا.

ولَقيتُ جماعةً من علماءِ الحديثِ يَحْفَظونَ ويَعْرِفونَ، ولٰكنَّهم كانوا يتسامحون بغِيبَةٍ يُخرِجونَها مَخْرَجَ جَرْحٍ وتَعْديلٍ، ويأخُذونَ على قراءةِ الحديثِ أجرةً، ويسرِعون بالجوابِ؛ لئلَّا ينكسِرَ الجاهُ، وإنْ وَقَعَ خطأٌ.

ولَقيتُ عبدَ الوهاب الأنماطيَّ[1]، فكان على قانونِ السَّلَفِ، لم يُسمعْ في مجلسهِ غِيبةٌ، ولا كان يطلُبُ أجرًا على سماع الحديثِ، وكنتُ إذا قرأتُ عليه أحاديثَ الرقائقِ؛ بكى واتَّصَلَ بكاؤُه، فكان ـ وأنا صغيرُ السنِّ حينئذٍ ـ يعمـلُ بكـاؤهُ في قلبي ويبني قواعـدَ، وكـانَ على سَمْتِ المشايخ الذين سمعْنا أوصافَهم في النقل.

ولَقيتُ الشيخَ أبا منصورٍ الجواليقيَّ[2]، فكان كثيرَ الصمتِ، شديدَ التَّحَرِّي فيما يقولُ، متقنًا، محقِّقًا، وربما سُئِلَ المسألةَ الظاهرةَ التي يبادرُ بجوابِها بعضُ غِلْمانِهِ، فيتوقَّفُ فيها حتى يتيقَّنَ، وكانَ كثيرَ الصوم والصَّمْتِ.

فانتفعتُ برؤيةِ هٰذينِ الرجلينِ أكثرَ من انتفاعي بغيرِهما.

ففهمتُ من هٰذه الحالةِ أنَّ الدليلَ بالفعل أرشدُ من الدَّليل بالقول.

ورأيتُ مشايخَ كانتْ لهم خَلَواتٌ في انبساطٍ ومُزاحٍ، فراحوا عن القلوبِ، وبدَّدَ تفريطُهم ما جَمَعوا من العلم، فقلَّ الانتفاعُ بهم في حياتِهم، ونُسوا بعد مماتِهم، فلا يكادُ أحدٌ أنْ يلتفتَ إلى مصنَّفاتِهم.

---

(١) هو عبد الوهاب بن المبارك، ولد سنة ٤٦٢هـ، وتوفي سنة ٥٣٨هـ. انظر ترجمته في: «ذيل تاريخ بغداد» (١٦ / ٣٨٠)، و«سير أعلام النبلاء» (٢٠ / ١٣٤).

(٢) موهوب بن أحمد، ولد سنة ٤٦٦هـ، وتوفي سنة ٥٤٠هـ. انظر ترجمته في: «المستفاد من ذيل تاريخ بغداد» (١٩ / ٢٣٦)، «سير أعلام النبلاء» (٢٠ / ٨٩).

فاللهَ اللهَ في العلم بالعمل؛ فإنه الأصلُ الأكبرُ.

والمسكينُ كلُّ المسكينِ مَن ضاعَ عُمُرُه في علمٍ لم يعملْ بهِ، ففاتَهُ لَذَّاتُ الدُّنيا وخيراتُ الآخرةِ، فقَدِمَ مفلسًا؛ على قُوَّةِ الحجةِ عليه.

٩٦ ـ فصل

[في أن الله يمهل ولا يهمل]

سبحانَ الملكِ العظيمِ، الذي مَنْ عَرَفَهُ خافهُ، وما أمِنَ مكرَه قطُّ مَنْ عَرَفَهُ.

لقد تأمَّلتُ أمرًا عظيمًا: أنه عزَّ وجلَّ يُمْهِلُ حتَّى كأنَّه يُهْمِلُ، فترى أيدي العصاةِ مطلقةً كأنَّه لا مانعَ؛ فإذا زادَ الانبساطُ ولم تَرْعَوِ[1] العقولُ؛ أَخَذَ أَخْذَ جَبَّارٍ.

وإنما كان ذلك الإمهالُ لِيَبْلُوَ صَبْرَ الصابرِ وَلِيُمْلِيَ في الإمهال للظالم، فَيُثَبِّتَ هذا على صَبْرِهِ، ويَجْزِيَ هذا بقبيحِ فعلِهِ.

مع أنَّ هنالك مِن الحِلم في طيِّ ذلك ما لا نعلمُهُ.

فإذا أَخَذَ أَخْذَ عقوبةٍ؛ رأيتَ على كلِّ غلطةٍ تَبِعَةً، وربما جُمِعَتْ، فضُرِبَ العاصي بالحجرِ الدامغ.

وربما خَفِيَ على الناس سببُ عقوبتِهِ، فقيلَ: فلانٌ مِن أهل الخيرِ؛ فما وجهُ ما جرى له؟!

فيقولُ القَدَرُ: حدودٌ لذُنوبٍ خفيَّةٍ، صار استيفاؤها ظاهرًا.

---

(١) ترعوي: تكف وتمتنع عن المعاصي.

فسبحانَ مَنْ ظَهَرَ حتَّى لا خفاءَ به، واستترَ حتَّى كأنه لا يُعْرَفُ، وأمهلَ حتى طُمِعَ في مسامحتِهِ، وناقشَ حتَّى تحيَّرَتِ العقولُ من مؤاخذتِهِ، لا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله.

٩٧ ـ فصل
[في لزوم الحكمة في معالجة أحوال النفس]

تأملتُ العلمَ والميلَ إليه والتشاغلَ به؛ فإذا هو يقوِّي القلبَ قوةً تميلُ به إلى نوعِ قساوةٍ، ولولا قوةُ القلبِ وطولُ الأملِ؛ لم يقع التشاغلُ به؛ فإني أكتبُ الحديثَ أرجو أنْ أرويَهُ، وأبتدىءُ بالتصنيفِ أرجو أنْ أتِمَّهُ.

فإذا تأملتُ بابَ المعاملاتِ؛ قَلَّ الأملُ، ورقَّ القلبُ، وجاءتِ الدُّموعُ، وطابتِ المناجاةُ، وغَشِيَتِ السكينةُ، وصرتُ كأني في مقام المراقبةِ.

إلَّا أنَّ العلمَ أفضلُ، وأقوى حُجَّةً، وأعلى رُتبةً؛ وإن حَدَثَ منه ما شكوتُ منه. والمعاملةُ؛ وإنْ كَثُرَتِ الفوائدُ التي أشرتُ إليها منها؛ فإنها قريبةٌ إلى أحوالِ الجبانِ الكسلانِ، الذي قدِ اقتنعَ بصَلاحِ نفسهِ عن هدايةِ غيرِه، وانفردَ بعُزْلَتِهِ عن اجتذابِ الخَلْقِ إلى ربِّهم.

فالصوابُ العكوفُ على العلم، مَعَ تَلْذيعِ النفسِ بأسبابِ المرقِّقاتِ تَلْذيعًا لا يَقْدَحُ في كمالِ التشاغُلِ بالعلم.

فإني لأكرهُ لنفسي من جهةِ ضَعْفِ قلبي وَرِقَّتِه أنْ أكثرَ زيارةَ القبورِ وأنْ أحضُرَ المحتضَرينَ؛ لأن ذلك يؤثِّرُ في فِكري، ويخرِجُني من حَيِّزِ المتشاغلينَ بالعلم إلى مقامِ الفِكْرِ في الموتِ، ولا أنتفعُ بنفسي مدةً.

وفصلُ الخطابِ في هٰذا أنه ينبغي أنْ يقاوَمَ المرضُ بِضِدِّه:

فمَنْ كانَ قلبُه قاسيًا شديدَ القَسْوةِ، وليس عندَه من المراقبةِ ما يَكُفُّهُ عن الخطإِ؛ قاومَ ذٰلك بذكرِ الموتِ ومحاضرةِ المحتضَرينَ.

فأما مَنْ قلبُهُ شديدُ الرِّقَّةِ؛ فيكفيهِ ما بهِ، بل ينبغي له أنْ يتشاغلَ بما يُنْسيهِ ذٰلك؛ لينتفعَ بعيشهِ، وليفهمَ ما يُفتي به.

وقد كانَ الرسولُ ﷺ يمزحُ[1]، ويسابقُ عائشةَ رضي الله عنها[2]، ويتلطَّفُ بنفسهِ[3].

فمَنْ سار سيرتَه عليه الصلاةُ والسلامُ؛ فَهِمَ مِن مضمونِها ما قلتُهُ من ضرورة التلطُّفِ بالنفس.

---

(١) وكان ﷺ لا يقول في مزاحه إلا صدقًا؛ كما روى: أحمد (٢ / ٣٤٠ و٣٦٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٦٥)، والترمذي (٢٨ ـ كتاب البر والصلة، ٥٧ ـ باب ما جاء في المزاح، ٤ / ٣٥٧ / ١٩٩٠)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣ / ١٧٩ / ٣٦٠٢)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قالوا: يا رسول الله! إنك تداعبنا. قال: «إني لا أقول إلا حقًّا».

قال الترمذي: «حسن صحيح». وحسنه البغوي، وصححه الألباني.

(٢) (**صحيح**). رواه أحمد (٦ / ٢٦٤)، وابن ماجه (٩ ـ كتاب النكاح، ٥٠ ـ باب حسن معاشرة النساء، ١ / ٦٣٦ / ١٩٧٩)، وأبو داوود (٩ ـ كتاب الجهاد، ٦١ ـ باب في السبق على الرجل، ٢ / ٣٤ / ٢٥٧٨)؛ من طرق عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة.

وصحح إسناده: البوصيري في «الزوائد» على شرط البخاري، والعراقي في «تخريج الإحياء» (٢ / ٤٠)، والألباني.

(٣) يعني: كان ﷺ معتدلاً في أمره كله، والأمر نسبي، وإلا فتلطفه ﷺ لا يقاس بأشد أحوال تقشفنا في هٰذه الأيام.

٩٨ ـ فصل
[في أن ذكر الموت خير واعظ]

من أطرفِ الأشياءِ إفاقةُ المُحْتَضَرِ عندَ موتِه؛ فإنه ينتبهُ انتباهًا لا يوصَفُ، ويقلقُ قلقًا لا يُحَدُّ، ويتلهَّفُ على زمانِه الماضي، وَيَوَدُّ لو تُرِكَ كي يتداركَ ما فاتَه ويَصْدُقَ في توبتِهِ على مقدارِ يقينِه بالموتِ، ويكادُ يَقْتُلُ نفسَه قبلَ موتِها بالأسفِ.

ولو وُجِدَتْ ذَرَّةٌ من تلك الأحوالِ في أَوانِ العافيةِ؛ حَصَلَ كلُّ مقصودٍ من العمل بالتقوى.

فالعاقلُ من مَثَّلَ تلكَ الساعةَ، وعَمِلَ بمقتضى ذلك.

فإنْ لم يتهيَّأ تصويرُ ذلك على حقيقتهِ؛ تخايَلَهُ على قَدْرِ يَقَظَتِهِ؛ فإنه يَكُفُّ كَفَّ الهوى ويبعثُ على الجِدِّ.

فأما مَن كانتْ تلك الساعةُ نُصْبَ عينيهِ؛ كانَ كالأسيرِ لها.

كما رُوي عن حبيب العجميِّ[1]: أنه كانَ إذا أصبحَ؛ يقولُ لامرأتِهِ: إذا مُتُّ اليومَ؛ ففلانٌ يغسِلُني، وفلانٌ يحمِلُني.

وقال معروفٌ لرجل: صَلِّ بنا الظُّهْرَ! فقالَ: إن صليتُ بكمُ الظُّهْرَ؛ لم أصلِّ بكمُ العصرَ. فقال: وكأنك تؤمِّلُ أنْ تعيشَ إلى العصرِ؟! نعوذُ بالله من طول الأمل.

---

(١) زاهد أهل البصرة وعابدهم، صاحب الكرامات، تلميذ الحسن البصري. انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» (٦ / ١٤٩)، و«سير أعلام النبلاء» (٦ / ١٤٣).

وذَكَرَ رجلٌ رجلاً بينَ يديه بِغيبةٍ، فجعل معروفٌ يقولُ له: اذكرِ القُطْنَ إذا وضعوه على عينيكَ[1]!

٩٩ ـ فصل

[في كل شيء واعظ ومذكر بالله للمتيقظ]

ربَّما أخَذَ المتيقِّظُ بيتَ شعرٍ، فأخذَ منه إشارةً، فانتفعَ بها.

قال الجنيدُ[2]: ناولَني سَرِيٌّ[3] رقعةً، مكتوبٌ فيها: سمعتُ حاديًا في طريقِ مكةَ شرَّفَها الله تعالى يقولُ:

أبْكِي وما يُدْرِيكِ ما يُبْكِيني أبْكي حِذَارًا أنْ تُفارِقيني
وتُقَطِّعي حَبْلي وتَهْجُريني

فانظرْ ـ رحمكَ الله ووفَّقَكَ ـ إلى تأثيرِ هٰذه الأبياتِ عند سريٍّ، حتى أحبَّ أنْ يطَّلِعَ منها الجُنَيْدُ على ما اطَّلَعَ عليه، ولم يَصْلُحْ للاطِّلاعِ على مثلِها إلَّا الجنيدُ.

فإنَّ أقوامًا فيهم كثافةُ طبعٍ وخشونةُ فهمٍ، قال بعضُهم لما سَمِعَ مثلَ هٰذه: إلامَ يُشارُ بهٰذه؟ إنْ كان إلى الحقِّ؛ فالحقُّ عزَّ وجلَّ لا يُشارُ إليه بلفظِ

(١) تقدمت ترجمة معروف في (فصل ٢٥)، وانظر هٰذا الخبر والذي قبله في «حلية الأولياء» (٨ / ٣٦١ و٣٦٣).

(٢) ابن محمد بن الجنيد، النهاوندي، البغدادي، شيخ الصوفية، ولد بعد ٢٢٠هـ، وتوفي سنة ٢٩٧هـ. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٧ / ٢٤١)، «سير أعلام النبلاء» (١٤ / ٦٦).

(٣) السقطي، تقدمت ترجمته في (فصل ١٩).

تأنيثٍ، وإن كانَ إلى امرأةٍ؛ فأينَ الزُّهْدُ؟!

ولَعَمْري إنَّ هٰذا حُداءُ[١] أهل الغفلةِ إذا سمعوا مثلَ هٰذا.

ولـذٰلك يُنْهى عن سماع القصائدِ وأقوالِ أهل الغناءِ؛ لأنَّ الغالبَ حَمْلُ تلك الأبياتِ على مقاصدِ النفس وغَلَباتِ الهوى... ومن أين لنا مثلُ الجنيدِ وسريٍّ؟! وإذا وجدْنا مثلَهُما؛ فهما خبيرانِ بما يسمعانِ.

وأما اعتراضُ هٰذا الكثيفِ الطبع؛ فالجوابُ: أنَّ سَريًّا لم يأخذِ الإشارةَ من اللفظِ، ولم يقسْ ذٰلك على مطلوبِه فيصيِّرُهُ تأنيثًا أو تذكيرًا، وإنما أخذَ الإشارةَ من المعنى؛ فكأنه يخاطِبُ حبيبَه بمعنى الأبياتِ، فيقولُ: أبكي حِذارًا من إعراضِكَ وإبعادِكَ! فهٰذا الحاصلُ له، وما التفتَ قطُّ إلى تذكيرٍ ولا إلى تأنيثٍ؛ فافهم هٰذا[٢]!

وما زال المتيقِّظونَ يأخُذون الإشارةَ من مثلِ هٰذا، حتى كانوا يأخُذونها من هٰذا الذي تقولُه العامةُ ويلقِّبونَهُ بـ (كان وكان)[٣].

فرأيتُ بخطِّ ابنِ عَقيل[٤] عن بعضِ مشايخِهِ الكبارِ: أنه سمعَ امرأة

(١) الحداء: الغناء للإبل لسوقها في طريق السفر.

(٢) لو نظر المرء إلى ما جرى بعد هٰذا من تشبيه الله عز وجل بالمرأة الجميلة! وعشقه! وعشق جماله! وشكله! وطوله! وعينيه!!! تعالى الله عن ذٰلك علوًّا كبيرًا؛ لعلم أن للمنكر كل الحق في إنكار الإشارة إلى المولى سبحانه بلفظ التأنيث؛ فهٰذا باب بدعة، بدأ صغيرًا ومحتملًا في ذاك العصر ومن أولٰئك الناس ـ شأن جميع البدع ـ، ثم توسع وفحش أمره من قريب؛ فافهم هٰذا.

(٣) يبدو أنه نوع من الغناء الشعبي أو الزجل؛ كما أفاد الشيخ الطنطاوي.

(٤) تقدمت ترجمته في (فصل ٣١).

تُنْشِدُ:

غَسَّــلْت لُهْ طولْ الـلَّيْلْ فرَّكْـت لُهْ طُولْ الـنَّهــارْ
خَرَجْ يعــايِنْ غيْرِي زلـقْ وقــعْ في الــطينْ

فأخذَ من ذلك إشارةً معناها: يا عبدي! إني حسَّنْتُ خَلْقَكَ، وأصلحتُ شأنكَ، وقوَّمْتُ بَنِيَّتَكَ، فأقبلتَ على غيري؛ فانظرْ عواقبَ خلافِكَ لي!

وقـالَ ابنُ عَقيلٍ: وسمعتُ امـرأةً تقولُ من هذا (الكان وكان)[1]، وكانتْ كلمةً بقيتُ في قلقِها[2] مدةً:

كم كنتْ بالله أقولْ لكْ لذا الـتــوانـي غائِـلَهْ
ولـلقـبيـــح خميــــرهْ تبـيِّـــن بعـــد قليلْ

قال ابنُ عَقيل: فما أوقعهُ من تَخْجيلٍ على إهمالِنا لأمورٍ غداً تَبِينُ خمائرُها بين يديِ الله تعالى!

١٠٠ ـ فصل
[في اتقاء الشبهات]

أمكنني تحصيلُ شيءٍ من الدُّنيا بنوعٍ من أنواع الرُّخَصِ، فكنتُ كلَّما حَصَلَ شيءٌ منه؛ فاتني من قلبي شيءٌ، وكلَّما استنارتْ لي طريقُ التَّحصيل؛ تجدَّدَ في قلبي ظلمةٌ.

فقلتُ: يا نفسَ السَّـوْء! الإثم حَوازُّ القلوبِ[3]، وقـد قال [النبي

(١) في الأصول: «من هذا المكان»! والتصويب من بعض المطبوعات.
(٢) قلقها: الانشغال والتفكير بها.
(٣) حوازُّ القلوب: ما يحزُّ فيها. ويصح فيها أيضًا: حوَّاز القلوب.

ﷺ][1]: «اسْتَفْتِ قلبَكَ»[2]؛ فلا خيرَ في الدُّنيا كلِّها إذا كانَ في القلبِ من تحصيلِها شيءٌ أوجبَ نوعَ كَدَرٍ، وإنَّ الجنةَ لو حصلتْ بسببٍ يقدَحُ في الدِّين أو في المعاملةِ؛ ما لَذَّتْ[3]! والنومُ على المزابل مع سلامةِ القلبِ من الكَدَرِ ألذُّ من تَكِئاتِ الملوكِ.

وما زلتُ أغلِبُ نفسي تارةً وتغلِبُني أخرى، ثم تدَّعي الحاجةَ إلى تحصيل ما لا بدَّ لها منه، وتقولُ: فما أتعدى في الكسبِ المباحَ في الظاهر! فقلتُ لها: أوليسَ الورعُ يمنعُ من هٰذا؟ قالتْ: بلى. قلتُ: أليستِ القسوةُ في القلبِ تَحْصُلُ بهِ؟ قالتْ: بلى. قلتُ: فلا خيرَ لكِ في شيءٍ هٰذا

---

(١) زيادة يستوي بها السياق ويحسن.

(٢) (حسن صحيح). رواه: أحمد (٤ / ٢٢٨)، والدارمي (٢ / ٢٤٦)؛ من طريق أيوب بن عبد الله بن مكرز الفهري، عن وابصة بن معبد: أن النبي ﷺ قال له: «جئت تسأل عن البر والإثم؟». قال: نعم. قال: «استفت نفسك، استفت قلبك، يا وابصة (ثلاثًا). البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك».

قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢ / ٥٤٤): «رواه أحمد بإسناد حسن».
وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١ / ١٨٠): «رواه أحمد وأبو يعلى، وفيه أيوب بن عبد الله بن مكرز؛ قال ابن عدي: لا يتابع على حديثه، ووثقه ابن حبان». وكأن الذهبي مال في «الميزان» إلى أن حديثه قابل للتحسين، وقال الحافظ في «التقريب»: «مستور».
لكن رواه أحمد (٤ / ٢٢٧) من طريق أخرى خالية من هٰذه العلة بأخصر مما هنا، وإسنادها حسن.

وله شاهد عن أبي ثعلبة الخشني رواه أحمد (٤/١٩٤) بإسناد جوده المنذري.

فالحديث لا ينزل عن رتبة الحسن بمجموع طريقيه وشاهده، بل هو صحيح، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٢ / ٨٤٥ / ٢٧٧٤).

(٣) (لو) حرف امتناع لامتناع، ولا يمكن أن تحصل الجنة بسبب يقدح في الدين.

ثمرتُه!

فخلوتُ يومًا بنفسي، فقلتُ لها:

ويحكِ! اسمعي أحدِّثْكِ! إنْ جمعتِ شيئًا من الدُّنيا من وجهٍ فيه شُبهةٌ؛ أفأنتِ على يقينٍ من إنفاقهِ؟! قالتْ: لا. قلتُ: فالمحنةُ أنْ يَحْظى به الغيرُ، ولا تنالينَ إلَّا الكَدَرَ العاجلَ والوِزْرَ الذي لا يؤمَنُ...

ويحكِ! اتركي هٰذا الذي يمنَعُ منه الوَرَعُ لأجلِ الله فعامليهِ بتركهِ... وكأنك لا تريدينَ ألَّا[1] تترُكي إلَّا ما هو محرمٌ فقط أو ما لا يصِحُّ وجهُه؟

أوَما سمعتِ أنَّ: «مَن تركَ شيئًا لله؛ عوَّضَهُ الله خيرًا منه»[2]؟!

أما لكِ عبرةٌ في أقوام جَمَعوا فحازَهُ سواهُم، وأمَّلوا فَما بَلَغوا مُناهم؟! كم من عالم جَمَعَ كُتُبًا كثيرةً ما انْتَفَعَ بها! وكم من منتفعٍ ما عندَه عشرةُ أجزاءٍ! وكم من طَيِّبِ العيشِ لا يملك دينارينِ! وكم من ذي قناطيرَ منغَّصٍ!

---

(١) (لا) زائدة للتوكيد.

(٢) (**صحيح**). رواه: وكيع في «الزهد» (٢ / ٦٨ / ٢)، وأحمد (٥ / ٣٦٣)، والنسائي في «الكبرى» ـ كما في «التحفة» (١١ / ١٩٩) ـ، والقضاعي في «الشهاب» (رقم ١١٣٥)؛ عن سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال، عن أبي قتادة وأبي الدهماء، عن رجل من أهل البادية، سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنك لن تدع شيئًا لله عز وجل؛ إلا بدلك الله به ما هو خير لك منه».

وهٰذا سند صحيح، رجاله ثقات، وصححه الألباني على شرط مسلم. انظر: «الضعيفة» (١ / ٦٢).

أما لكِ فطنةٌ تتلمَّحُ أحوالَ مَن يترخَّصُ من وجهٍ فيُسْلَبُ منه من أوجهٍ؟! ربما نَزَلَ المرضُ بصاحبِ الدَّارِ، أو ببعضِ مَنْ فيها، فأنفقَ في سنتهِ أضعافَ ما ترخَّصَ في كسبهِ، والمتَّقِي معافىً.

فضجَّتِ النفسُ من لومي، وقالتْ: إذا لم أتعدَّ واجبَ الشَّرْعِ؛ فما الذي تريدُ مني؟! فقلتُ لها: أضِنُّ بك عنِ الغَبْنِ، وأنتِ أعرفُ بباطنِ أمركِ. قالتْ: فقلْ لي؛ ما أصنعُ؟ قلتُ: عليكِ بالمراقبةِ لمَنْ يراكِ، ومثِّلي نفسَكِ بحضرةِ معظَّمٍ من الخَلْقِ؛ فإنَّكِ بين يدي الملكِ الأعظمِ، يرى من باطِنك ما لا يراهُ المعظَّمون من ظاهِركِ؛ فخذي بالأحوطِ، واحْذَري من الترخُّصِ في بيعِ اليقينِ والتَّقْوى بعاجلِ الهوى؛ فإنْ ضاقَ الطبعُ مما تَلْقَيْنَ؛ فقولي له: مَهْلًا؛ فما انقضتْ مدةُ الإشارةِ! والله مرشدُكِ إلى التَّحقيقِ، ومعينُكِ بالتَّوفيقِ.

١٠١ ـ فصل

[في أن الله يمهل ولا يهمل]

ما زلتُ أسمعُ عن جماعةٍ من الأكابرِ وأربابِ المناصبِ أنَّهم: يشربونَ الخمورَ، ويَفْسُقونَ، ويظلِمونَ، ويفعلونَ أشياءَ توجبُ الحدودَ!

فبقِيتُ أتفكَّرُ؛ أقولُ: متى يَثْبُتُ على مثل هٰؤلاءِ ما يوجِبُ حدًّا؟ فلو ثَبَتَ؛ فمنْ يُقيمُهُ؟! وأستبعدُ هٰذا في العادةِ؛ لأنهم في مقامِ احترامٍ لأجلِ مناصِبِهم.

فبقِيتُ أتفكَّرُ في تعطيلِ الحدِّ الواجبِ عليهم، حتى رأيْناهم قد نُكِبُوا، وأُخِذوا مرَّاتٍ، ومَرَّتْ عليهمُ العجائبُ، فقوبِلَ ظلمُهُم بأخذِ

أمـوالِهم، وأخِـذَتْ منهم الحـدودُ مضـاعفةً بعد الحبسِ الطويلِ والقيدِ الثقيلِ والذُّلِّ العظيمِ، وفيهم مَنْ قُتِلَ بعد ملاقاةِ كلِّ شدةٍ!

فعلمتُ أنَّه ما يُهْمَلُ شيءٌ!

فالحذرَ الحذرَ؛ فإنَّ العقوبةَ بالمرصادِ.

١٠٢ ـ فصل

[في حقيقة الزهد والورع والتوكل]

اجتهادُ العاقلِ فيما يُصْلِحُهُ لازمٌ له بمُقتضى العقلِ والشَّرعِ.

فمن ذٰلك حفظُ مالِه، وطلبُ تنميتِهِ، والرغبةُ في زيادته؛ لأن سببَ بقاءِ الإنسانِ مالُهُ:

فقد نُهِيَ عن التَّبْذيرِ فيه: فقيلَ لهُ: ﴿ولا تُؤْتوا السُّفَهاءَ أمْوالَكُم﴾، فأُعْلِمَ أنه سببٌ لبقائهِ: ﴿الَّتي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيامًا﴾ [النساء: ٥]؛ أي: قِوامًـا لمعـاشِكم. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ولا تَبْسُطْها كُلَّ البَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿ولا تُبَذِّرْ تَبْذيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿لَمْ يُسْرِفوا ولَمْ يَقْتُروا وكانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قوامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

ومن فضيلةِ المال: أنَّ اللهَ تعالى قالَ: ﴿مَنْ ذا الذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًـا حَسَنًـا﴾ [البقرة: ٢٤٥]. وقال تعالى: ﴿وأنفِقوا في سَبيلِ اللهِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. وقال تعالى: ﴿يُنْفِقونَ أمْوالَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٦١...]، وقال تعالى: ﴿لا يَسْتَوي مِنْكُمْ مَنْ أنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ﴾ [الحديد: ١٠].

وجعل المالَ نِعمةً، وزكاتَه تطهيرًا: فقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أمْوالِهِمْ

صَدَقَـةً تُطَهِّـرُهُمْ وتُزَكِّيهِمْ بِها﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال ﷺ: «نِعْمَ المالُ الصالحُ للرَّجُلِ الصالحِ»(١)، وقال: «ما نفعني مالٌ كمال أبي بكرٍ»(٢).

وكان أبو بكر رضي الله عنه يخرجُ إلى التجارةِ ويترُكُ رسولَ اللهِ ﷺ؛ فلا ينهاهُ عن ذٰلك.

وقال عمرُ بنُ الخطَّاب رضيَ الله عنه: لأنْ أموتَ بين شُعْبَتَيْ جبلٍ أطلُبُ كفافَ وجْهي أحبُّ إليَّ من أن أموتَ غازيًا في سبيل الله.

وكان جماعةٌ من الصحابةِ رضي الله عنهم يَتَّجرونَ: ومن ساداتِ التابعينَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ؛ ماتَ وخلَّف مالاً وكان يَحْتَكِرُ الزيتَ(٣)... وما زال السلفُ على هٰذا.

ثم قد تَعْرِضُ نوائبُ ـ كالمرض ـ يُحتاجُ فيها إلى شيءٍ من المال، فلا يجدُ الإنسانُ بدًّا من الاحتيالِ في طَلِبَتِهِ، فيبذُلُ عِرْضَه أو دينَه.

ثم للنفس قوةٌ بدنيةٌ عند وجودِ المال، وهو معدودٌ عند الأطباءِ من الأدويةِ؛ حِكْمةٌ وضَعَها الواضعُ.

ثم نَبَغَ أقوامٌ، طَلَبوا طريقَ الراحةِ، فادَّعَوْا أنهم متوكِّلَةٌ، وقالوا: نحنُ لا نُمْسِكُ شيئًا، ولا نتزوَّدُ لسفرٍ، ورِزْقُ الأبدانِ يأتي!

وهٰـذا على مضـادَّةِ الشـرع: فإنَّ رسولَ الله ﷺ نهى عن إضاعةِ

(١) تقدم تخريجه في (فصل ٢٤).

(٢) تقدم تخريجه في (فصل ٤١).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٣ / ٤٥٤)، وليس الاحتكار هنا بمعنى إخفاء البضائع حتى ترتفع أسعارها، وإنما بمعنى الانفراد ببيع الزيت أو جلبه إلى البلدة وما أشبهه.

المال[١]، وموسى عليه السلام لما سافرَ في طَلَبِ الخَضِرِ تزوَّدَ[٢]، ونبيُّنا ﷺ لما هاجر تزوَّدَ[٣]، وأبلغُ من هٰذا قولُهُ تعالى: ﴿وتَزَوَّدوا فَإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى﴾ [البقرة: ١٩٧][٤].

ثم يدَّعي هٰؤلاءِ المتصوِّفةُ بُغْضَ الدُّنيا؛ فلا يفهمونَ ما الذي ينبغي أن يُبْغَضَ، ويَرَوْنَ زيادةَ الطلبِ للمال حِرْصًا وشَرَهًا!!

وفي الجملةِ؛ إنَّما اخْتَرَعوا بآرائِهِم طريقًا: فيها شيءٌ من الرَّهْبانيَّةِ إذا صَدَقوا، وشيءٌ من البَهْرَجَةِ[٥] إذا نَصَبوا شباكَ الصيدِ بالتزهُّدِ! فَسَمَّوْا ما يَصِلُ إليهم من الأرزاقِ فُتوحًا!!

قال ابنُ قُتيبةَ في «غريب الحديث» عند شرح قولِهِ ﷺ: «واليدُ العليا»؛ قال: «هي المعطيةُ»[٦]. قالَ: فالعجبُ عندي من قومٍ يقولونَ:

---

(١) روى: البخاري (٤٣ ـ كتاب الاستقراض، ١٩ ـ باب ما ينهى عن إضاعة المال، ٥ / ٦٨ / ٢٤٠٨)، ومسلم (٣٠ ـ كتاب الأقضية، ٥ ـ باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، ٣ / ١٣٤١ / ٥٩٣)؛ من حديث المغيرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال».

(٢) كما جاء في قوله تعالى: ﴿فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا﴾ [الكهف: ٦٢].

(٣) قد جاء هٰذا في حديث عائشة الطويل الذي رواه البخاري (٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار، ٤٥ ـ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ٧ / ٢٣٠ / ٣٩٠٥) في قصة هجرته ﷺ.

(٤) ذكر بعض المفسرين أنها نزلت في قوم كانوا يأتون الحج دونما زاد، ويقولون. نحن متوكلون، ثم يقدمون فيسألون الناس، فأنزل الله هٰذه الآية يأمرهم بالتزود بما يكف وجوههم عن الناس. والآية عامة. وانظر: «الدر المنثور» (١/٣٩٨/ البقرة ١٩٧).

(٥) البهرجة: التزييف والباطل.

(٦) قوله: «هي المعطية»: صح مرفوعًا. وقد تقدم في (فصل ١٥).

هي الآخذةُ! ولا أرى هٰؤلاءِ القومِ إلَّا قومًا استطابوا السؤالَ؛ فهم يحتجُّونَ للدَّناءَةِ؛ فأمَّا الشرائعُ؛ فإنَّها بريئةٌ من حالِهِم.

وفي الحديث: «ضاق البلدُ بمواشي إبراهيمَ ولوطٍ عليهما السلامُ فافْتَرَقا»(١).

وكان شعيبٌ عليه السلامُ كثيرَ المالِ، ثم قد ندَّ طَمَعُهُ(٢) في زيادةِ الأجرِ من موسى عليه السلام، فقال: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ [القصص: ٢٧].

وكان ابنُ عَقيل(٣) رحمه الله يقولُ: مَن قال: إني لا أحبُّ الدُّنيا؛ فهو كذَّابٌ؛ فإنَّ يعقوبَ عليه السلام لما طُلِبَ منه ابنُه بنيامين(٤)؛ قال: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾؟ فقالوا: ﴿ونَزْدادُ كَيْلَ بَعيرٍ﴾ [يوسف: ٦٤ ـ ٦٥]. فقالَ: خذوهُ.

وقال بعضُ السلف: مَن ادَّعى بُغْضَ الدُّنيا؛ فهو عندي كذَّابٌ إلى أن يَثْبُتَ صِدْقُهُ؛ فإذا ثَبَتَ صدقُهُ؛ فهو مجنونٌ.

---

(١) (لا يعرف في المرفوع). وإنما ذكر أصحاب التواريخ قريبًا من هٰذا في قصة إبراهيم ﷺ، وليس فيه الافتراق لضيق البلد بالمواشي، وإنما افترقا لأن لوطًا عليه السلام أرسل إلى القرية التي كانت تعمل الخبائث. وانظر: «البداية والنهاية» (١ / ٢٣٤).

(٢) غفر الله لابن الجوزي، ما كان ينبغي له أن يصف نبي الله شعيباً عليه السلام بهٰذا؛ فوالله؛ لو وُصف آحاد الناس وعوامهم بهٰذا؛ لاشتاطوا غضباً وثاروا وقاموا وما قعدوا؛ فكيف يليق أن يقال هٰذا في حق صفوة الخلق عليهم الصلاة والسلام؟! حاشاهم.

(٣) تقدمت ترجمته في (فصل ٣١).

(٤) في الأصول: «يا مين»، وليس في أسماء أولاد يعقوب عليه السلام هٰذا الاسم؛ فالصواب ما أثبتناه.

وقد نَفَّرَ جماعةٌ من المتصوِّفةِ خَلْقًا من الخَلْقِ عن الكَسْبِ، وأوْحَشوا بينَهم وبينَه، وهو دَأْبُ الأنبياءِ والصالحينَ. . . وإنما طلبوا طريقَ الرَّاحةِ، وجَلَسوا على الفُتوحِ، فإذا شَبِعوا؛ رَقَصوا، فإذا انْهَضَمَ الطعامُ؛ أكلوا، فإذا لاحتْ لهم حيلةٌ على غنيٍّ؛ أوجَبوا عليه دعوةً؛ إمّا بسببِ شُكْرٍ، أو بسببِ استغفـارٍ. . . وأطمُّ الـطامـاتِ ادِّعاؤهم أنَّ هٰذا قُرْبةٌ! وقد انعقدَ إجماعُ العلماءِ أنَّ مَنِ ادَّعى الرَّقْصَ قُرْبَةً إلى الله تعالى؛ كَفَرَ؛ فلو أنهم قالوا: مباحٌ؛ كانَ أقربَ حالًا! وهٰذا لأنَّ القُرَبَ لا تُعْرَفُ إلَّا بالشَّرْعِ، وليس في الشَّرْعِ أمرٌ بالرقْصِ، ولا نَدْبٌ إليه.

ولقـد بلغني عن جماعةٍ منهم أنَّهم كانوا يوقِدونَ الشَّمْعَ في وجوهِ المُرْدانِ، وينظُرونَ إليهم؛ فإذا سُئِلوا عن ذٰلكَ؛ سَخِروا بالسائل، فقالوا: نَعْتَبِرُ بخلقِ اللهِ! أفَتَراهم أقوى من النبيِّ ﷺ حين أجلس الشابَّ الذي وَفَدَ عليه من وراءِ ظهرِهِ وقالَ: «وهلْ كانتْ فِتنةُ داوودَ إلَّا من النَّظَرِ»[1]؟!

هيهاتَ! لقد تملَّكَ الشيطانُ تلكَ الأزِمَّةَ فقادَها إلى ما أرادَ.

والعجبُ ممَّنْ يَذُمُّ الدُّنيا وهو يأكلُ فيشبعُ ولا ينظُرُ من أينَ المَطْعَمُ!

وما زالَ صالحو السلفِ يفتِّشونَ عنِ المَطْعَمِ: حتى كان إبراهيمُ بن أدهمَ يَسْهَـرُ هو وأصحـابُـهُ ويقـولونَ: مع مَن نَعْمَلُ غدًا[2]. وكان سَرِيٌّ السَّقَطِيُّ يُعْرَف بطيِّبِ الغذاءِ، وله في الورع مقاماتٌ[2].

(١) (ضعيف). رواه: سعيد بن منصور في «السنن» ـ كما في «الدر المنثور» (٥ / ٥٦٨) ـ، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٩١/ ٣٤٢٣٩)؛ من قول سعيد بن جبير رحمه الله موقوفًا عليه. ولا أعلمه مرفوعًا إلى النبي ﷺ. بل قصة فتنة داوود نفسها لا تصح أصلًا في المرفوع، وقد تقدم تفصيل الكلام عليها في (فصل ٢٨) بما يغني عن الإعادة هنا.

(٢) تقدمت ترجمته في (فصل ١٩).

فجاءَ قوم يتسَمَّوْنَ بالصُّوفيَّةِ، يدَّعون اتِّباعَ أولٰئك السادةِ، ويأكُلون من مال فلانٍ وهم يعرِفون أصولَ تلك الأموال، ويقولونَ: رُزِقْنا!

فواعجبًا! إذا كانَ الآكلُ لا يُبالي به من أينَ، ولا لديه امتناعٌ من شهوةٍ ولا تقلُّلٌ، ولا يَخلو الرِّباطُ[1] من المطبخ، ولا ينقطِعُ ليلةً، وأصلُهُ من مال قد عُرِفَ مِن أين هُو، والحمَّامُ دائرٌ، والمغنِّي يَدُقُّ بدُفٍّ فيه جَلاجِلُ، ورفيقُه بالشَّبَّابةِ، وسُعْدى وليلى في الإنشادِ، والمردانُ في الشمع، ثم يَذُمُّ الدُّنيا بعد هٰذا؛ فقولوا لنا: مَنْ يَتَلَهَّى بالناس إلَّا هٰؤلاء؟!

ولٰكنْ؛ من مَرَّتْ عليه زَرْجَنَتُهم[2]؛ فإنه أخسُّ منهم.

١٠٣ ـ فصل

[في عجائب آيات الله سبحانه]

عَرَضَ لي في طريقِ الحجِّ خوفٌ من العربِ، فسِرْنا على طريق خَيْبَرَ، فرأيتُ من الجبالِ الهائلةِ والطُّرقِ العجيبة ما أذهلني، وزادتْ عَظَمَةُ الخالقِ عزَّ وجلَّ في صَدْري، فصارَ يَعْرِضُ لي عند ذِكْرِ تلكَ الطُّرُقِ نوعُ تعظيمٍ لا أجِدُه عند ذِكْرِ غيرِها.

فصحتُ بالنفس: ويحكِ! اعْبُري إلى البحرِ، وانظُري إليه وإلى عجائبِهِ بعينِ الفِكْرِ؛ تشاهِدي أهوالاً هي أعظمُ مِن هٰذه.

ثم اخْرُجي إلى الكونِ والتفتي إليهِ؛ فإنَّكِ تَرَيْنَهُ بالإضافةِ إلى

---

(١) الرباط: المكان الذي يجتمع فيه المتصوفة؛ كالتكايا والزوايا؛ اتخذوها بديلة عن المساجد!

(٢) الزرجنة: الخديعة.

السماواتِ والأفلاكِ كَذَرَّةٍ في فَلاةٍ.

ثم جولي في الأفلاكِ، وطوفي حولَ العرشِ، وتلمَّحي ما في الجِنانِ والنيرانِ.

ثم اخرُجي عن الكُلِّ، والتفتي إليهِ؛ فإنكِ تشاهدينَ العالم في قَبْضَةِ القادرِ الذي لا تَقِفُ قدرتُهُ عند حدٍّ.

ثم التفتي إليكِ، فتلمَّحي بدايتَكِ ونهايتَكِ، وتفكَّري فيما قبلَ البدايةِ، وليس إلَّا العدمُ، وفيما بعدَ البلى، وليس إلَّا الترابُ.

فيكفَ يأنَسُ بهٰذا الوجودِ مَن نَظَرَ بعينِ فِكْرِهِ المبدأَ والمنتهى؟!

وكيفَ يَغْفَلُ أربابُ القلوبِ عن ذِكْرِ هٰذا الإِلٰهِ العظيم؟!

باللهِ؛ لو صَحَتِ النفوسُ عن سُكْرِ هَواها؛ لذابتْ من خَوْفِهِ، أو لغابتْ في حُبِّهِ؛ غيرَ أنَّ الحسَّ غَلَبَ، فَعَظُمَتْ قدرةُ الخالقِ عند رؤيةِ جبلٍ، وإنَّ الفِطْنَةَ لو تلمَّحتِ المعانيَ؛ لَدَلَّتِ القدرةُ عليه أوفى من دليل الجبل.

سبحانَ مَن شَغَلَ أكثرَ الخَلْقِ بما هُم فيه عما خُلِقوا له! سبحانه!

١٠٤ـ فصل

[في وجوب الصبر على البلاء مع كثرة الدعاء]

للبلاءِ نهاياتٌ معلومةُ الوقتِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فلا بدَّ للمُبْتَلى مِن الصَّبْرِ إلى أن يَنْقَضِيَ أوانُ البلاءِ؛ فإن تَقَلْقَلَ قبلَ الوقتِ؛ لم ينفعِ التقلقلُ؛ كما أنَّ المادةَ إذا انحدرتْ إلى عضوٍ؛ فإنَّها لنْ تَرْجِعَ؛ فلا بدَّ من

الصبرِ إلى حينِ البَطالةِ.

فاستعجالُ زوالِ البلاءِ مع تقديرِ مدتهِ لا ينفعُ.

فالواجبُ الصبرُ، وإن كانَ الدُّعاءُ مشروعًا، ولا يَنْفَعُ إلَّا به(١).

إلَّا أنه لا ينبغي للداعي أنْ يستعجلَ، بل يتعبَّدُ بالصبرِ والدُّعاء والتسليم إلى الحكيم، ويَقْطَعُ الموادَّ التي كانتْ سببًا للبلاءِ؛ فإنَّ غالبَ البلاءِ أنْ يكونَ عُقوبةً.

فأما المستعجلُ، فمزاحِمٌ للمدبِّرِ، وليس هٰذا مقامَ العبوديَّةِ، وإنما المقامُ الأعلى هو الرِّضى.

والصبرُ هو اللازمُ، والتَّلافي بكَثْرَةِ الدعاءِ نِعْمَ المعتمدُ، والاعتراضُ حرامٌ، والاستعجالُ مزاحمةٌ للتدبيرِ.

فافهمْ هٰذه الأشياءَ؛ فإنَّها تُهَوِّنُ البَلاءَ.

١٠٥ـ فصل

[في بعض ما يعين على الصبر]

ليس في الوجودِ شيءٌ أصعبُ من الصَّبْرِ: إمَّا عن المحبوبِ، أو على المكروهاتِ، وخُصوصًا إذا امتدَّ الزَّمانُ، أو وَقَعَ اليأسُ من الفَرَجِ.

وتلكَ المدةُ تحتاجُ إلى زادٍ يُقْطَعُ به سفرُها.

والزادُ يتنوَّعُ من أجناسٍ:

---

(١) يعني: لا ينفع الصبر إلا إذا اقترن مع الدعاء واللجإ إلى الله سبحانه.

فمنهُ: تلمُّحُ مقدارِ البلاءِ، وقد يمكنُ أنْ يكونَ أكثرَ.

ومنه: أنه في حالٍ فوقَها أعظمُ منها؛ مثلُ أنْ يُبتلى بِفَقْدِ ولدٍ وعندَه. أعزُّ منه.

ومن ذلك: رجاءُ العِوَضِ في الدُّنيا.

ومنه: تلمُّحُ الأجرِ في الآخرةِ.

ومنه: التلذُّذُ بتصويرِ المدحِ والثناءِ من الخَلْق فيما يَمْدَحونَ عليه، والأجرِ من الحقِّ عزَّ وجلَّ.

ومن ذلك أنَّ الجزَعَ لا يُفيدُ، بل يَفْضَحُ صاحبَه.

... إلى غيرِ ذلك من الأشياءِ التي يَقْدَحُها العقلُ والفِكْرُ؛ فليسَ في طريقِ الصبرِ نفقةٌ سواها؛ فينبغي للصابرِ أنْ يَشْغَلَ بها نفسَه، ويَقْطَعَ بها ساعاتِ ابتلائِهِ؛ وقد صبحَ المنزلَ(١).

١٠٦ـ فصل

[من حكم الله سبحانه في تأخير إجابة الدعاء]

ينبغي لمن وَقَعَ في شدَّةٍ ثم دعا أنْ لا يَخْتَلِجَ في قلبِهِ أمرٌ من تأخيرِ الإجابةِ أو عدمِها؛ لأنَّ الذي إليهِ أنْ يَدْعُو، والمدعوُّ مالكٌ حكيمٌ؛ فإنْ لم يُجبْ؛ فَعَلَ ما يشاءُ في مُلْكِهِ، وإنْ أخَّرَ؛ فَعَلَ بمقتضى حِكْمَتِهِ؛ فالمعترِضُ عليه في سرِّه خارجٌ عن صفةِ عبدٍ، مزاحمٌ لمرتبةِ مستحِقٍّ!

(١) يعني: ما هي إلا أيام أو ساعات وينتهي البلاء ويزول؛ فكأنه طريق سفر، شغل الإنسان نفسه به عن التعب والمشقة؛ فما وجد نفسه إلا وقد وصل إلى بيته.

ثم لْيَعْلَمْ أنَّ اختيارَ اللهِ عزَّ وجلَّ له خيرٌ من اختيارِهِ لنفسهِ.

فربَّما سألَ سَيْلًا سال به!

وفي الحديث: أنَّ رجُلًا كانَ يسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يَرْزُقَهُ الجهادَ، فهتفَ به هاتفٌ: إنك إن غَزَوْتَ؛ أُسِرْتَ، وإنْ أُسِرْتَ؛ تَنَصَّرْتَ[1].

فإذا سَلَّمَ العبدُ تحكيمًا لحِكْمَتِهِ وحُكْمِهِ، وأيقنَ أنَّ الكلَّ مُلْكَهُ؛ طابَ قلبُه؛ قُضِيَتْ حاجتُه أوْ لم تُقْضَ.

وفي الحديث: «ما مِنْ مسلمٍ دعا الله تعالى إلَّا أجابَهُ: فإمَّا أنْ يُعَجِّلَها، وإمَّا أنْ يُؤَخِّرَها، وإما أنْ يَدَّخِرَها له في الآخرةِ»[2].

فإذا رأى يومَ القيامةِ أنَّ ما أجيبَ فيه قد ذَهَبَ، وما لم يُجَبْ فيه قد

---

(١) لم نجده، والأغلب أنه لا يصح في المرفوع، وإنما هو من أقوال السلف المنقولة عن أهل الكتاب.

(٢) (صحيح). رواه: أحمد (٣ / ١٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦ / ٣١١)، والحاكم (١ / ٤٩٣)؛ من حديث علي بن علي الرفاعي، عن أبي المتوكل، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

قال الحاكم: «هٰذا حديث صحيح الإسناد؛ إلا أن الشيخين لم يخرجا عن علي بن علي الرفاعي». ووافقه الذهبي. وقال المنذري في «الترغيب» (٢ / ٤٧٥ / ٢٤٢٧): «رواه أحمد والبزار وأبو يعلى بأسانيد جيدة». وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ١٥١): «رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والبزار والطبراني في «الأوسط»، ورجال أحمد وأبي يعلى وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح؛ غير علي بن علي الرفاعي، وهو ثقة».

وعلي بن علي الرفاعي فيه كلام، وحديثه لا بأس به، لٰكن للحديث شواهد كثيرة عن عدد من الصحابة ذكرها المنذري في «الترغيب» والهيثمي في «المجمع»؛ فهو صحيح بها بلا ريب.

بَقِيَ ثوابُه؛ قال: ليتك لم تُجِبْ لي دعوةً قَطُّ[١].

فافهمْ هٰذه الأشياءَ! وسلِّمْ قَلْبَكَ من أن يَخْتَلِجَ فيه رَيْبٌ أو استعجالٌ.

١٠٧ـ فصل

[في أن العلماء العاملين هم أقرب الخلق إلى الله]

مَن أرادَ أنْ يعرفَ رُتْبَةَ العلماءِ على الزُّهَّادِ؛ فَلْيَنْظُرْ في رُتبةِ جبريلَ وميكائيلَ وَمَنْ خُصَّ من الملائكةِ بولايةٍ تتعلَّقُ بالخَلْقِ وباقي الملائكةِ قيامٌ للتعبُّدِ في مراتبِ الرهبانِ في الصَّوامع[٢].

وقد حَظِيَ أولٰئك بالتَّقْريبِ على مقاديرِ علمِهم باللهِ تعالى.

فإذا مرَّ أحدُهم بالوَحْي؛ انْزَعَجَ أهلُ السماءِ حتى يُخْبِرَهُم بالخبرِ، فـ ﴿إذا فُزِّعَ عَنْ قُلوبِهِمْ قالوا ماذا قالَ رَبُّكُمْ قالوا الْحَقَّ﴾ [سبأ: ٢٣][٣]؛ كما إذا انْزَعَجَ الزاهدُ من حديثٍ يسمعهُ؛ سألَ العلماءَ عن صحَّتِهِ ومعناه.

فسبحان من خَصَّ فريقًا بخصائصَ شَرُفوا بها على جنسِهم!

---

(١) وقد ورد هٰذا المعنى فيما أخرجه الحاكم (١ / ٤٩٤)؛ من حديث جابر بن عبد الله مرفوعًا، وسنده ضعيف جدًّا.

(٢) الملائكة سفرة، كرام بررة، عباد لله مكرمون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يستحسرون، وبأمر الله قائمون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون... وأضعاف ذٰلك من عظيم الأوصاف التي أكرمهم الله بها في كتابه، وأما الرهبان في الصوامع؛ فقد قال سبحانه: ﴿ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها...﴾ [الحديد: ٢٧]؛ فكيف يجوز أن يقال هٰذا كذاك؟! لا والله لا يستويان.

(٣) ثبت ذٰلك فيما رواه البخاري (٦٥ ـ كتاب التفسير، ١٥ ـ سورة الحجر، ١ ـ باب ﴿إلا من استرق السمع﴾، ٨ / ٣٨٠ / ٤٧٠١) من حديث أبي هريرة مرفوعًا.

ولا خَصيصةَ أشرفُ من العلمِ ؛ بزيادتِهِ صارَ آدمُ مسجودًا له، وبنقصانِهِ صارتِ الملائكةُ ساجدةً؛ فأقربُ الخَلْقِ من الله العلماءُ.

وليس العلمُ بمجرَّدِ صورتِهِ هو النافع، بل معناهُ:

وإنما يُنال معناه من تعلُّمِهِ للعمل به؛ فكلَّما دَلَّهُ على فضل؛ اجتهدَ في نَيْلِهِ، وكلَّما نهاهُ عن نَقْصٍ؛ بالغَ في مباعدتِهِ؛ فحينئذٍ يكْشِفُ العلمُ له سِرَّه، ويَسْهُلُ عليه طريقُه، فيصيرُ كمُجْتَذَبٍ يحثُّ الجاذِبَ؛ فإذا حَرَّكَهُ؛ عَجَّلَ في سيرِهِ.

والذي لا يعملُ بالعمل لا يُطْلِعُهُ العلمُ على غَوْرِهِ، ولا يكشِفُ له عن سِرِّهِ، فيكونُ كمَجْذوبٍ لجاذِبٍ جاذَبَهُ.

فافهمْ هٰذا المثلَ، وحسِّنْ قَصْدَكَ، وإلَّا؛ فلا تتعجَّبْ.

١٠٨ـ فصل

[في أن الاعتدال هو أصلح الأحوال]

اعلمْ أنَّ أصلحَ الأمورِ الاعتدالُ في كلِّ شيءٍ:

وإذا رأيْنا أربابَ الدُّنيا قد غلبتْ آمالُهم، وفَسَدَتْ في الخيرِ أعمالُهم؛ أمرْناهم بذِكْرِ الموتِ والقبورِ والآخرةِ.

فأما إذا كانَ العالِمُ لا يغيبُ عن ذِكْرِهِ الموتُ، وأحاديثُ الآخرةِ تُقْرَأُ عليه وتُجْرى على لسانِهِ؛ فَتَذْكارُهُ الموتَ ـ زيادةً على ذٰلك ـ لا تفيدُ إلَّا انقطاعَه بالمرَّةِ.

بل ينبغي لهٰذا العالم الشديدِ الخوفِ من الله تعالى الكثيرِ الذِّكْرِ

للآخرةِ أنْ يُشاغِلَ نفسَه عن ذِكْرِ الموتِ؛ ليمتدَّ نَفَسُ أملِه قليلاً، فيصنِّفَ ويعمـلَ أعمالَ خيرٍ، ويَقْدِرَ على طلبِ ولدٍ؛ فأما إذا لَهَجَ بذِكْرِ الموتِ؛ كانتْ مفسدتُه عليه أكثرَ من مصلحتِه.

ألم تسمعْ أنَّ النبيَّ ﷺ سابَقَ عائشةَ رضي الله عنها فَسَبَقَتْهُ وسابَقَها فَسَبَقها[1]، وكان يمزحُ ويُشاغِلُ نفسَهُ[1]؟

فإنَّ مطالعةَ الحقائقِ على التَّحْقيقِ تُفْسِدُ البدنَ وتُزْعِجُ النَّفْسَ.

وقد روي عن أحمدَ بن حنبلٍ رحمةُ الله عليه أنَّهُ سألَ الله تعالى أنْ يَفْتَحَ عليه بابَ الخوفِ، ففتحَ عليه، فخافَ على عقلِهِ، فسألَ الله أن يَرُدَّ ذلك عنه.

فتـأمَّـلْ هذا الأصلَ؛ فإنه لا بدَّ من مغالطةِ النفسِ[2]، وفي ذلك صلاحُها.

واللهُ الموفقُ، والسلامُ.

١٠٩ـ فـصـل
[في فضل الجد في طلب المعالي]

مَن أعْمَلَ فِكْرَه الصافي؛ دلَّهُ على طلبِ أشرفِ المقاماتِ، ونهاه عن الرِّضى بالنقصِ في كلِّ حالٍ.

---

(١) تقدم تخريجه في (فصل ٩٧).

(٢) يعني: لا بد للنفس من طلب الراحة والترويح والاشتغال بأمور دنياها.

وقد قالَ أبو الطيِّبِ المتنبِّي(١):

وَلَمْ أرَ في عُيوبِ النـاسِ عَيْبًـا كَنَقْصِ القـادِرينَ على التَّمـامِ

فيَنْبَغي للعاقلِ أن يَنْتَهي إلى غايةِ ما يمكِنُه: فلو كانَ يُتَصَوَّرُ للآدميِّ صعـودُ السماواتِ؛ لرأيتُ من أقبح النقائصِ رضاهُ بالأرضِ، ولو كانتِ النبوةُ تَحْصُلُ بالاجتهادِ؛ رأيتُ المقصِّرَ في تحصيلِها في حضيضٍ(٢)؛ غيرَ أنَّه إذا لم يمكنْ ذلك؛ فينبغي أن يَطْلُبَ الممكنَ، والسِّيرةُ الجميلةُ عند الحكماءِ: خروجُ النفسِ إلى غايةِ كمالِها الممكنِ لها في العلم والعمل.

وأنا أشرحُ من ذلك ما يَدُلُّ مذكورُهُ على مُغْفَلِهِ(٣):

أمـا في البـدنِ؛ فليستِ الصُّـورةُ داخلةً تحتَ كَسْبِ الآدميِّ، بل يدخُلُ تحتَ كَسْبِهِ تحسينُها وتزيينُها؛ فقبيحٌ بالعاقل إهمالُ نفسِهِ.

وقد نَبَّهَ الشرعُ على الكلِّ بالبعضِ؛ فأمرَ بِقَصِّ الأظفارِ ونتفِ الإبطِ وحَلْقِ العانةِ، ونهى عن أكل الثُّوم والبَصَل النِّيءِ؛ لأجل الرائحة(٤).

وينبغي له أن يقيسَ على ذلك ويَطْلُبَ غايةَ النظافةِ ونهايةَ الزِّينةِ.

وقد كان النبيُّ ﷺ يُعْرَفُ مجيئُهُ بريحِ الطِّيبِ(٥)، فكانَ الغايةَ في

---

(١) شاعر الزمان، أحمد بن حسين، أحد أذكياء عصره، وصاحب النظم الذي بلغ الذروة، ولـد سنـة ٣٠٣هـ، وقتل سنة ٣٥٤هـ. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٤ / ١٠٢)، و«سير أعلام النبلاء» (١٦ / ١٩٩).

(٢) الحضيض: القرار من الأرض، ويقصد به هنا انحطاط المكانة.

(٣) المغفل: ما لم يذكر من الكلام.

(٤) وكله مشهور وثابت في «الصحيحين»، ولا حاجة للإطالة بسرده وتخريجه.

(٥) (حسن). رواه ابن سعد (١ / ١٩٣)؛ من طريق أبي بشر صاحب البصري، =

النظافةِ والنَّزاهةِ.

ولستُ آمـرُ بزيادة التقشُّفِ[١] الـذي يستعملهُ المُـوَسْـوَسُ، ولٰكنَّ التوسُّطَ هو المحمودُ.

ثم ينبغي له أن يَرْفُقَ ببدنِهِ الذي هو راحلتُهُ، ولا يَنْقُصَ من قُوتِها، فتَنْقُصَ قوَّتُه.

ولستُ آمر بالشِّبَع الذي يوجِب الجُشاءَ[٢]، إنما آمر بالتوسُّطِ؛ فإنَّ قوى الآدميِّ كعينٍ جاريةٍ؛ كم فيها من منفعةٍ لصاحِبِها ولغيرِهِ.

= أخبرنا يزيد الرقاشي، أن أنس بن مالك حدثهم؛ قال: كنا نعرف خروج النبي ﷺ بريح الطيب.

وهٰذا سند ضعيف: أبو بشر هٰذا؛ قال أبو حاتم: «لا أعرفه». ويزيد ضعيف.

لٰكن له طريق أخرى أخرجها الطبراني في «الأوسط» (٣ / ٣٦١ / ٢٧٧٢)؛ من طريق بشر بن سيحان، ثنا عمر بن سعيد، عن ابن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس... بنحوه. وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٨٥): «رواه أبو يعلى والبزار والطبراني في «الأوسط»، ورجال أبي يعلى وثقوا». وعمر بن سعيد ضعيف كما في «الميزان».

وله شاهد رواه الدارمي (١ / ٣٢) من طريق المغيرة بن عطية، عن أبي الزبير، عن جابر... بنحوه. والمغيرة ضعيف، وأبو الزبير مدلس وقد عنعن.

وله شاهد آخر مرسل أو معضل رواه الدارمي (١ / ٣٢) من طريق شريك، عن الأعمش، عن إبراهيم... فذكره.

والحديث بمجموع طرقه وشواهده لا ينزل عن رتبة الحسن كما أفاد الألباني في «الصحيحة» (٥ / ١٦٨ / ٢١٣٧).

(١) كذا! والموسوس لا يتقشف كما هو معلوم، بل يبالغ في صب الماء والتنظف، والظاهر أن في العبارة نقصًا.

(٢) هو خروج غازات المعدة عن طريق الفم، وغالبًا ما يترافق بصوت ورائحة كريهة.

ولا يُلْتَفَتُ إلى قول المُـوَسْـوَسِينَ من المتـزهِّدينَ الذين جَدُّوا في التقلُّل فضَعُفوا عن الفرائض ، وليس ذٰلك من الشرع ، ولا نُقِلَ عنِ الرسول ﷺ ولا أصحابِه، إنما كانَ الرسولُ ﷺ وأصحابُهُ إذا لم يَجِدوا؛ جاعوا، وربما آثروا فصبروا ضرورةً[1].

وكـذٰلك ينبغي أن يَنْظُرَ لهٰذه الراحلةِ في عَلَفِها؛ فربَّ لقمةٍ منعتْ لُقُماتٍ؛ فلا يعطيها ما يؤذيها، بل يَنْظُرُ لها في الأصلح ، ولا يتلفَّتُ إلى متـزهِّـدٍ يقـولُ: لا أبلِّغُهـا الشهواتِ؛ فإنَّ النظرَ ينبغي أن يكونَ في حِلِّ المطعم وأخذِ ما يَصْلُحُ بمقدارٍ.

ولم يُنْقَلْ عن الرسولِ ﷺ ولا أصحابِهِ رضي الله عنهم ما أحْدَثَهُ المُـوَسْـوَسـونَ في تركِ المشتَهَياتِ على الإطلاقِ، إنما نُقِلَ عنهُم تركُها لسببٍ: إمّـا للنـظرِ في حِلِّها، أو للخوفِ من مطالبةِ النفسِ بها في كلِّ وقتٍ . . . ويجوزُ ذٰلك.

وينبغي له أن يجتهدَ في التجارةِ والكَسْبِ؛ لِيُفْضِلَ على غيرِه، ولا يُفْضِلَ غيرُهُ عليهِ، ولِيَبْلُغَ من ذٰلك غايةً لا تمنعُهُ عن العلم.

ثم ينبغي له أن يَطْلُبَ الغايةَ في العلم، ومن أقبح النَّقْص التقليدُ؛ فإنْ قَوِيَتْ همَّتُهُ؛ رَقَّتْهُ إلى أن يختارَ لنفسِهِ مذهبًا ولا يَتَمَذْهَبَ لأحدٍ؛ فإنَّ المقلدَ أعمى يقودُهُ مقلِّدُهُ[2].

---

(١) يعني: أنهم لم يكونوا يتكلفون الجوع والعطش حبًا بذٰلك وتدينًا، وإنما كان يَعْرِض لهم للضرورة، فكانوا يصبرون عليه.

(٢) أبعد أن عمل بالكسب والتجارة واجتهد في جمع المال؟! فإذا كان من أفنى عمره في العلم لا يكاد يصبح مجتهدًا إلا في المسألة أو المسائل؛ فكيف بالتجار والصناع =

ثم ينبغي أن يَطْلُبَ الغايةَ في معرفةِ اللهِ تعالى ومعاملتِهِ.

وفي الجملةِ؛ لا يَتْرُكُ فضيلةً يمكنُ تحصيلُها إلَّا حصَّلَها؛ فإنَّ القنوعَ حالةُ الأرذالِ.

فَكُنْ رَجُلاً رِجْلُهُ في الثَّرَى وهامَةُ هِمَّتِهِ في الثُّرَيَّا(١)

ولو أمكنكَ عُبورُ كلِّ أحدٍ من العلماءِ والزُّهَّادِ؛ فافعلْ؛ فإنَّهم كانوا رِجالاً وأنت رجلٌ، وما قَعَدَ من قَعَدَ إلَّا لدناءةِ الهِمَّةِ وخَساسَتِها.

واعلمْ أنكَ في مَيْدانِ سباقٍ، والأوقاتُ تُنْتَهَبُ.

ولا تَخْلُدْ إلى كسلٍ؛ فما فاتَ ما فاتَ إلَّا بالكسلِ، ولا نالَ مَن نال إلَّا بالجِدِّ والعزمِ، وإنَّ الهِمَّةَ لَتغلي في القلوبِ غَلَيانَ ما في القدورِ.

وقد قال بعضُ من سَلَفَ:

ليس لي مالٌ سوى كَرَمي فبه أحيا من العَدَمِ
قَنِعَتْ نفسي بما رُزِقَتْ وَتَمَطَّتْ في العُلا هِمَمي

١١٠ ـ فصل

[المال خير معين للعالم في دينه ودنياه]

ليس في الدُّنيا أنفعُ للعلماءِ من جمعِ المالِ للاستغناءِ عن الناسِ؛ فإنَّهُ إذا ضُمَّ إلى العلمِ؛ حِيزَ الكمالُ.

= الذين شغلتهم الأموال؟! فهؤلاء لا يسعهم إلا تقليد من يوثق به من أهل العلم؛ فإن هموا وجدوا؛ فلا بأس من النظر في الأدلة وأقوال أهل العلم، وأما الاجتهاد؛ فهيهات!!

(١) الثرى: التراب. والهامة: الرأس. والثريا: أحد النجوم.

وإنَّ جمهورَ العلماءِ شَغَلَهُمُ العلمُ عن الكَسْبِ، فاحْتاجوا إلى ما لا بدَّ منه، وقلَّ الصبرُ، فَدَخَلوا مداخِلَ شانَتْهم، وإنْ تأوَّلوا فيها؛ إلَّا أنَّ غَيْرَها كان أحسنَ لهم!

فالزهريُّ مع عبدِ الملكِ[1]!

وأبو عُبيدةَ مع طاهرِ بنِ الحسينِ[2]!

وابنُ أبي الدُّنيا مؤدِّبُ المعتضدِ[3]!

---

(١) أما الزهري؛ فهو محمد بن مسلم بن شهاب، الإمام، العلم، حافظ عصره، ولد سنة ٥٠هـ، وتوفي سنة ١٢٣ أو ١٢٤هـ. انظر ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٤ / ١٧٧)، و«سير أعلام النبلاء» (٥ / ٣٢٦).

وأما عبد الملك؛ فهو ابن مروان بن الحكم الأموي، الخليفة المشهور، ولد سنة ٢٦هـ، وتوفي سنة ٨٦هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٤ / ٢٤٦)، «تهذيب التهذيب» (٦ / ٤٢٢).

وانظر خبر دخول الزهري على عبد الملك في «سير أعلام النبلاء» (٥ / ٣٢٨).

(٢) أما أبو عبيدة؛ فهو معمر بن المثنى، الإمام، العلامة، البحر، صاحب التصانيف، ولد سنة ١١٠هـ، وتوفي سنة ٢٠٩ أو ٢١٠هـ. انظر ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٥ / ٢٣٥)، «سير أعلام النبلاء» (٩ / ٤٤٥).

وأما طاهر بن الحسين؛ فهو مقدم جيوش المأمون والقائم بنصر خلافته، توفي سنة ٢٠٧هـ. انظر ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٢/٥١٧)، «أعلام النبلاء» (١٠/١٠٨).

(٣) أما ابن أبي الدنيا؛ فعبد الله بن محمد البغدادي القرشي صاحب التصانيف، ولد سنة ٢٠٨هـ، وكان يؤدب غير واحد من أبناء الخلفاء. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (١٣ / ٣٩٧)، «تهذيب التهذيب» (٦ / ١٢).

وأما المعتضد؛ فهو الخليفة العباسي أحمد بن الموفق بالله بن المتوكل بن المعتصم. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (١٣ / ٤٦٣).

وابنُ قُتيبةَ صَدَّرَ كتابَهُ بمدحِ الوزيرِ[١]. . .

ومـا زال خَلَفٌ من العلمـاءِ والـزُّهـادِ يعيشونَ في ظلِّ جماعـةٍ من المعروفينَ بالظُّلم. . . وهٰؤلاءِ، وإنْ كانوا سَلَكوا طريقًا من التأويل؛ فإنهم فَقَدوا من قلوبِهِم وكمالِ دينِهِم أكْثَرَ مما نالوا من الدُّنيا.

وقد رأينا جماعةً من المتصوفةِ والعلماءِ يَغْشَوْنَ الوُلاةَ لأجل نَيْلِ ما في أيديهم؛ فمنهم مَن يُداهِنُ ويرائي، ومنهم مَن يَمْدَحُ بما لا يجوزُ، ومنهم مَن يَسْكُتُ عن منكَراتٍ. . . إلى غير ذٰلك من المداهناتِ، وسببُها الفَقْرُ، فعَلِمْنا أنَّ كمالَ العِزِّ وبُعْدَ الرِّياءِ إنما يكونُ في البعدِ عن العمالِ الظَّلَمَةِ.

ولم نَرَ من صَحَّ له هٰذا إلَّا في أحَدِ رجلينِ:

إمـا مَن كان له مالٌ: كسعيدِ بن المسيَّبِ؛ كان يَتَّجِرُ في الـزيتِ وغيرِه[٢]، وسفيانَ الثوريِّ[٣]؛ كانتْ له بضائعُ، وابنِ المبارَكِ[٤].

وإمـا مَنْ كان شديدَ الصبرِ، قَنوعًا بما رُزِقَ، وإنْ لـم يَكْفِهِ؛ كبشرٍ الحافي[٣]، وأحمدَ بن حنبل.

---

(١) أما ابن قتيبة؛ فهو عبد الله بن مسلم، العلامة، ذو الفنون، صاحب التصانيف، ولد سنة ٢١٣هـ، وتوفي سنة ٢٧٦هـ. انظر ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٣ / ٤٢)، «سير أعلام النبلاء» (٣ / ٢٩٦).

وأمـا كتـابه الذي صدره بمدح الوزير؛ فهو «أدب الكاتب»، وأما الوزير؛ فهو أبو الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وانظر: «أدب الكاتب» (ص ٩).

(٢) تقدمت ترجمته سعيد في (فصل ٤٠)، وخبره هٰذا في (فصل ١٠٢).

(٣) تقدمت ترجمته في (فصل ١٩).

(٤) الإمام، شيخ الإسلام، أحد الأعلام، ولد سنة ١١٨هـ، وتوفي سنة ١٨١هـ. انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» (٨ / ١٦٢)، «سير أعلام النبلاء» (٨ / ٣٧٨).

ومتى لم يجدِ الإنسانُ كَصَبْرِ هٰذين ولا كمال أولٰئك؛ فالظاهرُ تَقَلُّبُه في المِحَن والآفاتِ، وربما تَلِفَ دينُه.

فعليك ـ يا طالبَ العلم ـ بالاجتهادِ في جمع المالِ للغنى عن الناسِ؛ فإنه يجمعُ لك دينَك!

فما رأينا في الأغلب منافقًا في التديُّنِ والتزهُّدِ والتخشُّعِ ولا آفةً طرأتْ على عالم؛ إلَّا بحبِّ الدُّنيا، وغالبُ ذٰلك الفقرُ.

فإنْ كان له مالٌ يكفيه، ثم يَطْلُبُ بتلك المخالطةِ الزيادةَ؛ فذٰلك معدودٌ في أهل الشَّرَهِ، خارجٌ عن حَيِّزِ العلماءِ، نعوذُ بالله من تلكَ الأحوالِ.

١١١ـ فصل

[الفقه أفضل العلوم]

أعظمُ دليلٍ على فضيلةِ الشيء النظرُ إلى ثمرتِهِ.

ومَن تأمَّلَ ثمرةَ الفقهِ؛ علم أنه أفضلُ العلوم.

فإنَّ أرباب المذاهب فاقوا بالفقهِ الخلائِق أبدًا، وإنْ كان في زمنِ أحدِهم مَن هو أعلمُ منه بالقرآنِ أو بالحديثِ أو باللغةِ.

واعتبرْ هٰذا بأهل زمانِنا؛ فإنَّك ترى الشابَّ يعرفُ مسائلَ الخلافِ الظاهرةَ فيستغني ويعرِفُ من حُكْمِ اللهِ تعالى في الحوادثِ ما لا يعرِفُه النِّحْريرُ[1] من باقي العلماء!

(١) النحرير: الحاذق، الماهر، المتقن، الفطن من العلماء.

وكم رأيْنا مبرِّزًا في علم القرآن أو في الحديثِ أو في التفسيرِ أو في اللغةِ لا يعرِفُ مع الشيخوخةِ معظَمَ أحكام الشرع، وربما جَهِلَ علمَ ما ينويه في صلاتِهِ!

على أنه ينبغي للفقيهِ ألَّا يكونَ أجنبيًّا عن باقي العلوم؛ فإنه لا يكونُ فقيهًا، بل يأخُذُ من كلِّ علم بِحَظٍّ، ثم يتوفَّرُ على الفقهِ؛ فإنَّه عزُّ الدُّنيا والآخرةِ(١).

١١٢ـ فـصـل
[في الورع الكاذب]

رأيتُ كثيرًا من الناس يتحرَّزونَ من رَشاشِ نجاسةٍ، ولا يتحاشَوْنَ مِن غِيبةٍ! ويكثِرونَ من الصَّدَقةِ، ولا يُبالونَ بمعاملاتِ الرِّبا! ويتهجَّدونَ بالليل، ويؤخِّرونَ الفريضةَ عن الوقتِ. . . في أشياءَ يطولُ عددُها؛ من حِفْظِ فروعٍ وتضييع أصولٍ.

فبحثتُ عن سببِ ذلك؟ فوجدتُه من شيئين: أحدُهما: العادةُ. والثاني: غَلَبَةُ الهوى في تحصيل المطلوبِ؛ فإنه قد يَغْلِبُ؛ فلا يَتْرُكُ سَمْعًا ولا بصرًا.

ومن هذا القبيل: أنَّ إخوةَ يوسُفَ قالوا ـ حينَ سَمِعوا صوتَ المُنادي: ﴿إِنَّكُمْ لَسارِقونَ﴾ [يوسف: ٧٠] ـ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ في

---

(١) من بحث عن عز الدنيا؛ فهيهات أن يرتفع شأنه وينال المكانة العالية التي نالها أصحاب المذاهب في ضمير الأمة.

الأَرْضِ وما كُنَّا سارِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣]، فجاء في التفسير: أنَّهم لما دَخَلوا مصرَ؛ كمَّموا أفواهَ إِبِلِهِم؛ لئلا تتناولَ ما ليسَ لهم، فكأنَّهم قالوا: قد رأيتُم ما صَنَعْنا بإِبِلِنا؛ فكيفَ نَسْرِقُ؟! ونَسوا هم تفاوتَ ما بين الورع من[1] اختطافِ أكلةٍ لا يملِكُونها وبينَ إلقاءِ يوسُفَ عليه السلامُ في الجُبِّ وبيعِهِ بثمنٍ بَخْسٍ!!

وفي الناس مَن يُطيعُ في صغارِ الأمورِ دونَ كبارِها، وفيما كُلْفَتُهُ عليه خفيفَةٌ أو معتادةٌ، وفيما لا يَنْقُصُ شيئًا من عادتِهِ في مَطْعَمٍ ومَلْبَسٍ.

نرى أقوامًا يأخُذون الرِّبا، ويقولُ أحدُهم: كيفَ يراني عدوِّي بعدَ أنْ بِعْتُ داري أو تغيَّرَ مَلْبوسي ومَرْكوبي؟!

ونرى أقوامًا يُوَسْوَسونَ في الطهارةِ، ويستعملونَ الكثيرَ منَ الماء، ولا يتحاشَوْن من غِيبةٍ!

وأقوامًا يستعمِلون التأويلاتِ الفاسدةَ في تحصيل أغراضِهِم؛ مع علمِهِم أنها لا تجوزُ!

حتَّى إني رأيتُ رجلًا من أهلِ الخيرِ والتعبُّدِ، أعطاهُ رجلٌ مالًا ليبنيَ به مسجدًا، فأخَذَهُ لنفسِهِ، وأنْفَقَ عوضَ الصحيحِ قُراضةً، فلما احْتُضِرَ؛ قال لذلك الرجل: اجعلْني في حِلٍّ؛ فإني فعلتُ كذا وكذا!!

ونرى أقوامًا يَتْرُكونَ الذُّنوبَ لبعدِهِم عنها؛ فقد أَلِفوا التَّرْكَ، وإذا قَرُبوا منها؛ لم يتمالَكُوا.

---

(١) في الأصول: «الورع واختطاف»، ولا معنى له!!

وفي الناس مِن هٰذه الفنون عجائبُ يطولُ ذِكْرُها.

وقد عَلِمْنا أن خَلْقًا من علماءِ اليهودِ كانوا يحمِلونَ ثِقَلَ التعبُّدِ في دينِهم، فلما جاء الإِسلامُ، وعَرَفوا صحَّتَه؛ لم يُطيقوا مقاومةَ أهوائِهم في مَحْوِ رياستهِم[١].

وكذٰلك قيصرُ؛ فإنه عَرَفَ رسولَ الله ﷺ بالدَّليل، ثم لم يَقْدِرْ على مقاومةِ هواه وتَرْكِ مُلْكِه[٢].

فاللهَ اللهَ في تضييع الأصول، ومن إهمال سَرْح الهوى؛ فإنه إنْ أهمِلَتْ ماشيتُهُ[٣]؛ نَفَشَتْ في زُروع التُّقى[٤].

وما مَثَلُ الهوى إلاَّ كَسَبُع في عُنُقِهِ سلسلةٌ؛ فإنِ اسْتَوْثَقَ منه ضابطُه؛ كَفَّهُ، وربما لاحتْ له شهواتُهُ الغالبةُ عليه، فلم تقاوِمْها السِّلسلةُ، فأفْلَتَ.

على أنَّ من الناس من يَكُفُّ هواه بسلسلةٍ، ومنهم من يكُفُّهُ بخيطٍ!

فينبغي للعاقل أن يَحْذَرَ شياطينَ الهوى، وأنْ يكون بصيرًا بما يَقْوى عليهِ من أعدائِهِ، وبمَنْ يَقْوى عليه.

---

(١) وقصصهم في ذٰلك كثير في السنة والسيرة، وقد فضحهم الله عز وجل في القرآن الكريم، فقال سبحانه: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ [البقرة: ٨٩].

(٢) وحديثه في ذٰلك مشهور رواه: البخاري (١ ـ بدء الوحي، ١ ـ كيف كان بدء الوحي، ١/٣١/٧)، ومسلم (٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير، ٢٦ ـ باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، ٣/١٣٩٣/١٧٧٣)؛ من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهم.

(٣) في الأصول: «ماشية»، والصواب ما أثبتناه.

(٤) يعني أن الهوى كالماشية التي تفسد الزرع الذي هو التقى.

١١٣ـ فصل

[في وجوب الاحتياط والحذر في معاشرة الأصدقاء]

مِن أعظم الغَلَطِ: الثِّقَةُ بالناس، والاسترسالُ إلى الأصدقاءِ؛ فإنَّ أشدَّ الأعداءِ وأكثرَهم أذىً الصديقُ المُنْقَلِبُ عدوًّا؛ لأنه قدِ اطَّلَعَ على خفيِّ السرِّ.

قال الشاعرُ:

احْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً ... واحْذَرْ صَديقَكَ أَلْفَ مَرَّهْ

فَلَرُبَّما انْقَلَبَ الصَّديـ ... ـقُ فَكانَ أعْلَمَ بالمَضَرَّهْ

واعلمْ أنَّ مِنَ الأمرِ الموضوعِ في النُّفوسِ الحسدَ على النِّعمِ أو الغِبْطَةَ وحُبَّ الرِّفْعَةِ! فإذا رآكَ مَنْ يعتقدُك مِثْلًا لهُ؛ وقدِ ارتقيتَ عليه؛ فلا بدَّ أنْ يتأثَّرَ، وربما حَسَدَ؛ فإنَّ إخوةَ يوسفَ عليهمُ السلامُ مِن هٰذا الجنسِ جَرَى لهُم ما شانَهم.

فإنْ قلتَ: كيفَ يَبْقى الإنسانُ بلا صديقٍ؟!

قلتُ لكَ: أتُراكَ ما تعلمُ أنَّ المجانِسَ يَحْسُدُ، وأنَّ أكثرَ العوامِّ يعتقدونَ في العالِمِ أنه لا يتبسَّمُ ولا يتناولُ من شَهَواتِ الدُّنيا شيئًا؛ فإذا رأَوْا بعضَ انبساطِهِ في المباحِ؛ هَبَطَ من أعينِهم؟! فإذا كانت هٰذه حالةُ العوامِّ، وتلك حالةُ الخواصِّ؛ فمع مَنْ تكونُ المعاشرةُ؟!

لا؛ بل واللهِ ما تَصِحُّ المعاشَرَةُ مع النفسِ؛ لأنَّها متلوِّنةٌ.

وليسَ إلَّا المداراةُ للخَلْقِ، والاحترازُ منهم، واتِّخاذُ المعارفِ؛ من

غيرِ طمعٍ في صديقٍ صادقٍ.

فإنْ نَدَرَ؛ فليكنْ غيرَ مماثلٍ ؛ لأنَّ الحسدَ إليه أسبقُ، وليكنْ مُرْتَفِعًا عن رتبةِ العوامِّ، غيرَ طامعٍ في نيل مقامِكَ.

وإنْ كانتْ معاشرةُ هٰذا لا تَشْفِي ؛ لأن المعاشرةَ ينبغي أن تكونَ بين العلماءِ للمجانِسِ ، فَلَزِمَهم من الإشاراتِ في المخالطةِ ما تطيبُ به المجالسةُ، ولٰكن لا سبيلَ إلى الوصالِ.

ومثلُ هٰذه الحالِ أنَّك إنِ استخدمتَ الأذكياءَ؛ عَرَفوا باطِنَكَ، وإنِ استخدمتَ البُلْهَ؛ انعكستْ مقاصِدُكَ.

فاجعلِ الأذكياءَ لحوائجِكَ الخارجةِ، والبُلْهَ لحوائجِكَ في منزِلِكَ؛ لئلَّا يَعْلَموا أسرارَكَ، واقنعْ منَ الأصدقاءِ بمنْ وصفتُهُ لكَ، ثم لا تَلْقَهُ إلَّا مُتَدَرِّعًا دِرْعَ الحَذَرِ، ولا تُطْلِعْهُ على باطنٍ يمكنُ أنْ يُسْتَرَ عنه، وكنْ كما يُقال عن الذئبِ:

يَنامُ بإحْدى مُقْلَتَيْهِ وَيَتَّقِي ... بِأُخْرى الأعادي فَهْوَ يَقْظانُ هاجِعُ[1]

١١٤ ـ فصل

[لا تهينوا أنفسكم على أبواب أرباب الدنيا]

رأيتُ نَفَرًا ممَّنْ أفنى أوائلَ عُمُرِهِ وريْعانَ شبابِهِ في طلبِ العلمِ يصبرُ على أنواعِ الأذى وهَجْرِ فُنونِ الرَّاحاتِ؛ أَنَفَةً من الجَهْلِ ورذيلتِهِ، وطَلَبًا

(١) نظرة المؤلف رحمه الله هٰذه فيها شيء من الصحة، ولٰكن فيها مبالغة أيضًا، والحق أخذ الأمور بالاعتدال، وما جمع الرفق إلى شيء إلا زانه.

للعلمِ وفضيلتِهِ، فلمَّا نالَ منهُ طَرَفًا رَفعَهُ عن مراتبِ أربابِ الدُّنيا ومَنْ لا علمَ لهُ إلَّا بالعاجلِ؛ ضاقَ به معاشُه، أو قَلَّ ما يَنْشُدُه لنفسهِ من حظوظٍ، فسافرَ في البلادِ؛ يَطْلُبُ مِن الأراذلِ، ويتواضَعُ للسِّفْلَةِ وأهلِ الدَّناءةِ والمُكَّاسِ وغيرِهِم!

فخاطبتُ بعضَهم وقلتُ: ويحكَ! أينَ تلكَ الأَنَفَةُ من الجهل التي سهرتَ لأجْلِها وأظمأتَ نهارَكَ بسببِها؟! فلما ارتفعتَ وانتفعتَ؛ عدتَ إلى أسفلِ سافلينَ! أفما بقي عندكَ ذرَّةٌ مِن الأَنَفَةِ تَنْبو بها عن مقاماتِ الأراذلِ؟! ولا معكَ يسيرٌ من العلم يسيرُ بكَ عن مُناخ الهوى؟! ولا حَصَّلْتَ بالعلم قُوَّةً تَجْذِبُ بها زمامَ النفسِ عن مراعي السَّوْءِ؟!

على أنه يَبينُ لي أنَّ سَهَرَكَ وتَعَبَكَ كأنهما كانا لِنَيْلِ الدُّنيا!

ثم إني أراكَ تزعمُ أنك تريدُ شيئًا من الدُّنيا تستعينُ به على طَلَبِ العِلم!

فاعلم أنَّ التفاتَكَ إلى نوعِ كَسْبٍ تستغني به عنِ الأراذلِ أفضلُ من التَّزَيُّدِ في علمِكَ؛ فلو عرفتَ ما يَنْقُصُ به دينُك؛ لم تَرَ فيما قد عَزَمْتَ عليه زيادةً، بل لعلَّه كلَّه مخاطرةٌ بالنفس وبذلُ الوجهِ ـ الذي طالما صِيْنَ ـ لمن لا يَصْلُحُ التفاتُ مثلِكَ إلى مثلِهِ.

وبعيدٌ أن تَقْنَعَ بعدَ شُروعِك في هٰذا الأمر بقَدْرِ الكفافِ، وقد علمتَ ما في السؤال بعد الكفافِ من الإثم! وأبعدُ منه أن تَقْدِرَ على الوَرَعِ في المأخوذِ! ومَنْ لك بالسلامةِ والرجوع إلى الوطنِ؟! وكم رمى قَفْرٌ في بواديهِ من هالكٍ!

ثم ما تُحَصِّلُهُ يفنى، ويبقى منه ما أعطي، وعَيْبُ المتَّقينَ إيَّاك،

واقتداءُ الجاهلينَ بك، ويكفيكَ أنَّكَ عدتَ على ما علمتَ من ذمِّ الدُّنيا بِشَيْنِهِ؛ إذ فعلتَ ما يناقِضُه، خصوصًا وقد مرَّ أكثرُ العُمُرِ، ومَن أحْسَنَ فيما مضى يُحْسِنُ فيما بقي.

١١٥ ـ فصل
[في المنهج العلمي المقترح لطالب العلم]

رأيتُ الشَّرِهَ في تحصيل الأشياءِ يفوِّتُ الشَّرَهُ عليه مقصودَهُ.

وقد رأينا مَن كانَ شَرِهًا في جمع المالِ، فحصلَ لهُ الكثيرُ منه، وهو مع ذلك حريصٌ على الازديادِ، ولو فَهِمَ؛ عَلِمَ أنَّ المرادَ من المالِ إنفاقُه في العُمُرِ؛ فإذا أنْفَقَ العُمُرَ في تحصيلِه؛ فاتَ المقصودانِ جَميعًا!

وكم رأيْنا ممَّنْ جَمَعَ المالَ ولم يَتَمَتَّعْ به، فأبقاهُ لغيرِه وأفنى نفسَه؛ كما قال الشاعرُ:

كَدُودَةِ القَزِّ ما تَبْنيهِ يَهْدِمُها   وغيرُها بالذي تَبْنيهِ يَنْتَفِعُ

وكذلك رأيْنا خَلْقًا كثيرًا يحرِصونَ على جمع الكُتُبِ، فيُنْفِقونَ أعمارَهم في كتابتِها.

وكَذَأْبِ أهل الحديثِ؛ ينفِقونَ الأعمارَ في النَّسْخ والسَّماع إلى آخر العُمُرِ، ثم ينقسِمونَ:

فمنهُم مَن يتشاغَلُ بالحديثِ وعلمِهِ وتصحيحِهِ، ولعلَّه لا يَفْهمُ جوابَ حادثةٍ، ولعلَّ عندَه للحديث «أسْلَمُ سالَمَها اللهُ»[1] مئةَ طريقٍ، وقد

(١) رواه: البخاري (١٥ ـ كتاب الاستسقاء، ٢ ـ باب دعاء النبي ﷺ، ٢ / ٤٩٢ =

حُكِي لي عن بعضِ أصحابِ الحديثِ أنه سَمِعَ «جُزْءَ ابن عرفةَ» عن مئةِ شيخٍ، وكان عندَه سبعونَ نسخةً.

ومنهم مَن يَجْمَعُ الكُتُبَ ويَسْمَعُها، ولا يدري ما فيها؛ لا مِن حيث صحتها، ولا مِن فَهْم معناها، فَتَراهُ يقولُ: الكتابُ الفلانيُّ سماعيٌّ، وعندي له نسخةٌ، والكتابُ الفلانيُّ، والفلانيُّ... فلا يَعْرِفُ علمَ ما عندَه من حيث فهمُ صحيحهِ من سقيمهِ، وقد صدَّهُ اشتغالُه بذٰلك عن المهمِّ من العلم!

فهمْ كما قالَ الحُطَيْئَةُ[1]:

زَوَامِلُ للأخْبارِ لا عِلْمَ عِنْدَها بِمُثْقِلِها إلَّا كَعِلْمِ الأباعِرِ[2]
لَعَمْرُكَ ما يَدْري البعيرُ إذا غَدا بأوْساقِهِ أوْ راحَ ما في الغَرائِرِ[3]

ثم ترى منهم من يتصدَّرُ بإتقانهِ للروايةِ وحدَها، فَيَمُدُّ يَدَهُ إلى ما ليس مِن شُغْلِهِ؛ فإنْ أفتى؛ أخطأ، وإن تكلَّمَ في الأصول؛ خَلَّطَ!

ولولا أني لا أحِبُّ ذِكْرَ الناسِ؛ لَذَكَرْتُ من أخبارِ كبارِ علمائِهم وما خَلَّطوا ما يُعْتَبَرُ بهِ، ولٰكنَّه لا يخفى على المحقِّق حالُهم[4].

= / ١٠٠٦)، ومسلم (٤ ـ كتاب فضائل الصحابة، ٤٦ ـ باب دعاء النبي ﷺ لغفار وأسلم، ٤ / ١٩٥٣ / ٢٥١٦)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) جرول بن أوس بن مالك العبسي، شاعر مخضرم هجاء مشهور لم يكد يسلم من لسانه أحد، توفي نحو ٤٥هـ. انظر ترجمته في: «خزانة الأدب» (١ / ٤٠٩) للبغدادي.

(٢) الزاملة: البعير. ومثقِلها: اسم فاعل؛ يعني: المحمول الذي أثقل ظهرها.

(٣) الوَسق: الحمل. والغرائر: الأكياس التي توضع فيها الأحمال.

(٤) وهٰذه مبالغة أيضًا، وكل ابن آدم خطاء، وما أكثر أخطاء المصنف رحمه الله! وليس من شرط العالم أن لا يخطىء؛ كما قال الحافظ الذهبي رحمه الله.

فإنْ قالَ قائلٌ: أليس في الحديثِ: «منهومانِ لا يشبعانِ: طالبُ علم وطالبُ دنيا»(١)؟!

قلتُ: أما العالمُ؛ فلا أقولُ له: اشبعْ من العلم، ولا اقتصرْ على بعضِه، بلْ أقولُ له: قدِّمِ المهمَّ؛ فإنَّ العاقلَ مَنْ قَدَّرَ عُمُرَهُ وعمِلَ بمقتضاه، وإنْ كان لا سبيلَ إلى العلم بمقدارِ العُمُرِ؛ غيرَ أنه يَبْني على الأغلبِ؛ فإنْ وَصَلَ؛ فقد أعدَّ لكلِّ مرحلةٍ زادًا، وإن ماتَ قبل الوصولِ؛ فَنِيَّتُهُ تَسْلُكُ به.

فإذا عَلِمَ العاقلُ أنَّ العُمُرَ قصيرٌ، وأن العلمَ كثيرٌ؛ فقبيحٌ بالعاقلِ الطالبِ لكمالِ الفضائلِ أنْ يتشاغلَ مثلًا بسماعِ الحديثِ ونسخِهِ؛ لِيُحَصِّلَ كُلَّ طريقٍ وكلَّ روايةٍ وكلَّ غريبٍ، وهٰذا لا يَفْرَغُ من مقصودِهِ منه في خمسين سنةً؛ خصوصًا إنْ تشاغلَ بالنَّسْخِ ثم لا يَحْفَظُ القرآنَ، أو يتشاغلُ بعلومِ القرآنِ ولا يعرِفُ الحديثَ، أو بالخلافِ في الفقهِ ولا يعرِفُ النَّقْلَ

---

(١) (صحيح). رواه الحاكم (١ / ٩٢)؛ من طريق قتادة عن أنس مرفوعًا.

قال الحاكم: «هٰذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ولم أجد له علة». ووافقه الذهبي، وتعقبهما الألباني فأعله بتدليس قتادة وعنعنته.

لكن له طريق أخرى عن حميد عن أنس عند ابن عدي وابن عساكر.

وله شاهد من حديث ابن عباس رواه أبو خيثمة في «العلم» (٣٣ / ١٤١) وإسناده صالح للاعتبار.

وله شاهد موقوف على ابن عباس وآخر على ابن مسعود وثالث على الحسن رواها الدارمي (١ / ٩٦).

وبالجملة؛ فالحديث حسن أو صحيح بمجموع طرقه وشواهده، وصححه الألباني في «المشكاة» (١ / ٨٦ / ٢٦٠)، و«العلم لأبي خيثمة» (٣٣ / ١٤١).

الذي عليه مدارُ المسألةِ.

فإنْ قالَ قائلٌ: فدبِّرْ لي ما تختارُ لنفسِكَ.

فأقـولُ: ذو الهِمَّـةِ لا يَخْفى من زمـانِ الصِّبا؛ كما قال سفيانُ بن عُيينةَ[١]: قال لي أبي وقد بلغتُ خمسَ عشرةَ سنةً: إنه قدِ انقضتْ عنكَ شرائعُ الصِّبا؛ فاتبعِ الخيرَ؛ تكنْ من أهلِهِ. فجعلتُ وصيةَ أبي قِبْلَةً أميلُ إليها ولا أميلُ عنها.

ثم قبل شُروعي في الجواب أقولُ:

ينبغي لمن له أَنَفَةٌ أنْ يأنَفَ من التقصيرِ الممكنِ دفعُه عن النفس؛ فلو كانتِ النبوةُ مثلاً تأتي بكَسْبٍ؛ لم يَجُزْ لهُ أنْ يَقْنَعَ بالولايةِ، أو تَصَوَّرَ أنْ يكونَ مثلاً خليفةً؛ لم يَحْسُنْ به أن يَقْتَنِعَ بإمارةٍ، ولو صحَّ له أن يكونَ مَلَكًا؛ لمْ يرضَ أنْ يكون بَشَرًا[٢]...

والمقصـودُ أن ينتهيَ بالنَّفْسِ إلى كمـالِهـا الممكنِ لها في العلمِ والعملِ، وقد عُلِمَ قِصَرُ العمرِ، وكَثْرَةُ العلم:

فيبتدِىءُ بالقرآنِ وحِفْظِهِ، وينْظُرُ في تفسيرِهِ نظرًا متوسِّطًا لا يخفى عليه بذلك منه شيءٌ.

---

(١) الهلالي، ثم الكوفي، الإمام، الحافظ، الثقة، محدث الحرم المكي، ولد سنة ١٠٧هـ، وتوفي سنة ١٩٨هـ. انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» (٧ / ٢٧٠)، «سير أعلام النبلاء» (٨ / ٤٥٤).

(٢) كيف؛ وقـد سبق للمؤلف رحمـه الله أن فضل البشر على الملائكة، وجعل الملائكة مخلوقين في خدمة البشر في (فصل ٤٢)؟!

وإنْ صحَّ له قراءةُ القراءاتِ السبعِ ، وأشياءَ من النَّحْوِ وكُتُبِ اللغةِ، وابتدأ بأصول الحديثِ من حيثُ النقلُ ؛ كالصحاح والمسانيدِ والسننِ ، ومن حيثُ علمُ الحديثِ؛ كمعرفةِ الضعفاءِ والأسماءِ؛ فلينظرْ في أصولِ ذلك . وقد رتبتِ العلماءُ من ذلك ما يستغني به الطالبُ عن التعبِ.

ولينظرْ في التواريخ ؛ ليعرفَ ما لا يُسْتَغْنى عنه ؛ كنسبِ الرسولِ ﷺ وأقاربهِ وأزواجهِ وما جرى له .

ثم لِيُقْبِلْ على الفقهِ، فَلْيَنْظُرْ في المذهبِ والخلافِ، وليكن اعتمادُهُ على مسائلِ الخلافِ؛ فلينظرْ في المسألةِ وما تحتوي عليه، فَيَطْلُبُه من مظانِّه؛ كتفسيرِ آيةٍ وحديثٍ وكلمةِ لغةٍ.

ويتشاغلُ بأصولِ الفقهِ وبالفرائضِ ، وليعلمْ أنَّ الفقهَ عليه مدارُ العلوم .

ويكفيه من النظرِ في الأصول ما يستدلُّ به على وجودِ الصانع ؛ فإذا أثْبَتَهُ بالدليلِ ، وعَرَفَ ما يجوزُ عليه مما لا يجوزُ، وأثبتَ إرسالَ الرُّسُلِ ، وعلمَ وجوبَ القَبولِ منهم ؛ فقدِ احتوى على المقصودِ من علم الأصولِ .

فإنِ اتَّسَعَ الزمانُ للتزيُّدِ من العلم ؛ فَلْيَكُنْ من الفقهِ؛ فإنه الأنفعُ .

ومَهْما فُسِحَ له في المُهَلِ ، فأمكنهُ تصنيفٌ في علمٍ ؛ فإنه يُخَلِّفُ بذلك خَلْفَهُ خَلَفًا صالحًا .

مع اجتهادِهِ في التسبُّبِ إلى اتِّخاذ الولدِ .

ثم يعلمُ أنَّ الدُّنيا مَعْبَرَةٌ، فيلتفتُ إلى فَهْم معاملةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ فإنَّ مجموعَ ما حَصَّلَهُ من العلم يَدُلُّهُ عليهِ .

فإذا تعرَّضَ لتحقيق معرفتِه، وَوَقَفَ على باب معاملتِه؛ فقلَّ أنْ يَقِفَ صادقًا إلَّا ويُجْذَبَ إلى مقام الولايةِ، ومَن أُريدَ وُفِّقَ.

وإنَّ للهِ عزَّ وجلَّ أقوامًا يتولَّى تَرْبيَتَهم، ويبعثُ إليهم في زمنِ الطُّفوليَّةِ مؤدبًا، ويُسَمَّى العقلُ، ومقوِّمًا، ويقالُ لهُ الفَهْمُ، ويتولَّى تأديبَهم وتثقيفَهم، ويُهَيِّئُ لهم أسبابَ القُرْبِ منه؛ فإنْ لاحَ قاطعٌ قَطَعَهُم عنه؛ حَمَاهُم منه، وإن تَعَرَّضَتْ بهم فتنةٌ؛ دَفَعَها عنهم.

فنسألُ الله عزَّ وجلَّ أنْ يَجْعَلَنا منهم، ونعوذُ به من خِذْلانٍ لا يَنْفَعُ معهُ اجتهادٌ.

١١٦ ـ فصل

[من أخفى سريرة ألبسه الله ثوبها]

إنَّ للخَلْوَةِ تأثيراتٍ تَبِينُ في الجَلْوةِ.

كم من مؤمنٍ بالله عزَّ وجلَّ، يحترِمُهُ عند الخَلَواتِ، فيترُكُ ما يَشْتَهي حَذَرًا من عِقابِهِ أو رجاءً لثوابِهِ أو إجلالاً له، فيكون بذلك الفعل كأنه طَرَحَ عودًا هنديًّا على مَجْمَرٍ، فيفوحُ طيبُهُ، فيستنشِقُهُ الخلائقُ، ولا يدرونَ أين هُو؟

وعلى قَدْرِ المجاهدةِ في ترك ما يهوى تقوى محبَّتُهُ، أو على مقدارِ زيادةِ دَفْعِ ذلك المحبوبِ المتروكِ يزيدُ الطيبُ، ويتفاوتُ تفاوتَ العودِ.

فترى عيونَ الخَلْقِ تُعَظِّمُ هذا الشخصَ، وألسنتُهم تمدحُهُ، ولا يعرِفونَ لِمَ؟ ولا يقدِرونَ على وصفِهِ: لبعدِهم عن حقيقةِ معرفتِه.

وقد تمتدُّ هٰذه الأراييحُ[١] بعد الموتِ على قَدْرِها؛ فمنهُم مَن يُذْكَرُ بالخير مدَّةً مديدةً ثم يُنْسى، ومنهم من يُذْكَرُ مئةَ سنةٍ ثم يَخْفى ذِكْرُهُ وقبرُهُ[٢]، ومنهم أعلامٌ يبقى ذِكْرُهُم أبدًا.

وعلى عكس هٰذا مَن هاب الخَلْقَ ولم يحترِمْ خَلْوَتَهُ بالحقِّ؛ فإنَّه على قَدْرِ مبارزتِهِ بالذُّنوب، وعلى مقاديرِ تلكَ الذُّنوب؛ يفوحُ منه ريحُ الكراهةِ، فتَمْقُتُهُ القلوبُ: فإنْ قَلَّ مقدارُ ما جنى؛ قَلَّ ذِكْرُ الألسنِ له بالخيرِ، وبقي مجرَّدُ تعظيمِهِ. وإن كَثُرَ؛ كان قُصارى الأمرِ سكوتَ الناسِ عنه؛ لا يمدحونَه ولا يذمُّونَه.

وربَّ خالٍ بذنبٍ كانَ سببَ وقوعِهِ في هُوَّةِ شِقْوَةٍ في عيشِ الدُّنيا والآخرةِ، وكأنه قيلَ له: ابقَ بما آثرتَ! فيبقى أبدًا في التخبيطِ.

فانظروا إخواني إلى المعاصي أثَّرَتْ وعَثَّرَتْ.

قال أبو الدَّرداءِ رضي الله عنه: إن العبدَ لَيَخْلو بمعصيةِ الله تعالى، فيُلْقي اللهُ بُغْضَهُ في قلوبِ المؤمنينَ من حيثُ لا يشعُرُ[٣].

فتلمَّحوا ما سَطَّرْتُه، واعرِفوا ما ذَكَرْتُه، ولا تُهْمِلوا خَلَواتِكم ولا سَرائِرَكُم؛ فإنَّ الأعمالَ بالنِّيَّةِ، والجزاءَ على مقدارِ الإخلاصِ.

---

(١) يعني: الروائح العطرة.

(٢) وما يضر المرء إن خفي قبره؟! وهل بقاء القبر دليل على فضل أو صلاح؟! فأين قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون صلى الله عليهم وسلم؟! أين قبر عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد رضي الله عنهم؟! مع أن قبور كثير من الكفرة والمجرمين ما زالت منظورة مشهودة؛ ككثير من الفراعنة وأمثالهم!!

(٣) انظر الخبر في: «حلية الأولياء» (١ / ٢١٥).

١١٧ـ فصل

[في الصبر والرضى بما جرت به الأقدار]

مَن عَرَفَ جَرَيانَ الأقدارِ؛ ثَبَتَ لها(١).

وأجهلُ الناسِ بعدَ هٰذا مَن قاواها(٢)؛ لأنَّ مُرادَ المقدِّرِ الذُّلُّ له؛ فإذا قاوَيْتَ القَدَرَ، فنِلْتَ مرادَكَ من ذٰلك؛ لم يبق لكَ ذُلٌّ.

مثالُ هٰذا: أنْ يجوعَ الفقيرُ، فيصبرَ قَدْرَ الطاقةِ؛ فإذا عَجزَ؛ خَرَجَ إلى سؤالِ الخَلْقِ؛ مستحيًا من اللهِ كيف يسألُهم؛ وإنْ كانَ له عُذْرٌ بالحاجةِ التي ألجأتْهُ؛ غيرِ أنَّه يرى أنه مغلوبُ الصَّبْرِ، فيبقى معتذِرًا مستَحِيًا، وذاك المرادُ منه.

أوَليسَ بخروج النبيِّ ﷺ من مكَّةَ فلا يقدِرُ على العَوْدِ إليها حتَّى يَدْخُلَ في خِفارةِ المطعمِ بن عديٍّ(٣) وهو كافر [عبرة في ذٰلك]؟!

فسبحانَ من ناطَ الأمورَ بالأسبابِ؛ ليحصُلَ ذُلُّ العارفِ بالحاجةِ إلى التسبُّبِ.

---

(١) يعني: صبر لمكروهاتها.

(٢) يعني: غالبها وقاومها. فإن كان يريد بالمقاواة: السخط منها والغضب؛ فكلامه صحيح. وإن كان يريد بالمقاواة: السعي في كشف الغم وتنفيس الكرب؛ فكلامه غير صحيح؛ لأن هٰذا أمر مطلوب شرعًا؛ فالمصيبة من أمر الله وقدره، والسعي في كشفها والخروج منها من أمر الله وقدره أيضًا؛ فالمرء يفر من قدر الله إلى قدر الله؛ كما صح عن عمر رضي الله عنه في قصة الطاعون المشهورة المخرجة في الصحاح.

(٣) في جواره وحمايته، وقد تقدم تخريجه في (فصل ٤١).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

١١٨ ـ فصل

[صروف الدهر ابتلاء من الله سبحانه لعباده]

سبحانَ المتصرِّفِ في خَلْقِهِ بالاغترابِ والإذلالِ لِيَبْلُوَ صبرَهم ويُظْهِرَ جواهِرَهم في الابتلاءِ!

هٰذا آدمُ ﷺ تَسْجُدُ له الملائكةُ، ثم بعد قليلٍ يَخْرُجُ من الجنةِ.

وهٰذا نوحٌ عليه السلام يُضْرَبُ حتى يُغشى عليه، ثم بعدَ قليلٍ يَنْجو في السفينةِ ويَهْلِكُ أعداؤه(١).

وهٰذا الخليلُ عليه السلامُ يُلْقى في النارِ، ثم بعد قليلٍ يَخْرُجُ إلى السلامةِ.

وهٰذا الذَّبيحُ يَضْطَجِعُ مستسلمًا، ثم يَسْلَمُ، ويبقى المدحُ.

وهٰذا يعقوبُ عليه السلامُ يَذْهَبُ بصرُهُ بالفراقِ، ثم يعودُ بالوصولِ.

وهٰذا الكليمُ عليه السلامُ يَشْتَغِلُ بالرَّعْيِ(٢)، ثم يَرْقى إلى التَّكْليمِ.

وهٰذا نبيُّنا محمدٌ ﷺ يُقال له بالأمس: اليتيمُ، ويُقَلَّبُ في عجائبَ يُلاقيها من الأعداءِ تارةً، ومن مكائدِ الفَقْرِ أخرى، وهو أثبتُ من جبل حِراءَ، ثم لما تَمَّ لهُ مُرادُهُ من الفتح، وبَلَغَ الغرضَ من أكبرِ الملوكِ وأهل الأرض؛ نَزَلَ به ضيفُ النَّقْلَةِ، فقالَ: وا كرباهُ(٣)!

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» (ص ٦٦).

(٢) يعني: عند ذهابه ﷺ إلى مدين وزواجه.

(٣) وهٰذا خطأ ظاهر؛ فكيف يقول ﷺ: واكرباه! عند لقائه بربه، وهو الذي خُيِّر =

فمَن تَلَمَّحَ بحرَ الدُّنيا، وعَلِمَ كيفَ تُتَلَقَّى الأمواجُ، وكيفَ يُصْبَرُ على مدافعةِ الأيامِ؛ لم يَسْتَهْوِلْ(١) نزولَ بلاءٍ، ولم يفرحْ بعاجل رخاءٍ.

١١٩ ـ فصل

[عليكم من العمل بما تطيقون]

ينبغي للعاقل أنْ لا يُقْدِمَ على العزائم حتى يَزِنَ نفسَه: هلْ يُطيقُها؟ ويُجَرِّبَ نفسَه في ركوبِ بعضِها سرًّا من الخَلْقِ؛ فإنَّه لا يأمنُ أنْ يُرى في حالةٍ لا يصبرُ عليها، ثم يعودَ فيُفْتَضَحَ!

مثـالُـهُ: رجلٌ سمعَ بذِكْرِ الزُّهَّادِ، فرمى ثيابَهُ الجميلةَ، ولبس الدُّونَ، وانفردَ في زاويةٍ، وغلبَ على قلبِهِ ذِكْرُ الموتِ والآخرةِ، فلم يَلْبَثْ متقاضي الطَّبعِ أنْ ألَحَّ بما جَرَتْ به العادةُ؛ فمِنَ القوم مَن عاد بمرةٍ إلى أكثرَ مما كان عليه؛ كأكلِ النَّاقِهِ(٢) من مرضٍ، ومنهم مَن توسَّطَ الحالَ فبقي كالمُذَبْذَبِ.

وإنما العاقلُ هو الذي يَسْتُرُ نفسَه بين الناسِ بثوبٍ وسطٍ؛ لا يخرجُهُ من أهل الخيرِ، ولا يُدْخِلُهُ في زِيِّ أهلِ الفاقةِ؛ فإنْ قَوِيَتْ عزيمتُه؛ عَمِلَ

= فاختار الرفيق الأعلى كما في «الصحيحين»؟!

ولعل المصنف رحمه الله أراد أن ينسب قول: «واكرباه» إلى فاطمة رضي الله عنها، فسبقه قلمه، فكان هذا الخطأ الذي لا يقع مثله بمثله!

وقد روى البخاري (٦٤ ـ كتاب المغازي، ٨٣ ـ باب مرض النبي ﷺ ووفاته، ٨ / ١٤٩ / ٤٤٦٢) عن أنس رضي الله عنه؛ قال: لما ثقل النبي ﷺ؛ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: واكرب أباه! فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم».

(١) يعني: لم يستعظمه ولم يجده هائلاً.

(٢) الناقِه: من صح من مرضه حديثًا وما زال فيه شيء من الضعف.

في بيتِه ما يُطيقُ، وتَرَكَ ثَوْبَ التجمُّل لِسَتْرِ الحال، ولم يُظْهِرْ شيئًا للخَلْقِ؛ فإنَّه أبعدُ من الرِّياءِ، وأسلمُ من الفضيحةِ.

وفي الناسِ مَن غَلَبَ عليه قِصَرُ الأمل وذِكْرُ الآخرةِ، حتى دَفَنَ كُتُبَ العلم! وهٰذا الفِعْلُ عندي من أعظم الخَطَإِ، وإنْ كان منقولاً عن جماعةٍ من الكبارِ!

ولقد ذكرتُ هٰذا لبعضِ مشايِخنا؟ فقالَ: أخطؤوا كُلُّهُمْ.

وقد تأوَّلْتُ لبعضِهم بأنَّه كانَ فيها أحاديثُ عن قومٍ ضعفاءَ ولم يميِّزوها؛ كما رُوِي عن سفيانَ في دفنِ كُتُبِهِ، أو كانَ فيها شيءٌ من الرأي، فلم يُحِبُّوا أنْ يُؤخَذَ عنهُم، فكانَ من جنسِ تَحْريقِ عثمانَ بنِ عفانَ رضي اللهُ عنهُ للمصاحفِ؛ لئلا يُؤخَذَ بشيءٍ مما فيها من المُجْمَعِ على غيرِهِ[١].

وهٰذا التأويلُ يَصِحُّ في حقِّ عُلَمائِهِم.

فأمّا غَسْلُ أحمدَ بن أبي الحَواري كُتُبَهُ وابنِ أسباطٍ؛ فَتَفْريطٌ مَحْضٌ[٢].

فالحذَرَ الحذَرَ من فعلٍ يمنعُ منه الشرعُ، أو من ارْتكابِ ما يُظَنُّ عزيمةً وهو خطيئةٌ، أو مِن إظهارِ ما لا يَقْوى عليه المُظْهِرُ فيَرْجِع القَهْقَرى.

«وعَلَيْكُمْ مِن العملِ بما تُطيقونَ»[٣]؛ كما قالَ ﷺ.

---

(١) تقدمت ترجمة سفيان الثوري والكلام عن دفنه لكتبه ووجه الاعتذار له في ذلك في (فصل ١٩).

(٢) انظر ترجمتهما والكلام عن واقعتي دفنهما للكتب في (فصل ١٩).

(٣) جزء من حديث تقدم في (فصل ٧١) بلفظ: «إن الله لا يمل حتى تملوا».

١٢٠ـ فـصـل
[الحكمة تقتضي النظر في العواقب]

أجهلُ الجُهَّالِ مَن آثَرَ عاجِلاً على آجلٍ لا يأمنُ سوءَ مَغَبَّتِهِ.

فكم قد سَمِعْنـا عنِ سلطانٍ وأميرٍ وصـاحبِ مالٍ أطْلَقَ نفسَـه في شَهَـواتِهـا، ولم ينـظرْ في حلال وحـرام، فَنَزَلَ به من الندم وقتَ الموتِ أضعـافُ ما التـذَّ، ولَقِيَ من مريرِ الحَسَراتِ ما لا يقاوِمُه ولا ذَرَّةً منه كلُّ لَذَّةٍ.

ولو كانَ هٰذا فحسبُ؛ لكفى حُزنًا؛ كيفَ؛ والجزاءُ الدائمُ بين يديهِ؟!

فالدُّنيا محبوبةٌ للطبع، لا ريبَ في ذٰلك، ولا أُنْكِرُ على طالِبِها ومُؤْثِرِ شَهَواتِها، ولٰكن ينبغي له أن يَنْظُرَ في كَسْبِها، ويعلمَ وجهَ أخذِها؛ ليسلمَ له عاقبةُ لذَّتِهِ، وإلَّا؛ فلا خيرَ في لَذَّةٍ من بعدِها النارُ.

وهل عُدَّ في العقلاءِ قطُّ مَن قيلَ له: اجلسْ في المملكةِ سنةً ثم نقتُلُك؟! هيهاتَ! بل الأمرُ بالعكسِ، وهو أنَّ العاقلَ مَن صابَرَ مرارةَ الجهدِ سنةً، بل سنينَ؛ ليستريحَ في عاقبتِهِ.

وفي الجملة: أفٍّ لِلَذَّةٍ أعقبتْ عُقوبةً!

وقـد أخبـرنـا عبـدُ الرحمٰن بن محمدٍ القَزَّازُ؛ قالَ: أخبَرَنا أبو بكرٍ الخطيبُ؛ قالَ: أخبَرَنا الحسنُ بن أبي طالبٍ؛ قالَ: حدثنا يوسفُ بن عمرَ القوَّاسُ؛ قالَ: حدثنا الحسينُ بن إسماعيل إملاءً؛ قالَ: حدثنا عبدُ الله بن أبي سعدٍ؛ قالَ: حدثنا محمدُ بن مَسْلَمَةَ البَلْخيُّ؛ قال: حدثنا محمد

بن عليٍ القُوهِسْتانيُّ؛ قالَ: حدثنا دُلَف بن أبي دُلَفٍ(١)؛ قال: رأيتُ كأنَّ آتيًا أتى بعد موتِ أبي، فقالَ: أجبِ الأميرَ! فقمتُ معهُ، فأدخلني دارَ وَحْشَةٍ وَعِرَةً سوداءَ الحيطانِ مُقَلَّعَةَ السقوفِ والأبوابِ، ثم أصعدني دَرَجًا فيها، ثم أدخَلَني غُرْفَةً؛ فإذا في حيطانِها أثرُ النيرانِ، وإذا في أرضِها أثرُ الرَّمادِ، وإذا أبي عريانٌ واضعًا رأسَه بين رُكبتيهِ، فقال لي كالمستفهم: دُلَفٌ؟ قلتُ: نعمْ؛ أصْلَحَ اللهُ الأميرَ. فأنشأ يقولُ:

أبْلِغَنْ أهْلَنا ولا تُخْفِ عَنْهُمْ ... ما لَقِينا في البَرْزَخِ الخَفَّاقِ
قدْ سُئِلْنا عنْ كُلِّ ما قدْ فَعَلْنا ... فارْحَموا وَحْشَتي وما قد أُلاقي

أفهمتَ؟ قلتُ: نعمْ. فأنشأ يقولُ:

فلو أنَّا إذا مِتْنا تُرِكْنا ... لَكانَ المَوْتُ راحةَ كلِّ حيٍّ
ولٰكِنَّا إذا مِتْنا بُعِثْنا ... ونُسْأَلُ بَعْدَهُ عنْ كُلِّ شَيٍّ

١٢١ ـ فصل

[طالب العلم بين لذات الحس ولذات العقل]

اللَّذَّاتُ كلُّها بين حسيٍّ وعقليٍّ؛ فنهايةُ اللَّذَّاتِ الحسيَّةِ وأعلاها النِّكاحُ، وغايةُ اللَّذَّاتِ العقليةِ العلمُ؛ فمَن حصلتْ له الغايتانِ في الدُّنيا؛ فقد نالَ النهايةَ، وأنا أرشِدُ الطالبَ إلى أعلى المطلوبَيْن.

غيرَ أنَّ للطالبِ المرزوقِ علامةً، وهو أنْ يكونَ مرزوقًا عُلُوَّ الهِمَّةِ، وهٰذه الهمةُ تولَدُ مع الطفل، فتراه من زمنِ طفولتهِ يَطْلُبُ معاليَ الأمورِ؛ كما يُروى في الحديث: أنه كان لعبدِ المطَّلبِ مفرشٌ في الحُجْرِ، فكان النبيُّ

(١) هو أبو بكر الشبلي الذي تقدمت ترجمته في (فصل ٨١).

ﷺ يأتي وهو طفلٌ، فيجلِسُ عليه، فيقولُ عبدُ المطَّلب: إن لابني هٰذا شأنًا[١].

فإنْ قالَ قائلٌ: فإذا كانتْ لي هِمَّةٌ، ولم أرْزَقْ ما أطلبُ؛ فما الحيلةُ؟

فالجوابُ: أنه إذا امتنعَ الرِّزْقُ من نوعٍ؛ لم يمتنعْ من نوعٍ آخرَ. ثم من البعيدِ أن يَرْزُقَكَ همةً ولا يُعينَك! فانظر في حالِكَ؛ فلعلَّهُ أعطاكَ شيئًا ما شكرتَـه، أوِ ابتلاكَ بشيءٍ من الهوى ما صبرتَ عنه. واعلمْ أنَّه ربما زوى[٢] عنك من لَذَّاتِ الدُّنيا كثيرًا ليؤثِرَكَ بلذَّاتِ العلم؛ فإنك ضعيفٌ، ربما لا تقوى على الجمعِ؛ فهو أعلم بما يُصْلِحُكَ.

وأما ما أردتُ شرحَهُ لك:

فإنَّ الشابَّ المبتدئَ في طلبِ العلمِ يَنْبَغي له أنْ يأخذَ من كلِّ علم طَرَفًا، ويجعلَ علمَ الفقهِ الأهمَّ، ولا يُقَصِّرَ في معرفةِ النقلِ؛ فبه تَبينُ سِيَرُ الكاملينَ، وإذا رُزِقَ فصاحةً من حيثُ الوضعُ، ثم أضيفَ إليها معرفةُ اللغةِ والنحوِ؛ فقدْ شُحِذَتْ شفرةُ لسانِهِ على أجودِ مِسَنٍّ.

ومتى أدَّى العلمُ لمعـرفـةِ الحقِّ وخِـدمةِ الله عزَّ وجلَّ؛ فُتِحَتْ له أبوابٌ لا تُفْتَحُ لغيرِه.

وينبغي له بالتلطُّفِ أن يَجْعَـلَ جزءًا من زمـانـهِ مصـروفًا إلى توفيرِ الاكتسـابِ والتجارةِ، مستنيبًا فيها غيرَ مباشرٍ لها، مع التدبيرِ في العيش

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣ / ٨٠)، وذكره ابن إسحاق في «السيرة»، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٢ / ٢٤٠).

(٢) زوى: منع وحجب.

الممتنع من الإسرافِ والتّبْذيرِ؛ فإنَّ روايةَ العلمِ والعملَ به إلى درجةِ المعرفةِ لله عزَّ وجلَّ آسرةٌ للمشاعرِ، فربَّما شغلتْهُ لَذَّةُ ما وصلَ إليه عن كلِّ شيءٍ، ويا لها حالةً سليمةً من آفةٍ!

وإنْ وَجَدَ من طبعهِ منازعًا إلى الشوقِ في النكاحِ؛ فليتخيرِ السَّراريَ؛ فإنَّ الحرائرَ في الأغلبِ غِلٌّ.

ولْيَعْزِلْ عن المملوكاتِ إلى أن يُجَرِّبَ خُلُقَهُنَّ ودِينَهُنَّ؛ فإنْ رَضِيَهُنَّ؛ طَلَبَ الولدَ منهنَّ، وإلَّا؛ فالاستبدالُ بهنَّ سهلٌ.

ولا يتزوجْ حرةً؛ إلَّا أنْ يعلمَ أنها تصبرُ على التزويج عليها والتسرِّي، وليكنْ قصدُهُ الاستمتاعَ بها، لا إجهادَ النفسِ في الإنزالِ؛ فإنَّ ذلك يهدِمُ قوتَه، فيضعُفُ الأصلُ.

فهٰذه الحالةُ الجامعةُ مِن لَذَّتَيِ الحسِّ والعقلِ، ذكرتُها على وجهِ الإشارةِ، وفَهْمُ الذَّكِيِّ يُملي عليه ما لم أشرحْهُ.

١٢٢ـ فصل

[في التوصيات التي تعين طالب العلم على الحفظ]

اعلمْ أنَّ المتعلمَ يَفْتَقِرُ إلى دوام الدِّراسةِ، ومن الغلطِ الانهماكُ في الإعادةِ ليلًا ونهارًا؛ فإنه لا يَلْبَثُ صاحبُ هٰذه الحال إلَّا أيامًا، ثم يَفْتُرُ أو يَمْرَضُ.

وقد رُوِّيْنا أنَّ الطبيبَ دَخَلَ على أبي بكرِ بنِ الأنباريِّ في مرضِ موتِهِ، فَنَظَرَ إلى مائهِ، وقالَ: قد كنتَ تَفْعَلُ شيئًا لا يفعلُهُ أحدٌ! ثم خَرَجَ فقالَ:

ما يجيءُ منه شيءٌ. فقيلَ لهُ: ما الذي كنتَ تَفْعَلُ؟ قال: كنتُ أعيدُ كلَّ أسبوعٍ عَشَرَةَ آلافِ ورقةٍ[1].

ومِن الغلطِ تحميلُ القلبِ حِفْظَ الكثيرِ مِن فنونٍ شتّى؛ فإنَّ القلبَ جارحةٌ من الجوارح، وكما أنَّ من الناسِ مَن يَحْمِلُ المئةَ رطلٍ ومنهم من يَعْجِزُ عن عشرينَ رطلاً؛ فكذلك القلوبُ.

فليأخُذِ الإنسانُ على قَدْرِ قوَّته ودونَها؛ فإنَّه إذا اسْتَنْفَدَها في وقتٍ؛ ضاعتْ منه أوقاتٌ؛ كما أنَّ الشَّرِهَ يأكلُ فَضْلَ لُقَيْماتٍ، فيكونُ سببًا إلى منع أَكَلاتٍ! والصوابُ أنْ يأخُذَ قَدْرَ ما يُطيقُ، ويعيدَه في وقتينِ من النهارِ والليلِ، ويرفِّهَ القُوى في بَقِيَّةِ الزَّمانِ.

والدوامُ أصلٌ عظيمٌ؛ فكم ممَّنْ تَرَكَ الاستذكارَ بعد الحفظِ، فضاعَ زمنٌ طويلٌ في استرجاع محفوظٍ!

وللحِفْظِ أوقاتٌ من العُمُرِ؛ فأفضلُها الصِّبا وما يقارِبُه من أوقاتِ الزمانِ، وأفضلُها إعادةُ الأسحارِ وأنصافِ النهارِ، والغَدَواتُ خيرٌ من العَشِيَّات، وأوقاتُ الجوعِ خيرٌ مِن أوقاتِ الشِّبَع.

ولا يُحْمَدُ الحِفْظُ بحضرةِ خُضرةٍ وعلى شاطىء نهرٍ؛ لأنَّ ذلك يُلْهي، والأماكنُ العاليةُ للحفظِ خيرٌ من السوافلِ.

---

(١) ابن الأنباري: هو أبو بكر محمد بن القاسم، الإمام، الحافظ، المقرىء، النحوي، ولد سنة ٢٧١هـ، وتوفي سنة ٣٢٨هـ. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٣ / ١٨١)، «سير أعلام النبلاء» (١٥ / ٢٧٤).

وقوله: «ما يجيء منه شيء»؛ يعني: لا أمل في شفائه.

والخَلْوَةُ أصلٌ.

وجمعُ الهمِّ أصلُ الأصولِ.

وتَرْفيهُ النفس من الإعادة يومًا في الأسبوع؛ لِيَثْبُتَ المحفوظُ، وتأخُذَ النفسُ قوةً؛ كالبنيانِ يُتْرَكُ أيامًا حتى يَسْتَقِرَّ، ثم يُبْنى عليهِ.

وتقليلُ المحفوظِ مع الدَّوامِ أصلٌ عظيمٌ.

وأنْ لا يَشْرَعَ في فنٍّ حتى يُحْكِمَ ما قبلَه.

ومَن لم يَجِدْ نشاطًا للحفظِ؛ فلْيَتْرُكْهُ؛ فإنَّ مكابرةَ النفس لا تَصْلُحُ.

وإصلاحُ المِزاجِ من الأصولِ العظيمةِ؛ فإنَّ للمأكولاتِ أثرًا في الحفظ:

قال الزُّهريُّ: ما أكلتُ خَلًّا منذُ عالجتُ الحفظَ[1].

وقيل لأبي حنيفةَ: بم يُستعانُ على حفظِ الفقهِ؟ قال: بجمع الهمِّ.

وقال حمادُ بن سلمةَ: بقِلَّةِ الغَمِّ[2].

وقال مكحولٌ: مَن نَظُفَ ثوبُه؛ قَلَّ همُّه، ومن طابتْ ريحُهُ؛ زادَ عقلُهُ، ومَن جَمَعَ بينَهما؛ زادتْ مروءتُه[3].

(١) تقدمت ترجمته في (فصل ١١٠).

(٢) حماد بن سلمة هو الإمام، القدوة، شيخ الإسلام، العلم، الزاهد، المشهور، المتوفى سنة ١٦٧هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٧ / ٤٤٤)، «تهذيب التهذيب» (٣ / ١١ ـ ١٦).

(٣) مكحول هو أبو عبد الله، عالم أهل الشام، الفقيه، الدمشقي، توفي سنة ١١٦هـ. انظر ترجمته في: «أعلام النبلاء» (٥/١٥٥)، و«التهذيب» (١٠/٢٨٩).

وأختارُ للمبتدي في طلب العلم أن يدافعَ النِّكاحَ مهما أمكنَ؛ فإنَّ أحمدَ بنَ حنبلٍ لم يتزوَّجْ حتى تَمَّتْ له أربعونَ سنةً، وهذا لأجل جمع الهمِّ؛ فإن غَلَبَ عليه الأمرُ؛ تَزَوَّجَ، واجتهدَ في المدافعةِ بالفعل؛ لتتوفَّرَ القوةُ على إعادةِ العلم.

ثم لْيَنْظُرْ ما يَحْفَظُ من العلم؛ فإنَّ العُمُرَ عزيزٌ والعلمَ غزيرٌ، وإنَّ أقوامًا يصرفونَ الزمانَ إلى حفظِ ما غيرُهُ أولى منه، وإن كانَ كلُّ العلوم حَسَنًا، ولٰكنَّ الأولى تقديمُ الأهمِّ والأفضل.

وأفضلُ ما تُشوغِلَ به حفظُ القرآنِ، ثم الفقهُ، وما بعدَ هٰذا بمنزلةِ تابع.

ومَنْ رُزِقَ يَقَظَةً؛ دَلَّتْهُ يَقَظَتُهُ فلم يحتجْ إلى دليل.

ومَن قَصَدَ وجهَ الله تعالى بالعلم؛ دَلَّهُ المقصودُ على الأحسنِ، ﴿واتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

١٢٣ـ فصل

[في أن العاقل من تلمح العواقب]

مَن أرادَ دوامَ العافيةِ والسلامةِ؛ فلْيَتَّقِ اللهَ عزَّ وجلَّ؛ فإنه ما مِن عبدٍ أطْلَقَ نفسَه في شيءٍ ينافي التقوى، وإنْ قَلَّ؛ إلَّا وجَدَ عُقوبتَه عاجلةً أو آجلةً.

ومن الاغترارِ أنْ تسيءَ، فترى إحْسانًا، فَتَظُنَّ أنَّكَ قد سُومِحْتَ، وتنسى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

وربما قالتِ النفسُ: إنه يَغْفِرُ، فتسامَحَتْ! ولا شكَّ أنه يَغْفِرُ، ولٰكنْ لمن يشاءُ.

وأنا أشرحُ لك حالاً؛ فتأمَّلْهُ بفِكْرِكَ؛ تَعْرِفْ معنى المغفرةِ.

وذٰلك أنَّ مَن هَفا هفوةً؛ لم يَقْصِدْها، ولم يَعْزِمْ عليها قبلَ الفعلِ، ولا عَزَمَ على العَوْدِ بعد الفعلِ، ثم انتبهَ لما فَعَلَ، فاستغفرَ اللهَ؛ كان فِعْلُهُ ـ وإنْ دَخَلَهُ عمدًا ـ في مقام خطإٍ.

مِثْلُ أنْ يَعْرِضَ له مُسْتَحْسَنٌ، فيغلِبَهُ الطبعُ، فيُطْلِقَ النَّظَرَ، وتشاغلَ في حال نظرِهِ بالتـذاذِ الطبع عن تلمُّح معنى النَّهْيِ، فيكونَ كالغائبِ أو كالسكـرانِ؛ فإذا انتبـهَ لنفسـهِ؛ نَدِمَ على فعلِهِ، فقام الندمُ بِغَسْلِ تلكَ الأوساخ التي كانتْ كأنَّها غلطةٌ لم تُقْصَدْ؛ فهٰذا معنى قولِهِ تعالى: ﴿إذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّروا فإذا هُمْ مُبْصِرونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فأمَّا المدوام على تلك النظرةِ، المُرَدِّدُ لها، المصِرُّ عليها؛ فكأنه في مقام متعمِّدٍ للنَّهْيِ، مبارزٍ بالخلافِ؛ فالعفوُ يَبْعُدُ عنه بمقدارِ إصرارِه، ومن البُعْدِ أن لا يرى الجزاءَ على ذٰلك؛ كما قال ابنُ الجَلَّاءِ: رآني شيخي وأنا قائمٌ أتأمَّلُ حَدَثًا نَصْرانِيًّا، فقال: ما هٰذا؟! لَتَرَيَنَّ غِبَّها ولو بعدَ حينٍ. فنسيتُ القرآنَ بعد أربعينَ سنةً(١).

واعلمْ أنـه من أعـظم المِحَنِ الاغتـرارُ بالسَّلامةِ بعد الذَّنْبِ؛ فإنَّ العقوبةَ تتأخَّرُ.

ومن أعظمِ العقوبةِ أنْ لا يُحِسَّ الإنسانُ بها، وأن تكونَ في سَلْبِ

---

(١) تقدمت ترجمة ابن الجلاء وخبره هٰذا في (فصل ١٨). وغِبُّها: عاقبتها.

الدِّينِ، وطَمْسِ القلوبِ، وسوءِ الاختيارِ للنفسِ ؛ فيكونُ من آثارِها سلامةُ البَدَنِ وبلوغُ الأغراضِ .

قال بعضُ المعتبرينَ: أطلقتُ نظري فيما لا يَحِلُّ لي، ثم كنتُ أنْتَظِرُ العقوبةَ، فألجِئْتُ إلى سفرٍ طويلٍ لا نِيَّةَ لي فيه، فلقيتُ المشاقَّ، ثم أعقبَ ذٰلك موتَ أعزِّ الخَلْقِ عندي، وذهابَ أشياءَ كانَ لها وقعٌ عظيمٌ عندي، ثم تلافَيْتُ أمري بالتوبةِ، فَصَلَحَ حالي، ثم عادَ الهوى، فحَمَلَني على إطلاقِ بَصَري مرةً أخرى، فَطُمِسَ قلبي، وعَدِمْتُ رِقَّتَهُ، واسْتُلِبَ مني ما هو أكثرُ من فقدِ الأولِ، ووقع لي تعويضٌ عنِ المفقودِ بما كانَ فقدُهُ أصلحُ .

فلمَّا تأمَّلْتُ ما عُوِّضْتُ وما سُلِبَ مني ؛ صِحْتُ من ألمِ تلكَ السِّياطِ ؛ فها أنا أنادي مَن على الساحل :

إخـواني ! احـذَروا لُجَّـةَ هٰذا البحرِ، ولا تغترُّوا بسكونِهِ، وعليكم بالساحلِ، ولازِموا حِصْنَ التَّقْوى؛ فالعقوبةُ مُرَّةٌ .

واعْلَمـوا أنَّ في ملازمـةِ التَّقْـوى مراراتٍ من فقـدِ الأغـراضِ والمشتَهَياتِ؛ غيرَ أنها في ضَرْبِ المَثَلِ كالحِمْيَةِ تُعْقِبُ صِحَّةً، والتخليطُ ربما جَلَبَ موتَ الفجأةِ .

وباللهِ؛ لو نُمتم على المزابلِ مع الكلابِ في طَلَبِ رضى المبتلي ؛ كان قليلاً في نَيْلِ رِضاه، ولو بَلَغْتُمْ نهايةَ الأماني مِن أغراضِ الدُّنيا؛ مع إعـراضِـهِ عنكُم؛ كانتْ سلامتُكم هلاكًـا، وعـافيتُكم مَرَضًا، وصِحَّتُكُم سَقَمًا. والأمرُ بآخرِهِ، والعاقلُ مَن تَلَمَّحَ العواقبَ .

وصابِروا رَحِمَكُمُ اللهُ تعالى هَجيرَ البلاءِ؛ فما أسرعَ زوالَه!

واللهُ الموفِّقُ؛ إذْ لا حَوْلَ إلا به، ولا قُوَّةَ إلَّا بفضلِه.

١٢٤ ـ فصل

[في توحيد الأسماء والصفات]

قَدِمَ إلى بغدادَ جماعةٌ من أهل البِدَعِ الأعاجم، فارْتَقَوْا منابرَ التَّذْكيرِ للعوامِّ، فكانَ معظمَ مجالِسِهم أنَّهم يقولونَ: ليسَ للهِ في الأرضِ كلامٌ! وهل المصحفُ إلَّا وَرَقٌ وعَفْصٌ وزاجٌ[1]؟! وإنَّ اللهَ ليس في السماءِ! وإنَّ الجاريةَ التي قال لها النبي ﷺ: «أين اللهُ؟»: كانتْ خرساءَ، فأشارتْ إلى السماءِ؛ أي: ليس هو من الأصنام التي تُعْبَدُ في الأرض[2]! ثم يقولونَ: أينَ الحُروفِيَّةُ الذينَ يَزْعُمونَ أنَّ القرآنَ حرفٌ وصوتٌ؟! هٰذا عبارةُ جبريلَ!!

فما زالوا كذٰلك، حتَّى هانَ تعظيمُ القرآنِ في صدورِ أكثرِ العوامِّ،

---

(١) العفص: نوع من أنواع النبات يستعمل في الحبر لسواد صبغته. والزاج: أحد أملاح الكبريت، يستعمل في خلطة حبر الكتابة.

(٢) وهٰذا أعجب ما سمعته في تفريغ هٰذا الحديث من محتواه وتأويل معناه!!

ولفظ الحديث كما رواه مسلم (٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ٧ ـ باب تحريم الكلام في الصلاة، ١ / ٣٨١ / ٥٣٧)؛ من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال للجارية: «أين الله؟». قالت: في السماء. قال: «من أنا؟». قالت: أنت رسول الله. قال: «أعتقها؛ فإنها مؤمنة».

أقول: لفظ الحديث يظهر لكل ذي عينين أن الجارية ما كانت خرساء ولا بلهاء!! فسبحان الله!! كيف ركب الناس الصعب والذلول لرد كلام الله ورسوله، حتى فاقوا في هٰذا الفن أولٰئك الذين قال الله فيهم: ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ [المائدة: ١٣].

وصارَ أحدُهُم يسمعُ فيقولُ: هٰذا هو الصحيحُ، وإلَّا؛ فالقرآنُ شيءٌ يجيءُ به جبريلُ في كيسٍ!

فشكا إليَّ جماعةٌ من أهل السُّنَّةِ، فقلتُ لهمُ: اصْبروا؛ فلا بدَّ للشُّبُهاتِ أنْ تَرْفَعَ رأسَها في بعضِ الأوقاتِ، وإنْ كانتْ مدموغةً، وللباطلِ جَوْلَةٌ، وللحقِّ صَوْلَةٌ، والدَّجالونَ كثيرٌ، ولا يَخْلو بَلَدٌ ممَّن يَضْرِبُ البَهْرَجَ على مِثْلِ سِكَّةِ السُّلطانِ(١).

قال قائلٌ: فما جوابُنا عن قولِهم؟

قلتُ: اعلَمْ ـ وفَّقَكَ الله تعالى ـ أنَّ الله عزَّ وجلَّ ورسولَه قَنِعا مِن الخَلْقِ بالإيمانِ بالجُمَل، ولم يكلِّفا معرفةَ التفاصيلِ: إمَّا لأنَّ الاطلاعَ على التفاصيلِ يُخَبِّطُ العقائدَ، وإمَّا لأنَّ قُوى البشرِ تَعْجِزُ عن مطالعةِ ذٰلكَ.

فأولُ ما جاء بِهِ الرسولُ ﷺ إثباتُ الخالقِ(٢)، ونَزَلَ عليه القرآنُ بالدَّليلِ على وُجودِ الخالقِ بالنَّظَرِ في صُنْعِهِ: فقالَ تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأرْضَ قَرارًا وَجَعَلَ خِلالَها أنْهارًا﴾ [النمل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وفي أنْفُسِكُمْ أفلا تُبْصِرونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]. . . وما زال يَسْتَدِلُّ على وجودِهِ بمخلوقاتِهِ، وعلى قدرتِهِ بمصنوعاتِهِ.

---

(١) يعني: لا يخلو بلد ممن يزيف العملة ويزور المال على نفس صفة المال الذي يصدره السلطان للناس.

(٢) إثبات الخالق كان مستقرًّا عند كفار قريش؛ علموه وعرفوه وعقلوه وآمنوا به، وآيات القرآن شاهدة بهٰذا، وهم قد قالوا في آلهتهم: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى في حقهم: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله﴾ [العنكبوت: ٦١].

ثم أثبتَ نبوَّةَ نبيِّهِ بمعجزاتِهِ، وكانَ مِن أعظمِها القرآنُ الذي جاء به فعَجزَ الخلائقُ عن مِثْلِهِ.

واكتفى بهٰذه الأدلةِ جماعةٌ من الصحابةِ، ومضى على ذٰلك القرنُ الأولُ، والمَشْرَبُ صافٍ لم يتكدَّرْ.

وعَلِمَ اللهُ عزَّ وجلَّ ما سيكونُ من البدع، فبالَغَ في إثباتِ الأدلَّةِ، وملأ بها القرآنَ.

ولما كانَ القرآنُ هو منبعَ العلوم وأكبرَ المُعْجِزاتِ للرسولِ؛ أكَّدَ الأمرَ فيه: فقالَ تعالى: ﴿وهٰذا كِتابٌ أنْزَلْناهُ مُبارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿ونُنَزِّلُ مِنَ الْقُرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فأخبرَ أنَّه كلامُه بقولِهِ تعالى: ﴿يُريدونَ أنْ يُبَدِّلوا كلامَ اللهِ﴾ [الفتح: ١٥]، وأخبر أنَّه مسموعٌ بقولِهِ تعالى: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كلامَ اللهِ﴾ [التوبة: ٦]، وأخبرَ أنَّه محفوظٌ، فقال تعالى: ﴿في لَوْحٍ مَحْفوظٍ﴾ [البروج: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ في صُدورِ الَّذينَ أوتوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وأخبر أنه مكتوبٌ ومَتْلُوٌّ، فقال تعالى: ﴿وما كُنْتَ تَتْلو مِن قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ ولا تَخُطُّهُ بِيَمينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]... إلى ما يطولُ شرحُه من تعدُّدِ الآياتِ في هٰذه المعاني التي توجِبُ إثباتَ القرآنِ.

ثم نَزَّهَ نبيَّهُ ﷺ عن أنْ يكونَ أتى به من قِبَلِ نفسِهِ، فقال تعالى: ﴿أمْ يَقولونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [السجدة: ٣]، وتَوَعَّدَهُ لو فَعَلَ، فقال تعالى: ﴿ولَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الأقاويلِ . لأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]، وقال في حقِّ

الزاعم أنَّه كلامُ الخَلْقِ حينَ قال: ﴿إنَّ هٰذا إلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ . سَأُصْليهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٥ ـ ٢٦].

ولمـا عذَّبَ كلَّ أمـةٍ بنـوع عذابٍ تولَّاه بعضُ الملائكةِ؛ كصيحةِ جبريلَ عليه السلامُ بثمودَ، وإرسالِ الريح على عادٍ، والخسفِ بقارونَ، وقَلْبِ جبريلَ ديارَ قوم لوطٍ عليه السلامُ، وإرسالِ الطَّيْرِ الأبابيل على مَن قَصَـدَ تخـريبَ الكعبـةِ؛ تولَّى هو بنفسِهِ عقابَ المكذِّبين بالقرآنِ، فقالَ تعالى: ﴿فَذَرْني وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهٰذا الْحَديثِ﴾ [القلم: ٤٤]، ﴿ذَرْني وَمَنْ خَلَقْتُ وَحيدًا﴾ [المدثر: ١١].

وهٰذا لأنه أصلُ هٰذه الشرائع، والمثبِتُ لكلِّ شريعةٍ تقدَّمَتْ؛ فإنَّ جميعَ الملل ليس عندَهم ما يَدُلُّ على صحةِ ما كانوا فيه إلَّا كتابَنا؛ لأنَّ كُتُبَهم غُيِّرَتْ وبُدِّلَتْ.

وقـد عَلِمَ كلُّ ذي عقـلٍ أنَّ القـائـل: ﴿إنْ هٰذا إلَّا قَوْلُ الْبَشَـرِ﴾ [المدثر: ٢٥]: إنما أشارَ إلى ما سَمِعَهُ.

ولا يَخْتَلِفُ أولـو الألباب وأهلُ الفَهْم للخطابِ أنَّ قولَه ﴿وإنه﴾: كنـايةٌ عن القـرآنِ، وقـولَـه: ﴿نَزَلَ به﴾: كنايةٌ أيضًا عنه، وقولَه: ﴿هٰذا كتابٌ﴾: إشارةٌ إلى حاضرٍ.

وهٰذا أمرٌ مستقِرٌّ لم يَخْتَلِفْ فيه أحدٌ من القدماءِ في زمنِ الرسولِ ﷺ والصحابةِ رضوانُ الله عليهم.

ثم دَسَّ الشيطانُ دسائسَ البدع، فقال قومٌ[1]: هٰذا المشارُ إليه

(١) هم الجهمية والمعتزلة ثم أفراخهم من الأشاعرة.

مخلوقٌ!

فَثَبَتَ الإمامُ أحمدُ رحمهُ اللهُ ثبوتًا لم يَثْبُتْهُ غيرُه على دَفْع هذا القولِ؛ لئلَّا يَتَطَرَّقَ إلى القرآنِ ما يَمْحو بعضَ تعظيمِهِ في النفوسِ، ويُخْرِجُهُ عن الإضافةِ إلى الله عزَّ وجلَّ، ورأى أنَّ ابتداعَ ما لم يُقَلْ فيه لا يجوزُ استعمالُه، فقالَ: كيفَ أقولُ ما لم يُقَلْ؟!

ثم لم يختلفِ الناسُ في غيرِ ذٰلك إلى أنْ نَشَأ عليُّ بنُ إسماعيلَ الأشعريُّ[١]، فقالَ مرةً بقولِ المعتزلةِ، ثم عَنَّ[٢] له فادَّعى أنَّ الكلامَ صفةٌ قائمةٌ بالنفسِ!

فأوجبتْ دَعْواه هٰذه أنَّ ما عندنا مخلوقٌ[٣]، وزادتْ فَخَبَّطَتِ العقائدَ، فما زال أهلُ البدعِ يَجوبونَ في تَيَّارِها إلى اليوم.

والكلامُ في هٰذه المسألةِ مُرَتَّبٌ بِذِكْرِ الحُجَجِ والشُّبَهِ في كتبِ الأصول؛ فلا أطيلُ به ها هُنا، بل أذكرُ لك جُملةً تكفي مَن أرادَ الله هُداه:

وهو أنَّ الشرعَ قَنعَ منا بالإيمانِ جُمْلَةً وبتعظيمِ الظواهرِ، ونهى عن

---

(١) هو أبو الحسن، العلامة، إمام المتكلمين، ولد سنة ٢٦٠هـ، وتوفي سنة ٣٢٤هـ. انظر ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٣/٢٨٤)، «أعلام النبلاء» (١٥/٨٥).

(٢) عنَّ له: عرض له وبدا.

(٣) بل ويصرح كثير منهم بخلق هٰذا القرآن الذي بين أيدي الناس، ولا يقرون بأنه كلام الله، بل وبعضهم يقول هو كلام محمد أو هو كلام جبريل، بل وأعظم من ذٰلك.

قال الباجوري ـ أحد علماء الأشاعرة ـ في «شرح جوهرة توحيدهم» (ص ٩٤): «وهل القرآن بمعنى اللفظ المقروء أفضل أو سيدنا محمد ﷺ؟... والحق أنه ﷺ أفضل؛ لأنه أفضل من كل مخلوق»!!

الخوضِ فيما يُثيرُ غُبار شُبْهَةٍ، ولا تقوى على قطع طريقهِ أقدامُ الفهم.

وإذا كانَ قد نهى عن الخوضِ في القَدَرِ؛ فكيفَ يُجَوِّزُ الخوضَ في صفاتِ المقدِّرِ؟!

وما ذاك إلَّا لأحدِ الأمرين اللَّذينِ ذكرتُهما: إما لخوفِ إثارةِ شُبهةٍ تُزَلْزِلُ العقائدَ، أو لأنَّ قُوى البشرِ تَعْجِزُ عن إدراكِ الحقائقِ.

فإذا كانتْ ظواهرُ القرآنِ تُثْبِتُ وجودَ القرآنِ، فقالَ قائلٌ: ليس ها هُنا قرآنٌ؛ فقد رَدَّ الظَّواهرَ التي تَعِبَ الرسولُ ﷺ في إثباتِها، وقرَّر وجودَها في النفوسِ.

وبماذا يُحَلُّ ويُحَرَّمُ، ويُبَتُّ ويُقْطَعُ؛ وليس عندنا من الله تعالى تقدُّمٌ[1] بشيءٍ؟!

وهل للمخالفِ دليلٌ إلَّا أنْ يقولَ: قالَ اللهُ، فيعودَ، فيُثْبِتَ ما نفى؟!

فليس الصوابُ لمن وُفِّق إلَّا الوقوفَ مع ظاهرِ الشرعِ.

فإنِ اعترضَهُ ذو شُبهةٍ، فقالَ: هٰذا صوتُك، وهٰذا خطُّكَ؛ فأينَ القرآنُ؟!

فليقلْ لهُ: قد أجْمَعْنا أنا وأنت على وجودِ شيءٍ به نحتجُّ جميعًا، وكما أنك تُنْكِرُ عليَّ أنْ أثْبتَ شيئًا لا يتحقَّقُ لي إثباتُهُ حِسًّا؛ فأنا أُنْكِرُ عليك كيفَ تنفي وجودَ شيءٍ قد ثَبَتَ شرعًا؟!

وأمَّا قولُهم: هل في المصحفِ إلَّا ورقٌ وعَفْصٌ وزاجٌ؟!

---

(١) يعني: أمر سابق.

فهٰذا كقولِ القائلِ: هل الآدميُّ إلَّا لحمٌ ودمٌ؟! هيهاتَ! إنَّ معنى الآدميِّ هو الرُّوحُ؛ فمَن نَظَرَ إلى اللحم والدَّم؛ وَقَفَ مع الحسِّ.

فإنْ قال: فَكذا أقولُ: إنَّ المكتوبَ غيرُ الكتابةِ.

قلْنا لهُ: وهٰذا مما نُنْكِرُهُ عليكَ؛ لأنه لا يَثْبُتُ تحقيقُ هٰذا لك ولا لِخَصْمِكَ: فإنْ أردتَ بالكتابةِ الحِبْرَ وتخطيطَه؛ فهٰذا ليس هو القرآنَ، وإنْ أردتَ المعنى القائمَ بذٰلك؛ فهٰذا ليس هو الكتابةَ.

وهٰذه الأشياءُ لا يَصْلُحُ الخوضُ فيها؛ فإنَّ ما دونَها لا يُمْكِنُ تحقيقُه على التفصيلِ ؛ كالرُّوح مَثَلًا؛ فإنَّا نعلمُ وجودَها في الجملة؛ فأمّا حقيقتُها؛ فلا؛ فإذا جَهِلْنا حقائقَها؛ كُنَّا لِصِفاتِ الحقِّ أجهلَ.

فوجبَ الــوقـوفُ مع السمعياتِ، مع نفي ما لا يَليقُ بالحقِّ؛ لأنَّ الخَوْضَ يزيدُ الخائضَ تَخْبيطًا، ولا يفيدُهُ تَحْصيلًا، بل يوجِبُ عليه نَفْيَ ما يَثْبُتُ بالسمـع من غيرِ تحقيقِ أمرٍ عقليٍّ؛ فلا وَجْهَ للسلامةِ إلَّا طريقُ السلفِ، والسلامُ.

وكذٰلك أقولُ: إنَّ إثباتَ الإلٰهِ بظواهرِ الآياتِ والسُّنَنِ ألزمُ للعوامِّ من تحديثِهِم بالتَّنْزيهِ، وإنْ كانَ التنزيهُ لازمًا.

وقد كانَ ابنُ عَقيلٍ [١] يقولُ: الأصلحُ لاعتقاد العوامِّ[٢] ظواهرُ الآيِ والسُّننِ؛ لأنهم يأنَسـونَ بالإثبـاتِ؛ فمتى مَحَوْنا ذٰلك من قلوبِهِم؛ زالتِ السياساتُ والحِشْمَةُ، وتهافُتُ العوامِّ في الشُّبهةِ أحبُّ إليَّ من إغراقِهِم في

(١) تقدمت ترجمته في (فصل ٣١).

(٢) بل هو الصالح الوحيد الذي لا صلاح بغيره للخواص والعوام.

التنزيهِ؛ لأنَّ التشبيهَ يغمِسُهم في الإثباتِ، فيطمعونَ ويخافونَ شيئًا قد أنِسوا إلى ما يُخافُ مثلُهُ ويُرْجى؛ والتنزيهُ يرمي بهم إلى النفي، ولا طَمَعَ ولا مخافةَ من النفي[1].

ومَن تدبَّرَ الشريعةَ؛ رآها غامسةً[2] للمكلَّفينَ في التشبيهِ بالألفاظِ التي لا يُعطي ظاهِرُها سواهُ[3]؛ كقولِ الأعرابيِّ: أَوَيَضْحَكُ ربُّنا؟ قالَ: «نعمْ»[4]؛ فلمْ يَكْفَهِرَّ من هٰذا القولِ.

١٢٥ ـ فصل

[أصحاب الهمم بين الحلم الكبير والواقع المرير]

أعظمُ البلايا أنْ:

يُعْطِيَكَ هِمَّةً عاليةً، ويمنَعَكَ من العمل بمُقْتَضاها، فيكونَ مِن تأثيرِ هِمَّتِكَ الأَنَفَةُ مِن قَبولِ إرفاقِ الخَلْقِ؛ اسْتِثْقالاً لِحَمْلِ مِنَنِهم، ثم يَبْتَلِيَكَ بالفَقْرِ، فتأخُذَ منهم!

---

(١) وهٰذا الكلام خطأ جملةً وتفصيلاً، وقد قدمنا رد الإمام الذهبي عليه عند الكلام عن عقيدة ابن الجوزي في المقدمة.

(٢) في جميع الأصول: «عامة»! والتصويب من «أعلام النبلاء» (١٩ / ٤٤٩).

(٣) ظاهر الكتاب والسنة لا يقتضي التشبيه أبدًا، كيف وقد قال تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى: ١١]؟! فهٰذا أصل أصيل يجب ألا يغفل المرء عنه إطلاقًا. وإذا كان اشتراك المخلوقات في أصل الصفة لا يقتضي تشبيهها بعضها ببعض؛ فيد الإنسان ليست كيد الباب، ورجل النملة ليست كرجل الطاولة، وعلو المصباح ليس كعلو الشمس؛ فكيف يقتضي إثبات الصفات للخالق سبحانه تشبيهه بالخلق؟! تعالى الله عن ذٰلك علوًّا كبيرًا.

(٤) تقدم تخريجه في (فصل ٦١).

ويُلَطِّفَ مِزاجَك، فلا تقبلُ مِن المأكولاتِ ما سَهُلَ إحضارُه، فتحتاجُ إلى فضل نفقةٍ، ثم يقلِّلَ رزقَكَ!

ويُعَلِّقَ هِمَّتَكَ بالمُسْتَحْسَناتِ، ويَقْطَعَ بالفقرِ السبيلَ إليهنَّ!

ويُرِيَكَ العلومَ في مقام معشوقٍ، ويُضْعِفَ بَدَنَك عن الإعادةِ، ويُخْلِيَ يديكَ من المال الذي تَحْصُلُ به الكتبُ!

ويُقَوِّيَ تَوَقَكَ إلى درجاتِ العارفينَ والزُّهَّادِ، ويُحْوِجَكَ إلى مخالطةِ أربابِ الدُّنيا!

وهٰذا البلاءُ المُبينُ.

وأمّا الخسيسُ الهِمَّةِ، الذي لا يستنكِفُ مِن سؤالِ الخَلْقِ، ولا يرى الاستبدالَ بزوجتهِ، ويكتفي بيسيرٍ من العلم، ولا يَتوقُ إلى أحوالِ العارفينَ؛ فذاك لا يُؤْلِمُهُ فَقْدُ شيءٍ، ويرى ما وَجَدَ هو الغايةَ؛ فهو يفرحُ فَرَحَ الأطفالِ بالزخارفِ؛ فما أهونَ الأمرَ عليه!

إنما البلاءُ على العارفِ، ذي الهِمَّةِ العاليةِ، الذي تدعوهُ هِمَّتُهُ إلى جميعِ الأضدادِ للتزيُّدِ مِن مقام الكمال، وتَقْصُرُ خُطاه عن مداركِ مقصودِهِ.

فيا له مِن حالٍ يَنْفَدُ في طريقهِ زادُ الصَّابرينَ!

ولولا حالاتُ غفلةٍ تعتري هٰذا المبتَلَى يعيشُ بها؛ لكانَ دوامُ ملاحظتهِ للمقاماتِ يُعْمي بَصَرَهُ، واجتهادُهُ في السلوك يُحْفي قَدَمَه.

لٰكنَّ ملاحظاتِ الإمدادِ له ـ تارةً ببلُوغ بعضِ مرادِهِ، وتارةً بالغفلةِ عمَّا قَصَدَ ـ تُهَوِّنُ عليه العيشَ.

وهٰذا كلامٌ عزيزٌ؛ لا يفهمهُ إلَّا أربابُه، ولا يعلم كُنْهَهُ إلَّا أصحابُهُ.

١٢٦ـ فصل

[في فضائل الصبر على المشبهات]

تراعنتْ(١) عليَّ نفسي في طلبِها شيئًا من أغراضِها بتأويلٍ فاسدٍ، فقلتُ لها:

باللهِ عليكِ تصبَّري؛ فإنَّ في المَعْبَرِ شُغلًا بِحَذَرِ الغرقِ من كثرةِ الموجِ عن التنزُّهِ في عجائبِ البحرِ!

إذا هممتِ بفعلٍ؛ فقدِّري حصولَه، ثم تلمَّحي عواقبَهُ وما تجتنينَ من ثمراتِهِ؛ فأقلُّ ذٰلك الندمُ على ما فعلتِ، ولا يُؤمَنُ أن يُثْمِرَ غَضَبَ الحقِّ عزَّ وجلَّ وإعراضَه عنكِ؛ فأفٍّ للقاطع عنهُ ولو كانَ الجنةَ(٢)!

ثم اعلمي أيتها النفسُ أنه ما يمضي شيءٌ جِزافًا، وأنَّ ميزانَ العدلِ تَبِينُ فيه الذَّرَّةُ.

فتلمَّحي الأمواتَ والأحياءَ، وانظري إلى مَنْ نُشِرَ ذِكْرُهُ بالخيرِ والشرِّ، وزيادةِ ذٰلك ونقصانِهِ.

فسبحان من أظهر دليلَ الخَلَواتِ على أربابِها، حتى إنَّ حباتِ القلوبِ تتعلَّقُ بأهلِ الخيرِ، وتنْفُرُ من أهل الشرِّ؛ من غيرِ مطالعةٍ لشيءٍ من أعمال الكلِّ.

---

(١) تراعنت: من الرعونة، وهي الحمق.

(٢) (لو) حرف امتناع لامتناع؛ فلا يمكن للجنة أن تقطع عن الله جل وعلا!

قال إبليسُ: أوَتتْرُكُ مرادَكَ لأجل الخَلْقِ؟!

قلتُ: لا؛ إنَّما هٰذا بعضُ الثمراتِ الحاصلةِ لا عن الغرض، ونحنُ نرى مَن يمشي ثلاثينَ فرسخًا لِيُقالَ: ساع؛ فالمتَّقي قد نالَ شَرَفَ الذِّكْرِ - وإنْ لم يَقْصِدْ نيلَ ذٰلك - مترجِّحًا له في وزنِ الجزاءِ، ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦][1].

قالتِ النفسُ: لقد أمرْتَني بالصبرِ على العذابِ؛ لأنَّ تركَ الأغراضِ عذابٌ.

قلتُ: لكِ عن الغرضِ عِوَضٌ، ومِن كلِّ متروكٍ بدلٌ، وأنتِ في مَقام مستعبَدٍ، ولا يصحُّ للأجيرِ أن يَلْبَسَ ثيابَ الراحةِ في زمانِ الاستئجار، وكلُّ زمانِ المتَّقي نهارُ صوم[2]، ومَن خاف العقابَ؛ تَرَكَ المُشْتَهى، ومَنْ رَامَ القُرْبَ؛ استعملَ الوَرَعَ، وللصبرِ حلاوةٌ تَبين في العواقبِ.

١٢٧ـ فصل

[في أن اتباع الهوى من خسة الهمة]

مَن نازعتْهُ نفسُه إلى لَذَّةٍ محرَّمةٍ، فشَغَلَهُ نظرُهُ إليها عن تأمُّل عواقِبِها وعقابِها، وسَمِعَ هتافَ العقل يناديه: ويحكَ! لا تفعلْ! فإنَّك تَقِفُ عن الصُّعودِ، وتأخُذُ في الهبوطِ، ويُقالُ لك: ابقَ بما اخترتَ!

---

(١) ﴿سيجعل لهم الرحمٰن ودًّا﴾؛ يعني: يقبل بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم.

(٢) يعني: سرعان ما تنقضي هٰذه الحياة الدنيا كما ينقضي نهار صوم، ثم يفرح المؤمن بلقاء ربه كما يفرح الصائم بطعامه وشرابه وإتمامه صومه.

فإنْ شَغَلَهُ هواه، فلم يلتفتْ إلى ما قيلَ له؛ لم يزلْ في نُزولٍ، وكان مَثَلُهُ في سوءِ اختيارِه كالمثل المضروبِ: أنَّ الكلبَ قالَ للأسدِ: يا سَيِّدَ السباع! غيِّرِ اسمي؛ فإنه قبيحٌ. فقالَ له: أنت خائنٌ لا يَصْلُحُ لك غيرُ هٰذا الاسم. قال: فجَرِّبْني. فأعطاه شِقَّةَ لحم، وقالَ: احفظْ لي هٰذه إلى غدٍ؛ وأنا أغيِّرُ اسمَكَ. فجاعَ، وجَعَلَ يَنْظُرُ إلى اللحم ويَصْبِرُ، فلما غَلَبَتْهُ نفسُه؛ قالَ: وأيُّ شيءٍ باسمي؟! وما كلبٌ إلَّا اسمٌ حسنٌ. فأكلَ! وهٰكذا الخسيسُ الهِمَّةِ، القَنوعُ بأقلِّ المنازل، المختارُ عاجلَ الهوى على آجل الفضائل.

فاللهَ اللهَ في حريقِ الهوى إذا ثارَ! وانْظُرْ كيف تُطْفِئُهُ؟ فَرُبَّ زَلَّةٍ أوقعتْ في بئرِ بوَارٍ، وربَّ أثرٍ لم ينقلعْ، والفائتُ لا يُسْتَدْرَكُ على الحقيقةِ[1].

فابعُدْ عن أسبابِ الفتنةِ؛ فإنَّ المقاربةَ محنةٌ لا يكادُ صاحبُها يسلمُ.

والسلامُ.

١٢٨ـ فصل

[الحياة ساحة حرب وجهاد]

رأيتُ الخَلْقَ كلَّهم في صفِّ محاربةٍ، والشياطينُ يَرْمونَهم بِنَبْلِ الهوى، ويضرِبونَهم بأسيافِ اللَّذَّةِ.

فأما المخلِّطونَ؛ فَصَرْعى من أول وقتِ اللقاءِ.

(١) لأن الزمان لا يعود إلى وراء ولا يمكن إرجاعه. والبوار: الهلاك.

وأما المتَّقونَ؛ ففي جُهْدٍ جَهيدٍ من المجاهدة!

فلا بُدَّ مع طول الوقوفِ في المحاربةِ من جِراحٍ؛ فهم يُجْرَحونَ ويُداوَوْنَ؛ إلَّا أنهم من القتل محفوظونَ.

بلى؛ إنَّ الجِراحةَ في الوجه شَيْنٌ باقٍ[1]؛ فليحذَرْ ذٰلك المجاهدونَ.

١٢٩ ـ فصل

[إياك والوقوع في فخ الدنيا]

الدنيا فخٌّ، والجاهلُ بأولِ نظرةٍ يقعُ، فأمّا العاقلُ المتَّقي؛ فهو يصابرُ المجاعةَ، ويدورُ حولَ الحَبِّ[2]، والسلامةُ بعيدةٌ؛ فكم من صابرٍ اجتهدَ سنينَ ثم في آخرِ الأمرِ وَقَعَ!

فالحذرَ الحذرَ؛ فقد رأيْنا مَن كانَ على سَنَنِ الصَّوابِ، ثم زَلَّ على شَفيرِ القبرِ[3].

١٣٠ ـ فصل

[بادروا بالتوبة؛ فإن عاقبة الذنب وخيمة]

اعلموا ـ إخواني ومَن يَقْبَلُ نصيحتي! ـ أنَّ للذنوبِ تأثيراتٍ قبيحةً، مرارتُها تزيدُ على حلاوتِها أضعافًا مضاعفةً، والمُجازِي بالمرصادِ؛ لا

(١) الجراحة هنا كناية عن الذنب، فالمصنف يحذر هنا من كبائر الذنوب التي هي بمثابة الجرح الباقي الذي يشوه الوجه.

(٢) يعني: الحبَّ الموضوع في الفخ؛ فهو يجتهد أن ينال ما يستطيع من هٰذا الحب دون أن يسقط في الفخ.

(٣) السنن: الطريق، والشفير: الطرف، وأراد بشفير القبر: آخر أيام العمر.

يَسْبِقُهُ شيءٌ، ولا يفوتُه.

أوَليسَ يُروى في التفسير أنَّ كلَّ واحدٍ من أولادِ يعقوبَ عليهم السلامُ ـ وكانوا اثني عَشَرَ ـ وُلِدَ له اثنا عشر ولدًا؛ إلَّا يوسُفَ؛ فإنَّه وُلِدَ له أحدَ عشرَ، وجُوزِيَ بتلك الهمَّةِ، فَنُقِصَ ولدًا[١].

فوا أسفًا لمضروبٍ بالسياطِ ما يُحِسُّ بالألم! ولِمُثْخَنٍ بالجراح وما عندَه من نفسهِ خبرٌ! وَلِمُتقلِّبٍ في عقوباتٍ ما يدري بها! ولعمري إنَّ أعظمَ العقوبةِ أنْ لا يدري بالعقوبةِ.

فوا عجبًا للمغالطِ نفسَه! يُرْضي نفسَه بشهوةٍ، ثم يُرضي ربَّهُ بطاعةٍ، ويقولُ: حسنةٌ وسيئةٌ!

ويحكَ! مِن كيسِكَ تُنْفِقُ، ومِنْ بضاعتِكَ تَهْدِمُ، ووَجْهَ جاهِكَ تَشينُ! رُبَّ جراحةٍ قَتَلَتْ، وربَّ عَثْرَةٍ أهلكتْ، وربَّ فارِطٍ[٢] لا يُسْتَدْرَكُ.

ويحكَ! انتبهْ لنفسِكَ، ما الذي تنتظرُ بأَوْبَتِكَ؟ وماذا تَتَرَقَّبُ بِتَوْبَتِكَ؟ آلمشيبَ؟ فها هو ذا أوهنَ العظمَ! وهل بعد رحيلِ الأهلِ والأولادِ والأقاربِ إلَّا اللحاقُ؟!

قَدِّرْ أنَّ ما تُؤمِّلُهُ من الدُّنيا قد حَصَلَ، فكانَ ماذا؟! إمَّا هو عاجلٌ؛ فَشَغَلَكَ عاجلًا، ثم آخرُ جُرْعَةِ اللَّذَّةِ شَرْقَةٌ! وإمّا أنْ تُفارقَ محبوبَك أو يفارقَكَ. فيا لَها جرعةٌ مريرةٌ تَوَدُّ عندَها أنْ لو لم تَرَه!

آهٍ لمحجوبِ العقلِ عن التأمُّلِ، ولمَصْدودٍ عن الوُرودِ وهو يرى

---

(١) تقدمت هٰذه القصة وتعليقنا عليها في (فصل ٢٩).

(٢) الفارط: الذنب الذي سبق وقوعه من الإنسان.

المَنْهَلَ! أما في هٰذه القبورِ نذيرٌ؟! أما في كُرورِ الزَّمانِ زاجرٌ؟! أين مَنْ مَلَكَ وبَلَغَ المُنى فيما أَمَّلَ؟! نادِهِم في ناديهم! هيهاتَ؛ صَمُّوا عن مناديهم. فلو أنَّ ما بهم الموت، إنما القبورُ هُنَيَّةٌ[1].

العملَ حَصِّلْ يا معدومًا بالأمسِ! يا متلاشيَ الأشلاءِ في الغدِ!

بأيِّ وَجْهٍ تَلْقى رَبَّكَ؟! أيُساوي ما تنالُه من الهوى لفظَ عتابٍ؟!

باللهِ؛ إنَّ الرحمةَ بعد المعاتبةِ ربما لم تَسْتَوْفِ قَلْعَ البُغْضَةِ من صَميم القلبِ؛ فكيفَ إن أعقبَ العتابُ عقابًا[2]؟!

وقد أخبرنا عبدُ الرحمٰن بن محمد القزَّازُ؛ قال: أخبرنا أبو بكرٍ الخطيبُ؛ قال: أخبرنا محمد بن الحسين المعدِّلُ؛ قال: أخبرنا أبو الفضل الزُّهْرِيُّ؛ قال: أخبرنا أحمدُ بن محمد الزعفرانيُّ؛ قال: حدثنا أبو العباس بن واصل المقرئ؛ قال: سمعتُ محمد بن عبد الرحمٰن الصيرفيَّ؛ قالَ: رأى جارٌ لنا يحيى بن أكْثَم بعدَ موتِهِ في منامه، فقالَ: ما فَعَلَ بك ربُّكَ؟ فقال: وقفتُ بين يديه، فقال لي: سوءةً لك يا شيخُ! فقلتُ: يا ربِّ! إنَّ رسولَك قالَ: إنَّك لَتَسْتَحي من أبناءِ الثمانينَ أنْ تُعَذِّبَهم، وأنا ابنُ ثمانينَ، أسيرُ الله في الأرضِ[3]. فقال لي: صَدَقَ رسولي؛ قد عَفَوْتُ عنكَ.

---

(١) يعني: لو أن الأمر ينقضي بالموت، لكان سهلاً، ولٰكن المصيبة تكمن فيما وراء الموت؛ من عذاب القبر، وعذاب يوم القيامة، وعذاب جهنم.

(٢) في الأصول: «عقابٌ»! ولا تستوي العبارة إلا بنصبه على المفعولية.

(٣) هٰذا معنى الأثر الذي رواه أحمد (٢ / ٨٩) عن أبي النضر، ثنا الفرج، ثنا محمد بن عامر، عن محمد بن عبيد الله، عن عمرو بن جعفر، عن أنس بن مالك موقوفًا: «. . . وإذا بلغ الرجل المسلم الثمانين تقبل الله من حسناته ومحا عن سيئاته، وإذا بلغ التسعين؛ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمي أسير الله في الأرض، وشفع في أهله».

وفي روايةٍ أخرى عن محمد بن سَلْم الخَوَّاص ؛ قال : رأيتُ يحيى بنَ أكثمَ في المنام ، فقلتُ : ما فَعَلَ الله بكَ؟ فقال : أَوْقَفَني بين يديهِ ، وقالَ لي : يا شيخَ السَّوْءِ! لولا شَيْبَتُكَ ؛ لأحْرَقْتُكَ بالنَّارِ[1] .

والمقصودُ من هٰذا النَّظَرُ بعينِ الاعتبارِ ؛ هل يفي هٰذا بدخول الجنةِ ؛ فضلاً عن لَذَّاتِ الدُّنيا .

فنسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يُنَبِّهَنا من رَقَداتِ الغافلينَ ، وأن يُرِيَنا الأشياءَ كما هي ؛ لنعرِفَ عيوبَ الذنوبِ .

واللهُ الموفقُ .

= وإسناده على وقفه ضعيف جدًّا مسلسل بالمجاهيل . قال الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ٢٠٨) : «وفي إسناد أنس الموقوف من لم أعرفهم» .

وله طريق آخر مرفوع أخرجه أبو يعلى والبزار والبيهقي في «الزهد» بأسانيد ضعيفة جدًّا .

وله شاهد من حديث ابن عمر مرفوعًا أخرجه أبو يعلى أيضًا بإسناد ضعيف جدًّا .

وشاهد آخر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه الدارقطني في «غرائب مالك» واستنكره الحافظ في «اللسان» .

وشاهد آخر من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أخرجه أبو يعلى والطبراني بإسناد ضعيف .

وبالجملة ؛ فأسانيد الحديث دائرة بين النكارة والضعف الشديد ؛ فلا تصلح للاعتضاد ، وقد ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (رقم ٤٠٤٣) . وانظر : «لسان الميزان» (٢ / ٦٤ ، ٤ / ٢١) ، و«مجمع الزوائد» (١٠ / ٢٠٧ ـ ٢٠٩) .

(١) ويحيى بن أكثم هو القاضي ، الفقيه ، العلامة ، ولاه المأمون قضاء بغداد ، توفي سنة ٢٤٢هـ ؛ منصرفًا من الحج وبلغ ثلاثًا وثمانين سنة . انظر ترجمته في : «وفيات الأعيان» (٦ / ١٤٧) ، و«سير أعلام النبلاء» (١٢ / ٥) .

١٣١ـ فصل
[ومن يتق الله يجعل له مخرجاً]

ضاق بي أمرٌ أوجبَ غمًّا لازِمًا دائمًا، وأخذتُ أبالِغُ في الفِكْرِ في الخلاصِ من هٰذه الهموم بكلِّ حِيلةٍ وبكلِّ وجهٍ؛ فما رأيتُ طريقًا للخلاصِ، فَعَرَضَتْ لي هٰذه الآيةُ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، فعلمتُ أنَّ التَّقوى سببٌ للمخرجِ من كلِّ غمٍّ، فما كان إلَّا أنْ هَمَمْتُ بتحقيقِ التقوى، فوجدتُ المخرجَ.

فلا ينبغي لمخلوقٍ أنْ يَتوكَّلَ أو يَتَسَبَّبَ أو يَتَفَكَّرَ إلَّا في طاعةِ الله تعالى وامتثالِ أمره؛ فإنَّ ذٰلك سببٌ لفتح كلِّ مُرْتَجٍ[١].

ثم أعجَبُهُ أنْ يكونَ من حيثُ لم يُقَدِّرِ المُتَفَكِّرُ المحتالُ المُدَبِّرُ، كما قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣].

ثم ينبغي للمتَّقي أن يعلمَ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ كافِيه؛ فلا يُعَلِّقَ قلبَه بالأسبابِ؛ فقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ على اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

١٣٢ـ فصل
[في حكمة الإبطاء في إجابة الدعاء]

من العجبِ إلحاحُك في طَلَبِ أغراضِك! وكلَّما زادَ تعويقُها؛ زادَ إلحاحُك! وتنسى أنَّها قد تمتنعُ لأحدِ أمرينِ: إمَّا لمصلحتِك؛ فربَّما طَلَبْتَ

---

(١) المرتج: المقفل، المغلق.

مُعَجَّلَ أذى، وإمّا لذُنوبِكَ؛ فإنَّ صاحبَ الذُّنوبِ بعيدٌ من الإجابةِ.

فَنَظِّفْ طُرُقَ الإجابةِ من أوساخ المعاصي، وانظرْ فيما تَطْلُبُه؛ هل هو لإصلاح دينِكَ أو لمجرَّدِ هواكَ؟

فإنْ كان للهوى المجرَّدِ؛ فاعلمْ أنَّ من اللُّطفِ بكَ والرحمةِ لكَ تعويقَهُ، وأنتَ في إلحاحِكَ بمثابةِ الطِّفْلِ يَطْلُبُ ما يؤذيه، فيُمْنَعُ؛ رِفقًا به.

وإنْ كان لصلاح دينِكَ؛ فربَّما كانتِ المصلحةُ تأخيرَهُ، أو كانَ صلاحُ الدينِ بعدمِهِ.

وفي الجملةِ؛ تدبيرُ الحقِّ عزَّ وجلَّ لكَ خيرٌ من تدبيرِكَ، وقد يمنعُكَ ما تهوى ابتلاءً؛ لِيَبْلُوَ صبرَكَ؛ فأرِهِ الصبرَ الجميلَ؛ تَرَ عن قُرْبٍ ما يَسُرُّ.

ومتى نَظَّفْتَ طُرُقَ الإجابةِ من أدرانِ الذُّنوبِ، وصبرتَ على ما يقضيهِ لك؛ فكلُّ ما يجري أصلحُ لك؛ عطاءً كان أو منعًا.

١٣٣ ـ فصل

[بادروا إلى التوبة قبل أن يبغتكم الموت]

يجبُ على مَن لا يدري متى يَبْغَتُهُ الموتُ أن يكونَ مستعدًّا، ولا يغترَّ بالشباب والصِّحَّةِ؛ فإنَّ أقلَّ مَن يموتُ الأشياخُ، وأكثرَ مَن يموتُ الشبابُ، ولهذا يَنْدُرُ مَن يَكْبَرُ، وقد أنشدوا:

يُعَمَّرُ واحدٌ فَيَغُرُّ قَوْمًا ... ويُنْسَى مَنْ يَموتُ مِنَ الشَّبابِ

ومِن الاغترارِ طولُ الأملِ، وما مِن آفةٍ أعظمُ منهُ؛ فإنَّه لولا طولُ الأملِ؛ ما وَقَعَ إهمالٌ أصلًا، وإنَّما يُقَدِّمُ المعاصي ويؤخِّرُ التوبةَ؛ لطولِ

الأملِ ، وتبادَرُ الشَّهَواتُ ، وتُنْسى الإِنابةُ ؛ لطولِ الأملِ .

وإنْ لم تستطعْ قِصَرَ الأملِ ؛ فاعملْ عَمَلَ قصيرِ الأمل : ولا تُمْس حتى تَنْظُرَ فيما مضى من يومِك ؛ فإنْ رأيتَ زَلَّةً ؛ فامْحُها بتوبةٍ ، أو خَرْقًا ؛ فارْقَعْهُ باستغفارٍ . وإذا أصبحتَ ؛ فتأمَّلْ ما مضى في ليلِكَ . وإياكَ والتسويفَ ؛ فإنه أكبرُ جنودِ إبليسَ :

وخُذْ لَكَ مِنْكَ على مُهْلَةٍ ... ومُقبِلُ عَيْشِكَ لم يُدْبِرِ
وخَفْ هَجْمَةً لا تُقيلُ العِثارَ ... وَتَطْوي الوُرودَ على المَصْدَرِ
ومَثِّلْ لِنَفْسِكَ أيَّ الرَّعيل ... يَضُمُّكَ في حَلْبَةِ المَحْشَرِ

ثم صَوِّرْ لنفسك قِصَرَ العُمُرِ ، وكَثْرَةَ الأشغالِ ، وقُوَّةَ الندمِ على التَّفْريطِ عند الموتِ ، وطولَ الحسرةِ على البدارِ بعدَ الفَوْتِ .

وصَوِّرْ ثوابَ الكاملينَ وأنت ناقصٌ ، والمجتهدينَ وأنتَ متكاسِلٌ .

ولا تُخْلِ نَفْسَكَ مِن موعظةٍ تَسْمَعُها ، وفِكْرَةٍ تحادِثُها بها ؛ فإنَّ النفسَ كالفَرَسِ المُتَشَيْطِنِ[1] : إنْ أهْمَلْتَ لِجامَه ؛ لم تأمنْ أن يَرْمِيَ بك .

وقد والله دنَّسَتْك أهواؤُك ، وضيَّعْتَ عُمُرَك .

فالبدارَ البدارَ في الصيانةِ قبل تَلَفِ الباقي بالصَّبابةِ[2] ؛ فكم تَعَرْقَلَ في فخِّ الهوى جَناحُ حازمٍ ! وكم وَقَعَ في بئرِ بَوَارٍ مخمورٌ !

ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله .

---

(١) الفرس المتشيطن : العاتي المتمرد .

(٢) يعني : بادر وأسرع إلى صيانة ما بقي من عمرك قبل أن يضيع وينقضي في الأهواء والمعوقات .

١٣٤ ـ فصل

[حذار من المعاصي؛ فالعواقب وخيمة]

الحذرَ الحذرَ من المعاصي ؛ فإنَّ عواقِبَها سيئةٌ .

وكم من معصيةٍ لا يزالُ صاحِبُها في هُبوطٍ أبدًا؛ مع تعثيرِ أقدامِهِ، وشدَّةِ فقرِهِ، وحسراتِهِ على ما يفوتُهُ من الدُّنيا، وا حسرةً لمنْ نالها .

فلو قاربَ زمانُ جزائهِ على قبيحهِ الذي ارتكبَه؛ كان اعتراضُه على القَدَرِ في فواتِ أغراضهِ يُعيدُ العذابَ جديدًا!

فوا أسفًا لمعاقَبٍ لا يُحِسُّ بعقوبتهِ!

وآهٍ من عقابٍ يتأخَّرُ حتى يُنْسى سببُهُ .

أوليسَ ابنُ سيرينَ يقولُ : عيرتُ رجلًا بالفقرِ، فافتقرتُ بعدَ أربعينَ سنةً[1]؟!

وابن الجَلَّاءِ يقولُ : نظرتُ إلى شابٍّ مُسْتَحْسَنٍ، فنسيتُ القرآنَ بعد أربعين سنةً[1] .

فوا حسرةً لمعاقَبٍ لا يدري أنَّ أعظمَ العقوبةِ عدمُ الإحساسِ بها!

فاللهَ اللهَ في تجويدِ التوبةِ، عساها تَكُفُّ كَفَّ الجزاءِ .

والحذرَ الحذرَ من الذُّنوبِ، خصوصًا ذنوبَ الخَلَواتِ؛ فإنَّ المبارزةَ لله تعالى تُسْقِطُ العبدَ من عينِهِ .

وأَصْلِحْ ما بينَك وبينَه في السرِّ؛ وقد أصلحَ لك أحوالَ العلانيةِ .

(١) تقدمت ترجمته وخبره هذا في (فصل ١٨) .

ولا تغتـرَّ بِسَتْـرِهِ أيُّها العاصي؛ فربما يَجْذِبُ عن عورتِك(١)، ولا بحلمهِ؛ فربما بَغَتَ العقابُ.

وعليك بالقلقِ واللَّجَإِ إليه والتضرُّع؛ فإنْ نَفَعَ شيءٌ؛ فذٰلك.

وتَقَوَّتْ بالحُزنِ، وتمزَّزْ كأسَ الدمعِ، واحفرْ بمعولِ الأسى قليبَ قَلْبِ الهوى؛ لعلك تُنْبِطُ مِنَ الماءِ ما يَغْسِلُ جِرْمَ جُرْمِكَ(٢).

١٣٥ ـ فصل

[في أن الجزاء من جنس العمل]

إخواني! اسْمَعوا نصيحةَ مَنْ قدْ جَرَّبَ وخَبَرَ.

إنـه بقَـدْرِ إجـلالِكُم للهِ عزَّ وجـلَّ يُجِلُّكم، وبمقدارِ تعظيم قَدْرِهِ واحترامِهِ يُعَظِّمُ أقداركم وحُرْمَتَكُم.

ولقـد رأيتُ واللهِ مَن أنفقَ عُمُرَهُ في العلم إلى أن كَبِرَتْ سِنُّه، ثم تعدَّى الحُدودَ، فهانَ عندَ الخلقِ، وكانوا لا يلتفتونَ إليه؛ مع غَزارةِ علمهِ، وقوةِ مُجاهدتِهِ.

ولقـد رأيتُ مَن كان يراقِبُ اللهَ عزَّ وجـلَّ في صَبْوَتِهِ ـ مع قُصورِهِ بالإِضافةِ إلى ذٰلك العالم ـ، فعظَّمَ اللهُ قَدْرَهُ في القلوبِ، حتى عَلِقَتْهُ(٣) النفوسُ ووَصَفَتْهُ بما يزيدُ على ما فيه من الخيرِ.

---

(١) يعني: يكشف عنها، ويفضحك بين الخلائق.

(٢) تمزَّز: تَمَصَّصْ. نبط الماء: نبع. الجِرْم: الجسد. الجُرم: الجريمة.

(٣) علقته: أحبته وتعلقت به.

ورأيتُ مَن كان يرى الاستقامةَ إذا استقامَ[١]؛ فإذا زاغَ؛ مالَ عنه اللُّطْفُ.

ولولا عمومُ السَّترِ وشُمولُ رحمةِ الكريم؛ لافْتُضِحَ هؤلاء المذكورونَ.

غيرَ أنَّهُ في الأغلبِ تأديبٌ أو تلطُّفٌ في العقابِ؛ كما قيلَ:

وَمَنْ كانَ في سُخْطِهِ مُحْسِنًا فَكَيْفَ يكونُ إذا ما رَضِي

غيرَ أنَّ العدلَ لا يُحابي، وحاكَمَ الجزاءِ لا يَجُوزُ، وما يَضيعُ عندَ الأمينِ شيءٌ.

١٣٦ ـ فصل

[في لزوم محراب التوبة والإنابة وإن تأخر الفرج]

أيُّها المذنبُ! إذا أحسستَ نَفَحاتِ الجزاءِ؛ فلا تكثرنَّ الضَّجيجَ، ولا تقولنَّ: قد تُبْتُ ونَدِمْتُ؛ فهلَّا زالَ عني من الجزاءِ ما أكرهُ!

فلعلَّ تَوْبَتَكَ ما تحقَّقَتْ.

وإنَّ للمُجازاةِ زمانًا يمتدُّ امتدادَ المَرَضِ الطويل؛ فلا تَنْجَعُ فيه الحيلُ حتى يَنْقَضِيَ أوانُهُ.

وإن بين زمان ﴿وعصى﴾ إلى إبّانِ ﴿فتلقى﴾[٢] مدةً مديدةً.

---

(١) يعني: كانت أموره مستقيمة ميسرة عند استقامته مع ربه.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ [طه: ١٢١]، وقوله: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾ [البقرة: ٣٧].

فاصْبِـرْ أيُّهـا الخاطىءُ حتَّى يَتَخَلَّلَ ماءُ عينيكَ خِلالَ ثوبِ القلبِ المتنجِّسِ ؛ فإذا عَصَرَتْهُ كَفُّ الأسى ، ثم تكررتْ دُفَعُ الغَسَلاتِ ؛ حُكِمَ بالطهارةِ[1].

بَقِيَ آدمُ يبكي على زَلَّتِهِ ثلاثَ مئةِ سنةٍ[2].

ومَكَثَ أيوبُ عليه السلام في بلائِهِ ثمانيَ عشرةَ سنةً[3].

وأقامَ يعقوبُ يبكي على يوسفَ عليهما السلامُ ثمانين سنةً[4].

وللبلايا أوقاتٌ ثم تَنْصَرِمُ.

وربَّ عقوبةٍ امتدَّتْ إلى زمانِ الموتِ.

فاللازمُ لك أنْ تُلازِمَ مِحْرابَ الإنابةِ، وتَجْلِسَ جِلْسَةَ المُسْتَجْدي ،

---

(١) كأن قلب العاصي قد تنجس ، ودموع التوبة والإنابة هي الماء الطهور الذي ينفع فيه ؛ فمتى تكرر الغسل بهٰذه الدموع حتى عمت القلب كله ؛ أصبح طاهرًا مقبول التوبة والإنابة .

(٢) وقد اختلفت أقوال السلف في هٰذه المدة اختلافًا بينًا ، وليس في ذٰلك شيء مرفوع من كلام المعصوم ﷺ ، بل كله من أقوال أهل الكتاب : فأخرج الديلمي عن علي في المدة أنها كانت مئة سنة . وسنده واه . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس أنها كانت مئتي سنة . وأخرج ابن عساكر أيضًا عن الأوزاعي عن حسان بن عطية : أن آدم بكى على الجنة سبعين عامًا وعلى خطيئته سبعين عامًا وعلى ولده حين قتل أربعين عامًا . وانظر : «الدر المنثور» (١ / ١١٧ ـ ١١٩) ، و«البداية والنهاية» (١ / ١٣١) .

(٣) وقد اختلفوا في مدة بلائه على أقوال ذكرها : أحمد في «الزهد» (ص ٥٤ ـ ٥٥) ، وابن كثير في «البداية والنهاية» (١ / ٣١٨ ـ ٣٢٠) .

(٤) رواه أحمد في «الزهد» (ص ١٠٧) عن الحسن وعبدالله بن دينار . وهو مستبعد جدًّا ، وظاهر سياق القصة القرآنية يشير إلى غير هٰذا ؛ كما في «البداية والنهاية» (١ / ٣١٣) .

وتجعلَ طعامَكَ الْقَلَقَ، وشرابَكَ البكاءَ؛ فربما قَدِمَ بشيرُ القَبولِ، فارتدَّ يعقـوبُ الحـزنِ بصيرًا(١)، وإنْ مُتَّ في سجنِ شَجَنِكَ؛ فربما نابَ حزنُ الدُّنيا عن حزنِ الآخرةِ، وفي ذلك ربحٌ عظيمٌ.

١٣٧ ـ فـصـل

[احذر مغبة المعاصي]

الواجبُ على العاقل أنْ يَحْذَرَ مَغَبَّةَ المعاصي؛ فإنَّ نارَها تحتَ الرَّمادِ.

وربَّما تأخرتِ العقوبةُ ثم فَجَأَتْ، وربما جاءتْ مُسْتَعْجَلَةً.

فلْيبادِرْ بإطفاءِ ما أوقد من نيرانِ الذُّنوب، ولا ماءَ يطفىءُ تلك النارَ إلَّا ما كان من عَيْنِ العينِ(٢)؛ لعل خَصْمَ الجزاءِ يرضى قبل أنْ يَبُتَّ الحاكمُ في حُكمِهِ.

١٣٨ ـ فـصـل

[عتاب ونجوى مع نفس أمارة]

وا عجبًـا من عارفٍ باللهِ عزَّ وجلَّ يُخالِفُه ولو في تَلَفِ نفسهِ! هل العيشُ إلَّا معهُ؟! هل الدُّنيا والآخرةُ إلَّا له؟!

أفٍّ لمتـرخِّصٍ في فعـل ما يَكْـرَهُ لنيل ما يُحِبُّ! تاللهِ؛ لقد فاتَهُ

---

(١) يشبه قبول التوبة من التائب بفرج يعقوب عليه السلام عندما عاد له يوسف عليه السلام بعد طول صبر.

(٢) عين العين: نبع العين؛ يعني: الدمع.

أضعافُ ما حَصَّلَ.

أقبلْ على ما أقولُه يا ذا الذوقِ!

هل وَقَعَ لك تعثيرٌ في عيشٍ وتخبيطٌ في حالٍ إلَّا حالَ مخالفتِهِ؟!

ولا انْـثَـنَـى عزمـيَ عن بابِكُمْ إلَّا تَعَـثَّـرْتُ بأذْيالــي

أما سمعتَ تلكَ الحكايةَ عن بعضِ السَّلفِ: أنه قال: رأيتُ على سورِ بيروتَ شابًّا يَذْكُرُ اللهَ تعالى، فقلتُ له: ألكَ حاجةٌ؟ فقالَ: إذا وقعتْ لي حاجةٌ؛ سألتُه إيّاها بقلبي فَقَضاها.

يا أربابَ المعاملةِ! باللهِ عليكُم؛ لا تُكَدِّروا المشربَ! قِفُوا على باب المراقبةِ وقوفَ الحراسِ! وادْفَعوا ما لا يَصْلُحُ أنْ يَلِجَ فَيُفْسِدَ! واهجُروا أغراضَكم لتحصيلِ محبوبِ الحبيبِ؛ فإنَّ أغراضَكُم تَحْصُلُ.

على أنني أقولُ: أفٍّ لمن تَرَكَ بقصدِ الجزاءِ! أهذا شرطُ العبوديَّةِ؟! كلَّا؛ إنما ينبغي لي إذا كنتُ مملوكًا أنْ أفعلَ ليَرْضَى لا لأُعْطى؛ فإنْ كنتُ محبًّا؛ رأيتُ قَطْعَ الآرابِ[1] في رضاه وَصْلًا.

اقبلْ نُصْحي يا مخدوعًا بغرضِهِ!

إنْ ضَعُفْتَ عن حَمْلِ بلائِهِ؛ فاستغثْ به، وإنْ آلمكَ كَرْبُ اختيارِهِ؛ فإنَّك بين يديهِ، ولا تيأسْ مِن رَوْحِهِ وإنْ قَوِيَ خِناقُ البلاءِ.

باللهِ؛ إنَّ موتَ الخادمِ في الخدمةِ حسنٌ عند العُقَلاءِ.

إخواني! لنفسي أقولُ؛ فمَنْ له شِرْبٌ معي؛ فلْيَرِدْ.

---

(١) جمع إرْب وأرَب، وهو الحاجة.

أيتها النفسُ! لقد أعطاكِ ما لم تؤمِّلي، وبلَّغَكِ ما لم تَطْلُبي، وسَتَرَ عليك مِن قبيحِك ما لو فاحَ؛ ضَجَّتِ المشامُّ(١)!

فما هٰذا الضجيجُ من فواتِ كمالِ الأغراضِ؟! أمملوكةٌ أنتِ أم حُرَّةٌ؟! أما علمتِ أنكِ في دارِ التَّكليفِ؟!

وهٰذا الخطابُ ينبغي أنْ يكونَ للجُهَّالِ؛ فأين دَعْواكِ المعرفةَ؟!

أتُراه لو هَبَّتْ نفحةٌ فأخَذَتِ البصرَ؛ كيفَ كانتْ تَطيبُ لك الدُّنيا؟!

وا أسفًا عليكِ! لقد عَشِيَتِ البصيرةُ التي هي أشرفُ(٢)، وما علمتِ كم أقولُ: عسى ولعلَّ؟ وأنتِ في الخطإِ إلى قُدَّامٍ.

قَرُبَتْ سفينةُ العُمُر من ساحلِ القَبْر وما لكِ في المركب بضاعةٌ تَرْبَحُ... تلاعبَتْ في بحر العُمُرِ ريحُ الضَّعْفِ، فَفَرَّقَتْ تلفيقَ القُوى، وكأنْ قد فَصَلَتِ المركبُ(٣)... بلغتِ نهايةَ الأجل وعينُ هواكِ تتلفَّتُ إلى الصِّبا!

باللهِ عليكِ؛ لا تُشْمِتي بكِ الأعداءَ!

هٰذا أقلُّ الأقسام، وأوفى منها أنْ أقولَ: باللهِ عليكَ؛ لا يفوتَنَّكِ قَدَمُ سابقٍ مع قُدْرَتِكِ على قطع المضمارِ.

الخلوةَ الخلوةَ! واستحضِري قرينَ العقلِ، وجُولي في حَيْرَةِ الفِكْرِ،

---

(١) المشامُّ: الأنوف.

(٢) يعني: أشرف من البصر الذي ذكره قبل قليل.

(٣) يعني: انقضى العمر.

واسْتَدْرِكي صُبابَةَ الأجلِ، قبلَ أنْ تميلَ بكِ الصَّبابةُ[١] عن الصَّواب.

وا عجبًا! كلّما صَعِدَ العُمُرُ نَزلْتِ! وكُلَّما جَدَّ الموتُ هَزلْتِ!

أتُراكِ ممَّنْ خُتِمَ له بفتنةٍ، وقُضِيَتْ عليه عندَ آخرِ عُمُرِه المحنةُ؟!

كان أولُ عُمُرِكِ خيرًا من الأخيرِ... كنتِ في زمن الشبابِ أصْلَحَ منك في زمنِ أيام المشيبِ...

﴿وتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها للنَّاسِ وما يَعْقِلُها إلَّا العالِمونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ ما لا يَحْصُلُ إلَّا به، وهو توفيقُهُ؛ إنَّه سميعٌ مجيبٌ.

١٣٩ ـ فصل

[من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه]

قَدَرْتُ في بعضِ الأيام على شَهْوةٍ للنفسِ هي عندَها أحلى من الماءِ الزُّلال في فم الصَّادي[٢]، وقال التأويلُ: ما ها هنا مانعٌ ولا مُعَوِّقٌ إلَّا نوعُ ورعٍ! وكانَ ظاهرُ الأمرِ امتناعُ الجوازِ، فتردَّدْتُ بين الأمرينِ، فمنعتُ النفسَ عن ذلك، فبَقِيَتْ حَيْرَتي لمنع ما هو الغايةُ في غرضِها من غيرِ صادٍّ عنه بحالٍ؛ إلَّا حَذَرَ المنع الشرعيِّ، فقلتُ لها: يا نفسُ! واللهِ؛ ما من سبيلٍ إلى ما تَوَدِّينَ ولا ما دونَه! فتَقَلْقَلَتْ، فصِحْتُ بها: كم وافَقْتُكِ في مُرادٍ ذَهَبَتْ لَذَّتُهُ وبقي التأسُّفُ على فعلِهِ! فقَدِّري بلوغَ الغرضِ من هذا

---

(١) صُبابة الأجل: البقية الباقية من العمر. والصَّبابة: الأهواء.

(٢) الماء الزلال: العذب الصافي. والصادي: العطشان.

المرادِ، أليس الندمُ يبقى في مجال اللَّذَّةِ أضعافَ زمانِها؟! فقالتْ: كيف أصنعُ؟ فقلتُ:

صَبَــرْتُ ولا والـــلهِ ما بي جلادَةٌ   على الحُبِّ لٰكِنِّي صَبَرْتُ على الرَّغْم

وها أنا ذا أنتظرُ من اللهِ عزَّ وجلَّ حُسْنَ الجزاءِ على هٰذا الفعل.

وقد تركتُ باقي هٰذه الوجهةِ البيضاءِ(١)؛ أرجو أن أرى حُسْنَ الجزاءِ على الصَّبْر، فأسْطُرَه فيه إنْ شاءَ اللهُ تعالى؛ فإنَّهُ قد يُعَجِّلُ جزاءَ الصَّبْرِ وقد يُؤَخِّرُهُ: فإنْ عُجِّلَ؛ سَطَرْتُهُ، وإنْ أُخِّرَ؛ فما أشكُّ في حسنِ الجزاءِ لِمَن خافَ مقامَ ربِّه؛ فإنَّه مَن تَرَكَ شيئًا للهِ؛ عَوَّضَهُ اللهُ خيرًا منه(٢).

واللهِ؛ إنِّي ما تركتُه إلَّا لله تعالى، ويكْفيني تَرْكُهُ ذَخيرةً، حتى لو قيلَ لي: أتَذْكُرُ يومًا آثرتَ اللهَ على هواك؟ قلتُ: يومَ كذا وكذا.

فافْتَخِري أيتها النفسُ بتوفيقِك، واحْمَدي مَن وَفَّقَكِ؛ فكم قد خَذَلَ سواكِ! واحْذَري أنْ تُخْذَلي في مِثْلِها! ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله العليِّ العظيم.

وكان هٰذا في سنةِ إحدى وستينَ وخمسِ مئةٍ...

فلما دَخَلَتْ سنةُ خمس وستينَ؛ عُوِّضْتُ خيرًا من ذٰلك بما لا يُقارِبُ مما لا يَمْنَعُ منه ورعٌ ولا غيرُه، فقلتُ: هٰذا جزاءُ التَّرْكِ لأجل الله سبحانَه في الدُّنيا، ولأجْرُ الآخرةِ خيرٌ، والحمدُ لله.

---

(١) يعني: تركت باقي هٰذه الصفحة ولم أكتب فيه حتى أسجل فيه ما أراه من جزاء الله سبحانه وتعالى.

(٢) جاء هٰذا المعنى في حديث مرفوع تقدم نصه وتخريجه في (فصل ١٠٠).

١٤٠ ـ فصل

[لا تشترِ لذة ساعة بذل الدهر]

لا أُنْكِرُ على من طَلَبَ لَذَّةَ الدُّنيا من طريقِ المباح؛ لأَنَّه ليس كلُّ أحدٍ يقوى على التَّرْكِ.

إنَّما المِحْنَةُ على مَن طَلَبَها فلم يَجِدْها أو أكْثَرَها إلَّا من طريقِ الحرام، فاجتهدَ في تحصيلِها، ولم يُبالِ كيف حَصَلَتْ.

فهٰذه المحنةُ التي بُخِسَ العقلُ فيها حقَّه، ولم ينتفعْ صاحبُه بوجودِهِ؛ لأَنَّه لو وَزَنَ ما آثَرَ وعقابَه؛ طاشتْ كِفَّةُ اللَّذَّةِ التي فَنِيَتْ عند أوَّلِ ذَرَّةٍ من أجزائِها.

وكم قد رأيْنا مِمَّنْ آثَرَ شهوتَه فَسَلَبَتْ دينَه!

فَلْيَعْجَبِ العاقلُ حينَ التصفُّح لأحوالِهم؛ كيفَ آثروا شيئًا ما أقاموا معه، وصاروا إلى عقابٍ لا يفارِقُهم؟!

فاللهَ اللهَ في بَخْسِ العقولِ حقَّها!

ولينظرِ السالكُ أين يَضَعُ القدمَ؛ فربَّ مستعجلٍ وَقَعَ في بئرِ بَوارٍ.

ولتكنْ عينُ التيقُّظِ مفتوحةً؛ فإنَّكم في صفِّ حربٍ لا يُدْرَى فيه من أين يُتَلَقَّى النَّبْلُ؛ فأعينوا أنْفُسَكُم، ولا تُعينوا عليها.

١٤١ ـ فصل

[الطاعة الحقة هي امتثال الأوامر واجتناب المناهي]

الحقُّ عزَّ وجلَّ أقربُ إلى عبدِهِ من حَبْلِ الوريدِ، لٰكنَّهُ عامَلَ العبدَ

مُعاملةَ الغائبِ عنه البعيدِ منه؛ فأمَرَهُ بِقَصْدِ بيتِه، ورَفْعِ اليدينِ إليه، والسؤالِ له.

فقلوبُ الجُهَّالِ تَسْتَشْعِرُ البعدَ، ولذلك تقعُ منهمُ المعاصي؛ إذْ لَوْ تَحَقَّقَتْ مراقبتُهم للحاضرِ الناظرِ؛ لَكَفُّوا الأكفَّ عنِ الخَطايا.

والمُتَيَقِّظونَ عَلِموا قُرْبَهُ، فحضرتْهُمُ المراقبةُ، وكَفَّتْهُمْ عنِ الانبساطِ، ولولا نوعُ تغطيةٍ على عينِ المراقبةِ الحقيقيةِ؛ لما انبسطتْ كفٌّ بأكلٍ ولا قَدَرَتْ عينٌ على نظرٍ.

ومِنْ هٰذا الجنسِ: «إنَّهُ لَيُغانُ على قلبي»[1].

ومتى تحقَّقَتِ المراقبةُ؛ حَصَلَ الأُنسُ.

وإنما يقعُ الأُنسُ بتحقيقِ الطاعةِ؛ لأنَّ المخالفةَ توجِبُ الوَحْشَةَ، والموافقةُ مَبْسَطَةُ المستأنسينَ؛ فيا لَذَّةَ عيشِ المستأنسينَ! ويا خَسارَ المستوحِشينَ!

وليستِ الطاعةُ كما يظنُّ أكثرُ الجُهَّالِ أنها مجردُ الصلاةِ والصيامِ، إنما الطاعةُ الموافقةُ بامتثالِ الأمرِ واجتنابِ النَّهْيِ، هٰذا هو الأصل والقاعدةُ الكُلِّيَّةُ.

فكم من مُتَعَبِّدٍ بعيدٌ؛ لأنه مُضَيِّعُ الأصلِ وهادمُ القواعدِ بمخالفةِ

---

(١) هٰذا جزء من حديث رواه مسلم (٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، ١٢ ـ باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، ٤ / ٢٠٧٥ / ٢٧٠٢) عن الأغر المزني: أن رسول الله ﷺ قال: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة». والغين والغيم بمعنى واحد، والمقصود به هنا ما يتغشى القلب من الفترات والغفلات عن ذكر الله، فعده ﷺ ذنبًا، فاستغفر له.

الأمرِ وارتِكابِ النَّهْيِ.

وإنما المحقِّقُ مَن أمسكَ ذُؤابةَ[١] ميزانِ المحاسبةِ للنفس؛ فأدَّى ما عليهِ، واجتنبَ ما نُهِيَ عنه؛ فإنْ رُزِقَ زِيادَةَ تَنَفُّلٍ، وإلَّا؛ لم يَضُرَّهُ[٢].

والسلامُ.

١٤٢ ـ فصل

[لا تفتش في لذات الدنيا؛ فإنها مشوبة بالنقائص]

الدُّنيا في الجُملةِ مَعْبَرٌ؛ فينبغي للإنسانِ أن لا ينافِسَ بِلَذَّاتها، وأن يَعْبُرَ الأيامَ بها.

فإنَّه لو تَفَكَّرَ في كيفيةِ الذبائح ووسخ مَنْ يباشِرُها، وعَمَلِ الكامَخ[٣] وغيرِها من المأكولاتِ؛ ما طابتْ لهُ، ولو تَفَكَّرَ في جَوَلانِ اللُّقْمَةِ مختلطةً بالرِّيقِ؛ ما قَدَرَ على إساغتِها.

والمرءُ لا يخلو من حالينِ: إمَّا أنْ يُريدَ التَّنَعُّمَ باللَّذَّاتِ المباحاتِ، أو يريدَ دَفْعَ الوقتِ بالضَّروراتِ، وأيُّهما طَلَبَ؛ فلا يَنْبَغي له أن يَبْحَثَ فيما ينالُه عن باطنِه؛ فإنَّه لو نَظَرَ إلى عورةِ الزوجةِ نَبا عَنْها[٤].

وقد قالتْ عائشةُ رضيَ الله عنها: «ما رَأَيْتُهُ مِن رسولِ اللهِ ﷺ ولا

---

(١) الذؤابة: الناصية، وأعلى الشيء.

(٢) يعني: فإن رزق مواظبة على النوافل؛ فنعم الحال، وإلا؛ فكفه عن المعاصي ومحافظته على الأصول تكفيه إن شاء الله.

(٣) الكامخ: نوع من أنواع الطعام الذي يؤتدم ويغمس به.

(٤) نبا عن الشيء: استقبحه وكرهه.

رَآه مِنِّي»(١).

فينبغي للعاقلِ أنْ يكونَ له وقتٌ معلومٌ يأمُرُ زوجتَهُ بالتصنُّع له فيه، ثم يُغْمِضُ عن التفتيشِ؛ لِيَطيبَ له عيشُه، وينبغي لها أنْ تَتَفَقَّدَ مِن نفسِها هٰذا؛ فلا تَحْضُرُهُ إلَّا على أحسنِ حالٍ.

وبمثل هٰذا يدومُ العيشُ.

فأما إذا حَصَلَتِ البِذْلَةُ(٢)؛ بانتْ بها العيوبُ، فَنَبَتِ النفسُ، وطلبتِ الاستبدالَ. . . ثم يَقَعُ في الثانية مثلُ ما يَقَعُ في الأولى.

وكذٰلك ينبغي أن يَتَصَنَّعَ لها كتصنُّعِها له؛ ليدومَ الوُدُّ بِحُسْنِ الائتلافِ.

ومتى لم يجرِ الأمر على هٰذا في حقِّ مَن لهُ أَنَفَةٌ من شيءٍ تنبو عنه النفسُ؛ وَقَعَ في أحدِ أمرينِ: إمّا الإعراضُ عنها، وإمّا الاستبدالُ بها، ويحتاجُ في حالةِ الإعراضِ إلى صبرٍ عن أغراضِهِ، وفي حالة الاستبدالِ إلى فَضْلِ مُؤْنَةٍ، وكلاهُما يؤذي.

ومتى لم يستعملْ ما وَصَفْنا؛ لم يَطِبْ له عيشٌ في مُتْعَةٍ، ولم يَقْدِرْ على دفع الزَّمانِ كما ينبغي.

---

(١) (ضعيف). رواه أحمد (٦ / ٦٣ و١٩٠)، وابن ماجه (١ ـ كتاب الطهارة، ١٣٧ ـ باب النهي أن يرى عورة أخيه، ١ / ٢١٧ / ٦٦٢)، والبيهقي (٧ / ٩٤)؛ من طريق موسى بن عبدالله بن يزيد، عن مولى لعائشة (أو: مولاة لها)، عن عائشة. . . فذكره.

قال البوصيري: «هٰذا إسناد ضعيف». يعني: لجهالة مولى عائشة أو مولاتها. وضعفه الألباني في «الإرواء» (٦ / ٢١٣ / ١٨١٢).

(٢) البِذلة: ما يمتهن من الثياب فلا يصان.

١٤٣ـ فصل
[وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها]

نازعتْني نفسي إلى أمرٍ مكروهٍ في الشرع، وَجَعَلَتْ تَنْصِبُ لي التأويلاتِ وتدفعُ الكراهة(١)، وكانتْ تأويلاتُها فاسدةً، والحجةُ ظاهرةٌ على الكراهةِ.

فلجأتُ إلى اللهِ تعالى في دَفْعِ ذٰلك عن قلبي، وأقبلتُ على القراءةِ، وكان دَرْسي قد بَلَغَ إلى سورةِ يوسُفَ؛ فافتتحتها، وذٰلك الخاطرُ قد شَغَلَ قلبي حتى لا أدري ما أقرأ.

فلمّا بلغتُ إلى قولِه تعالى: ﴿قالَ مَعاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ﴾ [يوسف: ٢٣]؛ انتبهتُ لها، وكأني خوطِبْتُ بها، فأفقتُ من تلك السَّكْرَةِ.

فقلتُ: يا نفسُ! أفهمتِ؟ هٰذا حُرٌّ بِيعَ ظُلْمًا، فراعى حقَّ مَن أحسنَ إليه، وسَمَّاه مالِكًا، وإنْ لم يكنْ له عليك مُلْكٌ، فقالَ: ﴿إنَّه رَبِّي﴾، ثم زادَ في بيان موجَبِ كَفِّ كَفِّهِ عما يؤذيه، فقالَ: ﴿أحسنَ مَثْواي﴾.

فكيفَ بكِ؛ وأنتِ عبدٌ على الحقيقةِ لمولى ما زال يُحْسِنُ إليك من ساعةِ وجودِكِ، وإنَّ سَتْرَهُ عليكِ الزَّلَلَ أكثرُ من عددِ الحصى؟!

أفما تَذْكُرينَ كيفَ ربَّاكِ، وعلَّمَكِ، ورزَقَكِ، ودافعَ عنكِ، وساقَ الخيرَ إليكِ، وهداكِ أقومَ طريقٍ، ونجّاكِ من كلِّ كيدٍ، وضمَّ إلى حُسْنِ

---

(١) يعني: تقيم التأويلات، وتبين أوجه الحِلِّ، وترد وجوه الكراهة.

الصُّورةِ الظاهرةِ جَوْدَةَ الذِّهْنِ الباطنِ، وسَهَّلَ لكِ مدارِكَ العلوم حتى نِلْتِ في قصيرِ الزَّمانِ ما لم يَنَلْهُ غيرُك في طويلِهِ، وجلَّى في عَرْصَةِ[1] لسانِك عرائسَ العلوم في حُلَلِ الفصاحةِ، بعد أنْ سَتَرَ عن الخلقِ متابحَكِ، فَتَلَقَّوْها منكِ بِحُسْنِ الظنِّ، وساقَ رزقَك بلا كُلْفَةِ تَكَلُّفٍ ولا كَدَرِ منٍّ، رغدًا غيرَ نَزْرٍ؟!

فواللهِ؛ ما أدري أيَّ نعمةٍ عليكِ أشرحُ لك؛ حُسْنَ الصُّورةِ وصِحَّةَ الآلاتِ؟ أم سلامةَ المِزاجِ واعتدالَ التركيبِ؟ أم لُطْفَ الطَّبْعِ الخالي عن خَساسةٍ؟ أم إلهامَ الرَّشادِ منذُ الصِّغرِ؟ أم الحفظَ بِحُسْنِ الوقايةِ عن الفواحشِ والزَّلَلِ؟ أم تَحْبيبَ طريقِ النقلِ واتِّباعِ الأثرِ من غيرِ جمودٍ على تقليدٍ لمعظَّمٍ ولا انخراطٍ في سِلْكِ مُبْتَدعٍ؟ ﴿وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصوها﴾ [إبراهيم: ٣٤].

كم كائدٍ نَصَبَ لكِ المكايدَ فَوقاكِ؟ كم عدوٍّ حَطَّ منك بالذمِّ فَرَقَّاكِ؟ كم أعطشَ مِن شرابِ الأماني خَلْقًا وسَقاكِ؟ كم أماتَ مَن لم يبلُغْ بعضَ مُرادِكِ وأبقاكِ؟ فأنتِ تصبحينَ وتُمسينَ سليمةَ البدنِ، محروسةَ الدِّينِ، في تزيُّدٍ من العلم وبلوغ الأمل.

فإن مُنِعْتِ مُرادًا، فَرُزِقْتِ الصَّبْرَ عنه بعد أن تَبَيَّنَ لكِ وجهُ الحكمةِ في المنع؛ فسلِّمي حتى يَقَعَ اليقينُ بأنَّ المنعَ أصلحُ.

ولو ذَهَبْتُ أعدُّ من هٰذه النعم ما سَنَحَ ذِكْرُهُ؛ امتلأتِ الطُّروسُ[2] ولم

---

(١) العرصة: الساحة.

(٢) سنح: خطر وبدا. والطروس: الصحف التي يكتب بها.

تنقطع الكتابةُ، وأنتِ تعلمينَ أنَّ ما لم أذْكُرْه أكثرُ، وأنَّ ما أومأتُ إلى ذِكرِه لم يُشْرَحْ؛ فكيف يَحْسُنُ بكِ التعرُّضُ لما يكرههُ؟!

﴿مَعاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

١٤٤ـ فصل

[في اتقاء المشبهات]

ما رأيتُ أعظمَ فتنةً من مُقاربةِ الفتنةِ، وقلَّ أنْ يُقارِبَها إلَّا مَن يَقَعُ فيها، «ومَنْ حام حَوْلَ الحِمى؛ يوشِكُ أنْ يَقَعَ فيه»[1].

قال بعضُ المعتبِرينَ: قَدَرْتُ مرةً على لَذَّةٍ ظاهِرُها التَّحريمُ، وتحتملُ الإباحةَ؛ إذِ الأمرُ فيها مردَّدٌ، فجاهدتُ النفسَ، فقالتْ: أنتَ ما تَقْدِرُ؛ فلهذا تَتْرُكُ؛ فقارِبِ المقدورَ عليه؛ فإذا تَمكَّنْتَ، فَتَرَكْتَ؛ كنت تاركًا حقيقةً. ففعلتُ، وتركتُ. ثم عاودتْ مرةً أخرى في تأويل، أرَتْني فيه الجوازَ، وإن كان الأمرُ يَحْتَمِلُ، فلمّا وافَقْتُها؛ أثَّرَ ذلك ظلمةً في قلبي؛ لخوفِ أنْ يكونَ الأمرُ محرَّمًا. فرأيتُ أنها تارةً تَقْوى عليَّ بالترخُّص والتأويل، وتارةً أقوى عليها بالمجاهدةِ والامتناع؛ فإذا تَرَخَّصْتُ؛ لم آمَنْ أنْ يكونَ ذلك الأمرُ محظورًا، ثم أرى عاجلًا تأثيرَ ذلك الفعل في القلب. فلمّا لم آمنْ عليها التأويل؛ تَفَكَّرْتُ في قطع طَمَعِها من ذلك الأمرِ المؤثِّرِ،

---

(١) جزء من حديث النعمان بن بشير المشهور الذي رواه: البخاري (٢ ـ كتاب الإيمان، ٣٩ ـ باب فضل من استبرأ لدينه، ١ / ١٢٦ / ٥٢)، ومسلم (٢٢ ـ كتاب المساقاة، ٢٠ ـ باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ٢ / ١٢١٩ / ١٥٩٩).

فلم أرَ ذٰلك إلَّا بأنْ قلتُ لها: قَدِّري أنَّ هٰذا الأمرَ مباحٌ قطعًا؛ فواللهِ الذي لا إلٰه إلَّا هو؛ لا عُدْتُ إليه. فانْقَطَعَ طَمَعُها باليمينِ والمعاهدةِ. وهٰذا أبلغُ دواءٍ وجدتُه في امتناعِها؛ لأنَّ تأويلَها لا يبلُغُ إلى أن تأمُرَ بالحِنْثِ والتَّكْفيرِ.

فأجودُ الأشياءِ قَطْعُ أسباب الفِتَن، وتركُ الترخُّص فيما يجوزُ إذا كان حاملًا ومؤدِّيًا إلى ما لا يجوزُ.

والله الموفقُ.

١٤٥ـ فصل

[في حجاب الهوى وغيبة العاصي]

لولا غَيْبَةُ العاصي في وقتِ المعاصي؛ كانَ كالمعاندِ؛ غيرَ أنَّ الهوى يَحولُ بينَه وبينَ الفَهْم للحال، فلا يرى إلَّا قضاءَ شهوته، وإلَّا؛ فلو لاحتْ له المخالفةُ؛ خَرَجَ من الدينِ بالخلافِ(١)؛ فإنَّما يَقْصِدُ هواه، فيقعُ الخلافُ ضِمْنًا وتَبَعًا.

وأكثرُ ما يقعُ هٰذا في مقاربةِ الفِتْنَةِ، وقلَّ مَن يَسْلَمُ عند المقاربةِ؛ لأنه كتقديم نارٍ إلى حَلْفا(٢).

ثم لو مَيَّزَ العاقلُ بين قضاءِ وَطَرِهِ لحظةً وانقضاءِ باقي العُمُر بالحسرةِ على قضاءِ ذٰلك الوَطَرِ؛ لما قَرُبَ منه ولو أعطي الدُّنيا؛ غيرَ أنَّ سكرةَ الهوى تَحولُ بين الفِكْرِ وذٰلك.

(١) يعني: إذا كان المرء يعاند الله في المعاصي معاندة حقيقية؛ فلا شك أنه كافر عدو لله.

(٢) الحلفا: نبات صحراوي مشهور.

آهٍ؛ كم معصيةٍ مضتْ في ساعتِها كأنَّها لم تكنْ ثم بَقِيَتْ آثارُها، وأقلُّها ما لا يَبْرَحُ من المرارةِ في الندم!

والطريقُ الأعظمُ في الحذرِ أنْ لا يَتَعَرَّضَ لسببِ فتنةٍ ولا يقارِبَه.

فَمَنْ فَهِمَ هٰذا وبالغَ في الاحترازِ؛ كانَ إلى السلامةِ أقربَ.

١٤٦ــ فصل

[محنة أصحاب الهمم بين طلب الكمال ورغبات النفوس]

البلايا على مقاديرِ الرِّجالِ.

فكثيرٌ من الناس تَراهم ساكتينَ راضينَ بما عندَهم من دينٍ ودُنيا، وأولٰئكَ قومٌ لم يُرادوا لمقاماتِ الصبرِ الرفيعةِ، أو عُلِمَ ضَعْفُهم عن مقاومةِ البلاءِ فَلُطِفَ بهم.

إنما المحنةُ العظمى أن تُرْزَقَ همةً عاليةً، لا تَقْنَعُ منك إلَّا بتحقيقِ الورع وتجويدِ الدينِ وكمالِ العلم، ثم تُبْتَلى بنفسٍ تميلُ إلى المباحاتِ، وتـدَّعي أنها تَجْمَعُ بذٰلك همَّها وتَشْفي مَرَضَها لِتُقْبِلَ مُزاحةَ العلَّة[1] على تحصيل الفضائل.

وهاتانِ الحالتانِ كَضِدَّيْنِ؛ لأنَّ الدُّنيا والآخرةَ ضَرَّتانِ.

واللازمُ في هٰذا المقام مراعاةُ الواجباتِ، وأنْ لا يُفْسَحَ للنفسِ في مُباحٍ لا يُؤْمَنُ أنْ يَتَعَدَّى منه إعراضٌ عن واجبٍ وَرَعٍ.

المبتَلى يصيحُ، فلأنْ يَبْكِيَ الطفل خيرٌ من أن يبكي الوالد.

(١) مزاحة العلة: خالية من المشاغل.

واعلمْ أنَّ فتحَ باب المباحاتِ ربَّما جَرَّ أذىً كثيرًا في الدِّين، فأوْثِقِ السَّكْرَ(١) قبل فَتْح الماءِ، والْبَسِ الدِّرْعَ قبل لقاءِ الحربِ، وتلمَّحْ عواقبَ ما تَجني قبل تحريكِ اليدِ، واستظهرْ في الحذرِ باجتنابِ ما يُخاف منه وإن لم يُتَيَقَّنْ.

١٤٧ـ فصل

[وصايا مفيدة لطالب العلم]

ينبغي لطالبِ العلم أن يكونَ جُلُّ هِمَّتِهِ مصروفًا إلى الحفظِ والإعادةِ؛ فلو صَحَّ صرفُ الزمانِ إلى ذلك؛ كانَ الأولى؛ غير أنَّ البدنَ مطيَّةٌ، وإجهادُ السيرِ مَظِنَّةُ الانقطاع.

ولما كانتِ القُوى تَكِلُّ فتحتاجُ إلى تجديدٍ، وكان النسخُ والمطالعةُ والتصنيفُ لا بدَّ منه، مع أن المهمَّ الحفظُ؛ وَجَبَ تقسيمُ الزمانِ على الأمرين: فيكونُ الحفظُ في طرفي النهار وطرفي الليل، ويوزَّعُ الباقي بين عملٍ بالنَّسْخِ والمطالعةِ وبين راحةٍ للبدنِ وأخذٍ لحظِّهِ. ولا ينبغي أنْ يَقَعَ الغَبْنُ بين الشُّركاءِ؛ فإنه متى أخَذَ أحدُهم فوقَ حقِّه؛ أثَّرَ الغَبْنُ، وبانَ أثرُهُ.

وإنَّ النفسَ لتهرُبُ إلى النسخ والمطالعةِ والتصنيفِ عن الإعادةِ والتَّكْرارِ؛ لأنَّ ذلك أشهى وأخفُّ عليها.

فليحذرِ الراكبُ من إهمال الناقة، ولا يجوزُ له أن يَحْمِلَ عليها ما لا تُطيقُ، ومعَ العدل والإنصافِ يتأتَّى كلُّ مرادٍ.

ومَنِ انْحَرَفَ عن الجادَّةِ؛ طالتْ طريقُه.

---

(١) السَّكْر: السُّدادة أو السَّد الذي يستعمل لفتح الماء ووقفه.

ومَن طَوى منازلَ في منزل؛ أوشكَ أن يفوتَه ما جَدَّ لأجلِه.

على أنَّ الإنسانَ إلى التحريضِ أحوجُ؛ لأن الفتورَ ألصقُ به من الجِدِّ.

وبعدُ؛ فاللازمُ في العِلْم طَلَبُ المُهمِّ؛ فَرُبَّ صاحب حديثٍ حَفِظَ مثلًا لحديثِ: «مَنْ أتى الجُمُعَةَ؛ فَلْيَغْتَسِلْ»[1] عشرينَ طريقًا، والحديثُ قد ثَبَتَ من طريقٍ واحدٍ، فَشَغَلَهُ ذلك عن معرفةِ آدابِ الغُسل.

والعُمُرُ أقصرُ وأنفسُ من أن يُفَرَّطَ منه في نَفَسٍ.

وكفى بالعقل مُرشدًا إلى الصوابِ.

وباللهِ التوفيقُ.

١٤٨ ـ فصل

[من أصلح سريرته رفع الله قدره]

إذا صَحَّ قصدُ العالِم؛ استراحَ من كُلَفِ التَّكلُّفِ.

فإنَّ كثيرًا من العلماءِ يأنفون من قولِ: لا أدري، فيحفظونَ بالفَتْوى جاهَهم عند الناسِ؛ لئلَّا يُقالَ: جَهِلوا الجوابَ، وإنْ كانوا على غيرِ يقينٍ مما قالوا، وهذا نهايةُ الخِذْلان.

وقد رُوي عن مالكِ بن أنسٍ: أنَّ رَجُلًا سألَهُ عن مسألةٍ، فقالَ: لا أدري! فقالَ: سافرْتُ البُلْدانَ إليك! فقال: ارجعْ إلى بَلَدِكَ، وقلْ: سألتُ

---

(١) رواه: البخاري (١١ ـ كتاب الجمعة، ٢ ـ باب فضل الغسل يوم الجمعة، ٢ / ٣٥٦ / ٨٧٧)، ومسلم (٧ ـ كتاب الجمعة، ٢/٥٧٩/٨٤٤)؛ من حديث ابن عمر.

مالكًا، فقالَ: لا أدري[١].

فانـظرْ إلى دين هٰذا الشخصِ وعقلِه؛ كيفَ اسْتَـراحَ من الكُلْفَةِ، وسَلِمَ عند اللهِ عزَّ وجلَّ.

ثم إنْ كانَ المقصودُ الجاهَ عندَهم؛ فقلوبُهم بيدِ غيرِهم[٢].

واللهِ؛ لقد رأيتُ مَن يُكْثِرُ الصلاةَ والصومَ والصمتَ، ويَتَخَشَّعُ في نفسه ولباسِهِ، والقلوبُ تَنْبو عنه، وقَدْرُه في النفوسِ ليس بذاكَ! ورأيتُ مَن يَلْبَسُ فاخرَ الثياب، وليس له كبيرُ نَفْلٍ ولا تَخَشُّعٍ، والقلوبُ تتهافتُ على محبَّتِهِ. فتدبرتُ السببَ، فوجدتُه السريرةَ.

كما رُوِيَ عن أنس بن مالكٍ: أنَّه لم يكنْ له كبيرُ عملٍ من صلاةٍ وصوم وإنما كانتْ له سريرةٌ.

فمَن أصلحَ سريرتَه؛ فاح عبيرُ فضلِه، وعَبَقَتِ القلوبُ بنشرِ طِيبِهِ.

فاللهَ اللهَ في السرائرِ؛ فإنَّه ما يَنْفَعُ مع فسادِها صلاحُ ظاهرٍ.

١٤٩ـ فصل

[في أسباب تأخر إجابة الدعاء]

نزلتُ في شِدَّةٍ، وأكثرتُ منَ الدُّعاءِ أطْلُبُ الفرجَ والراحةَ، وتأخَّرَتِ الإجابةُ، فانزعجتِ النفسُ وقَلِقَتْ!

---

(١) وله رضي الله عنه من مثل هٰذا كثير. وانظر: «السير» (٨ / ٤٨ وما بعدها).

(٢) يعني: إن كان مقصود هٰؤلاء العلماء الجاه عند الناس؛ فقلوب الناس بيد الله سبحانه يقلبها كيف يشاء، فإن أرضى العلماءُ ربَّهم وأصلحوا سريرتهم؛ قَلَّبَ الله سبحانه قلوب العامة إلى محبتهم واحترامهم وتبجيلهم.

فصِحْتُ بهـا: وَيْلكِ! تأمَّلي أمرَكِ! أمملوكةٌ أنتِ أم حرَّةٌ مالكةٌ؟! أمُدَبَّرَةٌ أنتِ أم مدَبِّرَةٌ؟! أما علمتِ أن الدُّنيا دار ابتلاءٍ واختبارٍ؛ فإذا طلبتِ أغراضَك، ولم تَصْبري على ما يُنافي مرادَكِ؛ فأين الابتلاءُ؟! وهل الابتلاءُ إلَّا الإعراضُ وعكسُ المقاصدِ؟ فافْهَمي معنى التَّكْليفِ؛ وقد هانَ عليكِ ما عزَّ، وسَهُلَ ما استصعبَ!

فلمّا تَدَبَّرَتْ ما قلتُهُ؛ سَكَنَتْ بعضَ السُّكونِ.

فقلتُ لها: وعندي جوابٌ ثانٍ، وهو أنك تَقْتَضينَ الحقَّ بأغراضِكِ، ولا تقتضينَ نفسَكِ بالواجبِ له[1]، وهٰذا عينُ الجهلِ، وإنما كان ينبغي أن يكونَ الأمرُ بالعكسِ؛ لأنكِ مملوكةٌ، والمملوكُ العاقلُ يطالِبُ نفسَه بأداءِ حقِّ المالكِ، ويعلَمُ أنه لا يَجِبُ على المالكِ تبليغُه ما يهوى.

فسكَنَتْ أكثرَ من ذٰلك السكونِ.

فقلتُ لها: وعندي جوابٌ ثالثٌ، وهو أنكِ قدِ استبطأتِ الإجابةَ، وأنتِ سَدَدْتِ طُرُقَها بالمعاصي؛ فلو قد فتحتِ الطريقَ؛ أسْرَعَتْ. كأنكِ ما علمتِ أنَّ سببَ الراحةِ التقوى! أوَما سمعتِ قولَه تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ . . . يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٢ - ٤]؟! أوَما فهمتِ أنَّ العكسَ بالعكسِ؟! آهِ من سُكْرِ غفلةٍ صارَ أقوى مِن كُلِّ سَكْرٍ[2] في وجه مياهِ المُرادِ، يمنعُها من الوصولِ إلى زَرْعِ الأماني!

---

(١) يعني: أنك تطالبين الله عز وجل بحاجاتك وكأنك صاحبة حق تنتظرين وفاءه، ولٰكنك لا تطالبين نفسك بأداء ما أمرك به وترك ما نهاك عنه.

(٢) سُكر الأولى بالضم، وهي غياب العقل، والثانية بالفتح، وهي ما يسد به الماء أو النهر.

فَعَرَفَتِ النفسُ أنَّ هٰذا حقٌّ، فاطمأَنَّتْ.

فقلتُ: وعندي جوابٌ رابعٌ، وهو أنكِ تَطْلُبينَ ما لا تعلمينَ عاقبتَهُ، وربمـا كان فيهِ ضَرَرُكِ؛ فمَثَلُكِ كمَثَـلِ طفلٍ محمومٍ يَطْلُبُ الحَلْوى، والمدبِّرُ لكِ أعلم بالمصالح؛ كيفَ وقد قالَ الله: ﴿وعَسَى أَنْ تَكْرَهوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]؟!

فلمّا بانَ الصوابُ للنفسِ في هٰذه الإِجابةِ؛ زادتْ طُمأنينَتُها.

فقلتُ لها: وعندي جوابٌ خامسٌ، وهو أنَّ هٰذا المطلوبَ يَنْقُصُ من أجرِكِ، ويَحُطُّ من مرتبتِكِ، فمَنْعُ الحقِّ لكِ ما هٰذا سبيلُه عطاءٌ منه لكِ، ولو أنَّكِ طلبتِ ما يُصْلِحُ آخِرَتَكِ؛ كانَ أولى لك. فأولى لكِ أنْ تفهمي ما قد شَرَحْتُ.

فقالتْ: لقدْ سَرَحْتُ في رياضِ ما شَرَحْتَ، فَهِمْتُ إذ فَهِمْتُ[1].

١٥٠ـ فـصـل

[استغناء العالم عن أموال الناس عز للعلم وأهله]

حَضَـرْنـا بعضَ أغـذيةِ أربابِ الأموال، فرأيتُ العلماءَ أذلَّ الناسِ عندَهم، فالعلماءُ يَتَواضَعونَ لهم، ويَذِلُّونَ لموضعِ طَمَعِهِم فيهم، وهم لا يَحْفَلونَ بهم؛ لما يَعْلَمونَه مِن احتياجِهِم إليهِم.

فرأيتُ هٰذا عيبًا في الفريقينِ:

أما في أهلِ الدُّنيا؛ فوجهُ العيبِ أنهم كانوا يَنْبَغي لهم تعظيمُ العلمِ،

---

(١) أي: فخرجت أطوف هائمة بعد أن فهمت مقصد الكلام.

ولٰكنْ لِجَهْلِهِم بقَدْرِهِ؛ فاتَهُمْ، وآثروا عليه كَسْبَ الأموال؛ فلا ينبغي أنْ يُطْلَبَ منهم تعظيمُ ما لا يعرِفونَ ولا يعلَمونَ قَدْرَهُ.

وإنما أعودُ باللوم على العلماءِ، وأقولُ: ينبغي لكُم أنْ تَصونوا أنْفسَكُم التي شَرُفَتْ بالعلم عن الذُّلِّ للأنذالِ. وإنْ كنتُم في غنىً عنهُم؛ كان الذُّلُّ لهم والطَّلَبُ منهم حرامًا عليكُم. وإنْ كنتُم في كَفافٍ؛ فلِمَ لَمْ تُؤْثِروا التنزُّهَ عن الذُّلِّ بالعِفَّةِ عن الحُطام الفاني الحاصل بالذِّلَّةِ.

إلَّا أنه يَتَخَيَّلُ لي من هٰذا الأمر أني عَلِمْتُ قلةَ صبر النفس على الكَفافِ والعُزوفِ عن الفُضول؛ فإنْ وُجِدَ ذٰلك منها في وقتٍ؛ لم يوجَدْ على الدوام.

فالأولى للعالم أنْ يَجْتَهِدَ في طلبِ الغِنى ويبالغَ في الكسبِ، وإنْ ضاع بذٰلك عليه كثيرٌ من زمانِ طلبِ العلم؛ فإنه يصونُ بِعَرَضِهِ عِرْضَه[1].

وقد كان سعيدُ بن المسيَّبِ يَتَّجِرُ في الزيتِ وخلَّفَ مالاً[2].

وخَلَّفَ سفيانُ الثوريُّ مالاً، وقالَ: لولاكَ لَتَمَنْدَلوا بي[3].

وقد سَبَقَ في كتابي هٰذا في بعض الفُصول شَرَفُ المال، ومَن كانَ مِن الصحابةِ والعلماءِ يَقْتَنيهِ، والسرُّ في فِعلهم ذٰلك، وحثِّي طالبي العلم على ذٰلك؛ ما بَيَّنْتُهُ من أنَّ النفسَ لا تَثْبُتُ على التعفُّف ولا تَصْبِرُ على دوام

(١) يعني يصون بما يملكه من متاع الدنيا كرامته وماء وجهه عن إهراقه في الطلب من الناس.

(٢) تقدمت ترجمته وخبره هٰذا في (فصل ٤٠).

(٣) تقدمت ترجمته في (فصل ١٩).

التزهُّدِ.

وكم قد رأيْنا مِن شَخْص قَوِيَتْ عزيمتُه على طَلَبِ الآخرةِ، فأخْرَجَ ما في يدِهِ، ثم ضَعُفَتْ، فعادَ يَكْتَسِبُ من أقبح وجهٍ!

فالأولى ادِّخارُ المالِ، والاستغناءُ عن الناسِ، فَيَخْرُجُ الطمعُ من القلبِ، ويَصْفو نشرُ العلم من شائبةِ مَيْلٍ.

ومَن تأمَّلَ أخبارَ الأخيارِ من الأحبارِ؛ وَجَدَهُم على هٰذه الطريقةِ.

وإنما سَلَكَ طريقَ الترفُّهِ عن الكَسْب مَن لم يُؤَثِّرْ عندَه بَذْلُ الدِّين والوجهِ، فَطَلَبَ الراحةَ، ونسيَ أنها في المعنى عَناءٌ؛ كما فعل جماعةٌ من جُهَّالِ المتصوِّفةِ في إخراج ما في أيديهم وادِّعاءِ التوكُّل! وما عَلِموا أنَّ الكسبَ لا ينافي التوكُّلَ! وإنما طَلَبوا طريقَ الراحةِ، وجَعَلوا التعرُّضَ للناس كَسْبًا!

وهٰذه طريقةٌ مركبةٌ من شيئينِ: أحدُهما: قلةُ الأنَفَةِ على العِرْضِ. والثاني: قِلَّةُ العلم.

١٥١ـ فصل

[من تأمل عظمة الخالق خشي من معصيته]

تأملتُ وقوعَ المعاصي مِن العصاةِ، فوجدتُهم لا يقصِدونَ العصيانَ، وإنما يقصِدونَ موافقةَ هواهم، فوقعَ العصيانُ تَبَعًا.

فنظرتُ في سببِ ذٰلك الإقدامِ مع العلمِ بوقوعِ المخالفةِ؛ فإذا به ملاحظتُهم لكرمِ الخالقِ وفضلِهِ الزاخرِ، ولو أنَّهم تأمَّلوا عَظَمَتَهُ وهَيْبَتَهُ؛ ما

انبسطتْ كفٌّ بمخالفتهِ؛ فإنَّه ينبغي ـ واللهِ ـ أنْ يُحْذَرَ ممَّنْ أقلُّ فعلهِ تعميمُ الخلقِ بالموتِ، حتى إلقاءُ الحيوانِ البهيم للذَّبْحِ، وتعذيبُ الأطفالِ بالمرضِ، وفقرُ العالِم، وغنى الجاهِل.

فليَعْرِضِ المُقْدِمُ على الذُّنوب على نفسِهِ الحذَرَ ممَّنْ هٰذه صفتُه؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وملاحظةُ أسبابِ الخوفِ أدنى إلى الأمنِ مِن ملاحظةِ أسبابِ الرجاء؛ فالخائفُ آخذٌ بالحَزْم، والراجي متعلِّقٌ بحبل طمعٍ، وقد يُخْلَفُ الظنُّ!

١٥٢ـ فصل

[التعفف عن أموال أرباب الدنيا صيانة للعلم وأهله]

رأيتُ عمومَ أربابِ الأموالِ يستخدمونَ العلماءَ ويستذِلُّونَهم بشيءٍ يسيرٍ يعطونَهم من زكاةِ أموالِهم: فإنْ كانَ لأحدِهم خَتْمَةٌ؛ قالَ: فلانٌ ما حضر! وإنْ مَرِضَ؛ قال: فلانٌ ما تَرَدَّدَ! وكلُّ مِنَّتِهِ عليه شيءٌ نَزْرٌ يجبُ تسليمُه إلى مِثْلِهِ!! وقد رَضِيَ العلماءُ بالذُّلِّ في ذٰلك لموضع الضَّرورةِ.

فرأيتُ أنَّ هٰذا جهلٌ من العلماءِ بما يجبُ عليهم من صيانةِ العلم، ودواؤهُ من جهتين: إحداهما: القناعةُ باليسير؛ كما قيلَ: مَن رَضِيَ بالخَلِّ والبَقْلِ؛ لم يَسْتَعْبِدْهُ أحدٌ. والثاني: صَرْفُ بعضِ الزمانِ المصروفِ في خدمةِ العلم إلى كَسْبِ الدُّنيا؛ فإنه يكونُ سببًا لإعزازِ العلم، وذٰلك أفضلُ من صَرْفِ جميع الزمانِ في طلبِ العلم، مع احتمالِ هٰذا الذُّلِّ.

ومَن تأمَّلَ ما تأمَّلْتُهُ، وكانتْ له أنَفَةٌ؛ قدَّر قُوْتَه، واحتفظَ بما معه، أو سعى في مُكْتَسَبٍ يكفيهِ. ومن لم يأنفْ من مثلِ هٰذه الأشياءِ؛ لم يَحْظَ من العلم إلَّا بصورتِهِ دونَ معناهُ.

١٥٣ ـ فصل

[اتبع أدلة الكتاب والسنة ولا تقلد دينك الرجال]

مدارُ الأمرِ كلِّه على العقل؛ فإنَّه إذا تَمَّ العقلُ؛ لم يعملْ صاحبُهُ إلَّا على أقوى دليل.

وثمرةُ العقل: فَهْمُ الخطابِ، وتلمُّحُ المقصودِ من الأمرِ.

ومن فَهِمَ المقصودَ، وعَمِلَ على الدليل؛ كان كالباني على أساسٍ وثيقٍ.

وإني رأيتُ كثيرًا من الناس لا يَعْمَلونَ على دليلٍ، بل كيفَ اتَّفَقَ، وربما كان دليلُهم العاداتِ! وهٰذا أقبحُ شيءٍ يكونُ.

ثم رأيتُ خَلْقًا كثيرًا لا يتَّبِعونَ الدَّليلَ بطريقِ إثباتِه؛ كاليهودِ والنَّصارى؛ فإنَّهم يقلِّدونَ الآباءَ، ولا ينظُرون فيما جاءَ من الشرائع؛ هل صحيحٌ أم لا؟! وكذٰلك يُثْبِتونَ الإلٰهَ، ولا يعرفونَ ما يجوزُ عليه مما لا يجوزُ، فينسِبونَ إليه الولدَ! ويمنعونَ جوازَ تغييرِهِ ما شَرَعَ! وهٰؤلاءِ لم ينظُروا حقَّ النَّظَرِ؛ لا في إثباتِ الصانع وما يجوزُ عليه، ولا في الدَّليل على صحةِ النُّبُوَّاتِ، فتقعُ أعمالُهم ضائعةً؛ كالباني على رملٍ.

ومِن هٰذا القَبيل في المعنى قومٌ يَتَعَبَّدونَ ويَتَزَهَّدونَ ويُنْصِبونَ أبدانَهم

في العملِ (١) بأحاديثَ باطلةٍ، ولا يسألونَ عنها من يَعْلَمُ!

ومن الناسِ من يُثْبِتُ الدليلَ، ولا يَفْهَمُ المقصودَ الذي دلَّ عليه الدليلُ، ومِن هٰذا الجنس قومٌ سَمِعوا ذمَّ الدُّنيا، فتزهَّدوا، وما فهموا المقصودَ، فظنُّوا أنَّ الدُّنيا تُذَمُّ لذاتِها، وأنَّ النفسَ تَجِبُ عداوتُها، فَحَمَلوا على أنفسِهِم فوقَ ما يُطاقُ، وعذَّبوها بكلِّ نوعٍ، ومنعوها حُظوظَها؛ جاهلينَ بقولِه ﷺ: «إنَّ لنفسِكَ عليكَ حقًّا»(٢)، وفيهم مَن أدَّتْهُ الحالُ إلى تركِ الفرائضِ، ونُحولِ الجسمِ، وضَعْفِ القُوى!

وكلُّ ذٰلك لِضَعْفِ الفهمِ للمقصودِ والتلمُّحِ للمرادِ.

كما رُوِيَ عن داوودَ الطائيِّ: أنَّه كان يَتْرُكُ ماءً في دَنٍّ تحتَ الأرضِ، فيشربُ منه وهو شديدُ الحرِّ! وقالَ لسفيانَ: إذا كنتَ تأكلُ اللذيذَ الطيِّبَ، وتشربُ الماءَ الباردَ المُبرَّدَ، فمتى تحبُّ الموتَ والقدومَ على اللهِ(٣)؟!

وهٰذا جهلٌ بالمقصودِ؛ فإنَّ شُرْبَ الماءِ الحارِّ يورِثُ أمراضًا في البدنِ، ولا يَحْصُلُ به الرِّيُّ، وما أُمِرْنا بتعذيبِ أنفُسِنا على هٰذه الصورةِ، بل بِتَرْكِ ما تدعو إليه مما نهى اللهُ عنه.

وفي الحديثِ الصحيحِ: أنَّ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنه لَمّا حَلَبَ له الرَّاعي في طريقِ الهجرةِ؛ صبَّ الماءَ على القَدَحِ حتَّى بَرَدَ أسفَلُهُ، ثم

---

(١) في الأصول: «العلم»! وهو خطأ ظاهر، والصواب ما أثبتناه.

(٢) تقدم تخريجه في (فصل ١٩).

(٣) انظر: ترجمته في (فصل ٥٢)، والخبرين في «الحلية» (٧/٣٤٩ و٣٤٦).

سقى رسولَ اللهِ ﷺ، وفَرَشَ له في ظلِّ صخرةٍ[١].

وكان يُسْتَعْذَبُ لرسولِ اللهِ ﷺ الماءُ[٢].

وقال: «إنْ كانَ عندَكُم ماءٌ باتَ في شَنٍّ، وإلَّا؛ كَرَعْنا»[٣].

ولو فَهِمَ داوودُ رحمهُ الله أنَّ إصلاحَ عَلَفِ الناقةِ متعيِّنٌ لِقَطْعِ المسافةِ؛ لم يَفْعَلْ هٰذا.

ألا ترى إلى سفيانَ الثوريِّ؛ فإنه كانَ شديدَ المعرفةِ والخوفِ، وكان يأكُلُ اللذيذَ، ويقولُ: إنَّ الدَّابَّةَ إذا لم يُحْسَنْ إليها؛ لم تعملْ.

ولعلَّ بعضَ مَن يسمعُ كلامي هٰذا يقولُ: هٰذا ميلٌ على الزُّهَّادِ!

فأقولُ: كنْ مع العلماءِ، وانظرْ إلى طريقِ الحسنِ وسفيانَ ومالكٍ وأبي حنيفةَ وأحمدَ والشافعيِّ، وهٰؤلاءِ أصولُ الإسلام، ولا تُقَلِّدْ دينَك مَن قلَّ علمُه؛ وإن قَوِيَ زُهْدُه، واحملْ أمْرَه على أنه كانَ يُطيقُ هٰذا، ولا تقتدِ بهم فيما لا تُطيقُه؛ فليسَ أمرُنا إلينا، والنفسُ وديعةٌ عندَنا.

فإن أنكرتَ ما شرحتُه؛ فأنتَ مُلْحَقٌ بالقوم الذين[٤] أنكرتُ عليهِم.

هٰذا رمزٌ إلى المقصودِ، والشرحُ يطولُ.

---

(١) جزء من حديث أبي بكر الطويل في هجرته ﷺ، وقد تقدم تخريجه في (فصل ١٩).

(٢) تقدم تخريجه في (فصل ١٩).

(٣) رواه البخاري (٧٤ ـ كتاب الأشربة، ٢٠ ـ باب الكرع من الحوض، ١٠ / ٨٨ / ٥٦٢١)؛ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٤) في الأصول: «الذي»! والتصويب من بعض المطبوعات.

١٥٤ـ فصل
[في اتباع محكمات الأمور وترك ما تشابه منها]

الواجبُ على العاقل أنْ يَتَّبِعَ الدَّليلَ، ثم لا يَنْظُرُ فيما يَجْني من مكروهٍ[١].

مثالُه: أنَّه قد ثَبَتَ بالدليل القاطع حكمةُ الخالق عزَّ وجلَّ ومُلْكُه وتدبيرُه؛ فإذا رأى الإنسانُ عالمًا محرومًا وجاهلاً مرزوقًا؛ أوجَبَ عليه الدليلُ المثبتُ حكمةَ الخالق التسليمَ إليه ونسبةَ العَجْزِ عن معرفةِ الحكمةِ إلى نفسِه؛ فإنَّ أقوامًا لم يَفْعَلوا ذلك جهلاً منهم! أفَتَراهم بماذا حَكَمُوا بفسادِ هذا التدبير؟! أليس بمقتضى عقولِهِم؟! أوَما عقولُهم من جملةِ مواهبِهِ؟! فكيفَ يُحْكَمُ على حِكمتِهِ وتدبيرِهِ ببعضِ مخلوقاتِهِ التي هي بالإضافةِ إليه أنقصُ من كلِّ شيءٍ؟!

ولقد بَلَغَني عن اللعين ابنِ الرَّاوَنْدِيِّ[٢] أنَّه كانَ جالسًا على الجسرِ، وفي يَدِهِ رغيفٌ يأكُلُه، فجازَتْ خيلٌ وأموالٌ، فقالَ: لِمَن هذه؟ فقيلَ: لفلانٍ الخادمِ. ثم جازَتْ خيلٌ وأموالٌ، فقالَ: لِمَنْ هذه؟ فقيلَ: لفلانٍ الخادمِ.

---

(١) في بعض المطبوعات: «ثم لا ينظر فيما لا يجني من مكروه»، وما أثبته أشبه، والعبارة غامضة جدًّا على كل حال، وقد وضحتها بعض الشيء عبارة شبيهة بها ستأتي في الصفحة التالية وعبارة أخرى ستأتي في آخر الفصل، ويبدو أن المعنى: على الإنسان أن يتبع الدليل العام القاطع ولا ينظر إلى الوقائع الجزئية المخالفة للقواعد العامة.

(٢) أحمد بن يحيى، الزنديق، الشهير، كان أولاً من متكلمي المعتزلة، ثم تزندق واشتهر بالإلحاد، وألف كتبًا في الطعن على الشريعة، مات سنة ٢٩٨هـ. انظر ترجمته في: «وفيات الأعيان» (١ / ٢٧)، «لسان الميزان» (١ / ٣٥٦).

فلمّا مَرَّ الخادمُ؛ رأى شَخْصًا مُحْتَقَرًا، فرمى الرغيفَ إلى ناحيتِه، وقالَ: وهٰذا لفلانٍ! ما هٰذه القسمةُ؟!

ولو فَكَّرَ المعترضُ؛ لبانتْ له وجوهٌ، أقلُّها: جهلُه بمَن يدَّعي معرفتَه وقلةُ تعظيمِهِ له، وذٰلك يوجِبُ عليه أشدَّ مما كانَ فيه من تضييقِ العيشِ، ولٰكنَّه ميراثُ إبليسَ؛ حيثُ اعتقدَ سوءَ التَّدْبيرِ في تفضيل آدمَ عليه السلام[1].

فالعَجَبُ من تلميذٍ يتعالَمُ على أستاذِهِ، ومن مملوكٍ يَتيهُ على سيِّدِهِ!

ومما ينبغي أن يُتَّبَعَ فيه الدليلُ، ولا يُلْتَفَتَ إلى ما جنتِ الحالُ: أنَّ العلم أشرفُ مُكْتَسَبٍ.

وقد رأى جماعةٌ من الجهلةِ قلَّةَ حظوظِ العلماءِ من الدُّنيا، فأَزْرَوا على العلم، وقالوا: لا فائدةَ فيه! وذٰلك لجهلِهم بمقدارِ العلم؛ فإنَّ تابعَ الدليل لا يبالي ما جنى، وإنما يَبِينُ الاختبارُ بفقدِ الغَرَضِ.

ولو لم يكنْ من الدَّليل على صِدْقِ نبيِّنا ﷺ إلَّا إعراضُهُ عن الدُّنيا وتضييقُ العيشِ عليه، ثم لم يُخَلِّفْ شيئًا، وحَرَمَ أهلَه الميراثَ؛ لَكَفاهُ ذٰلك دليلًا على صدقِ طلبِهِ لمطلوبٍ آخرَ.

وربَّما رأى الجاهلُ قومًا من العلماءِ يفعلونَ خطيئةً، فيُزْري على العلمِ ويدَّعيهِ ناقصًا، وهٰذا غلطٌ كبيرٌ.

فَلْيَتَّقِ اللهَ العاقلُ، وليعملْ بمقتضى العقل فيما يأمُرُ به من طاعةِ اللهِ

---

(١) وذٰلك عندما عارض أمر الله تعالى وامتنع عن السجود لآدم وقال: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ [ص: ٧٦].

تعالى والعمل بالعلم، وليعلمْ أنَّ الابتلاءَ في الصبر على فواتِ المطلوباتِ، وليلزمِ اتباعَ الدَّليلِ ؛ وإن جنى مكروهًا.

واللهُ الموفِّقُ.

١٥٥ ـ فصل

[للصبر عن معاصي الله عواقب حميدة في الدنيا والآخرة]

قرأتُ سورةَ يوسفَ عليهِ السلامُ، فتعجَّبْتُ من مدحهِ عليهِ السلامُ على صبرِهِ، وشرح قصَّتِهِ للناسِ ، ورفع قَدْرِهِ بتَرْكِ ما تَرَكَ.

فتأمَّلْتُ خَبيئَةَ الأمرِ؛ فإذا هي مخالفةٌ للهوى المكروهِ.

فقلتُ : وا عجبًا! لو وافَقَ هَواهُ؛ مَن كانَ يكونُ؟! ولمَّا خالفَهُ؛ لقد صار أمرًا عظيمًا؛ تُضْرَبُ الأمثالُ بصبرِهِ، ويَفْتَخِرُ على الخَلْقِ باجتهادِهِ، وكلُّ ذلك قد كانَ بصبرِ ساعةٍ؛ فَيا له عزًّا وفخرًا أن تَمْلِكَ نفسَكَ ساعةَ الصبرِ عن المحبوبِ وهو قريبٌ!

وبالعكسِ منه حالةُ آدمَ في موافقتهِ هَواه، لقد عادتْ نقيصةً في حقِّه أبدًا، لولا التَّدارُكِ. . . ﴿فَتابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧](١)!

فتلمَّحوا ـ رَحِمَكُم الله ـ عاقبةَ الصبرِ ونهايةَ الهوى! فالعاقلُ مَن مَيَّزَ

(١) ما أكثر ما يعيد المصنف رحمه الله مثل هذا الكلام في حق آدم عليه الصلاة والسلام! وما ينبغي له! وآدم عليه السلام أبو البشر، وأول الأنبياء؛ خلقه الله بيديه، وأسجد له ملائكته؛ أفيليق أن يغمز باتباع الهوى؟! أما نهانا النبي ﷺ عن التفضيل بين الأنبياء؟! أما نهانا عن تفضيله على يونس بن متى؟! أما قال ﷺ: «فحج آدم موسى، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى»؟!

بين الأمـرينِ؛ الحلوينِ والمرَّيْن؛ فإنَّ مَن عَدَلَ ميزانُه، ولم تَمِلْ به كِفَّةُ الهوى؛ رأى كُلَّ الأرباحِ في الصَّبْرِ، وكلَّ الخِسْرانِ في موافقةِ النفسِ.

وكفى بهٰذا موعظةً في مخالفة الهوى لأهل النُّهى.

واللهُ الموفقُ.

١٥٦ ـ فـصـل

[فيما يعين على إصلاح القلوب]

رأيتُ الاشتغـالَ بالفقهِ وسماعِ الحديثِ لا يكادُ يكفي في صلاحِ القلبِ؛ إلَّا أنْ يُمْزَجَ بالرقائِق والنظرِ في سِيَرِ السلفِ الصالحينَ، فأما مجرَّدُ العلم بالحلال؛ فليس له كبير عمل في رقة القلب، وإنما ترقُّ القلوب بذكر رقـائق الأحاديث وأخبار السَّلف الصالحين؛ لأنَّهم تناولوا مقصودَ النقل، وخَرَجوا عن صُورِ الأفعال المأمورِ بها إلى ذَوْقِ معانيها والمرادِ بها.

وما أخبرتُك بهٰذا إلَّا بعد معالجةٍ وذوقٍ. . .

لأني وجدتُ جمهورَ المحدثينَ وطلابَ الحديثِ هِمَّةُ أحدِهِم في الحديثِ العالي وتَكْثيرِ الأجزاءِ. . . وجمهورَ الفقهاءِ في علوم الجَدَلِ وما يُغالَبُ به الخصمُ. . . وكيفَ يَرِقُّ القلبُ مع هٰذه الأشياءِ؟!

وقد كانَ جماعةٌ من السَّلَفِ يقصِدونَ العبدَ الصالح للنَّظَرِ إلى سَمْتِهِ وَهَدْيِهِ لا لاقتباسِ علمِهِ، وذٰلك أنَّ ثمرةَ علمهِ هديُه وسمتُه.

فافهمْ هٰذا، وامـزجْ طَلَبَ الفقـهِ والحـديثِ بمـطالعةِ سِيَرِ السَّلَفِ والزُّهَّادِ في الدُّنيا؛ ليكونَ سببًا لِرِقَّةِ قلبكَ.

وقد جمعتُ لكلِّ واحدٍ من مشاهير الأخيارِ كتابًا فيه أخبارُهُ وآدابُهُ؛ فجمعتُ كتابًا في أخبارِ الحسنِ، وكتابًا في أخبارِ سفيانَ الثوريِّ، وإبراهيمَ بنِ أدْهَمَ، وبشرٍ الحافي، وأحمدَ بنِ حنبلٍ، ومعروفٍ، وغيرِهم من العلماء والزُّهَّادِ[1]. واللهُ الموفقُ للمقصودِ.

ولا يَصْلُحُ العملُ مع قِلَّةِ العلمِ؛ فَهُما في ضَرْبِ المَثَلِ كسائقٍ وقائدٍ، والنفسُ بينهما حَرونٌ[2]، ومع جِدِّ السائقِ والقائدِ ينقطعُ المنزلُ، ونعوذُ باللهِ من الفُتورِ.

١٥٧ـ فصل

[تتبع الرخص يورث قسوة في القلب وظلمة]

ترخَّصْتُ في شيءٍ يجوزُ في بعضِ المذاهبِ، فوجدتُ في قَلْبي قسوةً عظيمةً، وتَخايَلَ لي نوعُ طَرْدٍ عن البابِ وبُعْدٌ وظُلمةٌ تكاثفتْ.

فقالتْ نفسي: ما هٰذا؟! أليسَ ما خرجتَ عن إجماعِ الفقهاءِ؟!

فقلتُ لها: يا نفسَ السَّوْءِ! جوابُكِ من وجهينِ:

أحدُهما: أنكِ تأوَّلْتِ ما لا تعتقدينَ؛ فلو استُفْتِيْتِ؛ لم تُفْتِ بما فعلْتِ. قالتْ: لو لم أعتقدْ جوازَ ذٰلك؛ ما فعلتُهُ. قلتُ: إلَّا أنَّ اعتقادَكِ ما تَرْضَيْنَهُ لغيرِك في الفتوى.

والثاني: أنه يَنْبَغي لكِ الفرحُ بما وَجَدْتِ من الظُّلمةِ عَقِيبَ ذٰلك؛

---

(١) وقد تقدمت تراجمهم جميعاً في فصول سابقة.

(٢) حرون: صعبة الانقياد.

لأنَّهُ لولا نورٌ في قلبِكِ؛ ما أثَّرَ مِثْلُ هٰذا عندكِ.

قالتْ: فلقدِ استوحشتُ بهٰذه الظُّلمةِ المتجددةِ في القلبِ.

قلتُ: فاعزمي على التَّرْكِ، وقَدِّري ما تركتِ جائزًا بالإجماع، وعُدِّي هَجْرَهُ وَرَعًا، وقد سلمتِ.

١٥٨ ـ فصل

[لا تظاهر بالعداوة أحداً؛ فإنك لا تأمن تقلبات الأيام]

مما أفادَتْني تجاربُ الزمانِ أنه لا ينبغي لأحدٍ أنْ يُظاهِرَ بالعداوةِ أحدًا ما استطاعَ؛ فإنَّه ربَّما يحتاجُ إليهِ، مهما كانتْ منزلتُهُ.

وإنَّ الإنسانَ ربَّما لا يَظُنُّ الحاجةَ إلى مثلِه يومًا ما؛ كما لا يحتاجُ إلى عُوَيْدٍ مَنْبوذٍ لا يُلْتَفَتُ إليهِ. لٰكنْ؛ كم من مُحْتَقَرٍ احتيجَ إليه! فإذا لم تقع الحاجةُ إلى ذٰلك الشخصِ في جَلْبِ نَفْعٍ؛ وقعتِ الحاجةُ في دَفْعِ ضُرٍّ.

ولقدِ احْتَجْتُ في عُمُري إلى ملاطفةِ أقوامٍ ما خَطَرَ لي قطُّ وقوعُ الحاجةِ إلى التلطُّفِ بهم.

واعلَمْ أنَّ المظاهرةَ بالعداوةِ قد تَجْلِبُ أذىً من حيثُ لا يعلمُ؛ لأنَّ المُظاهِرَ بالعداوةِ كشاهِرِ السيفِ يَنْتَظِرُ مَضْرِبًا، وقد يَلوحُ منه مَضْرِبٌ خَفِيٌّ، وإنِ اجتهدَ المتدرِّعُ في سَتْرِ نفسه، فيغتَنِمُهُ ذٰلك العدوُّ.

فَيَنْبَغي لمَن عاشَ في الدُّنيا أنْ يَجْتَهِدَ في أنْ لا يُظاهِرَ بالعداوةِ أحدًا؛ لما بَيَّنْتُ من وقوعِ احتياجِ الخَلْقِ بعضِهم إلى بعضٍ وإقدارِ بعضِهم على ضَرَرِ بعضٍ.

وهٰذا فصلٌ مفيدٌ، تَبِينُ فائدتُه للإنسانِ مع تقلُّبِ الزَّمانِ.

١٥٩ ـ فصل

[لذات الدنيا مشوبة بالآفات والمنغصات]

رأيتُ النفسَ تَنْظُرُ إلى لَذَّاتِ أربابِ الدُّنيا العاجلةِ، وتنسى كيفَ حُصِّلَتْ وما يَتَضَمَّنُها من الآفاتِ، وبيان هٰذا:

أنَّك إنْ رأيتَ صاحبَ إمارةٍ وسلطنةٍ، فتأمَّلْتَ نعمتَه؛ وَجَدْتَها مشوبةً بالظلم: فإنْ لم يَقْصِدْه هو؛ حَصَلَ مِن عُمَّالِهِ. ثم هو خائفٌ، منزعِجٌ في كلِّ أمورِهِ، حَذِرٌ من عَدُوٍّ أنْ يَسُمَّهُ، قَلِقٌ ممَّنْ هُو فوقه أنْ يَعْزِلَهُ، ومِن نظيرِهِ أنْ يَكيدَهُ. ثم أكثرُ زمانِه يمضي في خدمةِ مَن يخافهُ مِن السلاطينِ، وفي حسابِ أموالهم، وتنفيذِ أوامرهم، التي لا تَخْلو مِن أشياءَ منكَرةٍ. وإن عُزِلَ؛ أَرْبى ذٰلك على جميع ما نالَ مِن لَذَّةٍ[1]. ثم تلكَ اللَّذَّةُ تكونُ مغمورةً بالحَذَرِ فيها ومنها وعليها.

وإن رأيتَ صاحبَ تجارةٍ؛ رأيتَهُ قدْ تَقَطَّعَ في البلادِ، فلم ينلْ ما نالَ إلَّا بعدَ عُلُوِّ السِّنِّ، وذَهابِ زمانِ اللَّذَّةِ؛ كما حُكي أنَّ رجلاً من الرؤساءِ كان حالَ شَبيبتهِ فقيرًا، فلما كَبِرَ؛ اسْتَغْنى، ومَلَكَ أموالاً، واشترى عبيدًا من التُّرْكِ وغيرِهم، وجوارِيَ من الرُّوم، فقالَ هٰذه الأبياتَ في شرح حالهِ:

ما كُنْتُ أرْجوهُ إذْ كُنْتُ ابنَ عِشْرينَ ... مَلَكْتُـهُ بعـدَ أنْ جاوَزْتُ سَبْعينا

تَطوفُ بي مِنَ الأتْـراكِ أغْـزِلَـةٌ ... مِثْلُ الغُصونِ على كُثْبانِ يَبْرِينا

---

(١) أربى: زاد، والمعنى: أن حسرة العزل وألمه تفوق جميع لذات المنصب.

وخُـرَّدٌ[١] مِن بنـاتِ الـرُّوم رائعـةٌ يَحْكينَ بالحُسْنِ حُورَ الجَنَّةِ العِيْنا
يَغْـمِـزْنَـني بأسـارِيعَ[٢] مُنْعَمَـةٍ تكـادُ تُعْقَـدُ مِن أطْـرافِهـا لِيْنـا
يُرِدْنَ إحـياءَ مَيْتٍ لا حَراكَ بهِ وَكَيْفَ يُحْيينَ مَيْتًـا صارَ مَدْفـونـا
قالـوا أنينُـكَ طولَ الليلِ يُسْهِـرُنـا فمـا الـذي تَشْتَكي قُلْتُ الثَّمـانينا

وهٰذه الحالةُ هي الغالبةُ ؛ فإنَّ الإنسانَ لا يكادُ يَجْتَمِعُ له كلُّ ما يُحِبُّهُ إلَّا عند قُرْبِ رحيلِه ؛ فإنْ بَدَرَ ما يُحِبُّ في بدايةِ شبابِهِ ؛ فالصَّبْوَةُ مانعةٌ مِن فَهْمِ التَّدْبيرِ أو حُسْنِ الالتذاذِ .

والإنسانُ في حالةِ الصَّبْوَةِ لا يَدْري أينَ هو ؛ إلَّا أنْ يَبْلُغَ : فإذا بَلَغَ ؛ كانتْ هِمَّتُهُ في المنكـوح كيفما اتَّفَقَ . وإنْ تَزَوَّجَ ؛ جاءَ الأولادُ ، فَمَنعوهُ اللَّذَّةَ ، وانْكَسَرَ في نفسِهِ ، وافْتَقَرَ إلى الكَسْبِ عليهم . فبينما هُو قد دَعَكَ[٣] في تلكَ المُدَيْدَةِ القريبةِ من الثلاثينَ ؛ وَخَطَهُ الشيبُ[٤] ، فانْفَرَقَ من نفسِه ؛ لعلمِه أنَّ النساءَ يَنْفَرِقْنَ منهُ ؛ كما قال ابنُ المعتزِّ باللهِ :

لَقَـدْ أتْـعَبْـتُ نَفْسي في مَشِيبي فَكَـيْـفَ تُحِبُّني الغِيْدُ الكَعـابُ[٥]

وهٰكذا ؛ لا تَرى المُتَمَتِّعَ بالمُسْتَحْسَناتِ : إنْ وَجَدَهُنَّ ، ولم يجدْ مالاً

(١) خُرَّد : جمع خريدة ، وهي البكر التي لم تمسس ، والمرأة الحيية الطويلة السكوت الخافضة الصوت .

(٢) الأساريع : جمع أسروع ، وهو عصبة في يد الظبي ، وقصد به هنا الأصابع .

(٣) دَعَكَ : تمرَّس .

(٤) وخطه الشيب : فشا في رأسه .

(٥) الغيد : جمع غيداء ، وهي المرأة المتثنية اللينة . الكعاب : جمع كاعب ، وهي الشابة الصغيرة السن التي بدا ثدياها .

يَبْلُغْ به المرادَ، وإنِ اشتغلَ بجمعِ المالِ؛ ضاعَ زمنُ تمتُّعه، وإذا تَمَّ المطلوبُ؛ فالشيبُ أقبحُ قذىً وأعظمُ مُبْغَضٍ.

ثم إنَّ صاحبَ المالِ خائفٌ على مالِه، محاسِبٌ لِمُعامليهِ، مذمومٌ إنْ أسْرَفَ وإنْ قَتَّرَ، ولدُهُ يَرْصُدُ موتَه، وجاريتُه قد لا تَرْضى بشخصِهِ، وهو مشغولٌ بحفظِ حَواشيهِ[1]؛ فقدْ مضى زمانُهُ في محنٍ، واللَّذَّاتُ فيها خِلَسٌ[2] مُعتادةٌ لا لَذَّةَ فيها.

ثم في القيامةِ يُحْشَرُ الأميرُ والتاجرُ خَزايا إلَّا مَن عَصَمَ اللهُ.

فإيَّاكَ إيَّاكَ أنْ تَنْظُرَ إلى صورةِ نعيمِهم؛ فإنَّك تَسْتَطيبُهُ لبُعْدِهِ عنكَ، ولو قدْ بَلَغْتَهُ؛ كرِهْتَه، ثم في ضِمنهِ من مِحَنِ الدُّنيا والآخرةِ ما لا يُوصَفُ؛ فعليك بالقناعةِ مهما أمكنَ؛ ففيها سلامةُ الدُّنيا والدينِ.

وقد قيلَ لبعضِ الزُّهَّادِ وعندَه خبزٌ يابسٌ: كيفَ تَشْتَهي هٰذا؟ فقالَ: أتركُهُ حتَّى أشتهيهِ.

١٦٠ ـ فصل
[مناجاة]

وَقَعَ بيني وبين أربابِ الولاياتِ نوعُ معاداةٍ لأجلِ المَذْهَبِ؛ فإني كنتُ في مجلسِ التَّذْكيرِ أنصُرُ[3]: أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ، وأنَّهُ قديمٌ، وأقدِّمُ أبا بكرٍ، واتَّفَقَ في أربابِ الولاياتِ من يميلُ إلى مذهبِ الأشعريِّ، وفيهم

(١) حواشي الرجل: أهله وخاصته وناحيته وظله ونفسه.

(٢) يعني: أن اللذات لحظات قصيرة تختلس وتستلب من أيام المحن والمصاعب.

(٣) في الأصول: «أنظر»، والتصويب من بعض المطبوعات.

مَن يميلُ إلى مذهبِ الروافضِ ، وتَمالؤوا عليَّ في الباطنِ .

فقلتُ يومًا في مناجاتي للحقِّ سبحانَه وتعالى : سيِّدي ! نَواصي الكلِّ بيدِكَ ، وما فيهم مَن يَقْدِرُ لي على ضُرٍّ؛ إلَّا أن تُجْرِيَهُ على يدِه . وأنت قلتَ سبحانَك : ﴿وما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] . وطَيَّبْتَ قلبَ المُبْتَلَى بقولِكَ : ﴿قُلْ لَنْ يُصيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللهُ لَنا﴾ [التوبة : ٥١] .

فإنْ أجريتَ على أيدي بعضِهِم ما يوجِبُ خِذْلاني ؛ كانَ خوفي على ما نَصَرْتَه أكثرَ مِن خَوْفي على نفسي ؛ لئلَّا يُقالَ : لو كانَ على حَقٍّ ما خُذِلَ .

وإنْ نظرتُ إلى تقصيري وذُنوبي ؛ فإنِّي مُسْتَحِقٌّ للخِذْلانِ ؛ غير أني أعيشُ بما نصرتُهُ من السُّنَّةِ ، فأَدْخِلْني في خُفارته(١) .

وقدِ اسْتَوْدَعَني إيَّاكَ خَلْقٌ من صالِحي عبادِكَ ؛ فإنْ لم تَحْفَظْني بي ؛ فاحْفَظْني بِهِم .

سَيِّدي ! انْصُرْني على مَن عاداني ؛ فإنَّهم لا يَعْرِفونَكَ كما يَنْبَغي ، وهم مُعْرِضونَ عنكَ على كلِّ حالٍ ، وأنا على تَقْصيري إليكَ أنْسَبُ .

١٦١ ــ فصل

[السعيد من ذل وسأل الله العافية]

رُوِيَ عن الحلَّاج الصُّوفيِّ(٢) أنَّه كانَ يَقْعُدُ في الشمس في الحرِّ

---

(١) خُفارته : ذمته ، والمصنف رحمه الله يتوسل بعمله الصالح هٰذا إلى الله عز وجل ليحفظه ، وقد عاب في (فصل ٧٠) على أصحاب الغار ذلك ! !

(٢) هو الحسين بن منصور الصوفي الباطني الذي تبرأ منه أهل العلم والصوفية وسائر =

الشديدِ، وعرقُهُ يسيلُ، فجاز به بعضُ العقلاءِ، فقالَ له: يا أحمقُ! هٰذا تقاوٍ على اللهِ تعالى[1].

وما أحسنَ ما قالَ هٰذا! فإنَّه ما وَضَعَ التَّكْليفَ إلَّا على خلافِ الأغراضِ، وقد يُخْرَجُ صاحِبُه إلى أنْ يَعْجِزَ عن الصَّبْرِ.

فالجاهلُ الأحمقُ مَن تقاوى، أو مَن يسألُ البلاءَ؛ كما قالَ ذٰلك الأبلهُ: فكيفما شئتَ؛ فاخْتَبِرْني[2]!!

والسعيدُ من ذَلَّ للهِ وسألَ العافيةَ؛ فإنَّه لا يُوهَبُ العافيةُ على الإطلاقِ؛ إذ لا بدَّ من بلاءٍ، ولا يزالُ العاقلُ يسألُ العافيةَ؛ لِتَغْلِبَ على جمهورِ أحوالِه، فيَقْرُبَ الصَّبْرُ على يسيرِ البلاءِ.

وفي الجملةِ؛ ينبغي للإنسانِ أنْ يعلمَ أنَّه لا سبيلَ إلى محبوباتِه خالصةً؛ ففي كلِّ جُرْعَةٍ غُصَصٌ، وفي كلِّ لُقمةٍ شجىً[3]:

وَكَمْ مَنْ يَعْشَقُ الدُّنْيا قَديمًا ... ولٰكِنْ لا سبيلَ إلى الوِصالِ

وعلى الحقيقةِ؛ ما الصبرُ إلَّا على الأقدارِ، وقلَّ أنْ تَجْرِيَ الأقدارُ إلَّا على خلافِ مُرادِ النَّفْسِ.

= أشياخ عصره لمروقه وزندقته وسوء سيرته وسلوكه وضلال عقيدته. صلبه المقتدر العباسي سنة ٣٠٩هـ. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٨ / ١١٢)، «وفيات الأعيان» (٢ / ١٤٠).

(١) يعني: مغالبة له جل وعلا. وانظر الخبر في «سير أعلام النبلاء» (١٤ / ٣١٧).

(٢) أفردت الفقرات التالية في الأصول تحت عنوان فصل جديد! ولا محل له؛ فالكلام تابع لما قبله، ولذلك حذفناه؛ كما في بعض المطبوعات.

(٣) الشجى: ما اعترض الحلق من عظم وغيره مما يؤلم.

فالعاقلُ مَن دارى نفسَه في الصبرِ بوَعْدِ الأجرِ وتسهيلِ الأمرِ؛ ليذهبَ زمانُ البلاءِ سالمًا مِنْ شَكْوى، ثم يستغيثُ باللهِ تعالى سائلًا العافيةَ.

فأما المُتَجَلِّدُ[1]؛ فما عَرَفَ اللهَ قطُّ.

نعوذُ باللهِ من الجهلِ بهِ، ونسألهُ عِرْفانَهُ؛ إنه كريمٌ مجيبٌ.

١٦٢ ـ فصل

[في انحرافات الصوفية وبدعهم]

الجادةُ السليمةُ والطريقُ القويمةُ: الاقتداءُ بصاحبِ الشَّرْعِ، والبِدارُ إلى الاستنانِ به؛ فهو الكاملُ الذي لا نقصَ فيه.

فإنَّ خَلْقًا كثيرًا انْحَرَفوا إلى جادةِ الزُّهْدِ، وحَمَّلوا أنفسَهم فوقَ الجُهْدِ، فأفاقوا في أواخرِ العُمُرِ؛ والبدنُ قد نُهِكَ، وفاتتْ أمورٌ مهمَّةٌ من العلم وغيرِه.

وإنَّ أقوامًا انْحَرَفوا إلى صورةِ العلم؛ فبالَغوا في طلبِهِ، فأفاقوا في أواخرِ قَدَمٍ[2]؛ وقد فاتَهُمُ العملُ به.

فطريقُ المصطفى ﷺ العلمُ والعملُ والتلطُّفُ بالبدنِ؛ كما أوصى عبدَ الله بن عمرِو بنِ العاصِ، وقالَ له: «إنَّ لِنَفْسِكَ عليكَ حقًّا، وَلِزَوْجِكَ

(١) المتجلد: الذي يظهر الجلادة والصبر والتحمل لا الخوف واللجأ إلى الله سبحانه وتعالى لكشف الكرب.

(٢) القدم: السابقة من العمر، والمعنى: أفاقوا وقد مضى العمر، وفي بعض المطبوعات: «فأفاقوا في أواخر العمر»، والمعنى واحد.

عليكَ حَقًّا»(١).

فهٰذه هي الطريقُ الوُسْطى والقولُ الفَصْلُ؛ فأمّا اليُبْسُ المجرَّدُ؛ فكم فَوَّتَ من علم، لو حَصَلَ؛ نِيلَ به أكثرُ مما نيلَ بالعمل؛ فإنَّ مَثَلَ العالم كرجلٍ يَعْرِفُ الطريقَ، والعابدُ جاهلٌ بها، فَيَمْشي العابدُ مِن الفجرِ إلى العصرِ، ويقومُ العالمُ قُبَيْلَ العصرِ، فيلتقيانِ؛ وقد سَبَقَ العالمُ فَضْلَ شَوْطِهِ.

فإنْ قالَ قائلٌ: بَيِّنْ لي هٰذا!

قلتُ: صورةُ التعبُّدِ خدمةٌ للهِ تعالى وذُلٌّ له، وربَّما لم يَطَّلع العابدُ على معنى تلكَ الصُّورةِ؛ لأنه ربما ظَنَّ أنه أهلٌ لوجودِ الكرامةِ على يدهِ، وأنه مستحقٌّ تقبيلَ يدِهِ، أو أنه خيرٌ من كثيرٍ من الناسِ، وذٰلك كلُّه لقلةِ العلم. وأعني بالعلم: فَهْمَ أصول العلم، لا كَثْرَةَ الروايةِ ومطالعةِ مسائلِ الخلافِ.

فإذا طالَعَ العالِمُ الأصوليُّ؛ سَبَقَ هٰذا العابدَ بِحُسْنِ خُلُقٍ، ومُداراةِ الناسِ، وتواضعِهِ في نفسِهِ، وإرشادِهِ الخَلْقَ إلى الله تعالى، فيَعْسُرُ هٰذا على العابدِ وهو في ليل جَهْلِهِ بالحالِ راقدٌ.

ربما تزوَّجَ العابدُ، ثم حَمَلَ نفسَه على التجفُّفِ، فحَبَسَ زوجَته عن مطلوبها، ولم يطلِّقْها، وصار كالتي حبستِ الهرةَ؛ فلا هي أطْعَمَتْها، ولا هي أرسلتْها تأكُلُ من خَشاشِ الأرضِ(٢).

(١) تقدم تخريجه في (فصل ١٩).

(٢) روى: البخاري (٥٩ ـ كتاب بدء الخلق، ١٦ ـ باب إذا وقع الذباب في إناء أحدكم، ٦ / ٣٥٦ / ٣٣١٨)، ومسلم (٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب، ٣٧ ـ باب تحريم =

ومن تأمَّلَ حالةَ الرسول ﷺ؛ رأى كاملاً مِن الخَلْقِ، يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ: فتارةً يمزحُ[1]، وتارةً يضحكُ[2]، ويداعِبُ الأطفالَ[3]، ويَسْمَعُ الشِّعْرَ[4]، ويتكلَّمُ بالمعاريضِ[5]، ويُحْسِنُ معاشرةَ النساءِ[6]، ويأكلُ ما قَدَرَ عليهِ وأُتيحَ له وإنْ كان لَذيذًا كالعسلِ[7]، ويُسْتَعْذَبُ له الماءُ[7]، ويُفْرَشُ له في الظِّلِّ[7]. . . ولم يُنْكِرْ ذٰلك، ولم يُسْمَعْ عنه بمثلِ ما حَدَثَ بعدَه من جُهَّالِ المُتَصَوِّفَةِ والمتزهِّدينَ مِن مَنْعِ النفسِ شهواتِها على الإطلاقِ؛ فقدْ

= تعذيب الهرة ونحوها من الحيوان، ٤ / ٢٠٢٢ / ٢٢٤٢)؛ عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض».

(١) تقدمت الإشارة إلى مزاح النبي ﷺ، وأنه كان لا يقول إلا صدقًا، وتخريج هٰذا كله في (فصل ٩٦).

(٢) والأحاديث في هٰذا كثيرة مشهورة لا حاجة للإطالة بذكرها وتخريجها، وكان جل ضحكه ﷺ التبسم.

(٣) كما ثبت عنه ﷺ في مناسبات كثيرة مداعبة الحسن والحسين رضي الله عنهما، وقد تقدم حديث: «يا أبا عمير! ما فعل النغير؟» وتخريجه في (فصل ٤١).

(٤) روى مسلم (٤١ ـ كتاب الشعر، ٤ / ١٧٦٧ / ٢٢٥٥)؛ من حديث الشريد بن سويد الثقفي؛ قال: ردفت رسول الله ﷺ يومًا، فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيئًا؟». قلت: نعم. قال: «هيه». فأنشدته بيتًا. فقال: «هيه». ثم أنشدته بيتًا. فقال: «هيه». حتى أنشدته مئة بيت.

(٥) والأحاديث في هٰذا أيضًا كثيرة، وقد أفرد البخاري في (٧٨ ـ كتاب الأدب) من صحيحه بابًا بعنوان (١١٦ ـ باب المعاريض مندوحة عن الكذب)، وأخرج فيه عدة أحاديث ـ وبعضها متفق عليه ـ في معاريضه ﷺ.

(٦) بل كان ﷺ خير من عاشر النساء، وقد روى الحاكم (٤ / ١٧٣) عنه ﷺ: أنه قال: «خيركم خيركم للنساء»، وصححه الحاكم والذهبي والألباني.

(٧) تقدم ذكر هٰذا وتخريجه في (فصل ١٩).

كانَ يأكلُ البطيخَ بالرُّطَبِ[١]، ويُقَبِّلُ[٢]، ويَمَصُّ اللسانَ[٣]، ويَطْلُبُ المُسْتَحْسَناتِ[٤].

فأما أكلُ خُبْزِ الشَّعيرِ، ووزنُ المأكولِ، وتجفيفُ البَدَنِ، وهَجْرُ كلِّ مشتهى؛ فإنه تعذيبٌ للنفسِ، وهدمٌ للبدنِ؛ لا يقتضيهِ عقلٌ، ولا يَمْدَحُهُ شرعٌ!

وإنما اقتنعَ أقوامٌ بالقليل لأسبابٍ؛ مثل أن حَدَثَتْ شبهةٌ فَتَقَلَّلوا، أو اختلطَ طعامٌ بطعامٍ فَتَوَرَّعوا.

---

(١) (صحيح). رواه: أبو داوود (٢١ ـ كتاب الأطعمة، ٤٤ ـ باب في الجمع بين لونين في الأكل، ٢ / ٣٩٠ / ٣٨٣٦)، والترمذي (٢٦ ـ كتاب الأطعمة، ٣٦ ـ باب ما جاء في أكل البطيخ بالرطب، ٤ / ٢٨٠ / ١٨٤٣)، والنسائي في «الكبرى» (١٢ / ١٤٨ / ١٦٩٠٨ ـ تحفة)؛ من طرق عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها.

قال الترمذي: «هٰذا حديث حسن غريب». وصححه الألباني.

(٢) للحسن والحسين ولابنته فاطمة ولزوجاته رضي الله عنهم جميعًا، صائمًا وبغير صيام، وهو معلوم ومشهور، وحسبنا فيه ما رواه: البخاري (٣٠ ـ كتاب الصوم، ٢٣ ـ باب المباشرة للصائم، ٤ / ١٤٩ / ١٩٢٧)، ومسلم (١٣ ـ كتاب الصيام، ١٢ ـ باب بيان أن القبلة في الصوم ليست محرمة، ٢ / ٧٧٦ / ١١٠٦)؛ عن عائشة: كان رسول الله ﷺ يقبل وهو صائم ويباشر وهو صائم.

(٣) (صحيح). روى أحمد (٤/٩٣): ثنا هاشم بن القاسم، عن حريز، عن عبد الرحمٰن بن أبي عوف الجرشي، عن معاوية؛ قال: رأيت رسول الله ﷺ يمص لسانه (أو: شفته)؛ يعني: الحسن بن علي.

قال الهيثمي في «المجمع» (٩ / ١٨٠): «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح؛ غير عبدالرحمٰن بن أبي عوف، وهو ثقة». ووثقه الحافظ في «التقريب»؛ فالسند صحيح.

لٰكن لم يصح عنه ﷺ شيء في مص لسان زوجاته؛ فليتنبه لهٰذا.

(٤) انظر تعليقي على هٰذا في (فصل ٨٣).

ثم كانَ النبيُّ ﷺ يُوفي العبادةَ حقَّها بقيام الليل والاجتهادِ في الذِّكْر.

فعليكَ بطريقتهِ التي هي أكملُ الطُّرُق، وبِشِرْعَتِهِ التي لا شَوْبَ فيها، وَدَعْ حديثَ فلانٍ وفلانٍ من الزُّهَّادِ، واحملْ أمْرَهم على أحسن محملٍ، وأقِمْ لهمُ الأعذارَ مهما قَدَرْتَ؛ فإنْ لم تَجِدْ عُذرًا؛ فهم محجوجون بفعلهِ؛ إذْ هو قدوةُ الخَلْقِ وسيدُ العقلاءِ؛ وهل فَسَدَ الناسُ إلَّا بالانحرافِ عن الشريعةِ؟!

ولقد حدثتْ آفاتٌ من المتصوِّفةِ والمتزهِّدينَ خَرَقوا بها شبكةَ الشريعةِ وَعَبَروا:

فمنهم مَن يَدَّعي المحبةَ والشوقَ؛ ولا يعرِفُ المحبوبَ؛ فتراهُ يصيحُ، ويستغيثُ، ويمزِّقُ ثيابَه، ويَخْرُجُ عن حدِّ الشرع بِدَعْواه ومضمونِها!!

ومنهم مَن حَمَلَ على نفسِه بالجوع والصَّوْم الدَّائم؛ وقد صَحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ لعبدِ الله بن عمرٍو: «صُمْ يَوْمًا وأفْطِرْ يومًا». فقالَ: أريدُ أفضلَ مِن ذٰلك. فقالَ: «لا أفضلَ»[1].

وفيهم مَن خَرَجَ إلى السِّياحةِ[2]، فأفاتَ نفسَهُ الجماعةَ.

وفيهم من دَفَنَ كُتُبَ العلم، وقَعَدَ يُصلِّي ويصومُ، ولم يَعْلَمْ أنَّ دَفْنَها خطأٌ قبيحٌ؛ لأنَّ النفسَ تَغْفَلُ وتحتاجُ إلى التذكيرِ في كلِّ وقتٍ، ونعمَ

(١) هٰذا جزء من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص الذي تقدم تخريجه في (فصل ١٩) بلفظ: «إن لنفسك عليك حقًّا. . .» إلخ.

(٢) بدعة ضلالة مستمدة من عقائد الهندوس والبوذيين ولا أصل لها في الإسلام.

المذكِّرُ كُتُبُ العلم.

وإنما دَخَلَ إبليسُ على كلِّ قومٍ منهم من حيثُ قَدَرَ، وكان مقصودُهُ بدفنِ الكُتُبِ إطفاءُ المصباح؛ ليسيرَ العابدُ في الظُّلْمَةِ.

وما أحسنَ ما قالَ بعضُ العلماءِ لرجلٍ سألَهُ فقالَ: أريدُ أنْ أمضِيَ إلى جبلِ الآكام؟ فقالَ: هٰذه هَوْكَلة. وهي كلمةٌ عاميَّةٌ معناها حبُّ البَطالَةِ.

وعلى الحقيقةِ؛ الزُّهَّادُ في مقام الخفافيشِ[1]، قد دَفَنوا أنفسَهم بالعُزْلَةِ عن نَفْع الناسِ، وهي حالةٌ حسنةٌ إذا لم تمنعْ من خيرٍ؛ من جماعةٍ، واتباع جنازةٍ، وعيادةِ مريضٍ... إلاَّ أنها حالةُ الجبناءِ، فأما الشجعانُ؛ فهم يتعلَّمونَ ويَعْلَمونَ، وهٰذه مقاماتُ الأنبياءِ عليهم السلامُ.

أتَرَى كم بينَ العابدِ إذا نزلتْ به حادثةٌ وبين الفقيهِ؟!

باللهِ؛ لو مالَ الخَلْقُ إلى التعبُّدِ؛ لضاعتِ الشريعةُ.

على أنه لو فَهِمَ معنى التعبُّدِ؛ لم يقتصرْ به على الصلاةِ والصوم! فَرُبَّ ماشٍ في حاجةِ مسلمٍ فَضَلَ تعبُّدُه ذٰلك على صوم سنةٍ.

والعملُ بالبدنِ سعيُ الآلاتِ الظاهرةِ، والعلمُ سَعْيُ الآلاتِ الباطنةِ من العقل والفِكْرِ والفَهْم؛ فلذٰلك كان أشرفَ.

---

(١) وهٰذا إطلاق غير حسن، والزاهد الحقيقي هو المتبع للكتاب والسنة حقًّا والراغب عن فضول الدنيا؛ كما كان حال الصحابة الكرام وكثير من التابعين، وهٰؤلاء يوصفون بخير الأوصاف، نعم؛ قد ابتدع قوم من المتصوفة زهدًا خاصًّا بهم خالفوا به الشريعة واحتجبوا به عن الخلق وجلسوا في الظلمات؛ فهٰؤلاء حري بهم أن يوصفوا بهٰذا.

فإنْ قلتَ: كيفَ تَذُمُّ المعتزلينَ للشَّرِّ، وتَنْفي عنهم التعبُّدَ؟!

قلتُ: ما أذمُّهم، بل حَدَثَتْ منهم حوادثُ اقْتَضاها الجهلُ من الدَّعاوى والآفاتِ التي سببُها قلةُ العلم، وحَمَلوا على أنفسِهم ـ التي ليستْ لهم وعن غيرِ إذنِ الآمرِ ـ ما لم يَجُزْ!

حتَّى إنَّ أحدَهم يَرَى أنَّ فعلَ ما يؤذي النفسَ على الإطلاقِ فضيلةٌ!!

وحتى قالَ بعضُ الحمقى: دخلتُ الحمَّامَ فوجدتُ غفلةً، فآليتُ أنْ لا أخرجَ حتَّى أسَبِّحَ كَذا وكَذا تسبيحةً، فطالَ الأمرُ، فمَرِضْتُ!! وهذا رجلٌ خاطر بنفسهِ في فعلِ ما ليسَ له.

ومن المتصوِّفةِ والزُّهَّادِ مَن قَنَعَ بصورةِ اللباسِ، ورَكِبَ من الجهلِ في الباطنِ ما لا يسعُهُ كتابٌ!!

طَهَّرَ اللهُ الأرضَ منهم، وأعانَ العلماءَ عليهم؛ فإنَّ أكثرَ الحمقى معهُم؛ فلو أنكرَ عالمٌ على أحدِهم؛ مالَ العوامُّ على العالم بقوةِ الجهلِ.

ولقد رأيتُ كثيرًا من المتعبِّدينَ ـ وهو في مقامِ العجائزِ ـ يسبِّحُ تسبيحاتٍ لا يجوزُ النُّطْقُ بها، ويفعلُ في صلاتِهِ ما لم تردْ به السُّنَّةُ!

ولقد دخلتُ يومًا على بعضِ مَن كانَ يَتَعَبَّدُ؛ وقد أقامَ إمامًا وهو خَلْفَهُ في جماعةٍ يصلِّي بهم صلاةَ الضُّحى ويَجْهَرُ! فقلتُ لهم: إن النبي ﷺ قال: «صلاة النهار عجماء»[1]! فَغَضِبَ ذلك الزاهدُ، وقالَ: كم يُنْكِرُ هذا

(١) (**ضعيف**). رواه ابن أبي شيبة (١ / ٣٢٠ / ٣٦٦٤ و ٣٦٦٥) موقوفًا على الحسن و أبي عبيدة رضي الله عنه.

والعجماء: التي لا تنطق، والمعنى أنها سرية لا يجهر بالقراءة فيها.

علينا! وقد دَخَلَ فلانٌ وأنْكَرَ، وفلانٌ وأنْكَرَ، نحنُ نرفعُ أصواتَنا حتَّى لا ننامَ.
فقلتُ: وا عجبًا! ومَن قالَ لكُم: لا تناموا؟! أليس في «الصحيحين» من حديثِ ابن عمرو: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ له: «قُمْ ونَمْ»[1]؟! وقد كانَ رسولُ الله ﷺ ينامُ، ولعلَّه ما مضتْ عليه ليلةٌ إلَّا ونامَ فيها!!

ولقد شاهدتُ رجلًا كانَ يُقال له حسينٌ القَزْوينيُّ بجامع المنصورِ، وهـو يمشي في الجامـع مَشْيًا كَثيرًا دائِمًا، فسألتُ: ما السببُ في هٰذا المشي؟! فقيلَ لي: حتَّى لا ينامَ!

وهٰـذه كلُّهـا حماقاتٌ أوجَبَتْها قِلَّةُ العلم؛ لأنَّه إذا لم تأخذِ النفسُ حظَّها مِن النوم؛ اخْتَلِطَ العقلُ، وفاتَ المرادُ من التعبُّدِ؛ لِبُعْدِ الفَهْم.

ولقد حدثني بعضُ الصالحينَ المجاوِرينَ بجامع المنصورِ: أنَّ رَجُلًا اسمُهُ كَثيرٌ دَخَلَ عليهم الجامعَ، فقال: إني عاهدتُ اللهَ على أمرٍ وَنَقَضْتُهُ، وقدْ جعلتُ عُقوبتي لنفسي أنْ لا آكُلَ شيئًا أربعينَ يومًا! قالَ: فَمَكَثَ منها عَشَـرَةَ أيام قريبَ الحـال، يصلِّي في جمـاعةٍ، ثم في العشرِ الثاني بانَ ضَعْفُهُ، وكان يُداري الأمرَ، ثم صارَ في العشرِ الثالثِ يُصَلِّي قاعِدًا، ثم اسْتَطْرَحَ في العشرِ الرابع، فلما تَمَّتِ الأربعونَ؛ جيءَ بنَقوع[2]، فشَرِبَهُ، فَسَمِعْنا صوتَه في حَلْقِهِ مثلما يقعُ الماءُ على المِقْلاةِ، ثم ماتَ بعدَ أيام.

فقلتُ: يا للهِ! العجبُ! انظُروا ما فعلَ الجَهْلُ بأهلِه، ظاهِرُ هٰذا أنه في النارِ؛ إلَّا أنْ يُعْفَى عنهُ، ولو فَهِمَ العلمَ وسألَ العلماءَ؛ لَعَرَّفوهُ أنه يجبُ

(١) جزء من حديث عبد الله بن عمرو المخرج في (فصل ١٩).
(٢) النقوع والنقيع: ما ينقع من تمر أو زبيب أو غيره بالماء ويصنع منه شراب.

عليهِ أنْ يأكُلَ، وأنَّ ما فَعَلَهُ بنفسهِ حرامٌ، ولٰكنْ؛ من أعظم الجَهْلِ استبدادُ الإنسانِ بِعِلْمِهِ!

وكـلُّ هٰذه الحوادثِ نشأتْ قليلاً قليلاً حتَّى تَمَكَّنَتْ، فأمّا الشَّربُ الأوَّلُ[١]؛ فلم يكنْ فيه من هٰذا شيءٌ، وما كانتِ الصحابةُ تفعلُ شيئًا مِن هٰذه الأشياءِ، وقد كانوا يُؤْثِرونَ ويأكُلونَ دونَ الشِّبَع ويصبِرونَ إذا لم يَجِدوا؛ فَمَنْ أرادَ الاقتداءَ؛ فعليه برسولِ اللهِ ﷺ وأصحابِهِ؛ ففي ذٰلك الشفاءُ والمطلوبُ.

ولا ينبغي أنْ يَخْلُدَ العاقلُ إلى تقليدِ مُعَظَّم شاعَ اسمهُ، فيقولَ: قالَ أبو يزيدَ، وقال الثوريُّ[٢] . . . فإنَّ المُقَلِّدَ أعمى[٣].

وكم قدْ رأيْنا أعمى يأنَفُ من حملِ عَصا!

فَمَنْ فَهِمَ هٰذا المشارَ إليه؛ طَلَبَ الأفضلَ والأعلى.

واللهُ الموفِّقُ.

١٦٣ـ فصل

[الفلسفة والرهبانية أصلا البدع التي ظهرت في الإسلام]

تأملتُ الدَّخَلَ[٤] الذي دَخَلَ في دينِنا من ناحيتي العلم والعملِ، فرأيتُه من طريقينِ قد تَقَدَّما هٰذا الدينَ، وأنِسَ الناسُ بِهِما:

(١) الشَّرْب الأول: الرعيل الأول من الصحابة ومن تبعهم بإحسان.

(٢) تقدمت ترجمة أبي يزيد والثوري في (فصل ١٩).

(٣) فكيف إذا ما قلد من هو مثله من جهلة المقلدة؟!

(٤) الدَّخَل: الداء والفساد، والمقصود به هنا: البدع.

فأمّا أصلُ الدَّخَل في العلم والاعتقادِ؛ فمِنَ الفَلْسَفَةِ. وهو أنَّ خَلْقًا من العلماءِ في دينِنا لم يَقْنَعوا بما قَنَعَ به رسولُ اللهِ ﷺ مِنَ الانعكافِ على الكتابِ والسُّنَّةِ، فأوْغَلوا في النظرِ في مذاهبِ أهل الفلسفةِ، وخاضُوا في الكلام الذي حَمَلَهُم على مذاهبَ رَدِيَّةٍ، أفسدوا بها العقائدَ.

وأما أصلُ الدَّخَل في بابِ العَمَلِ؛ فمِنَ الرَّهْبانِيَّةِ. فإنَّ خَلْقًا من المتزهِّدينَ أخَذوا عنِ الرُّهْبانِ طريقَ التقشُّفِ، ولم يَنْظُروا في سيرةِ نبيِّنا ﷺ وأصحابِهِ، وسَمِعُوا ذَمَّ الدُّنيا وما فَهِموا المقصودَ، فاجْتَمَعَ لهم الإعراضُ عن علم شَرْعِنا مع سوءِ الفهم للمقصودِ، فَحَدَثَتْ منهم بدعٌ قبيحةٌ.

فأولُ ما ابتدأَ به إبليسُ أنَّه أمَرَهُم بالإعراضِ عن العلم، فَدَفَنوا كُتُبَهُم وغَسَلوها، وألزمَهُم زاويةَ التعبُّدِ فيما زَعَمَ، وأظهرَ لهم مِن الخُزَعْبلاتِ[1] ما أوْجَبَ إقبالَ العوامِّ عليهم، فَجَعَلَ إلَهَهُم هواهُم، ولو عَلِموا أنَّهم منذ دَفَنوا كُتُبَهم وفارَقوا العلمَ انطفأَ مصباحُهم؛ ما فَعَلوا، لكنَّ إبليسَ كان دقيقَ المَكْرِ يومَ جَعَلَ عِلْمَهُمْ في دفينٍ تحتَ الأرضِ!

وبالعلم يُعْلَمُ فسادُ الطريقينِ ويُهْتَدَى إلى الأصوبِ.

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ لا يَحْرِمَنا إيَّاهُ؛ فإنَّهُ النورُ في الظُّلَم، والأنيسُ في الوَحْدَةِ، والوزيرُ عند الحادثةِ.

١٦٤ ـ فصل

[في صحبة البطالين]

أعوذُ باللهِ مِن صُحْبَةِ البطَّالينَ!

(١) الخزعبلات: الغرائب.

لقـد رأيتُ خَلْقًـا كثيرًا يَجْرونَ معي فيما قدِ اعتادَهُ الناسُ مِن كَثْرَةِ الـزيارةِ، ويسمُّـونَ ذٰلـك التردُّدَ خِدْمةً، ويطلُبونَ الجلوسَ، ويُجْرونَ فيهِ أحاديثَ الناسِ وما لا يَعْني وما يتخلَّلُه غِيبةً!

وهٰـذا شيءٌ يفعلهُ في زماننا كثيرٌ من الناس، وربَّما طَلَبَهُ المَزورُ، وتشوَّقَ إليهِ، واستوحشَ من الوَحْدَةِ، وخُصوصًا في أيام التهاني والأعيادِ، فَتَراهم يَمْشي بعضُهم إلى بعضٍ، ولا يَقْتَصِرونَ على الهناءِ والسلام، بل يَمْزُجونَ ذٰلك بما ذكرتُهُ من تَضْييع الزَّمانِ.

فلما رأيتُ أنَّ الزمانَ أشرفُ شيءٍ، والواجبُ انتهابه بفعل الخَيْرِ؛ كرهتُ ذٰلك، وبقيتُ معهم بينَ أمرينِ: إنْ أنكرتُ عليهم؛ وَقَعَتْ وَحْشَةٌ؛ لموضع قَطْع المألوفِ! وإن تقبَّلْته منهم؛ ضاعَ الزمانُ!

فصـرتُ أدافـعُ اللقـاءَ جَهْدي؛ فإذا غُلِبْتُ؛ قَصَرْتُ في الكلام؛ لأتعجَّلَ الفراقَ.

ثم أعددتُ أعمالًا تمنعُ مِن المحادثةِ لأوقاتِ لقائِهم؛ لئلَّا يمضيَ الـزمـانُ فارغًـا، فجعلتُ من المُسْتَعَـدِّ للقـائهم: قطعَ الكاغَدِ[1]، وبَرْيَ الأقلام، وحَزْمَ الدفاترِ؛ فإنَّ هٰذه الأشياء لا بدَّ منها، ولا تحتاجُ إلى فِكْرٍ وحضورِ قلبٍ، فأرصدتُها لأوقاتِ زيارتِهم؛ لئلَّا يضيعَ شيءٌ مِن وقتي.

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يُعَرِّفَنا شَرَفَ أوقاتِ العُمُرِ، وأنْ يوفِّقَنا لاغتنامِهِ.

ولقد شاهدتُ خَلْقًا كثيرًا لا يعرِفونَ معنى الحياةِ: فمنهُم مَن أغناهُ

(١) الكاغد: القرطاس، وهو ورق الكتابة.

اللهُ عن التكسُّب بكثـرةِ مالِه؛ فهو يقعدُ في السوقِ أكثرَ النهارِ يَنْظُرُ إلى الناسِ ، وكم تمرُّ به من آفةٍ ومنكرٍ! ومنهم مَن يَخلو بلَعِبِ الشِّطْرَنْجِ ! ومنهُم مَن يَقْطَعُ الزمانَ بكَثْرَةِ الحوادثِ مِن السلاطينِ والغلاءِ والرُّخْصِ . . . إلى غيرِ ذلك .

فعلمتُ أنَّ اللهَ تعالى لم يُطْلِعْ على شَرَفِ العُمُرِ ومعرفةِ قَدْرِ أوقاتِ العافيةِ إلاَّ مَن وَفَّقَهُ وألهمهُ اغتنامَ ذلك .

﴿وما يُلَقَّاها إلاَّ ذو حَظٍّ عَظيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

١٦٥ ـ فصل

[في تنظيم أوقات أهل العلم واغتنامها]

رأيتُ من الـرأيِ القـويم أنَّ نَفْـعَ التصـانيفِ أكثرُ مِن نفع التعليم بالمُشافهةِ؛ لأني أشافِهُ في عُمُري عددًا من المتعلِّمينَ، وأشافِهُ بِتَصْنيفي خَلْقًا لا تُحْصى ما خُلِقوا بعدُ.

ودليلُ هٰذا أنَّ انتفاعَ الناسِ بتصانيفِ المتقدِّمينَ أكثرُ مِن انْتِفاعِهِم بما يستفيدونَهُ من مشايِخِهِم.

فينبغي للعالِم أنْ يَتَوفَّرَ على التصانيفِ إنْ وُفِّقَ للتصنيفِ المفيدِ؛ فإنَّهُ ليس كلُّ مَن صَنَّفَ صَنَّفَ، وليسَ المقصودَ جمعُ شيءٍ كيفَ كانَ، وإنما هي أسرارٌ يُطْلِعُ اللهُ عزَّ وجلَّ عليها مَن شاء مِن عبادِهِ ويوفِّقُهُ لكَشْفِها؛ فيجمعُ ما فُرِّقَ، أو يرتِّبُ ما شُتِّتَ، أو يشرحُ ما أهمِلَ . . . هٰذا هو التصنيفُ المفيدُ.

وينبغي اغتنـامُ التصنيفِ في وَسَطِ العُمُـرِ؛ لأنَّ أوائـلَ العُمُـرِ زمنُ

الطلبِ، وآخرَهُ كَلالُ الحواسِّ.

وربَّما خانَ الفهمُ والعقلُ مَنْ قَدَّرَ عُمُرَهُ، وإنما يكونُ التقديرُ على العاداتِ الغالبةِ؛ لأنَّه لا يَعْلَمُ الغيبَ.

فيكونُ زمانُ الطلبِ والحفظِ والتشاغل إلى الأربعينَ، ثم يبتدئُ بعد الأربعينَ بالتصانيفِ والتعليم، هٰذا إذا كانَ قد بَلَغَ ما يُريدُ من الجمعِ والحِفْظِ وأُعينَ على تحصيلِ المطالبِ.

فأما إذا قَلَّتِ الآلاتُ عندَه من الكتب، أو كانَ في أوَّلِ عُمُرِه ضعيفَ الطَّلَبِ، فلم يَنَلْ ما يُريدُه في هٰذا الأوانِ؛ أَخَّرَ التصانيفَ إلى تمام خمسينَ سنةً، ثم ابتدأ بعدَ الخمسينَ في التصنيفِ والتعليم إلى رأسِ الستينَ.

ثم يزيدُ فيما بعدَ الستينَ في التعليم، ويُسْمِعُ الحديثَ والعلمَ، ويُعَلِّلُ التصانيفَ إلى أن يَقَعَ مُهِمٌّ إلى رأسِ السبعينَ[1].

فإذا جاوَزَ السبعينَ؛ جَعَلَ الغالبَ عليه ذكرُ الآخرةِ والتهيُّؤُ للرحيل، فيوفِّرُ نفسَه على نفسِهِ؛ إلَّا من تعليمٍ يَحْتَسِبُهُ أو تصنيفٍ يفتقرُ إليه؛ فذٰلك أشرفُ العُدَدِ للآخرةِ.

ولتكنْ هِمَّتُهُ في تنظيفِ نفسِهِ، وتهذيبِ خِلالِهِ، والمبالغةِ في استدراكِ زلَّاتِهِ؛ فإنِ اختُطِفَ في خلال ما ذَكَرْناهُ؛ فنِيَّةُ المؤمن خيرٌ من عمله[2]، وإنْ بَلَغَ إلى هٰذه المنازلِ؛ فقد بَيَّنَّا ما يَصْلُحُ لكلِّ منزلٍ.

(١) يعلل التصانيف: يؤخرها؛ يعني: يشتغل بنفسه ويترك التصنيف إلا إذا وقع أمر مهم احتيج فيه إلى التصنيف. وربما كان المعنى: يرجع على التصانيف بالتنقيح والمراجعة حتى يبلغ السبعين.

(٢) تقدم تخريجه في (فصل ١٤).

وقد قال سفيانُ الثوريُّ: مَن بَلَغَ سِنَّ رسولِ اللهِ ﷺ؛ فَلْيَتَّخِذْ لنفسهِ كَفناً(١).

وقد بَلَغَ جماعةٌ من العلماءِ سبعًا وسبعين سنةً، منهم أحمدُ بنُ حنبل؛ فإنْ بَلَغها؛ فليعلمْ أنه على شفيرِ القبرِ، وأن كل يوم يأتي بعدَها مُسْتَطْرَفٌ(٢).

فإن تمتْ له الثمانونَ؛ فليجعلْ هِمَّتَهُ كلَّها مَصْروفةً إلى تنظيفِ خلالِهِ وتهيئةِ زادِهِ، وليجعلِ الاستغفارَ حليفَه والذِّكْرَ أليفَه، وليدقِّقْ في محاسبةِ النفسِ وفي بَذْلِ العلم أو مخالطةِ الخَلْقِ؛ فإنَّ قُرْبَ الاستعراضِ للجيشِ يوجِبُ عليه الحَذَرَ من العارضِ، ولْيبالِغْ في إبقاءِ أثرِه قبلَ رحيلِهِ؛ مثل: بثِّ علمِهِ، وإنفاقِ كُتُبِهِ وشيءٍ من مالِهِ.

وبعدُ؛ فمنْ تَوَلَّاه اللهُ عزَّ وجلَّ؛ عَلَّمَهُ، ومَن أرادَه؛ أَلْهَمَهُ.

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يُنْعِمَ عَلَيْنا بأنْ يَتولَّانا ولا يَتولَّى عنا؛ إنَّه قريبٌ مجيبٌ.

١٦٦ـ فصل

[في أن طاعة الله عند الأكثرين عادة لا عبادة]

رأيتُ عاداتِ الناسِ قد غَلَبَتْ على عملِهم بالشرعِ؛ فهم يَسْتَوْحِشونَ مِن فعل الشيءِ؛ لعدم جَرَيانِ العادةِ لا لنهي الشرع!

(١) تقدمت ترجمة سفيان في (فصل ١٩). وانظر الخبر في «الحلية» (٧/٧٢).

(٢) المستطرف: المستأنف الحادث الجديد، وكأنه عمر جديد وفرصة أخرى تكتب للإنسان.

فكَمْ من رجـــلٍ يوصَفُ بالخيرِ؛ يبيعُ ويَشْتَـــري؛ فإذا حَصَلَتْ له القُراضَةُ[١]؛ باعَها بالصحيحِ من غيرِ تقليدٍ لإمامٍ أو عَمَلٍ برخصةٍ؛ عادةً من القومِ واستثقالاً للاستفتاءِ!

ونرى خَلْقًا يحافِظونَ على صلاةِ الرَّغائبِ[٢]، ويتوانَوْن عن الفرائضِ.

وكثيرًا من المتصوِّفينَ لا يَسْتَوْحِشونَ من ظُلْمِ الناس، ثم يتصدَّقونَ على الفقراءِ، وربَّما توانَوْا عن إخراجِ الزَّكاةِ، وتكاسَلوا باستعمالِ التأويلاتِ فيها، ثم إذا حَضَرَ أحدُهُم مجلسَ وعظٍ؛ بكى؛ كأنه يصانِعُ بتلكَ الحال.

ومنهُم مَن يُخْرِجُ بعضَ الزكاةِ مصانعةً عما لم يُخْرِجْه.

ومنهم مَن يَعْلَمُ أنَّ أصْلَ مالِهِ حرامٌ ويَصْعُبُ عليه فراقُه للعادةِ.

وفيهم من يَحْلِفُ بالطَّلاقِ، ويَحْنَثُ، ويرى الفراقَ صعبًا؛ فربَّما تأوَّلَ، وربَّما تكاسَلَ عن التأويلِ؛ اتِّكالاً على عَفْوِ الله تعالى ووعدًا من النفسِ بالتوبةِ!

ومنهم مَن يرى أنَّ استعمالَ الشرعِ ربَّما كان سببًا في تضييقِ معاشِهِ، وقد ألِفَ التفسُّحَ[٣]؛ فلا يَسْهُلُ عليهِ فراقُ ما قد ألِفَ!

والعاداتُ في الجملةِ هي المهلكةُ.

---

(١) القُراضَة: ما سقط بالقرض، ومنه قراضة الذهب، وهي قطعه المكسرة، وهو المقصود بها هنا، والمعنى: باع الدنانير المكسرة بالصحيحة على غير الوجه الشرعي.

(٢) صلاة مبتدعة تصلى ليلة أول جمعة من رجب، أنكرها معظم أهل العلم وشنعوا على فاعليها.

(٣) التفسح: الفسحة والسعة.

ولقدْ حَضَرَ عندي رجلٌ شيخٌ ابنُ ثمانينَ سنةً، فاشتريتُ منه دكَّانًا، وعقدتُ معه العقدَ، فلما افترقْنا؛ غَدَرَ بعدَ أيام، فطلبتُ منه الحضورَ عند الحاكم، فأبى، فأحْضَرْتُه، فَحَلَفَ اليمينَ الغموس[1]: أنْ ما بعْتُهُ! فقلتُ: ما تَدُورُ عليه السَّنَةُ[2]! وأخذَ يُبَرْطِلُ[3] لمن يَحولُ بيني وبينَه من الظَّلَمَةِ، فرأيتُ من العوامِّ من قد غلبتْ عليه العاداتُ؛ فلا يلتفتُ معها إلى قول فقيهٍ؛ يقولُ: هٰذا ما قَبَضَ الثَّمَنَ؛ فكيفَ يَصِحُّ البيعُ؟! وآخرُ يقولُ: كيف يجوزُ لكَ أنْ تَأْخُذَ دكَّانَه بغيرِ رضاه؟! وآخرُ يقولُ: يَجِبُ عليكَ أنْ تُقيلَهُ البيعَ[4]! فلما لم أُقِلْه؛ أخَذَ هو وأقاربُه يأخذونَ عِرْضي، ورأى أنه يُحامي عن مُلكِهِ، ثم سعى بي إلى السلطانِ سِعايةً يُحَرِّضُ فيها من الكذب ما أدهشني، ويبرطِلُ[3] مالاً لخلقٍ من الظَّلَمَةِ، فبالَغوا، وسَعَوا؛ إلَّا أنَّ الله تعالى نجَّاني من شرِّهم. ثم إني أقمتُ عليه البينةَ عند الحاكم، فقالَ بعضُ أربابِ الدُّنيا للحاكم: لا تَحْكُمْ له! فوَقَفَ عن الحكم بعدَ ثبوتِ البَيِّنَةِ عندَه!! فرأيتُ من هٰذا الحاكم ومِن حاكم آخرَ أعلى منه مِن تَرْكِ إنفاذِ الحقِّ حِفظًا لرياستِهم ما هوَّنَ عندي ما فعلهُ ذٰلك الشيخُ حفظًا لمالِهِ؛ لجهلِه وعلم هٰؤلاء.

فتجلَّى لي من الأمر أنَّ العاداتِ غَلَبَتْ على الناسِ، وأنَّ الشرعَ أُعْرِضَ عنهُ، وإنْ وَقَعَتْ موافقةٌ للشرع؛ فكما اتَّفَقَ، أو لأجلِ العادةِ؛ فإنَّ الإنسانَ لو ضُرِبَ بالسياطِ ما أفطرَ في رمضانَ؛ عادةً قد استمرَّتْ، ويأخُذُ

(١) هي اليمين الكاذبة الفاجرة التي يأكل بها حق أخيه.

(٢) يعني: أن الله سيعاجله بالعقوبة على هٰذا اليمين.

(٣) يبرطل: يرشي.

(٤) أقال البيع: فسخه وأبطله.

أعراضَ الناسِ وأموالَهم ؛ عادةً غالبةً!

فكم قد رأيتُ هٰذا الشيخَ يصلي ويحافِظُ على الصلاةِ، ثم لما خافَ فَوْتَ غَرَضِهِ ؛ تَرَكَ الشرعَ جانبًا!

وكم قد رأيتُ أولٰئكَ الحكامَ يَتَعَبَّدونَ ويطلُبونَ العلمَ ؛ غير أنهم لما خافوا على رِياستهم أن تزولَ ؛ تَرَكوا جانبَ الدينِ!

ثم إنَّ الله تعالى نَصَرني عليه، وتقدَّم إليَّ الحاكم بإنفاذِ ما ثَبَتَ عندَه، ودارتِ السَّنَةُ، فمات الشيخُ على قُلٍّ[1].

فنسألهُ عزَّ وجلَّ التوفيقَ للانقيادِ لشرعه ومخالفةِ أهوائِنا.

١٦٧ـ فصل

[من كمال لذة العالم غناه عن الناس وقلة مخالطتهم]

ما أعرفُ للعالِم قطُّ لَذَّةً ولا عِزًّا ولا شَرَفًا ولا راحةً ولا سلامةً أفضلَ من العُزلةِ ؛ فإنَّه ينالُ بها سلامةَ بدنهِ ودينِهِ وجاهِهِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ وعندَ الخَلْقِ ؛ لأنَّ الخَلْقَ يَهونُ عليهِم مَن يخالِطُهم، ولا يَعْظُمُ عندَهم قَدْرُ المخالِطِ لهم، ولهٰذا عَظُمَ قَدْرُ الخلفاءِ لاحتجابِهِم، وإذا رأى العوامُّ أحدَ العلماءِ مترخِّصًا في أمرٍ مباحٍ ؛ هانَ عندَهم.

فالواجبُ عليه صِيانةُ علمهِ، وإقامةُ قَدْرِ العلمِ عندَهم.

فقدْ قالَ بعضُ السَّلَفِ: كنَّا نَمْزَحُ ونَضْحَكُ ؛ فإذا صِرْنا يُقْتَدى بنا ؛ فما أراه يَسَعُنا ذٰلك.

---

(١) مات على قُلٍّ: على فقر وحاجة.

وقالَ سفيانُ الثوريُّ: تَعَلَّموا هٰذا العلمَ، واكْظِموا عليه، ولا تخلِطوه بِهَزْلٍ فَتَمُجَّهُ القلوبُ[١].

فمراعاةُ الناس لا ينبغي أن تُنْكَرَ.

وقدْ قالَ ﷺ لعائشةَ: «لولا حِدْثانُ قومِكِ في الكفرِ؛ لَنَقَضْتُ الكعبةَ، وجعلتُ لها بابينِ...»[٢].

وقال أحمدُ بنُ حنبلٍ في الركعتين قبلَ المغربِ: رأيتُ الناسَ يكرهونَهُما فتركتُهما.

ولا تسمعْ من جاهلٍ يَرى مثلَ هٰذه الأشياءِ رياءً، إنما هي صيانةٌ للعلم.

وبيانُ هٰذا أنَّه لو خَرَجَ العالِمُ إلى الناس مكشوفَ الرأسِ أو في يدِهِ كِسْرَةٌ يأكُلُها؛ قَلَّ عندَهم، وإنْ كان مُباحًا، فيصيرُ بمثابةِ تخليطِ الطبيبِ الآمرِ بالحِمْيَةِ.

فلا ينبغي للعالم أنْ يَنْبَسِطَ عندَ العوامِّ؛ حِفْظًا لهم، ومتى أراد مُباحًا؛ فليستَتِرْ به عنهم.

وهٰذا القَدْرُ الذي لاحَظَه أبو عبيدةَ حين رأى عُمَرَ بن الخطاب رضي اللهُ عنه قد قَدِمَ الشامَ راكبًا على حمارٍ، ورِجْلاهُ من جانبٍ، فقالَ: يا أميرَ

---

(١) تقدمت ترجمة سفيان في (فصل ١٩).

(٢) رواه: البخاري (٢٥ ـ كتاب الحج، ٤٢ ـ باب فضل مكة وبنيانها، ٣ / ٣٤٩ / ١٥٨٣ ـ ١٥٨٦)، ومسلم (١٥ ـ كتاب الحج، ٦٩ ـ باب نقض الكعبة وبنائها، ٢ / ٩٦٨ / ١٣٣٣)؛ عن عائشة رضي الله عنها.

المؤمنينَ! يَتَلَقَّاكَ عظماءُ الناسِ ! فما أحسنَ ما لاحَظ! إلَّا أنَّ عمرَ رضي الله عنــه أرادَ تأديبَ أبي عُبيدةَ بحفظِ الأصـل، فقـالَ: إنَّ اللهَ أعـزَّكُمْ بالإِسـلام؛ فمَهْما طلبتُم العِزَّ في غيرِه؛ أذلَّكم[1]. والمعنى : يَنْبَغي أنْ يكونَ طَلَبُكُم العزَّ بالدينِ لا بِصُوَرِ الأفعال.

وإن كانتِ الصورُ تُلاحَظُ؛ فإنَّ الإِنسانَ يخلو في بيتِه عُريانًا؛ فإذا خَرَجَ إلى الناس؛ لَبِسَ ثوبينِ وعِمامةً ورداءً.

ومثلُ هٰذا لا يكونُ تصنُّعًا، ولا يُنْسَبُ إلى كِبْرٍ.

وقد كان مالِكُ بن أنسٍ يَغْتَسِلُ ويَتَطَيَّبُ ويقعُدُ للحديثِ.

ولا تلتفـتْ يا هٰذا إلـى ما ترى مِن بَذْلِ العلمـاءِ على أبــوابِ السَّلاطينِ؛ فإنَّ العُزْلَةَ أصونُ للعالِم والعلم، وما يخسرُهُ العلماءُ في ذٰلك أضعـافُ ما يربحونَه. وقد كانَ سَيِّدُ الفقهاءِ سعيدُ بن المُسَيَّبِ لا يَغْشى الوُلاةَ، وعن قولِ هٰذا سكتوا عنهُ، وهٰذا فعلُ الحازم[2].

فإنْ أردتَ اللَّذَّةَ والراحةَ؛ فعليكَ أيُّها العالم بعقر بيتك، وكنْ معتزلاً عن أهلكَ؛ يَطِبْ لك عيشُـك، واجعـلْ للقـاءِ الأهل وقتًا؛ فإذا عَرَفوهُ؛ تَصَنَّعوا للقائِكَ، فكانتِ المعاشرةُ بذٰلك أجودَ.

وليكنْ لك مكانٌ في بيتِكَ تَخْلو فيه، وتحادِثُ سطورَ كُتُبِكَ، وتجري في حَلباتِ فِكْرِكَ! واحترسْ من لقاءِ الخَلْقِ، وخُصوصًا العوامَّ! واجْتَهِدْ في

---

(١) انـظر: «تـاريخ الطبري» (٢ / ٤٤٨)، و«الكامل» (٢ / ٣٤٩)، و«البداية والنهاية» (٥ / ١٢٥).

(٢) تقدمت ترجمة ابن المسيب في (فصل ٤٠)، وفي العبارة اضطراب واضح.

كَسْبٍ يُعِفُّكَ عن الطمع! فهٰذه نهايةُ لَذَّةِ العالِمِ في الدُّنيا.

وقد قيلَ لابنِ المباركِ: ما لكَ لا تجالِسُنا؟ فقالَ: أنا أذهبُ فأجالِسُ الصحابةَ والتابعينَ. وأشارَ بذٰلكَ إلى أنه يَنْظُرُ في كُتُبِهِ[1].

ومتى رُزِقَ العالِمُ الغنى عن الناس والخَلْوةَ؛ فإنْ كان له فَهْمٌ يَجْلِبُ التصانيفَ؛ فقدْ تكاملتْ لذَّتُه، وإنْ رُزِقَ فَهْمًا يرتقي إلى معاملةِ الحقِّ ومناجاتِهِ؛ فقدْ تَعَجَّلَ دُخولَ الجنةِ قبل المماتِ.

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ هِمَّةً عاليةً تَسْمو إلى الكمال، وتوفيقًا لصالحِ الأعمالِ؛ فالسالكونَ طريقَ الحقِّ أفرادٌ.

١٦٨ ـ فصل

[صفحات من حياة ابن الجوزي]

تأملتُ أحوالَ الناسِ في حالةِ عُلُوِّ شأنِهم، فرأيتُ أكثرَ الخَلْقِ تبينُ خسارتُهم حينئذٍ؛ فمنهُم مَن بالَغَ في المعاصي مِن الشبابِ، ومنهُم من فَرَّطَ في اكتسابِ العلم، ومنهُم مَن أكْثَرَ من الاستمتاع باللَّذَّاتِ... فكلُّهم نادمٌ في حالةِ الكِبَرِ، حين فواتِ الاستدراكِ لذنوبٍ سَلَفَتْ أو قُوىً ضَعُفَتْ أو فضيلةٍ فاتتْ، فيَمْضي زمانُ الكِبَرِ في حسراتٍ؛ فإنْ كانتْ للشيخ إفاقةٌ من ذُنوبٍ قد سَلَفَتْ؛ قالَ: وا أسفا على ما جَنَيْتُ! وإنْ لم يكنْ له إفاقةٌ؛ صارَ متأسِّفًا على فواتِ ما كانَ يَلْتَذُّ بهِ.

فأمَّا مَن أنفقَ عَصْرَ الشَّبابِ في العلم؛ فإنَّه في زمنِ الشيخوخةِ يَحْمَدُ جَنَى ما غَرَسَ، ويلتذُّ بتصنيفِ ما جَمَعَ، ولا يرى ما يَفْقِدُ من لَذَّاتِ البدنِ

---

(١) انظره في: «حلية الأولياء» (٨ / ١٦٤).

شيئًا بالإضافةِ إلى ما ينالُهُ من لذاتِ العلم، هٰذا مع وجودِ لَذَّاتِهِ في الطلبِ الذي كان تَأَمَّل بِهِ إدراكَ المطلوبِ، وربَّما كانتْ تلكَ الأعمالُ أطيبَ ممّا نيلَ منها؛ كما قالَ الشاعرُ:

أَهْتَــزُّ عنــدَ تَمَنِّي وَصْلِهــا طَرَبـا وربَّ أُمْــنِـيَةٍ أحْـلى مِنَ الـظَّـفَـرِ

ولقد تأملتُ نفسي بالإضافةِ إلى عشيرتي الذينَ أنْفقوا أعمارَهُم في اكتسابِ الدُّنيا، وأنفقتُ زَمَنَ الصَّبْوَةِ والشبابِ في طلبِ العلم، فرأيتُني لم يَفُتْني مما نالوهُ؛ إلَّا ما لو حَصَلَ لي؛ ندمتُ عليه.

ثم تأملتُ حالي؛ فإذا عَيْشي في الدُّنيا أجودُ من عيشِهِم، وجاهي بينَ الناسِ أعلى من جاهِهِم، وما نلتُهُ من معرفةِ العلم لا يقاوَمُ.

فقال لي إبليسُ: ونَسيتَ تَعَبَكَ وسَهَرَكَ؟!

فقلتُ له: أيُّها الجاهلُ! تقطيعُ الأيدي لا وَقْعَ له عند رؤيةِ يوسُفَ، وما طالتْ طريقٌ أدَّتْ إلى صَدِيقٍ.

جَزَى الــلهُ الــمَـسيرَ إلـيه خَيْرًا وإنْ تَرَكَ الــمَـطَايا كالــمَــزادِ

ولقـدْ كنتُ في حَلاوةِ طَلَبي العلمَ ألقى من الشدائِدِ ما هُو عندي أحلى من العسل لأجل ما أطلُبُ وأرجو، كنتُ في زمانِ الصِّبا آخُذُ معي أرغفةً يابسةً، فأخرُجُ في طلبِ الحديثِ، وأقعدُ على نهرِ عيسى، فلا أقدرُ على أكلِها إلَّا عند الماءِ؛ فكلَّما أكلتُ لُقمةً؛ شَرِبْتُ عليها، وعينُ هِمَّتي لا ترى إلَّا لَذَّةَ تَحْصيل العلم.

فأثْمَرَ ذٰلك عندي أني عُرِفْتُ بِكَثْرَةِ سماعي لحديثِ سيرِ الرسول ﷺ وأحوالِهِ وآدابِهِ وأحوالِ أصحابِهِ وتابعيهم، فصِرْتُ في معرفةِ طريقهِ كابنِ

أجْوَدَ.

وأثْمَرَ ذٰلك عندي من المعاملةِ ما لا يُدْرَكُ بالعلم، حتّى إنني أذكُرُ في زمانِ الصَّبْوةِ ووقتِ الغُلْمَةِ[1] والعُزْبَةِ قدرتي على أشياء كانتِ النفسُ تتوقُ إليها تَوَقان العطشانِ إلى الماءِ الزُّلالِ، ولم يَمْنَعْني عنها إلَّا ما أثْمَرَ عندي العلمُ من خوفِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولولا خَطايا لا يخلو منها البشرُ؛ لقدْ كنتُ أخافُ على نفسي من العُجْبِ.

غيرَ أنَّه عزَّ وجلَّ صانني وعلَّمَني وأطلَعَني من أسرارِ العلم على معرفَتِهِ وإيثارِ الخَلْوةِ به، حتى إنه لو حَضَرَ معي معروفٌ وبشْرٌ؛ لرأيتُهما زَحْمةً[2]. ثم عادَ، فَغَمَسَني في التقصير والتفريطِ، حتى رأيتُ أقلَّ الناسِ خيرًا مني. وتارةً يوقِظُني لقيام الليل ولَذَّةِ مناجاتهِ، وتارةً يَحْرِمُني ذٰلك مع سلامةِ بَدَني. ولولا بِشارةُ العلم بأنَّ هٰذا نوعُ تهذيبٍ وتأديبٍ؛ لَخَرَجْتُ إمّا إلى العُجْبِ عند العمل، وإمّا إلى اليأسِ عند البَطالةِ.

لٰكنَّ رجائي في فضلِهِ قد عادَلَ خوفي منه.

وقد يغلِبُ الرجاءُ بقوةِ أسبابه؛ لأني رأيتُ أنه قد ربَّاني منذُ كنتُ طِفلًا؛ فإنَّ أبي ماتَ وأنا لا أعْقِلُ والأُمُّ لم تلتفتْ إليَّ، فرَكَزَ في طبعي حبَّ العلم، وما زالَ يوقِعُني على المهمِّ فالمهمِّ، ويَحْمِلُني إلى مَن يَحْمِلُني على الأصوبِ، حتى قوَّمَ أمري، وكم قدْ قَصَدَني عدوٌّ فَصَدَّه عنِّي، وإذ رأيتُهُ قد نَصَرَني وبَصَّرني ودافعَ عنِّي ووَهَبَ لي؛ قَوِيَ رجائي في المستقبل

(١) الغُلمة: التوق للنكاح.

(٢) تقدمت ترجمة معروف الكرخي وبشر الحافي في (فصل ٢٥ و ١٩).

بما قد رأيتُ في الماضي، ولقدْ تابَ على يدي في مجالسِ الذِّكْرِ أكثرُ من مئتي ألفٍ، وأسلمَ على يدي أكثرُ من مئتي نفسٍ، وكم سالتْ عينُ مُتَجَبِّرٍ بوعْظي لم تكنْ تَسيلُ... ويَحِقُّ لِمَنْ تَلَمَّحَ هٰذا الإنعامَ أنْ يَرْجُوَ التَّمامَ.

وربما لاحَتْ أسبابُ الخوفِ بنَظَري إلى تقصيري وزَلَلي.

ولقـد جلستُ يومًا، فرأيتُ حولي أكثرَ من عَشَرَةِ آلافٍ، ما فيهم إلَّا مَن قَدْ رَقَّ قلبُه، أو دَمَعَتْ عينُه، فقلتُ لنفسي: كيف بكِ إنْ نَجَوْا وهَلَكْتِ؟! فصِحْتُ بلسانِ وَجْدي:

إلٰهي وسَيِّدي! إنْ قَضَيْتَ عليَّ بالعذابِ غدًا؛ فلا تُعْلِمْهُم بعذابي؛ صيانةً لكرمِكَ، لا لأجلي؛ لئلَّا يقولوا: عَذَّبَ مَن دَلَّ عليه.

إلٰهي! قد قيلَ لنبيِّكَ ﷺ: اقْتُلْ ابنَ أُبَيٍّ المنافقَ! فقالَ: «لا يَتَحَدَّثُ الناسُ أنَّ محمَّدًا يَقْتُلُ أصحابَه»[١].

إلٰهي! فاحفظْ حُسْنَ عقائِدِهم فيَّ بكرمِكَ أنْ تُعْلِمَهُم بعذابِ الدَّليل عليكَ. حاشاكَ واللهِ يا ربِّ من تَكْديرِ الصَّافي.

لا تَبْـرِ عُودًا أنْـتَ رَيَّشْـتَـهُ   حاشـا لِبـانِي الجُـودِ أنْ يَنْقُضا[٢]
لا تُعْـطِشِ الـزَّرْعَ الـذي نَبْتُهُ   بِصَـوْبِ إنْعـامِـكَ قدْ رَوَّضـا[٣]

---

(١) رواه: البخاري (٦١ ـ كتاب المناقب، ٨ ـ باب ما ينهى من دعوى الجاهلية، ٦ / ٥٤٦ / ٣٥١٨)، ومسلم (٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب، ١٦ ـ باب نصر الأخ ظالمًا ومظلومًا، ٤ / ١٩٩٨ / ٢٥٨٤)؛ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) ريَّش العود: جعل له ريشًا، وهو آخر مراحل صنع السهم وتحضيره، والبري هو الحت والبرد والتحديد، ويكون قبل الترييش، وقصد المؤلف أن لا تنقض ما بدأته وتحطمه.

(٣) روَّض النبت: أصبح روضة غناء.

رَفْعُ عبد الرحمن النجدي أسكنه الله الفردوس

١٦٩ـ فـصـل

[لا تتمنوا العشق؛ فالعاشق مريض مبتلى]

من الأمورِ التي تَخْفى على العاقل: أنْ يرى أنَّه متى لم تكنْ عندَه امرأةٌ أو جاريةٌ يَهْواها هوىً شديدًا؛ أنَّه لا يَلْتَذُّ في الدُّنيا؛ فإذا صَوَّر محبوبًا مملوكًا؛ تخايَلَ لَذَّةً عظيمةً، وإذا كانَ عندَه مَن لا يميلُ إليه؛ اعتقدَ نفسَه محرومًا.

وهٰذا أمرٌ شديدُ الخفاءِ؛ فينبغي أن يُوَضَّحَ:

وهـو أنَّ المملوكَ مملولٌ، ومتى قَدَرَ الإنسانُ على ما يشتهيهِ؛ ملَّهُ ومـالَ إلى غيرِه: تارةً لبيانِ عُيوبـِهِ التي تكشِفُهـا المخالطةُ؛ فإنَّه قد قالَ الحكماءُ: العشقُ يُعْمي عن عيوبِ المحبوبِ. وتارةً لمكانِ القُدْرَةِ عليه؛ والنفسُ لا تزالُ تَتَطَلَّعُ إلى ما لا تَقْدِرُ عليهِ.

ثم لو قَدَّرْنا دوامَ المحبَّةِ مع القُدْرَةِ؛ فإنَّها قد تكونُ، ولٰكنْ ناقصةً بمقدارِ القُدْرَةِ، وإنَّما يُقَوِّيها تَجَنِّي المحبوبِ، فيكونُ تجنِّيهِ كالامتناعِ، أو امتناعُهُ من الموافقةِ.

فإذا صفا؛ فلا بدَّ من أكدارٍ: منها الحَذَرُ عليه، ومنها قلةُ ميلِهِ إلى هٰذا العاشقِ، وربَّما يَتَكَلَّفُ القربَ منه، ويَعْلَمُ الإنسانُ بِقِلَّةِ ميل محبوبِهِ إليه، فَيَنْغَصُ، بل يُنْغِصُ.

فإنْ خافَ منه خيانةً؛ احتاجَ إلى حراسةٍ، فقويتِ النُّغَصُ.

وأصلحُ المقـامـاتِ التوسُّطُ، وهو اختيارُ ما تميلُ النفسُ إليه، ولا

يرتقي إلى مقام العشقِ؛ فإنَّ العاشقَ في عذابٍ، وإنما يتخايلُ[١] الفارغُ من العشقِ التذاذَ العاشقِ، وليسَ كذلك؛ فإنَّه كما قيل:

وما في الأرْضِ أشْقَى مِنْ مُحِبٍّ ... وإنْ وَجَدَ الهَوَى عَذْبَ المَذاقِ
تَراهُ باكِيًا في كُلِّ وَقْتٍ ... مَخافَةَ فُرْقَةٍ أو لاشْتِياقِ
فَيَبْكي إنْ نَأَوْا شَوْقًا إليهِم ... وَيَبْكي إنْ دَنَوْا خَوْفَ الفِراقِ
فَتَسْخُنُ عَيْنُهُ عندَ التَّداني ... وتَسْخُنُ عَيْنُهُ عندَ الفِراقِ

١٧٠ـ فصل

[في تفاوت الخلق في هممهم وغاياتهم]

ما ابْتُلِيَ الإنسانُ قطُّ بأعظمَ من علوِّ هِمَّتِهِ؛ فإنَّ مَن عَلَتْ همَّتُه يختارُ المعالي، وربَّما لا يُساعِدُه الزمانُ، وقد تَضْعُفُ الآلةُ، فيبقى في عذابٍ.

وإني أعطيتُ من علوِّ الهِمَّةِ طَرَفًا؛ فأنا به في عذابٍ، ولا أقولُ: ليتَه لم يكنْ؛ فإنَّه إنَّما يَحْلو العيشُ بِقَدْرِ عَدَم العقل، والعاقلُ لا يختارُ زيادةَ اللَّذَّةِ بنقصانِ العقل.

ولقدْ رأيتُ أقوامًا يَصِفونَ علوَّ هِمَمِهِم، فتأمَّلْتُها، فإذا بها في فنٍّ واحدٍ، ولا يبالونَ بالنقصِ فيما هو أهمُّ:

قال الرَّضِيُّ[٢]:

---

(١) يتخايل: يتوهم ويظن!! وما هو بالفصيح.

(٢) الشريف، أبو الحسن، محمد بن الطاهر الحسيني، أشعر الطالبيين، كان شيعيًا، ولد سنة ٣٥٩هـ، وتوفي سنة ٤٠٦هـ. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٢ / ٢٤٦)، «سير أعلام النبلاء» (١٧ / ٢٨٥).

وَلِكُلِّ جِسْمٍ في النُّحولِ بَلِيَّةٌ وبَلاءُ جِسْمي مِن تَفاوُتِ هِمَّتي

فنظرتُ؛ فإذا غايةُ أملِهِ الإمارةُ.

وكان أبو مسلم الخراسانيُّ في حال شَبيبتِهِ لا يكادُ ينامُ، فقيلَ له في ذٰلك؟ فقالَ: ذِهْنٌ صافٍ، وهَمٌّ بعيدٌ، ونفسٌ تَتوقُ إلى معالي الأمورِ؛ مع عيشٍ كَعَيْشِ الهَمَجِ الرَّعاعِ! قيلَ: فما الذي يُبْرِدُ غَليلَكَ؟ قالَ: الظَّفَرُ بالملكِ. قيلَ: فاطْلُبْهُ. قالَ: لا يُطْلَبُ إلَّا بالأهوال. قيلَ: فاركبِ الأهوالَ. قالَ: العقلُ مانعٌ. قيلَ: فما تَصْنَعُ؟ قال: سأجعلُ مِن عقلي جَهْلًا، وأحاوِلُ به خَطَرًا لا يُنالُ إلَّا بالجهل، وأدبِّرُ بالعقلِ ما لا يُحْفَظُ إلَّا بِهِ؛ فإنَّ الخُمولَ أخو العدم.

فنظرتُ إلى حالِ هٰذا المسكينِ؛ فإذا هو قد ضَيَّعَ أهمَّ المهمَّاتِ، وهو جانبُ الآخرةِ، وانتصبَ في طَلَبِ الولاياتِ؛ فكم فَتَكَ وقَتَلَ حتَّى نالَ بعضَ مُرادِهِ من لَذَّاتِ الدُّنْيا! ثم لم يَتَنَعَّمْ في ذٰلك غيرَ ثمانِ سنينَ، ثم اغْتيلَ، ونَسِيَ تدبيرَ العقل، فقُتِلَ ومضى إلى الآخرةِ على أقبح حالٍ[١].

وكان المتنبِّي[٢] يقولُ:

وفي الناسِ مَنْ يَرْضى بِمَيْسورِ عَيْشِهِ ومَرْكُوبُهُ رِجْلاهُ والثَّوْبُ جِلْدُهُ
ولٰكِنَّ قَلْبًا بَيْنَ جَنْبَيَّ ما لَهُ مَدىً يَنْتَهي بي في مُرادٍ أُحُدُّهُ
يَرَى جِسْمَهُ يُكْسَى شُفوفًا تَرُبُّهُ فَيَخْتارُ أنْ يُكْسَى دُروعًا تَهُدُّهُ

(١) أبو مسلم الخراساني هو عبد الرحمٰن بن مسلم الأمير، صاحب الدعوة، وهازم جيوش الدولة الأموية. انظر ترجمته وأخباره في: «تاريخ بغداد» (١٠ / ٢٠٧)، و«سير أعلام النبلاء» (٦ / ٤٨).

(٢) تقدمت ترجمته في (فصل ١٠٩).

فتأملتُ هٰذا الآخرَ؛ فإذا نَهْمَتُه[١] فيما يتعلَّقُ بالدُّنيا فحسبُ.

ونظرتُ إلى علوِّ هِمَّتي؛ فرأيتُها عَجَبًا، وذٰلك أنني أرومُ من العلم ما أتيقَّنُ أني لا أصلُ إليه؛ لأنني أحبُّ نيلَ كلِّ العلوم على اختلافِ فنونِها، وأريدُ استقصاءَ كلِّ فنٍّ! هٰذا أمرٌ يَعْجِزُ العمرُ عن بعضهِ.

فإنْ عَرَضَ لي ذو هِمَّةٍ في فنٍّ قد بَلَغَ مُنْتَهاه؛ رأيتُه ناقصًا في غيرِه؛ فلا أعُدُّ هِمَّتَهُ تامَّةً؛ مثلُ المحدِّثِ فاتَهُ الفقهُ، والفقيهِ فاتَهُ علمُ الحديثِ؛ فلا أرى الرضى بنقصانِ العلوم إلَّا حادِثًا عن نَقْصِ الهِمَّةِ.

ثم إني أرومُ نهايةَ العملِ بالعلم، فأتوقُ إلى وَرَعِ بِشْرٍ وزَهادةِ معروفٍ[٢]! وهٰذا مع مطالعةِ التَّصانيفِ وإفادةِ الخَلْقِ ومعاشرتِهم بعيدٌ.

ثم إني أرومُ الغِنى عن الخَلْق، وأستشرفُ الإفضالَ عليهم! والاشتغالُ بالعلم مانعٌ من الكَسْبِ، وقَبولُ المِنَنِ مما تأباهُ الهمةُ العاليةُ.

ثم إني أتوقُ إلى طلب الأولادِ كما أتوقُ إلى تحقيقِ التصانيفِ؛ ليبقى الخَلَفانِ نائِبَيْنِ عني بعد التَّلَفِ! وفي طلبِ ذٰلك ما فيه من شُغْلِ القلبِ المحبِّ للتفرُّدِ.

ثم إني أرومُ الاستمتاعَ بالمستحسناتِ! وفي ذٰلك امتناعٌ من جهةِ قِلَّةِ المالِ، ثم لو حَصَلَ؛ فَرَّقَ جَمْعَ الهِمَّةِ.

وكذٰلك أطلبُ لبدني ما يُصْلِحُهُ من المطاعم والمشاربِ؛ فإنَّه مُتَعَوِّدٌ للتَّرَفُّهِ والتَّلطُّفِ! وفي قلةِ المال مانعٌ.

---

(١) نهمته: طلبته وهمته وسعيه.

(٢) انظر ترجمتهما في (فصل ١٩ و ٢٥).

وكلُّ ذٰلك جَمْعٌ بين أضدادٍ.

فأين أنا وما وصفتُهُ مِن حالِ مَن كانتْ غايةَ هِمَّتِهِ الدُّنيا؛ وأنا لا أحبُّ أنْ يَخْدُشَ حصولُ شيءٍ من الدُّنيا وَجْهَ دِيني بسببٍ، ولا أنْ يؤثِّرَ في عِلْمي ولا في عَمَلي؟!

فوا قلقي من طلبِ قيام الليل وتحقيقِ الوَرَع؛ مع إعادةِ العلم، وشُغْلِ القلب بالتصانيفِ، وتحصيل ما يلائمُ البَدَنَ من المطاعمِ! ووا أسفي على ما يفوتُني من المُناجاةِ في الخلوةِ؛ مع ملاقاةِ الناسِ وتعليمِهِم! ويا كَدَرَ الورعِ؛ مع طَلَبِ ما لا بدَّ منه للعائلةِ!

غير أني قدِ اسْتَسْلَمْتُ لتعذيبي، ولعلَّ تَهْذيبي في تعذيبي؛ لأنَّ علوَّ الهِمَّةِ تَطْلُبُ المعالي المقرِّبَةَ إلى الحقِّ عزَّ وجلَّ.

وربَّما كانتِ الحَيْرَةُ في الطَّلَبِ دليلاً إلى المقصودِ.

وها أنا أحفظُ أنْفاسي مِنْ أنْ يَضيعَ منها نَفَسٌ في غيرِ فائدةٍ.

وإنْ بَلَغَ هَمِّي مرادَه، وإلَّا؛ فنيةُ المؤمنِ أبلغُ من عملهِ(١).

١٧١ـ فصل

[لا بد من التلطف بالنفس في طريق الطلب]

لما سَطَّرْتُ هٰذا الفصلَ المتقدِّمَ؛ رأيتُ إذْكارَ النفسِ بما لا بُدَّ لها في الطريقِ منهُ، وهو أنَّه لا بدَّ لها من التلطُّفِ؛ فإنَّ قاطعَ مرحلتينِ في مرحلةٍ خَليقٌ بأن يَقِفَ؛ فينبغي أنْ يقطعَ الطريقَ بألطفِ مُمْكِنٍ، وإذا تعبتِ

(١) لفظ حديث مرفوع ضعيف تقدم تخريجه في (فصل ١٤).

الرَّواحِلُ؛ نَهَضَ الحادي يُغَنِّيها، وأخذُ الراحةِ للجدِّ جدٌّ، وغَوْصُ السابح في طلبِ الدُّرِّ صعودٌ، ودوامُ السيرِ يَحْسُرُ الإبلَ[1]، والمفازةُ صعبةٌ.

ومَن أراد أن يرى التلطُّفَ بالنفس؛ فلينظُرْ في سيرةِ الرسول ﷺ؛ فإنه كانَ يَتَلَطَّفُ بنفسهِ، ويمازِحُ، ويُخالِطُ النساءَ، ويُقبِّلُ، ويَمَصُّ اللسانَ، ويختارُ المستحسناتِ، ويُسْتَعْذَبُ له الماءُ، ويختارُ الماءَ الباردَ والأوفقَ من المطاعمِ؛ كَلَحْم الظَّهْرِ والذِّراع والحَلْوى[2].

وهٰذا كلُّه رِفْقٌ بالناقةِ في طريقِ السَّيْر، فأما مَن جَرَّدَ عليها السَّوْطَ؛ فإنَّـه يوشِـكُ أنْ لا يَقْطَعَ الطَّريقَ، وقد قالَ ﷺ: «إنَّ هٰذا الدينَ مَتينٌ؛ فأوغِلوا فيهِ بِرِفْقٍ؛ فإنَّ المُنْبَتَّ لا أرضًا قَطَعَ، ولا ظَهْرًا أبقى»[3].

---

(١) حسر البعير وأحسره: ساقه حتى أعياه.

(٢) وقد تقدم الكلام على هٰذا كله؛ فانظر (فصل ١٩ و٤١ و٩٧ و١٦٢).

(٣) (**حسن؛ إلا قوله: «فإن المنبت...» إلخ؛ فهو ضعيف**). رواه البيهقي في «السنن» (٣ / ١٩) من طريق أبي صالح، ثنا الليث، عن ابن عجلان، عن مولى لعمر بن عبد العزيز، عن عبد الله بن عمرو... فذكره مرفوعًا.

وأبو صالح هو عبد الله بن صالح كاتب الليث: صدوق، كثير الغلط، فيه غفلة؛ كما أفاد العسقلاني في «التقريب»، ومولى عمر بن عبد العزيز مجهول؛ فالسند ضعيف.

وله شاهد رواه: البزار (١ / ٧٨ / ٢٩ ـ مختصر الزوائد)، والقضاعي في «الشهاب» (٢ / ١٨٤ / ١١٤٧ و١١٤٨)، والبيهقي (٣ / ١٨)؛ عن جابر بن عبد الله مرفوعًا. قال الهيثمي في «المجمع» (١ / ٦٧): «رواه البزار، وفيه يحيى بن المتوكل أبو عقيل، وهو كذاب»؛ فالإسناد ضعيف جدًا لا يصلح للاعتبار.

وعلى هٰذا فالحديث ضعيف بهٰذا السياق؛ لضعف الأصل وشدة ضعف الشاهد.

لٰكن للقطعة الأولى منه شاهد رواه أحمد (٣ / ١٩٩) من حديث أنس مرفوعًا. قال الهيثمي في «المجمع» (١ / ٦٧): «رواه أحمد، ورجاله موثقون؛ إلا أن خلف بن مهران لم يدرك أنسًا»؛ فالإسناد منقطع. ولمعنى هٰذه القطعة شواهد كثيرة، بعضها من مخرجات =

واعلمْ أنـه يَنْبَغي للعـاقـل أنْ يُغالِطَ نفسَه فيما يَكْشِفُ العقلُ عن عُوارِه(١)؛ فإنَّ فِكْرَ المتيقِّظِ يَسْبُقُ قبل مباشرةِ المرأةِ إلى أنَّها اعْتِناقُ جسدٍ يحتوي على قَذارةٍ، وقبلَ بَلْع اللُّقمةِ إلى أنها متقلِّبةٌ في الريقِ، لو أخْرَجَها اللسانُ؛ لَفَظَها، ولو فَكَّرَ في قُرْبِ الموتِ وما يجري عليه بعدَه؛ لَبَغَضَ عاجلَ لَذَّتِهِ. . . فلا بُدَّ مِن مغالطةٍ تجري؛ لينتفعَ الإنسانُ بعيشهِ.

كما قالَ لَبيدٌ(٢):

فَأَكْـذِبِ الـنَّـفْسَ إذا حَدَّثْـتَـهـا ... إنَّ صِدْقَ الـنَّفْسِ يُزْري بِالأمَـلْ

وقال البُسْتِيُّ(٣):

أفِـدْ طَبْعَـكَ المَكْدودَ بِالهَمِّ راحةً ... تُجِـمُّ وعـلِّلْهُ بشـيءٍ مِنَ المَـزْحِ

ولٰـكـنْ إذا أعْـطَيْتَـهُ ذاكَ فَلْيَكُنْ ... بمقدارِ ما يُعْطى الطَّعامُ مِنَ المِلْحِ

وقال أبو عليٍّ بنُ الشِّبْلِ(٤):

= الصحيحين؛ فلعلها تتقوى بها.

والحديث ضعفه الألباني بطوله في «ضعيف الجامع» (٢٠٢٢)، وصحح القطعة الأولى منه في «صحيحه» (٢٢٤٨).

(١) العوار: العيب.

(٢) ابن ربيعة العامري، الصحابي، الشاعر، أحد الكرام، توفي سنة ٤١هـ. وانظر: «خزانة الأدب» (١ / ٣٣٧، ٤ / ١٧١).

(٣) هو أبو الفتح؛ علي بن محمد البستي، شاعر زمانه، له نظم غاية في الجودة سائر بين الفضلاء، توفي سنة ٤٠١هـ. انظر ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٣ / ٣٧٦)، و«سير أعلام النبلاء» (١٧ / ١٤٧).

(٤) شاعر عصره، محمد بن الحسين بن الشبل البغدادي الحريمي، توفي سنة ٤٧٣هـ. انظر ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٤/٣٩٣)، «أعلام النبلاء» (١٨/ ٤٣٠).

وإذا هَمَمْتَ فَناجِ نَفْسَكَ بالمُنى ... وَعْـدًا فَخَيْراتُ الجنـانِ عِداتُ
واجْعَلْ رَجاءَكَ دونَ يَأْسِكَ جُنَّةً ... حَتَّى تَزولَ بِهَمِّكَ الأوْقـاتُ
واسْتُرْ عنِ الجُلَساءِ بَثَّكَ إنَّما ... جُلَساؤُكَ الحُسَّادُ والشُّمَّاتُ
ودَعِ التَّوَقُّعَ للحوادِثِ إنَّهُ ... لِلحَيِّ مِنْ قَبْلِ المَماتِ مَماتُ
فالهَمُّ ليسَ لهُ ثَباتٌ مِثْلَما ... في أهلِهِ ما للسُّرورِ ثَباتُ
لولا مُغالَطَةُ النُّفوسِ عُقولَها ... لَمْ تَصْفُ لِلمُتَيَقِّظينَ حياةُ

وقالَ أيضاً:

بِحِفْظِ الجِسْمِ تَبْقى النَّفْسُ فيهِ ... بَقاءَ النَّارِ تُحْفَظُ بالوِعاءِ
فَباليَأْسِ المُمِضِّ فَلا تُمِتْها ... ولا تَمْدُدْ لها طُولَ الرَّجاءِ
وعِدْها في شَدائِدِها رَخاءً ... وَذَكِّرْها الشَّدائِدَ في الرَّخاءِ
يُعَدُّ صَلاحُها هٰذا وهٰذا ... وبِالتَّرْكيبِ مَنْفَعَةُ الدَّواءِ

وقد كانَ عمومُ السَّلَفِ يَخْضِبونَ الشيبَ؛ لئلَّا يَرى الإنسانُ منهُم ما يُكْرَهُ، وإنْ كانَ الخِضابُ لا يُعْدِمُ النفسَ عِلْمَها بذلك، ولٰكنه نوعُ مخادعةٍ للنفسِ، وما زالتِ النفوسُ ترى الظَّاهِرَ، وإنما الفِكْرُ والعقلُ مع الغائبِ.

ولا بدَّ من مُغالطةٍ تَجْري لِيَتِمَّ العيشُ، ولو عَمِلَ العالمُ[1] بمُقْتَضى قِصَرِ الأمل؛ ما كَتَبَ العلمَ ولا صَنَّفَ.

فافهمْ هٰذا الفَصْلَ مع الذي تَقَدَّمَهُ؛ فإنَّ الأولَ في مقام العَزيمةِ، وهٰذا في مكانِ الرُّخْصَةِ، ولا بدَّ للتعب من راحةٍ وإعانةٍ، واللهُ عزَّ وجلَّ

(١) في الأصول: «العامل»، والصواب ما أثبتناه.

معكَ على قَدْرِ صِدْقِ الطلبِ وقوةِ اللَّجَإ وخَلْع الحولِ والقوةِ، وهُو الموفِّقُ.

١٧٢ ـ فصل

[في تدبير أمور الدنيا وأمور العلم]

قِوامُ الآدميِّ بشيئينِ: الحرارةِ والرطوبةِ[١]:

ومنْ شأنِ الحرارةِ أنْ تُحَلِّلَ الرُّطوبَةَ وتُفْنيها؛ فالآدميُّ محتاجٌ إلى تحصيل خَلَفٍ للمتحلِّل.

فأبدانُ النَّشْءِ تَغْتَذي بأكثرَ مما يتحلَّل منها، والأبدانُ المتناهِيَةُ تَغْتَذي بمقدارِ ما يتحلَّلُ منها، والأبدانُ التي قد أخذتْ في الهرم يتحلَّلُ منها أكثرُ مما تَغْتَذي به.

فيَنْبَغي للناشىء البالغ أنْ يَتَحَفَّظَ في النكاح؛ لأنَّه يُرَبِّي قاعدةَ قُوَّةٍ يَجِدُ أثرَها في الكِبَرِ.

وأمّا المتوسطُ والواقِفُ السِّنِّ؛ فينبغي أن يَحْذَرَ فضولَ الجماع؛ فإنْ حَصَلَ له مِثْلُ ما يَخْرُجُ منهُ؛ فأسرفَ، فاللازمُ أُخِذَ من الحاصل، ويوشكُ أنْ يُسْرِعَ النفادُ.

وأما الشيخُ؛ فَتَرْكُ النكاح كاللازم له، خُصوصًا إذا زادَ علوُّ السنِّ؛ لأنه يُنْفِقُ من الجَوْهَر الذي لا يُحَصِّلُ مثلَه أبدًا.

---

(١) هذا الكلام مستمد من النظرية الطبية اليونانية التي سادت في عصر المصنف رحمه الله واعتنى بها أطباء زمانه، وقد أصبحت في الطب الحديث أثرًا بعد عين.

ثم ينبغي أن يَنْظُرَ العاقلُ في مالِه، فيكتسبَ أكثرَ مما يُنْفِقُ؛ ليكونَ الفاضلُ مدَّخرًا لوقتِ العَجْزِ، وليحذرِ السَّرَفَ؛ فإنَّ العدلَ هو الأصلحُ.

ثم ينظرُ في الزوجةِ، والمطلوبُ منها شيئانِ: وجودُ الولدِ، وتدبيرُ المنزلِ؛ فإذا كانتْ مبذِّرةً؛ فعيبٌ لا يُحتملُ، فإن انضمَّتْ صفةُ العقرِ؛ فلا وجهَ للإمساكِ؛ إلَّا أنْ تكونَ مستحسنةَ الصورةِ، فإنْ ضُمَّ إليها عَقْلٌ وعفافٌ؛ حَسُنَ الإمساكُ، وإن كانتْ مما يحتاجُ أن تحفظَ؛ فتركُها لازمٌ[1].

فأما الخدمُ؛ فليجتهدْ في تحصيل خادم لا تستعبِدُهُ الشهوةُ؛ فإنَّ عَبْدَ الشهوةِ له مولى غيرُ سيِّدِه، ولْينظرِ المالكُ في طبعِ المملوكِ؛ فمنهم مَن لا يأتي إلَّا على الإكرام، فَلْيُكْرِمْه؛ فإنه يربحُ محبَّتَه. ومنهُم مَن لا يأتي إلَّا على الإهانةِ، فَلْيُدارِه، ولْيُعْرِضْ عنِ الذُّنوبِ. فإنْ لم يكنْ؛ عاتبَ بلُطْفٍ، ولْيحذرِ العقوبةَ ما أمكنَ. ولْيجعلْ للمماليكِ زمنَ راحةٍ. والعجبُ ممَّن يُعْنى بدابَّتِهِ، وينسى مداراةَ جاريتِهِ! وأجودُ المماليكِ الصغارُ، وكذلك الزوجاتُ؛ لأنَّهم متعوِّدونَ خُلُقَ المشتري.

وليحفظ نفسَه بالهيبةِ من الانحرافِ مع الزَّوْجَةِ، ولا يُطْلِعْها على مالِهِ؛ فإنها سفيهةٌ تَطْلُبُ كَثرةَ الإنفاقِ.

وأما تدبيرُ الأولادِ؛ فحِفْظُهم مِن مخالطةٍ تُفْسِدُ. ومتى كانَ الصبيُّ ذا أنَفَةٍ، حَيِيًّا؛ رُجِيَ خيرُه. ولْيُحْمَلْ على صحبةِ الأشرافِ والعلماءِ، ولْيُحَذَّرْ من مصاحبتِهِ الجُهَّالَ والسفهاءَ؛ فإنَّ الطبعَ لِصٌّ. وليحذِّرِ الصبيَّ من

---

(١) يعني: إذا كانت في سلوكها موضع ريبة، تحتاج إلى رقيب وحافظ؛ فمفارقتها لازمة.

الكـذبِ غايةَ التحـذيرِ، ومِن المخـالـطةِ للصبيانِ، وليوصـه بزيادةِ البـرِّ للوالدينِ، وليُحفَظْ من مخالطةِ النساءِ. فإذا بلَغ؛ فلْيُزوَّجْ بصَبيَّةٍ، فينتفعانِ.

هٰذه الإشارةُ إلى تدبيرِ أمورِ الدُّنيا.

فأمّـا تدبيرُ العلم؛ فينبغي أن يَحْمِلَ الصبيَّ من حين يبلغُ خمسَ سنينَ على التشـاغُـل بالقـرآنِ والفقـهِ وسمـاع الحـديثِ، ولْيُحَصِّـلْ له المحفـوظـاتِ أكثرَ من المسموعاتِ؛ لأنَّ زمانَ الحِفْظِ إلى خمسَ عشرةَ سنةً؛ فإذا بَلَغَ؛ تَشَتَّتَتْ هِمَّتُهُ، فلْيُضْرَبْ تارةً، ويُرْشَى أخرى؛ ليبلغَ وقدْ حصَّلَ محفوظاتٍ سَنِيَّةً.

وأولُ ما ينبغي أن يُكَلَّفَ حفظُ القـرآنِ متقَنـا؛ فإنَّـه يَثْبُتُ ويختلِطُ باللحم والـدم، ثم مقـدمـةٌ من النَّحْوِ يعرِف بها اللَّحنَ، ثم الفقهُ مذهبًا وخلافًا، وما أمكنَ بعد هٰذا من العلوم؛ فحفظُهُ حسنٌ.

ولْيَحَذَّرْ من عاداتِ أصحابِ الحديثِ؛ فإنَّهم يُفْنُونَ الزمانَ في سماعِ الأجزاءِ التي تتكرَّرُ فيها الأحاديثُ، فيذهبُ العُمُرُ، وما حَصَّلوا فَهْمَ شيءٍ! فإذا بَلَغوا سِنًّا؛ طَلَبوا جوازَ فتوى أو قراءةَ جزءٍ من القرآنِ، فعادوا القَهْقَرى؛ لأنهم يَحْفَظونَ بعدَ كِبَرِ السِّنِّ، فلا يحصُلُ مقصودُهم.

فالحِفْظُ في الصِّبا للمُهِمِّ من العلم أصلٌ عظيمٌ.

وقـد رأيْنـا كثيرًا ممَّن تشـاغَلَ بالمسموعاتِ وكتابةِ الأجزاءِ، ورأى الحفظَ صَعْبًا، فمالَ إلى الأسهلِ، فمضى عُمُرُهُ في ذٰلك، فلمَّا احتاجَ إلى نفسِهِ؛ قَعَدَ يَتَحَفَّظُ على كِبَرٍ، فلم يُحَصِّلْ مقصودَه.

فاليقظةَ لفهم ما ذكرتُ، وانظرْ في الإخلاصِ؛ فما ينفعُ شيءٌ دونَه.

١٧٣ ـ فصل
[الويل للمفرط الذي لا ينظر في العواقب]

اشتدَّ الغلاءُ ببغدادَ في أول سنةِ خمسٍ وسبعينَ[١]، وكلَّما جاءَ الشَّعيرُ؛ زادَ السِّعْرُ، فَتدافعَ[٢] الناسُ على اشتراءِ الطعام.

فاغْتَبَطَ مَن يستعِدُّ كُلَّ سنةٍ بزَرْعٍ ما يَقوتُهُ، وفَرِحَ مَن بادَرَ في أولِ النَّيْسانِ إلى اشتراءِ الطعامِ قبلَ أنْ يُضاعَفَ ثمنُه، وأخرجَ الفقراءُ ما في بيوتِهِم فَرَمَوْه في سوقِ الهوانِ؛ وبانَ ذلُّ نفوسٍ كانتْ عزيزةً.

فقلتُ: يا نفسُ! خُذي من هٰذه الحال إشارةً: لَيُغْبَطَنَّ مَن له عملٌ صالحٌ وقتَ الحاجةِ إليه، ولَيَفْرَحَنَّ مَن له جوابٌ عند إقبال المسألةِ، وكلُّ الويل على المفرِّطِ الذي لا يَنْظُرُ في عاقبتِه! فتنبَّهي؛ فقد نَبَّهتِ ناسًا في الدُّنيا على أمرِ الآخرةِ! وبادري موسمَ الزَّرْعِ ما دامتِ الرُّوحِ في البدنِ؛ فالزمانُ كلُّه تِشرينُ، قبلَ أنْ يَدْخُلَ نَيْسانُ الحصادِ وما لكِ زَرْعٌ، وحاجةُ المفتقِرين إلى أموالِهِم تَمْنَعُهم من الإيثارِ.

١٧٤ ـ فصل
[الخوف من الله باب السلامة]

تأملتُ حالةً أزعَجَتْني، وهو أنَّ الرجلَ قد يَفْعَلُ مع امرأتِهِ كلَّ جميل وهي لا تُحبُّهُ، وكذا يَفْعَلُ مع صديقِهِ والصديقُ يُبْغِضُهُ، وقد يَتَقَرَّبُ إلى

(١) يعني ٥٧٥هـ، أيام حياة المصنف رحمه الله.

(٢) في الأصول: «فتواقع»، والتصحيح من بعض المطبوعات.

السلطانِ بكلِّ ما يَقْدِرُ عليه والسلطانُ لا يُؤْثِرُهُ، فيبقى متحيِّرًا يقولُ: ما حيلتي؟!

فَخِفْتُ أنْ تكونَ هٰذهِ حالتي مع الخالقِ سبحانَه؛ أتقرَّبُ إليهِ، وهو لا يُريدُني، وربمَّا يكونُ قد كَتَبَني شَقِيًّا في الأزل.

ومِن هٰذا خافَ الحسنُ، فقالَ: أخافُ أنْ يكونَ اطَّلَعَ على بعضِ ذُنوبي، فقالَ: لا غفرتُ لكَ[1].

فليسَ إلَّا القلقُ والخوفُ، لعلَّ سفينةَ الرَّجا تَسْلَمُ يومَ دُخولها الشاطىءَ من جُرُفٍ[2].

١٧٥ـ فصل

[في تعداد الصحيح من حديث النبي]

جرى بيني وبين أحدِ أصحابِ الحديثِ كلامٌ في قول الإمام أحمدَ: صحَّ مِن الحديثِ عن رسولِ اللهِ سبعُ مئةِ ألفِ حديثٍ. فقلتُ له: إنَّما يعني به الطُّرُقَ. فقال: لا؛ بل المتونَ! فقلتُ: هٰذا بعيدُ التصوُّر.

ثم رأيتُ لأبي عبدِ اللهِ الحاكمِ[3] كلامٌ يَنْصُرُ ما قالَ ذٰلك الشخصُ،

---

(١) تقدمت ترجمة الحسن البصري في (فصل ١٩). وانظر خبره هٰذا في «الزهد» (ص ٣٢٦) لأحمد.

(٢) الجرف: الحافة الصخرية الشديدة الانحدار على الشاطىء؛ يخشى أن تصطدم بها المراكب أو يسقط منها شيء على المراكب.

(٣) هو محمد بن عبد الله النيسابوري، صاحب «المستدرك على الصحيحين»، الإمام، المشهور، توفي سنة ٤٠٥هـ. انظر ترجمته في: مقدمة «المستدرك»، «سير أعلام النبلاء» (١٧ / ١٦٢).

وهو أنَّه قالَ في كتاب «المدخَل إلى كتاب الإكليل»: كيف يجوزُ أنْ يُقالَ: إن حديثَ رسول اللهِ ﷺ لا يَبْلُغ عَشَرَةَ آلافِ حديثٍ؛ وقد روى عنه من أصحابِهِ أربعةُ آلافِ رجلٍ وامرأةٍ، صحبوه نيِّفًا وعشرينَ سنةً بمكةَ ثم بالمدينةِ، حفظوا أقوالَهُ وأفعالَهُ ونومَهُ وَيَقْظَتَهُ وحركاتِهِ وغيرَ ذٰلك سوى ما حفِظوا من أحكام الشريعةِ؟! واحتجَّ بقول أحمدَ: صحَّ مِن الحديثِ عن رسول اللهِ ﷺ سبعُ مئةِ ألفِ حديثٍ وكَسْرٌ، وأنَّ إسحاقَ بنَ راهَوَيْه[1] كان يُمْلي سبعينَ ألفَ حديثٍ حفظًا، وأنَّ أبا العباس بنَ عُقْدَةَ[2] قالَ: أحفظُ لأهلِ البيتِ ثلاثَ مئةِ ألفِ حديثٍ. قال ابنُ عُقْدَةَ: وظَهَرَ لابنِ كُرَيْبٍ بالكوفةِ ثلاثُ مئةِ ألفِ حديثٍ.

قلتُ: ولا يَحْسُنُ أنْ يُشارَ بهٰذا إلى المتونِ.

وقد عَجِبْتُ كيفَ خَفِيَ هٰذا على الحاكم، وهُو يعلمُ أنَّ أجمعَ المسانيدِ الظاهرةِ «مسند أحمل بن حنبل»، وقد طافَ الدُّنيا مرتينِ حتى حَصَّلَهُ، وهو أربعونَ ألفَ حديثٍ، منها عشرةُ آلافٍ مكرَّرَةٌ.

قال حنبلُ بنُ إسحاقَ: جَمَعَنا أحمدُ بن حنبل أنا وصالحٌ وعبدُ الله[3]، وقرأ علينا «المسند»، وقال لنا: هٰذا كتابٌ جمعتُه من أكثر من سبع مئةِ ألفٍ وخمسينَ ألفًا، فما اختلفَ المسلمونَ فيه من حديثِ رسولِ الله

---

(١) الإمام، سيد الحفاظ، شيخ المشرق، ولد سنة ١٦١هـ، وتوفي سنة ٢٣٨هـ. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٦ / ٣٤٥)، «سير أعلام النبلاء» (١١ / ٣٥٨).

(٢) أحمد بن محمد، الحافظ، العلامة، نادرة الزمان، ولد سنة ٢٤٩هـ، وتوفي سنة ٣٣٢هـ. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٥/١٤)، «أعلام النبلاء» (١٥/٣٤٠).

(٣) صالح وعبد الله ولدا الإمام أحمد.

ﷺ؛ فارْجِعوا إليه؛ فإنْ وَجَدْتُموهُ، وإلَّا؛ فليسَ بِحُجَّةٍ[1].

أفترى يَخْفى على متيقِّظٍ أنه أرادَ بكونِهِ جَمَعَهُ من سبع مئةِ ألفٍ أنه أراد الطُّرُقَ؟! لأن السبعَ مئةِ الألفِ إن كانتْ من كلام رسولِ الله ﷺ؛ فكيفَ أهملها؟!

فإن قيلَ؛ فقد أخرجَ في «مسنده» أشياءَ ضعيفةً[2]، ثم أعوذُ باللهِ أنْ يكونَ سبعُ مئةِ ألفٍ ما تحقَّقَ منها سوى ثلاثينَ ألفًا! وكيفَ ضاعتْ هٰذه الجملةُ؟! ولِمَ أهْمِلَتْ؛ وقد وصلتْ كلُّها إلى زمنِ أحمدَ، فانتقى منها ورمى الباقي؟! وأصحابُ الحديث قد كَتَبوا كلَّ شيءٍ من الموضوع والكَذِب.

وكذٰلك قال أبو داوودَ: جمعتُ كتابَ «السنن» من ستِّ مئةِ ألف حديثٍ[3].

ولا يَحْسُنُ أنْ يقالَ: إن الصحابةَ الذين رَوَوْها ماتوا، ولم يُحَدِّثوا بها التابعينَ؛ فإنَّ الأمرَ قد وصلَ إلى أحمدَ، فأحصى سبعَ مئةِ ألفِ حديثٍ، وما كانَ الأمرُ لِيَذْهَبَ هٰكذا عاجلًا!

---

(١) يعني: على التقريب، وإلا؛ فهناك كثير من الأحاديث الصحيحة غير المخرجة في «المسند»، والمبثوثة في المسانيد الأخرى والمعاجم والأجزاء والتواريخ، بل وفي السنن أحاديث كثيرة غير مخرجة في «المسند»، بل وفي «الصحيحين» أحاديث غير مخرجة في «المسند». وانظر تعليق الذهبي على هٰذا القول في «السير» (١١ / ٣٢٩).

(٢) يعني: فإن قيل: إنها من كلام رسول الله ﷺ، ولٰكن أهملها لأنها لم تصح؛ قلنا: فقد أخرج في «مسنده» أشياء ضعيفة.

(٣) انظر الخبر في «سير أعلام النبلاء» (١٣ / ٢٠٩).

ومعلومٌ أنَّـه لو جُمِعَ الصحيحُ والمُحالُ الموضوعُ وكلُّ منقولٍ عن رسول الله ﷺ؛ ما بَلَغَ خمسين ألفًا! فأين الباقي؟!

ولا يجوزُ أنْ يُقالَ: تلك الأحاديثُ كلامُ التابعين؛ فإنَّ الفقهاءَ نقلوا مذاهبَ القوم ودوَّنوها وأخذوا بها، ولا وجهَ لِتَرْكِها!

فَفَهِمَ كلُّ ذي لُبٍّ أنَّ الإشارةَ إلى الطُّرُقِ، وأنَّ ما توهَّمَهُ الحاكمُ فاسدٌ، ولو عُرِضَ هٰذا الاعتراضُ عليه، وقيلَ لهُ: فأينَ الباقي؟! لم يكنْ له جوابٌ. لٰكنَّ الفهمَ عزيزٌ[1]، والله المنعمُ بالتوفيقِ.

ومثلُ هٰذا تَغْفيلُ قوم قالوا: إنَّ البخاريَّ لم يُخْرِجْ كلَّ ما صحَّ عندَه، وإنَّ ما أخرجَ كالأنموذجِ، وإلَّا؛ فكانَ يُطَوِّلُ. وقد ذهبَ إلى نحوِ هٰذا أبو بكر الإسماعيليُّ، وحكى عن البخاريِّ أنه قال: ما تركتُ من الصحيح أكثرُ.

وإنمـا يعني الطُّرُقَ[2]. يَدُلُّ على ما قلتُهُ أنَّ الدارقطنيَّ ـ وهو سيِّدُ الحفَّاظِ ـ جَمَعَ ما يلزمُ البخاريَّ ومسلِمًا إخراجُه، فَبَلَغَ ما لم يذكُراه أحاديثَ يسيرة، ولو كانَ كما قالوا؛ لأخْرَجَ مجلَّداتٍ.

ثم قولُـه: «ما يلزمُ البخاريَّ»: دليلٌ صريحٌ على ما قلتُه؛ لأنه مَن أخْرَجَ الأنموذَجَ؛ لا يلزمُهُ شيءٌ.

---

(١) وهٰذا قول قبيح حقًّا، فرحم الله ابن الجوزي؛ فما كان ينبغي له أن يتكلم هٰكذا في حق هٰذا الإمام العظيم، وليس من شرط العالم والإمام ألا يخطىء، وكل مأخوذ من قوله ومردود عليه، وإذا كان الحاكم يعوزه الفهم؛ فمن يوصف به بعد هٰذا؟!

(٢) بل والمتـون أيضًا؛ فالناظر في المتون الصحيحة سيجد أن ما في البخاري ومسلم منها لا يتجاوز النصف إطلاقًا، هٰذا إن بلغه أو قاربه.

وكذٰلك أخرجَ أبو عبد الله الحاكمُ كتابًا جَمَعَ فيه ما يلزمُ البخاريَّ إخراجُهُ، فَذَكَرَ حديثَ الطائِرِ، فلم يلتفِتْ الحفاظُ إلى ما قَالَهُ[1].

(١) المقصود بحديث الطائر ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه كان شاكيًا، فأتاه محمد بن الحجاج يعوده في أصحاب له، فجرى الحديث، حتى ذكروا عليًا رضي الله عنه، فتنقصه محمد بن الحجاج، فقال أنس: من هٰذا؟! أقعدوني! فأقعدوه، فقال: ابن الحجاج! ألا أراك تنقص علي بن أبي طالب، والذي بعث محمدًا ﷺ بالحق؛ لقد كنت خادم رسول الله ﷺ بين يديه، وكان كل يوم يخدم بين يدي رسول الله ﷺ غلام من أبناء الأنصار، فكان ذٰلك اليوم يومي، فجاءت أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ بطير، فوضعته بين يدي رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا أم أيمن! ما هٰذا الطائر؟». قالت: هٰذا الطائر أصبته فصنعته لك. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم! جئني بأحب خلقك إليك وإلي يأكل معي من هٰذا الطائر». وضرب الباب، فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس! انظر من على الباب؟». قلت: اللهم! اجعله رجلًا من الأنصار. فذهبت؛ فإذا علي بالباب، قلت: إن رسول الله ﷺ على حاجة. فجئت حتى قمت من مقامي، فلم ألبث أن ضرب الباب، فقال: «يا أنس! انظر من على الباب؟». فقلت: اللهم! اجعله رجلًا من الأنصار. فذهبت؛ فإذا علي بالباب، قلت: إن رسول الله ﷺ على حاجة. فجئت حتى قمت مقامي، فلم ألبث أن ضرب الباب، فقال رسول الله ﷺ: «يا أنس! اذهب فأدخله؛ فلست بأول رجل أحب قومه، ليس هو من الأنصار». فذهبت، فأدخلته، فقال: «يا أنس! قرب إليه الطير». قال: فوضعته بين يدي رسول الله ﷺ، فأكلا جميعًا. قال محمد بن الحجاج: يا أنس! كان هٰذا بمحضر منك؟ قال: نعم. قال: أعطي بالله عهدًا أن لا أنتقص عليًا بعد مقامي هٰذا ولا أعلم أحدًا ينتقصه إلا أشنت له وجهه.

أخرجه الحاكم (٣ / ١٣٠ ـ ١٣٢) بإسنادين، وقال بعد الأول منهما: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقد رواه عن أنس جماعة من أصحابه زيادة على ثلاثين نفسًا، ثم صحت الرواية عن علي وأبي سعيد الخدري وسفينة، وفي حديث ثابت البناني عن أنس زيادة ألفاظ. . . »ثم ذكره باللفظ الذي قدمناه.

قال الذهبي في الإسناد الأول: «[فيه] ابن عياض لا أعرفه، ولقد كنت زمانًا طويلًا أظن أن حديث الطير لم يجسر الحاكم أن يودعه في «مستدركه»، فلما علقت هٰذا الكتاب؛ =

فما أقلَّ فَهْمَ هٰؤلاء الذين شَغَلَهُمْ نَقْلُ الحديثِ عن التدقيقِ الذي يلزمُ في صحةِ الحديثِ(١). وإنما وَقَعَ لِقِلَّةِ الفقهِ والفَهْم.

إنَّ البخاريَّ ومسلمًا تركا أحاديثَ أقوام ثِقاتٍ؛ لأنَّهم خُولفوا في الحديثِ، فَنَقَصَ الأكثرونَ من الحديثِ وزادوا، ولو كانَ ثَمَّ فِقْهٌ؛ لَعَلِموا أنَّ الزيادةَ مِن الثقةِ مقبولةٌ! وتَركوا أحاديثَ أقوام لأنَّهم انْفردوا بالروايةِ عن شخصٍ، ومعلومٌ أنَّ انفرادَ الثقةِ لا عيبَ فيه! وتَركوا مِن ذٰلك الغرائبَ. وكلُّ ذٰلك سوءُ فَهْم(٢).

ولهٰذا لم يلتزم الفقهاءُ هٰذا، وقالوا: الزيادةُ من الثقةِ مقبولةٌ، ولا يُقْبَلُ القَدْحُ حتَّى يُبيِّنَ سببُهُ.

= رأيت الهول من الموضوعات التي فيه، فإذا حديث الطير بالنسبة إليها سماء». وقال في الإسناد الآخر: «[فيه] إبراهيم بن ثابت ساقط». وقال العقيلي في الحديث: «ليس له أصل، وقد رواه معلى بن عبد الرحمٰن عن حماد، ومعلى يكذب، ولم يأت به ثقة عن حماد، وفي هٰذا الباب لين، ولا أعلم فيه شيئًا ثابتًا».

وقد استنكر الحديث كثير من أهل العلم، ولا محل للإطالة بنقل أقوالهم هنا، والمقصود أن ابن الجوزي رحمه الله قد كان محقًا في هٰذا الانتقاد الشديد للحاكم على إخراجه هٰذا الحديث وأمثاله من الواهيات والموضوعات في كتابه، ثم تصحيحها على شرط الشيخين!! لٰكن ليته لطف عبارته وألان كلامه في حق كثير من أهل العلم.

(١) في بعض المطبوعات: «عن التدقيق الذي لا يلزم في صحة الحديث»، وفي بعضها: «من التدقيق الذي لا يلزم في صحة الحديث»، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) يا عجبًا لابن الجوزي هٰذا! هل ينتقد فهم وفقه البخاري ومسلم؟! إنها والله إحدى الكبر!! فإن كان البخاري ومسلم عندهم سوء فهم، وفي ماذا؟! في أصول الحديث!! وفي زيادة الثقة!! وفي الغرائب!! وفي الأفراد!! فمن الذي يتقن الحديث ويعرف مداخله ومخارجه وعلله وأحوال رجاله؟!

وكلُّ مَن لم يخالطِ الفقهاءَ وَجَهَدَ مع المحدثين؛ تأذَّى وساءَ فَهْمُهُ[١]!!

فالحمدُ للهِ الذي أنعم علينا بالحالتينِ.

١٧٦ـ فـصـل

[فصاحة النطق سجية جبلية عند الأعراب]

اعلمْ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وَضَعَ في النُّفوسِ أشياءَ لا تحتاجُ إلى دليل؛ فالنفوسُ تعلمُها ضَرورةً، وأكثرُ الخلق لا يُحْسِنونَ التعبيرَ عنها.

فإنَّـه وَضَعَ في النفوس أنَّ المصنوعَ لا بدَّ له مِن صانع، وأنَّ المبنيَّ لا بدَّ له من بانٍ، وأنَّ الاثنينِ أكثرُ من الواحدِ، وأنَّ الجسمَ الواحدَ لا يكونُ في مكانينِ في حالةٍ واحدةٍ... ومثلُ هٰذه الأشياءِ لا تحتاجُ إلى دليلٍ.

وألهمَ العربَ النُّطْقَ بالصَّوابِ من غيرِ لَحنٍ؛ فهم يفرِّقونَ بين المرفوع والمنصوبِ بأماراتٍ في جِبِلَّتِهِم[٢]، وإن عَجَزوا عنِ النُّطْقِ بالعلَّةِ.

قال عثمانُ بنُ جِنِّيٍّ[٣]: سألتُ يومًا أبا عبدِ اللهِ محمدَ بنَ عسَّافٍ

(١) ما زال المحققون من أهل العلم ينظرون بتقدير عظيم إلى تبويب البخاري لـ «الجامع الصحيح»، ويرون أنه أودع فيه فقهًا عظيمًا وعلمًا جمًّا بأحكام الشريعة يشير إلى دقيق فهم هٰذا الإمام وسعة اطلاعه وطول باعه في مختلف القضايا الفقهية، ويحتجون بآرائه في ذٰلك؛ فكيف يقال بعد هٰذا: إنه ليس من الفقهاء؟! وإنه تأذى فهمه؟! هٰذا كلام لا يستحق أن يتشاغل بالرد عليه والله؛ فرحم الله ابن الجوزي وغفر الله.

(٢) الجبلة: أصل الخلقة؛ يعني أنهم مفطورون على ذٰلك.

(٣) إمام العربية، صاحب التصانيف، ولد قبل ٣٣٠هـ، وتوفي ٣٩٢هـ. انظر ترجمته: «تاريخ بغداد» (١١ / ٣١١). «سير أعلام النبلاء» (١٧ / ١٧).

العُقَيْلِيَّ، فقلتُ له: كيفَ تقولُ: (ضَرَبْتُ أخوكَ)؟ فقالَ: أقولُ: (ضَرَبْتُ أخـاكَ). فـأدَرْتُـهُ على الرفع، فأبى، وقالَ: لا أقولُ (أخوكَ) أبدًا! قلتُ: فكيفَ تقولُ: (ضَرَبَني أخوكَ)؟ فَرَفَعَ، فقلتُ: أليسَ زعمتَ أنَّك لا تقولُ (أخوكَ) أبدًا. فقال: إيشٍ هٰذا؟! اختلفتْ جِهَتُها في الكلام!

وهٰذا أدلُّ شيءٍ على تأمُّلِهِم مواقعَ الكلام، وإعطائِهِم إيَّاه في كلِّ موضعٍ حقَّه، وأنه ليس استِرْسالاً ولا تَرْخيمًا.

قال عثمانُ: واللغةُ هي أصواتٌ، يعبِّرُ بها كلُّ قوم عن أغراضِهِم، والنحوُ انتحاءُ سَمْتِ كلام العربِ في تصرُّفِهِ؛ من إعرابٍ وغيرِه؛ كالتثنيةِ، والجمع، والتحقير، والتكسيرِ. . . وغير ذٰلك؛ ليلحقَ مَن ليسَ من أهل اللغةِ أهلَها.

١٧٧ـ فـصـل

[في أن النظر والتأمل سبب الصلاح وتركه سبب الفساد]

تدبَّرْتُ أحوالَ الأخيارِ والأشرارِ، فرأيتُ سببَ صلاح الأخيارِ النَّظَرَ، وسببَ فسادِ الأشرارِ إهمالَ النَّظَرِ.

وذاك أنَّ العاقلَ ينظُرُ، فيعلمُ أنَّه لا بدَّ مِن صانعٍ، وأنَّ طاعتَه لازمةٌ، ويتأمَّلُ معجزاتِ رسولِ اللهِ ﷺ، فيُسَلِّمُ قِيادَهُ إلى الشرع، ثم يَنْظُرُ فيما يُقَـرِّبُـهُ إليه ويُزْلِفُهُ لديهِ. فإذا شَقَّ عليه إعادةُ العلم؛ تأمَّلَ ثَمَرَتَهُ، فَسَهُلَ ذٰلـك. وإذا صَعُبَ عليه قيامُ الليلِ؛ فكذٰلك. وإذا رأى مشتهىً؛ تأمَّلَ عاقِبَتَهُ، فعلمَ أنَّ اللَّذَّةَ تَفْنى، والعارَ والإثمَ يبقيانِ؛ فَيَسْهُلُ عليه التَّرْكُ. وإذا اشتهى الانتقامَ ممَّنْ يؤذيهِ؛ ذَكَرَ ثوابَ الصبرِ، ونَدَمَ الغضبانِ على أفعالِهِ في

حال الغضبِ. . . ثم لا يزالُ يتأمَّلُ سُرعةَ مَمرِّ العُمُرِ، فَيغْتَنِمُهُ بتَحْصيل أفضل الفَضائل، فينال مُناهُ.

وأما الغافلُ؛ فإنَّه لا يرى إلاَّ الشيءَ الحاضرَ؛ فمنهم مَن لم يتأمَّلْ في معنى المصنوع وإثباتِ الصانع، فَجَحَدوا، وتَركوا النَّظَرَ، وجَحَدوا الرسلَ وما جاؤوا بِهِ، ونَظَروا إلى العاجل، ولم يَتَفَكَّروا في مبدئِهِ ومنتهاهُ؛ فليس عندَهُم مِن عرفانِ المَطْعَم إلاَّ الأكلُ، ولو تأمَّلوا كيفَ أُنْشِىءَ؟ ولماذا جُعِلَ حافظًا للأبدانِ؟ لَعَرَفوا حقائِق الأمور! وكذٰلك كلُّ شهوةٍ تَعْرِضُ لهم؛ لا ينظرونَ في عاقبتِها، بل في عاجل لَذَّتِها. وكم قد جَنَتْ عليهم؛ مِن وقوع حَدٍّ، وقَطْع يدٍ وفضيحةٍ! فتعجيلُ اللَّذَّةِ يفوِّتُ الفضائلَ ويُحَصِّلُ الرذائلَ، وسببُه عدمُ النظرِ في العواقبِ، وهٰذا شُغْلُ العقل، وذاك المذمومُ شُغْلُ الهوى.

نسأَلُ اللهَ عزَّ وجلَّ يَقَظَةً تُرينا العواقبَ، وتكشِفُ لنا الفضائلَ والمعائِبَ، إنَّه قادرٌ على ذٰلك.

١٧٨ ـ فصل

[صاحب الهمة بين الآمال العريضة والعمر المحدود]

خُلِقَتْ لي هِمَّةٌ عاليةٌ تَطْلُبُ الغاياتِ، فعَلَتِ[1] السِّنُّ وما بلغتُ ما أمَّلتُ! فأخذْتُ أسألُ تَطْويلَ العُمُرِ وتقويةَ البدنِ وبلوغَ الآمالِ. فأنكرتْ عليَّ العاداتُ، وقالتْ: ما جَرَتْ عادةٌ بما تَطْلُبُ. فقلتُ: إنَّما أَطْلُبُ من

(١) في بعض المطبوعات: «فقلَّت»! وهٰذا عكس المراد تمامًا.

قادرٍ يخرقُ العاداتِ؛ وقد قيلَ لرجل: لنا حُوَيْجَةٌ. فقالَ: اطْلُبوا لها رُجَيْلًا. وقيلَ لآخَرَ: جئناكَ في حاجةٍ لا تَرْزَؤُكَ[1]. فقالَ: هلَّا طَلَبْتُم لها سفاسِفَ الناسِ! فإذا كان أهلُ الأَنَفَةِ من أربابِ الدُّنيا يقولونَ هٰذا؛ فَلِمَ لا نَطْمَعُ في فضل كريم قادرٍ؟!

وقد سألتُهُ هٰذا السؤالَ في ربيعٍ الآخرِ مِن سنةِ خمسٍ وسبعينَ[2]؛ فإنْ مُدَّ لي أجلي، وبلغتُ ما أملتُه؛ نقلتُ هٰذا الفصلَ إلى ما بعدُ، وبيَّضْتُهُ، وأخبرتُ ببلوغ آمالي، وإنْ لم يَتَّفِقْ ذٰلك؛ فسيِّدي أعلمُ بالمصالح؛ فإنَّه لا يَمْنَعُ بُخْلًا، ولا حولَ إلَّا بهِ.

١٧٩ ـ فصل

[استقيموا مع الحق ولا تتزينوا للخلق]

ما أقلَّ مَن يَعْمَلُ للهِ تعالى خالصًا!

لأنَّ أكثرَ الناسِ يُحِبُّونَ ظُهورَ عباداتِهِم، وسفيانُ الثوريُّ كان يقولُ: لا أَعْتَدُّ بما ظَهَرَ من عملي[3]! وكانوا يَسْتُرونَ أنفُسَهم، واليومَ ثيابُ القوم تُشْهِرُهُم! وقد كان أيُّوبُ السَّخْتِيانيُّ يطوِّلُ قَميصَهُ حتى يَقَعَ على قدميهِ، ويقولُ: كانتِ الشُّهْرَةُ في التطويلِ، واليومَ الشهرةُ في التقصيرِ[4].

---

(١) لا ترزؤك: لا تنقصك ولا تتعبك.

(٢) وخمس مئة.

(٣) تقدمت ترجمة سفيان في (فصل ١٩).

(٤) أيوب السختياني: هو الإمام، الحافظ، سيد العلماء، أحد صغار التابعين، ولد سنة ٦٨هـ، وتوفي سنة ١٣١هـ. انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» (٣ / ٢). وانظر خبره هٰذا في: «سير أعلام النبلاء» (٦ / ٢٢).

فاعلمْ أنَّ تَرْكَ النظرِ إلى الخلقِ، ومَحْوَ الجاهِ من قلوبِهم؛ بالتعمُّل[١] وإخلاصِ القَصْدِ وسَتْرِ الحالِ، هو الذي رَفَعَ مَن رَفَعَ؛ فقدْ كان أحمدُ بنُ حنبلٍ يَمْشي حافيًا في وقتٍ، ويَحْمِلُ نَعْلَيْهِ في يديهِ، ويخرجُ للَّقاطِ[٢]، وبشرٌ يمشي حافيًا على الدوام وحدَه[٣]، ومعروفٌ يلتقِطُ النَّوى[٤].

واليومَ صارتِ الرِّياساتُ من كلِّ جانبٍ، وما تتمكَّنُ الرياساتُ حتى تتمكَّنَ من القلبِ الغفلةُ ورؤيةُ الخلقِ ونسيانُ الحقِّ؛ فحينئذٍ تُطْلَبُ الرِّياسةُ على أهلِ الدُّنيا.

ولقد رأيتُ مِن الناس عَجَبًا، حتى مَن يَتَزَيَّى بالعلم: إنْ رآني أمشي وحدي؛ أنْكَرَ عليَّ، وإن رآني أزورُ فقيرًا؛ عَظَّمَ ذلك، وإن رآني أنبسِطُ بتَبَسُّمٍ؛ نَقَصْتُ من عينِه.

فقلتُ: فوا عجبًا! هذه كانت طريقُ الرسولِ ﷺ والصحابةِ رضي الله عنهم، فصارتْ أحوالُ الخَلْقِ نواميسَ لإقامةِ الجاهِ.

لا جَرَمَ[٥] واللهِ سَقَطْتُم مِن عَيْنِ الحقِّ فأسْقَطَكُم من عينِ الخَلْقِ.

---

(١) التعمل: التظاهر.

(٢) اللَّقاط: السنبل الذي تخطئه المناجل؛ فلا يأخذه أهله، بل يتركونه للمحتاج، وما نظن هذا يصح عن الإمام أحمد رضي الله عنه، وهو الذي امتنع عن مال السلطان ومال الأحباب ومال الإخوان؛ فمن المستبعد أن يأخذ بقايا الناس وأوساخهم؛ إلا إذا قصد المصنف باللقاط: الحصاد؛ فيكون خروجه على سبيل العمل بالأجرة. فالله أعلم.

(٣) الحافي، وقد تقدمت ترجمته في (فصل ١٩).

(٤) الكرخي، وقد تقدمت ترجمته في (فصل ٢٥).

(٥) لا جرم: لا بدَّ، حقًّا. . . ثم كثر حتى أصبح بمعنى القسم.

فكم ممَّنْ يَتْعَبُ في تربيةِ نامـوسٍ؛ ولا يُلْتَفَتُ إليه، ولا يَحْـظى بِمُرادِهِ، ويفوتُهُ المرادُ الأكبرُ.

فالْتَفِتـوا إخـواني إلى إصـلاح النِّيَّاتِ وتَرْكِ التزيُّنِ للخلقِ! ولتكنْ عُمْدَتُكُم الاستقامةَ مع الحقِّ؛ فبذلك صَعِدَ السَّلَفُ وسَعِدُوا. وإيَّاكم وما الناسُ عليه اليومِ؛ فإنَّه بالإضافةِ إلى يَقَظَةِ السَّلَفِ نومٌ.

١٨٠ـ فصل

[في أن الهدى هدى الله]

واللهِ؛ ما يَنْفَعُ تأديبُ الوالدِ إذا لم يَسْبِقِ اختيارُ الخالقِ لذلك الولدِ[١]!

فإنَّه سبحانَه إذا أرادَ شَخْصًا؛ ربَّاه مِن طُفولتهِ، وهداهُ إلى الصَّوابِ، ودلَّه على الرشادِ، وحَبَّبَ إليه ما يُصْلِحُ، وصَحَّبَهُ مَنْ يَصْلُحُ، وبَغَّضَ إليه ضِدَّ ذلك، وقبَّحَ عندَه سَفْسافَ الأمورِ، وعَصَمَهُ من القبائحِ، وأخَذَ بيدِهِ كلَّما عَثَرَ.

وإذا أبغضَ شخصًا؛ تركَهُ دائمَ التعثيرِ، متخبِّطًا في كلِّ حالٍ، ولم يَخْلُقْ له هِمَّةً لِطَلَبِ المعالي، وشَغَلَهُ بالرَّذائلِ عن الفضائلِ، وإنْ قالَ: لم خُصِصْتُ بهذا؟! قالَ الخطابُ الذي لا يُجابُ: ﴿فَبِما كَسَبَتْ أيْديكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠].

---

(١) ولكنه واجب عليه، مطلوب منه، نعم؛ ما قدر كائن، ولكن النبي ﷺ قد أمرنا بالعمل، فقال ﷺ: «اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له».

١٨١ ـ فصل

[وفي أنفسكم أفلا تبصرون]

مِن أكْبَرِ الدَّليل على وُجودِ الخالقِ سبحانَه هٰذه النفسُ الناطقةُ المميِّزَةُ، المحركةُ للبدنِ على مُقْتَضى إرادتِها، والتي دَبَّرَتْ مصالِحَها، وترقَّتْ إلى معرفةِ الأفلاكِ، واكتسبتْ ما أمْكَنَ تحصيلُهُ من العلوم، وشاهدتِ الصانعَ في المصنوع؛ فلم يحجُبْها سِترٌ وإنْ تكاثَفَ! ولا يُعْرَفُ مع هٰذا ماهيَّتُها، ولا كيفيَّتُها، ولا جوهرُها، ولا محلُّها، ولا يُفْهَمُ مِن أين جاءَت؟ ولا يُدْرَى أينَ تذهبُ؟ ولا كيف تَعَلَّقَتْ بهٰذا الجسدِ؟

وهٰذا كلُّه يوجِبُ عليها أنَّ لها مدبِّرًا وخالِقًا، وكفى بذٰلك دَليلًا عليه؛ إذ لو كانتْ وُجِدَتْ بها؛ لما خَفِيَتْ أحوالُها عليها.

فسبحانَه سبحانَه.

١٨٢ ـ فصل

[في فضل أهل العلم]

سبحانَ مَن مَنَّ على الخَلْق بالعلماءِ الفُقَهاءِ، الذين فَهِموا مقصودَ الأمرِ ومُرادَ الشارِعِ؛ فَهُمْ حَفَظَةُ الشَّريعةِ، فأحسنَ اللهُ جزاءَهم، وإنَّ الشيطانَ لَيَتجافاهم خَوْفًا منهم؛ فإنَّهم يقدِرونَ على أذاهُ، وهو لا يَقْدِرُ على أذاهم.

ولقدْ تلاعبَ بأهل الجَهْل والقليلي الفَهْم، وكان من أعجبِ تلاعُبِهِ أنْ حَسَّنَ لأقوامٍ تَرْكَ العلم، ثم لم يَقْنَعوا بهٰذا حتى قَدَحوا في المتشاغلينَ

به.

وهٰـذا ـ لو فَهِمـوه ـ قدحٌ في الشريعةِ؛ فإنَّ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «بَلِّغوا عنِّي»(١)، وقد قالَ له ربُّه عزَّ وجلَّ: ﴿بَلِّغ﴾ [المائدة: ٦٧]؛ فإذا لم يَتَشاغَلْ بالعلمِ؛ فكيفَ يُبَلِّغُ الشريعةَ إلى الخَلْق؟!

ولقد نُقِلَ مثلُ هٰذا عن كبارِ الزُّهادِ؛ كبشرٍ الحافي(٢)! فإنَّه قالَ لعباس بن عبدِ العظيم: لا تجالسْ أصحابَ الحديثِ(٣). وقال لإسحاقَ بنِ الضيفِ: إنَّكَ صاحبُ حديثٍ؛ فأُحِبُّ أنْ لا تعودَ إليَّ. ثم اعْتَذَرَ فقالَ: إنَّما الحديثُ فتنةٌ إلَّا لمنْ أرادَ اللهَ به، وإذا لم يُعْمَلْ به؛ فتَرْكُهُ أفضلُ(٤).

وهٰذا عجبٌ منه! من أينَ له أنَّ طُلَّابَهُ لا يريدونَ اللهَ به، وأنَّهم لا يعملونَ به؟! أوَليسَ العملُ به على ضربين: عملٌ بما يَجِبُ، وذٰلك لا يسعُ أحدًا تَرْكُهُ. والثاني: نافلةٌ، ولا يَلْزَمُ، والتشاغُلُ بالحديثِ أفضلُ من التنفُّلِ بالصوم والصَّلاةِ.

وما أظنُّه أرادَ إلَّا طريقَهُ في دوام الجوعِ والتهجُّدِ، وذٰلك شيءٌ لا يُلامُ تاركُه.

فإنْ كان يريدُ أنْ لا يوغِلَ في علوم الحديثِ؛ فهٰذا خطأٌ؛ لأنَّ جميعَ

---

(١) رواه البخاري (٦٠ ـ كتاب أحاديث الأنبياء، ٥٠ ـ باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ٦ / ٤٩٦ / ٣٤٦١)؛ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: «بلغوا عني ولو آية...».

(٢) تقدمت ترجمته في (فصل ١٩).

(٣) هو عباس الدوري، وقد تقدمت ترجمته وخبره هٰذا في (فصل ٥٨).

(٤) انظر: «حلية الأولياء» (٨ / ٣٣٧ و٣٣٩ و٤٣٠ و٣٤١ و٣٤٥ و٣٤٧).

أقسامهِ محمودةٌ. أفترى لو تَرَكَ الناسُ طَلَبَ الحديثِ؛ كانَ بشرٌ يُفْتي؟!

فاللهَ اللهَ في الالتفاتِ إلى قول مَنْ ليس بفقيهٍ، ولا يهولَنَّكَ تعظيمُ اسمهِ؛ فاللهُ يَعْفو عنه.

١٨٣ ـ فصل

[من التمس رضى الله بسخط الناس؛ كفاه الله مؤنتهم]

العاقلُ مَن يَحْفَظُ جانبَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وإن غَضِبَ الخَلْقُ.

وكلُّ مَنْ يَحْفَظُ جانبَ المخلوقينَ، ويُضَيِّعُ حَقَّ الخالقِ؛ يُقَلِّبُ اللهُ قَلْبَ الذي قَصَدَ أنْ يُرْضِيَهُ، فيُسْخِطُهُ عليه.

قال المأمونُ لبعضِ أصحابِهِ: لا تعصِ اللهَ بطاعتي؛ فيسلِّطني عليكَ.

ولما بالغَ طاهرُ بنُ الحسينِ فيما فعلَ بالأمينِ، وَفَتَكَ بهِ، وصَلَبَ رأسَه، وإنْ كانَ ذلك عن إرادةِ المأمونِ، ولكنْ بَقِيَ أثرُ ذلك في قلبهِ، فكانَ المأمونُ لا يَقْدِرُ أنْ يَراه.

ولقد دَخَلَ عليه يومًا، فبكى المأمونُ، فقالَ له طاهرٌ: لَمَ تَبْكي؛ لا أبكى اللهُ عَيْنَكَ؛ فلقدْ دانتْ لكَ البلادُ؟ فقالَ: أبكي لأمرٍ ذِكْرُهُ ذُلٌّ، وسِتْرُهُ حزنٌ، ولنْ يَخْلُوَ أحدٌ مِن شَجَنٍ. فلما خَرَجَ طاهرٌ؛ أنفذَ إلى حسينٍ الخادم مئتي ألفِ درهم، وسألَه أنْ يسألَ المأمونَ: لم بَكى؟ فلما تغدَّى المأمونُ؛ قالَ: يا حسينُ! اسْقِني. قال: لا واللهِ؛ لا أسقيكَ حتى تقولَ لم بَكَيْتَ حينَ دَخَلَ عليكَ طاهرٌ؟ قال: يا حسينُ! وكيفَ عُنيْتَ بهذا حتى سألتَ

عنه؟ قالَ: لِغَمٍّي بذُلك. قال: يا حسينُ! آمُرُ: إنْ خَرَجَ مِن رأسِك؛ قَتَلْتُكَ. قالَ: يا سيدي! ومتى أخرجتُ لك سِرًّا؟ قالَ: إني ذكرتُ أخي محمَّدًا وما نالَه من الذِّلَّةِ، فخَنَقَتْني العَبْرَةُ، فاسترحتُ إلى إفاضَتِها، ولنْ يَفوتَ طاهِرًا مني ما يكرهُ. فأخْبَرَ حسينٌ طاهِرًا بذُلك، فركبَ طاهرٌ إلى أحمدَ بن أبي خالدٍ، فقالَ له: إنَّ المعروفَ عندي ليسَ بضائعٍ؛ فغيِّبْني عن عينِهِ. قالَ: سأفعلُ. فدخلَ على المأمونِ، فقالَ: ما بِتُّ البارحةَ. قالَ: ولِمَ؟ قالَ: لأنك ولَّيْتَ غسانَ بنَ عبادٍ خراسانَ، وهو ومَن معهُ أكَلَةُ رأسٍ، فأخافُ أنْ يَخْرُجَ خارِجٌ مِن التُّرْكِ فَيَصْطَلِمَهُ[١]. قال: فمَن تَرى؟ قال: طاهرَ بنَ الحسينِ. فعَقَدَ له، فمَضى، فبقي مدَّةً، ثم قَطَعَ الدُّعاءَ للمأمونِ على المنبرِ يومَ الجُمُعَةِ، فقالَ له صاحبُ البريدِ: ما دعوتَ لأميرِ المؤمنينَ. قالَ: سهوٌ؛ فلا تَكْتُبْ! ففعلَ ذٰلك في الجُمُعة الثانيةِ والثالثةِ، فقالَ له: لا بُدَّ أن أكْتُبَ؛ لئلَّا يَكْتُبَ التُّجَّارُ ويسبقوني. قال: اكتبْ. فكَتَبَ. فدَعا المأمونُ أحمدَ بنَ أبي خالدٍ، وقالَ: إنَّه لم يذهبْ عليَّ احتيالُك في أمرِ طاهرٍ، وأنا أعطي اللهَ عهدًا؛ إنْ لم تَشْخَصْ[٢] حتى توافِيَني به كما أخرجْتَه من قبضتي؛ لَتُذَمَّنَّ عُقْباكَ. فشَخَصَ، وجَعَلَ يَتَلَوَّمُ[٣] في الطريقِ، ويَعْتَلُّ بالمرضِ، فوصل إلى الرَّيِّ وقد بَلَغَتْهُ وفاةُ طاهرٍ[٤].

---

(١) اصطلمه: استأصله.

(٢) تشخص: تذهب.

(٣) يتلوم: ينتظر ويتأخر.

(٤) أما الأمين والمأمون؛ فهما الخليفتان العباسيان المعروفان، ولدا الرشيد، وقد وقعت حرب طويلة وويلات بينهما على الخلافة، ثم ظفر بها المأمون، وأتي برأس أخيه =

قلتُ: ولمّـا خَرَجَ الراشدُ من بغدادَ، وأرادوا تَوْلِيَةَ المُقْتَفي؛ شَهِدَ جماعةٌ مِن الشُّهودِ بأنَّ الراشدَ لا يَصْلُحُ للخلافةِ، فنَزَعوهُ، وولَّوا المقتفيَ، فَبَلَغَني أنه ذُكِرَ للمُقْتَفي بعضُ الشهودِ، فذَمَّهُ، وقالَ: كان فيمَن أعانَ على أبي جعفرٍ[1].

وعلى ضدِّ هٰذا كلُّ مَن يُراعي جانبَ الحقِّ والصوابِ؛ يَرْضَى عنه من سَخِطَ عليه.

ولقـد حدَّثَني الـوزير ابن هُبَيْرة أنَّ المستنجدَ باللهِ كَتَبَ إليه كتابًا وهو يومئذٍ وليُّ عهدٍ، وأراد أن يَسْتُرَهُ مِن أبيه. قالَ: فقلتُ للواصل بهِ: واللهِ؛ ما يُمْكِنُني أقرؤُه.ولا أجيبُ عنه. فلمّا وَلِيَ الخلافةَ؛ دَخَلْتُ عليه، فقلتُ: أكبـرُ دليل على صِدْقي وإخـلاصي أنِّي ما حابَيْتُـكَ في أبيكَ. فقـالَ: صدقتَ؛ أنت الوزيرُ[2].

= الأمين، فتكدر واستاء لذٰلك، وكان قائد جيوش المأمون وقاتل أخيه طاهر بن الحسين، وقد قدمنا ترجمته في (فصل ١١٠). وانظر أخبار الأمين والمأمون وطاهر بن الحسين ومن بينها هٰذا الخبر المذكور في «تاريخ الطبري» (٥ / ١٥٣).

(١) الراشد بالله أحد الخلفاء العباسيين، ولد سنة ٥٠٢هـ، وقتل سنة ٥٣٢هـ، وقد جمع السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه كثيرًا من القضاة والشهود والوزراء وعزلوا الراشد ونصبوا عمه المقتفي مكانه بعد سنة من خلافة الراشد. وانظر الخبر بالتفصيل في: «الكامل في التاريخ» (١١ / ٤٠). و«سير أعلام النبلاء» (١٩ / ٥٧٠).

(٢) المستنجد بالله هو ابن الخليفة المقتفي الذي تقدمت الإشارة إليه في الحاشية السابقة، وابن هبيرة هو الوزير الكامل والإمام العادل يحيى بن محمد، صاحب التصانيف، قتل سنة ٥٦٠هـ مسمومًا. وانظر الخبر في: «المنتظم» (١٠ / ٢١٤)، «سير أعلام النبلاء» (٢٠ / ٤٢٧).

وحدَّثني بعضُ الأصدقاءِ أنَّ قومًا ألحقوا إلى المخزنِ بعضَ دينٍ لهم ليُسْتَخْلَصَ، فقال المسترشدُ لصاحبِ المخزنِ: خلِّصْهُ لهم، وخذْ ما ضَمِنوا لنا! فأحضرَ ابنَ الرُّطَبِيِّ وعَرَضَ الأمرَ عليه؟ فقالَ: هٰذا أمرٌ بظُلْم، وما أحكمُ فيه. فقالَ: إنَّ السلطانَ قد تقدَّمَ. قالَ: ما أفعلُ؟ فأحْضَرَ قاضيًا آخرَ، فَبَتَّ الحكمَ، فأخبرَ الخليفةَ بالحال، فقالَ: أمّا ابنُ الرُّطَبِيِّ؛ فيُشْكَرُ على ما قالَ، وأمّا الآخرُ؛ فيُعْزَلُ. وذٰلك لأنَّه بانَ لهُ أنَّ الحقَّ ما قالَه ابنُ الرُّطَبِيِّ[١].

وكذٰلك ما طَلَبَهُ السلطانُ مِن أنْ يُلَقَّبَ مَلِكَ الملوكِ[٢]، فاستفتى الفقهاءَ، فأجازوا ذٰلك، وامتنعَ مِن إجازتهِ الماوَرْدِيُّ، فعَظُمَ قَدْرُهُ عندَ السلطانِ[٣].

ومثلُ هٰذا إذا تُتُبِّعَ كثيرٌ.

فينبغي أنْ يُحْسِنَ القصدَ لطاعةِ الخالِق، وإنْ سَخِطَ المخلوقُ؛ فإنَّه

(١) المسترشد أحد الخلفاء العباسيين، ولد سنة ٤٨٦هـ، وقتلته الباطنية غدرًا سنة ٥٢٩هـ، وهو أبو الخليفة الراشد الذي تقدم ذكره.

وابن الرطبي هو أحمد بن سلامة، أبو العباس، الكرخي، الشافعي، أحد أذكياء العصر، وهو مؤدب الخليفة الراشد، توفي سنة ٥٢٧هـ. انظر: «المنتظم» (١٠ / ٣١)، و«سير أعلام النبلاء» (١٩ / ٦١٠).

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ؛ قال: «أخنع الأسماء عند الله يوم القيامة رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله». متفق عليه.

(٣) الماوردي هو الإمام، القاضي، أبو الحسن، علي بن محمد بن حبيب البصري، صاحب التصانيف، توفي سنة ٤٥٠هـ عن ٨٦ سنة. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (١٢ / ١٠٢)، «سير أعلام النبلاء» (١٨ / ٦٤).

يعودُ صاغرًا، ولا يُسْخِطَ الخالقَ؛ فإنَّه يُسْخِطُ المخلوقَ، فيفوتُ الحظَّانِ جميعًا.

١٨٤ـ فصل
[في ضرورة التدقيق عند اختيار المخالط والصديق]

يَنْبَغي للعاقل أنْ يَنْظُرَ إلى الأصول فيمَن يخالِطُه ويعاشِرُه ويشارِكُه ويصادِقُه ويزوِّجُه أو يتزوَّجُ إليه، ثم يَنْظُرُ بعدَ ذلك في الصُّوَرِ؛ فإنَّ صلاحَها دليلٌ على صَلاحِ الباطنِ.

أمّا الأصولُ؛ فإنَّ الشيءَ يرجِعُ إلى أصلِه، وبعيدٌ ممَّنْ لا أصلَ لهُ أنْ يكونَ فيهِ معنىً مستحسَنٌ، وإنَّ المرأةَ الحسناءَ إذا كانتْ من بيتٍ رديءٍ؛ فقلَّ أنْ تكونَ صَيِّنَةً، وكذلك أيضًا المخالِطُ والصَّديقُ والمباضِعُ والمعاشِرُ.

فإيَّاكَ أنِ تخالِطَ إلَّا مَنْ له أصلٌ يَخافُ عليه الدَّنَسَ؛ فالغالبُ معه السلامةُ، وإنْ وَقَعَ غيرُ ذلك؛ كانَ نادرًا.

وقد قالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رضي الله عنه لرجل: أَشِرْ عليَّ فيمَن أستعمِلُ. فقالَ: أمّا أربابُ الدِّينِ؛ فلا يُريدونَكَ (أي: لا يسألونَكَ الرِّياسةَ)، وأمّا أربابُ الدُّنيا؛ فلا تُرِدْهُم، ولٰكنْ عليكَ بالأشرافِ؛ فإنَّهم يصونونَ شَرَفَهم عمّا لا يَصْلُحُ.

وقد روى أبو بكرٍ الصُّوليُّ؛ قالَ: حدَّثني الحسينُ بن يحيى، عن إسحاقَ؛ قالَ: دعاني المعتَصِمُ يومًا، فأدخلني معه الحمامَ، ثم خَرَجَ، فخلا بي، وقال: يا أبا إسحاق! في نفسي شيءٌ أريدُ أنْ أسألَكَ عنه: إنَّ

أخي المأمونَ اصْطَنَعَ قومًا فأنْجَبوا، واصطفيتُ أنا مِثْلَهُم فلم يَنْجُبوا؟ قلتُ: ومَن هم؟ قالَ: اصطنعَ طاهرًا وابنَه وإسحاقَ وآلَ سَهْل؛ فقد رأيتَ كيفَ هم، واصطنعتُ أنا الأفْشِيْنَ؛ فقد رأيتَ إلى ما آل أمرُهُ، وأشْناسَ؛ فلم أجِدْهُ شيئًا، وكذٰلك إيتاخُ ووصيفٌ. قلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ! ها هنا جوابٌ، عليَّ أمانٌ مِن الغضبِ؟ قالَ: لكَ ذاكَ. قلتُ: نَظَرَ أخوكَ إلى الأصولِ فاسْتَعْمَلَها فأنْجَبَتْ فروعُها، واستعملتَ فروعًا لا أصولَ لها فلم تَنْجُبْ! فقالَ: يا أبا إسحاقَ! مقاساةُ ما مَرَّ بي طولَ هٰذه المدةِ أهونُ عليَّ من هٰذا الجوابِ[1].

أما الصُّوَرُ؛ فإنه متى صَحَّتِ البُنْيَةُ، ولم يكنْ فيها عَيْبٌ؛ فالغالبُ صِحَّةُ الباطنِ وحسنُ الخُلُقِ، ومتى كان فيها عَيْبٌ؛ فالعَيْبُ في الباطنِ أيضًا. فاحذرْ مَن به عاهةٌ؛ كالأقرعِ والأعْمى وغيرِ ذٰلك؛ فإنَّ بواطِنَهم في الغالبِ رَدِيَّةٌ.

ثم مع معرفةِ أصولِ المخالِطِ، وكمالِ صورتِهِ، لا بدَّ مِن التجربةِ قبلَ المُخالطةِ، واستعمالُ الحَذَرِ لازمٌ؛ وإنْ كانَ كما ينبغي[2].

---

(١) إسحاق هٰذا هو إسحاق بن إبراهيم المصعبي صاحب شرطة المأمون والمعتصم والواثق ثم المتوكل؛ الخلفاء العباسيين المشهورين.

وطاهر وابنه وآل سهل هم قواد المأمون ووزراؤه ومقدموه.

والأفشين وأشناس وإيتاخ ووصيف غلمانٌ ترك اصطنعهم المعتصم ـ وأمه تركية ـ وجعلهم قواد جيشه ومقدموه، فخانه الأفشين في حياته وتآمر عليه، وأما الباقون وأشباههم؛ فهم قتلة أولاده وأحفاده من بعده.

(٢) ولا ينبغي تعميم مثل هٰذا الكلام إطلاقًا، ولشرف النسب فضل ومكانة، ولٰكنه لا يغني عن شرف النفس، وحسن المظهر لا يدل على حسن المخبر دائمًا بل ولا غالبًا، =

١٨٥ـ فصل

[لا بد من الحكمة لتحصيل المرادات والتغلب على الأعداء]

يَنْبغي أنْ يكونَ شُغْلَ العاقلِ النظرُ في العواقبِ والتحرُّزُ مما يُمْكِنُ أنْ يكونَ.

ومِن الغَلَطِ النَّظَرُ في الحالةِ الحاضرةِ الموافقةِ لمعاشِهِ ولصحَّةِ بدنِهِ، وربما لا يَجْري له مصحوبُه[١]؛ فينبغي أنْ يَعْمَلَ على انقطاع ذلك[٢]، فيكونَ مستعدًّا لتغيُّرِ الأحوال.

وكذلك النظرُ في لَذَّةٍ تَفْنى وتبقى تَبِعَتُها وعارُها، وإيثارُ الكَسَل والدَّعَةِ؛ لما يجيءُ بعدَهُما من بقاءِ الجَهْل.

وكذلك تحصيلُ المُرادات التي لا تُحَصَّلُ إلَّا بالتلطُّفِ في الاحتيال، خصوصًا إذا أريدَ مِن ذَكِيٍّ؛ فإنَّه يَفْطَنُ بأقلِّ تلويح.

فَمَن أرادَ غَلَبَةَ الذَّكِيِّ؛ دَقَّقَ النَّظَرَ، وتَلَطَّفَ في الاحتيالِ.

وقد ذُكِرَ في كتبِ الحيل ما يَشْحَذُ الخواطِرَ، وأتَيْنا بجملةٍ منه في «كتاب الأذكياء».

مثلُ ما روي أنَّ رجلًا مِن الأشرافِ كانَ لا يقومُ لأحدٍ، ولا يخشى

= وحسبك أن لقمان الحكيم كان من أقبح الناس صورة!! وكم من عالم عظيم القدر والمكانة كان دميمًا أو صاحب عاهة!!

(١) يعني: ربما ينقطع عنه الخير الذي يصاحبه في الوقت الحاضر.

(٢) يعني: ينبغي أن يعمل على أن ذلك قد ينقطع.

أحـدًا، فجـازَ عليه بعضُ الوزراءِ وحيَّى، فلم يردَّ ولم يَقُمْ[١]. فقالَ ذاك الوزيرُ لرجل: أخبرْ فُلانًا أنِّي قد كلمتُ أميرَ المؤمنينَ في حقِّه، وقد أَمَرَ له بمئةِ ألفٍ؛ فلْيَحْضُرْ لِيَقْبِضَها. فأخبرهُ ذٰلك الرجلُ، فقالَ الشريفُ: إنْ كانَ أَمَرَ لي بشيءٍ؛ فلْيُنْفِذْهُ لي، وإنما مقصودُه أنْ يَضَعَ منِّي بالتردُّدِ عليه.

فمتى وَقَعَ الإنسانُ مع ذكيٍّ؛ فينبغي أن يَتَحَرَّزَ منه، ويَسْرِقَ أغراضَه بصُنوفِ الاحتيالِ، ويَنْظُرَ فيما يجوزُ وقوعُه؛ فَلْيَحْتَرِزْ منه؛ كما ينظرُ صاحبُ الرُّقْعَةِ النَّقَلاتِ[٢].

وكثيرٌ من الأذكياءِ لم يقدِروا على أغـراضِهم مِن ذكيٍّ، فأَعْطَوْه، وبالَغوا في إكرامِهِ لِيَصيدوهُ؛ فإنْ كانَ قليلَ الفِطْنَةِ؛ وَقَعَ في الشَّرَكِ، وإنْ كانَ أقوى منهم ذكاءً؛ علمَ أنَّ تحتَ هٰذه الجنيَّةِ خبيئًا، فزادَهُ ذٰلك احترازًا.

وأقـوى ما ينبغي أنْ يكـونَ الاحتـرازُ مِن موتـورٍ؛ فإنَّـك إذا آذيتَ شَخْصًا؛ فقدْ غَرَسْتَ في قلبِهِ عداوةً؛ فلا تأمنْ تَفْريعَ تلكَ الشجرةِ، ولا تلتفتْ إلى ما يُظْهِرُ مِن وُدٍّ، وإنْ حَلَفَ؛ فإنْ قارَبْتَهُ؛ فكنْ منه على حَذَرٍ.

ومِن التَّغَفُّلِ أنْ تعاقِبَ شَخْصًا، أو تسيءَ إليه إساءةً عظيمةً، وتعلَمَ أنَّ مثـلَ ذٰلـك يجدِّدُ الحقدَ، فتراه ذَليلاً لكَ طائِعًا تائِبًا مقلِعًا عمَّا فَعَلَ، فتعـودَ، فتَسْتَطِيبَـهُ، وتنسى ما فعلتَ، وتـظنُّ أنه قدِ انمحى مِن قلبِهِ ما أسلفتَ؛ فربَّما عَمِلَ لكَ المِحَنَ ونَصَبَ لك المكايدَ؛ كما جرى لقصيرٍ مع

---

(١) ليس من خلق الشريف أن لا يرد السـلام، بل هو من التكبر الذي يدل في الحقيقة على وضاعة النفس، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وإذا حُييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ [النساء: ٨٦].

(٢) الرقعة: هي رقعة الشطرنج، والنقلات: هي حركات أحجاره.

الزَّبَّاءِ، وأخبارُهُ معروفةٌ[١].

فإيَّاكَ أَنْ تساكِنَ من آذَيْتَهُ، بل إنْ كان ولا بدَّ؛ فمنْ خارج؛ فما تُؤْمَنُ الأحقادُ.

ومتى رأيتَ عدوَّكَ فيه غفلةٌ، لا يَثْنيهِ مثلُ هٰذا؛ فأحسنْ إليه؛ فإنَّه يَنْسى عداوَتَكَ، ولا يظنُّ أنك قد أضمرتَ له جزاءً على قُبْح فعلِهِ؛ فحينئذٍ تَقْدِرُ على بُلوغ كلِّ غرضٍ منهُ.

ومِن الخَوَرِ[٢] إظهارُ العداوةِ للعدوِّ.

ومِن أحسنِ التَّدْبيرِ التلطُّفُ بالأعداءِ إلى أنْ يُمْكِنَ كَسْرُ شوكَتِهِم، ولو لم يُمْكِنْ ذاك؛ كانَ اللُّطْفُ سببًا في كفِّ أكُفِّهِم عن الأذى، وفيهم مَن يَسْتَحيي لِحُسْنِ فعلِكَ، فيتغيَّرُ قلبُه لك.

وقد كانَ جماعةٌ من السَّلَفِ إذا بَلَغَهُم أنَّ رجلًا قد شَتَمَهُم؛ أهْدَوْا إليه وأعْطَوْه؛ فهم بالعاجِلِ يكفُّونَ شَرَّهُ ويحتالونَ في تقليبِ قَلْبِهِ، ويقعُ بذلك لهم مُهْلَةٌ لتدبيرِ الحِيَلِ عليه إنْ أرادوا[٣].

وكفى بالذِّهْنِ الناظرِ إلى العواقبِ والتأمُّلِ لكلِّ ممكنٍ مؤدِّبًا.

---

(١) قصة قصير بن سعد بن عمرو اللخمي مع الزباء (وفي بعض الروايات: ميسون، وفي بعضها: نائلة) ملكة الجزيرة قصة مشهورة في الاحتيال في الانتقام. انظر: «مجمع الأمثال» (١ / ١٥٧) للميداني، و«الكامل لابن الأثير» (١ / ١٢٠).

(٢) الخور: الضعف.

(٣) وليس هٰذا صحيحًا، بل كان فعلهم هٰذا من باب الموعظة له؛ فقد كانوا يرسلون الهدية على أنها شكر منهم له على ما أعطاهم من حسناته، فيستحيي الشاتم ويكف ويعتذر ويتوب.

١٨٦ ـ فصل

[استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان]

رأيتُ أكثرَ الناسِ لا يَتمالَكونَ من إفشاءِ سِرِّهِم؛ فإذا ظَهَرَ؛ عاتَبوا مَن أخْبَروا به.

فوا عجبًا! كيفَ ضاقوا بِحَبْسِهِ ذَرْعًا، ثم لاموا مَن أفشاه؟!

وفي الحديثِ: «اسْتَعينوا على قَضاءِ أمورِكُم بالكِتْمانِ»[1].

وَلَعَمْري؛ إنَّ النفسَ يَصْعُبُ عليها كَتْمُ الشيءِ، وترى بإفشائِهِ راحةً، خُصوصًا إذا كان مَرَضًا أو هَمًّا أو عِشْقًا، وهٰذه الأشياءُ في إفشائِها قَريبةٌ، إنَّما اللازِمُ كِتْمانُهُ احتيالُ المحتالِ فيما يُريدُ أنْ يُحَصِّلَ به غَرَضًا؛ فإنَّ مِن سوءِ التَّدْبيرِ إفشاءَ ذٰلك قبلَ تمامِهِ؛ فإنَّه إذا ظَهَرَ؛ بَطَلَ ما يُرادُ أنْ يُفْعَلَ، ولا عُذْرَ لمن أفشى هٰذا النوع.

وقد كان النبيُّ ﷺ إذا أراد سَفرًا؛ ورَّى بغيرِهِ[2].

---

(١) (حسن). رواه: ابن حبان في «روضة العقلاء» (ص ١٨٧)، والسهمي في «تاريخ جرجان» (ص ١٨٢)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان». وجود إسناده الألباني في «الصحيحة» (٣ / ٤٣٩ / ١٤٥٣)، ثم ذكر له وجوهًا أخرى عن معاذ بن جبل وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وأبي بردة مرسلاً، وبين أن أسانيدها ضعيفة جدًّا لا تصلح للاعتبار.

(٢) رواه: البخاري (٦٤ ـ كتاب المغازي، ٧٩ ـ باب حديث كعب بن مالك، ٨ / ١١٣ / ٤٤١٨)، ومسلم (٤٩ ـ كتاب التوبة، ٩ ـ باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، ٤ / ٢١٢٠ / ٢٧٦٩)؛ عن كعب بن مالك رضي الله عنه؛ بلفظ: «ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها».

فإنْ قالَ قائلٌ: إنَّما أحدِّثُ مَن أثقُ به.

قيلَ له: وكلُّ حديثٍ جاوزَ الاثنينِ شائعٌ، وربَّما لم يَكْتُمْ صديقُك، وكم قدْ سَمِعْنا مَن يُحدِّثُ عنِ الملوكِ بالقبضِ على صاحبٍ، فَنَمَّ الحديثَ إلى الصاحبِ، وهَرَبَ، ففاتَ السلطانَ مرادُهُ! وإنَّما الرجلُ الحازمُ الذي لا يَتعدَّاه سِرُّهُ، ولا يُفْشيهِ إلى أحدٍ.

ومِن العَجْزِ إفشاءُ السِّرِّ إلى الولدِ والزوجةِ.

والمالُ من جُملةِ السِّرِّ؛ فإطلاعُهُم عليه: إنْ كانَ كثيرًا؛ فربَّما تَمَنَّوْا هلاكَ المورثِ، وإنْ كانَ قليلاً؛ تبرَّموا بوجودِهِ، وربَّما طَلَبوا مِن الكثيرِ على مقدارِ كَثْرَتِه، فأتْلَفَتْهُ النفقاتُ.

وسَتْرُ المصائبِ مِن جُمْلَةِ كتمانِ السِّرِّ؛ لأنَّ إظهارَها يَسُرُّ الشامتَ، ويؤلِمُ المحبَّ.

وكذلك ينبغي أنْ يَكْتُمَ مقدارَ السِّنِّ؛ لأنَّه إنْ كان كبيرًا؛ اسْتَهْرموهُ، وإنْ كان صغيرًا؛ احْتَقَروه.

ومما قدِ انهالَ فيه كثيرٌ من المُفَرِّطينَ: أنَّهم يَذْكُرونَ بين أصدقائِهم أميرًا أو سُلْطانًا، فيقولونَ فيهِ، فيبلُغُ ذلك إليهِ، فيكونُ سببَ الهلاكِ.

وربَّما رأى الرجُلُ مِن صديقهِ إخلاصًا وافيًا، فأشاعَ سِرَّهُ.

وقدْ قيلَ:

احْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً ... وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّهْ
فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيـ ... ـقُ فَكَانَ أَدْرَى بِالْمَضَرَّهْ

وربَّ مُفْشٍ سِرَّه إلى زوجةٍ أو صديقٍ، فيصيرُ بذٰلك رهينًا عندَه، ولا يتجاسَرُ أنْ يُطَلِّقَ الزَّوجةَ ولا أنْ يَهْجُرَ الصديقَ؛ مخافةَ أن يَظْهَرَ سِرُّه القبيحُ.

فالحازمُ مَن عاملَ الناسَ بالظَّاهِرِ، فلا يضيقُ صَدْرُهُ بسرِّه؛ فإنْ فارَقَتْهُ امرأةٌ أو صديقٌ أو خادمٌ؛ لم يَقْدِرْ أحدٌ منهم أنْ يقولَ فيه ما يكرهُ.

ومِن أعظم الأسرارِ الخَلَواتُ؛ فلْيَحْذَرِ الحازمُ فيها من الانبساطِ بمرأىً من مخلوقٍ.

ومَنْ خُلِقَ له عقلٌ ثاقبٌ؛ دَلَّهُ على الصوابِ قَبْلَ الوَصايا.

١٨٧ ـ فصل

[فيما يعين على الحفظ والاستذكار]

ما رأيتُ أصعبَ على النفسِ مِن الحفظِ للعلم والتَّكْرارِ له، خُصوصًا تَكْرارَ ما ليسَ لها في تَكْرارِهِ وحفظِهِ حظٌّ؛ مثلُ مسائلِ الفقهِ؛ بخلافِ الشعرِ والسَّجْعِ؛ فإنَّ لهـا لَذَّةً في إعادتِه، وإنْ كانَ يصعُبُ؛ لأنَّها تَلْتَذُّ به مرةً ومرتين؛ فإذا زادَ التَّكْرارُ؛ صَعُبَ عليها، ولٰكن دونَ صعوبةِ الفقهِ وغيرِهِ من المُسْتَحْسَناتِ عند الطبعِ، فتراها تَخْلُدُ إلى الحديثِ والشعرِ والتصانيفِ والنَّسْخِ؛ لأنَّه يَمُرُّ بها كلَّ لحظةٍ ما لم تَرَهُ؛ فهو في المعنى كالماءِ الجاري؛ لأنَّه جزءٌ بعد جزءٍ، وكذا مَن يَنْسَخُ ما يُحِبُّ أنْ يَسْمَعَهُ أو يصنِّفُ؛ فإنَّه يلتذُّ بالجِدَّةِ ويستريحُ مِن تَعَبِ الإعادةِ.

إلَّا أنَّه ينبغي للعاقل أنْ يكونَ جُلُّ زمانِهِ للإعادةِ، خصوصًا الصبيَّ

والشابَّ؛ فإنَّه يَسْتَقِرُّ المحفوظُ عندَهما استقرارًا لا يزولُ، ويجعلُ أوقاتَ التعبِ من الإعادةِ للنسخ، ويَحْذَرُ من تفلُّتِها إلى النسخ عندَ الإعادةِ، فيَقْهَرُها؛ فإنَّه يَحْمَدُ ذلك حَمْدَ السُّرَى وقتَ الصباح[١].

وسَيَنْدَمُ مَن لم يحفظْ نَدَمَ الكُسَعيِّ[٢] وقتَ الحاجةِ إلى النظرِ والفتوى.

وفي الحفظِ نُكْتَةٌ ينبغي أنْ تُلْحَظَ، وهو أنَّ الفقيهَ يَحْفَظُ الدرسَ ويعيدُه، ثم يتركُه فينساهُ، فيحتاجُ إلى زمانٍ آخرَ لحفظِهِ؛ فينبغي أنْ يُحْكِمَ الحفظَ ويُكْثِرَ التَّكرارَ؛ لِيُثَبِّتَ قاعدةَ الحفظِ.

١٨٨ـ فصل

[في فضائل العزلة عن الخلق]

ما أعرفُ نفعًا كالعُزلةِ عن الخَلْق، خصوصًا للعالم والزَّاهدِ؛ فإنَّك لا تَكادُ ترى إلَّا شامتًا بِنَكْبَةٍ، أو حسودًا على نعمةٍ، أو مَن يأخُذُ عليك غَلَطاتِكَ!

فيا لَلْعُزْلَةِ! ما ألذَّها!

سَلِمَتْ مِن كَدَرِ غيبةٍ، وآفاتِ تصنُّع، وأحوال المُداجاةِ[٣]، وتضييع

(١) والسرى: هو السير بالليل، وما ذكره المصنف رحمه الله من الأمثال الدائرة: وعند الصباح يحمد القوم السرى». وانظر: «مجمع الأمثال» (٢ / ٣).

(٢) والكُسعي: هو صاحب القوس المشهورة الذي كسرها ثم ندم عليها، فقيل في المثل: «أندم من الكسعي». وانظر: «مجمع الأمثال» (٢ / ٣٤٨).

(٣) المداجاة: المساترة بالعداوة، وهي قسيمة المداراة وشبيهة التصنع.

الوقتِ. . . ثم خَلا فيها القلبُ بالفِكْرِ؛ لأنه مُسْتَلِذٌّ عنه بالمخالطةِ(١)، فدبَّرَ أمرَ دُنياه وآخرتِهِ؛ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الحِمْيَةِ؛ يَخْلو فيها المَعْيُ بالأخلاطِ فيُذيبُها.

وما رأيتُ مِثْلَ ما يَصْنَعُ المخالطُ؛ لأنَّه يرى حالتَهُ الحاضرةَ مِن لقاءِ الناسِ وكلامِهم، فيشتغِلُ بها عمَّا بينَ يديهِ؛ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ يريدُ سَفَرًا قد أزِفَ، فجالسَ أقوامًا، فَشَغَلوهُ بالحديثِ، حتى ضَرَبَ البوقُ وما تَزَوَّدَ(٢)!

فلو لم يكنْ في العُزلةِ إلاَّ التفكيرُ في زادِ الرحيل والسلامةُ مِن شَرِّ المخالطةِ؛ كفى.

ثم لا عُزْلَةَ على الحقيقةِ إلَّا للعالم والزَّاهِدِ؛ فإنَّهما يعلمانِ مقصودَ العُزْلَةِ، وإنْ كانا لا في عُزْلَةٍ.

أمَّا العالمُ؛ فعلمُهُ مؤنسُهُ، وكتبهُ محدِّثُه، والنظرُ في سِيَرِ السلفِ مقوِّمُه، والتفكُّر في حوادثِ الزمانِ السابقِ فُرْجَتُهُ؛ فإنْ ترقَّى بعلمِهِ إلى مقام المعرفةِ الكاملةِ للخالقِ سبحانَه، وتشبَّثَ بأذيال محبَّتِهِ؛ تضاعفتْ لَذَّاتُهُ، واشتغلَ بها عنِ الأكوانِ وما فيها، فخَلا بحبيبِهِ، وعَمِلَ معهُ بمقتضى علمِهِ.

وكذلك الزَّاهِدُ؛ تعبُّدُه أنيسُه، ومعبودُهُ جليسهُ؛ فإنْ كُشِفَ لبصرِهِ عن المعمولِ معهُ؛ غابَ عن الخَلْقِ وغابوا عنه.

إنَّما اعتزلا ما يؤذي؛ فهما في الوَحْدَةِ بين جماعةٍ.

فهٰذانِ رجلانِ قد سَلِما مِن شرِّ الخَلْقِ، وسَلِمَ الخَلْقُ مِن شُرورِهما، بل هما قُدْوَةٌ للمتعبِّدينَ وعَلَمٌ للسَّالكينَ؛ ينتفعُ بكلامِهما السامعُ، وتَجْري

---

(١) يعني: لأنه كان مشغولاً عنه بلذة المخالطة.

(٢) أزف: دنا واقترب. ضرب البوق؛ يعني: إيذانًا بالسفر.

موعِظَتُهما المدامعَ، وتنتشِرُ هَيْبَتُهما في المجامع؛ فمَن أرادَ أنْ يَتَشَبَّهَ بأحدِهِما؛ فلْيُصابِرِ الخَلْوَةَ وإنْ كَرِهَها؛ لِيُثْمِرَ له الصَّبْرُ العَسَلَ.

وأعوذُ باللهِ من عالِمٍ مخالِطٍ للعالَم، خصوصًا لأرباب المال والسلاطين؛ يَجْتَلِبُ ويُجْتَلَبُ[1]، ويَخْتَلِبُ ويُخْتَلَبُ[2]؛ فما يحصُلُ له شيءٌ مِن الدُّنيا إلَّا وَقَدْ ذَهَبَ مِن دينِهِ أمثالُه.

ثم أينَ الأنَفَةُ مِن الذُّلِّ للفُسَّاقِ؟!

فالذي لا يبالي بذلك هو الذي لا يذوقُ طَعْمَ العلم، ولا يَدْري ما المرادُ به، وكأنَّه به وقد وَقَعَ في باديةٍ جُرُزٍ[3] وقَفْرٍ مُهْلِكٍ في تلك البراري.

وكذلك المتزهِّدُ إذا خالطَ وخَلَّطَ؛ فإنَّه يَخْرُجُ إلى الرياءِ والتصنُّع والنِّفاقِ، فيفوتُهُ الحظَّانِ؛ لا الدُّنيا ونعيمُها تحصُلُ له، ولا الآخرةُ.

فنسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ خَلْوَةً حُلْوَةً، وعُزْلَةً عن الشرِّ لذيذةً؛ يَسْتَصْلِحُنا فيها لمناجاتِهِ، ويُلْهِمُ كلًّا منّا طَلَبَ نجاتِهِ؛ إنَّه قريبٌ مجيبٌ.

١٨٩ ـ فصل

[في التزود ليومِ الرحيل]

ما أبْلَهَ مَن لا يَعْلَمُ متى يأتيهِ الموتُ؛ وهو لا يستعِدُّ للقائِهِ!

وأشدُّ الناسِ بَلَهًا وتَغْفيلًا مَن قدْ عَبَرَ الستينَ وقارَبَ السبعينَ ـ فإنَّ

---

(١) يعني: يشد أهل الدنيا إليه شيئًا ويشدونه إليهم شيئًا.

(٢) الاختلاب: المخادعة.

(٣) الجرز: التي لا نبات فيها.

ما بَيْنَهُما هو مُعْتَرَكُ المنايا، ومَن نازَلَ المُعْتَرَكَ؛ استعدَّ ـ وهو مع ذُلك غافلٌ عن الاستعدادِ.

قالَ الشَّبابُ لَعَلَّنا في شَيْبِنا نَدَعُ الذُّنوبَ فما يَقولُ الأشْيَبُ

والله؛ إنَّ الضَّحِكَ من الشيخ ما له معنىً، وإنَّ المُزاحَ منه باردُ المعنى، وإنَّ تَعَرُّضَه بالدُّنيا ـ وقد دَفَعَتْهُ عنها ـ يُضْعِفُ القُوى ويُضْعِفُ الرأيَ.

وهل بقيَ لابن ستينَ منزلٌ؟!

فإنْ طَمِعَ في السبعينَ؛ فإنَّما يرتقي إليها بعناءٍ شديدٍ: إنْ قامَ؛ دَفَعَ الأرضَ، وإنْ مشى؛ لَهَثَ، وإن قَعَدَ؛ تنفَّسَ... ويرى شَهَواتِ الدُّنيا ولا يَقْدِرُ على تناولِها؛ فإنْ أكَلَ؛ كَدَّ المعدةَ، وصَعُبَ الهضمُ، وإنْ وَطِىءَ؛ آذى المرأةَ، ووَقَعَ دَنِفًا[1] لا يقدِرُ على رَدِّ ما ذَهَبَ من القوةِ إلى مدةٍ طويلةٍ؛ فهو يعيشُ عَيْشَ الأسيرِ.

فإنْ طَمِعَ في الثمانينَ؛ فهو يَزْحَفُ إليها زَحْفَ الصَّغيرِ.

وَعَشْرُ الثَّمانينَ مَنْ خاضَها فإنَّ المُلِمَّاتِ فيها فُنونٌ

فالعاقلُ مَن فَهِمَ مقاديرَ الزَّمانِ:

فإنَّه فيما قبلَ البلوغ صَبيٌّ ليس على عُمُرِهِ عِيارٌ[2]؛ إلَّا أنْ يُرْزَقَ فِطْنَةً؛ ففي بعضِ الصبيانِ فِطْنَةٌ تحثُّهم مِن الصِّغَرِ على اكتسابِ المكارم

(١) الدنف: المريض المهزول الطويل المرض.

(٢) العيار: الوزن والكيل، والمعنى: ليس على عمره محاسبة ولا مؤاخذة، وإنما هو زمان طفولة وصبا ولعب.

والعُلوم .

فإذا بَلَغ ؛ فليعلمْ أنَّه زمانُ المجاهدةِ للهوى وتعلُّم العلم .

فإذا رُزِقَ الأولادَ ؛ فهو زمانُ الكَسْبِ للمعاملةِ .

فإذا بَلَغَ الأربعينَ ؛ انْتهى تمامُهُ ، وقضى مناسِكَ الأجلِ ، ولم يَبْقَ إلَّا الانحدارُ إلى الوطنِ .

كأنَّ الفَتى يَرْقى مِنَ العُمْرِ سُلَّما إلى أنْ يَجُوزَ الأرْبَعينَ وَيَنْحَطُّ

فينبغي له عندَ تمام الأربعينَ أنْ يَجْعَلَ جُلَّ هِمَّتِهِ التزوُّدَ للآخرةِ ، ويكونَ كلُّ تلمُّحِهِ لما بينَ يديهِ ، ويأخذَ في الاستعدادِ للرحيل . . . وإنْ كانَ الخطابُ بهٰذا لابنِ عشرينَ ؛ إلَّا أنَّ رجاءَ التَّدارُكِ في حقِّ الصغيرِ لا في حقِّ الكبيرِ .

فإذا بَلَغَ الستينَ ؛ فقدْ أعْذَرَ اللهُ إليه في الأجل ، وجازَ من الزَّمَنِ[1] ؛ فَلْيُقْبِلْ بكُلِّيَّتِهِ على جَمْع زادِهِ وتهيئةِ آلاتِ السَّفَر ، ولْيَعْتَقِدْ أنَّ كلَّ يوم يَحْيا فيه غنيمةٌ ما هي في الحسابِ ؛ خُصوصًا إذا قَوِيَ عليه الضَّعْفُ وزادَ ؛ فإنه لا محرِّك كهوًى .

وكلَّما عَلَتْ سِنُّه ؛ فينبغي أن يزيدَ اجتهادُهُ .

فإذا دَخَلَ في عَشْرِ الثمانينَ ؛ فليس إلَّا الوداعُ ، وما بَقِيَ من العُمُرِ إلَّا أسفٌ على تفريطٍ أو تعبُّدٌ على ضَعْفٍ .

نسألُ اللهَ عَزَّ وجلَّ يَقَظَةً تامَّةً تَصْرِفُ عنا رُقادَ الغَفَلاتِ ، وعملًا

---

(١) يعني : قطع منه أكثره .

صالحًا نأمَنُ معهُ مِن الندمِ يومَ الانتقالِ.

واللهُ الموفِّقُ.

١٩٠ـ فصل

[لا يجني أهل الكلام إلا الحسرات وإضاعة الأوقات]

ما نَهَى السَّلَفُ عن الخوضِ في الكلام إلَّا لأمرٍ عظيم، وهو أنَّ الإنسانَ يُريدُ أنْ يَنْظُرَ ما لا يقوى عليه بصرُهُ؛ فربَّما تَحَيَّرَ فَخَرَجَ إلى الحَجْبِ.

لأنا إذا نَظَرْنا في ذاتِ الخالقِ؛ حارَ العقلُ وبُهِتَ الحسُّ؛ لأنه لا يَعْرِفُ شيئًا لا بدايةَ له! إنَّه لا يَعْلَمُ إلَّا الجسمَ والجوهَرَ والعَرَضَ؛ فإثباتُ ما يَخْرُجُ عن ذاك لا يفهمُهُ.

وإنْ نَظَرْنا في أفعالِهِ؛ رأيْناه يُحْكِمُ البناءَ ثم يَنْقُضُهُ! ولا نطَّلع على تلكَ الحكمةِ(١).

فالأوْلى للعاقل أنْ يَكُفَّ كَفَّ التَّطَلُّع إلى ما لا يُطيقُ النَّظَرَ إليه.

ومتى قام العقلُ، فنَظَرَ في دليل الخالقِ بمصنوعاتِهِ، وأجازَ بِعْثَةَ نبيٍّ، واستدلَّ بمعجزاتِهِ؛ كفاهُ ذلك أنْ يَتَعَرَّضَ لما قد أُغْنِيَ عنه(٢).

(١) بل كثيرًا ما ندرك ما يكفينا ويشفينا من هذه الحكم، نعم؛ معرفة أوجه حكم الله عز وجل كلها في أمر من الأمور لا سبيل للبشر إليه.

(٢) وجود الخالق سبحانه مركوز في فطر العباد، ولا حاجة لنصب الأدلة وكد الفكر في إثباته، وحسبك أن الأطفال والبله والمجانين يتجهون إليه سبحانه في حاجاتهم دونما دليل ولا برهان على وجوده، بل لو سألت أكثر الناس الذين يؤمنون بالله سبحانه ويعبدونه عن أدلة وجوده؛ لتحيروا وما أجابوا.

وإذا قال: القرآنُ كلامُ اللهِ تعالى، بدليل قولِه: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كلامَ اللهِ﴾ [التوبة: ٦]؛ كفاهُ.

وأما مَن تَحَذْلَقَ فقالَ: التِّلاوةُ هي المَتْلُوُّ أو غيرُ المَتْلُوِّ، والقراءةُ هي المقروءُ أو غيرُ المقروءِ؛ فيُضيعُ الزمانَ في غيرِ تحصيلٍ، والمقصودُ العملُ بما فَهِمَ.

وقد حُكِيَ أنَّ مَلِكًا كَتَبَ إلى عمَّالِهِ في البلدانِ: إني قادمٌ عليكُم؛ فاعْمَلوا كَذا وكَذا! فَفَعَلوا؛ إلَّا واحدًا منهم؛ فإنَّه قَعَدَ يَتَفَكَّرُ في الكتاب، فيقولُ: أتُرى كَتَبَهُ بمدادٍ أو بحبرٍ؟! أتُرى كَتَبَهُ قائمًا أو قاعدًا؟! فما زالَ يتفكَّرُ حتى قَدِمَ المَلِكُ ولم يعملْ مما أمَرَهُ به شيئًا! فأحسنَ جوائزَ الكلِّ وقتلَ هٰذا.

١٩١ ـ فصل

[في نظرة المصنف لِلَذّات الحياة الدنيا]

لقد غفَلَ طُلَّابُ الدُّنيا عن اللَّذَّةِ فيها، وما اللَّذَّةُ فيها؛ إلَّا شرفُ العلم، وزهرةُ العِفَّةِ، وأَنَفَةُ الحَمِيَّةِ، وعِزُّ القَناعةِ، وحلاوةُ الإفضال على الخَلْقِ.

فأما الالتذاذُ بالمَطْعَم والمَنْكَح؛ فشُغْلُ جاهل باللَّذَّةِ؛ لأنَّ ذاكَ لا يُرادُ لنفسِهِ، بل لإقامةِ العِوَضِ في البدنِ والولدِ(١).

---

(١) بل يراد لهما جميعًا، ومن قال غير هٰذا؛ فقد خالف الفطرة السليمة، والله تعالى قد جعل الحور العين جزاء المؤمنين في الجنة؛ فهل كان هٰذا لأجل الولد؟! وجعل لهم ألذ الطعام وأشهاه؛ فهل كان لتعويض ما فقده البدن؟!

وأي لَذَّةٍ في النِّكاح؛ وهي قبلَ المباشرةِ لا تَحْصُلُ، وفي حال المباشرة قَلَقٌ لا يَثْبُتُ، وعندَ انقضائِها كأنْ لم تَكُنْ، ثم تُثْمِرُ الضَّعْفَ في البدنِ؟!

وأيُّ لَذَّةٍ في جمع المالِ فَضْلاً عن الحاجةِ؛ فإنَّه مُسْتَعْبِدٌ للخازِنِ؛ يَبيتُ حَذَرًا عليه، ويَدْعوهُ قليلُهُ إلى كَثيرِهِ[1]؟!

وأيُّ لَذَّةٍ في المَطْعَم؛ وعند الجوع يَسْتوي خَشِنُهُ وحَسَنُهُ؛ فإذا ازدادَ الأكلُ؛ خاطَرَ بنفسِهِ[2]؟!

قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه: بُنِيَتِ الفتنةُ على ثلاثٍ: النساءُ؛ وهُنَّ فَخُّ إبليسَ المنصوبُ، والشرابُ؛ وهو سيفُهُ المُرْهَفُ، والدِّينارُ والدِّرْهَمُ؛ وهما سَهْماهُ المسمومانِ.

فمَنْ مال إلى النساءِ؛ لم يَصْفُ له عيشٌ، ومَنْ أحبَّ الشَّرابَ؛ لم يُمَتَّعْ بِعَقْلِهِ، ومَنْ أحبَّ الدينارَ والدِّرْهَمَ؛ كانَ عبدًا لهما ما عاشَ.

١٩٢ ـ فصل

[تشبيه الخالق بالمخلوق أصل الضلالات]

أصلُ كلِّ محنةٍ في العقائدِ قياسُ أمرِ الخالقِ على أحوالِ الخَلْقِ.

فإنَّ الفلاسفةَ لما رَأَوْا إيجادَ شيءٍ لا مِن شيءٍ كالمستحيل في

---

(١) سبحان الله! أو بعد أن قال تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ [الكهف: ٤٦]؟! بل قد سبق للمؤلف كلام يعارض هٰذا كل المعارضة!!

(٢) إن كان في سد الرمق؛ فقد يستويان، بل ربما كان الجشب أنفع للصحة، وأما في اللذة؛ فهيهات!

العـادات؛ قالوا بِقِدَم العالَم! ولما عَظُم عندَهم في العادةِ الإحاطةُ بكلِّ شيءٍ؛ قالوا: إنَّه يعلمُ الجُمَلَ لا التفاصيلَ! ولمَّا رأَوْا تَلَفَ الأبدانِ بالبلاءِ؛ أنْكَروا إعادَتَها، وقالوا: الإعادةُ رجوعُ الأرواحِ إلى معادِنِها!

وكلُّ مَن قاسَ صِفَةَ الخالقِ على صفاتِ المخلوقِينَ؛ خَرَجَ إلى الكُفْرِ؛ فإنَّ المُجَسِّمَةَ دَخَلوا في ذٰلك لأنَّهم حَمَلوا أوصافَه على ما يَعْقِلونَ.

وكذٰلك تدبيرُهُ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ مَن حَمَلَهُ على ما يُعْقَلُ في العاداتِ؛ رأى ذَبْحَ الحيوانِ لا يُسْتَحْسَنُ، والأمراضَ تُسْتَقْبَحُ، وقِسْمَةَ الغِنى للأبلهِ، والفقرِ للجَلْدِ العاقل أمرًا يُنافي الحِكمةَ[1].

وهٰذا في الأوضاعِ بينَ الخَلْقِ؛ فأمّا الخالقُ سبحانَه؛ فإنَّ العقلَ لا ينتهي إلى حكمتِه.

بلى؛ قد ثَبَتَ عندَه وجودُه ومُلْكُه وحِكْمَتُه؛ فتعرُّضُه بالتفاصيل على ما تجري به عاداتُ الخَلْقِ جَهْلٌ.

ألا ترى إلى أوَّلِ المعترضينَ ـ وهو إبليسُ ـ كيفَ ناظَرَ فقالَ: ﴿أنا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]؟! وقول خليفتِهِ ـ وهو أبو العلاءِ المعرِّي ـ:

رأى مِنْكَ ما لا يَشْتَهي فَتَزَنْدَقا

ونسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ توفيقًا للتسليم، وتسليمًا للحكيم، ﴿رَبَّنا لا تُزِغْ قُلوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا﴾ [آل عمران: ٨].

أتُرى نَقْدِرُ على تعليل أفعالِهِ فضلاً عن مطالعةِ ذاتِهِ؟!

---

(١) وهٰذا ليس بصحيح أبدًا، بل المنصف المتبصر سيرى في كل ما يجري في هٰذا الكون الواسع حكمًا عظيمة وآيات بينة للطيف الخبير.

وكيفَ نقيسُ أمرَهُ على أحوالِنا؟!

فإذا رأيْنـا نَبيَّنـا ﷺ يسألُ في أمِّهِ وعمِّهِ؛ فلا يُقْبَلُ منه[١]، ويتقلَّبُ جائعًا؛ والدُّنيا مُلْكُ يدِهِ[٢]، ويُقْتَلُ أصحابُهُ[٣]؛ والنَّصْرُ بيدِ خالِقِهِ؛ أوَليسَ هٰذا مما يحيِّرُ[٤]؟!

فما لنا والاعتراضَ على مالِكٍ قد ثَبَتَتْ حكمتُهُ واستقرَّ مُلْكُهُ؟!

١٩٣ ـ فصل

[لا تنال المعالي إلا بشق الأنفس]

تأمَّلْتُ عَجَبًا، وهـو أنَّ كلَّ شيءٍ نفيس خطيرٍ يطولُ طَريقُهُ ويكْثُرُ

---

(١) والمقصود بالسؤال هنا هو الاستغفار.

فأما أمه ﷺ؛ فقد روى مسلم (١١ ـ كتاب الجنائز، ٣٦ـ باب استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه، ٢ / ٦٧١ / ٩٧٦)؛ من حديث أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن الله».

وأما عمه أبو طالب؛ فقد روى: البخاري (٢٣ ـ كتاب الجنائز، ٨٠ ـ باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، ٣ / ٢٢٢ / ١٣٦٠)، ومسلم (١ ـ كتاب الإيمان، ٩ ـ باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع، ١ / ٥٤ / ٢٤)؛ قصة وفاة أبي طالب على الكفر من حديث المسيب بن حزن، وفيها قول النبي ﷺ: «أما والله؛ لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، ونزل قوله عز وجل: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾ [التوبة: ١١٣].

(٢) مشهور معلوم في كثير من نصوص السنة؛ فلا نطيل بذكرها.

(٣) يعني: في الغزوات شهداء في سبيل الله عز وجل.

(٤) لا؛ ليس هٰذا بمحير لمن علم أن الدنيا دار بلاء لا دار جزاء، وأن المنع والعطاء والموت والحياة والنعيم والعذاب فيها إنما هو اختبار وامتحان لا عقوبة وجزاء.

التَّعَبُ في تحصيلِهِ.

فإنَّ العلمَ لمَّا كانَ أشرفَ الأشياءِ؛ لمْ يَحْصُلْ إلَّا بالتَّعَبِ والسَّهَرِ والتَّكْرارِ وهَجْرِ اللَّذَّاتِ والراحةِ، حتى قالَ بعضُ الفقهاءِ: بَقيتُ سِنينَ أشتهي الهريسةَ لا أقدِرُ؛ لأنَّ وقتَ بَيْعِها وقتُ سَماعِ الدرسِ!

ونحوُ هٰذا تحصيلُ المالِ؛ فإنَّه يحتاجُ إلى المخاطَراتِ والأسفارِ والتَّعَبِ الكثيرِ.

وكذٰلكَ نَيْلُ الشَّرَفِ بالكرمِ والجُودِ؛ فإنَّهُ يَفْتَقِرُ إلى جهادِ النفسِ في بذلِ المحبوبِ، وربَّما آلَ إلى الفَقْرِ.

وكذٰلكَ الشَّجاعةُ؛ فإنَّها لا تحصُلُ إلَّا بالمخاطرةِ بالنفسِ.

قالَ الشاعرُ:

لَوْلا المَشَقَّةُ سادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ   الجودُ يُفْقِرُ والإقْدامُ قَتَّالُ

ومِن هٰذا الفنِّ تَحْصيلُ الثوابِ في الآخرة؛ فإنَّه يزيدُ على [قدْرِ] قوةِ الاجتهادِ والتعبُّدِ، أو على قَدْرِ وَقْعِ المَبْذولِ مِن المالِ في النفسِ، أو على قَدْرِ الصبرِ على فَقْدِ المحبوبِ ومنعِ النفسِ مِن الجَزَعِ.

وكذٰلكَ الزُّهْدُ يحتاجُ إلى صَبْرٍ عنِ الهوى.

والعفافُ لا يكونُ إلَّا بِكَفِّ كَفِّ الشَّرَهِ.

ولولا ما عانى يوسُفُ عليهِ السلامُ؛ ما قيلَ لهُ: ﴿أَيُّها الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦].

وللهِ أقوامٌ ما رَضُوا مِن الفضائلِ إلَّا بتحصيلِ جميعِها؛ فهم يبالِغونَ

في كلِّ علم، ويجتهدونَ في كلِّ عمل، ويثابرونَ على كلِّ فضيلةٍ؛ فإذا ضَعُفَتْ أبدانُهُم عن بعضِ ذٰلك؛ قامتِ النِّيَّاتُ نائبةً، وهم لها سابقونَ. وأكملُ أحوالِهِم إعراضُهُم عن أعمالِهِم؛ فهم يحتقِرونَها مع التَّمام، ويعتذِرونَ من التقصيرِ. ومنهم مَن يزيدُ على هٰذا، فيتشاغَلُ بالشُّكْرِ على التوفيقِ لذٰلك. ومنهم مَن لا يَرى ما عَمِلَ أصْلاً؛ لأنَّه يرى نفسَه وعَمَلَه لسيِّدِهِ.

وبالعكسِ من المذكورِ من أربابِ الاجتهادِ حالُ أهلِ الكَسَلِ والشَّرَهِ والشَّهَواتِ؛ فَلَئِنِ التذُّوا بعاجِلِ الراحةِ؛ لقدْ أوجبتْ ما يزيدُ على كلِّ تعبٍ من الأسفِ والحسرةِ.

ومَن تَلَمَّحَ صَبْرَ يوسفَ عليه السلامُ وعَجَلَةَ ماعِزٍ[1]؛ بانَ له الفرقُ، وفَهِمَ الرِّبْحَ مِن الخسرانِ[2]!

ولقد تأمَّلْتُ نَيْلَ الدُّرِّ من البحرِ، فرأيتُهُ بعدَ معاناةِ الشَّدائِدِ.

ومَن تَفَكَّرَ فيما ذكرتُه مَثَلاً؛ بانَتْ له أمثالٌ.

---

(١) هو ماعز بن مالك الأسلمي الذي جاء إلى النبي ﷺ معترفًا بزناه، وقد أخرجا قصته في «الصحيحين» عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم.

وانظر: «صحيح البخاري» (٨٦ ـ كتاب الحدود، ٢١ و٢٢ و٢٥ و٢٨ و٢٩ ـ باب)، و«صحيح مسلم» (٢٩ ـ كتاب الحدود، ٥ ـ باب من اعترف على نفسه بالزنى، ٣ / ١٣١٨ / ١٦٩١ ـ ١٦٩٥).

(٢) وماعز رضي الله عنه من الرابحين لا من الخاسرين؛ فقد شهد له النبي ﷺ بقوله: «لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم»! وعليه؛ فتمثيل المؤلف للخاسرين بماعز رضي الله عنه هو خطأ مبين.

فالموفَّقُ من تَلَمَّحَ قِصَرَ الموسمِ المعمولِ فيه، وامتدادَ زمانِ الجزاءِ الـذي لا آخـرَ له، فانتهبَ حتى اللَّحْـظَةَ، وزاحمَ كلَّ فضيلةٍ؛ فإنَّها إذا فاتتْ؛ فلا وجهَ لاستدراكِها.

أوَليسَ في الحديثِ: «يقالُ للرَّجُلِ: اقرأْ وارقَ؛ فَمنزِلُكَ عندَ آخرِ آيةٍ تقرؤُها»(١)؟

فلو أنَّ الفِكْرَ عَمِلَ في هٰذا حقَّ العمل؛ حَفِظَ القرآن عاجِلاً.

١٩٤ـ فـصـل

[حقيقة الإيمان في التسليم والرضى]

ليسَ الـمـؤمـنُ بالـذي يؤدِّي فرائضَ الـعبـاداتِ صُورةً ويتجنَّبُ المحظوراتِ فحسبُ!

إنَّما المؤمنُ هو الكاملُ الإيمانِ، لا يَخْتَلِجُ في قلبِهِ اعتراضٌ، ولا

(١) (حسن صحيح). رواه: أحمد (٢ / ١٩٢)، وأبو داوود (٢ ـ كتاب الصلاة، ٢٠ ـ باب استحباب الترتيل في القراءة، ١ / ٤٦٣ / ١٤٦٤)، والترمذي (٤٦ ـ كتاب فضائل القرآن، ١٨ ـ باب، ٥ / ١٧٧ / ٢٩١٤)، وابن حبان (٢ / ٤٣ / ٧٦٦)، والحاكم (١ / ٥٥٢)، والبغوي (٣ / ٤٣٥ / ١١٧٨)؛ من طرق عن سفيان الثوري، عن عاصم، عن زر بن حبيش، عن عبد الله بن عمرو... فذكره مرفوعًا.

وهٰذا سند حسن من أجل عاصم، وهو ابن أبي النجود؛ صدوق له أوهام. وقال الترمـذي: «هٰذا حديث حسن صحيح». وسكت عنه الحاكم. وصححه الذهبي. وقال الألباني: «حسن صحيح».

ولـه شاهـد من حديث أبي سعيد أو أبي هريرة، رواه أحمـد (٢ / ٤٧١)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٧ / ١٦٢): «رجاله رجال الصحيح».

يُساكِنُ نفسَه فيما يجري وسوسةٌ، وكلَّما اشتدَّ البلاءُ عليه؛ زادَ إيمانُهُ وقَوِيَ تسليمُه، وقد يَدْعو، فلا يرى للإجابةِ أثرًا؛ وسِرُّه لا يتغيَّرُ؛ لأنَّه يعلمُ أنَّه مملوكٌ، وله مالكٌ يتصرَّفُ بمقتضى إرادتِهِ. فإنِ اختلجَ في قلبِهِ اعتراضٌ؛ خَرَجَ مِن مقام العبوديَّةِ إلى مقام المناظرةِ؛ كما جرى لإبليسَ.

والإيمانُ القويُّ يَبينُ أثرُهُ عندَ قوةِ البلاءِ.

فأمّا إذا رأيْنا مثلَ يحيى بن زكريا؛ تَسَلَّطَ عليه فاجِرٌ، فيأمُرُ بذبحِهِ، فَيُذْبَحُ! وربما اختلجَ في الطبع أنْ يقولَ: فهلَّا ردَّ عنه مَن جَعَلَهُ نبيًّا؟! وكذلك كلُّ تسلُّطٍ من الكفارِ على الأنبياءِ والمؤمنينَ؛ وما وَقَعَ رَدٌّ عنهم!

فإنْ هَجَسَ بالفكرِ أنَّ القدرةَ تَعْجِزُ عن الرَّدِّ عنهم؛ كانَ ذلك كفرًا.

وإنْ علم أنَّ القُدْرَةَ متمكِّنةٌ من الرَّدِّ وما ردَّت، ويُجَوِّعُ المؤمنينَ ويُشْبِعُ الكفَّارَ، ويعافي العصاةَ ويُمْرِضُ المتَّقينَ؛ لم يبقَ إلَّا التسليمُ للمالكِ، وإنْ أَمَضَّ وأرْمَضَ[1].

وقد ذهبَ يوسفُ بنُ يعقوبَ عليهما السلام، فبكى يعقوبُ ثمانينَ سنةً، ثم لم ييأسْ، فلما ذَهَبَ ابنُهُ الآخرُ؛ قال: ﴿عَسى اللهُ أنْ يأتِيَني بِهِمْ جَميعًا﴾ [يوسف: ٨٣][2].

وقد دعا موسى عليه السلامُ على فرعونَ، فأجيبَ بعدَ أربعينَ سنةً[3]؛

---

(١) أمضَّ: أوجع وآلم. وأرمض: أحرق.

(٢) تقدمت الإشارة إلى هذا وتخريجه في (فصل ١٣٦).

(٣) أخرجه ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن جرير عن ابن جريج قوله، والحكيم الترمذي عن مجاهد قوله. وانظر: «تفسير ابن جرير» (٦ / ٦٠٣ / ١٧٨٧٠)، و«الدر المنثور» (٣ / ٥٦٨ / يونس ٩١).

وكـانَ يَذْبَحُ الأنبياءَ، ولا تردُّهُ القدرةُ القديمةُ العظيمةُ، وصَلَبَ السَّحَرَةَ، وقَطَعَ أَيْدِيَهم:

وكم مِن بَلِيَّةٍ نزلتْ بمعَظَّمِ القَدْرِ؛ فما زادَه ذلك إلَّا تسليمًا ورضى!

فهناك يَبينُ معنى قولِهِ: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ [البينة: ٨]، وها هنا يَظْهَرُ قَدْرُ قوَّةِ الإيمانِ لا في ركَعاتٍ.

قال الحسنُ البصريُّ: استوى الناس في العافيةِ؛ فإذا نَزَلَ البلاءُ؛ تبايَنوا[1].

١٩٥ـ فصل
[في خطر علم الكلام على عقائد العوام]

أضَرُّ ما على العوامِّ المتكلِّمونَ؛ فإنَّهم يُخَلِّطونَ عقائِدَهم بما يسمعونَه منهم.

مِن أقبح الأشياءِ أنْ يَحْضُرَ العاميُّ الذي لا يَعْرِفُ أركانَ الصلاةِ ولا الرِّبا في البيع مجلسَ الوعظِ؛ فلا ينهاهُ عن التواني في الصَّلاةِ، ولا يعلِّمُهُ الخلاصَ من الرِّبا، بل يقولُ لهُ: القرآنُ قائمٌ بالذَّاتِ! والذي عندنا مخلوق[2]!! فيهونُ القرآنُ عند ذلك العاميِّ، فيحلِفُ به على الكذبِ.

وَيْحُ المتكلِّم! لو كانَ له فَهْمٌ؛ لَعَلِمَ أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى نَصَبَ أعلامًا[3] تأنَسُ بها النفوسُ وتطمئنُّ إليها؛ كالكعبةِ ـ وسمَّاها بَيْتَهُ ـ،

---

(١) تقدم هذا القول عنه في (فصل ٨٨)، وانظر تعليقنا عليه؛ فإنه مهم.

(٢) يشير إلى عقيدة الأشاعرة في القرآن الكريم.

(٣) الأعلام: العلامات التي يهتدى بها.

والعرشِ ـ وذَكَرَ استواءَه عليه ـ، وذَكَرَ مِن صفاتِهِ اليدَ، والسمعَ، والبصرَ، والعينَ، وينـزِلُ إلى السَّمـاءِ الدُّنيا، ويضحَكُ، وكلُّ هٰذا لتأنسَ النفوسُ بالعـاداتِ[١]، وقد جلَّ عمَّا تَضَمَّنَتْهُ هٰذه الصفاتُ مِن الجوارح. وكذٰلك عَظَّمَ أمرَ القرآنِ، ونهى المُحْدِثَ أن يَمَسَّ المصحفَ، فآلَ الأمرُ بقومٍ مِن المتكلِّمينَ إلى أنْ أجازوا الاستنجاءَ به!!

فهٰؤلاءِ على معاندةِ الشريعةِ؛ لأنَّهم يُهينونَ ما عَظَّمَ الشرعُ. وهل الإيغالُ[٢] في الكلام مما يُقَرِّبُ إلى معرفةِ الحقائقِ التي لا يمكنُ خلافُها؟! هيهاتَ! لو كانَ كذٰلك؛ ما وَقَعَ بين المتكلِّمينَ خلافٌ.

أوَليسَ الشَّرْبُ الأوَّلُ ما تكلَّموا في شيءٍ مِن هٰذا؛ وإنْ كانوا تَعَرَّضوا ببعضِ الأصولِ؟! ثم جاء فقهاءُ الأمصارِ، فَنَهَوْا عن الخوضِ في الكلامِ؛ لعلمِهِم ما يُجْلَبُ ومـا يُجْتَنَبُ! ومَن لم يقنعْ بعقيدةِ مِثْلِ الصَّحابةِ، ولا بطريقٍ مثلِ طريقِ أحمدَ والشافعيِّ في تركِ الخوضِ؛ فلا كانَ مَن كانَ.

ثم بالله تأمَّلوا، أليس قد وَجَبَ هَجْرُ الرِّبا بقولِه تعالى: ﴿لا تأكُلوا الـرِّبـا﴾ [آل عمـران: ١٣٠]، وهَجْرُ الزِّنى بقولِهِ: ﴿ولا تَقْرَبوا الزِّنى﴾ [الإسـراء: ٣٢]؟! فأيُّ فائـدةٍ لنـا في ذِكْرِ قراءةٍ ومقروءٍ، وتلاوةٍ ومتلوٍّ، وقديمٍ ومُحْدَثٍ؟!

فإنْ قيلَ: فلا بدَّ مِن اعتقادِهِ.

---

(١) يعني: أنـه ذكر ذٰلك على ما اعتادته النفوس لا على أنه حقيقة!! وقد قدمنا الجواب عن هٰذا في مقدمة الكتاب، وانظر أيضًا (فصل ٤٣ و٤٩ و٦١ و٧١ و١٢٤).

(٢) الإيغال في الكلام: الإمعان والتعمق فيه.

قلْنا: طريقُ السَّلَفِ أوضحُ مَحَجَّةً؛ لأنا لا نَقولُه تَقْليدًا، بل بالدَّليل، ولٰكنَّا لم نَسْتَفِدْهُ عن جوهرٍ وعَرَضٍ وجُزْءٍ لا يتجزَّأ، بل بأدلةِ النقلِ مع مساعدةِ العقلِ؛ من غيرِ بحثٍ عمّا لا يُحتاجُ إليه.

وليسَ هٰذا مكانَ الشَّرْحِ.

١٩٦ ـ فصل

[حقيقة الموت]

ما زلتُ على عادةِ الخَلْقِ في الحُزْنِ على مَن يَموت مِن الأهل والأولادِ، ولا أتخايلُ إلَّا بِلى الأبدانِ في القبورِ، فأحزنُ لذٰلك.

فمَرَّتْ بي أحاديثُ قد كانتْ تَمُرُّ بي ولا أتفكَّرُ فيها، منها قول النبيِّ ﷺ: «إنَّما نَفْسُ المؤمنِ طائرٌ تعلق في شَجَرِ الجَنَّةِ، حتَّى يَرُدَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى جسدِهِ يومَ يَبْعَثُهُ»[1].

فرأيتُ أنَّ الرحيلَ إلى الراحةِ، وأنَّ هٰذا البدنَ ليس بشيءٍ؛ لأنه مَرْكَبٌ تَفَكَّكَ وفَسَدَ، وسيُبنى جَديدًا يومَ البَعْثِ؛ فلا ينبغي أن يُتَفَكَّرَ في بِلاه، ولْتَسْكُنِ النفسُ إلى أنَّ الأرواحَ انتقلتْ إلى راحةٍ، فلا يبقى كَبيرُ حزنٍ، وأنَّ اللقاءَ للأحبابِ عن قُربٍ.

(١) (صحيح). رواه: مالك (١٦ ـ كتاب الجنائز، ١٦ ـ باب جامع الجنائز، ١ / ٢٤٠ / ٤٩)، وابن ماجه (٣٧ ـ كتاب الزهد، ٣٢ ـ باب ذكر القبر والبلى، ٢ / ١٤٢٨ / ٤٢٧١)، والنسائي (٢١ ـ كتاب الجنائز، ١١٧ ـ باب أرواح المؤمنين وغيرهم، ٤ / ١٠٨ / ٢٠٧٢)؛ من طريق ابن شهاب، عن عبد الرحمٰن بن كعب الأنصاري، عن أبيه... فذكره مرفوعًا.

وسنده صحيح، وصححه الألباني.

وإنَّما يَبْقى الأسفُ لتعلُّق الخَلْقِ بالصُّورِ، فلا يرى الإنسانُ إلَّا جَسَدًا مُسْتَحْسَنًا قد نُقِضَ، فيحزنُ لِنَقْضِه.

والجسدُ ليس هو الآدميَّ، وإنما هو مَرْكَبُهُ؛ فالأرواحُ لا ينالها البِلى، والأبدانُ ليستْ بشيءٍ.

واعْتَبِرْ هٰذا بما إذا قَلَعْتَ ضِرْسَكَ، ورميتَه في حُفرةٍ؛ فهل عندكَ خَبَرٌ مما يَلْقى في مُدَّةِ حياتِك؟! فحُكْمُ الأبدانِ حكمُ ذٰلك الضِّرس؛ لا تدري النفسُ ما يَلْقى.

ولا ينبغي أنْ تَغْتَمَّ بتمزيقِ جسدِ المحبوبِ وبلاه، واذْكُرْ تَنَعُّمَ الأرواح وقُرْبَ التجديدِ وعاجِلَ اللقاءِ؛ فإنَّ الفِكْرَ في تحقيقِ هٰذا يهوِّنُ الحزنَ ويسهِّلُ الأمرَ.

١٩٧ ـ فصل

[في لزوم حفظ اللسان وكتم المذهب]

يَنْبغي للعاقل أنْ لا يَتَكَلَّمَ في الخَلْوَةِ عن أحدٍ بشيءٍ، حتَّى يُمَثِّلَ ذٰلك الشيءَ ظاهرًا مُعْلَنًا به، ثم يَنْظُرَ فيما يجني!

فرُبَّ رجُلٍ وَثِقَ بصديقٍ، فتكلَّمَ أمامَه عن سُلطانٍ بأمرٍ، فَبَلَغَهُ، فأهْلَكَهُ. أو عن صديقٍ، فَبَلَغَهُ، فوقَعَتِ الواقعةُ.

وكذٰلك ينبغي كَتْمُ المذاهبِ؛ فإنَّه ما يربحُ مظهِرُها إلَّا المعاداةَ.

ولما صرَّحَ الشريفُ أبو جعفرٍ في زمانِ المقتدي بمخالفةِ الأشاعرةِ؛ أُخِذَ، وحُبِسَ حتى ماتَ، وكانَ المقصودُ قطعَ الفِتَنِ وإصلاحَ الرعيَّةِ؛ فإنَّه

أهمُّ إلى السلطانِ مِن التعصُّبِ لمذهبٍ[1].

١٩٨ ـ فصل

[في وجوب التسليم لحكمة الخالق سبحانه]

رأيتُ كثيرًا مِن المغفَّلينَ يَظْهَرُ عليهم السَّخَطُ بالأقدارِ، وفيهم مَن قَلَّ إيمانُه، فأخَذَ يَعْتَرِضُ! وفيهم مَن خَرَجَ إلى الكُفْرِ، ورأى أنَّ ما يَجْري كالعَبَثِ، وقالَ: ما فائدةُ الإعدام بعدَ الإيجادِ، والابتلاءِ ممَّن هو غنيٌّ عن أذانا؟!

فقلتُ لبعضِ مَن كان يرمُزُ إلى هٰذا: إنْ حَضَرَ عقلُك وقلبُك؛ حدَّثْتُك، وإنْ كنتَ تتكلَّمُ بمجرَّدِ واقعِك، من غيرِ نظرٍ وإنصافٍ؛ فالحديثُ معك ضائعٌ. ويحكَ! أحضِرْ عقلَكَ! واسمعْ ما أقولُ!

أليسَ قد ثَبَتَ أنَّ الحقَّ سبحانَه مالِكٌ، وللمالِكِ أنْ يتصرَّفَ كيفَ يشاءُ؟! أليسَ قدْ ثَبَتَ أنه حكيمٌ، والحكيمُ لا يَعْبَثُ؟!

وأنا أعلمُ أنَّ في نفسِكَ مِن هٰذه الكلمةِ شيئًا؛ فإنَّهُ قد سَمِعْنا عن جالينوسَ[2] أنَّه قالَ: ما أدري؛ أحكيمٌ هو أم لا؟! والسببُ في قوله هٰذا: أنَّه رأى نَقْضًا بعد إحكام، فقاسَ الحالَ على أحوالِ الخَلْقِ، وهو أنَّ مَن

---

(١) أما المقتدي؛ فهو أحد خلفاء بني العباس، توفي سنة ٤٨٧هـ.

وأما الشريف أبو جعفر؛ فهو عبد الخالق بن أبي موسى الهاشمي العباسي، أكبر تلامذة أبي يعلى القاضي، ولد سنة ٤١١هـ، وتوفي سنة ٤٧٠هـ. انظر ترجمته وخبره في: «المنتظم» (٨ / ٣١٥)، «سير أعلام النبلاء» (١٨ / ٥٤٦).

(٢) طبيب يوناني مشهور، له اكتشافات طبية متعددة، وخاصة في علم التشريح، مات سنة ٢٠١م، وقد كان من أكبر مراجع الأطباء العرب.

بنى ثم نَقَضَ لا لمعنىً ؛ فليسَ بحكيم . وجوابُه ـ لو كانَ حاضرًا ـ أن يُقالَ : بماذا بانَ لكَ أنَّ النَّقْضَ ليس بحِكْمَةٍ؟ أليسَ بعقلِكَ الذي وَهَبَهُ الصانعُ لكَ؟ وكيفَ يَهَبُ لك الذِّهْنَ الكاملَ ويفوتُهُ هو الكمالُ[١]؟ !

وهٰـذه هي المِحْنَـةُ التي جَرَتْ لإبليسَ ؛ فإنَّه أخذَ يَعيبُ الحكمةَ بعقلِه ؛ فلو تَفَكَّرَ ؛ علمَ أنَّ واهبَ العقل أعلى مِن العقل ، وأنَّ حكمته أوفى من كلِّ حكيم ؛ لأنَّه بحكمتِهِ التامَّةِ أنشأ العقولَ .

فهٰذا إذا تأمَّلَهُ المنصفُ ؛ زالَ عنه الشكُّ .

وقد أشارَ سبحانَه إلى نحو هٰذا في قولِه تعالى : ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩] ؛ أيْ : أجَعَلَ لنفسهِ النَّاقِصاتِ وأعطاكُم الكاملينَ؟ !

فلم يبقَ إلَّا أنْ نُضيفَ العَجْزَ عن فَهْم ما يجري إلى نَفْسِنا ، ونقولَ : هٰذا فعلُ عالم حكيم ، ولٰكن ما يَبِينُ لنا معناهُ .

وليسَ هٰذا بِعَجَبٍ ؛ فإنَّ موسى عليهِ السلامُ خَفِيَ عليه وجهُ الحكمةِ في نقضِ السفينةِ الصحيحةِ وقَتْلِ الغلامِ الجميل ، فلما بَيَّنَ له الخَضِرُ وَجْهَ الحكمةِ ؛ أذْعَنَ .

فَلْنَكُنْ مع الخالقِ كموسى مع الخَضِرِ[٢] .

أوَلَسْنا نرى المائدةَ المستحسنةَ بما عليها من فنونِ الطعام النظيفِ الظريفِ يُقْطَعُ ويُمْضَغُ ويصيرُ إلى ما نعلمُ ، ولَسْنا نملِكُ تَرْكَ تلكَ الأفعالِ ،

---

(١) وهٰذا جواب رائع ورائق ، ليس على هٰذا الإيراد فحسب ، بل على جملة من الإيرادات من هٰذا النوع يوردها المتكلمة وأصحاب العقول الكبيرة!!

(٢) وهٰذا أيضًا من الأجوبة الماتعة على هٰذا الإيراد وأمثاله ؛ فرحم الله المصنف .

ولا نُنْكِرُ الإفسادَ له؛ لعِلْمِنا بالمصلحةِ الباطنةِ فيه.

فما المانعُ أنْ يكونَ فعلُ الحقِّ سبحانَه له باطنٌ لا نعلمُهُ؟!

ومِن أجْهل الجهَّال العبدُ المملوكُ إذا طَلَبَ أنْ يطَّلِعَ على سرِّ مولاه؛ فإنَّ فَرْضَهُ التسليمُ لا الاعتراضُ.

ولو لم يكنْ في الابتلاءِ بما تُنْكِرُهُ الطِّباعُ إلَّا أنْ يُقْصَدَ إذعانُ العقل وتسليمُهُ؛ لَكَفى.

ولقد تأملتُ حالةً عجيبةً، يجوزُ أنْ يكونَ المقصودَ بالموتِ هي، وذٰلك أنَّ الخالقَ سبحانَه في غيبٍ لا يدرِكُهُ الإحساسُ؛ فلو أنَّه لم يَنْقُضْ هٰذه البُنْيَةَ؛ لَتخايَلَ للإنسانِ أنَّه صُنِعَ لا بصانعٍ؛ فإذا وَقَعَ الموتُ؛ عَرَفَتِ النفسُ نفسَها التي كانتْ لا تعرِفُها؛ لِكَوْنِها في الجسدِ وتُدْرِكُ عجائبَ الأمورِ بعد رحيلِها؛ فإذا رُدَّتْ إلى البدنِ؛ عَرَفَتْ ضرورةً أنها مخلوقةٌ لِمَن أعادَها، وتذكَّرَتْ حالَها في الدُّنيا ـ فإنَّ الأفكارَ تُعادُ كما تُعادُ الأبدانُ ـ، فيقولُ قائلُهم: ﴿إنَّا كُنَّا قَبْلُ في أَهْلِنا مُشْفِقينَ﴾ [الطور: ٢٦]، ومتى رأتْ ما قد وُعِدَتْ به مِن أمورِ الآخرةِ؛ أيقنتْ يقينًا لا شكَّ معه ـ ولا يحصُلُ هٰذا بإعادةِ مَيِّتٍ سِواها، وإنما يحصُلُ برؤيةِ هٰذا الأمر فيها ـ، فتُبْنى بُنْيَةً تَقْبَلُ البقاءَ، وتُسْكَنُ جنةً لا ينقضي دوامُها، فيَصْلُحُ بذٰلك اليقين أنْ تجاوِرَ الحقَّ؛ لأنَّها آمنتْ بما وَعَدَ، وصَبَرَتْ بما ابتلى، وسَلَّمَتْ لأقدارِه فلم تَعْتَرِضْ، ورأتْ في غيرِها العِبَرَ ثم في نفسِها؛ فهٰذه هي التي يُقال لها: ﴿ارْجِعي إلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً . فادْخُلي في عِبادي﴾ [الفجر: ٢٨ - ٢٩]. فأمّا الشَّاكُّ والكافرُ؛ فيَحِقُّ لهما الدُّخولُ إلى النارِ واللُّبْثُ فيها؛ لأنَّهما رأيا الأدِلَّةَ ولم يستفيدا، ونازعا الحكيمَ، واعْتَرَضا عليه، فعادَ شؤمُ

كفرِهما يَطْمِسُ قلوبَهما، فَبَقِيَتْ على ما كانتْ عليه، فلمّا لم تَنْتَفِعْ بالدَّليل في الدُّنيا؛ لم تَنْتَفِعْ بالموتِ والإعادةِ، ودليلُ بقاءِ الخبثِ في القلوبِ قولُه تعالى: ﴿ولَوْ رُدُّوا لَعادوا لِما نُهوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

فنسأَلُ اللهَ عزَّ وجلَّ عقلاً مسلِمًا يَقِفُ على حدِّه ولا يعترِضُ على خالقِهِ وموجِدِه.

ثم الويلُ للمعترِضِ! أيردُّ اعتراضُهُ الأقدارَ؟! فما يستفيدُ إلَّا الخِزْيَ. نعوذُ باللهِ ممَّنْ خُذِلَ.

١٩٩ ـ فصل

[أجر الآخرة عزاء لكل بلاء]

لا ينبغي للمؤمن أنْ يَنْـزَعِجَ من مرضٍ أو نزولِ موتٍ، وإنْ كانَ الطبعُ لا يُمْلَكُ؛ إلَّا أنَّه ينبغي له التصبُّرُ مهما أمكنَ: إمَّا لطلبِ الأجرِ بما يُعاني، أو لبيانِ أثرِ الرِّضى بالقضاءِ، وما هي إلَّا لحظاتٌ ثم تَنْقَضي.

ولْيتفكَّرِ المُعافَى من المرضِ في الساعاتِ التي كان يَقْلَقُ فيها: أين هي في زمانِ العافيةِ؟! ذهبَ البلاءُ وحَصَلَ الثوابُ؛ كما تذهبُ حلاوةُ اللَّذَّاتِ المحرَّمةِ ويبقى الوزرُ، ويمضي زمانُ التسخُّطِ بالأقدارِ ويبقى العتابُ.

وهل الموتُ إلَّا آلامٌ تزيدُ، فتعجِزُ النفسُ عن حَمْلِها، فتذهبُ؟!

فليتصَوَّرِ المريضُ وجودَ الراحةِ بعدَ رحيلِ النفسِ وقد هانَ ما يَلْقى؛ كما يَتَصَوَّرُ العافيةَ بعد شُرْبِ الشُّرْبَةِ المرةِ.

ولا ينبغي أنْ يَقَعَ جَزَعٌ بذِكْرِ البِلى؛ فإنَّ ذلك شأنُ المركبِ، أما الراكبُ[1]؛ ففي الجنةِ أو النارِ، وإنما ينبغي أن يَقَعَ الاهتمامُ الكليُّ بما يزيدُ في درجاتِ الفضائلِ قبلَ نُزولِ المعوِّقِ عنها؛ فالسعيدُ مَن وُفِّقَ لاغتنام العافيةِ، ثم يختارُ تحصيلَ الأفضلِ فالأفضلِ في زمنِ الاغتنام، وليُعْلَمْ أنَّ زيادةَ المنازل في الجنة على قَدْرِ التزيُّدِ مِن الفضائل ها هنا، والعُمُرُ قصيرٌ، والفضائلُ كثيرةٌ؛ فلْيبالغْ في البِدارِ؛ فيا طولَ راحةِ التَّعِبِ! ويا فرحةَ المغمومِ! ويا سرورَ المحزونِ! ومتى تخايل دوامَ اللَّذَّةِ في الجنةِ من غير منغِّصٍ ولا قاطع؛ هان عليه كلُّ بلاءٍ وشِدَّةٍ.

٢٠٠ـ فصل

[غفلة الناس عن الموت من حكمة الله في عمارة الكون]

حَضَرْنا يومًا جِنازةَ شابٍّ ماتَ أحسنَ ما كانتِ الدُّنْيا له، فرأيتُ من ذمِّ الناسِ للدُّنيا وعَيْبِ مَن سَكَنَ إليها والتَّقْبيح للغافلينَ عنِ الاستعدادِ لهٰذا المصرع أمرًا كبيرًا مِن الحاضرينَ، فقلتُ: نِعْمَ ما قلتُم، ولٰكنِ اسْمَعوا مني ما لم تسمعوهُ!

أعجبُ الأشياءِ أنَّ العاقلَ إذا عَلِمَ قُرْبَ هٰذا المَصْرَعِ منه؛ أوجَبَ عليه عقلُه البِدارَ بالعملِ والقَلَقَ من الخوفِ[2].

وقد اشتدَّ ذٰلك بأقوام، فَهاموا في البراري، وطَوَوُا الأيامَ بالمجاعةِ، وداموا على سَهَرِ الليل، ولازموا المقابرَ، فَهَلَكوا سريعًا.

---

(١) يعني بالمركب الجسد، وبالراكب الروح.

(٢) القلق من الخوف: الاضطراب وشدة الضيق والانزعاج.

ولَعَمْري؛ إنَّ ما خافوه يستحقُّ أكثرَ مِن هٰذا الفعل.

ولٰكن نرى العقلَ الذي أوجبَ هٰذا القَلَقَ قد أمر بما يوجِبُ السُّكونَ، فقالَ: إنَّما خُلِقَ هٰذا البدنُ لِيَحمِلَ النفسَ كما تَحْمِلُ الناقةُ الراكبَ، ولا بدَّ من التلطُّفِ بالناقةِ ليحصُلَ المقصودُ من السَّيْرِ. ولا يَحْسُنُ في العقلِ دوامُ السَّهَرِ وطولُ القَلَقِ؛ لأنَّه يؤثِّرُ في البدن، فيفوتُ أكثرُ المقصودِ. كيفَ وقد خُلِقَ بدنُ الآدميِّ خَلْقًا لَطيفًا؛ فإذا هَجَرَ الدَّسَمَ؛ نَشِفَ الدِّماغُ، وإذا دامَ على السَّهَرِ؛ قَوِيَ اليُبْسُ، وإذا لازمَ الحُزْنَ؛ مَرِضَ القلبُ؟! فلا بدَّ من التلطُّفِ بالبدنِ؛ بتناوُلِ ما يُصْلِحُهُ، وبالقلبِ؛ بما يَدْفَعُ الحزنَ المؤذيَ له، وإلَّا؛ فمتى دامَ المؤذي؛ عَجِلَ التَّلَفُ.

ثم يأتي الشرعُ بما قد قالَه العقلُ: فيقولُ: «إنَّ لِنَفْسِكَ عليكَ حقًّا، وإنَّ لِزَوْجِكَ عليكَ حقًّا؛ فصمْ وأفطِرْ، وقُمْ ونَمْ»[1]. ويقولُ: «كفى بالمرءِ إثمًا أنْ يُضَيِّعَ مَن يَقوتُ»[1]. ويَحُثُّ على النِّكاحِ[2].

ودوامُ القلقِ واليُبْسِ يَتْرُكُ الزَّوْجَةَ كالأرملةِ والولدَ كاليتيم؛ ولا وجهَ للتَّشاغُلِ بالعلم مع هٰذا القَلَقِ.

ومَن أرادَ مِصْداقَ ما قلتُهُ؛ فليتأملْ حالةَ الرسولِ ﷺ؛ فإنَّهُ كان يُعَدِّلُ ما عندَهُ مِن الخوفِ فيُمازِحُ، ويسابقُ عائشةَ، ويُكْثِرُ مِن التزوُّجِ، وكان يتلطَّفُ ببدنِهِ؛ فيختارُ الماءَ البائتَ، ويحبُّ الحلوى واللحمَ[1].

ولولا مساكنةُ نوعِ غفلةٍ؛ لما صَنَّفَ العلماءُ، ولا حُفِظَ العلمُ، ولا

(١) وقد تقدم ذكر أدلة هٰذا كله وتخريجها في فصول سابقة. وانظر مثلاً: (فصل ١٩ و٢١ و٩٧).

(٢) والآيات الكريمة والأحاديث الشريفة في ذٰلك كثيرة معروفة لا نطيل بسردها.

كُتبَ الحديثُ[١]؛ لأنَّ مَن يقولُ: ربَّما مُتُّ اليومَ؛ كيف يَكْتُبُ وكيف يَسْمَعُ ويُصَنِّفُ؟!

فلا يَهولَنَّكُم ما تَرَوْنَ مِن غفلةِ الناسِ عن الموتِ، وعدم ذِكْرِهِ حقَّ ذِكْرِهِ؛ فإنها نعمةٌ مِن الله سبحانَه، بها تقومُ الدُّنْيا ويَصْلُحُ الدِّينُ.

وإنما تُذَمُّ قوةُ الغفلةِ الموجبةُ للتَّفْريطِ وإهمالِ المحاسبةِ للنفسِ وتضييعِ الزمانِ في غيرِ التزوُّدِ، وربَّما قَوِيَتْ فَحَمَلَتْ على المعاصي.

فأما إذا كانتْ بِقَدَرٍ؛ كانتْ كالملح في الطعام، لا بدَّ منهُ؛ فإنْ كَثُرَ؛ صار الطعامُ زُعاقًا.

فالغفلةُ تُمْدَح إذا كانتْ بِقَدَرٍ كما بَيَّنَّا، ومتى زادتْ؛ وَقَعَ الذَّمُّ.

فافهمْ ما قلتُهُ، ولا تقلْ: فلانٌ شديدُ اليَقَظَةِ ما ينامُ الليلَ، وفلانٌ غافلٌ ينامُ أكثرَ الليل؛ فإن غَفْلَةً توجِبُ مصلحةَ البدنِ والقلبِ لا تُذَمُّ[٢].

والسلامُ.

٢٠١ ـ فصل

[في الزهد الكذاب]

ما يكادُ يحبُّ الاجتماعَ بالناسِ إلَّا فارغٌ؛ لأنَّ المشغولَ القلبِ

(١) والمعنى: لولا نوع نسيان لأهوال الموت والقبر والقيامة والنار؛ لما سعى امرؤ في دنياه بل لاكتفى بالعمل لأخراه.

(٢) ما أرى من الحكمة أن يقال مثل هذا للناس في المقابر... دعهم! لعلهم يصحون من سكر الدنيا القتال الذي أخذ بمجامع القلوب... لا تخش عليهم! لن يلبثوا أن يعودوا إلى غفلتهم المستحكمة وانكبابهم على الدنيا.

بالحقِّ يَفِرُّ مِن الخَلْقِ، ومتى تمكَّنَ فراغُ القلب من معرفةِ الحقِّ؛ امتلأ بالخَلْقِ، فصارَ يعملُ لهم ومِن أجلِهِم، ويَهْلِكُ بالرِّياءِ، ولا يعلمُ.

وإني لأتأمَّلُ بعض مَن يتزيَّى بالفَقْرِ والتصوُّفِ، وهو يَلْبَسُ ثيابًا لا تُساوي دينارًا، وعندَه المالُ الكثيرُ، وقدْ أمْرَعَ نفسَه في المطاعم الشهيَّةِ[1]، وهو عاملٌ بمُقْتَضى الكِبْرِ والتصدُّرِ، فيتقرَّبُ إلى أربابِ الدُّنيا، ويَسْتَزْري أربابَ العلم، ويزورُ أولئك دونَهم، وإنما يَرُدُّ ما يُعْطى لِيَشيعَ له اسمُ زاهدٍ، فتراهُ يُرَبِّي الناموسَ، وهو في احتيالِهِ كثعلبٍ، وفي نهوضِهِ إلى أغراضِهِ في الباطنِ كَلْبُ شَرى. فأقولُ: سبحانَ اللهِ! ما يَزْهَدُ إلَّا الثِّيابُ!

أتُرى ما سَمِعَ قولَ النبيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ يُحِبُّ أنْ يرى أثَرَ نعمتِهِ على عبدِهِ»[2]؟!

وأعـوذُ باللهِ مِن رؤيةِ النفسِ ورؤيةِ الخَلْقِ: فإنَّ مَنْ رأى نفسَـهُ؛ تَكَبَّرَ، والمتكبِّرُ أحمقُ؛ لأنَّه ما مِن شيءٍ يَتَكَبَّرُ به إلَّا ولغيرِهِ أكثرُ منهُ. ومَن راءى الخَلْقَ؛ عَبَدَهُم وهو لا يعلمُ!

فأمـا العاملُ للهِ سبحانَه وتعالى؛ فهو بعيدٌ مِن الخَلْقِ؛ فإنْ تَقَرَّبوا

---

(١) أمرع نفسه في المطاعم الشهية: غذا نفسه بها، وأخصب جسمه بأكلها.

(٢) (حسن صحيح). رواه: الترمذي (٤٤ ـ كتاب الأدب، ٥٤ ـ باب ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، ٥ / ١٢٣ / ٢٨١٩)، والحاكم (٤ / ١٣٥)؛ من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده.

قال الترمـذي: «وفي البـاب عن أبي الأحوص عن أبيه وعمران بن حصين وابن مسعـود». وقـال: «هٰذا حديث حسن». وقال الحاكم: «هٰذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في «غاية المرام» (٢٣ / ٧٥).

إليه؛ سَتَرَ حالَه بما يوجِبُ بُعْدَهُم عنه.

وقد رأينا مَن يُرائي ولا يدري، فيمتنعُ من المشي في السوقِ، ومِن زيارةِ الإخوانِ، ومِن أن يشتريَ شيئًا بنفسِهِ! وتوهِمُهُ نفسُه أني أكرهُ مخالطةَ السُّوْقَةِ!! وإنما هٰذا يربِّي جاهًا بين العلماءِ؛ إذ لو خالَطَهُم؛ لامْتَحِيَ جاهُهُ، وبَطَلَ تقبيلُ يَدِهِ!

وقد كان بشرٌ الحافي يجلِسُ في مجلسٍ عند العطارِ[1].

وأبلغُ مِن هٰذا كلِّه أنَّ نبيَّنا ﷺ كان يَشْتري حاجَتَهُ ويحمِلُها[2].

وخَرَجَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه وهو أميرُ المؤمنينَ إلى السوق فاشْتَرى ثوبًا.

وقد كان طلحةُ بنُ مصرِّفٍ[3] قارئُ أهل الكوفةِ، فلما كَثُرَ الناسُ عليه؛ مَشَى إلى الأعمشِ، فَقَرَأ عليهِ، فمالَ الناسُ إلى الأعمشِ، وتركوا طَلْحَةَ[4].

---

(١) تقدمت ترجمته في (فصل ١٩).

(٢) أما شراؤه ﷺ؛ فمعلوم، وقد وردت فيه كثير من الآثار لا نطيل بسردها.

وأما حمله ﷺ لحاجاته؛ فلا نعلمه في حديث صحيح ولا ضعيف، ولا نعني بهٰذا أن حمل المرء حاجاته مكروه أو ما أشبه، لٰكنه لم يثبت عن النبي ﷺ، وما جاء من أن صاحب الحاجة أولى بحاجته موضوع. وانظر: «السلسلة الضعيفة» (١ / ٢٠٤ / ٨٩).

(٣) في الأصول: «مطرف»! والصواب ما أثبتناه.

(٤) طلحة بن مصرف هو أبو محمد اليامي، الإمام، الحافظ، المقرىء، شيخ الإسلام، توفي سنة ١١٢هـ. انظر ترجمته في: «حلية الأولياء» (٥ / ١٤)، «تهذيب التهذيب» (٥ / ٢٥).

والأعمش هو سليمان بن مهران، الإمام، شيخ الإسلام، شيخ المقرئين =

هٰذا واللهِ الكبـريتُ الأحمـرُ[1] والإكسيرُ[2]، لا ما يُظَنُّ إكْسيرًا في الكيمياءِ . . . والمعاملةُ مع اللهِ تعالى هٰكذا تكونُ .

فأمّا ضِدُّ هٰذه الحالِ ؛ فحالةُ عابدٍ للخلقِ مُلَبِّسٍ .

وقد عَمَّ هٰذا جمهورَ الخَلْقِ ، حاشا السَّلَفِ .

أفْـدِي ظِبـاءَ فَلاةٍ ما عَرَفْنَ بِهـا مَضْغَ الكَلامِ ولا صَبْغَ الحَوْاجيبِ

٢٠٢ ـ فـصـل

[جميع المعاصي قبيحة، وبعضها أقبح من بعض]

كلُّ المعاصي قبيحةٌ ، وبعضُها أقبحُ من بعضٍ :

فإنَّ الزِّنى مِن أقبحِ الذُّنوبِ ؛ فإنَّه يُفْسِدُ الفَرْشَ ويُغَيِّرُ الأنسابَ .

وهـو بالجـارةِ أقبـحُ : فقد رُوِيَ في «الصحيحين» من حديثِ ابن مسعودٍ؛ قالَ: قلتُ: يا رسول اللهِ! أيُّ ذنبٍ أعظمُ؟ قالَ: «أنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وهُو خَلَقَكَ». قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «أنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مِن أجْلِ أنْ يَطْعَمَ معـكَ». قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «أنْ تُزانـيَ حليلةَ جارِكَ»[3]. وقـد روى

= والمحدثين، ولد سنة ٦١هـ، وتوفي سنة ١٤٨هـ. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٩ / ٣)، «أعلام النبلاء» (٦/ ٢٢٦). وانظر الخبر في: «أعلام النبلاء» (٥/ ١٩١).

(١) الكبريت من أشباه المعادن المعروفة، له استعمالات كثيرة، والكبريت الأحمر يضرب به المثل في الندرة، وربما يشار به إلى الياقوت أو أصل الذهب الأرضي.

(٢) الإكسير: كلمة يونانية معربة، زعم الكيميائيون القدامى أنها مادة تحول المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة، ويسمى أيضًا حجر الفلاسفة.

(٣) رواه: البخـاري (٦٥ ـ كتـاب التفسير، ٢٥ ـ باب سورة الفرقان، ٢ ـ باب =

البخاري في «تاريخه» من حديثِ المقدادِ بن الأسودِ عن النبيِّ ﷺ: أنَّه قالَ: «لأنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بعشرِ نسوةٍ أيسرُ مِن أنْ يَزْنِيَ بامرأةِ جارِهِ، ولأنْ يَسْرِقَ مِن عشرةِ أبياتٍ أيسرُ عليهِ مِن أنْ يَسْرِقَ من بيتِ جارِه»[1]. وإنما كانَ هٰذا؛ لأنَّه يَضُمُّ إلى معصيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ انتهاكَ حقِّ الجارِ.

ومِن أقبحِ الذُّنوبِ أنْ يَزْنِيَ الشيخُ؛ ففي الحديثِ: «إنَّ اللهَ يُبْغِضُ الشَّيْخَ الزَّاني»[2]؛ لأنَّ شهوةَ الطبع قد ماتَتْ، وليس فيها قوةٌ تَغْلِبُ؛ فهو يُحَرِّكُها ويبالِغُ، فكانتْ معصيتُه عنادًا.

ومن المعـاصي التي تُشْبِهُ المعاندةَ لُبْسُ الرجل الحريرَ والذهبَ،

= ﴿والذين لا يدعون مع الله إلٰهًا آخر﴾، ٨ / ٤٩٢ / ٤٧٦١)، ومسلم (١ ـ كتاب الإيمان، ٣٧ ـ باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، ١ / ٩٠ / ٨٦)؛ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(١) (**حسن**). رواه: أحمد (٦ / ٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٠٣)، والطبراني (٢٠ / ٢٥٦ / ٦٠٥)؛ من طريق محمد بن سعد الأنصاري، سمعت أبا ظبية الكلاعي، سمعت المقداد بن الأسود... فذكره.

قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣ / ٢٤٠): «رواه أحمد، ورواته ثقات، والطبراني في «الكبير» و«الأوسط»». وقال الهيثمي في «المجمع» (٦ / ١٧١): «رواه أحمد والطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، ورجاله ثقات». وأبو ظبية الكلاعي رجح الألباني توثيقه في «الصحيحة» (١ / ١٣٦ / ٦٥)، وجود إسناد الحديث.

(٢) (**صحيح**). رواه: النسائي (٢٣ ـ كتاب الزكاة، ٧٧ ـ باب الفقير المحتال، ٥ / ٨٦ / ٢٥٧٥)، وابن حبان (١٠ / ٣٦٨ / ٥٥٥٨)، والقضاعي في «الشهاب» (٣٢٤)؛ من طرق عن حماد بن سلمة، عن عبيد الله بن عمر، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة... فذكره مرفوعًا.

وهٰذا سند صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني.

خصوصًا خاتَمَ الذهبِ الذي يتحلَّى به الشيخُ ، وإنه مِن أبْرَدِ الأفعالِ وأقبح الخطايا .

ومن هٰذا الفنِّ الرِّياءُ والتَّخاشُعُ وإظهارُ التزهُّدِ للخَلْقِ ؛ فإنَّه كالعبادةِ لهم ؛ معَ إهمالِ جانبِ الحقِّ عزَّ وجلَّ(١) .

وكذٰلك المعاملةُ بالرِّبا الصريح ، خصوصًا مِن الغنيِّ الكثيرِ المال .

ومِن أقبحِ الأشياءِ أنْ يَطولَ المرضُ بالشيخ الكبيرِ ولا يَتوبَ مِن ذنبٍ ؛ لا يعتذِرَ مِن زَلَّةٍ ، ولا يَقْضي دَيْنًا ، ولا يوصي بإخراجِ حقٍّ عليهِ!

ومِن قبائحِ الذُّنوبِ أنْ يتوبَ السَّارِقُ أو الظالمُ ولا يَرُدَّ المظالمَ . والمُفَرِّطُ في الزكاةِ أو في الصلاةِ ولا يَقْضِيَ(٢) .

ومِن أقبحِها أنْ يَحْنَثَ في يمينِ طلاقِهِ ثمَّ يُقيمَ مع المرأةِ!

وقِسْ على ما ذكرتُهُ ؛ فالمعاصي كثيرةٌ ، وأقبحُها لا يَخْفى .

وهٰذه المُسْتَقْبَحاتُ ـ فضلًا عنِ القبائحِ ـ تُشْبِهُ العنادَ للآمِرِ ، فيستحقُّ صاحِبُها اللعنَ ودوامَ العقوبةِ .

وإني لأرى شُرْبَ الخمرِ من ذٰلك الجنس ؛ لأنَّها ليستْ مُشتهاةً لذاتِها ولا لريحِها ولا لطعمِها ـ فيما يُذْكَرُ ـ ؛ إنَّما لَذَّتُها ـ فيما يُقالُ ـ بعدَ

(١) يصدق هٰذا ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : «الشرك الخفي أن يعمل الرجل لمكان الرجل» . أخرجه ابن ماجه والحاكم بسند حسن . وانظر : «صحيح الجامع» (٣٧٢٩) .

(٢) لأنها توبة كذابة ، وفيها مخادعة لله عز وجل ، والله خادع أولٰئك الناس ، وحقوق العباد لا بد من ردها ، ولا مسامحة فيها .

تَجَرُّع مرارَتِها؛ فالإقدامُ على ما لا يَدْعو إليه الطبعُ - إلى أنْ يَصِلَ التَّناوُلُ إلى اللَّذَّةِ - معاندةٌ.

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ إيمانًا يَحْجُزُ بيننا وبين مخالفتِهِ، وتوفيقًا لما يُرْضيهِ؛ فإنَّما نحنُ بِهِ ولَهُ.

٢٠٣ - فصل

[العجب آفة العلماء]

اعتبرتُ[١] على أكثرِ العلماءِ والزُّهَّادِ أنَّهم يُبْطِنونَ الكِبْرَ؛ فهٰذا يَنْظُرُ في موضعِهِ وارتفاعِ غيرِهِ عليهِ، وهٰذا لا يعودُ مريضًا فقيرًا يرى نفسَه خيرًا منه...

حتى إني رأيتُ جماعةً يُومَأُ إليهم:

منهُم مَن يقولُ: لا أُدْفَنُ إلَّا في دَكَّةِ[٢] أحمدَ بن حنبلٍ! ويعلمُ أنَّ في ذٰلك كَسْرَ عظامِ الموتى، ثم يرى نفسَه أهلًا لذٰلك التصدُّرِ.

ومنهُم مَن يقولُ: ادْفِنوني إلى جانبِ مسجدي! ظنًّا منهُ أنَّه يصيرُ بعدَ موتِهِ مَزارًا؛ كمعروفٍ الكَرْخِيِّ[٣].

---

(١) اعتبرت هنا بمعنى: تتبعت، ولذٰلك عديت بحرف الجر (على)، وفي بعض المطبوعات: «انتقدت».

(٢) دكة أحمد بن حنبل: التربة التي دفن فيها رضي الله عنه.

(٣) تقدمت ترجمة معروف في (فصل ٢٥)، وزيارة القبور على العموم جائزة في الشريعة، وتخصيص قبر معين بتكرار الزيارة وجعله مزارًا فتح لباب ضلالة وشرك، فمعلوم أن مثل هٰذه المزارات لا تقصد للاتعاظ ولا لتذكر الآخرة ولٰكن للاستمداد الروحاني وقضاء الحوائج وغير ذٰلك من الضلالات.

وهٰذه خَلَّةٌ مُهْلِكَةٌ! ولا يعلمونَ!!

قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ ظَنَّ أنَّه خيرٌ من غيرِه؛ فقدْ تكَبَّرَ»(١).

وقَلَّ مَن رأيتُ إلَّا وهُو يرى نَفْسَهُ!

والعجبُ كلُّ العجبِ ممَّنْ يَرى نفسَه! أتُراهُ بماذا رآها؟! إنْ كانَ بالعلمِ؛ فقدْ سَبَقَهُ العلماءُ، وإنْ كانَ بالتعبُّدِ؛ فقدْ سَبَقَهُ العبَّادُ، أو بالمال؛ فإنَّ المالَ لا يوجِبُ بنفسِهِ فضيلةً دينيَّةً.

فإنْ قالَ: قد عَرَفْتُ ما لم يَعْرِفْ غيري من العلم في زمني؛ فما عليَّ ممَّنْ تَقَدَّمَ؟

قيلَ له: ما نأمُرُكَ يا حافظَ القرآنِ أنْ ترى نفسكَ في الحفظِ كَمَنْ يَحْفَظُ النصفَ، ولا يا فقيهُ أنْ تَرى نَفْسَكَ في العلم كالعاميِّ، إنَّما نَحْذَرُ عليكَ أنْ ترى نفسَك خيرًا من ذٰلك الشخصِ المؤمنِ، وإنْ قلَّ عِلْمُهُ؛ فإنَّ الخيريَّةَ بالمعاني لا بصُورةِ العلم والعبادةِ، ومَن تَلَمَّحَ خِصالَ نفسِهِ وذنوبَها؛ عَلِمَ أنَّه على يقينٍ من الذُّنوبِ والتقصيرِ، وهو مِن حال غيرِه على شكٍّ؛ فالذي يُحْذَرُ منه الإعجابُ بالنفسِ، ورؤيةُ التقدُّم في أحوال الآخرةِ.

والمؤمنُ لا يزالُ يَحْتَقِرُ نفسَه.

وقد قيلَ لعمرَ بن عبدِ العزيز رضي الله عنه: إنْ مُتَّ؛ نَدْفِنُكَ في حُجرةِ رسولِ اللهِ ﷺ؟ فقالَ: لأنْ ألقى اللهَ بكلِّ ذنبٍ غيرَ الشِّرْكِ أحبُّ

(١) (لا يعرف). ولم نجده فيما بين أيدينا من المصادر.

إليَّ من أن أرى نفسيَ أهْلاً لذلك(١).

وقد رُوِّينا أنَّ رَجُلاً مِن الرُّهبانِ رأى في المنامِ قائِلاً يقولُ لهُ: فلانٌ الإِسكافيُّ خيرٌ منكَ! فنَزَلَ مِن صَوْمَعَتِهِ، فجاءَ إليه، فسألَهُ عن عملِهِ، فلم يَذْكُرْ كبيرَ عملٍ! فقيلَ له في المنامِ: عُدْ إليهِ، وقلْ لهُ: مِمَّ صُفْرَةُ وجهِكَ؟ فعادَ، فسألَهُ؟ فقالَ: ما رأيتُ مسلِمًا؛ إلا وَظَنَنْتُهُ خيرًا مني. فقيلَ لهُ: فبذاكَ ارتفعَ.

٢٠٤ ـ فـصـل

[في لزوم الصبر على الغاضب حتى يهدأ]

متى رأيتَ صاحِبَكَ قدْ غَضِبَ، وأخَذَ يَتَكَلَّمُ بما لا يَصْلُحُ؛ فلا ينبغي أنْ تَعْقِدَ على ما يقولُهُ خِنْصِرًا(٢)، ولا أنْ تؤاخِذَهُ به؛ فإنَّ حالَهُ حالُ السَّكْرانِ، لا يَدْري ما يَجْري. بلِ اصْبِرْ لِفَوْرَتِهِ، ولا تعوِّلْ عليها؛ فإنَّ الشيطانَ قد غَلَبَهُ، والطبعَ قدْ هاجَ، والعقلَ قدِ اسْتَتَرَ.

ومتى أخَذْتَ في نفسِكَ عليه، أو أجبْتَهُ بمُقتضى فعلِهِ؛ كنتَ كَعاقلٍ واجَهَ مجنونًا، أو كَمُفيقٍ عاتبَ مغمىً عليهِ؛ فالذَّنْبُ لكَ.

بل انظرْ بعينِ الرحمةِ، وتلمَّحْ تصريفَ القَدَرِ له، وتَفَرَّجْ في لَعِبِ الطبعِ به، واعلمْ أنَّه إذا انتبهَ؛ نَدِمَ على ما جَرى، وعَرَفَ لكَ فَضْلَ الصبرِ.

---

(١) أخرجه: ابن سعد في «الطبقات» (٥ / ٢٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥ / ٣٣٥)؛ من طريقين، ورجال ابن سعد ثقات.

(٢) الخنصر: هي الإصبع الصغرى في اليد، ومعنى: «لا ينبغي أن تعقد على ما يقوله خنصرًا»؛ يعني: لا تأخذ ما يقول بعين الاعتبار والمؤاخذة.

وأقلُّ الأقسام أنْ تُسْلِمَهُ فيما يَفْعَلُ في غضبِهِ إلى ما يَسْتَرِيحُ بهِ.

وهٰذه الحالةُ يَنْبغي أنْ يَتَلَمَّحَها الولدُ عند غضبِ الوالدِ والزوجةُ عندَ غضبِ الزَّوْجِ؛ فتتركَهُ يَشْتَفي بما يقولُ، ولا تعوِّلَ على ذلك؛ فسيعودُ نادمًا معتذِرًا.

ومتى قُوبِلَ على حالتِهِ ومقالتِهِ؛ صارتِ العداوةُ متمكِّنَةً، وجازى في الإفاقةِ على ما فُعِلَ في حقِّهِ وقتَ السُّكْرِ.

وأكثرُ الناس على غيرِ هٰذه الطريق: متى رأوا غضبانَ؛ قابَلوهُ بما يقولُ ويعمـلُ، وهٰذا على غيرِ مقتضى الحِكْمَةِ، بل الحِكْمَةُ ما ذكرتُهُ، ﴿وما يَعْقِلُها إِلَّا العالِمونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

٢٠٥ ـ فـصـل

[لا تثق بمودة من آذيته]

ليس في الدُّنيا أبلهُ ممَّن يُسيءُ إلى شخصٍ، ويعلمُ أنَّه قد بَلَغَ إلى قلبِهِ بالأذى، ثم يَصْطَلِحانِ في الظَّاهِرِ، فيعلمُ أنَّ ذٰلك الأثَرَ مُحِيَ بالصُّلْحِ! وخصوصًا الملوكَ؛ فإنَّ لَذَّتَهُمُ الكُبرى أنْ لا يرتفع عليهم أحدٌ ولا ينكسِرَ لهم غَرَضٌ؛ فإذا جرى شيءٌ من ذٰلك؛ لم يَنْجَبِرْ.

واعتبِرْ هٰذا بأبي مسلم الخراسانيِّ؛ فإنَّه غَضَّ مِن قَدْرِ المنصورِ قبل ولايتِهِ، فَحَمَلَ ذٰلك في نفسِهِ، فَقَتَلَهُ[1].

ومَن نَظَرَ في التواريخِ؛ رأى جماعةً قد جرى لهم مثلُ هٰذا.

---

(١) تقدمت ترجمة أبي مسلم الخراساني في (فصل ١٧٠)، وانظر خبر مقتله في مواضع ترجمته.

ولا ينبغي لمن أساءَ إلى ذي سلطانٍ أنْ يَقَعَ في يَدِهِ؛ فإنَّه إذا رامَ التَّخَلُّصَ؛ لم يَقْدِرْ، فيبقى ندمُهُ على تركِ احترازِهِ وحسرتُهُ على مساكنةِ الضمانِ للسلامةِ أشدَّ عليه مِن كلِّ ما يُلقى به من الهوانِ والأذى.

ومِن هٰذا الجنسِ الأصدقاءُ المتماثِلونَ؛ فإنَّك متى آذيتَ شَخْصًا، وبَلَغَ إلى قلبِهِ أذاكَ؛ فلا تَثِقْ بمودَّتِهِ؛ فإنَّ أذاكَ نُصْبَ عينِهِ؛ فإنْ لم يَحْتَلْ عليكَ؛ لم يَصْفُ لكَ. ولا تخالطْ إلَّا مَنْ أنعمتَ عليه فَحَسْبُ؛ فهو لم يَرَ منكَ إلَّا خيرًا، فيكونُ في نفسِهِ.

وكذٰلك الولدُ والزوجةُ والمعامَلُونَ.

ويَلْحَقُ بهٰذا أنْ أقولَ: لا ينبغي أنْ تُعادِيَ أحدًا ولا تتكلَّمَ في حقِّهِ؛ فربَّما صارتْ له دولةٌ فاشْتَفى، وربَّما احتيجَ إليه فلمْ يُقدَرْ عليه.

فالعاقلُ يُصَوِّرُ في نفسِهِ كلَّ ممكنٍ، ويستُرُ ما في قلبِهِ من البُغْضِ والوُدِّ، ويداري مَع الغيظِ والحقدِ.

هٰذه مشاورةُ العقل إنْ قُبِلَتْ.

٢٠٦ـ فصل

[العاقل من أبعد النظر وقدر العواقب]

كلُّ مَن لا يَتَلَمَّحُ العواقبَ ولا يستعدُّ لما يجوزُ وقوعُهُ؛ فليس بكامل العقل!

واعتبـرْ هٰذا في جميع الأحوال! مثلُ أنْ يَغْتَرَّ بشبابِهِ، ويدومَ على المعاصي، ويُسَوِّفَ بالتوبةِ؛ فربما أُخِذَ بَغْتَةً ولم يَبْلُغْ بعضَ ما أَمَّلَ. وكذٰلك

إذا سَوَّفَ بالعمل أو بحِفْظِ العلم؛ فإنَّ الزمانَ يَنْقَضي بالتسويفِ، ويفوتُ المقصودُ. وربما عَزَمَ على فعل خيرٍ أو وَقْفِ شيءٍ من مالِهِ، فسوَّفَ، فبُغِتَ.

فالعاقلُ مَن أخَذَ بالحزم في تصوير ما يجوزُ وقوعُهُ، وعَمِلَ بمقتضى ذٰلك؛ فإنِ امتدَّ الأجلُ؛ لم يَضُرَّهُ، وإنْ وَقَعَ المَخوفُ؛ كان مُحْتَرِزًا.

وممـا يتعلَّقُ بالـدُّنيا: أن يميلَ مع السلطانِ، ويسيءَ إلى بعضِ حواشيهِ؛ ثقةً بقربِهِ منهُ، فربَّما تَغَيَّرَ ذٰلك السلطانُ، فارتفعَ عدوُّه، فانتقم منهُ. وقد يُعادي بعضَ الأصدقاءِ ولا يبالي به لأنَّه دونَه في الحالةِ الحاضرةِ؛ فربما صَعِدَتْ مرتبةُ ذٰلك، فاستوفى ما أَسْلَفَهُ إليه مِن القبيح وزادَ.

فالعاقلُ مَن نَظَرَ فيما يجوزُ وقوعُه، ولم يعادِ أحدًا: فإنْ كانَ بينَهما ما يوجِبُ المعاداةَ؛ كَتَمَ ذٰلك؛ فإنْ صَحَّ له أنْ يَثِبَ على عدُوِّهِ، فينتقمَ منه انتقامًا يُبيحُهُ الشرعُ؛ جازَ، على أنَّ العفوَ أصلحُ في باب العيش [1].

ولهٰذا ينبغي أن يُخْدَمَ البَطَّالُ [2]؛ فإنَّه ربما عَمِلَ، فَعَرَفَ ذٰلك لمن خَدَمَ.

وقِسْ على أنموذج ما ذكرتُهُ مِن جميع الأحوالِ.

٢٠٧ـ فـصـل

[في النهي عن مخالطة السلاطين]

بقَدْرِ صُعودِ الإنسانِ في الدُّنيا تَنْزِلُ مرتبتُهُ في الآخرةِ.

---

(١) وعند الله تعالى.

(٢) البطال: الذي لا عمل له ولا منصب.

وقد صرَّحَ بهٰذا ابنُ عمرَ رضي الله عنهما، فقالَ: واللهِ؛ لا ينالُ أحدٌ من الدُّنيا شيئًا؛ إلَّا نَقَصَ من درجاتِهِ عندَ اللهِ؛ وإنْ كانَ عندَه كريمًا.

فالسعيدُ مَن اقْتَنَعَ بالبُلْغَةِ[1]؛ فإنَّ الزمانَ أشرفُ مِن أنْ يَضيعَ في طَلَبِ الدُّنيا... اللهمَّ إلَّا أن يكونَ متورِّعًا في كسبِهِ، معينًا لنفسِهِ عن الطمعِ، قاصدًا إعانةَ أهلِ الخيرِ والصَّدَقَةَ على المحتاجينَ؛ فكَسْبُ هٰذا أصلحُ من بَطالتِهِ. فأمّا الصعودُ الذي سببُهُ مخالطةُ السلاطينِ؛ فبعيدٌ أنْ يَسْلَمَ معه الدينُ؛ فإنْ وقعتْ سلامتُهُ ظاهرًا؛ فالعاقبةُ خطرةٌ.

قال أبو محمدٍ التميميُّ: ما غَبَطْتُ أحدًا؛ إلَّا الشريفَ أبا جعفرٍ يومَ ماتَ القائمُ بأمرِ اللهِ؛ فإنَّه غَسَّلَهُ، وخَرَجَ يَنْفُضُ أكمامَه، فقَعَدَ في مسجدِهِ لا يبالي بأحدٍ، ونحنُ منزعِجونَ لا نَدْري ما يجري علينا.

وذاك أنَّ التميميَّ كانَ متعلِّقًا على السلطانِ، يَمْضي له في الرسائلِ، فخافَ مَغَبَّةَ القُرْبِ[2].

وقد رأيْنا جماعةً مِن العلماءِ خالَطوا السلطانَ فكانتْ مَغَبَّتُهم[3] سيئةً.

ولَعَمْري؛ إنَّهم طَلَبوا الراحةَ فأخطؤوا طريقَها؛ لأنَّ غُمومَ القلبِ لا توازيها لَذَّةُ مالٍ ولا لَذَّةُ مطعمٍ، هٰذا في الدُّنيا قبلَ الآخرةِ.

وليسَ أشرفَ وأطيبَ عَيْشًا مِن منفردٍ في زاويةٍ؛ لا يخالِطُ السَّلاطينَ،

---

(١) البلغة: القليل الذي يسد الحاجة.

(٢) القائم بأمر الله: الخليفة العباسي، توفي سنة ٤٦٧هـ. والشريف أبو جعفر تقدمت ترجمته في (فصل ١٩٧). وانظر خبر تغسيله للقائم في مواضع ترجمته.

(٣) مغبة الأمر: عاقبته.

ولا يُبالي أطابَ مَطْعَمُهُ أم لم يَطِبْ؛ فإنَّه لا يَخْلو مِن كِسْرَةٍ وقَعْبِ ماءٍ[١]، ثم هو سليمٌ مِن أنْ تُقالَ لهُ كلمةٌ تؤذيهِ، أو يَعيبُهُ الشرعُ حينَ دخولِهِ عليهم أو الخَلْقُ.

ومَن تأمَّلَ حالَ أحمدَ بنِ حنبلٍ في انقطاعِهِ، وحالَ ابنِ أبي دُؤادٍ ويحيى بنِ أكثم[٢]؛ عَرَفَ الفرقَ في طِيبِ العيشِ في الدُّنيا والسلامةِ في الآخرةِ.

وما أحسنَ ما قالَ ابنُ أدْهَمَ: لو عَلِمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه مِن لذيذِ العيشِ؛ لَجالَدونا عليه بالسيوفِ[٣].

ولقد صَدَقَ ابنُ أدهمَ؛ فإنَّ السلطانَ إنْ أكَلَ شيئًا؛ خافَ أنْ يكونَ قد طُرِحَ له فيه سُمٌّ، وإنْ نامَ؛ خافَ أنْ يُغْتالَ، وهو وراءَ المغاليقِ، لا يمكِنُه أنْ يَخْرُجَ لِفَرْجَةٍ[٤]، فإنْ خرجَ؛ كانَ منزعِجًا من أقربِ الخلقِ إليه، واللَّذَّةُ التي ينالُها تبردُ عندَه، ولا تبقى له لَذَّةُ مطعم ولا مَنْكَح، وكلَّما استطرفَ المطاعمَ؛ أكثرَ منها فَفَسَدَتْ مَعِدَتُه، وكلَّما اسْتَجَدَّ الجواريَ؛ أكْثَرَ منهن فَذَهَبَتْ قوَّتُه، ولا يكادُ يُبْعِدُ ما بينَ الوطْءِ والوطْءِ؛ فلا يَجدُ في الوطْءِ كبيرَ لَذَّةٍ؛ لأنَّ لَذَّةَ الوطءِ بِقَدْرِ بُعْدِ ما بينِ الزمانينِ، وكذلك لَذَّةُ الأكلِ؛ فإنَّ مَن

---

(١) قعب الماء: القدح الذي يروي الرجل.

(٢) ابن أبي دؤاد: هو القاضي أحمد، البغدادي، الجهمي، عدو الإمام أحمد، توفي سنة ٢٤٠هـ، بعد أن صادره المتوكل وافتقر، وولى مكانه يحيى بن أكثم ـ وقد تقدمت ترجمته في (فصل ١٣٠) ـ، ثم عزل الأخير بعد عامين. انظر: «تاريخ بغداد» (٤ / ١٤١)، «سير أعلام النبلاء» (١١ / ١٦٩).

(٣) تقدمت ترجمة ابن أدهم في (فصل ١٩). وخبره في «الحلية» (٧/٣٧١).

(٤) يعني: ليُجِمَّ نفسه ويفرج كربه.

أكلَ على شِبَع، ووَطِيءَ من غيرِ صِدْقِ شهوةٍ وقلقٍ؛ لم يجدِ اللَّذَّةَ التامَّةَ التي يجدُها الفقيرُ إذا جاعَ والعَزَبُ إذا وَجَدَ امرأةً. . . ثم إنَّ الفقيرَ يرمي نفسَه على الطريقِ في الليلِ فينامُ، ولَذَّةُ الأمنِ قد حُرِمَها الأمراءُ؛ فلذَّتُهم ناقصةٌ، وحسابُهم زائدٌ.

واللهِ؛ ما أعرفُ مَن عاشَ رفيعَ القَدْرِ بالغًا من اللَّذَّاتِ ما لم يَبْلُغْ غيرُه؛ إلَّا العلماءَ المخلصينَ؛ كالحسنِ وسفيانَ وأحمدَ، والعُبَّادَ المحقِّقينَ؛ كمعروفٍ[1].

فإنَّ لَذَّةَ العلم تزيدُ على كلِّ لَذَّةٍ، وأمَّا ضُرُّهم إذا جاعوا أوِ ابْتُلوا بأذىً؛ فإنَّ ذلك يزيدُ في رِفْعَتِهِم، وكذلك لَذَّةُ الخَلْوَةِ والتعبُّدِ.

فهذا معروفٌ، كان منفردًا بربِّهِ، طيِّبَ العيشِ معهُ، لذيذَ الخَلْوَةِ به، ثم قد ماتَ منذ نحو أربعِ مئةِ سنةٍ؛ فما يخلو أن يُهدى إليه كلَّ يومٍ ما تقديرُ مجموعِهِ أجزاءٌ من القرآنِ! وأقلُّهُ مَن يَقِفُ على قبرِهِ فيقرأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ. . .﴾ [سورة الإخلاص] ويُهْديها لهُ، والسلاطينُ تَقِفُ بين يدي قبرِهِ ذليلةً، هذا بعدَ الموتِ، ويومَ الحشرِ تُنْشَرُ الكراماتُ التي لا توصَفُ! وكذلك قبورُ العلماءِ المحقِّقينَ.

ولما بُلِيَتْ أقوامٌ بمخالطةِ الأمراءِ؛ أثَّرَ ذلك التكديرَ في أحوالِهِم كلِّها: فقالَ سفيانُ بنُ عُيينةَ: منذُ أخذتُ من مال فلانٍ الأميرِ؛ مُنِعْتُ ما كان وُهِبَ لي مِن فَهْمِ القرآنِ[2]. وهذا أبو يوسفَ القاضي[3] لا يزورُ قبرَهُ

(١) تقدمت تراجمهم جميعًا فيما مضى وانظر: (فصل ١٩ و٢٥).

(٢) تقدمت ترجمته في (فصل ١١٥).

(٣) أبو يوسف القاضي هو تلميذ أبي حنيفة، يعقوب بن إبراهيم، الإمام،

اثنان(١).

فالصبرُ عن مخالطةِ الأمراءِ ـ وإنْ أوْجَبَ ضيقَ العيشِ من وجهٍ ـ يُحَصِّلُ طِيبَ العيشِ مِن جهاتٍ، ومع التخليطِ لا يحصُلُ مقصودٌ؛ فمَن عَزَمَ جَزَمَ.

كان أبو الحسن القَزْوينيُّ لا يخرُجُ من بيتِهِ إلَّا وقتَ الصلاةِ؛ فربَّما

= المجتهد، بلغ من رئاسة العلم ما لا مزيد عليه، وكان الرشيد يبالغ في إجلاله، ولد سنة ١١٣هـ، وتوفي سنة ١٨٢هـ. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (١٤ / ٢٤٢)، «سير أعلام النبلاء» (٨ / ٥٣٥).

(١) وقد أكثر المؤلف غفر الله له في مسألة زيارة القبور هٰذه، وكأنها أعظم المقاصد وأجل الغايات، فأقول:

١ ـ زيارة قبر معروف الكرخي التي ذكرها قبل قليل زيارة بدعية في أغلب الأحوال، بل كثيرًا ما تكون شركية؛ كما هو معلوم لمن نور الله بصيرته.

٢ ـ وقراءة الفاتحة وسورة الإخلاص ويس وإهداء الأجزاء القرآنية على القبور بدعة ضلالة غير مشروعة، وما فعلها رسول الله ﷺ ولا أصحابه، وربما يصل الميت منها إثمها إن رغب بذٰلك ودعا إليه في حياته، وأما أن يصله أجر القراءة؛ فهيهات؛ فإن القارىء نفسه ـ الذي يهدي ويتصدق بالحسنات!! ـ آثم ما نال إلا السيئات لبدعته ومخالفته.

٣ ـ متى كانت زيارة القبور دليل فلاح وصلاح ونجاح؟! ومتى كان العوام الهوام الذين لا يحسنون صلاة ولا وضوءً ولا يحققون شهادة أن لا إلٰه إلا الله مرجعًا لمعرفة مقادير الناس وفضلهم ودرجاتهم؟! ولئن كان الأمر على ما قال المؤلف رحمه الله؛ فالبدوي وابن عربي وأبو العباس المرسي خير من الشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد والبخاري ومسلم!!

٤ ـ ولٰكن الله سبحانه وتعالى أبى أن يجعل قبور هٰؤلاء الفضلاء ـ ومنهم الإمام الجليل أبو يوسف القاضي إن شاء الله ـ أوثانًا تعبد من دونه، بل أراد أن يبقى أصحابها هداة مهديين بعد مماتهم كما كانوا في حياتهم.

٥ ـ وفضل معروف مقتصر على نفسه ما جاوزه إلى أحد من الخلق، وعلم أبي يوسف القاضي الإمام ما زال يتلقاه الناس ويتدارسونه ويهتدون به إلى اليوم، وشتان بين هٰذا وذاك.

جاءَ السلطانُ، فيقعُدُ لانتظارِهِ لِيُسَلِّمَ عليه(١).

ومَدُّ النَّفَسِ(٢) في هٰذا ربَّما أضْجَرَ السامعَ، ومَن ذاقَ عَرَفَ.

٢٠٨ـ فصل

[أكثر الناس على غير الجادة]

مَن عَرَفَ الشرعَ كما ينبغي، وعَلِمَ حالةَ الرسولِ ﷺ وأحوالَ الصحابةِ وأكابرِ العلماءِ؛ عَلِمَ أنَّ أكثرَ الناس على غير الجادَّةِ، وإنما يَمْشونَ مع العادةِ. . .

يتزاوَرونَ فيغتابُ بعضُهم بعضًا، ويطلُبُ كلُّ واحدٍ منهم عورةَ أخيهِ، ويحسُدُه إن كانتْ نِعْمةٌ، ويَشْمَتُ به إن كانتْ مُصيبةٌ، ويتكبَّرُ عليه إنْ نَصَحَ له، ويخادِعُه لتحصيل شيءٍ من الدُّنيا، ويأخُذُ عليه العَثَراتِ إن أمكنَ. . . هٰذا كلُّه يجري بين المنتمينَ إلى الزُّهْدِ لا الرَّعاع.

فالأولى بمَن عَرَفَ اللهَ سبحانه وعَرَفَ الشرعَ وسِيَرَ السلفِ الصالحينَ الانقطاعُ عن الكُلِّ.

فإنِ اضْطُرَّ إلى لقاءِ منتسبٍ إلى العلم والخيرِ؛ تلقَّاه وقد لَبِسَ دِرْعَ الحَذَرِ، ولم يُطِلْ معهُ الكلامَ، ثم عَجَّلَ الهربَ منه إلى مخالطةِ الكتبِ التي تحوي تفسيرًا لنطاقِ الكمال.

---

(١) هو الإمام، القدوة، العارف، شيخ العراق، البغدادي، الحربي، الزاهد، توفي سنة ٤٤٢هـ. انظر ترجمته وخبره هٰذا في: «تاريخ بغداد» (١٢ / ٤٣)، «سير أعلام النبلاء» (١٧ / ٦٠٩).

(٢) مدُّ النفَس: الإطالة وتكثير الكلام.

٢٠٩ ـ فصل
[في طريق الكمال وأسبابه]

الكمالُ عزيزٌ، والكاملُ قليلُ الوجودِ.

فأولُ أسبابِ الكمال: تناسُبُ أعضاءِ البَدَنِ، وحسنُ صورةِ الباطنِ؛ فصورةُ البَدَنِ تسمَّى خَلْقًا، وصورةُ الباطِنِ تسمَّى خُلُقًا.

ودليلُ كمال صورةِ البدنِ: حسنُ السَّمْتِ، واستعمالُ الأدبِ.

ودليلُ صورةِ الباطنِ: حسنُ الطبائع والأخلاقِ؛ فالطبائعُ: العِفَّةُ، والنزاهةُ، والأَنَفَةُ من الجهلِ، ومباعدةُ الشَّرَهِ. والأخلاقُ: الكرمُ، والإِيثارُ، وسَتْرُ العيوبِ، وابتداءُ المعروفِ، والحِلْمُ عن الجاهلِ.

فمَن رُزِقَ هٰذه الأشياءُ؛ رَقَّتْهُ إلى الكمالِ، وظَهَرَ عنه أشرفُ الخِلالِ، وإنْ نَقَصَتْ خَلَّةٌ؛ أوجبتِ النَّقْصَ.

٢١٠ ـ فصل
[في لزوم التسليم لقضاء الله والرضى بقدره]

ليس في الدُّنيا أبلهُ[١] ممَّن يريدُ معاملةَ الحقِّ سبحانَه على بلوغِ الأغراضِ[٢].

(١) لا يصاغ اسم التفضيل على وزن أفعل إن كانت الصفة على وزن أفعل، ولذلك؛ فالصواب أن يقال: ليس في الدنيا أشد بلهًا. والمؤلف يكثر من مثل هٰذا الخطأ؛ فنكتفي بالإشارة إليه هنا.

(٢) يعني: يطيع الله عز وجل ويرضى إذا نال حاجاته من الدنيا؛ فإذا أصابته =

فأين تكونُ البَلْوى إذن؟!

لا واللهِ؛ لا بدَّ منَ انعكاسِ المراداتِ، ومِن توقُّفِ أجوبةِ السُّؤالاتِ، ومن تَشَفِّي الأعداءِ في أوقاتٍ.

فأما مَن يُريدُ أن تدومَ له السلامةُ، والنصرُ على مَن يعاديهِ، والعافيةُ مِن غيرِ بلاءٍ؛ فما عَرَفَ التكليفَ، ولا فَهِمَ التسليمَ(١).

أليسَ الرسولُ ﷺ يُنْصَرُ يومَ بدرٍ ثم يَجْري عليه ما جرى يومَ أُحُدٍ؟!

أليسَ يُصَدُّ عنِ البيتِ ثم قَهَرَ بعدَ ذلك؟!

فلا بدَّ مِن جَيِّدٍ ورديءٍ، والجيِّدُ يوجبُ الشُّكْرَ، والرديءُ يحرِّكُ إلى السؤالِ والدعاءِ، فإنِ امتنعَ الجوابُ؛ أريدَ نُفوذُ البلاءِ، والتسليمُ للقضاءِ.

وها هنا يَبينُ الإيمانُ ويَظْهَرُ في التسليم جواهِرُ الرجال.

فإن تحقَّقَ التسليمُ باطنًا وظاهرًا؛ فذلك شأنُ الكامل.

وإنْ وُجِدَ في الباطنِ انعصارٌ من القضاءِ لا من المَقْضِيِّ ـ فإنَّ الطبعَ لا بدَّ أن يَنْفِرُ من المؤذي ـ؛ دلَّ على ضَعْفِ المعرفةِ.

فإن خَرَجَ الأمرُ إلى الاعتراضِ باللسانِ؛ فتلك حالُ الجُهَّال، نعوذُ باللهِ منها.

= مصيبة؛ انقلب ساخطًا يتشكى على ربه!! كما قال سبحانه: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ [الحج: ١١].

(١) قال تعالى: ﴿الٓمٓ . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

٢١١ ـ فصل

[لا بد من الصبر على القضاء ومر البلاء]

مِن الابتلاءِ العظيم إقامةُ الرَّجُل في غيرِ مقامِهِ.

مثلُ أنْ يُحْوَجَ الرجلُ الصالح إلى مداراةِ الظَّالم والتردُّدِ إليهِ، وإلى مخالطةِ مَن لا يَصْلُحُ، وإلى أعمالٍ لا تَليقُ به، أو إلى أمورٍ تَقْطَعُ عليهِ مرادَه الذي يُؤْثِرُهُ... مثلُ أنْ يُقالَ للعالم: تردَّدْ إلى الأميرِ، وإلَّا؛ خِفْنا عليكَ سَطْوَتَه! فيتردَّدُ، فيرى ما لا يَصْلُحُ له، ولا يمكِنُه أنْ يُنْكِرَ... أو يحتاجَ إلى شيءٍ من الدُّنيا ـ وقد مُنِعَ حقَّه ـ، فيحتاجَ إلى أن يعرِّضَ بذِكْرِ ذٰلك أو يصرِّحَ لينالَ بعضَ حقِّه، ويحتاجَ إلى مداراةِ مَن تَصْعُبُ مداراتُه، بل يتشتَّتُ هَمُّهُ لتلك الضروراتِ... وكذٰلك يفتقِرُ إلى الدُّخول في أمورٍ لا تَليقُ به؛ مثلُ أنْ يحتاجَ إلى الكَسْبِ، فيتردَّدَ إلى السُّوقِ، أو يخدُمَ مَن يُعطيهِ أجرتَهُ! وهٰذا لا يحتمِلُه قلبُ المراقِبِ للهِ سبحانَه؛ لأجلِ ما يخالِطُه من الأكدارِ... أو يكونَ له عائلةٌ وهو فقيرٌ، فيتفكَّرَ في إغنائِهِم، فيدخُلَ في مداخلَ كلُّها عنده عظيمٌ... وقد يُبْتَلى بفَقْدِ من يحبُّ، أو ببلاءٍ في بدنِهِ، أو بعكسِ أغراضِهِ وتسليطِ معاديهِ عليه، فيرى الفاسقَ يَقْهَرُهُ والظالمَ يُذِلُّهُ! وكلُّ هٰذه الأشياءِ تُكَدِّرُ عليه العيشَ، وتكادُ تزَلْزِلُ القلبَ...

وليسَ في الابتلاءِ بقوةِ الأشياءِ[1] إلَّا التسليمُ واللَّجأُ إلى المقدِّرِ في الفَرَجِ، فيُرى الرجلُ المؤمنُ الحازمُ يَثْبُتُ لهٰذه العظائمِ، ولا يتغيَّرُ قلبُه، ولا ينطِقُ بالشَّكْوى لسانُه.

(١) يعني: بالمصائب العظيمة والأمور المهمة.

أوَليسَ الرسولُ ﷺ يحتاجُ أنْ يقولَ: «مَنْ يُؤْويني؟ من يَنْصُرُني؟»[١]، ويَفْتَقِرُ إلى أنْ يَدْخُلَ مكةَ في جوارِ كافرٍ[٢]، ويُلْقى السَّلَى على ظهرِهِ[٣]، وتُقْتَلُ أصحابُهُ، ويُداري المؤلَّفَةَ، ويشتدُّ جوعُه، وهو ساكنٌ لا يتغيَّرُ؟!

وما ذاكَ إلَّا أنَّه عَلِمَ أنَّ الدُّنيا دارَ ابتلاءٍ لِيَنْظُرَ اللهُ فيها كيفَ تَعْمَلونَ.

وممّا يُهَوِّنُ هٰذه الأشياءَ علمُ العبدِ بالأجرِ وأنَّ ذٰلك مرادُ الحقِّ.

---

(١) (صحيح). رواه: ابن ماجه (المقدمة، ١٣ ـ باب فيما أنكرت الجهمية، ١ / ٧٣ / ٢٠١)، وأبو داوود (٣٤ ـ كتاب السنة، ٢٠ ـ باب في القرآن، ٢ / ٦٤٧ / ٤٧٣٤)، والترمذي في «السنن» (٤٦ ـ كتاب فضائل القرآن، ٢٤ ـ باب، ٥ / ١٨٤ / ٢٩٢٥)؛ من طرق عن إسرائيل، ثنا عثمان بن المغيرة، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابر... فذكره.

قال الترمذي: «هٰذا حديث غريب صحيح».

وله طريق أخرى رواها: أحمد (٣ / ٣٢٢ و٣٣٩)، والحاكم (٢ / ٦٢٤)؛ من طريق ابن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر... فذكره ضمن حديث طويل.

قال الحاكم: «هٰذا حديث صحيح الإسناد جامع لبيعة العقبة ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في «المجمع» (٥ / ٤٩): «رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح». وفيه عنعنة أبي الزبير وقد صرح بالتحديث في رواية أحمد الأخرى.

والحديث صحيح بمجموع هٰذين الطريقين، وصححه الألباني.

(٢) تقدم ذكره وتخريجه في (فصل ٤١).

(٣) السلى: الكيس الغشائي الذي يخرج به الجنين من بطن أمه، ويحتوي على الجنين والسائل المحيط به والدم.

وقد روى هٰذه القصة: البخاري (٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار، ٢٩ ـ باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، ٧ / ١٦٥ / ٣٨٥٤)، ومسلم (٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير، ٣٩ ـ باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، ٣ / ١٤١٨ / ١٧٩٤)؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه.

فَما لِجُرْحٍ إذا أرْضاكُمْ أَلَمُ[١].

٢١٢ ـ فصل

[في استعباد المال لكثير من أهل العلم والزهد]

لا يُنْكَرُ أنَّ الطباعَ تُحِبُّ المالَ؛ لأنَّه سببُ بقاءِ الأبدانِ، لٰكنه يزيدُ حبُّه في بعضِ القلوبِ، حتى يصيرَ محبوبًا لذاتِهِ لا للتوصُّلِ بهِ إلى المقاصدِ! فترى البخيلَ يَحْمِلُ على نفسِهِ العجائبَ، ويمنَعُها اللَّذَّاتِ، وتصيرُ لَذَّاتُهُ في جمع المال!

وهٰذه جِبِلَّةٌ[٢] في خَلْقٍ كثيرٍ، وليسَ العجبُ أن تكونَ في الجُهَّالِ.

ويَنْبَغي أنْ يُؤَثِّرَ فيها عند العلماءِ المجاهدةُ للطبع ومخالفتُه، خصوصًا في الأفعال اللازمةِ في جَمْع المال، فأمّا أنْ يكونَ العالِمُ جامعًا للمال من وجوهٍ قبيحةٍ، ومن شُبُهاتٍ قويَّةٍ، وبحرصٍ شديدٍ، وبذُلٍّ في الطَّلَبِ، ثم يأخُذُ من الزَّكَواتِ، ولا تَحِلُّ له مع الغِنى، ثم يدَّخِرُهُ ولا ينفعُ به؛ فهٰذه بهيميَّةٌ تخرُجُ عن صفاتِ الآدميَّةِ، بل البهيميَّةُ أعذرُ؛ لأنَّها بالرياضةِ تتغيَّرُ طباعُها، وهٰؤلاءِ ما غيَّرتْهم الرياضة ولا أفادَهُم العلمُ!

ولقد كانَ أبو الحسن البِسْطاميُّ مقيمًا في رباطِ البِسْطاميِّ[٣] الذي

---

(١) عجز بيت لأبي الطيب المتنبي قاله في سيف الدولة، وصدره: إن كان سركم ما قال حاسدنا. والمقصود الإشارة إلى مقام الرضى عن الله ومن الله وبالله.

(٢) الجِبِلة: الصفة الخلقية الطبيعية.

(٣) الرِّباط: مقام الصوفية الذي يرابطون به ويتخذونه بدلاً من المسجد الذي يذهب إليه العامة.

على نهرِ عيسى، وكـان لا يَلْبَسُ إلاَّ الصوفَ شتاءً وصيفًا، وكان يُحْتَرَمُ ويُقْصَدُ، فخلَّفَ مالاً يزيدُ على أربعةِ آلافِ دينارٍ!

ورأينا بعضَ أشياخِنا وقد بلغ الثمانينَ، وليس له أهلٌ ولا ولدٌ، وقد مَرِضَ، فألقى نفسَه عند بعض أصدقائِهِ؛ يتكلَّفُ له ذٰلك الرجلُ ما يشتهيهِ وما يَشْفيهِ، فماتَ، فخلَّفَ أموالاً عظيمةً!

ورأينـا صَدَقَـةَ بنَ الحسينِ النـاسخَ، وكان على الدَّوام يَذُمُّ الزمانَ وأهلَه، ويبالِغُ في الطلبِ من الناس ويتجفَّفُ وهو في المسجدِ وحدَه ليس له مَن يَقومُ بأمرِهِ، فماتَ، فخلَّفَ فيما قيل ثلاثَ مئةِ دينارٍ[١].

وكـان يَصْحَبُنا أبو طالبِ بنُ المؤيَّدِ الصوفيُّ، وكانَ يجمعُ المالَ، فَسُرِقَ منه نحوُ مئةِ دينارٍ، فَتَلَهَّفَ عليها، وكان ذٰلك سبب هلاكِهِ.

ومِن أحوالِ الناس أنك ترى أقوامًا جَلَسوا على صِفَةِ القوم، يَطْلُبونَ الفتوحَ، فيأتيهم منها الكثيرُ الذي يصيرونَ به مِن الأغنياءِ، وهم لا يَمْتَنِعونَ

---

(١) صدقة بن الحسين هو العلامة البغدادي الفرضي، توفي سنة **٥٧٣هـ** وهو في عشر الثمانين. انظر ترجمته في: «المنتظم» (١٠/٢٧٦)، و«أعلام النبلاء» (٢١/٦٦).

وترجمه ابن الدبيثي في «ذيل تاريخ بغداد» (١٥ / ٢٠١) وقال: «وكان شيخنا ابن الجوزي يطلق القول فيه بفساد المعتقد ورداءة المذهب».

ونقل ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» (١ / ٣٣٩) عن ابـن النجار قوله: «وقد نسخ بخطه كثيرًا للناس من سائر الفنون، وكان قوته من أجرة نسخه، ولم يطلب من أحد شيئًا، ولا سكن مدرسة».

ونقل عن أبي الحسن القطيعي قوله: «كان بينه وبين ابن الجوزي مباينة شديدة، وكل واحد يقول في صاحبه مقالة الله أعلم بها».

وقد استفدت معظم هٰذا الكلام من حاشية «أعلام النبلاء».

مِن أخذِ زكاةٍ، ولا مِن طلبٍ!

وكـذٰلك القُصَّاصُ؛ يخرُجون إلى البلادِ، ويطلُبونَ، فيَحْصُلُ لهمُ المالُ الكثيرُ، فلا يترُكونَ الطَّلَبَ عادةً.

فيا سبحانَ اللهِ! أيُّ شيءٍ أفادَ العلمُ؟! بلِ الجهلُ كان لهٰؤلاءِ أعذرُ!

ومِن أقبحِ أحوالِهم لزومُهُم الأسبابَ التي تَجْلِبُ لهمُ الدُّنيا؛ من التَّخاشُعِ، والتنسُّكِ في الظاهرِ، وملازمةِ حَثِّ العزلةِ عن المخالطةِ!

وكلُّ هٰؤلاء بمَعْزِلٍ عن الشَّرعِ.

ولقـد تأملتُ على بعضِهِم من القَـدْحِ في نظيرِهِ إلى أن يَبْلُغَ إلى التعرُّضِ به للهَلاكِ.

فالـويلُ لهم! ما أقـلَّ ما يتمتَّعـونَ بظواهـرِ الدُّنيا! وإنْ كانَ مقلِّبُ الـقـلوبِ قد صَرَفَ القلوبَ عن محبَّتِهم ـ لأنَّ الحقَّ عزَّ وجـلَّ لا يميلُ بالقلوبِ إلَّا إلى المخلصينَ ـ؛ فقد فاتَتْهُمُ الدُّنيا على الحقيقةِ، وما حَصَّلُوا إلَّا صورةَ الحُطام!

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ عقلًا يدبِّرُ دُنْيانا، ويُحَصِّلُ لنا آخِرَتَنا، والرزَّاقُ قادرٌ.

٢١٣ ـ فـصـل

[معرفة الله سبحانه أنفس ما في الحياة الدنيا]

ينبغي لِمَنْ عَرَفَ شَرَفَ الوجودِ أنْ يُحَصِّلَ أفضلَ الموجودِ.

هٰذا العُمُرُ موسمٌ، والتجاراتُ تختلفُ، والعامَّةُ تقولُ: عليكم بما

خَفَّ حَمْلُهُ وكَثُرَ ثمنه؛ فينبغي للمستيقظِ أنْ لا يَطْلُبَ إلَّا الأنفسَ.

وأنفسُ الأشياءِ في الدُّنيا معرفةُ الحقِّ عزَّ وجلَّ.

فمِن العارفينَ السالكينَ مَن وافى في طريقه بغيتَه في السفرِ.

ومنهُم مَن هِمَّتُهُ متعلِّقةٌ بطلبِ ربحهِ.

ومنهُم مَن ينظُرُ إلى ما يُرضي الحبيبَ، فيَجْلِبُهُ إلى بلدِ المعاملةِ، ويرضى بالقَبولِ ثمنًا، ويرى أنَّ كلَّ البضائعِ لا تَفي بحقِّ الخِفارةِ(١).

ومنهم مَن يرى لزومَ الشُّكْرِ في اختيارِهِ هٰذا السلوكَ دونَ غيرِه، فيُقِرُّ بالعَجْزِ.

وقدِ ارتفعَ قومٌ عن هٰذه الأحوالِ، فرأوا مجردَ التَّوْفيق يَشْغَلُهُم عن النظرِ إلى العمل. أولٰئكَ الأقلُّون عددًا... وإنَّ الأعظمينَ قَدْرًا أقلُّ نَسْلًا مِن عنقاءِ مَغْرِبَ(٢).

٢١٤ ـ فصل

[بادروا اللحظات وأعدوا لساعة الموت]

مَن عَلِمَ قُرْبَ الرحيلِ عن مكَّةَ؛ اسْتَكْثَرَ من الطوافِ، خُصوصًا إنْ كانَ لا يُؤَمِّلُ العَوْدَ؛ لِكِبَرِ سنِّه، وضَعْفِ قوَّته.

فكذٰلك ينبغي لمن قارَبَهُ ساحلُ الأجلِ بعلوِّ سِنِّه أنْ يبادِرَ اللحظات

(١) الخفارة: العهد والذمة، وفي بعض المطبوعات: «الحفاوة»، وكلاهما صحيح.

(٢) طائر أسطوري عند العرب.

وينْتَظِرَ الهاجِمَ[١] بما يَصْلُحُ له؛ فقد كانَ في قوسِ الأجل مِنْزَعُ زمانَ الشبابِ، واسْتَرْخى الوَتَرُ في المشيبِ عن سِيَةِ القوسِ، فانحدر إلى القاب، وضعفت القوى[٢]، وما بقي إلَّا الاستسلامُ لمَحارِبِ التَّلَفِ.

فالبدارَ البدارَ إلى التنظيفِ؛ ليكونَ القدومُ على طهارةٍ.

وأيُّ عيشٍ في الدُّنيا يَطيبُ لمن أيَّامُهُ السليمةُ تقرِّبُهُ إلى الهلاكِ، وصُعودُ عُمُرِهِ نزولٌ عن الحياةِ، وطولُ بقائِهِ نَقْصُ مدى المدةِ؟!

فليتفكَّرْ فيما بينَ يديهِ، وهو أهمُّ مما ذكرناه.

أليس في «الصحيح»: «ما منكم أحدٌ إلَّا ويُعْرَضُ عليه مَقْعَدُهُ بالغداةِ والعشيِّ مِن الجنَّةِ أو النارِ، فيُقالُ: هٰذا مَقْعَدُكَ، حتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ»[٣]؟!

فوا أسفًا لمهدَّدٍ كم يُقْتَلُ قبلَ القَتْلِ! ويا طيبَ عيشٍ لموعودٍ بأزيدِ المُنى!

ولِيَعْلَمْ مَن شارفَ السبعينَ أنَّ النَّفَسَ أنينٌ!

أعانَ اللهُ مَن قَطَعَ عَقَبَةَ العُمرِ على رَمَلِ زَرودِ الموتِ[٤].

---

(١) الهاجم: الموت الذي يأتي بغتة.

(٢) المِنْزَع: السهم الذي ينزع به، وسية القوس: ما عطف من طرفه، والقاب: ما بين المقبض والسية، وتحرف في بعض المطبوعات إلى: «القلب»! وقصد المصنف رحمه الله تشبيه العمر بعد الكبر بالقوس التي طال استعمالها حتى استرخت وضعفت.

(٣) رواه: البخاري (٢٣ ـ كتاب الجنائز، ٨٩ ـ باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي، ٣ / ٢٤٣ / ١٣٧٩)، ومسلم (٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ١٧ ـ باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، ٤ / ٢١٩٩ / ٢٨٦٦)؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) يعني: أعانه على إسراع أخذة الموت الخانقة.

٢١٥ ـ فصل

[في أن النبي هو سيد الخلق وإمام الرسل]

مَن أرادَ أنْ يعلمَ حقيقةَ الرِّضى عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ في أفعالِهِ، وأن يدريَ مِن أينَ يَنْشأ الرِّضى؛ فليتفكَّرْ في أحوالِ رسولِ اللهِ ﷺ.

فإنَّه لما تكاملتْ معرفتُه بالخالق سبحانَه؛ رأى أنَّ الخالقَ مالِكٌ، وللمالِكِ التصرُّفُ في مملوكِهِ، ورآهُ حكيمًا لا يَصْنَعُ شيئًا عَبَثًا، فَسَلَّمَ تسليمَ مملوكٍ لحكيمٍ، فكانتِ العجائبُ تَجْري عليهِ، ولا يوجَدُ منه تغيُّرٌ، ولا مِن الطبعِ تأفُّفٌ، ولا يقولُ بلسانِ الحالِ: لو كان كذا! بل يَثْبُتُ للأقدارِ ثبوتَ الجبلِ لعواصِفِ الرِّياحِ.

هٰذا سيِّدُ الرسلِ ﷺ بُعِثَ إلى الخَلْقِ وحدَه، والكُفْرُ قد مَلأَ الآفاقَ، فجَعَلَ يَفِرُّ من مكانٍ إلى مكانٍ، واستترَ في دارِ الخيزرانِ[1]، وهم يضربونَه إذا خَرَجَ، ويُدْمُونَ عَقِبَهُ[2]، وألقي السَّلى على ظهرِهِ[3]، وهو ساكتٌ

(١) كان استخفاء النبي ﷺ في أول الدعوة في دار الأرقم بن أبي الأرقم التي عند الصفا، وهو أمر مشهور في السير والسنن، ثم آلت هذه الدار فيما بعد إلى الخيزران.

والخيزران هي زوجة المهدي العباسي، وأم ابنيه الهادي والرشيد، ملكة، حازمة، متفقهة، توفيت سنة ١٧٣هـ. انظر ترجمتها في: «تاريخ بغداد» (١٤ / ٤٣٠)، و«البداية والنهاية» (٧ / ١٥١).

(٢) وذلك عندما عرض نفسه ﷺ على ابن عبد ياليل في الطائف. وقد أخرج القصة ابن هشام في «السيرة» (١ / ٢٦٠) عن ابن إسحاق، عن يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً. وقد أورده الهيثمي في «المجمع» (٥ / ٣٨) وقال: «وفيه ابن إسحاق، وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات». وأصل الحديث في «الصحيحين»، وليس فيه ذكر الإدماء.

(٣) تقدم تخريجه في (فصل ٢١١).

ساكنٌ. . . ويخرُجُ كلَّ موسم فيقولُ: «مَنْ يُؤويني؟ مَنْ يَنْصُرُني؟»[١]. . . ثم خَرَجَ من مكَّةَ، فلم يقدِرْ على العَوْدِ إلَّا في جوارِ كافرٍ[٢]. . .

ولم يوجَدْ مِن الطبع تأفُّفٌ، ولا مِن الباطنِ اعتراضٌ؛ إذْ لو كانَ غيرُهُ؛ لقالَ: يا ربِّ! أنت مالكُ الخَلْقِ، وأقدَرُ على النَّصْرِ؛ فلم أذَلُّ؟! كما قالَ عمرُ رضي الله عنه يومَ صُلْح الحُدَيْبِيَةِ: ألَسْنا على الحقِّ؟! فلم نُعْطي الدَّنِيَّةَ في ديننا؟! ولما قالَ هٰذا؛ قالَ لهُ الرسولُ ﷺ: «إني عبدُ اللهِ، ولنْ يُضَيِّعَني»[٣]. فَجَمَعَتِ الكلمتانِ الأصلينِ اللَّذين ذكرناهما: فقولُهُ: «إني عبدُ اللهِ»: إقرارٌ بالمُلْكِ، وكأنَّه قال: أنا مملوكٌ يَفْعَلُ بي ما يشاء. وقولُه: «لن يُضَيِّعَني»: بيانُ حكمتِهِ وأنَّه لا يفعلُ شيئًا عَبَثًا.

ثم يُبْتَلى بالجوعِ، فَيَشُدُّ الحَجَرَ. . . ولله خزائنُ السماواتِ والأرضِ.

وتُقْتَلُ أصحابُه، ويُشَجُّ وجهُهُ، وتُكْسَرُ رُباعيتُهُ، ويُمَثَّلُ بعمِّهِ. . . وهو ساكتٌ[٤].

ثم يُرْزَقُ ابنًا، ويُسْلَبُ منهُ، فيتعلَّلُ[٥] بالحسنِ والحسينِ، فيُخْبَرُ بما

---

(١) تقدم تخريجه في (فصل ٢١١).

(٢) تقدم تخريجه في (فصل ٤١).

(٣) رواه: البخاري (٥٤ ـ كتاب الشروط، ١٥ ـ باب الشروط في الجهاد والمصالحة، ٥ / ٣٢٩ / ٢٧٣١ و٢٧٣٢)، ومسلم (٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير، ٣٤ ـ باب صلح الحديبية ٣ / ١٤١١ / ١٧٨٥).

(٤) وذٰلك في غزوة أحد، وهو من مخرجات الصحاح، وتفصيله في كتب السير.

(٥) يتعلل: يسلي نفسه.

سَيَجْري عليهِما(١).

ويَسْكُنُ بالطبعِ إلى عائشةَ رضي الله عنها، فيُنَغَّصُ عيشُه بقذفِها(٢).

ويبالِغُ في إظهارِ المُعْجِزات، فيُقامُ في وجهِهِ مُسَيْلَمَةُ والعَنْسِيُّ وابنُ صيادٍ(٣).

ويُقيمُ ناموسَ الأمانةِ والصِّدقِ، فيقالُ: كذَّابٌ! ساحرٌ!

(١) يقصد ما أخبر به النبي ﷺ أن أمته ستقتل الحسين رضي الله عنه، وهو صحيح، جاء من عدة أوجه، عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم:

فرواه: أحمد (١/ ٨٥)، والطبراني (٣/ ١٠٥/ ٢٨١١)؛ عن علي رضي الله عنه. قال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ١٩٠): «ورجاله ثقات».

ورواه: أحمد (٣/ ٢٤٢ و٢٦٥)، والطبراني (٣/ ١٠٦/ ٢٨١٣)؛ من حديث أنس. وزاد الهيثمي في «المجمع» نسبته لأبي يعلى والبزار وقال: «وفيه عمارة بن زاذان، وثقه جماعة وفيه ضعف، وبقية رجال أبي يعلى رجال الصحيح».

ورواه: أحمد (٦/ ٢٩٤)، والطبراني (٣/ ١٠٨/ ٢٨٢٠ و٢٨٢١)؛ من حديث أم سلمة. قال الهيثمي في «المجمع»: «رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها ثقات».

وله شواهد أخرى كثيرة وكثيرة جدًّا رواها الطبراني في «الكبير» وذكرها الهيثمي في «المجمع» يجزم الواقف عليها بصحة الحديث.

(٢) وذلك في قصة الإفك المشهورة، وبرأها الله سبحانه وتعالى في سورة النور، الآية ١١ وما بعدها؛ فما بقي بعد هذا من نغص.

(٣) مسيلمة: هو ابن ثمامة الحنفي الكذاب، ولد ونشأ باليمامة، وتلقب بالرحمن، وكان مقتله سنة ١٢هـ. وانظر: «الكامل» لابن الأثير (٢/ ١٣٧).

وأما الأسود العنسي؛ فاسمه عيهلة بن كعب المذحجي، المتنبىء، المشعوذ، اليمني، وكان مقتله سنة ١١هـ. وانظر: «الكامل لابن الأثير» (٢/ ٢٣٠).

وأما ابن صياد (ويقال له: ابن صائد)؛ فاسمه صافي، وتسمى بعبد الله، من كهنة يهود المدينة، وقد اختلف العلماء في شأنه اختلافًا كبيرًا ليس هذا محله وخبره في «الصحيحين».

ثم يَعْلَقُهُ المرضُ كما يوعَكُ رجلانِ وهو ساكنٌ ساكتٌ(١).

فإنْ أخْبَرَ بحالِهِ؛ فَلِيُعَلِّمَ الصَّبْرَ.

ثم يَشَدَّدُ عليه الموتُ، فيُسْلَبُ روحَه الشريفةَ، وهو مضطجعٌ في كِساءٍ مُلَبَّدٍ وإزارٍ غليظٍ، وليس عندَهم زيتٌ يوقَدُ به المصباحُ ليلتئذٍ(٢).

هٰذا شيءٌ ما قَدَرَ على الصبرِ عليه كما ينبغي نبيٌّ قبلَه، ولوِ ابْتُلِيَتْ به الملائكةُ؛ ما صبرتْ.

هٰذا آدمُ عليه السلامُ يُباح له الجنةُ سوى شجرةٍ، فلا يَقَعُ ذُباب حرصِهِ إلَّا على العَقْرِ، ونبيُّنا ﷺ يقولُ في المباح: «ما لي وللدُّنيا؟!»(٣).

وهٰذا نوحٌ عليه السلامُ يَضِجُّ مما لاقى، فيصيحُ من كَمَدِ وَجْدِهِ: ﴿لا تَذَرْ على الأَرْضِ مِنَ الكافِرينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦](٤)، ونبيُّنا ﷺ يقولُ:

---

(١) رواه: البخاري (٧٥ ـ كتاب المرضى، ٣ ـ باب أشد الناس بلاء الأنبياء، ١٠ / ١١١ / ٥٦٤٨)، ومسلم (٤٥ ـ كتاب البر والصلة والآداب، ١٤ ـ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، ٤ / ١٩٩١ / ٢٥٧١)؛ من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ بلفظ: «إني أوعك كما يوعك رجلان منكم».

(٢) لم أجده بعد طول عناء.

(٣) سيأتي بنصه وتخريجه في (فصل ٣١٢).

(٤) وقد كان هٰذا بعد أن لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم؛ كما جاءت بذٰلك آيات الكتاب الحكيم.

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة: أما والله؛ ما دعا عليهم نوح حتى أوحى الله إليه أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن؛ فعند ذٰلك دعا عليهم. وأخرج أحمد في «الزهد» (ص ٦٧) وابن المنذر وأبو الشيخ عن الحسن قريبًا منه. وانظر «الزهد» (ص ٦٦ ـ ٦٧)، و«الدر المنثور» (٣ / ٥٩١ / هود ٣٧).

«اللهمَّ! اهْدِ قَوْمي؛ فإنَّهم لا يعلمونَ»[1].

هٰذا الكليمُ موسى ﷺ؛ يستغيثُ عندَ عبادةِ قومِهِ العجلَ على القَدَرِ قائِلاً: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥][2]، ويوجِّهُ إليه مَلَكُ الموتِ

(١) وقد ثبت هٰذا عن النبي ﷺ وعن نوح ﷺ:

فقد روى: البخاري (٨٨ ـ كتاب استتابة المرتدين والمعاندين، ٥ ـ باب، ١٢ / ٢٨٢ / ٦٩٢٩)، ومسلم (٢٣ ـ كتاب الجهاد والسير، ٣٧ ـ باب غزوة أحد، ٣ / ١٤١٧ / ١٧٩٢)؛ عن ابن مسعود؛ قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء ضربه قومه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «رب اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون».

قال الحافظ في «الفتح»: «تقدم في ذكر بني إسرائيل من أحاديث الأنبياء هٰذا الحديث بهٰذا السند، وذكرت فيه ـ من طريق مرسلة وفي سندها من لم يسم ـ من سمى النبي المذكور نوحًا عليه السلام. ثم وقع لي من رواية الأعمش بسند له مضمومًا إلى روايته بسند حديث الباب أخرجه ابن عساكر في ترجمة نوح عليه السلام من «تاريخ دمشق»؛ من رواية يعقوب ابن عبد الله الأشعري، عن الأعمش، عن مجاهد، عن عبيد بن عمير؛ قال: إن كان نوح ليضربه قومه حتى يغمى عليه، ثم يفيق فيقول: اهد قومي؛ فإنهم لا يعلمون. وبه عن الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله. . . فذكر نحو حديث الباب. وتقدم هناك أيضًا قول القرطبي: إن النبي ﷺ هو الحاكي والمحكي عنه! ووجه الرد عليه. وتقدم في غزوة أحد بيان ما وقع له ﷺ من الجراحة في وجهه يوم أحد، وأنه ﷺ قال أولاً: «كيف يفلح قوم أدموا وجه نبيهم»، وأنه قال أيضًا: «اللهم! اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». وأن عند أحمد، من رواية عاصم، عن أبي وائل، عن ابن مسعود: أنه ﷺ قال نحو ذٰلك يوم حنين لما ازدحموا عليه عند قسمة الغنائم» اهـ.

فرحم الله ابن الجوزي؛ ما كان يليق به أن يقول هٰذا! وها أنت ذا ترى أن ما امتدح به محمدًا ﷺ قد وقع من قبله لنوح عليه السلام!

(٢) وليس هٰذا احتجاج من موسى عليه السلام على المعصية بالقدر، بل هو من باب الاحتجاج بالقدر على المصيبة؛ كما علمنا النبي ﷺ أن نقول: «قدر الله وما شاء فعل».

فَيَقْلَعُ عينَه[١]، وعيسى ﷺ يقولُ: إن صَرَفْتَ الموتَ عن أحدٍ؛ فاصْرِفْه عنّي[٢]، ونبيُّنا ﷺ يُخَيَّرُ بين البقاءِ والموتِ، فيختارُ الرحيلَ إلى الرفيقِ الأعلى[٣].

هٰذا سليمانُ ﷺ يقولُ: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ [صٓ: ٣٥]، ونبيُّنا ﷺ يقول: «اللهمَّ! اجعلْ رِزْقَ آلَ محمَّدٍ قوتًا»[٤].

هٰذا واللهِ فعلُ رجلٍ عَرَفَ الوجودَ والموجِدَ، فماتَتْ أغراضُهُ، وسكنتْ اعتراضاتُهُ، فصارَ هواه فيما يجري[٥].

---

(١) رواه: البخاري (٣١ ـ كتاب أحاديث الأنبياء، ٣١ ـ باب وفاة موسى وذكره بعد، ٦ / ٤٤٠ / ٣٤٠٧)، ومسلم (٤٣ ـ كتاب الفضائل، ٤٢ ـ باب من فضائل موسى ﷺ، ٤ / ١٨٤٢ / ٢٣٧٢)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وهٰذا بالطبع من الإسرائيليات، ولا إخالها صحيحة؛ فإن كان لها أصل فعلاً ـ وهٰذا مما لا سبيل إلى معرفته ـ؛ فهو لخوفه الشديد من ربه لا لحبه للدنيا ورغبته بزينتها؛ فقد روى ابن عساكر في «تاريخ دمشق» آثارًا كثيرة في أن عيسى عليه السلام كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دمًا.

فغفر الله لابن الجوزي؛ كيف ارتضى أن يبني على مثل هٰذا ما يغمز به في رسل الله وأولي العزم منهم؟! فوالله؛ لو كان هٰذا في كتاب الله أو سنة رسوله الصحيحة؛ لكان حريًّا بالمؤمنين أن يحملوه على ما يليق بصفوة الخلق وخيرتهم.

(٣) رواه: البخاري (٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار، ٤٥ ـ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه، ٧ / ٢٣٧ / ٣٩٠٤)، ومسلم (٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة، ١ ـ باب فضائل أبي بكر الصديق، ٤ / ١٨٥٤ / ٢٣٨٢)؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) رواه: البخاري (٨١ ـ كتاب الرقاق، ١٧ ـ باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه، ١١ / ٢٨٣ / ٦٤٦٠)، ومسلم (٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق، ٤ / ٢٢٨١ / ١٠٥٥)؛ من حديث أبي هريرة.

(٥) وقد أراد ابن الجوزي في هٰذا الفصل أن يبين أن خير الهدي هدي محمد ﷺ، =

٢١٦ ـ فصل

[ما تخلو امرأة من عيب؛ فارض بما قسمه الله لك]

أكثرُ شَهواتِ الحسِّ النِّساءُ.

وقد يَرى الإنسانُ امرأةً في ثيابها، فيتخايَلُ له أنَّها أحسنُ مِن زوجتِهِ، أو يتصوَّرُ بفِكْرِهِ المستحسناتِ، وفكرُهُ لا يَنْظُرُ إلَّا إلى الحَسَنِ مِن المرأةِ، فيسعى في التزوُّجِ والتَّسَرِّي؛ فإذا حَصَلَ لهُ مرادُه؛ لَمْ يَزَلْ يَنْظُرُ في عُيوب الحاصل التي ما كانَ يَتفكَّرُ فيها، فيَمَلُّ، ويَطْلُبُ شيئًا آخَرَ، ولا يدري أنَّ حُصولَ أغراضِهِ في الظاهرِ ربَّما اشتملَ على مِحَنٍ، منها أنْ تكونَ الثانيةُ لا دينَ لها أو لا عقلَ، أو لا محبةَ لها أو لا تدبيرَ، فَيُفَوِّتُ أكثرَ ممّا حَصَّلَ!

وهٰذا المعنى هو الذي أوْقَعَ الزُّناةَ في الفواحشِ؛ لأنَّهم يجالِسونَ المرأةَ حالَ استتارِ عُيوبِها عنهُم وظُهورِ محاسِنِها، فَتَلَذُّهُم تلكَ الساعةَ، ثم

= وأن سنته أحق بالاتباع من جميع السنن، وأنه خير خلق الله، وأحبهم إليه، وأرضاهم به، وهٰذا كله صحيح، نؤمن به؛ فالحمد لله على نعمة الإسلام. ولٰكنه سلك في ذٰلك طريقًا وعرة، ومشى ممشى وخيم العاقبة، وخالف آيات الكتاب وأقوال النبي ﷺ وإجماع السلف والخلف.

ومن سنة النبي ﷺ ألا نخوض في الأنبياء، ولا نقارن بينهم، ولا نفاضل بعضهم على بعض، ولا نفضله عليهم، فقد قال ﷺ: «لا تفضلوا بين أنبياء الله»، وقال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس بن متى»، أخرجاهما في «الصحيحين»؛ فكيف إذا ما تجاوز الأمر التخيير، وكان فيه غمز وانتقاص لأولي العزم من الأنبياء الكرام الذين هم صفوة خلقه سبحانه وتعالى؟! فهٰذا ـ بلا أدنى ريب ـ مما لا يرضى به الله ولا الرسول ﷺ، بل يفعله ويرضى به إخوان القردة والخنازير، الذين ما تركوا نبيًا من الغمز والأذى والانتقاص؛ فغفر الله لابن الجوزي، ما كان ينبغي له هٰذا!!

ينتقلونَ إلى أخرى!

فَلْيَعْلَم العاقلُ أنْ لا سبيلَ إلى حُصول مرادٍ تامٍّ كما يُريدُ، ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وما عِيْبَ نساءُ الدُّنيا بأحسنَ من قولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥].

وذو الأنَفَةِ يأنَفُ من الوسخ صورةً وعَيْبِ الخُلُقِ معنىً؛ فَلْيَقْنَعْ بما باطنُهُ الدينُ وظاهرُهُ السَّتْرُ والقناعةُ؛ فإنه يعيشُ مرفَّهَ السِّرِّ طيبَ القلبِ. ومتى اسْتَكْثَرَ؛ فإنما يَسْتَكْثِرُ من شُغْلِ قلبِهِ ورِقَّةِ دينِه.

٢١٧ ـ فصل

[سبحان من يخلق ما يشاء ويختار]

سبحانَ مَنْ شَغَلَ كلَّ شخصٍ بِفَنٍّ لتنامَ العيونُ في الدُّنيا.

فأمّا في العُلوم؛ فحبَّبَ إلى هٰذا القرآنَ، وإلى هٰذا الحديثَ، وإلى هٰذا النحوَ... إذ لولا ذٰلك؛ ما حُفِظَتِ العلومُ.

وألهم هٰذا المتعيِّشَ أن يكونَ خبّازًا، وهٰذا أن يكونَ هَرّاسًا، وهٰذا أن يَنْقُلَ الشوكَ مِن الصحراءِ، وهٰذا أن يُنَقِّيَ البِثارَ[1]... ليلتئمَ أمر الخَلْقِ، ولو ألهمَ أكثرَ الناسِ أنْ يَكونوا خبازينَ مَثَلًا؛ باتَ الخبزُ وهَلَكَ! أو هرَّاسينَ؛ جفَّتِ الهَرايِسُ! بل يُلْهِمُ هٰذا وذاك بقدَرٍ؛ لينتظِمَ أمرُ الدُّنيا وأمرُ الآخرةِ.

ويَنْـدُرُ مِن الخَلْقِ مَن يُلْهِمُـه الكمـالَ وطلبَ الأفضلِ والجمعَ بين

---

(١) البثر: الخراج الصغير، ولعل البثار جمع له، وإن كان غريبًا.

العلوم والأعمال ومعاملاتِ القلوبِ. . . وتتفاوتُ أربابُ هٰذه الحال.

فسبحانَ مَن يَخْلُقُ ما يشاءُ ويختارُ.

نسأله العفوَ إنْ لم يَقَع الرضى، والسلامةَ إنْ لم نَصْلُحْ للمعاملةِ.

٢١٨ ـ فصل

[في ضرورة معرفة الصحيح من الضعيف في حديث الرسول]

علمُ الحديثِ هو الشريعةُ؛ لأنَّه مُبيِّنٌ للقرآنِ، وموضِّحٌ للحلال والحرام، وكاشفٌ عن سيرةِ رسولِ اللهِ ﷺ وسِيَرِ أصحابِه.

وقد مَزَجوهُ بالكَذِبِ، وأَدْخَلوا في المنقولاتِ كلَّ قبيحٍ.

فإذا وُفِّقَ الزَّاهِدُ والواعظُ؛ لم يَذْكُرا إلَّا ما شَهِدا بصحَّتِهِ. وإنْ حُرِما التوفيقَ؛ عَمِلَ الزاهدُ بكلِّ حديثٍ يَسْمَعُهُ؛ لحُسْنِ ظَنِّه بالرُّواةِ! وقال الواعظُ كلَّ شيءٍ يراهُ؛ لجَهْلِهِ بالتصحيحِ! ففسدتْ أحوالُ الزَّاهِدِ، وانحرفَ عن جادةِ الهُدى، وهو لا يعلمُ.

وكيفَ لا، وعمومُ الأحاديثِ الدالةِ على الزُّهْدِ لا تَثْبُتُ؟!

مثلُ حديثِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: «أيُّما امرئٍ مسلمٍ؛ اشْتَهى شهوةً، فردَّ شهوتَهُ، وآثَرَ على نفسِهِ؛ غُفِرَ له»[1]. وهٰذا حديثٌ موضوعٌ، يمنعُ الإنسانَ ما أُبيحَ له مما يتقوَّى به على الطاعةِ.

(١) (موضوع). ذكره الذهبي في «الميزان» (٣ / ٢٥٦) في موضوعات عمرو بن خالد القرشي، فقال: «قال ابن حبان: وقد روى عمرو بن خالد، عن حبيب بن أبي ثابت، عن نافع، عن ابن عمر مرفوعًا: «أيما مسلم. . .» فذكره». وقال الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (٢٣٩ / ٦٦): «رواه الدارقطني عن ابن عمر مرفوعًا، وهو موضوع».

ومثلُ قولِهِ: «مَنْ وَضَعَ ثِيابًا حِسانًا»[١].

وكذلك ما رَوَوْا: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قُدِّمَ له أُدْمانِ، فقالَ: «أُدْمانِ في قَدَحٍ؟! لا حاجةَ لي فيهِ، أكرهُ أنْ يَسْأَلَنِيَ اللهُ عن فُضول الدُّنيا»[٢].

وفي «الصحيح»: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أكَلَ البطيخَ بالرُّطبِ[٣].

ومثلُ هٰذا إذا تُتُبِّعَ كثيرٌ!

فقدْ بَنَوْا على فسادٍ، فَفَسَدَتْ أحوالُ الواعظِ والموعوظِ؛ لأنَّه يَبْني

---

(١) الظاهر أن هناك سقطًا في الكلام، ولم يتبين لنا ما هو، ولا وجدنا هٰذا الحديث بعد طول بحث.

(٢) (منكر). رواه: الطبراني في «الأوسط» (٨ / ١٩٧ / ٧٤٠٠)، والحاكم (٤ / ١٢٢)؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أن النبي ﷺ أتي بقعب فيه لبن وشيء من عسل، فقال: «أدمان في إناء؟! لا آكله ولا أحرمه».

قال الطبراني: «لم يرو هٰذين الحديثين عن شعيب بن الحبحاب إلا ابنه عبد السلام، تفرد بهما عبد القدوس عن أبيه». وقال الحاكم: «هٰذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وتعقبه الذهبي فقال: «بل منكر واه، رواه محمد بن عبد الكبير بن شعيب بن الحبحاب، حدثني عبد السلام، عن أبيه، عن أنس، ولم أر فيهم مجروحًا». وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في «الأوسط»، وفيه محمد بن عبد الكريم (والصواب: الكبير) ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».

وله شاهد من حديث عائشة رضي الله عنها ذكره الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (١٧٧ / ٥٦)، وقال: «رواه الدارقطني عن عائشة مرفوعًا مطولاً، وقال: تفرد به نعيم بن مورع، وليس بثقة». ونعيم بن مورع له ترجمة مظلمة في «الميزان» و«اللسان»؛ فالإسناد ضعيف جدًا، لا يعتبر به.

والحديث ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٦٤).

(٣) تقدم تخريجه في (فصل ١٦٢).

كلامَه على أشياءَ فاسدةٍ ومُحالاتٍ.

ولقد كان جماعةٌ من المتزهِّدينَ يعمَلونَ على أحاديثَ ومنقولاتٍ لا تَصِحُّ، فيضيعُ زمانُهم في غيرِ المشروعِ، ثم يُنْكِرونَ على العلماءِ استعمالَهم للمباحاتِ، وَيَرَوْنَ أنَّ التَّجَفُّفَ هو الدينُ!

وكذلك الوعَّاظُ يُحَدِّثونَ الناسَ بما لا يَصِحُّ عن الرسولِ ﷺ ولا أصحابِهِ؛ فقد صارَ المحالُ عندَهم شريعةً.

فسبحانَ مَن حَفِظَ هٰذه الشريعةَ بأخبارِ أخيارٍ يَنْفونَ عنها تحريفَ الغالينَ وانتحالَ المبطلينَ!

٢١٩ ـ فصل

[ليس كل ما في مسند الإمام أحمد صحيحاً]

كانَ قدْ سألني بعضُ أصحابِ الحديثِ: هل في «مسند أحمد» ما ليسَ بصحيحٍ؟ فقلتُ: نعمْ.

فَعَظُمَ ذٰلك على جماعةٍ يُنْسَبونَ إلى المذهبِ! فحملتُ أمرَهم على أنَّهم عوامٌّ، وأهملتُ فِكْرَ ذٰلك. وإذا بهم قدْ كَتَبوا فتاوى، فكَتَبَ فيها جماعةٌ مِن أهلِ خُراسانَ ـ منهم أبو العلاءِ الهَمْدانيُّ ـ يُعْظِمونَ هٰذا القولَ ويردُّونَه ويُقَبِّحونَ قولَ مَن قالَه!

فبقيتُ دَهِشًا متعجِّبًا، وقلتُ في نفسي: وا عجبًا! صارَ المُنْتَسِبونَ إلى العلم عامَّةً أيضًا! وما ذاكَ إلَّا أنَّهم سَمِعوا الحديثَ، ولم يَبْحَثوا عن صحيحِهِ وسقيمِهِ، وظَنُّوا أنَّ مَن قالَ ما قلتُهُ تعرَّضَ للطعنِ فيما أخرجَهُ

أحمدُ، وليسَ كذٰلكَ!

فإنَّ الإمامَ أحمدَ روى المشهورَ والجيِّدَ والرديءَ، ثم هو قد ردَّ كثيرًا ممَّا روى، ولم يَقْبَلْ به، ولم يَجْعَلْهُ مذهبًا له.

أليسَ هو القائلَ في حديثِ الوضوءِ بالنبيذِ: مجهولٌ[1]؟!

ومَن نَظَرَ في «كتابِ العللِ» الذي صنَّفَهُ أبو بكرٍ الخلَّالُ[2]؛ رأى أحاديثَ كثيرةً، كلُّها في «المسند»، وقد طَعَنَ فيها أحمدُ.

---

(١) حديث الوضوء بالنبيذ رواه: أحمد (١ / ٣٩٨ و٤٤٩ و٤٥٥)، وابن ماجه (١ ـ كتاب الطهارة وسننها، ٣٧ ـ باب الوضوء بالنبيذ، ١ / ١٣٥ / ٣٨٤)، وأبو داوود (١ ـ كتاب الطهارة، ٤٢ ـ باب الوضوء بالنبيذ، ١ / ٦٩ / ٨٤)، والترمذي (١ ـ أبواب الطهارة، ٦٥ ـ باب ما جاء في الوضوء بالنبيذ، ١ / ١٤٧ / ٨٨)؛ عن ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال له ليلة الجن: «عندك طهور؟». قال: لا؛ إلا شيء من نبيذ في إداوة. قال: «تمرة طيبة وماء طهور». فتوضأ.

قال عبد الله بن أحمد: «قال أبي: كل شيء تحول عن اسم الماء لا يعجبني أن يتوضأ به، ويتيمم أحب إلي من أن يتوضأ بالنبيذ». أخرجه الدارقطني في «السنن» (١ / ٧٥). والحديث أعله أبو داوود في «السنن»، وقال الترمذي: «وإنما روي هٰذا الحديث عن أبي زيد عن عبد الله عن النبي ﷺ، وأبو زيد رجل مجهول عند أهل الحديث لا يعرف له رواية غير هٰذا الحديث». وأخرجه الدارقطني في «السنن» من عدة أوجه وأعلها جميعًا. وقال الحافظ في «الفتح» (١ / ٣٥٤ / ٢٤٢): «وهٰذا الحديث أطبق علماء السلف على تضعيفه، وقيل ـ على تقدير صحته ـ: إنه منسوخ؛ لأن ذٰلك كان بمكة، ونزول قوله تعالى: ﴿فلم تجدوا ماء﴾ إنما كان بالمدينة بلا خلاف، أو هو محمول على ماء ألقيت فيه تمرات يابسة لم تغير له وصفًا».

(٢) أحمد بن محمد، الإمام، الحافظ، العلامة، ولد سنة ٢٣٤هـ، وتوفي سنة ٣١١هـ، ولم يكن للإمام أحمد قبله فقه مستقل، فجمع علمه وألفاظه وفتاويه بصورة لم يسبق إليها. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٥/١١٢)، «أعلام النبلاء» (١٤/٢٩٧).

ونقلتُ مِن خَطِّ القاضي أبي يعلى محمدِ بن الحسينِ الفرَّاءِ[١] في مسألة النَّبيذِ؛ قالَ: إنما روى أحمدُ في «مسنده» ما اشْتُهِرَ، ولم يقصِدِ الصَّحيحَ ولا السَّقيمَ، ويدلُّ على ذٰلك أنَّ عبدَ اللهِ قالَ: قلتُ لأبي: ما تقولُ في حديثِ رِبْعِيِّ بنِ حِراشٍ عن حُذيفةَ؟ قالَ: الذي يرويهِ عبدُ العزيزِ بنُ أبي رَوَّادٍ[٢]؟ قلتُ: نعمْ. قالَ: الأحاديثُ بخلافِهِ. قلتُ: فقدْ ذَكَرْتَهُ في «المسند»؟ قالَ: قصدتُ في «المسندِ» المشهورَ؛ فلو أردتُ أنْ أقصدَ ما صَحَّ عندي؛ لم أورِدْ في هٰذا «المسندِ»[٣] إلَّا الشيءَ بعدَ الشيءِ اليسيرِ، ولٰكنَّكَ يا بنيَّ تَعْرِفُ طريقَتي في الحديثِ؛ لستُ أخالِفُ ما ضَعُفَ مِن الحديثِ إذا لم يكنْ في البابِ شيءٌ يدفَعُهُ. قال القاضي: وقد أخْبَرَ عن نفسِهِ كيفَ طريقُهُ في «المسند»؛ فمَن جَعَلَهُ أصلاً للصِّحَّةِ؛ فقدْ خالَفَهُ وتَرَكَ مَقْصِدَهُ.

قلتُ: قد غَمَّني في هٰذا الزَّمانُ أنَّ العلماءَ ـ لِتَقْصيرِهِم في العلم ـ صاروا كالعامَّةِ، وإذا مَرَّ بِهِم حديثٌ موضوعٌ؛ قالوا: قد رُوِيَ! والبكاءُ ينبغي أنْ يكونَ على خَساسَةِ الهِمَمِ.

ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيم.

---

(١) شيخ الحنابلة، الإمام، العلامة، صاحب التصانيف، ولد سنة ٣٨٠ وتوفي ٤٥٨هـ. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٢/٢٥٦)، «أعلام النبلاء» (١٨/٨٩).

(٢) في الأصول: «داوود»! والصواب ما أثبتناه. وانظر: «تهذيب التهذيب» (٦/٣٠٣).

(٣) في الأصول: «لم أرد لهٰذا المسند إلا الشيء بعد الشيء اليسير»، وله وجه، والأقوى ما أثبتناه من بعض المطبوعات.

٢٢٠ ـ فصل

[أتباع الشهوات كالأنعام بل هم أضل سبيلاً]

بَلَغَني عن بعضِ فُسَّاقِ القُدماءِ أنَّه كانَ يقولُ: ما أرى العيشَ غيرَ أنْ تُتْبِعَ النفسَ هواها؛ فمخطِئًا أو مُصيبًا!

فتدبَّرْتُ حالَ هٰذا، وإذا به ميِّتُ النفسِ، ليس له أَنَفَةٌ على عِرْضِهِ، ولا خوفُ عارٍ! ومثلُ هٰذا ليس في مِسْلَاخِ[1] الآدميينَ!

فإنَّ الإنسانَ قد يُقْدِمُ على القَتْلِ لئلَّا يُقالَ: جبانٌ. ويَحْمِلُ الأثقالَ ليُقالَ: ما قَصَّرَ. ويخافُ العارَ، فَيَصْبِرُ على كلِّ آفةٍ مِن الفقرِ، وهو يَسْتُرُ ذٰلك، حتى لا يُرى بعينٍ ناقصةٍ. حتى إنَّ الجاهلَ إذا قيلَ لهُ: يا جاهلُ! غَضِبَ. واللصوصُ المتهيِّئونَ للحرام إذا قالَ أحدُهُم للآخرِ: لا تتكلَّمْ؛ فإنَّ أختَكَ تفعلُ وتصنَعُ! أخذتْهُ الحَمِيَّةُ، فقتلَ الأختَ. ومَن له نَفْسٌ؛ لا يَقِفُ في مقامِ تُهْمَةٍ؛ لئلَّا يُظَنَّ به.

فأما مَن لا يبالي أن يُرى سكرانَ، ولا يُهِمُّهُ إنْ شُهِرَ بين الناسِ، ولا يؤلِمُهُ ذِكْرُ الناسِ له بالسُّوْءِ؛ فذاكَ في عِداد البهائم.

وهٰذا الذي يريدُ أنْ يُتْبِعَ النفسَ هواها؛ لا يَلْتَذُّ؛ إلَّا أن لا يخافَ عَنَتًا[2] ولا لومًا، ولا يكونُ له عِرْضٌ يَحْذَرُ عليه؛ فهو بَهيمةٌ في مِسْلاخ إنسانٍ.

وإلَّا؛ فأيُّ عيشٍ لِمَن شربَ الخمرَ، وأُخِذَ عَقيبَ ذٰلك، وضُرِبَ،

---

(١) المسلاخ: الجلد.

(٢) العنت: المشقة والإثم والحرج.

وشاعَ في الناسِ ما قد فُعِلَ به؟! أما يَفي ذٰلك باللَّذَّةِ؟! لا؛ بل يَرْبو عليها أضعافًا. وأيُّ عيشٍ لِمَن ساكَنَ الكسلَ: إذا رأى أقرانَه قد بَرَّزوا في العلم وهو جاهلٌ، أوِ اسْتَغْنَوا بالتجارةِ وهو فقيرٌ؟! فهل يَبْقى للالتذاذِ بالكسل والراحةِ معنى؟! ولو تفَكَّرَ الزاني في الأُحدوثَةِ عنه، أو تصوَّرَ أخْذَ الحَدِّ منه؛ لَكَفَّ الكَفَّ؛ غيرَ أنَّه يرى لَذَّةً حاضرةً كأنها لَمْعُ برقٍ، ويا شؤمَ ما أعقبتْ مِن طول الأسى!

هٰذا كلُّه في العاجل، فأمّا الآجلُ؛ فَمَنْغَصَةُ العذابِ دائمةٌ، ﴿والَّذينَ آمَنوا مُشْفِقونَ مِنْها﴾ [الشورى: ١٨].

نسألُ اللهَ أنفَةً مِن الرذائل، وهِمَّةً في طلبِ الفضائل؛ إنَّه قريبٌ مجيبٌ.

٢٢١ ـ فصل
[الحذر الحذر من عواقب الخطايا]

قد تَبْغَتُ العُقوباتُ، وقد يؤخِّرُها الحِلْمُ.

والعاقلُ مَن إذا فَعَلَ خطيئةً؛ بادَرَها بالتوبةِ.

فكم مغرورٍ بإمهالِ العُصاةِ لم يُمْهَلْ!

وأسرعُ المعاصي عقوبةً ما خَلا عن لَذَّةٍ تُنْسي النُّهى، فتكونُ تلكَ الخطيئةُ كالمعاندةِ والمبارزةِ؛ فإنْ كانتْ توجِبُ اعتراضًا على الخالقِ أو منازعةً له في عظمتِهِ؛ فتلكَ التي لا تُتَلافى، خصوصًا إنْ وَقَعَتْ مِن عارفٍ باللهِ؛ فإنَّه يَنْدُرُ إهمالُهُ.

قال عبدُ المجيدِ بنُ عبد العزيز[١]: كان عندَنا بخُراسانَ رجلٌ كَتَبَ مُصْحَفًا في ثلاثةِ أيام، فَلَقِيَهُ رجلٌ، فقالَ: في كم كَتَبْتَ هٰذا؟ فأومأ بالسبَّابةِ والوسطى والإِبهامِ، وقالَ: في ثلاثٍ، ﴿وما مَسَّنا مِنْ لُغوبٍ﴾ [الشورى: ١٨]، فجفَّتْ أصابعُهُ الثلاثُ، فلم ينتفعْ بها فيما بعدُ.

وخَطَرَ لبعضِ الفُصَحاءِ أنّه يَقْدِرُ أنْ يقولَ مثلَ القرآنِ! فصَعِدَ إلى غرفةٍ، فانفردَ فيها، وقالَ: أمْهلوني ثلاثًا! فصَعِدوا إليه بعد الثلاثِ، ويَدُهُ قد يَبِسَتْ على القلم، وهو ميِّتٌ.

قال عبدُ المجيدِ: ورأيتُ رجلًا كان يأتي امرأتَهُ حائِضًا، فحاضَ[٢]، فلمّا كَثُرَ الأمرُ به؛ تابَ، فانْقَطَعَ عنه.

ويَلْحَقُ هٰذا أن يُعَيِّرَ الإنسانُ شخصًا بفعل، وأعظمُهُ أنْ يعيِّرَهُ بما ليس إليه، فيقولَ: يا أعمى! ويا قبيحَ الخِلْقَةِ! وقالَ ابنُ سيرينَ: عيَّرْتُ رجلًا بالفقرِ، فحُبِسْتُ على دينٍ[٣].

وقد تتأخَّرُ العقوبةُ وتأتي في آخرِ العُمُرِ؛ فيا طولَ التَّعثيرِ مع كِبَرِ السِّنِّ لِذُنوبٍ كانت في الشبابِ!

---

(١) هو عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد، العالم، القدوة، الحافظ، شيخ الحرم، كان من المرجئة، توفي سنة ٢٠٦هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٩ / ٤٣٤)، «تهذيب التهذيب» (٦ / ٣٨١).

(٢) يعني: نزف دمًا لسبب مرضٍ، وهو أمر وارد ومتكرر الحصول، فأطلقوا عليه أنه حاض مجازًا للمشاكلة وللتخويف من المعصية، وكثيرًا ما يحيل العوام أمراضهم وشكاويهم لعادات لا علاقة لهٰذه الأمراض بها!

(٣) تقدمت ترجمة ابن سيرين وخبره هٰذا في (فصل ١٨).

فالحذرَ الحذرَ من عواقب الخطايا، والبدارَ البدارَ إلى مَحْوِها بالإنابةِ؛ فلها تأثيراتٌ قبيحةٌ، إنْ أَسْرَعْتَ، وإلاَّ؛ اجتمعتْ وجاءتْ.

٢٢٢ـ فصل

[في شرف المال وضرورة الاعتدال في جمعه وإنفاقه]

اعلمْ أنَّ الآدميَّ قد خُلِقَ لأمرٍ عظيم، وهو مطالبٌ بمعرفةِ خالقِهِ بالدليل، ولا يكفيهِ التقليدُ[1]، وذٰلك يَفْتَقِرُ إلى جَمْع الهمِّ في طلبِهِ، وهو مطالبٌ بإقامةِ المفروضاتِ واجتنابِ المحارمِ؛ فإن سَمَتْ هِمَّتُهُ إلى طلب العلمِ؛ احتاجَ إلى زيادةِ جمع الهمِّ.

فأسعدُ الناس مَن له قوتٌ دارٌّ بِقَدَرِ الكفايةِ، لا مِنْ مِنَنِ الناسِ وصدقاتِهِم، وقد قَنِعَ به.

وأما إذا لم يكنْ له قوتٌ يكفي؛ فالهَمُّ الذي يريدُ اجتماعَه في تلك الأمورِ يتشتَّتُ، ويصيرُ طالباً للتحيُّلِ في جَمْعِ القُوتِ، فيذهبُ العُمُرُ في تحصيل قوتِ البدنِ الذي يريدُ مِن بقائِهِ غيرَ بقائِهِ، ويفوتُ المقصودُ ببقائِهِ، وربَّما احتاجَ إلى الأنذالِ.

قالَ الشاعرُ:

حَسْبي مِنَ الدَّهْرِ ما كَفاني ... يَصُونُ عِرْضي عَنِ الهَوانِ
مَخافَةَ أنْ يَقولَ قَوْمٌ ... فَضْلُ فُلانٍ على فُلانِ

---

(١) معرفة الخالق والإيمان به مركوزة في الفطر، ولا تحتاج إلى دليل، وإنما يطلب الدليل من الكتاب والسنة لمعرفة صفات الله عز وجل العلى وأفعاله الكريمة وأوامره.

فينبغي للعاقل أنْ إذا رُزِقَ قُوتًا أو كانَ له موادُّ: أنْ يَحْفَظَها؛ ليتجمَّعَ همُّهُ، ولا ينبغي أن يُبَذِّرَ في ذٰلك؛ فإنَّه يحتاجُ فَيَتَشَتَّتُ همُّه، والنفسُ إذا أحرزتْ قوتَها؛ اطمأنَّتْ. فإنْ لم يكنْ له مالٌ؛ اكتسبَ بقَدْرِ كفايتِهِ، وقلَّلَ الغلوَّ؛ ليجمعَ بين همِّه وضرورتِهِ. وليقنعْ بالقليل؛ فإنَّه متى سَمَتْ هِمَّتُهُ إلى فُضولِ المالِ؛ وَقَعَ المحذورُ من التشتُّتِ؛ لأنَّ التَّشتُّتَ في الأول للعدم، وهٰذا التَّشَتُّتُ يكونُ للحرصِ على الفضول، فيذهبُ العُمْرُ على البارِدِ:

وَمَنْ يُنْفِقُ الأيَّامَ في حِفْظِ مالِهِ   مخافَةَ فَقْرٍ فالَّذي فَعَلَ الفَقْرُ

فافهمْ هٰذا يا صاحبَ الهِمَّةِ في طلبِ الفضائل؛ فإنَّك ما لم تَعْزِلْ قوتَ الصبيانِ؛ شتَّتوا قلبَكَ، وطبعُك طفلٌ؛ ففرِّغْ همَّكَ من استعانتِهِ، واعرفْ قَدْرَ شرفِ المالِ الذي أوجَبَ جمعَ همِّكَ وصانَ عِرْضَكَ عن الخَلْقِ، وإياكَ أن يَحْمِلَكَ الكرمُ على فَرْطِ الإخراجِ، فتصيرَ كالفقيرِ المتعرِّضِ لكَ بالتعرُّضِ لغيرِكَ.

وفي الحديثِ أنَّ رجلًا أتى رسولَ اللهِ ﷺ، فرأى عليه آثارَ الفَقْرِ، فَعَرَّضَ به، فأُعْطِيَ شيئًا، فجاء فقيرٌ آخرُ، فآثَرَهُ الأولُ ببعضِ ما أُعْطِي، فرماهُ النبيُّ ﷺ إليه، ونهاهُ عن مِثل ذٰلك[1].

---

(١) (حسن). رواه: أبو داوود (٣ ـ كتاب الزكاة، ٣٩ ـ باب الرجل يخرج من ماله، ١ / ٥٢٥ / ١٦٧٥)، والترمذي (أبواب الصلاة، ٣٦٧ ـ باب الركعتين إذا جاء الرجل والإمام يخطب، ٢ / ٣٨٥ / ٥١١)، والنسائي (٢٣ ـ كتاب الزكاة، ٥٥ ـ باب إذا تصدق وهو محتاج إليه هل يرد عليه، ٥ / ٦٣ / ٢٥٣٥)، والحاكم (١ / ٤١٣)؛ من طرق عن محمد بن عجلان، عن عياض بن عبدالله، عن أبي سعيد رضي الله عنه. =

والقناعةُ بما يكفي وتركُ التشوُّفِ إلى الفضولِ أصلُ الأصول.

ولما آيَسَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل نفسَه مِن قَبول الهدايا والصِّلاتِ؛ اجْتَمَعَ همُّه وحَسُنَ ذِكْرُهُ، ولما أطْمَعَها ابنُ المدينيِّ وغيرُهُ؛ سَقَطَ ذِكْرُهُ[1].

ثم فيمَنْ؟! إنَّما هو سلطانٌ جائرٌ، أو مُزَكٍّ منانٌ، أو صديقٌ مُدِلٌّ[2] بما يعطي.

والعِزُّ ألذُّ مِن كلِّ لَذَّةٍ، والخروجُ عن رِبْقَةِ المننِ - ولو بِسَفِّ الترابِ - أفضلُ.

٢٢٣ - فصل

[الاعتدال في الأمور يقيك شماتة الشامتين وحسد الحاسدين]

قد رُكِّبَ في الطباعِ حبُّ التفضيل على الجنسِ؛ فما أحدٌ إلَّا وهو يحبُّ أن يكونَ أعلى درجةً مِن غيرِه.

فإذا وقعتْ نَكْبَةٌ أوجبتْ نزولَه عن مرتبةِ سواه؛ فينبغي له أن يَتَجَلَّدَ

= قال الترمذي: «حديث أبي سعيد الخدري حديث حسن صحيح». وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وليس كذلك؛ فمحمد بن عجلان فيه كلام، وحديثه لا بأس به، وحسنه الألباني.

(١) غفر الله لابن الجوزي هذا التجري في الكلام عن هذا الإمام، الحجة، الشيخ، أمير المؤمنين في الحديث، شيخ الإمام أحمد وقرينه، ومَن إليه المنتهى في معرفة علل الحديث مع كمال المعرفة بنقد الرجال وسعة الحفظ، حتى كان الإمام أحمد لا يذكره إلا بكنيته تبجيلاً له. وانظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (١١ / ٤١)، و«ميزان الاعتدال» (٣ / ١٤٠)، و«تهذيب التهذيب» (٧ / ٣٤٩).

(٢) المدِلّ: الذي يرى أن له نوع فضل في عطائه.

بسَتْرِ تلكَ النكبةِ؛ لئلَّا يُرى بعينِ نقصٍ، ولِيَتَجَمَّلِ المتعفِّفُ حتى لا يُرَى بعينِ الرحمةِ، ولِيَتَحاملِ المريضُ لئلَّا يشمتَ به ذو العافيةِ.

وقد قالَ ﷺ لأصحابِهِ حينَ قدومِهِ مَكَّةَ؛ وقد أَخَذَتْهُمُ الحُمَّى، فخافَ أن يَشْمَتَ بهمُ الأعداءُ حين ضَعْفِهِم عن السَّعْي، فقالَ: «رَحِمَ اللهُ مَن أظْهَرَ مِن نفسِهِ الجَلَدَ»[1]، فرَمَلوا (والرَّمَلُ: شدةُ السعي). وزالَ ذلك السببُ وبقيَ الحكمُ؛ لِيُتَذَكَّرَ السببُ فيُفْهَمَ معناهُ.

واستأذنوا على معاويةَ وهو في الموتِ، فقالَ لأهلِهِ: أَجْلِسوني! فقعدَ متمكِّنًا يُظْهِرُ العافيةَ، فلما خَرَجَ العُوَّادُ؛ أنشدَ:

وتَجَلُّدي للشامِتينَ أُرِيهُمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أَتَضَعْضَعُ
وإذا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أظْفارَها ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَميمَةٍ لا تَنْفَعُ

وما زالَ العقلاءُ يُظْهِرونَ التَّجَلُّدَ عند المصائبِ والفقرِ والبلاءِ؛ لئلَّا يَتَحَمَّلوا مع النوائبِ شماتَةَ الأعداءِ، وإنها لأشدُّ مِن كلِّ نائبةٍ... وكان فقيرُهُم يُظْهِرُ الغنى، ومريضُهُم يُظْهِرُ العافيةَ.

بلى، ثَمَّ نُكْتَةٌ ينبغي التفطُّنُ لها: ربَّما أظهرَ الإنسانُ كَثرةَ المالِ وسُبوغَ النِّعَمِ، فأصابَه عدوُّهُ بالعينِ، فلا يَفي ما تَبَجَّحَ به بما يُلاقي مِن انعكاسِ النِّعمةِ!

والعينُ لا تُصيبُ إلَّا ما يُسْتَحْسَنُ، ولا يكفي الاستحسانُ في إصابةِ

---

(١) رواه: البخاري (٦٤ ـ كتاب المغازي، ٤٣ ـ باب عمرة القضاء، ٧ / ٥٠٨ / ٤٢٥٦)، ومسلم (١٥ ـ كتاب الحج، ٣٩ ـ باب استحباب الرمل في الطواف والعمرة، ٢ / ٩٢٣ / ١٢٦٦)؛ من حديث ابن عباس بالقصة دون اللفظ.

العينِ حتَّى يكونَ مِن حاسدٍ، ولا يكفي ذٰلك حتى يكونَ من شريرِ الطبعِ؛ فإذا اجتمعتْ هٰذه الصفاتُ؛ خيفَ من إصابةِ العينِ[1].

فلْيَكُن الإنسانُ مظهرًا للتجمُّل مقدارَ ما يأمنُ إصابةَ العينِ ويعلمُ أنَّه في خيرٍ، ولْيَحْذَرِ الإفراطَ في إظهارِ النِّعم؛ فإنَّ العينَ هناك محذورةٌ.

وقد قالَ يعقوبُ لبنيهِ عليهمُ السلامُ: ﴿لا تَدْخُلوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وادْخُلوا مِنْ أبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧]، وإنما خافَ عليهمُ العينَ.

فَلْيُفْهَمْ هٰذا الفصلُ؛ فإنَّه ينفعُ مَن له تدبُّرٌ.

٢٢٤ ـ فصل

[وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً]

إنما خُلِقْنا لِنَحْيا مع الخالقِ في معرفتِهِ ومحادثتِهِ ورؤيتِهِ في البقاءِ الدائم.

وإنَّما ابْتُدِئَ كونُنا في الدُّنيا؛ لأنَّها في مثال مَكْتَبٍ؛ نتعلَّمُ فيه الخَطَّ والأدبَ؛ لِيَصْلُحَ الصبيُّ عند بلوغِهِ للرُّتَبِ.

فمِن الصِّبيانِ بعيدُ الذِّهنِ، يطولُ مُكْثُهُ في المكتبِ، ويَخْرُجُ وما فَهِمَ شيئًا. وهٰذا مثالُ مَن لا يَعْلَمُ وجودَه ولا نالَ المُرادَ من كونِهِ.

ومِن الصِّبيانِ مَنْ يجمعُ مع بُعْدِ ذِهنِهِ وقلةِ فَهْمِهِ وعدم تعلُّمه أذى

---

(١) وليس هٰذا بصحيح إطلاقًا، وحسبك قول النبي ﷺ: «إذا رأى أحدكم من نفسه أو ماله أو من أخيه ما يعجبه؛ فليدع له بالبركة؛ فإن العين حق» [صحيح الجامع: ٥٥٦]؛ ففي هٰذا الحديث الصحيح أن الإنسان قد يصيب نفسه وماله بعينه؛ فأين الشر والحسد هنا؟!

الصِّبيان؛ فهوَ يُؤذيهم، ويَسْرقُ مطاعِمَهم، ويستغيثونَ مِن يَدِهِ؛ فلا هو صَلَحَ ولا فَهِمَ ولا كفَّ عن الشَّرِّ. وهٰذا مَثَلُ أهل الشَّرِّ والمؤذينَ.

ومن الصِّبيانِ مَن عَلِقَ بشيءٍ من الخطِّ، لٰكنَّه ضعيفُ الاستخراج، رديءُ الكتابةِ، فخَرَجَ ولم يَعْلَقْ إلَّا بقَدَرِ ما يَعْلَقُ به حسابُ معاملتِهِ. وهٰذا مثلُ مَن فَهِمَ بعضَ الشيءِ وفاتَتْهُ الفضائلُ التامَّةُ.

ومنهُم مَن جوَّدَ الخطَّ ولم يتعلَّم الحسابَ، وأتقنَ الآدابَ حِفْظًا غيرَ أنَّه قاصرٌ في أدبِ النفسِ؛ فهٰذا يَصْلُحُ أنْ يكونَ كاتبًا للسُّلطانِ على مخاطرةٍ؛ لِسوءِ ما في باطنِهِ مِن الشَّرَهِ وقلةِ التأدُّبِ.

ومنهم مَن سَمَتْ هِمَّتُهُ إلى المعالي الكاملةِ؛ فهوَ مُقَدَّمُ الصبيانِ في المكتبِ، ونائبٌ عن معلِّمِهم، ثم يرتفعُ عنهم بِعِزَّةِ نفسِهِ وأدبِ باطنِهِ وكمالِ صناعةِ الآدابِ الظَّاهرةِ، ولا يزالُ حاثٌّ مِن باطنِهِ يَحُثُّهُ على تَعْجيل التعلُّمِ وتَحْصيل كلِّ فضيلةٍ؛ لعلمِهِ أنَّ المكتبَ لا يُرادُ لنفسِهِ، بل لأخذِ الأدبِ منه والرحلةِ إلى حالةِ الرُّجوليَّةِ والتصرُّفِ؛ فهو يبادِرُ الزمانَ في نيل كلِّ فضيلةٍ. فهٰذا مَثَلُ المؤمنِ الكاملِ؛ يَسْبِقُ الأقرانَ يوم التَّجاري، ويَعْرِضُ لَوْحَ عملِهِ جيِّدَ الخطِّ، فيقولُ بلسانِ حالِهِ: ﴿هاؤمُ اقْرَؤوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

وكذٰلك الدُّنيا وأهلُها: مِن الناسِ هالكٌ بعيدٌ عن الحقِّ، وهم الكفَّارُ. ومنهُم خاطِئٌ مع قليلٍ من الإيمانِ؛ فهو معاقَبٌ، والمصيرُ إلى خيرٍ. ومنهم سليمٌ، لٰكنَّهُ قاصرٌ. ومنهم تامٌّ، لٰكنه بالإضافةِ إلى مَن دونَه، وهو ناقصٌ بالإضافة إلى مَن فوقَه.

فالبِدارَ البِدارَ يا أربابَ الفُهوم؛ فإنَّ الدُّنيا مَعْبَرٌ إلى دارِ إقامةٍ، وسفرٌ إلى المستقرِّ والقربِ مِن السُّلطانِ ومجاورتِهِ؛ فتَهَيَّؤوا للمجالسةِ، واستعِدُّوا للمخاطبةِ، وبالِغوا في استعمال الأدبِ؛ لتَصْلُحوا للقربِ من الحضرةِ، ولا يَشْغَلَنَّكُمْ عن تَضْمير[1] الخيل تكاسُلٌ، ولِيَحْمِلْكُمْ على الجِدِّ في ذٰلك تذكُّركم يومَ السباقِ؛ فإنَّ قربَ المؤمنينَ من الخالقِ على قَدْرِ حَذَرِهم في الدُّنيا، ومنازِلُهُم على قَدْرِهِم؛ فما منزلُ النَّفَّاطِ[2] كمنزلِ الحاجبِ، ولا منزلُ الحاجبِ كمكانِ الوزير!

جنتانِ من ذهبٍ آنِيَتُهما وما فيهما، وجنتانِ من فضَّةٍ آنِيَتُهما وما فيهما[3]، والفِرْدَوْسُ الأعلى لآخرينَ، والذينَ في أرضِ الجنةِ ينظُرونَ أهلَ الدَّرجاتِ كما يَرَوْنَ الكوكبَ الدُّرِّيَّ.

فليتذكَّرِ الساعي حلاوةَ التسليم إلى الأمين، وليتذكَّرْ في لَذاذةِ المدحِ يومَ السِّباقِ... وليحذرِ المسابقُ من تقصيرٍ لا يمكنُ استدراكُهُ، ولْيَخَفْ من عيبٍ يَبْقى قُبْحُ ذِكْرِهِ... هٰؤلاءِ الجَهَنَّمِيُّونَ عتقاءُ الرَّحمٰنِ، أزرى بِهِمُ اتباعُ الهوى، ثم لَحِقَتْهُمُ العافيةُ، فَنَجَوْا بعد لأيٍ[4]... فلْيَتَّعِظْ وليصبرْ

---

(١) تضمير الخيل: إعدادها للسباق عن طريق تدريبها وتنظيم طعامها بصورة يعرفها أهل الصنعة.

(٢) النفَّاط: الذي يتولى أمر النفط (الوقود).

(٣) هٰذا لفظ حديث رواه: البخاري (٩٧ ـ كتاب التوحيد، ٢٤ ـ باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾، ١٣ / ٤٢٣ / ٧٤٤٤)؛ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤) الجهنميون، عتقاء الرحمٰن: هم الذين يخرجهم الله سبحانه وتعالى من النار بعد أن تشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيقبض ربنا قبضة من النار، فيخرج منها قومًا لم

عن المشتهى؛ فالأيامُ قلائلُ. . . يدخُلُ فقراءُ المؤمنينَ قبل أغنيائهم إلى الجنة بخمسِ مئةِ عام[1].

فالجِدَّ الجِدَّ، بأقدام المُبادرةِ؛ فقد لاحَ العَلَمُ، خصوصًا لمن بانتْ له بانَةُ الوادي[2]: إما بالعِلْم الدَّالِّ على الطريقِ، وإما بالشيبِ الذي هو عَلَمُ الرحيل، وهو ما يأمُلُهُ أهلُ الجِدِّ.

وكانَ الجنيدُ يقرأ وقتَ خروج رُوحِهِ، فيقالُ لهُ: في هٰذا الوقتِ؟! فيقولُ: أبادِرُ طيَّ صحيفتي[3].

وبعد هٰذا؛ فالمُرادُ موفَّقٌ، والمطلوبُ معانٌ، وإذا أرادكَ لأمرٍ؛ هيأكَ له.

= يعملوا خيرًا قط، فيلقيهم في نهر الحياة في الجنة فينبتون منه.

رواه: البخاري (٩٧ ـ كتاب التوحيد، ٢٤ ـ باب قول الله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾، ١٣ / ٤١٩ / ٧٤٣٧)، ومسلم (١ ـ كتاب الإيمان، ٨١ ـ باب معرفة طريق الرؤية، ١ / ١٦٧ / ١٨٣)؛ من حديث أبي سعيد الخدري.

(١) **(حسن)**. رواه: أحمد (٢ / ٢٩٦ و٤٥١ و٥١٣ و٥١٩)، وابن ماجه (٣٧ ـ كتاب الزهد، ٦ ـ باب منزلة الفقراء، ٢ / ١٣٨٠ / ٤١٢٢)، والترمذي (٣٧ ـ كتاب الزهد، ٣٧ ـ باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم، ٤ / ٥٧٨ / ٢٣٥٣ و٢٣٥٤)، وابن حبان (٢ / ٤٥١ / ٦٧٦)؛ من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وللحديث طرق كثيرة، وله شواهد عن ابن عمر وابن عمرو وأنس وجابر وأبي سعيد رضي الله عنهم؛ فالحديث صحيح، وقال الترمذي مرة: «حسن صحيح»، ومرة قال: «صحيح»، وصححه الألباني.

(٢) يعني: ظهرت له حدوده ومعالمه.

(٣) انظر: «الحلية» (١٠ / ٢٦٤ و٢٨١). وتقدمت ترجمته في (فصل ٩٩).

٢٢٥ ـ فصل
[في رضى أهل الجنة بمراتبهم]

تأملتُ حالةً عجيبةً، وهو أنَّ أهلَ الجنةِ الساكنينَ في أرضِها في نقصٍ عظيم بالإضافةِ إلى مَن فَوْقَهُم، وهم يعلمونَ فَضْلَ أولٰئكَ؛ فلو تفكَّروا فيما فاتَهم مِن ذٰلك؛ وقعتِ الحسراتُ؛ غيرَ أنَّ ذٰلك لا يكونُ؛ لأنَّ ذٰلك لا يقعُ لهم؛ لطيبِ منازِلِهم، ولا يقعُ في الجنةِ غمٌّ، ويرضى كلٌّ بما أُعْطِيَ مِن وجهينِ:

أحدُهُما: أنَّه لا يظنُّ أنْ يكونَ نعيمٌ فوقَ ما هُو فيهِ، وإنْ عَلَتْ منزلةُ غيرِهِ.

والثاني: أنَّه يُحَبَّبُ إليه كما يُحَبَّبُ إليه ولدُه المستوحِشُ الخِلْقةِ؛ فإنَّه يؤثِرُه على الأجنبيِّ المستحسنِ.

إلَّا أنَّ تحتَ هٰذا معنىً لطيفًا، وهو أنَّ القومَ خُلِقَتْ لهُم هممٌ قاصرةٌ في الدُّنيا عن طلبِ الفضائل، ويتفاوتُ قصورُها: فمنهُم مَن يَحْفَظُ بعضَ القرآنِ ولا يتوقُ إلى التَّمام، ومنهم مَن يَسْمَعُ يسيرًا من الحديثِ، ومنهم مَن يعرِفُ قليلًا من الفقهِ، ومنهم مَن قد رضيَ من كلِّ شيءٍ بيسيرِه، ومنهم مقتصِرٌ على الفرائضِ، ومنهم قَنُوعٌ بصلاةِ ركعتينِ في الليلةِ...

ولو عَلَتْ بهمُ الهِمَمُ؛ لجدَّتْ في تحصيل كلِّ الفضائل، ونَبَتْ[١] عن النقصِ، فاستخدمتِ البدنَ؛ كما قَال الشاعرُ[٢]:

---

(١) نبت: بعدت وتجافت.

(٢) أبو الطيب المتنبي، وقد سبقت ترجمته في (فصل ١٠٩).

ولكــلِّ جِسْمٍ في النُّحُــولِ بَلِيَّةٌ   وبَــلاءُ جِسْمي مِن تَفـاوُتِ هِمَّتي

ويدلُّ على تفاوتِ الهِمَم أنَّ في الناسِ مَن يَسْهَرُ في سَماعِ سَمَرٍ ولا يَسْهُلُ عليه السَّهَرُ في سماع القرآنِ!

والإنسانُ يُحْشَرُ ومعهُ تلكَ الهِمَّةُ، فيُعطى على مقدارِ ما حَصَّلَتْ في الدُّنيا؛ فكما لم تَتُق[1] إلى الكمالِ وقَنِعَتْ بالدُّونِ؛ قَنِعَتْ في الآخرةِ بمثل ذلك.

ثم إنَّ القومَ يتفكَّرونَ بعقولِهم، فيعلَمونَ أنَّ الجزاءَ على قَدْرِ العمل، ولا يَطْمَعُ مَن صلَّى ركعتينِ في ثوابِ مَن صلَّى ألفًا.

فإنْ قالَ قائلٌ: فكيفَ يُتَصَوَّرُ لها ألَّا تَرومَ ما نالَهُ مَن هو أفضلُ منها؟!

قلتُ: إنْ لم يُتَصَوَّرْ نيلُه؛ [فكيف] يُتَصوَّر الحزنُ على فوتِهِ؟! وهل رأيتَ عاميًّا يحـزنُ على فواتِ الفقـهِ حزنًا يُقْلِقُهُ؟! هيهاتَ! لو كانَ ذلك الحزنُ عندَه؛ لحرَّكَهُ إلى التشاغُلِ! فليس عندَهم هِمَّةٌ توجِبُ الأسفَ؛ مع أنَّهم قد رَضُوا بما هم فيه.

فافهمْ ما قلتُهُ، وبادِرْ؛ فهذا مَيْدانُ السباقِ.

٢٢٦ ـ فـصـل
[من حكم الإبقاء على أهل الكتاب]

تفكَّرْتُ في إبقاءِ اليهودِ والنَّصارى بينَنا وأخْذِ الجِزْيَةِ منهم، فرأيتُ في ذلك حِكَمًا عجيبةً: منها: ما قد ذُكِرَ أنَّ الإسلامَ كانَ ضعيفًا، فتقوَّى

---

(١) تاق: تشوق وبالغ في التشوق.

بما يُؤخَذُ مِن جزيَتِهِم. ومنها: ظهورُ عِزِّهِ بِذُلِّهِم... إلى غيرِ ذٰلك مما قد قيلَ.

ووقع لي فيه معنىً عجيبٌ، وهو أنَّ وجودَهم وتعبُّدَهم وحفظَهم شَرْعَ نبيِّهم ﷺ دليلٌ على أنَّه قد كانَ أنبياءُ وشرائعُ وأنَّ نبيَّنا ﷺ ليس بِبِدْعٍ من الرُّسُل، فقدِ اجتمعتِ الجنُّ وهم على إثباتِ صانعٍ وإقرارٍ برسُل، فبانَ أننا ما ابْتَدَعْنا ما لَمْ يَكُنْ.

وهم يصبِرونَ على باطِلِهم، ويؤدُّونَ الجزيةَ؛ فكيفَ لا نَصْبِرُ على حقٍّ، والدولةُ لنا[1]، وفي بقائِهِم احترامٌ لما كانَ صحيحًا مِن الدِّينِ، ولِيَرْجِعَ متبصِّرٌ، ولِيَسْتَعْمِلَ مفكِّرٌ.

٢٢٧ ـ فصل

[في أشرف العلوم وبعض الوصايا النافعة لطلاب العلم]

قد ثَبَتَ بالدَّليل شَرَفُ العلم وفَضْلُه؛ إلَّا أنَّ طلابَ العلم افْتَرَقوا؛ فكلٌّ تدعوهُ نفسُه إلى شيءٍ:

فمنهم مَن أذهبَ عُمُرَهُ في القراءاتِ، وذاك تفريطٌ في العُمُرِ؛ لأنَّه إنما ينبغي أن يعتمدَ على المشهورِ منها لا على الشاذِّ، وما أقبحَ القارئَ يُسْأَلُ عن مسألةٍ في الفقهِ وهو لا يدري! وليسَ ما شَغَلَهُ عن ذٰلك إلَّا كَثْرَةُ الطرقِ في رواياتِ القراءاتِ!!

ومنهم من يَتَشاغَلُ بالنَّحْوِ وعللِهِ فحسبُ!

---

(١) كان هٰذا في أيام ابن الجوزي يرحمه الله!! أيام أعز المسلمون الإسلام فأعزهم الله ورفعهم، وأما اليوم؛ فأنت أعرف بالحال، وإلى الله المشتكى.

ومنهم مَن يَتشاغَلُ باللغةِ فحسبُ!

ومنهم مَن يَكْتُبُ الحديثَ، ويُكْثِرُ، ولا يَنْظُرُ في فَهْم ما كتبَ!

وقد رأيْنا في مشايِخنا المُحدِّثينَ مَن كانَ يُسألُ عن مسألةٍ في الصلاةِ؛ فلا يَدْري ما يقولُ! وكذٰلك القراءُ! وكذٰلك أهلُ اللغةِ والنحوِ!

وحدَّثني عبدُ الرحمٰن بنُ عيسى الفقيهُ؛ قال: حدَّثني ابنُ المنصوريِّ؛ قال: حَضَرْنا مع أبي محمدِ بنِ الخشَّاب[1] ـ وكان إمامَ الناسِ في النحوِ واللُّغةِ ـ، فتذاكَروا الفقهَ، فقالَ: سَلوني عمَّا شئتُم! فقالَ له رجلٌ: إنْ قيلَ لَنا: رَفْعُ اليدينِ في الصَّلاةِ؛ ما هُوَ؟ فماذا نقولُ؟ فقالَ: هو ركنٌ! فَدُهِشَتِ الجماعةُ مِن قلةِ فقهِهِ.

وإنَّما ينبغي أنْ يأخُذَ مِن كلِّ علم طَرَفًا، ثم يهتمَّ بالفقهِ، ثم يَنْظُرَ في مقصودِ العلوم، وهو المعاملةُ للهِ سبحانَه والمعرفةُ بِهِ والحبُّ له.

وما أبْلَهَ[2] مَن يَقْطَعُ عُمُرَهُ في معرفةِ علم النُّجوم! وإنَّما يَنْبَغي أنْ يَعْرِفَ مِن ذٰلك اليسيرَ والمنازلَ لعلم الأوقاتِ، فأمَّا النظرُ فيما يُدَّعى أنَّه القضاءُ والحُكْمُ؛ فجهلٌ محضٌ؛ لأنَّه لا سبيلَ إلى علم ذٰلك حقيقةً، وقدْ جُرِّبَ فبانَ جَهْلُ مدَّعيهِ، وقد تقعُ الإصابةُ في وقتٍ، وعلى تقديرِ الإصابةِ؛ لا فائدةَ فيه إلَّا تعجيلُ الغمِّ! فإنْ قالَ قائلٌ: يُمْكِنُ دَفْعُ ذٰلك؛ فقدْ سَلَّمَ أنَّه لا حقيقةَ لهُ[3]!

---

(١) الشيخ، الإمام، العلامة، المحدث، إمام النحو، عبد الله بن أحمد، قيل: بلغ في العربية رتبة أبي علي الفارسي، ولد سنة ٤٩٢هـ، وتوفي سنة ٥٦٧هـ. انظر ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٣ / ١٠٢)، «سير أعلام النبلاء» (٢٠ / ٥٢٣).

(٢) الصواب أن يقال: ما أشد بلاهة! وهٰذا غلط كثر وقوع المصنف فيه رحمه الله.

(٣) يعني: النظر في النجوم الصواب فيه معرفة المنازل من أجل الأوقات ومعرفتها، =

وأبلهُ مِن هٰؤلاء مَن يَتشاغَلُ بعلم الكيمياءِ[1]؛ فإنَّه هَذَيانٌ فارغٌ، وإذا كانَ لا يُتَصَوَّرُ قَلْبُ الذهبِ نُحاسًا؛ لم يُتَصَوَّرْ قَلْبُ النحاسِ ذهبًا؛ فإنَّما فاعِلُ هٰذا مستحِلٌّ للتدليسِ على الناسِ في النقودِ. هٰذا إذا صحَّ لهُ مرادُه!

وينبغي لطالبِ العلم أنْ يُصَحِّحَ قصدَه؛ إذْ فقدانُ الإخلاصِ يَمْنَعُ قَبولَ الأعمالِ! ولْيَجْتَهِدْ في مجالسةِ العلماءِ، والنظرِ في الأقوالِ المختلفةِ، وتحصيلِ الكُتُبِ؛ فلا يَخْلو كتابٌ من فائدةٍ! ولْيَجْعَلْ هِمَّتَهُ للحفظِ، ولا ينظرْ ولا يكتبْ إلَّا وقتَ التعبِ من الحفظِ! ولْيَحْذَرْ صحبةَ السُّلطانِ! ولْيَنْظُرْ في منهاجِ الرسول ﷺ والصَّحابةِ والتابعينَ! ولْيَجْتَهِدْ في رياضةِ نفسِه والعملِ بعلمِهِ!

ومَنْ تولَّاهُ الحقُّ؛ وَفَّقَهُ.

٢٢٨ـ فصل

[الكبر أصل الكفر]

طالَ تعجُّبي من أقوامٍ لهم أَنَفَةٌ، وعندَهم كِبْرٌ زائدٌ في الحدِّ!

خُصوصًا العربَ الذين مِن كلمةٍ ينفِرونَ ويحاربونَ ويَرْضَوْنَ بالقَتْلِ! حتى إنَّ قومًا منهم أدركوا الإسلامَ، فقالوا: كيفَ نَرْكَعُ ونسجُدُ فَتَعْلونا

= وأما معرفة ما سيقع من القضاء والقدر؛ فدجل لا أصل له؛ يصيب حينًا، ويخطىء أحيانًا؛ فإن أصاب؛ فما استفاد الإنسان إلا تعجيل معرفة المصيبة وتوجسها، فإن قيل: ربما عمل على تفاديها، فتفاداها؛ فمعنى هٰذا القول أن ما قالته النجوم من وقوع المصيبة لم يكن صوابًا.

(١) كان غاية الكيميائيين في عصر المصنف رحمه الله تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة، ولذٰلك ذم هٰذا العلم ووصفه بالهذيان.

أستاهنا[١]؟! فقالَ رسول الله ﷺ: «لا خَيْرَ في دينٍ ليسَ فيه رُكوعٌ ولا سُجودٌ»[٢]. ومع هٰذه الأنَفَةِ؛ يَذِلُّونَ لِمَنْ هُم خيرٌ منهُ؛ هٰذا يَعْبُدُ حَجَرًا! وهٰذا يَعْبُدُ خشبةً! وقد كان قومٌ يعبُدونَ الخيلَ والبقرَ!

وإنَّ هٰؤلاءِ لأخسُّ من إبليسَ؛ فإنَّ إبليسَ أنِفَ ـ لادِّعائِهِ الكمالَ ـ أنْ يَسْجُدَ لناقصٍ، فقال: ﴿أنا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [صٓ: ٧٦]! وفرعونُ أنِفَ أنْ يَعْبُدَ شيئًا أصلًا[٣]!

فالعجبُ من ذلِّ هٰؤلاءِ المفتخِرينَ المتعاظِمينَ المتكبِّرينَ لحجرٍ أو خشبةٍ! وإنما ينبغي أن يَذِلَّ الناقصُ للكاملينَ!!

وقد أُشيرَ إلى هٰذا في ذَمِّ الأصنام في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرونَ بِها﴾ [الأعراف: ١٩٥]، والمعنى: أنتم لكم هٰذه الآلاتُ المدرِكةُ، وهم ليس لهم؛ فكيفَ يَعْبُدُ الكاملُ الناقصَ؟!

غيرَ أنَّ هوى القوم في متابعةِ الأسلافِ واستحلاءِ ما اخترعوهُ بآرائِهِم غطَّى على العقولِ فلمْ تتأمَّلْ حقائقَ الأمورِ!

---

(١) الأستاه: الأعجاز.

(٢) (ضعيف). رواه: أحمد (٤ / ٢١٨)، وأبو داوود (١٤ ـ كتاب الخراج والفيء، ٢٥ ـ باب ما جاء في خبر الطائف، ٢ / ١٧٨ / ٣٠٢٦)؛ من طريق حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن، عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه.

قال المنذري في «مختصر السنن» (٤ / ٢٤٤): «قد قيل: إن الحسن البصري لم يسمع من عثمان بن أبي العاص». وبه جزم الحافظ في «التهذيب»؛ فالسند ضعيف لانقطاعه، وضعفه الألباني.

(٣) يعني: وهم أيضًا أخس من فرعون؛ لأنه لم يعبد أحدًا أصلًا.

ثم غطَّى الحسدُ على أقوامٍ فتَرَكوا الحقَّ وقد عَرَفوهُ!

فأميةُ بنُ أبي الصَّلْتِ يُقِرُّ برسول اللهِ ﷺ، ويقصِدُه لِيؤمنَ به، ثم يعودُ فيقولُ: لا أؤمنُ برسول ليسَ من ثقيفٍ(١)!

وأبـو جهـلٍ يقولُ: واللهِ؛ ما كَذَبَ محمدٌ قطُّ، ولٰكنْ؛ إذا كانتِ السِّدانَةُ والحجابةُ في بني هاشم ثم النبوَّةُ؛ فما بَقِيَ لنا(٢)؟!

وأبو طالبٍ يرى المعجزاتِ، ويقولُ: إني لأعلمُ أنَّكَ على الحقِّ، ولولا أن تُعَيِّرَني نساءُ قريشٍ؛ لأقْرَرْتُ بها عَيْنَكَ(٣).

فنعوذُ بالله من ظُلمةِ حَسَدٍ وغِيابةِ كِبْرٍ وحماقةِ هوىً يغطِّي على نورِ العقلِ، ونسأَلُهُ إلهامَ الرُّشْدِ والعملَ بمقتضى الحقِّ.

٢٢٩ ـ فصل
[في أحوال الصالحين]

قدْ سَمِعْنا بجماعةٍ من الصالحينَ عامَلوا اللهَ عزَّ وجلَّ على طريقِ

(١) أمية بن أبي الصلت شاعر من شعراء الطبقة الأولى، أكثر في شعره من ذكر الآخرة، وقد سمع النبي ﷺ شعره واستزاد منه؛ كما تقدم في (فصل ١٦٢)، مات سنة ٥هـ في الطائف. انظر ترجمته وخبره هٰذا في: «تاريخ ابن عساكر» (٩ / ٢٥٥).

(٢) انظر: «الكامل لابن الأثير» (١ / ٥٩٤)، «السيرة الحلبية» (٢ / ٣٣)، «سيرة ابن هشام».

(٣) تقدم خبر أبي طالب عم النبي ﷺ في (فصل ١٩٢).
وهٰذا الخبر رواه مسلم (١ ـ كتاب الإيمان، ٩ ـ باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت، ١ / ٥٥ / ٢٥)؛ من حديث أبي هريرة.

السلامةِ والمحبةِ واللُّطفِ، فعامَلَهم كذٰلك؛ لأنَّهم لا يحتمِلُ طبعُهم غيرَ ذٰلك.

ففي الأوائل برخُ العابدُ؛ خَرَجَ يستسقي، فقالَ مناجيًا اللهَ: ما هٰذا الذي لا نعرِفُه منك؟! اسْقِنا الساعةَ! فَسُقوا(١).

وفي الصحابةِ أنسُ بن النَّضرِ؛ يقولُ: واللهِ؛ لا تُكْسَرُ سِنُّ الرُّبَيِّعِ. فجرَى الأمرُ كما قالَ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ مِنْ عبادِ اللهِ مَنْ لو أقسَمَ على اللهِ؛ لأبَرَّهُ»(٢).

وهٰؤلاءِ قومٌ غَلَبَ عليهمْ ملاحظةُ اللُّطفِ والرِّفْقِ، فلُطِفَ بهم، وأُجْروا على ما اعْتَقَدوا.

وهناكَ أعلى مِن هٰؤلاء؛ يَسْألونَ فلا يُجابونَ، وهم بالمنع راضونَ، ليسَ لأحدِهِمْ انبساطٌ، بل قد قيَّدَهُمُ الخوفُ، ونَكَسَ رؤوسَهم الحَذَرُ، ولم يَرَوْا ألسنتَهُم أهلًا للانبساطِ؛ فغايةُ آمالِهِمُ العفوُ؛ فإنِ انبسطَ أحدُهم بسؤالٍ، فلم يَرَ الإجابةَ؛ عادَ على نفسِهِ بالتَّوْبيخ، فقالَ: مثلُكَ لا يُجابُ! وربَّما قالَ: لعلَّ المصلحةَ في منعي.

وهٰؤلاءِ الرجالُ حقًّا.

والأبلهُ الذي يرى له من الحقِّ أنْ يُجابَ؛ فإنْ لم يُجَبْ؛ تَذَمَّرَ في باطنِهِ، كأنَّه يَطْلُبُ أجرةَ عملِهِ، وكأنَّه قد نَفَعَ الخالقَ بعبادتِهِ!

وإنما العبدُ حقًّا مَن يرضى ما يفعلُهُ الخالقُ؛ فإنْ سألَ، فأجيبَ؛

(١) لعله برخيا بن أحنيا من ذرية يهوذا! ذكره الطبري في «تاريخه» (١ / ٣٢٦)!
(٢) تقدم ذكر هٰذه القصة وتخريجها في (فصل ٩٠).

رأى ذٰلك فضلًا، وإن مُنِعَ؛ رأى تَصَرُّفَ مالكٍ في مملوك، فلم يَجُلْ في قلبِهِ اعتراضٌ بحالٍ.

٢٣٠ـ فـصـل

[العلم النافع يورث استصغار النفس واحتقار العمل]

رأيتُ جماعةً مِن العلماءِ يتفسَّحونَ[١]، ويظُنُّونَ أنَّ العلمَ يَدْفَعُ عنهم! وما يَدْرونَ أنَّ العلمَ خَصْمُهم! وأنَّه يُغْفَرُ للجاهلِ سبعونَ ذنبًا قبلَ أن يُغْفَرَ للعالم ذنبٌ[٢]، وذاكَ لأنَّ الجاهلَ لم يتعرَّضْ بالحقِّ والعالمَ لم يتأدَّبْ معه.

ورأيتُ بعضَ القـوم يقـولُ: أنـا قد ألقيتُ مِنْجَلي بين الحصَّادينَ ونِمْتُ! ثم كان يتفسَّحُ في أشياءَ لا تجوزُ!!

فتفكَّـرتُ؛ فإذا العلمُ ـ الـذي هو معرفةُ الحقائقِ، والنظرُ في سيرِ القـدمـاءِ، والتـأدُّبُ بآدابِ القوم، ومعرفةُ الحقِّ وما يَجِبُ له ـ ليسَ عندَ القوم، وإنما عندَهـم صُوَرُ ألفاظٍ يعرفون بها ما يَحِلُّ وما يَحْرُمُ، وليس ذٰلك العلمَ النـافـعَ، إنمـا العلمُ فَهْمُ الأصـولِ، ومعرفةُ المعبودِ وعظمتِهِ وما يستحقُّه، والنظرُ في سيرِ الرسول ﷺ وصحابتِهِ، والتأدُّبُ بآدابِهم، وفَهْمُ ما نُقِلَ عنهم، هو العلمُ النافعُ الذي يَدَعُ أعظمَ العلماءِ أحقرَ عندَ نفسِهِ من أجهلِ الجهَّال.

ورأيتُ بعضَ مَن تعبَّدَ مدةً ثم فَتَر، فبَلَغني أنه قال: عَبَدْتُهُ عبادةً ما عَبَدَهُ بها أحدٌ!! والآنَ قد ضَعُفْتُ. فقلتُ: ما أخْوَفَني أن تكونَ كَلِمَتُهُ هٰذه

(١) يتفسحون: يتوسعون في استعمال الرخص.

(٢) ذكره في «الحلية» (٧/٢٨٦، ٨/١٠٠) من كلام الفضيل بن عياض.

سببًا لردِّ الكلِّ! لأنَّه قد رأى أنَّه عَمِلَ مع الحقِّ شيئًا، وإنما وَقَفَ يسأَلُ النجاةَ بطَلَبِ الدرجاتِ؛ ففي حقِّ نفسِهِ فَعَلَ، وما مَثَلُهُ إلَّا كَمَثَل مَن وَقَفَ يُكْدِي؛ فلا ينبغي أن يَمُنَّ على المُعْطي[١].

وإنَّما سببُ هٰذا الانبساطِ الجهلُ بالحقائقِ.

وأينَ هو من كبارِ علماءِ المعاملةِ، الذين كان فيهم مثلُ صِلَة بن أشيمَ؛ إذا رآه السَّبُعُ؛ هَرَبَ منه، وهو يقولُ إذا انقضى الليلُ عندَ صلاتِهِ: يا ربِّ! أجِرْني من النارِ، أوَمِثْلِي يَسْأَلُ الجنَّةَ[٢]؟! وأبلغُ من ذا قولُ عمرَ: وَدِدْتُ أنْ أنْجُوَ كَفافاً لا لي ولا عليَّ[٣]! وقولُ سفيانَ عند موتِهِ لحمادِ بن سلمةَ: أترجو لمثلي أنْ يَنْجُوَ من النارِ[٤]. وقولُ أحمدَ: لا؛ بعدُ[٥].

فأنا أحمدُ الله عزَّ وجلَّ إذْ تَخَلَّصْتُ مِن جَهْلِ المُتَسَمِّينَ بالعلمِ مِن هٰؤلاءِ الذين ذَمَمْتُهُم، وبالزهدِ من هٰؤلاءِ الذين عِبْتُهم؛ فإنِّي قد اطَّلعتُ مِن

---

(١) شبهه بالذي يستعطي الناس ويستجدي منهم؛ فلا ينبغي لمثله أن يمن على أحد منهم!

(٢) صلة بن أشيم هو الزاهد، العابد، القدوة، التابعي، قتل سنة ٦٢هـ في معركة مع الترك بسجستان. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٣ / ٤٩٧). وانظر خبره هٰذا في: «الحلية» (٢ / ٢٤٠).

(٣) رواه البخاري (٦٢ ـ كتاب فضائل الصحابة، ٨ ـ باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان، ٧ / ٥٩ / ٣٧٠٠).

(٤) تقدمت ترجمة سفيان في (فصل ١٩).

(٥) قالها رضي الله عنه في نزعه، فسئل عن ذٰلك، فقال: «إبليس لعنه الله قائم بحذائي، وهو عاض على أنامله؛ يقول: يا أحمد! فتْني. وأنا أقول: لا بعدُ». انظر: «سير أعلام النبلاء» (١١ / ٣٤١).

عظمةِ الخالقِ وسِيَرِ المحقِّقينَ على ما يُخْرِسُ لسانَ الانبساطِ، ويَمْحو النَّظَرَ إلى كلِّ فعلٍ.

وكيفَ أنظُرُ إلى فعلي المستحسنِ؛ وهُو الذي وَهَبَهُ لي وأطلعني على ما خَفِيَ عن غيري؟! فهل حَصَلَ ذٰلكَ بي أو بلطفِهِ؟ وكيفَ أشكُرُ توفيقيَ الشُّكْرَ؟!

ثم أيُّ عالم إذا سَبَرَ أمورَ العلماءِ من القدماءِ لا يَحْتَقِرُ نفسَه؟! هٰذا في صورةِ العلم، فَدَعْ معناهُ. وأيُّ عابدٍ يسمعُ بالعُبَّادِ، ولا يجري في صورةِ التعبُّدِ؟! فدعِ المعنى.

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ معرفةً تُعَرِّفُنا أقدارَنا حتى لا يَبْقى للعُجْبِ بمُحْتَقَرِ ما عندَنا أثرٌ في قلوبِنا، ونرغَبُ إليه في معرفةٍ لعظمتِهِ تُخْرِسُ الألسنَ أنْ تَنْطِقَ بالإدلالِ، ونَرْجو من فضلِهِ توفيقًا نلاحِظُ به آفاتِ الأعمالِ التي بها نَزْهو حتى تُثْمِرَ الملاحظةُ لِعُيوبِها الخجَلَ من وجودِها؛ إنه قريبٌ مجيبٌ(١).

٢٣١ ـ فصل

[طيب العيش مرهون بالصبر والرضا]

سببُ تنغيصِ العيشِ فواتُ الحظوظِ العاجلةِ.

وليسَ في الدُّنيا طِيبُ عيشٍ على الدَّوام إلَّا للعارفِ الذي شَغَلَهُ رضى حبيبِهِ والتزودُ للرَّحيل إليهِ؛ فإنَّه إن وَجَدَ راحةً في الدُّنيا؛ استعانَ بها

---

(١) إي والله، فرحم الله ابن الجوزي على هٰذا الفصل الماتع.

على طلب الآخرةِ، وإن وَجَدَ شِدَّةً؛ اغتنمَ الصبرَ عليها لثوابِ الآخرةِ؛ فهو راضٍ بكلِّ ما يجري عليه، يرى ذٰلك من قضاءِ الخالقِ، ويعلمُ أنَّه مرادُهُ؛ كما قالَ قائِلُهم:

إنْ كانَ رِضاكُمْ في سَهَري فَسلامُ اللهِ على وَسَني

فأمّا مَن طَلَبَ حَظَّهُ؛ فإنَّه يَقْلَقُ لِفَوْتِ مُرادِهِ، ويتنغَّصُ لبعدِ ما يشتهي؛ فلو افتقرَ؛ تَغَيَّرَ قلبُه، ولو ذَلَّ؛ تَغَيَّرَ، وهٰذا لأنَّه قائمٌ مع غرضِهِ وهواهُ.

وما أحسنَ قولَ الحُصْرِيِّ: إيشٍ عليَّ مني؟! وإيشٍ لي فيَّ[1]؟!

وهٰذا كلامُ عارفٍ؛ لأنَّه إنْ يَنْظُرْ إلى حقيقةِ المُلْكيَّة؛ فعبدٌ يتصرَّفُ فيه مولاهُ؛ فاعتراضُهُ لا وَجْهَ له، وإرادتُهُ أنْ يَقَعَ غيرُ ما يَجِبُ[2] فُضولٌ في البَيْنِ. وإن نَظَرَ أنَّ النفسَ كالمُلْكِ لهُ؛ فقد خرجتْ عن يدِهِ مِن يوم: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرى﴾ [التوبة: ١١١]؛ أفَيَحْسُنُ لِمَنْ باعَ شاةً أن يَغْضَبَ على المشتري إذا ذَبَحَها أو يتغيَّر قلبُهُ؟!

واللهِ؛ لو قالَ المالكُ سبحانَه: إنَّما خَلَقْتُكُم لِيُسْتَدَلَّ على وجودي، ثم أنا أُفْنيكُم، ولا إعادةَ! لكانَ يَجِبُ على النفوسِ العارفةِ به أنْ تقولَ: سَمْعًا لما قلتَ وطاعةً، وأيُّ شيءٍ لنا فينا حتَّى نتكلَّمَ؟! فكيفَ وقدْ وَعَدَ بالأجرِ الجزيلِ والخُلودِ في النعيمِ الذي لا يَنْفَدُ؟!

---

(١) هما حصريان شاعران ابنا خالة؛ فأحدهما إبراهيم بن علي بن تميم القيرواني المتوفى سنة ٤٥٣هـ، والآخر علي بن عبد الغني القيرواني المتوفى سنة ٤٨٨هـ، والغالب أنه هٰذا الأخير. وانظر: «سير أعلام النبلاء» (١٨ / ١٣٩، ١٩ / ٢٦).

(٢) يعني: أن يقع غير ما قضاه الله سبحانه وتعالى وأوجبه.

لَكِنَّ طريقَ الوصول تحتاجُ إلى صبرٍ على المشقَّةِ، وما يبقى لِتَعَبِ رَمْلِ زَرُود أثرٌ إذا لاحَ الحَرَمُ(١).

فالصبرَ الصبرَ يا أقدامَ المبتدئينَ! لاحَ المنزِلُ. والسرورَ السرورَ يا متوسطينَ! ضُرِبَتِ الخِيَمُ. والفرحَ الكاملَ يا عارفينَ! قد تُلُقِّيْتُم بالبشائِرِ. . .

زالتْ واللهِ أثقالُ المعاملاتِ عنكُم، فكانتْ معرفتُكُم بالمبتلي حلاوةً أعْقَبَتْ شُرْبَةَ المجاهدةِ، فلم يَبْقَ في الفم للمُرِّ أثرٌ. . . تَخايلوا قُرْبَ المناجاةِ ولَذَّةَ الحضورِ ودوار كؤوسِ الرِّضى عنكُم؛ فقد أخذتْ شمسُ الدُّنيا في الأفولِ:

ما بَيْنَنا إلَّا تَصَرْ ... رُمُ هٰذِهِ السَّبْعِ البَواقي(٢)
حَتَّى يَطولَ حَدِيثُنا ... بِصُنوفِ ما كُنَّا نُلاقي

٢٣٢ ـ فصل
[ربما كان منع الله لطفاً بعبده]

تفكَّرْتُ في قول شيبانَ الراعي لسفيانَ: يا سفيانُ! عُدَّ منعَ اللهِ إياكَ عطاءً منه لكَ؛ فإنَّه لم يَمْنَعْكَ بُخلاً، إنما مَنَعَكَ لُطْفًا(٣). فرأيتُه كلامَ مَن

(١) زرود: بادية كثيرة الرمل صعبة الممشى قريبة من مكة، والمعنى: إذا ظهر الحرم للحاج والمعتمر؛ هان عليه تعبه في الطريق.

(٢) تصرم: انقضاء، وفي الأصول: «ما بيننا له إلا تصرم...»! ولا يستوي به وزن ولا معنى، والتصويب من بعض المطبوعات.

(٣) شيبان الراعي ترجم له صاحب «حلية الأولياء» (٨ / ٣١٧) ترجمة مختصرة.

قد عَرَفَ الحقائقَ.

فإنَّ الإنسانَ قد يريدُ المستَحْسَناتِ الفائقاتِ فلا يَقْدِرُ، وعَجْزُهُ أصلحُ له؛ لأنَّه لو قَدَرَ عليهنَّ؛ تشتَّتَ قلبُه: إما بِحِفْظِهِنَّ، أو بالكسبِ عليهنَّ. فإنْ قَوِيَ عِشْقُهُ لهنَّ؛ ضاعَ عُمُرُهُ، وانقلبَ هَمُّ الآخرةِ إلى الاهتمام بهنَّ. فإنْ لم يُرِدْنَهُ؛ فذاكَ الهلاكُ الأكبرُ. وإنْ طَلَبْنَ نفقةً؛ لم يُطِقْها؛ كانَ سببَ ذَهابِ مروءتِهِ وهلاكِ عِرْضِهِ. وإن أرَدْنَ الوطءَ وهو عاجزٌ؛ فربَّما أهلَكْنَهُ أو فَجَرْنَ. وإن ماتَ معشوقُهُ؛ هلكَ هو أسفًا. فالذي يَطْلُبُ الفائِقَ يَطْلُبُ سكِّينًا لذبحِهِ وما يعلمُ.

وكذلك إنفاذُ قَدْرِ القوتِ؛ فإنَّه نعمةٌ[1]، وفي «الصحيحين»: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «اللهمَّ! اجعلْ رِزْقَ آلِ محمدٍ قوتًا»[2]. ومتى كَثُرَ؛ تشتَّتَ الهمُّ.

فالعاقلُ مَن عَلِمَ أنَّ الدُّنيا لم تُخْلَقْ للتَّنعيم، فَقَنَعَ بدفعِ الوقتِ على كلِّ حال.

٢٣٣ ـ فصل

[التعلل بالأقدار سبيل الكسالى والبطالين]

رأيتُ جماعةً من الخَلْقِ يَتَعَلَّلونَ بالأقدارِ، فيقولُ قائِلُهم: إنْ وُفِّقْتُ؛ فعلتُ!

---

(١) يعني: تقليله وجعله في حد الكفاية.

(٢) تقدم تخريجه في (فصل ٢١٥).

وهٰـذا تعلُّلٌ باردٌ، ودفـعٌ للأمرِ بالرَّاحِ (١)، وهو يُشيرُ إلى رَدِّ أقوالِ الأنبياءِ والشرائعِ جميعِها؛ فإنَّه لو قالَ كافرٌ للرسولِ: إنْ وَفَّقني؛ أسلمتُ! لم يُجِبْهُ إلاَّ بضربِ العُنُقِ.

وهٰذا من جنس قولِ الناس لعليٍّ رضيَ اللهُ عنه: ندعوكَ إلى كتابِ اللهِ. فقـالَ: كلمـةُ حقٍّ أريدَ بهـا باطـلٌ (٢)، وكذٰلك قولُ الممتنعينَ عن الصَّدَقَةِ: ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يٰسٓ: ٤٧]!

ولَعَمري إنَّ التوفيقَ أصلُ الفعل، ولٰكنَّ التوفيقَ أمرٌ خفيٌّ، والخطابُ بالفعل أمرٌ جليٌّ؛ فلا ينبغي أن يُتَشاغَلَ عنِ الجليِّ بِذِكْرِ الخفيِّ.

ومما يَقْطَعُ هٰذا الاحتجاجَ أنْ يُقالَ لهٰذا القائل: إنَّ اللهَ سبحانَه لم يُكَلِّفْكَ شيئًا إلاَّ وعندَكَ أدواتُ ذٰلك الفعل ولكَ قدرةٌ عليه: فإنْ كانتِ القدرةُ عليه معدومةً، والأدواتُ غيرَ محصَّلةٍ؛ فلا أمرَ ولا تَكْليفَ. وإن كنتَ تسعى بتلك الأدواتِ في تحصيل غَرَضِكَ وهواكَ؛ فاسْعَ بها في إقامةِ مفروضِكَ.

مثـالُ ذٰلك: أنَّك تسافِرُ في طلب الرِّبْح، وتُسْأَلُ الحجَّ فلا تَفْعَلُ! ويَثْقُلُ عليكَ الانتباهُ بالليل؛ فلو أردتَ الخروجَ إلى العيدِ؛ انتبهتَ سَحَرًا! وتَقِفُ في بعضِ أغـراضِـك مع صديقٍ تحادِثُهُ ساعاتٍ؛ فإذا وَقَفْتَ في الصلاةِ؛ اسْتَعْجَلْتَ وثَقُلَ عليكَ!

فإيَّاكَ إيَّاكَ أنْ تَتَعَلَّقَ بأمرٍ لا حُجَّةَ لكَ فيه! ثم مِن نصيبِكَ يَنْقُصُ،

---

(١) يعني: هٰذا رد لأوامر الله ونواهيه بالأيدي.

(٢) قال ذٰلك رضي الله عنه وأرضاه للخوارج الذين دعوا للاحتكام إلى كتاب الله، والأخبار في ذٰلك مشهورة، وانظر: «البداية والنهاية» (٦ / ٦٥).

ومن حَظِّكَ يَضيعُ؛ فإنما تُحَرَّكُ لكَ، وإنما تُحَرَّضُ لنفعِكَ؛ فبادِرْ؛ فإنك مبادَرٌ بك!

ومما يزيلُ كَسَلَكَ ـ إنْ تأمَّلْتَهُ ـ أنْ تتخايَلَ ثوابَ المجتهدينَ وقد فاتَكَ! ويكفي ذلك في توبيخ المقصِّرِ إنْ كانتْ له نفسٌ؛ فأما الميِّتُ الهمَّةِ؛ فـ:

ما لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

كيفَ بكَ إذا قمتَ مِن قبرِكَ؛ وقد قُرِّبَتْ نجائِبُ[1] النجاةِ لأقوام وتَعَثَّرْتَ، وأسرعتْ أقدامُ الصالحينَ على الصراطِ وتَخَبَّطْتَ؟! هيهاتَ! ذَهَبَتْ حلاوةُ البَطالةِ وبقيتْ مرارةُ الأسفِ، ونَضَبَ ماءُ كأسِ الكسل وبَقِيَ رُسوبُ الندامةِ[2]!

وما قَدْرُ البقاءِ في الدُّنيا بالإضافةِ إلى دوام الآخرةِ؟!

ثم ما قَدْرُ عُمُرِكَ في الدُّنيا؛ ونِصْفُهُ نومٌ، وباقيه غفلةٌ؟!

فيا خاطبًا حورَ الجنَّةِ وهو لا يملِكُ فَلْسًا من عزيمةٍ! افتحْ عينَ الفكرِ في ضَوْءِ العِبَرِ لعلَّكَ تُبْصِرُ مواقعَ خطابِكَ! فإنْ رأيتَ تَثْبيطًا من الباطنِ؛ فاسْتَغِثْ بعونِ اللُّطْفِ، وتنبَّه في الأسحارِ؛ لعلَّك تتلمَّحُ رَكْبَ الأرباحِ! وتعلَّقْ على قطارِ المستغفرينَ ولو خُطُواتٍ، وانْزِلْ في رِباعِ المجتهدينَ ولو منزلًا؛ أيَّ منزلٍ!

---

(١) النجائب: خيار الإبل وسوابقها.

(٢) شبه الكسل بكأس شراب يتعلل به صاحبه؛ فإذا ما انتهى ما في الكأس ونضب؛ بقي الثفل الراسب الذي يؤذي شاربه.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

٢٣٤ ـ فصل

[الإعراض عن السنة أصل البدع والضلالات]

نظرتُ في قول أبي الدَّرْداء رضيَ اللهُ عنهُ: ما أعرِفُ شيئًا مما كُنَّا عليه اليومَ إلَّا القبلةَ[١]!

فقلتُ: وا عجبًا! كيفَ لو رآنا اليومَ؛ وما معنا من الشريعة إلَّا الرَّسْمُ[٢]؟!

والشريعةُ هي الطريقُ.

وإنما تُعْرَفُ شريعةُ رسولِ اللهِ ﷺ إمّا بأفعالِهِ أو أقوالِهِ.

وسببُ الانحرافِ عن طريقِهِ ﷺ: إمّا الجهلُ بها؛ فيجري الإنسانُ مع الطبعِ والعاداتِ، وربما اتَّخَذَ ما يضادُّ الشريعةَ طريقًا، وقد كانتِ الصحابةُ شاهَدَتْهُ وسمعتْ منه، فَقَلَّ أنْ يَنْحَرِفَ أحدٌ منهم عن جادَّتِهِ. إلَّا أنَّ أبا الدرداءِ رضي الله عنه رأى بعضَ الانحرافِ لميل الطِّباع، فضَجَّ؛ فإنَّه قد يعرِفُ الإنسانُ الصوابَ؛ غيرَ أنَّ طبعَه يَميلُ عنهُ[٣].

وما زالتِ الأحاديثُ المنقولةُ عن الرَّسولِ ﷺ وأصحابِهِ رضي اللهُ عنهم يَقِلُّ الإسعادُ[٤] بها والنَّظَرُ فيها إلى أن أُعْرِضَ عنها بالكُلِّيَّةِ في زمانِنا هٰذا، وجُهِلَتْ؛ إلَّا النادرَ، واتُّخِذَتْ طرائقُ تُضادُّ الشريعةَ، وصارتْ

(١) انظره في: «الزهد» لأحمد (ص ١٧٢)، و«الحلية» لأبي نعيم (٦/ ٨٥).

(٢) يعني: ما نعرف حقيقة الشرع ولا تدين به قلوبنا، ولٰكنها مظاهر وشكليات.

(٣) وهٰذا هو السبب الثاني للانحراف عن طريق النبي ﷺ الذي لم يصرح به المصنف رحمه الله، وقد صرح بالأول قبل قليل.

(٤) يعني: يقل اعتمادها والعمل بما فيها من أوامر ونواه.

عاداتٍ، وكانتْ أسهلَ عندَ الخَلْقِ مِن اتِّباع الشريعةِ.

وإذا كانَ عامَّةُ مَن يُنْسَبُ إلى العلم قد أعْرَضَ عن علومِ الشريعةِ؛ فكيفَ العوامُّ؟!

ولما أعْرَضَ كثيرٌ من العلماءِ عن المنقولاتِ؛ ابْتَدَعوا في الأصول والفُروع:

فالأصوليُّونَ تشاغَلوا بالكلام وأخذوهُ مِن الفلاسفةِ وعلماءِ المَنْطِقِ!

ودخلتْ أيدي الفروعيِّينَ في ذلك، فتشاغَلوا بالجَدَل وتَركوا الحديثَ الذي يدورُ عليه الحُكْمُ!

ثم رأى القُصَّاصُ أنَّ النَّفاقَ بالنِّفاق(١): فأقبلَ قومٌ منهم على التَّلبيسِ بالزُّهْدِ، ومقصودُهُم الدُّنيا! ورأى جمهورُهُم أنَّ القلوبَ تميلُ إلى الأغاني، فأحضَروا المُطْربينَ من القُرَّاءِ، وأنشدوا أشعارَ الغَزَل، وتَركوا الاشتغالَ بالحديثِ، ولم يَلْتَفِتوا إلى نَهْي العوامِّ عن الرِّبا والزِّنى وأمرِهِم بأداءِ الواجباتِ! وصار متكلِّمُهُم يقطعُ المجلسَ بذِكْرِ ليلى والمجنونِ والطُّورِ وموسى وأبي يزيدَ والحلاَّج والهَذَيانِ الذي لا محصولَ له!

وانفردَ أقوامٌ بالتزهُّدِ والانقطاع، فامْتَنَعوا عن عيادةِ المَرْضى والمشي بينَ الناسِ، وأظهروا التَّخاشُعَ، ووضعوا كُتُبًا للرِّياضيَّاتِ والتقلُّل من الطعام، وصارتِ الشريعةُ عندَهُم كلامَ أبي يزيدَ والشبليِّ والمتصوِّفةِ(٢)!

---

(١) يعني: أن الرواج والانتشار ورضى الناس إنما يكون إذا داراهم على حساب أحكام الشريعة الغراء وأعطاهم ما يرغبون به!!

(٢) وقد تقدم تراجمهم في (فصل ١٩ و٨٦).

ومعلومٌ أنَّ مَن سَبَرَ(١) الشريعةَ؛ لم يَرَ فيها مِن ذاك شيئًا.

وأمّا الأمراءُ؛ فَجَرَوا مع العاداتِ، وسَمَّوْا ما يَفْعَلونَه من القَتْلِ والقَطْعِ سياساتٍ لم يَعْمَلوا فيها بمقتضى الشريعةِ! وتَبِعَ الأخيرُ في ذٰلك المتقدِّمَ.

فأين الشريعةُ المحمَّديَّةُ؟!

ومِن أينَ تُعْرَفُ مع الإعراضِ عن المنقولاتِ؟!

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ التوفيقَ للقيام بالشريعةِ، والإعانةَ على ردِّ البدعِ؛ إنَّه قادرٌ(٢).

٢٣٥ ـ فصل

[شهوات النفس لا تنتهي فإن رُدت إلى قليل رضيت]

كنتُ أسمعُ عليَّ بنَ الحسينِ الواعظَ يقولُ على المنبرِ: واللهِ؛ لقدْ بَكَيْتُ البارحةَ مِن يَدِ نفسي(٣).

فبَقيتُ أنا أتفكَّرُ وأقولُ: أيَّ شيءٍ قد فَعَلَتْ نفسُ هٰذا حتى يبكي؟! هٰذا رجلٌ متنعِّمٌ، له الجواري التركيَّاتُ، وقد بَلَغَني أنه تزوَّجَ في السِّرِّ بجُمْلَةٍ من النساءِ، ولا يَطْعَمُ إلَّا الغايةَ من الدَّجاج والحلوى، ولهُ الدَّخْلُ الكثيرُ، والمالُ الوافرُ، والجاهُ العريضُ، والأفضالُ على النَّاسِ، وقد

(١) سبر الشريعة: تعمق في فهمها ودراسة أصولها.

(٢) رحم الله ابن الجوزي؛ فقد ـ والله ـ وصف الداء حق الوصف، وعرف الدواء حق المعرفة... وأين عصرنا اليوم من عصره؟! فلو نظر إلى حالنا؛ فماذا عساه يقول؟!

(٣) هو الواعظ، الشهير، المحسن، الغزنوي، المتوفى في سنة ٥٥١هـ. انظر ترجمته في: «المنتظم» (١٠ / ١٦٦)، «سير أعلام النبلاء» (٢٠ / ٣٢٤).

حَصَّلَ طَرَفًا مِن العلم، واستعبدَ كَثيرًا مِن العلماءِ بمعروفِهِ، وراحتُهُ دائمةُ النَّدى؛ فما الذي يُبْكيهِ؟!

فتفكَّــرْتُ، فعلمتُ أنَّ النفسَ لا تَقِفُ عنــدَ حَدٍّ، بل تَرومُ[1] من اللَّذَّاتِ ما لا مُنْتَهى له، وكلَّما حَصَلَ لها غَرَضٌ؛ بَرَدَ عندَها وطلبتْ سِواه، فيفنى العُمُرُ، ويَضْعُفُ البدنُ، ويَقَعُ النَّقْصُ، ويَرِقُّ الجاهُ، ولا يَحْصُلُ المرادُ.

وليس في الدُّنيا أبلهُ ممَّن يَطْلُبُ النهايةَ في لَذَّاتِ الدُّنيا، وليس في الدُّنيا على الحقيقةِ لَذَّةٌ، إنَّما هي راحةٌ مِن مؤلم.

فالسعيدُ مَن إذا حَصَلَتْ لهُ امرأةٌ أو جاريةٌ، فمالَ إليها ومالَتْ إليه، وعَلِمَ سِتْرَها ودينَها: أن يَعْقِدَ الخِنْصَرَ على صُحبتِها.

وأكثرُ أسبابِ دوامِ محبَّتِها أنْ لا يُطْلِقَ بَصَرَهُ؛ فمتى أطْلَقَ أو أطْمَعَ نفسَه في غيرِها؛ فإنَّ الطَّمَعَ في الجديدِ يُنَغِّصُ الخُلُقَ، ويَنْقُصُ المخالطةَ، ويَسْتُرُ عيوبَ الخارجِ، فتميلُ النفسُ إلى المشاهَدِ الغريبِ، ويتكدَّرُ العيشُ مع الحاضرِ القريبِ؛ كما قالَ الشاعرُ:

والـمَــرْءُ ما دام ذا عَيْنٍ يُقَلِّبُهـا ... في أعْيُنِ الحورِ مَوْقوفٌ على الخَطَرِ
يَسُــرُّ مُقْلَتَــهُ ما ضَرَّ مُهْجَتَـهُ ... لا مَرْحَبًا بِسُــرورٍ عادَ بالضَّــرَرِ

ثم تصيرُ الثانيةُ كالأولى، وتطلُبُ النفسُ ثالثةً. . . وليسَ لهٰذا آخِرٌ.

بل الغَضُّ عنِ المُشْتَهياتِ ويأسُ النُّفوسِ مِن طَلَبِ المُسْتَحْسناتِ

---

(١) تروم: تطلب وتشتهي.

يُطَيِّبُ العيشَ مع المعاشَرِ.

ومَن لم يَقْبَلْ هٰذا النُّصْحَ؛ تَعَثَّرَ في طُرُقِ الهوى، وهَلَكَ على البارِدِ، وربَّما سَعى لنفسِهِ في الهلاكِ العاجلِ وفي العارِ الحاضرِ؛ فإنَّ كثيرًا مِن المُسْتَحْسَناتِ لَسْنَ بِصَيِّناتٍ ولا يَفي التَّمَتُّعُ بهنَّ بالعارِ الحاصلِ، ومنهنَّ المُبَذِّراتُ في المالِ، ومنهنَّ المُبْغِضَةُ للزَّوْجِ وهُو يُحِبُّها كعابدِ صَنَمٍ...

وأبلهُ البُلْهِ الشيخُ الذي يَطْلُبُ صَبِيَّةً! ولَعَمْري؛ إنَّ كمالَ المُتْعَةِ إنَّما يكونُ بالصِّبا؛ كما قالَ القائلُ:

فَقُلْتُ بِنَفْسِيَ النَّشْءِ الصِّغارُ(١)

ومتى لم تكنِ الصبيَّةُ بالغةً؛ لم يَكْمُلِ الاستمتاعُ(٢)! فإذا بَلَغَتْ؛ أرادتْ كَثْرَةَ الجِماعِ، والشيخُ لا يقدِرُ! فإنْ حَمَلَ على نفسِهِ؛ لم يَبْلُغْ مُرادَها، وهَلَكَ سَريعًا.

ولا ينبغي أن يَغْتَرَّ بشهوتِهِ الجماعَ؛ فإنَّ شهوتَهُ كالفَجْرِ الكاذبِ.

وقد رأيْنا شَيْخَنا اشترى جاريةً، فباتَ مَعَها، فانْقَلَبَ عنها مَيْتًا.

وكانَ في المارستانِ شابٌّ قد بَقِيَ شهرينِ بالقيامِ، فدَخَلَتْ عليهِ زوجتُهُ، فوَطِئَها، فانْقَلَبَ عنها مَيْتًا.

فبانَ أنَّ النفسَ باقيةٌ بما عندَها من الدَّمِ والمَنِيِّ؛ فإذا فَرَغا ولم تَجِد ما تعتمدُ عليهِ؛ ذهبتْ.

---

(١) لو أتم البيت؛ لأدركنا مقصوده.

(٢) وليس هٰذا بالاستمتاع! وإنما هو شذوذ تنفر منه الطباع السليمة!

وإن قَنِعَ الشيخُ بالاستمتاع مِن غيرِ وَطْءٍ؛ فهي لا تَقْنَعُ، فتصيرُ كالعَدُوِّ لهُ؛ فربَّما غَلَبَها الهوى ففَجَرَتْ، أو احتالتْ على قتلِه، خُصوصًا الجواريَ اللَّواتي أغلبُهُنَّ قد جئْنَ مِن بلادِ الشِّرْكِ؛ ففيهنَّ قَسْوَةُ القلبِ.

وقبيحٌ بمَن عَبَرَ الستينَ أنْ يَتَعَرَّضَ بكثرةِ النساءِ!

فإنِ اتَّفَقَ مع صاحبةِ دِينٍ قبلَ ذلك؛ فليرعَ لها معاشَرَتَها، وليتمِّمْ نَقْصَهُ عندَها؛ تارةً بالإنفاق، وتارةً بحُسْنِ الخُلُق، وليَزِدْ في تعريفِها أحوالَ الصالحاتِ والزَّاهِداتِ، ولْيُكْثِرْ من ذِكْرِ القيامةِ وذمِّ الدُّنيا، وليعرِّضْ بذِكْرِ محبةِ العربِ؛ فإنَّهم كانوا يَعْشَقونَ ولا يَرَوْنَ وطءَ المعشوقِ؛ كما قالَ قائِلُهم:

إنَّما الحُبُّ قُبْلَهْ ... وَغَمْزُ كَفٍّ وَعَضُدْ

إنَّما العِشْقُ كَذا ... إنْ نَكَحَ الحُبُّ فَسَدْ

فإنْ قَدَرَ أنْ يَشْغَلَها بحَمْلٍ أو ولدٍ؛ عَرْقَلَها به، فاسْتَبْقى قُوَّتَه في مدةِ اشتغالِها بذلك. فإنْ وَطِىءَ؛ فليصبرْ عنِ الإنزال حِفْظًا لقوَّتِهِ وقضاءً لحقِّها.

وقد قيلَ لبشرٍ: لِمَ لَمْ تتزَوَّجْ؟ فقالَ: على ماذا أغُرُّ مسلمةً؛ وقدْ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْروفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨][١].

والمسكينُ مَن دَخَلَ في أمرٍ لم يتلمَّحْ عواقِبَهُ قبل الدُّخولِ، ورأى حَبَّةَ الفخِّ فبادَرَ طالبًا لها ناسيًا تَعرْقُلَ الجَناحِ والذَّبحِ.

ومجموعُ ما قد بَسَطْتُهُ: حِفْظُ البصرِ عن الإطلاقِ، ويأسُ النفسِ عن

(١) تقدمت ترجمة بشر في (فصل ١٩).

التَّحصيل قُنوعًا بالحاصل، خُصوصًا مَن قدْ عَلَتْ سِنُّهُ وعَلِمَ أنَّ الصَّبيَّةَ عدوٌّ لهُ مُتَمَنِّيَةٌ هلاكَه وهو يُرَبِّيها لغيرِهِ.

وفي بعضِ ما ذكرتُهُ ما يَرْدَعُ العاقلَ عن التعرُّضِ لهٰذه الآفاتِ.

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ تَوْفيقًا من فضلِهِ، وعملاً بِمُقْتضى العقلِ والشَّرعِ؛ إنَّه مجيبٌ قريبٌ.

٢٣٦ ـ فصل

[العاقل من اتعظ بغيره وعمل لما بعد الموت]

أعجبُ الأشياءِ اغترارُ الإنسانِ بالسَّلامةِ وتأميلُهُ الإصلاحَ فيما بعدُ!

وليس لهٰذا الأملِ منتهىً ولا للاغترارِ حدٌّ؛ فكلَّما أصبحَ وأمسى معافىً؛ زادَ الاغترارُ وطالَ الأملُ.

وأيُّ موعظةٍ أبلغُ مِن أنْ تَرى ديارَ الأقرانِ وأحوالَ الإخوانِ وقُبورَ المحبوبينَ، فتعلمَ أنَّك بعدَ أيام مثلَهم، ثمَّ لا يَقَعَ انتباهٌ حتَّى يَنْتَبِهَ الغيرُ بكَ؟! وهٰذا واللهِ شأنُ الحمقى! حاشا مَن لهُ عَقْلٌ أنْ يَسْلُكَ هٰذا المَسْلَكَ.

بلى واللهِ؛ إنَّ العاقلَ لَيبادِرُ السَّلامةَ، فيدَّخِرُ من زَمَنِها للزَّمَنِ، ويتزوَّدُ عنـدَ القـدرةِ على الزَّادِ لوقتِ العُسْرَةِ، خُصوصًا لِمَنْ قد عَلِمَ أَنَّ مراتبَ الآخرةِ إنَّما تَعْلو بمقدارِ علوِّ العمل لها، وأن التَّدارُكَ بعدَ الفَوْتِ لا يمكنُ.

وقدِّرْ أنَّ العاصيَ عُفِيَ عنه؛ أينالُ مراتِبَ العمَّالِ؟!

ومَن أجالَ على خاطرِهِ ذِكْرَ الجنَّةِ التي لا موتَ فيها ولا مرضَ ولا نومَ ولا غَمَّ، بل لَذَّاتُها متَّصلةٌ من غيرِ انقطاعٍ، وزيادَتُها على قَدْرِ زيادةِ الجِدِّ

ها هنا؛ انْتَهَبَ هٰذا الزمانَ؛ فلم يَنَمْ إلَّا ضرورةً، ولم يغفلْ عن عِمارةِ لحظةٍ.

ومَن رأى أنَّ ذنبًا قد مضتْ لَذَّتُهُ وبقيتْ آفاتُهُ دائمةً؛ كفاه ذٰلك زاجرًا عن مثلِهِ؛ خُصوصًا الذُّنوبَ التي تتَّصِلُ آثارُها؛ مثلَ أنْ يَزْنِيَ بذاتِ زوجٍ، فَتَحْمِلَ منه، فَتُلْحِقَ بالزوجِ، فيُمْنَعَ الميراثَ أهلُه، ويأخُذَهُ مَن ليسَ مِن أهلِهِ، وتتغيَّرَ الأنسابُ والفُرُشُ، ويتَّصِلَ ذٰلك أبدًا، وكلُّه شُؤمُ لحظةٍ.

فنسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ توفيقًا يُلْهِمُ الرَّشادَ ويمنعُ الفسادَ؛ إنَّه قريبٌ مجيبٌ.

٢٣٧ ـ فصل

[في القضاء والقدر والحكمة والتعليل]

تأملتُ سببَ تخليطِ العقائدِ؛ فإذا هُو الميلُ إلى الحِسِّ، وقياسُ الغائباتِ على الحاضرِ:

فإنَّ أقوامًا غَلَبَ عليهِمُ الحسُّ، فلمَّا لم يُشاهِدوا الصانعَ؛ جَحَدوا وُجودَه، ونَسُوا أنَّه قد ظَهَرَ بأفعالِهِ، وأنَّ هٰذه الأفعالَ لا بدَّ لها مِن فاعلٍ؛ فإنَّ العاقلَ إذا مَرَّ على صحراءَ خاليةٍ، ثم عاد وفيها غَرْسٌ وبناءٌ؛ عَلِمَ أنَّه لا بدَّ من غارسٍ؛ إذِ الغَرْسُ لا يكونُ بنفسِهِ ولا البناءُ[1].

ثم جاءَ قومٌ، فأثْبَتوا وجودَ الصانعِ، ثم قاسوهُ على أحوالِهِم، فشَبَّهوا،

---

(١) والحق أن هٰذا نوع مكابرة، وإثبات الصانع مركوز في الفطر، لا يجادل في ذٰلك إلا صاحب هوى وطالب للعلو في الأرض والاستكبار، ومثل هٰذا لا ينفع فيه قول ولا حجة، وقد جرب كثير من الناس فيهم التجارب؛ فما أفلحوا ولا أنجحوا.

حتَّى إنَّ قائِلَهم يقولُ في قوله: «يَنْزِلُ إلى السماء»[١]: يَنْتَقِلُ! ويَسْتَدِلُّ بأنَّ العربَ لا تعرِفُ النزولَ إلَّا الانتقالَ[٢].

وضلَّ خلقٌ كثيرٌ في صفاتِهِ كما ضلَّ خَلْقٌ كثيرٌ في ذاتِهِ، فظنَّ أقوامٌ أنَّه يتأثَّرُ حينَ سَمِعوا أنَّه يغضبُ ويرضى، ونَسوا أنَّ صفتَهُ تعالى قديمةٌ لا يَحْدُثُ منها شيءٌ[٣].

وضلَّ خَلْقٌ في أفعالِهِ، فأخذوا يعلِّلونَ، فلم يَقْنَعوا بشيءٍ، فخَرَجَ منهم قومٌ إلى أنْ نَسَبوا فِعْلَهُ إلى ضدِّ الحكمةِ! تعالى عن ذٰلك!!

ومَن رُزِقَ التوفيقَ؛ فلْيُحْضِرْ قَلْبَهُ لما أقولُ: اعلمْ أنَّ ذاتَه سبحانَه لا تُشْبِهُ الذواتِ، وصفاتِهِ ليستْ كالصفاتِ، وأفعالَهُ لا تُقاسُ بأفعالِ الخَلْقِ.

أما ذاتُه سبحانَه؛ فإنَّا لا نَعْرِفُ ذاتًا: إلَّا أنْ تَكونَ جِسمًا، وذاكَ يَسْتَدْعي سابقةَ تأليفٍ، وهو منزَّهٌ عن ذٰلك؛ لأنَّه المؤلِّفُ. أو أنْ يكونَ جوهرًا، فالجَوْهَرُ متحيِّزٌ، وله أمثالٌ، وقد جلَّ عن ذٰلك. أو عَرَضًا؛ فالعَرَضُ لا يقومُ بنفسِهِ، بل بغيرِهِ، وقد تعالى عن ذٰلك.

فإذا أثْبَتْنا ذاتًا قديمةً خارجةً عما يُعْرَفُ؛ فلْيُعْلَمْ أنَّ الصفاتِ تابعةٌ

---

(١) تقدم تخريجه في (فصل ٦١).

(٢) وهٰذا خطأ وضلال، وأهل السنة يثبتون النزول الحقيقي الذي يليق بالله سبحانه ولا يشبه نزول المخلوقين وحركتهم وانتقالهم، ويكلون الكيف إلى الله سبحانه.

(٣) وهٰذا من أقوال المتكلمة، ولم يأت كتاب ولا سنة في هٰذا، وهو قول لا يقبل على إطلاقه ولا يرد على إطلاقه: فإن أرادوا به أنه لا تحدث لله صفة لم تكن له في الأزل؛ فهو قول صحيح. وإن أرادوا أنه لا يتكلم متى شاء ويأتي متى شاء ويحيي متى شاء ويميت متى شاء؛ فهٰذا مردود.

لتلك الذاتِ؛ فلا يجوزُ لنا أن نقيسَ شيئًا على ما نَفْعَلُهُ ونفهمُهُ، بل نؤمِنُ به ونسلِّمُه[١].

وكذلك أفعالُهُ؛ فإنَّ أحدَنا لو فَعَلَ فِعلًا لا يَجْتَلِبُ به نفعًا ولا يَدْفَعُ عنه ضُرًّا؛ عُدَّ عابثًا، وهو سبحانَه أوْجَدَ الخَلْقَ لا لنفع يعودُ إليه ولا لِرَفْعِ ضُرٍّ؛ إذِ المنافعُ لا تَصِلُ إليه، والمَضارُّ لا تَتَطَرَّقُ عليه.

فإنْ قالَ قائلٌ: إنما خَلَقَ الخَلْقَ لِيَنْفَعَهُمْ.

قُلْنا: يُبْطِلُهُ أنَّه خَلَقَ منهم صِنْفًا للكفرِ وعذَّبَهم، ونراهُ يؤلِمُ الحيوانَ والأطفالَ، ويَخْلُقُ المضارَّ، وهو قادرٌ أنْ لا يَفْعَلَ ذلك.

فإنْ قالَ قائلٌ: إنه يُثيبُ على ذلك.

قُلْنا: وهو قادرٌ أن يُثيبَ بلا هذه الأشياءِ؛ فإنَّ السُّلطانَ لو أرادَ أن يُغْنِيَ فقيرًا، فجَرَحَهُ، ثم أغناه؛ لِيمَ على ذلك؛ لأنَّه قادِرٌ أن يُغْنِيَهُ بلا جِراح.

ثم مَن يرى ما جرى لرسول اللهِ ﷺ وعلى أصحابِهِ مِن الجوعِ والقَتْلِ مع قُدْرَةِ الناصرِ، ثم يَسْأَلُ في أمَّهِ فلا يُجاب[٢]، ولو كان المسؤولَ بعضُنا؛ قُلْنا: لِمَ تَمْنَعُ ما لا يضرُّكَ؟!

---

(١) الجسم والعرض والجوهر والحيز وأمثالها من تعابير أهل الكلام كله من المشترك اللفظي (أو المجمل) الذي لا يثبته أهل السنة ولا ينفونه، وإنما لهم فيه تفصيل وبيان ليس هذا محله.

وانظر لمزيد من المعلومات حول هذا: «مجموع الفتاوى» (٥ / ٢١٤) وغيرها.

(٢) تقدم تخريجه في (فصل ١٩٢).

غيرَ أنَّ الحقَّ سبحانَه لا تُقاس أفعالُه على أفعالِنا ولاَ تُعَلَّلُ، والذي يُوجِبُ علينـا التَّسْليمَ أنَّ حِكْمَتَهُ فوقَ العقلِ؛ فهي تَقْضي على العقولِ والعقولُ لا تَقْضي عليها، ومَن قاسَ فِعْلَهُ على أفعالِنا؛ غَلِطَ الغَلَطَ الفاحشَ[١].

وإنَّما هَلَكَتِ المعتزلةُ من هٰذا الفَنِّ؛ فإنَّهم قالوا: كيفَ يأمُرُ بشيءٍ ويقضي بامتناعِهِ؟! ولو أنَّ إنسانًا دَعانا إلى دارِهِ، ثمَّ أقامَ مَن يَصُدُّ الداخلَ؛ لَعيبَ.

ولقدْ صَدَقوا فيما يتعلَّقُ بالشاهِدِ، فأمّا مَنْ أفعالُهُ لا تُعَلَّلُ ولا يُقاسُ بشاهِدٍ؛ فإنَّا لا نَصِلُ إلى معرفةِ حِكْمَتِهِ.

فإنْ قالَ قائلٌ: فكيفَ يمكِنُني أنْ أقودَ عقلي إلى ما يُنافيهِ؟

قُلْنا: لا منافاةَ؛ لأنَّ العقلَ قدْ قَطَعَ بالدَّليلِ الجليِّ أنَّه حكيمٌ وأنَّه مالكٌ، والحكيمُ لا يَفْعَلُ شيئًا إلا لحِكْمَةٍ؛ غيرَ أنَّ تلكَ الحكمةَ لا يَبْلُغُها العقلُ.

ألا ترى أنَّ الخَضِـرَ خَرَقَ سفينةً وقَتَلَ شَخْصًا، فأنْكَرَ عليه موسى عليهما السلامُ بحُكْمِ العِلمِ، ولم يطَّلِعْ على حِكْمَةِ فعلِه. فلمّا أظْهَرَ له الحكمةَ؛ أذْعَنَ؟

(١) ولا يقصد المؤلف رحمه الله أن أفعاله ﷺ لا تعلل إطلاقًا وأن حكمته لا تدركها العقـول أبدًا، بل يريد أن ذٰلك قد يحصل في بعض الأحيان، حيث تحتار العقول وترتد خاسئة حسيرة بعد طول عناء؛ فلا دواء عندئذ إلا التسليم بعد الإيمان بأصل الحكمة، وهٰذا ما سيصرح به المؤلف في أول الفصل الآتي.

ولله المثلُ الأعلى.

فإيَّاك إيَّاك أنْ تَقيسَ شيئًا مِن أفعالِهِ على أفعالِ الخَلْق، أو شيئًا من صفاتِهِ، أو ذاتَهُ سبحانَه وتعالى؛ فإنَّك إنْ حفظت هٰذا؛ سَلِمْتَ مِن التشبيهِ الـذي وَقَـعَ فيه مَن رأى الاستـواءَ اعتمـادًا والنُّـزولَ نقلةً، ونجـوتَ مِن الاعتراضِ الذي أخرجَ قومًا إلى الكفرِ حتَّى طَعَنوا في الحكمةِ.

وأوَّلُ القوم إبليسُ؛ فإنَّه رأى تقديمَ الطِّينِ على النارِ ليسَ بِحِكْمَةٍ، فَنَسِيَ أنَّـه إنَّمـا عَلِمَ ذٰلك ـ بزعمِهِ ـ بالفَهْمِ الذي وُهِبَ له والعقل الذي مُنِحَهُ، فنسي أنَّ الواهبَ أعلمُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]!

ولقدْ رأيتُ لابنِ الروميِّ(١) اعتراضًا على مَن يقولُ بتخليدِ الكفَّارِ في النارِ؛ قالَ: إنَّ ذٰلك التأبيدَ مَزيدٌ مِن الانتقام يُنْكِرُهُ العقلُ، ويَنْبَغي أنْ يُقْبَلَ كلُّ ما يَقولُهُ العقلُ ولا يُرَدَّ بعضُه؛ إذ ليسَ ردُّ بعضِهِ بأولى مِن رَدِّ الكلِّ، وتخليدُ الكفَّارِ لا غَرَضَ فيه للمعذِّبِ ولا للمعذَّبِ؛ فلا يجوزُ أن يكونَ.

فقلتُ: العجبُ مِن هٰذا الذي يَدَّعي وجودَ العقل ولا عَقْلَ عندَه!

وأولُ ما أقـولُ له: أصَحَّ عندَكَ الخبرُ عن الخالقِ سبحانَه أنَّه أخْبَرَ بخلودِ أهلِ النارِ أمْ لَمْ يَصِحَّ؟

فإنْ كانَ ما صَحَّ عندَه؛ فالكلامُ إذنْ في إثباتِ النُّبُوَّةِ وصحةِ القرآنِ؛

(١) شاعر زمانه مع البحتري، علي بن العباس بن جريج، صاحب النظم الرائق والشعر الفائق، ولد سنة ٢٢١هـ، ومات سنة ٢٨٣هـ. انظر ترجمته في: «وفيات الأعيان» (٣ / ٣٥٨)، «سير أعلام النبلاء» (١٣ / ٤٩٥).

فما وجهُ ذِكْرِكَ الفَرْعَ مع جَحْدِ الأصل؟!

وإنْ قالَ: قد ثَبَتَ عندي. فواجبٌ عليه أنْ يَتَمَحَّلَ لإقامةِ العذرِ[1]؛ إلَّا أنْ يَقِفَ في وجهِ المعارضةِ.

وإنما يُنْكِرُ هٰذا مَن يأخُذُ الأمرَ مِن الشَّاهِدِ، وقد بَيَّنَّا أنَّ ذاتَ الحقِّ لا كالذَّواتِ، وأن صِفَتَهُ لا كالصِّفاتِ، وأنَّ أفعالَهُ لا تُعَلَّلُ.

ولو تلمَّحَ شيئًا من التَّعليل لِخُلودِ الكفَّارِ؛ لَبانَ:

إذْ من الجائزِ أنْ يكونَ دوامُ تعذيبِهِم لإظهارِ صِدْقِ الوعيدِ؛ فإنَّه قالَ: مَنْ كَفَرَ بي؛ خَلَّدْتُهُ في العذابِ، ولا جِنايةَ كالكفرِ، ولا عقوبةَ كَدَوام الإِحْراقِ؛ فهو يَدومُ لِيُظْهِرَ صِدْقَ الوعيدِ.

ومِن الجائزِ أنْ يكونَ ذٰلك لِتَتِمَّةِ تنعيمِ المؤمنينَ؛ فإنَّهم أعداءُ الكفارِ، وقدْ قالَ سبحانَه: ﴿ويَشْفِ صُدورَ قَوْمٍ مُؤمنينَ﴾ [التوبة: ١٤]، وكم مِن قلقٍ في صدرٍ وحَنْقٍ على أبي جهل فيما فَعَلَ! وكم مِن غَمٍّ في قلبِ عمَّارٍ وأمِّهِ سُمَيَّةَ وغيرِهِم مِن أفعالِ الكفَّارِ بهم! فدوامُ عذابِهِم شفاءٌ لقلوبِ أهلِ الإِيمانِ.

ومِن الجائزِ أنْ يدومَ العذابُ لدوام الاعتراضِ وذِكْرِ المعذِّبِ[2] بما لا يَحْسُنُ؛ فكلَّما زادَ عذابُهُم؛ زادَ كُفْرُهُم واعتراضُهُم؛ فهم يُعَذَّبونَ لذٰلك.

ودليلُ دوام كُفْرِهِم: ﴿فَيَحْلِفونَ لَهُ كَما يَحْلِفونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة:

---

(١) يتمحل لإقامة العذر: يعتذر لنفسه بالحجج الواهية والأعذار الملفقة.

(٢) المعذِّب: يعني الله عز وجل.

١٨]؛ فإذنْ كُفْـرُهُم ما زالَ، ومعـرفَتُهم به ما حَصَلَتْ، والشـرُّ كامنٌ في البـواطنِ، وعلى ذٰلـك يَقَـعُ التَّعـذيبُ: ﴿ولَـوْ رُدُّوا لَعادوا لِما نُهوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨][1].

٢٣٨ـ فـصـل

[في ضرورة التسليم لأمر الله]

ينبغي للمؤمنِ باللهِ سبحانَه إذا نَظَرَ في الفصل الذي قد تَقَدَّمَ هٰذا أنْ لا يَعْتَرِضَ على الله سبحانَه في شيءٍ؛ لا في باطنِهِ، ولا في ظاهرِهِ، ولا يَطْلُبَ تعليلاتِ أفعـالِـهِ كلِّهـا؛ فإنَّ المُتَكَلِّمينَ أعْـرَضوا عنِ السُّنَنِ، وتكلَّموا بآرائِهم؛ فما صَفا لهم شِرْبٌ[2]؛ بدليلِ اختلافِهِم. وكذٰلك إضمارُ القياسِ؛ فإنَّهم لما أعْمَلوهُ؛ جاءتْ أحاديثُ تُعَكِّرُ عليهم.

والصَّوابُ التعليلُ لما يُمْكِنُ، والتسليمُ لما يَخْفى.

وكـذٰلـك سؤالُ الحقِّ سبحانَه؛ فإذا دَعاه المؤمنُ، ولم يَرَ إجابةً؛ سَلَّمَ، وفَوَّضَ، وتأوَّلَ للمنع، فيقولُ: ربَّما يكونُ المنعُ أصلحُ، وربَّما يكونُ لأجل ذُنوبي، وربَّما يكونُ التأخيرُ أولى، وربَّما لم يكنْ هٰذا مصلحةً... وإذا لم يَجِدْ تأويلاً؛ لم يَخْتَلِجْ في باطنِهِ نوعُ اعتراضٍ، بل يَرى أنَّه قد تعبَّدَ بالدعاءِ؛ فإنْ أنْعَمَ عليه؛ فبِفَضْلٍ، وإنْ لم يُجَبْ؛ فمالِكٌ يَفْعَلُ ما يشاءُ.

---

(١) ومن المفيد لطالب الحق أن يرجع في مسائل القضاء والقدر وما يتعلق بها إلى «شفاء العليل» لابن القيم رحمة الله عليه.

(٢) الشِّرْب: هو الشيء الذي يشرب، والمعنى: ما انتهوا إلى ما يشفي صدورهم، بل بقوا في متاهات الحيرة والشك.

على أنَّ أكْثَرَ السؤالِ إنَّما يَقَعُ في طَلَبِ أعراضِ الدُّنْيا التي إذا رُدَّتْ؛ كانَ أصلحَ!

فَلْيَكُنْ همُّ العاقلِ في إقامةِ حقِّ الحقِّ، والرِّضى بتدبيرِه، وإنْ أساءَ(١)!! فمتى أقْبَلْتَ عليه؛ أقبلَ على إصلاح شأنِكَ. وإذا عرفتَ أنَّه كريمٌ؛ فَلُذْ بِهِ ولا تَسْأَلْ! ومتى أقبلتَ على طاعاتِهِ؛ فمحالٌ أنْ يَجودَ صانعٌ، ويَنْصَحَ في العمل، ثم لا يُعْطى الأجرةَ.

٢٣٩ ـ فصل

[سارعوا إلى جنات عرضها السماوات والأرض]

واللهِ؛ إني لأتخايَلُ دخولَ الجنةِ، ودوامَ الإقامةِ فيها؛ من غيرِ مَرَضٍ، ولا بُصاقٍ، ولا نوم، ولا آفةٍ تطرأُ! بل صِحَّةٌ دائمةٌ، وأغراضٌ متصلةٌ، لا يَعْتَورُها مُنَغِّصٌ، في نعيم متجدِّدٍ في كلِّ لحظةٍ، إلى زيادةٍ لا تتناهى . . . فأطيشُ، ويكادُ الطبعُ يَضيقُ عن تصديقِ ذلك، لولا أنَّ الشرعَ قد ضَمِنَهُ!

ومعلومٌ أنَّ تلكَ المنازلَ إنَّما تكونُ على قَدْرِ الاجتهادِ ها هنا.

فوا عجبًا مِن مُضَيِّعٍ لحظةٍ فيها! فتسبيحةٌ تغرسُ له في الجنةِ نَخْلَةً أُكُلُها دائمٌ وظِلُّها(٢).

(١) لا ينسب السوء إلى الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، والغالب أن المؤلف لم يقصد ذلك؛ فمثله لا يقع بمثل هذا، ولعل في الكلام سقطًا.

(٢) (صحيح). جاء معناه من حديث عدة من الصحابة رضي الله عنهم، وأصحها ما رواه ابن ماجه (٣٣ ـ كتاب الأدب، ٥٦ ـ باب فضل التسبيح، ٢ / ١٢٥١ / ٣٨٠٧)؛

فيا أيُّها الخائفُ مِن فَوْتِ ذلك! شَجِّعْ قَلْبَك بالرَّجاءِ.

ويا أيُّها المنزعِجُ لذِكْرِ الموتِ! تَلَمَّحْ ما بعدَ مرارةِ الشُّرْبَةِ من العافيةِ؛ فإنَّه مِن ساعةِ خُروجِ الرُّوحِ، لا بل قبلَ خُروجِها، تنكشِفُ المنازِلُ لأصحابِها، فيَهونُ سَيْرُ المجذوبِ للذَّةِ المنتقَلِ إليه... ثم الأرواحُ في حواصِلِ طيرٍ تَعْلُقُ في أشجارِ الجَنَّةِ(١).

فكلُّ الآفاتِ والمخافاتِ في نهارِ الأجلِ، وقد اصفرَّتْ شَمْسُ

= والحاكم (١ / ٥١٢)؛ من طريق حماد بن سلمة، عن أبي سنان، عن عثمان بن أبي سودة، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ مر به وهو يغرس غرسًا، فقال: «يا أبا هريرة! ما الذي تغرس؟». قلت: غراسًا لي. قال: «ألا أدلك على غراس خير لك من هذا؟». قال: بلى يا رسول الله! قال: «قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ يغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة».

وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه المنذري في «الترغيب» (٢ / ٤٠٧ / ٢٢٩٣)، وقال البوصيري في «الزوائد»: «إسناده حسن، وأبو سنان اسمه عيسى بن سنان الحنفي؛ مختلف فيه». وقد لين الحافظ حديث أبي سنان في «التقريب».

لكن للحديث شاهد عن ابن مسعود رواه الترمذي (٤٩ ـ كتاب الدعوات، ٥٩ ـ باب، ٥ / ٥١٠ / ٣٤٦٢) وحسنه، وتعقبه المنذري فضعفه وكذا الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ٩٤)، وهو صالح للاعتبار.

وله شاهد آخر عن سلمان الفارسي عند الطبراني بإسناد ضعفه المنذري والهيثمي.

وشاهد ثالث عن ابن عباس عند الطبراني بإسناد حسنه المنذري في المتابعات ووثق الهيثمي رجاله.

وبمجموع هذه الشواهد؛ فالحديث لا ينزل عن رتبة الحسن إطلاقًا، بل هو صحيح، وقد صححه الألباني في «الصحيحة» (١ / ٢١٤ / ١٠٥).

(١) تقدم تخريج هذا المعنى في أرواح الشهداء وغيرهم من المؤمنين في (فصل ٢٠ و١٩٦).

العُمُرِ؛ فالبدارَ البدارَ قبلَ الغُروبِ!

ولا مُعِينَ يرافِقُ على تلكَ الـطَّريقِ إلَّا الفِكْـرُ إذا جَلَسَ مع العقل فتذاكرا العواقبَ؛ فإذا فرغَ ذٰلك المجلسُ؛ فالنَّظَرُ في سِيَرِ المُجِدِّينَ؛ فإنَّه يعـودُ مُسْتَجْلِبًا للفِكْرِ منها شتى الفضائل، والتوفيقُ مِن وراءِ ذٰلك، ومتى أرادَكَ لشيءٍ؛ هيَّأَكَ له.

فأمّـا مخالطةُ الذينَ ليس عندَهم خَبَرٌ إلَّا مِن العاجلةِ فهو مِن أكبرِ أسبابِ مَرَضِ الفَهْمِ وعِلَلِ العَقْلِ، والعُزْلَةُ عنِ الشرِّ حِمْيَةٌ، والحِمْيَةُ سببُ العافيةِ.

٢٤٠ـ فـصـل

[لا راحة للإنسان إلا بمعرفة ربه]

رأيتُ سببَ الهُموم والغُموم: الإعراضَ عن اللهِ عزَّ وجلَّ، والإقبالَ على الدُّنيا. وكلَّما فاتَ منها شيءٌ؛ وَقَعَ الغمُّ لِفَواتِهِ.

فأمّـا مَن رُزِقَ معـرفـةَ اللهِ تعـالى؛ استراحَ؛ لأنَّه يستغني بالرِّضى بالقضاءِ، فمهما قُدِّرَ له؛ رَضِيَ، وإنْ دعا فلم يَرَ أثرَ الإجابةِ؛ لم يَخْتَلِجْ في قلبِهِ اعتراضٌ؛ لأنَّهُ مملوكٌ مُدَبَّرٌ، فتكونُ هِمَّتُهُ في خدمةِ الخالقِ.

ومَن هٰذه صفتُهُ؛ لا يؤثِرُ جَمْعَ مال، ولا مخالطةَ الخَلْقِ، ولا الالتذاذَ بالشَّهَـواتِ؛ لأنَّه إمّا أنْ يكونَ مقصِّرًا في المعرفةِ؛ فهو مقبلٌ على التعبُّدِ المحضِ، يَزْهَدُ في الفاني لينالَ الباقي. وإمّا أنْ يكونَ له ذَوْقٌ في المعرفةِ؛ فإنَّه مشغولٌ عنِ الكلِّ بصاحبِ الكلِّ، فتراهُ متأدِّبًا في الخَلْوَةِ به، مستأنِسًا

بمناجاتِهِ، مستوحِشًا مِن مخالطةِ خَلْقِهِ، راضيًا بما يُقدِّرُ له... فعيشُهُ معه كعيشِ محبٍّ قَدْ خلا بحبيبِهِ؛ لا يريدُ سواهُ، ولا يهتمُّ بغيرِهِ.

فأمّا مَن لم يُرْزَقْ هذه الأشياءَ؛ فإنَّه لا يزالُ في تنغيصٍ، متكدِّرَ العيشِ؛ لأنَّ الذي يطلُبُهُ من الدُّنيا لا يقدِرُ عليه، فيبقى أبدًا في الحَسَراتِ، مع ما يفوتُهُ مِنَ الآخرةِ بسوءِ المعاملةِ.

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يَسْتَصْلِحَنا له؛ فإنَّه لا حولَ ولا قوةَ إلَّا بهِ.

٢٤١ ـ فصل

[لا عيش إلا عيش الآخرة]

تفكَّرْتُ في نفسي، فرأيتُني مفلسًا مِن كلِّ شيءٍ؟!

إنِ اعتمدتُ على الزوجةِ؛ لم تكنْ كما أريدُ: إنْ حَسُنَتْ صورتُها؛ لم تَكْمُلْ أخلاقُها، وإنْ تَمَّتْ أخلاقُها؛ كانتْ مُريدةً لغرضِها لا لي، ولعلَّها تَنْتَظِرُ رحيلي! وإنِ اعتمدتُ على الولدِ؛ فكذلك! والخادمُ والمريدُ لي كذلك؛ فإنْ لَمْ يكنْ لَهُما مني فائدةٌ؛ لم يُريداني! وأمَّا الصَّديقُ؛ فليس ثَمَّ! وأخٌ في اللهِ كعَنْقاءِ مَغْرِبَ[1]! ومعارفُ يفْتَقِدونَ أهلَ الخيرِ ويعتقِدونَ فيهم قد عَدِموا!

وبقيتُ وحدي... وعُدتُ إلى نفسي... وهي لا تَصْفو إليَّ أيضًا، ولا تُقيمُ على حالةٍ سليمةٍ!

فلم يَبْقَ إلَّا الخالقُ سبحانَه، فرأيتُ أني: إنِ اعتمدتُ على إنعامِهِ؛

(١) العنقاء: طائر أسطوري لا وجود له، فكذلك الأخ في الله عند المصنف!

فما آمنُ ذلك البلاءَ، وإنْ رَجَوْتُ عَفْوَه؛ فما آمَنُ عقوبَتَهُ!

فوا أسفًا! لا طُمأنينةَ ولا قرارَ! وا قَلَقي من قَلَقي! وا حرقي مِن حرقي!

باللهِ؛ ما العيشُ إلَّا في الجنةِ، حيثُ يَقَعُ اليقينُ بالرِّضى والمعاشرةِ لِمَنْ لا يَخونُ ولا يؤذي؛ فأما الدُّنيا؛ فما هي دارُ ذاكَ.

٢٤٢ ـ فصل

[الحذر مطلوب في كل الأمور]

ينبغي لِمَنْ صَحِبَ سُلطانًا أو محتشِمًا أنْ يكونَ ظاهرُهُ معه وباطنُهُ سواءً؛ فإنه قد يَدُسُّ إليه مَن يَخْبُرُهُ[1]، فربما افْتُضِحَ في الابتلاءِ.

وقد كان جماعةٌ من الملوكِ يَقْصِدونَ تقريبَ المُنادِمِ، ويجعلونَ له حُجْرَةً في دورِهم؛ فإذا أرادوا أن يَخْتَصُّوه؛ اختبروهُ باطنًا، وذاكَ لا يدري، فيظهرُ منه ما لا يَصْلُحُ فيُطْرَدُ!

ولقـدِ امتحنَ أبْـرَويزُ[2] رجُـلًا من خاصَّتِهِ، فدسَّ إليه جاريةً معها ألْـطافٌ[3]، وأمَـرَها أنْ لا تَقْعُدَ عندَه، فحَمَلَتْها. ثم أنْفَذَها مرةً أخرى، وأمرها أنْ تَقْعُدَ بعد التسليمِ هُنَيْهَةً، ففعلتْ، فلاحَظَها الرجلُ. ثم بَعَثَها مرةً ثالثةً، وأمَرَها أن تطيلَ القُعودَ عندَه وتحدِّثَه، فأطالتِ الحديثَ معهُ، فأبدى لها شيئًا مِن الميلِ إليها، فقالتْ: أخافُ أنْ يَطَّلِعَ علينا، ولكنْ؛ دَعْني أدبِّرْ في هذا. فذهبتْ، فأخبرتِ الملكَ بذلك! فوجَّه غيرَها مِن خواصِّ جواريهِ

---

(١) يَخْبُرُه: يعلم سره؛ مثل: يختبره.

(٢) أحد أكاسرة الفرس.

(٣) الألطاف: هدايا الملوك والولاة.

بمثل ذلك، فلمَّا جاءتْهُ؛ قالَ: ما فعلتْ فلانةٌ؟ قالتْ: مريضةٌ. فارْبَدَّ لونه... ثم فعلتِ الجاريةُ الثانيةُ مثلَ ما فعلتِ الأولى... فقالتْ له: إن الملكَ يمضي إلى بستانِهِ فيقيمُ هناكَ؛ فإن أرادَكَ على أن تمضيَ معه؛ فأظْهِرْ أنك عليلٌ، فإن خَيَّرَكَ بين الانصرافِ إلى دُورِ نسائِكَ أو المُقام هنا؛ فاخترِ المقامَ هنا، وأخْبِرْه أنَّك لا تقدِرُ على الحركةِ، فإن أجابَكَ إلى ذلك؛ جئتُ إليك كلَّ ليلةٍ ما دامَ المَلكُ غائبًا! فسَكَنَ إلى قولِها، ثم مضتْ وأخبرتِ الملكَ بذلك... فلمّا كانَ بعدَ ثلاثٍ؛ استدْعاه الملكُ، فقالَ: إني مريضٌ. فعادَ الرسولُ، فأخْبَرَهُ، فتبسَّمَ وقالَ: هذا أولُ الشَّرِّ. فوجَّه إليه مَحَفَّةً حُمِلَ فيها إليهِ، فلمَّا بَصُرَ به أبْرَويزُ؛ قالَ: والمَحَفَّةُ الشَّرُّ الثاني. فرأى العصابةَ على رأسهِ؛ قال: والعصابةُ الشَّرُّ الثالثُ. فقال له الملكُ: أيُّهما أحبُّ إليك: الانصرافُ إلى نسائِكَ ليُمَرِّضْنَكَ، أو المُقامُ ها هُنا إلى وقتِ رُجوعي؟ قال: المقام ها هنا أرفقُ لي؛ لقلَّةِ الحركةِ. فتبسَّمَ وقالَ: حركتُكَ ها هُنا إنْ تُرِكْتَ أكثرُ من حركتِكَ إلى منزلِكَ! ثم أمر له بعصا الزُّناةِ التي كان يُوسَمُ[1] بها مَن زنى، فأيقنَ الرجلُ بالأمر! وأمَرَ[2] أنْ يُكْتَبَ ما كان من أمرِهِ حرفًا حرفًا، فيُقْرَأَ على الناسِ حرفًا حرفًا إذا حَضَروا، وأن يُنْفَى إلى أقصى المملكةِ، وتُجْعَلَ العصا على رأسِ رُمْحٍ يكونُ معهُ حيثُ كانَ؛ لِيَحْذَرَ منه مَن لا يَعْرِفُهُ. فلمَّا نُفِيَ؛ أخَذَ من بعضِ المُوكَّلينَ مُدْيَةً، فجَبَّ بها ذَكَرَهُ، وماتَ مِن ساعتِهِ.

---

(١) الوسم: العلامة، وكانوا فيما سبق من العصور يكوون الزناة بالنار بعلامة معروفة في مكان ظاهر من الجسد؛ لكي يعرفوا أينما كانوا وتظهر فضيحتهم.

(٢) الآمر هنا هو كسرى أبرويز.

قلتُ: وقد كان جماعةٌ من الأمراءِ يَتَنَكَّرون ويسألونَ العوامَّ عن سيرتِهم، فيتكلَّمُ العاميُّ بما لا يَصْلُحُ، فيَضْبِطونَه.

وربَّما بَعَثوا دَسيسًا عليهِ.

وربَّ كلماتٍ قالَها مسترسِلٌ، فبلَّغَها فضوليٌّ، فأهلكتْ صاحِبَها.

ورأى عمرُ بنُ عبدِ العزيز رجلًا من العمالِ كثيرَ الصَّلاةِ، فدسَّ عليه مَن قالَ لهُ: إنْ أخذْتُ لكَ الولايةَ الفلانيَّةَ؛ فما تُعْطيني؟ قال: أعْطَيْتُكَ كذا وكذا! قال لهُ عمرُ: غَرَرْتَنا بصَلاتِكَ.

وقد بُلِّغْتُ أنَّ رجلًا كَلَّمَ امرأةً، فأجابَتْهُ، فاسْتَدْعَتْهُ إلى دارِها، فلما دَخَلَ؛ أقامتْ على قتلِه.

فقد ينجلي من هٰذه الحكايةِ أنَّه لا ينبَغي أن يُسْكَنَ إلى قولِ امرأةٍ أو بعلٍ يجوزُ أنه يكونَ جاسوسًا ومختبرًا... وكذٰلك لا يُظْهَرُ ما ينبغي إخفاؤُهُ من مالٍ أو مذهبٍ أو سبِّ رجلٍ؛ فربَّما كانَ له في الحاضرينَ قريبٌ... ولا يوثَقُ بمودَّةٍ لا أصلَ لها؛ فربَّما كانتْ تَحْتَها آفةٌ تقصِدُهُ.

وليحذرْ من كلِّ أمرٍ يُحْتَمَلُ... وربَّ كلمةٍ نَقَلَها صديقٌ إلى صديقٍ، فتحدَّثَ بها مَن لا يَقْصِدُ أذىً للقائلِ، فبُلِّغَتْ، فتأذَّى... ورُبَّ مُظهرٍ للمحبةِ مبالغٍ حتَّى يَسْتَمْكِنَ من مُرادِهِ.

فالحذرَ الحذرَ من الطُّمأنينةِ إلى أحدٍ، خُصوصًا من عَدُوٍّ آذَيْتَهُ، أو قَتَلْتَ له قريبًا؛ فربما أظْهَرَ الجميلَ شبكةً لاصطيادِكَ؛ كحديثِ الزَّبَّاءِ[1].

(١) تقدم ذكره بالتفصيل في (فصل ١٨٥).

٢٤٣ ـ فصل

[يشيب ابن آدم ويشب حرصه وأمله]

رأيتُ النفسَ بعدَ عُلُوِّ السِّنِّ يَقْوى أملُها ويزدادُ حِرْصُها؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «يَشيبُ ابنُ آدمَ وتَشِبُّ منه خَصْلتانِ: الحِرْصُ والأَمَلُ»(١).

ورأيتُ أكثرَ أسبابِ ذٰلك فراغَ اليَدِ من الدُّنيا وكَثْرَةَ العائلةِ وقوَّةَ الحاجةِ، فيحتاجُ الإِنسانُ إلى التعرُّضِ بما يَشِينُ العِرْضَ لِيَحْصُلَ الغَرَضُ!

فقلتُ: إلٰهي! أبَعْدَ رؤيةِ جبال عرفةَ أضِلُّ؟! أبَعْدَ مُشارَفَةِ الحرم تأخُذُني أعرابُ الباديةِ؟! وا أسفًا! أيَطْلُعُ فَجْرُ النحرِ وما وصلتُ إلى عَرَفاتٍ؟! ويا ضَياعَ سَفَرِ العُمُرِ وما حَصَلَ المقصودُ!

قَدْ كُنْتُ أرْجوكَ لِنَيْلِ المُنى ... واليَوْمَ لا أطْلُبُ إلَّا الرِّضى

ثم قلتُ: يا نفسُ! ما لكِ ملجأٌ إلَّا اللَّجأُ واستغاثةُ الغريقِ؛ فإنْ

---

(١) (كذب باطل). ذكره الذهبي في «الميزان» (٤/١٥٦)، والحافظ في «اللسان» (٦/٨٠) و«الإصابة» (٣/٥٢٧/القسم الرابع)؛ في ترجمة معمر بن بريك، وحكما ببطلانه، وقال الذهبي: «فهٰذا من نمط رتن الهندي؛ فقبح الله من يكذب». ورتن الهندي رجل من أهل القرن السادس الهجري ادعى الصحبة ووضع أحاديث وراج باطله على الطغام!! فهٰذا كذاك!

ويغني عنه ما رواه: البخاري (٨١ ـ كتاب الرقاق، ٥ ـ باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر، ١١ / ٢٣٩ / ٦٤٢١)، ومسلم (١٢ ـ كتاب الزكاة، ٣٨ ـ باب كراهة الحرص على الدنيا، ٢ / ٧٢٤ / ١٠٤٧)؛ من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: «يهرم ابن آدم وتشب معه خصلتان: الحرص على المال والحرص على العمر».

رُحِمْتِ، وإلَّا؛ فكمْ مِن حسرةٍ تحتَ التُّرابِ!

٢٤٤ـ فصل

[الشيخ العجوز والشابة الصغيرة]

شَكا لي بعضُ الأشياخ، فقالَ: قد عَلَتْ سِنِّي، وضَعُفَتْ قُوَّتي، ونَفْسي تَطْلُبُ مني شراءَ الجواري الصغارِ، ومعلومٌ أنَّهُنَّ يُرِدْنَ النِّكاحَ، وليس فيَّ، ولا تَقْنَعُ مِنِّيَ النفسُ بربَّةِ البيتِ؛ إذ قَدْ كَبِرَتْ.

فقلتُ له: عندي جوابانِ:

أحدُهُما: الجوابُ العامِّيُّ، وهو أنْ أقولَ: ينبغي أنْ تَشْتَغِلَ بذِكْرِ الموتِ وما قد تَوَجَّهْتَ إليه، وتَحْذَرَ من اشتراءِ جاريةٍ لا تقدِرُ على إيفاءِ حقِّها؛ فإنَّها تُبْغِضُكَ؛ فإنْ أجْهَدْتَ؛ استعجلتَ التَّلَفَ، وإنِ استبقيتَ قُوَّتَكَ؛ غَضِبَتْ هي، على أنَّها لا تُريدُ شيخًا كيفَ كانَ.

وقدْ أنشدَنا عليُّ بنُ عبدِ اللهِ؛ قالَ: أنشدَنا محمدُ التميميُّ:

أفِقْ يا فُؤادي مِنْ غَرامِكَ واسْتَمِعْ ... مَقالَةَ مَحْزونٍ عليكَ شَفيقِ

عَلِقْتَ فتاةً قَلْبُها مُتَعَلِّقٌ ... بغَيْرِكَ فاسْتَوْثَقْتَ غيْرَ وَثيقِ

وأصْبَحْتَ مَوْثوقًا وراحَتْ طَليقَةً ... فكَمْ بينَ مَوْثوقٍ وبينَ طَليقِ

فاعلَمْ أنَّها تَعُدُّ عليكَ الأيامَ، وتطلُبُ منكَ فَضْلَ المالِ؛ لتستعدَّ لغيرِكَ، وربَّما قَصَدَتْ حَتْفَكَ؛ فاحْذَرْ! والسَّلامَةُ في التَّرْكِ، والاقتناعِ بما يَدْفَعُ الزمانَ.

والجوابُ الثاني: فإني أقولُ: لا يَخْلو أنْ تكونَ قادرًا على الوَطْءِ في

وقتٍ أو لا تكونُ.

فإنْ كنتَ لا تقـدِرُ؛ فالأولى مصابرةُ التَّرْكِ للكُلِّ، وإنْ كانَ يمكِنُ الحازمَ أن يُداري المرأة بالنَّفَقةِ وطيبِ الخُلُقِ؛ إلَّا أنه يُخاطِرُ.

وإن كنتَ تَقْدِرُ في أوقاتٍ على ذلك، ورأيتَ مِن نفسِك تَوْقًا شَديدًا؛ فعليكَ بالمُـراهِقاتِ؛ فإنهنَّ ما عَرَفْنَ النِّكاحَ وما طَلَبْنَ الوطءَ، واغْمُرْهُنَّ بالإنفاقِ وحسنِ الخُلُقِ، مع الاحتياطِ عليهنَّ والمنع من مخالطةِ النِّسوةِ، وإذا اتَّفَقَ وطءٌ؛ فَتَصَبَّـرْ عن الإنزالِ رَيْثَما تقضي المرأةُ حاجَتَها! واعتمدْ وَعْظَها وتَذْكيرَها بالآخرةِ! واذْكُرْ لها حكاياتِ العشاقِ مِن غيرِ نِكاحٍ، وقُبْحَ صورةِ الفعلِ! والفتْ قَلْبَها إلى ذِكْرِ الصالحينَ! ولا تُخْلِ نَفْسَكَ مِن الطِّيبِ والتزيُّنِ والكِياسةِ والمداراةِ والإنفاقِ الواسعِ! فهٰذا ربَّما حَرَّكَ الناقةَ للمسيرِ، مع خَطَرِ السَّلامةِ.

٢٤٥ ـ فصل

[العاقل من قدر عواقب الأمور واحتاط لها]

أبلهُ الناس مَن عَمِلَ على الحال الحاضرةِ، ولم يتصوَّرْ تَغَيُّرَها ولا وقوعَ ما يجوزُ وقوعُهُ.

مثالُهُ: أنْ يَغْتَرَّ بدولةٍ، فيعملَ بمقتضى مُلْكِهِ؛ فإذا تغيَّرَتْ؛ هَلَكَ! وربما عادى خَلْقًا؛ اغترارًا بأنه متسلِّطٌ أو أنه صاحبُ سلطانٍ؛ فإذا تغيَّرتْ حالُه؛ أكَلَ كَفَّهُ نَدَمًا عند فَوات التَّدارُكِ! وكذلكَ مَن لهُ مالٌ يبذِّرُهُ؛ سكونًا إلى وجودِ المال، وينسى حالَه عند العدمِ! ومن يتناولُ الشَّهَواتِ ويكثِرُ من المـآكلِ والمشـاربِ والنِّكـاحِ؛ ثقـةً بعافيتِهِ، وينسى ما يَعْقُبُ ذلك من

الأمراضِ والآفاتِ!

ومِن أظـرفِ الأحوال أن يُحِبَّ جاريتَهُ فَيَعْتِقَها ويَهَبَ لها، أو امرأةً فيَسْكُنَ إليها ويَهَبَ لها، فتتمكَّنَ، ولا تمضي الأيامُ حتى يَسْلُوها أو يَطْلُبَ غيرَهـا، ولا يجدُ طريقًا للخَلاصِ ؛ فإن تَخَلَّصَ منها؛ أخذتْ ما غَنِمَتْ منه، فلقيَ مِن الغيظِ أضعافَ ما يلتذُّ به(١).

فلا يَنْبَغي أنْ يوثَقَ بامـرأةٍ ولا بمحبَّـةِ إنسانٍ! فإنَّه قد يُحِبُّ امرأةً، ويظُنُّ أنه لا يَسْلوها أبدًا، فيسترسِلُ إليها، والسُّلُوُّ يحدُثُ، وربما أحبَّ غيرَهـا، فينسى الأولى، فيصعُبُ عليه الخـلاصُ من الأولى! فالعاقِلُ لا يَدْخُلُ في شيءٍ حتى يُهَيِّىءَ الخروجَ منه؛ فإنَّ الأشياءَ لا تَثْبُتُ، والمحبةَ لا تَدومُ، والتغيُّرَ مقرونٌ بكلِّ حالٍ.

وكذٰلك يعطي مالَهُ ولدَهُ، ثم يبقى كَلًّا عليه، فيتمنَّى الولدُ هلاكَه، وربَّما علَّ بهِ في النَّفَقةِ(٢).

وكـذٰلـكَ قد يَثِقُ بالصَّديقِ، فَيَبُثُّ أسرارَه إليه، فربما أظهرَ ذٰلك، فكان منها ما يوجِبُ هلاكَه.

وكذٰلك يغترُّ الإنسانُ بالسَّلامةِ، وينسى طُروقَ الموتِ، فيأتيهِ بَغْتَةً، فَيَبْهَتُهُ، وقد فاتَ الاستدراكُ، ولم يَبْقَ إلَّا الندمُ.

فالعاقلُ مَن كانتْ عينُهُ مراقِبةً للعواقبِ، محترِزةً مما يجوزُ وقوعُه،

---

(١) يا عجبًا! فماذا يريد إذن؟! أن تخرج من بيته طريدة حافية عارية!! فأين العدل والإنصاف والخلق والرفق والكرم؟!

(٢) الكَلّ: الثقيل. وعل به في النفقة: قتر عليه.

عاملةً بالاحتياطِ في كلِّ حال، حافظةً للمال والسِّرِّ، غيرَ واثقةٍ بزوجةٍ ولا ولدٍ ولا صديقٍ، متأهِّبةً للرحيل، متهيِّئةً للنقلةِ.

هٰذه صفةُ أهل الحَزْم.

٢٤٦ ـ فصل

[في أن السلامة في التسليم]

من أعجبِ الأمورِ طَلَبُ الاطِّلاع على تَحقيقِ العِرْفانِ لذاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ وصفاتِهِ وأفعالِهِ! وهيهاتَ؛ ليس إلَّا المعرفةُ بالجُملةِ.

ولقد أوغلَ المتكلِّمونَ، فما وَقَعوا بشيءٍ، فرجَعَ عقلاؤُهُم إلى التسليم.

وكذٰلك أصحابُ الرأيِ، مالوا إلى القياسِ؛ فإذا أشياءُ كثيرةً بعكسِ مرادِهِم، فلم يَجِدوا ملجأً إلَّا التسليمَ، فسمَّوا ما خالَفَهُم استِحْسانًا.

فالفقيهُ مَن عَلَّلَ بما يمكنُ؛ فإذا عَجَزَ؛ استطرحَ للتسليم.

هٰذا شأنُ العبيدِ.

فأمّا مَن يقولُ: لِمَ فَعَلَ كَذا؟ وما معنى كَذا؟ فإنَّه يَطْلُبُ الاطلاعَ على سِرِّ المَلِكِ، وما يجدُ إلى ذٰلك سبيلًا؛ لوجهين:

أحدُهُما: أنَّ اللهَ تعالى سَتَرَ كثيرًا مِن حِكَمِهِ عن الخَلْقِ.

والثاني: أنه ليس في قُوى البشرِ إدراكُ حِكَمِ اللهِ تعالى كلِّها.

فلا يَبْقى مع المعترضِ سوى الاعتراضِ المخرجِ إلى الكفرِ، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغيظُ﴾

[الحج: ١٥]، والمعنى: مَنْ رَضِيَ بأفعالي، وإلَّا؛ فَلْيَخْنُقْ نفسَه؛ فما أفعلُ إلَّا ما أريدُ.

٢٤٧ ـ فصل
[في لزوم العزلة عن أكثر الخلق]

مَن رَزَقَهُ اللهُ تعالى العلمَ والنَّظَرَ في سِيَرِ السَّلفِ؛ رأى أنَّ هٰذا العالَمَ ظُلْمَةٌ، وجمهورَهم على غيرِ الجادَّةِ، والمخالطةَ لهم تضرُّ ولا تنفعُ!

فالعجبُ لِمَنْ يترخَّصُ في المخالطةِ، وهو يعلمُ أنَّ الطَّبْعَ لِصٌّ يَسْرِقُ من المخالطِ!

وإنَّما ينبغي أن تَقَعَ المخالطةُ للأرفع والأعلى في العلم والعمل؛ لِيُسْتَفادَ منهُ؛ فأما مخالطةُ الدُّونِ؛ فإنَّها تؤذي؛ إلَّا أن يكونَ عاميًّا يَقْبَلُ مِن مُعَلِّمِهِ؛ فينبغي أنْ يخالَطَ بالاحترازِ.

وفي هٰذا الزمانِ:

إنْ وَقَعَتِ المخالطةُ للعوامِّ؛ [عَكَّرَتِ الفؤادَ]؛ فهم ظُلمةٌ مستحكِمةٌ؛ فإذا ابتُلِيَ العالمُ بمُخالطتِهم؛ فليشمِّرْ ثيابَ الحذرِ، ولتكنْ مجالستُهُ إيَّاهُم للتَّذْكِرَةِ والتأديبِ فحسبُ.

وإن وقعتِ المخالطةُ للعلماءِ؛ فأكثرُهم على غيرِ الجادَّةِ، مقصودُهم صورةُ العلم لا العملُ بهِ؛ فلا تكادُ تَرى مَن تُذاكِرُهُ أمْرَ الآخرةِ، إنَّما شَغَلَهُمُ الغِيبةُ وقصدُ الغَلَبَةِ واجتلابُ الدُّنيا، ثم فيهم مِن الحَسَدِ للنُّظَراءِ ما لا يوصَفُ!

وإن وقعتِ المخالطةُ للأمراءِ؛ فذاك تعرُّضٌ لفسادِ الدينِ؛ لأنَّه إن تَوَلَّى لهم ولايةً دنيويةً؛ فالظلمُ من ضروراتها؛ لغلبةِ العادةِ عليهم والإعراضِ عن الشَّرْع. وإن كانتْ ولايةً دينيةً؛ كالقضاءِ؛ فإنَّهم يأمُرونه بأشياءَ لا يكادُ يمكِنُهُ المراجعةُ فيها، ولو راجَعَ؛ لم يَقْبَلوا، وأكثرُ القوم يخافُ على منصبِهِ، فيفعلُ ما أمِرَ بِهِ، وإنْ لم يَجُزْ.

وربَّما رأيتُ في هذا الزمانِ أقوامًا يبذُلونَ المالَ لِيَكونوا قضاةً أو شُهودًا، ومقصودُهُمُ الرِّفْعَةُ.

ثم أكثرُ الشُّهودِ يَشْهَدُ على مَن لا يعرِفُه، ويقولُ: إنَّه معروفٌ! ويدري أنه كذابٌ! وإنما عُرِفَ لأجل حبَّةٍ يُعْطاها.

وكم قد وقعتْ شهادةٌ على غيرِ المشهودِ عليه وعلى مكروهٍ[١]!

وإن وقعتِ المخالطةُ للمتزهِّدين؛ فأكثرُهُم على غيرِ الجادَّةِ، وعلى خلافِ العلم؛ قد جَعَلوا لأنْفُسِهِم نواميسَ؛ فلا يَتَنَسَّمونَ[٢]، ولا يخرُجون إلى سوقٍ، ويظهِرونَ التخشُّعَ الزائدَ، وكلُّه نفاقٌ... وفيهم مَن يَلْبَسُ الصوفَ تحتَ ثيابِهِ، وربما لوَّحَ بكُمِّهِ لِيُرى!

وقد حُكِيَ عن طاهرِ بنِ الحسين[٣]: أنَّه قال لبعضِ المتزهِّدينَ: مذْ كم قَدِمْتَ العراقَ؟ قال: دخلتُها منذُ عشرينَ سنةً، وأنا منذُ ثلاثينَ سنةً صائمٌ! قالَ: سألْناكَ مسألةً، فأجبتَ عنِ اثنتينِ.

---

(١) في الأصول: «مكره»! ولا معنى لها، ولعل الأقرب ما أثبتناه.

(٢) يتنسمون: يخرجون في الهواء الطلق والنسيم العليل.

(٣) تقدمت ترجمته في (فصل ١١٠).

وبَنَتِ الصوفيةُ أربطةً؛ فهي خوارجُ على المساجدِ، وهي دكاكينُ كريهةٌ؛ يقعُدُ فيها الكُسالى عن الكَسْبِ مع القُدْرَةِ عليهِ، ويتعرَّضونَ بالقعودِ للصَّدَقاتِ ولأحوالِ الظَّلَمةِ، وقد أراحوا أنْفُسَهم من إعادةِ العلم، وأكثرُهُم لا يصلِّي نافلةً ولا يقومُ الليلَ، بل همُّهُم المأكولُ والمشروبُ والرقصُ.

وقدِ اتَّخذوا سُننًا تخالِفُ الشريعةَ؛ فهم يَلْبَسونَ المرقَّعَ لا من فقرٍ، وهٰذا قبيحٌ؛ لأنَّه ليس عندَهم من أماراتِ الزُّهْدِ سوى الملبسِ الدُّونِ؛ فثيابُهُم تصيحُ: نحنُ زهَّادٌ! وباقي أفعالِهم المستورةِ تفضَحُهم إذا اطُّلِعَ عليها!! فالمطبخُ دائرٌ، والحمَّامُ، والحلوى كثيرةٌ، والطِّيبُ، والدَّعَةُ، والكِبْرُ حاصلٌ بذٰلك الزِّيِّ!

وقد قال النبيُّ ﷺ لمالكِ بنِ نَضْلَةَ وقد رآه أشعثَ الهيئةِ: «أما لكَ مالٌ؟». قالَ: بلى؛ مِن كلِّ المالِ آتانيَ اللهُ عزَّ وجلَّ. قالَ: «فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا أنعمَ على عبدٍ نعمةً؛ أحبَّ أن يُرى عليهِ»[1].

---

(١) **(صحيح)**. رواه: أحمد (٣ / ٤٧٣)، وأبو داوود (٢٦ ـ كتاب اللباس، ١٤ ـ باب في غسل الثوب، ٢ / ٤٤٩ / ٤٠٦٣)، والترمذي (٢٨ ـ كتاب البر والصلة، ٦٣ ـ باب ما جاء في الإحسان والعفو، ٤ / ٣٦٤ / ٢٠٠٦)، والنسائي (٤٨ ـ كتاب الزينة، ٥٤ ـ باب الجلاجل، ٨ / ١٨٠ / ٥٢٣٨ و٥٢٣٩)، والحاكم (٤ / ١٨١)؛ من طرق عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص، عن أبيه مالك بن نضلة. . . فذكره.

وأبو إسحاق ثقة حجة بلا منازع، ولٰكنه كبر وتغير حفظه، لٰكن الراوي عنه في بعض طرق الحديث شعبة، وقد كفانا هٰذا التغير في حفظه؛ كما أفاد الحافظ في «التهذيب»، وهو على ذٰلك لم يتفرد بالرواية عن أبي الأحوص، بل تابعه عبد الملك بن عمير عنه به كما رواه أحمد (٣ / ٤٧٣)، فصح الحديث به.

ومِن أخلاقِهِم تنفيرُ الناسِ عن العلم، ويزعُمون أنْ لا حاجةَ إلى الوسائِط، وإنما هو قلبٌ وربٌّ!

ولهم مِن الأقوال والأفعال المنكَراتِ ما قد ذكرتُهُ في «تلبيس إبليس».

آهِ لو كان لهٰذا الزمانِ عُمَرُ؛ لاحتاجَ كلَّ يوم إلى مئةِ دِرَّةٍ[1]، لا؛ بل كان يستعملُ السيفَ في هٰؤلاءِ الخوارج.

وهُم داخلَ البلدِ لا قدرةَ للعلماءِ عليهِم؛ إذ قولُهُم فيهم لا يُقْبَلُ.

فمَن رَزَقَهُ اللهُ سبحانَه النَّظرَ في سِيَرِ السلفِ، ووفَّقه للاقتداءِ بِهِم؛ آثَرَ أنْ يعتزِلَ عن أكثرِ الخَلْقِ، ولا يخالِطَهُم؛ فإنَّه مَن خالط؛ أوذِيَ، ومَن دارى؛ لم يَسْلَمْ مِن المداهنةِ؛ فالنُّصْحُ اليومَ مردودٌ.

٢٤٨ ـ فصل

[لا تبادر الأعداء والحساد بالخصومة]

مِن البَلَهِ أنْ تبادِرَ عدوًّا أو حسودًا بالمُخاصمةِ.

وإنما ينبغي إن عَرَفْتَ حالَه أن تُظْهِرَ له ما يوجِبُ السَّلامةَ بينَكما؛ إنِ اعتذرَ قَبِلْتَ، وإن أخذَ في الخُصومةِ صَفَحْتَ، وأريْتَهُ أنَّ الأمرَ قريبٌ، ثم تُبطِنُ الحذرَ منهُ؛ فلا تَثِقُ بهِ في حالٍ، وتتجافاهُ باطنًا، مع إظهارِ المخالطةِ في الظاهرِ.

= والحديث: قال الترمذي: «وفي الباب عن عائشة وجابر وأبي هريرة، وهٰذا حديث حسن صحيح». وصححه الحاكم ووافقه الذهبي فالألباني في «غاية المرام» (٦٣ / ٧٥).

(١) الدِّرة: العصا التي كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يؤدب بها.

فإذا أردتَ أنْ تُؤذِيَهُ؛ فأوَّلُ ما تؤذيهِ به إصلاحُك واجتهادُك فيما يرفعُك.

ومِن أعظم العُقوبةِ له العفوُ عنهُ للهِ.

وإنْ بالغَ في السَّبِّ؛ فبالغْ في الصَّفْح؛ تُنِبْ عنكَ العوامَّ في شَتْمِهِ، ويَحْمَدُكَ العلماءُ على حِلمِكَ[١]! وما تؤذيهِ به من ذلك وتورِثُهُ به الكَمَدَ ظاهرًا وغيرَه في الباطنِ أضعافٌ وخيرٌ مما تؤذيهِ بهِ مِن كلمةٍ إذا قُلْتَها له سَمِعْتَ أضعافَها.

ثم بالخُصومةِ تُعْلِمُهُ أنَّك عدوُّه؛ فيأخذُ الحذرَ، ويَبْسُطُ اللسانَ، وبالصفح يَجْهَلُ ما في باطنِكَ؛ فيمكِنُكَ حينئذٍ أن تَشْتَفِيَ منه، أما أن تَلْقاهُ بما يؤذي دِينَك؛ فيكونُ هو الذي قدِ اشتفى منكَ! وما ظَفِرَ قطُّ من ظَفِرَ به الإثمُ، بل الصَّفْحُ الجميلُ.

وإنَّما يَقَعُ هذا ممَّن يرى أنَّ تسليطَه عليهِ: إمّا عقوبةٌ لذنبٍ، أو لرفعِ درجةٍ، أو للابتلاءِ؛ فهُو لا يرى الخصمَ، وإنما يَرى القُدرةَ.

٢٤٩ ـ فصل

[أسأل الله أن يختار لك الخير ويعينك عليه]

إذا وقعتَ في محنةٍ يَصْعُبُ الخلاصُ منها؛ فليسَ لك إلَّا الدُّعاءُ واللَّجَأُ إلى اللهِ بعدَ أنْ تُقَدِّمَ التوبةَ من الذُّنوبِ؛ فإنَّ الزَّلَلَ يوجِبُ العقوبةَ؛ فإذا زالَ الزَّلَلُ بالتوبةِ من الذُّنوبِ؛ ارتفعَ السببُ.

---

(١) الأصل أن يقصد بالصفح وجه الله وكسب رضاه!

فإذا تُبْتَ ودَعَوْت ولم تَرَ للإجابةِ أثرًا؛ فَتَفَقَّدْ أمرَكَ؛ فربَّما كانتِ التوبةُ ما صَحَّتْ، فصحِّحْهـا، ثم ادْعُ، ولا تَمَلَّ من الدُّعاءِ؛ فربَّما كانتِ المصلحةُ في تأخيرِ الإجابةِ، وربَّما لم تكنِ المصلحةُ في الإجابةِ؛ فأنتَ تُثابُ وتُجابُ إلى منافِعِكَ، ومِن منافِعِكَ أنْ لا تُعْطى ما طَلَبْتَ، بل تُعَوَّضَ غَيْرَهُ.

فإذا جاء إبليسُ، فقالَ: كم تَدْعوهُ ولا ترى إجابةً! فقلْ: أنا أتعبَّدُ بالدُّعاءِ، وأنا موقِنٌ أنَّ الجوابَ حاصِلٌ؛ غيرَ أنَّه ربَّما كان تأخيرُهُ لبعضِ المصالح عليَّ مناسِبٌ، ولو لم يحصُلْ؛ حَصَلَ التعبُّدُ والذُّلُّ.

فإيَّاك أنْ تسألَ شيئًا إلَّا وتقرِنه بسؤالِ الخِيَرَةِ؛ فربَّ مطلوبٍ من الدُّنيا كان حصولُه سببًا للهلاكِ.

وإذا كنتَ قد أُمِرتَ بالمشاورةِ في أمورِ الدُّنيا لجليسِكَ لِيُبَيِّنَ لك في بعضِ الآراءِ ما يُعْجِزُ رأيَكَ وترى أنَّ ما وَقَعَ لك لا يَصْلُحُ؛ فكيفَ لا تسألُ الخيرَ ربَّكَ وهو أعلمُ بالمصالحِ؟! والاستخارةُ من حُسْنِ المشاورةِ.

٢٥٠ ـ فصل

[في انتشار الفساد في معظم أوساط البشر]

نظرتُ إلى الناسِ، فرأيتُهم ينقسمونَ بين عالم وجاهِلٍ:

* **فأمّا الجهّالُ**؛ فانْقَسَموا:

فمنهُم سلطانٌ قد رُبِّيَ في الجهلِ ولُبْسِ الحريرِ وشُرْبِ الخُمورِ وظُلْمِ الناسِ، وله عُمَّالٌ على مثل حالِهِ؛ فهؤلاءِ بمَعْزِلٍ عنِ الخيرِ بالجملةِ.

ومنهم تُجَّارٌ؛ هِمَّتُهُمُ الاكتسابُ وجمعُ الأموال، وأكثرُهُم لا يؤدِّي الزَّكاةَ ولا يتحاشى مِن الرِّبا؛ فهٰؤلاءِ في صُوَرِ الناسِ (١).

ومنهم أربابُ معاشٍ؛ يطفِّفونَ المكيالَ، ويُخْسِرونَ الميزانَ، ويبْخَسونَ الناسَ، ويتعاملونَ بالرِّبا، وهم في الأسواقِ طولَ النهارِ، لا هِمَّةَ لهم إلَّا ما هُم فيه؛ فإذا جاءَ الليلُ؛ وَقَعوا نيامًا كالسُّكارى؛ فَهِمَّةُ أحدِهِم ما يأكلُ ويلتذُّ به، وليس عندَهم من الصلاةِ خَبَرٌ؛ فإنْ صلَّى أحدُهُم؛ نَقَرَها أو جَمَعَ بينَهما؛ فهٰؤلاءِ في عِدادِ البهائم.

ومن الناس ذوو رذالةٍ في جميع أحوالِهم؛ فهٰذا كَنَّاسٌ، وهٰذا زَبَّالٌ، وهٰذا نَخَّالٌ، وهٰذا يَكْسَحُ الحُشَّ؛ فهٰؤلاءِ أرذلُ القوم(٢).

ومنهم مَن يَطْلُبُ اللَّذَّاتِ ولا يساعدُهُ المعاشُ، فيخْرُجُ إلى قَطْعِ الطريقِ! وهٰؤلاء أحمقُ الجماعةِ؛ إذ لا عَيْشَ لهم؛ فإنِ الْتَذُّوا لحظةً بأكلٍ أو شُرْبٍ، فحركتِ الريحُ قَصَبَةً؛ هَرَبوا خوفًا مِن السُّلطانِ، وما أقلَّ بقاءَهم! ثم القتلُ والصلبُ، مع إثم الآخرةِ.

ومنهم أربابُ قُرىً قد عمَّهُمُ الجهلُ، وأكثرُهُم لا يتحاشى مِن نَجاسةٍ؛ فهم في زمرةِ البقرِ.

ورأيتُ النِّساءَ ينقسمنَ أيضًا؛ فمنهن المُسْتَحْسَنَةُ التي تَبْغي(٣)،

(١) يعني أنهم ليسوا ناسًا على الحقيقة.

(٢) لا والله؛ فإن كانوا محتاجين، فخرجوا على أسرهم يعيلونهم طلبًا للستر واتقاء لسؤال الناس؛ فهم في سبيل الله، وأراذل الناس هم العطالون البطالون العالة، ولو علت رتبهم وأشير إليهم بالبنان.

(٣) التي تصبح بغيًا.

ومنهن الخائنةُ لزوجِها في مالِه، ومنهنَّ مَن لا تصلِّي ولا تعرِفُ شيئًا مِن الدِّين؛ فهؤلاءِ حَشْوُ النار؛ فإذا سَمِعْنَ موعظةً؛ فإنَّها كما مرَّت على حجرٍ! وإذا قُرِىءَ عندهنَّ القرآنُ؛ فكأنَّهنَّ يسمعنَ السَّمَرَ!!

* **وأما العلماءُ:**

فالمبتدِئونَ منهم ينقسِمونَ إلى ذي نيَّةٍ خبيثةٍ؛ يقصِدُ بالعلم المباهاةَ لا العملَ، ويميلُ إلى الفِسْقِ؛ ظنًّا أنَّ العلمَ يَدْفَعُ عنه، وإنما هو حُجَّةٌ عليه.

وأما المتوسِّطونَ والمشهورونَ؛ فأكثرُهُم يَغْشى السلاطينَ، ويسكُتُ عن إنكارِ المنكَرِ.

وقليلٌ مِن العلماءِ مَن تَسْلَمُ له نِيَّتُهُ ويَحْسُنُ قصدُهُ.

فمَن أرادَ اللهُ به خيرًا؛ رَزَقَهُ حُسْنَ القَصْدِ في طلبِ العلم؛ فهو يحصِّلهُ لينتفعَ به ويَنْفَعَ، ولا يبالي بعملٍ ممّا يَدُلُّهُ عليه العلمُ؛ فتراهُ يتجافى أربابَ الدُّنيا، ويحذَرُ مخالطةَ العوامِّ، ويَقْنَعُ بالقليل؛ خوفًا من المخاطرةِ في الدُّنيا في تَحْصيل الكثيرِ، ويؤثِرُ العُزْلَةَ؛ فليس مذكِّرًا للآخرةِ مثلُها.

وليسَ على العالمِ أضرُّ من الدُّخول على السَّلاطين؛ فإنَّه يُحَسِّنُ للعالِمِ الدُّنيا ويهوِّنُ عليه المنكَرَ، وربَّما أرادَ أن يُنْكِرَ فلا يَصِحُّ له!

فإنْ عَدِمَ القناعةَ وغَلَبَتْهُ نفسُهُ في طَلَبِ فضولِ الدُّنيا؛ سُلِّمَ عليه[1]؛ لأنه يتعرَّضُ بأربابِها، وإنَّ الإنسانَ لَيمشي في السوقِ ساعةً فينسى بما يَرى ما يعلمُ؛ فكيفَ إذا انضمَّ إلى ذلك التردُّدُ إلى الأغنياءِ والطمعُ في

(١) يعني: انتهى أمره، وتأكد سقوطه في الهوة.

أموالِهم؟!

فأمّا الوَحْدَةُ؛ فإنَّها سببُ رجوعِ القلبِ، وجَمْعِ الهَمِّ، والنظرِ في العواقبِ، والتهيُّؤِ للرحيلِ، وتحصيلِ الزَّادِ؛ فإذا انضمَّتْ إليها القناعةُ؛ جلبتِ الأحوالَ المستحسنةَ.

ولا تَحْسُنُ اليومَ المجالسةُ إلَّا لكتابٍ يحدِّثُكَ عن أسرارِ السَّلَفِ؛ فأمّا مجالسةُ العلماءِ؛ فمخاطرةٌ؛ إذ لا يجتمعونَ على ذِكْرِ الآخرةِ في الأغلبِ، ومجالسةُ العوامِّ فِتنةٌ للدِّين؛ إلَّا أن يَحْتَرِزَ في مجالِسِهم، ويمنَعَهم من القولِ، فيقولُ هو، ويكلِّفُهُمُ السماعَ، ثم يَسْتَوْفِزُ(١) للبعدِ عنهم.

ولا يمكنُ الانقطاعُ الكلِّيُّ إلَّا بقطعِ الطَّمَعِ، ولا ينقطِعُ الطمعُ إلَّا بالقناعةِ باليسيرِ، أو يتَّجِرُ بتجارةٍ، أو أن يكونَ له عَقارٌ يَسْتَغِلُّه؛ فإنه متى احتاجَ تشتَّتَ الهمُّ، ومتى انقطعَ العالِمُ عن الخَلْقِ وقَطَعَ طَمَعَهُ فيهم وتَوَفَّرَ على ذِكْرِ الآخرةِ؛ فذاكَ الذي يَنْفَعُ ويُنْتَفَعُ به.

واللهُ الموفقُ.

٢٥١ ـ فصل
[بالعلم والعمل تُنال الجنة]

مَن تأمَّلَ بعينِ الفكرِ دوامَ البقاءِ في الجنَّةِ؛ في صفاءٍ بلا كَدَرٍ، ولذَّاتٍ بلا انقطاعٍ، وبلوغِ كلِّ مطلوبٍ للنفسِ، والزيادةِ ممَّا لا عينَ رأتْ،

(١) يعني: يكون متوفِّزًا مستعدًّا للبعد عنهم بأسرع ما يمكنه.

ولا أُذُنَ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ؛ من غيرِ تغييرٍ ولا زوالٍ؛ إذ لا يُقالُ: ألفُ ألفِ سنةٍ، ولا مئةُ ألفِ ألفٍ، بل ولو أنَّ الإنسانَ عَدَّ الألوفَ ألوفَ السنينَ لانْقَضى عددُه وكانَ له نهايةٌ، وبقاءُ الآخرةِ لا نفادَ له.

إلَّا أنه لا يَحْصُلُ ذٰلك إلَّا بنقدِ هٰذا العُمُرِ.

وما مقدارُ عُمُرٍ غايتُه مئةُ سنةٍ، منها خمسةَ عشرَ صَبْوةٌ وجَهْلٌ، وثلاثونَ بعدَ السبعينَ - إنْ حَصَلَتْ - ضَعْفٌ وعَجْزٌ، والتوسُّطُ نصفُهُ نومٌ، وبعضُه زمانُ أكلٍ وشُربٍ وكَسْبٍ، والمنتحلُ منه للعباداتِ يسيرٌ؟!

أفلا يُشْتَرى ذٰلك الدائمُ بهٰذا القليلِ؟!

إنَّ الإعراضَ عن الشُّروعِ في هٰذا البيعِ والشراءِ لَغَبْنٌ فاحشٌ في العقلِ وخللٌ داخلٌ في الإيمانِ بالوعدِ.

فإنَّ مَن يَدْري كيفَ يُعْقَدُ البَيْعُ بالعِلْمِ؛ هو الذي يَدُلُّ على الطريقِ، ويعرِّفُ ما يَصْلُحُ لها، ويحذِّرُ من قُطَّاعِها.

ولقد دَخَلَ إبليسُ على طائفةٍ من المتزهِّدينَ بآفاتٍ، أعظمُها أنَّه صرفَهم عن العلمِ، فكأنَّه شَرَعَ في إطفاءِ المصباحِ لِيَسْرِقَ في الظُّلمةِ، حتى إنه أخذَ قومًا مِن كبارِ العُلَماءِ، فَسَلَكَ بهم من ذٰلك ما ينهى عنه العلمُ.

فرأيتُ أبا حامدٍ الطوسيَّ[1] يَحْكي عن نفسِهِ في بعضِ مصنَّفاتِهِ؛ قالَ: شاورتُ مَتْبوعًا مقدَّمًا من الصُّوفيةِ في المواظبةِ على تلاوةِ القرآنِ؟ فَمَنَعَني منه! وقالَ: السبيلُ أنْ تَقْطَعَ علائِقَكَ من الدُّنيا بالكلِّيَّةِ؛ بحيثُ لا يلتفتُ قلبُكَ إلى أهلٍ وولدٍ ومالٍ وعلمٍ، بل تصيرُ إلى حالةٍ يستوي عندَكَ

(١) هو الإمام الغزالي، تقدمت ترجمته في (فصل ٦٩).

وجودُ ذٰلك وعدمُه، ثم تخلو بنفسِكَ في زاويةٍ، فتقتصِرُ من العبادةِ على الفرائضِ والرَّواتب، وتجلِسُ فارغَ القلب، ولا تزالُ تقولُ: اللهُ، الله. . . إلى أن تَنْتَهِيَ إلى حالةٍ؛ لو تركتَ تحريكَ اللسانِ؛ رأيتَ كأنَّ الكلمةَ جاريةٌ على لسانِكَ، ثم تنظُرُ ما يُفْتَحُ عليك مما فُتِحَ مثلُه على الأنبياءِ والأولياءِ!!

قلتُ: وهٰذا أمرٌ لا أتعجَّبُ أنا فيه من الموصي به، وإنما أتعجَّبُ من الـذي قَبِلَهُ مع معرفتِهِ وفهمِهِ!! وهل يُقْطَعُ الطريقُ بالإعراضِ عن تلاوةِ القرآنِ؟! وهل فُتِحَ للأنبياءِ ما فُتِحَ بمجاهدتِهِم ورياضتِهِم؟! وهل يوثَقُ بما يَظْهَرُ مِن هٰذه المسالِكِ؟! ثم ما الذي يُفْتَحُ؟! أثَمَّ اطلاعٌ على علم الغيبِ أم هو وحيٌ؟!

فهٰذا كلُّه من تلاعُبِ إبليسَ بالقومِ، وربَّما كانَ ما يَتَخايَلُ لهم مِن أثرِ الماليخوليا أو مِن إبليسَ.

فعليكَ بالعلم، وانْظُرْ في سِيَرِ السَّلَفِ؛ هل فَعَلَ أحدٌ منهم مِن هٰذا شيئًا أو أمَرَ به؟! وإنَّما تَشاغَلوا بالقرآنِ والعلم، فدلَّهُم على إصلاحِ البواطِنِ وتصفِيَتِها.

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ عِلْمًا نافعًا، ودفعًا للعدوِّ مانِعًا؛ إنه قادرٌ.

٢٥٢ ـ فصل

[نصائح في معاملة الحبيب والبغيض]

مَن أرادَ اصطفاءَ محبوبٍ؛ فالمحبوبُ نوعانِ: امرأةٌ يُقْصَدُ منها حُسنُ الصورةِ، وصديقٌ يُقْصَدُ منه حسنُ المعنى.

فإذا أعجبكَ صورةُ امرأةٍ؛ فتأمَّلْ خِلالَها الباطنةَ مُدَيْدةً قبل أن يَتَعَلَّقَ

القلبُ بها تعلُّقًا مُحْكَمًا؛ فإن رأيتَها كما تحبُّ ـ وأصلُ ذٰلك كلِّه الدِّينُ؛ كمـا قال: «عليك بذاتِ الـدِّينِ»[١] ـ؛ فَمِلْ إليها، واسْتَوْلِدْها، وكنْ في ميلِكَ معتـدِلًا؛ فإنَّـه من الغلطِ أن تُظْهِـرَ لمحبوبكَ المحبَّةَ؛ فإنه يشتطُّ عليكَ، وتَلْقى منـه الأذى مِن التجنِّي والهِجْرانِ والإدلالِ وطَلَبِ الإنفاقِ الكثيرِ ـ وإنْ كانتْ تحبُّكَ ـ؛ لأنَّ هٰذا إنما يَجْتَلِبُهُ حبُّ الإدلالِ والتسلُّطِ على المقهورِ.

وثَمَّ نُكتةٌ عجيبةٌ، وهو أنك ربما عَمِلْتَ بمقتضى الحالِ الحاضرةِ، وهي تَحْكُمُ بكمـالِ الحبِّ، ثم إنَّ ذٰلـك لا يَثْبُتُ إليك، فتقـعُ، وتبقى مَقْهـورًا، ويصعُبُ عليك الخلاصُ! وربما تَمكَّنَتْ منكَ بمعرفةِ سِرِّكَ أو بأخذِ كثيرٍ من مالِكَ.

ومن أحسنِ ما بَلَغَني في هٰذا أنَّ جاريةً لبعضِ الخلفاءِ كانتْ تحبُّهُ حُبًّا شَديدًا، ولا تُظْهِرُ له ذٰلك، فسُئِلَتْ عن هٰذا؟ فقالتْ: لو أظهرتُ ما عندي، فجفاني؛ هلكتُ.

قالَ الشاعرُ:

لا تُظْهِـرَنَّ مَوَدَّةً لِحَـبـيـبِ ... فَتَـرى بعَيْنِـكَ منـهُ كلَّ عَجيبِ

أظْـهَـرْتُ يَوْمًـا للحـبـيـبِ مَوَدَّتي ... فأخَـذْتُ مِن هِجْـرانِـهِ بنَصيبي

وكذا ينبغي أن تَكْتُمَ بعضَ حُبِّكَ للولدِ؛ لأنَّه يَتَسلَّطُ عليكَ، ويُضيعُ

---

(١) جزء من حديث رواه: البخاري (٨ ـ كتاب الصلاة، ٥٩ ـ باب الصلاة إذا قدم من سفر، ١ / ٥٣٧ / ٤٤٣)، ومسلم (١٧ ـ كتاب الرضاع، ١٥ ـ باب استحباب نكاح ذات الدين، ٢ / ١٠٨٧ / ١٤٦٦)؛ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

مالَكَ، ويبالغُ في الإدلالِ، ويمتَنِعُ عن التعلُّم والتأدُّبِ.

وكذلك إذا اصطفيتَ صديقًا وخَبَرْتَهُ؛ فلا تُخْبِرْهُ بكلِّ ما عندكَ، بل تَعاهَدْه بالإحسانِ كما تتعاهَدُ الشجرةَ؛ فإنها إذا كانتْ جيدةَ الأصل؛ حَسُنَتْ ثمرتُها بالتَّعاهُدِ، ثم كُنْ منه على حَذَرٍ؛ فقد تَتَغَيَّرُ الأحوالُ، وقد قيلَ:

احْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً واحْذَرْ صَديقَكَ أَلْفَ مَرَّهْ
فَلَرُبَّما انْقَلَبَ الصَّدِيْـ ـقُ فَكانَ أدْرَى بالمَضَرَّهْ

وأما إذا أبغضتَ شَخْصًا لأنه يَسوؤكَ؛ فلا تُظْهِرَنَّ ذلك؛ فإنَّك تنبِّهُهُ على أخذِ الحذرِ منك وتدعوه إلى المبارزةِ، فيبالغُ في حربِكَ والاحتيالِ عليكَ، بل يَنْبَغي أن تُظْهِرَ له الجميلَ إن قَدَرْتَ، وتَبَرَّهُ ما استطعتَ، حتى تنكسرَ معاداتُهُ بالحياءِ من بُغْضِكَ؛ فإن لم تُطِقْ؛ فَهَجْرٌ جميلٌ لا تُبِينُ فيه ما يؤذي، ومتى سمعتَ عنه كلمةً قَذِعةً؛ فاجعلْ جوابَها كلمةً جميلةً؛ فهي أقوى في كفِّ لسانِهِ.

وكذلك جميعُ ما يُخاف إظهارهُ؛ فلا تتكلَّمَنَّ به؛ فربما وقعتْ كلمةٌ أسقطتَ بها عِزَّ السلطانِ، فنُقِلَتْ إليهِ، فكانتْ سببَ هلاكِكَ... أو عن صديقٍ، فكانتْ سَبَبَ عداوتِهِ، أو صرتَ رهينًا لِمَنْ سَمِعَها خائفًا أن يُظْهِرَها.

فالحزمُ كِتمانُ الحبِّ والبغضِ.

وكذا يَنْبَغي أن تَكْتُمَ سِنَّكَ؛ فإنْ كنتَ كبيرًا؛ اسْتَهْرَموكَ، وإن كنتَ صَغيرًا؛ اسْتَحْقَروكَ.

وكـذلـك مِقدارُ مالِكَ؛ فإنه إنْ كانَ كثيرًا؛ نسبوكَ في نفقتِك إلى البُخل، وإنْ كانَ قليلاً؛ طَلَبوا الراحةَ منكَ.

وكذلك المذهبُ؛ فإنَّك إنْ أظْهَرْتَهُ؛ لم تأمنْ أن يَسْمَعَهُ مخالفٌ، فيقطعَ بكُفْرِكَ.

وقد أنشدنا محمدُ بن عبد الباقي البزازُ[1]:

احْفَظْ لِسـانَـكَ لا تَبُحْ بِثَلاثَـةٍ سِنٍّ ومـالٍ ما اسْتَطَعْتَ ومَذْهَبِ
فعلى الثَّـلاثَـةِ تُبْتَلى بثـلاثَـةٍ بمُمَـوِّهٍ ومُمَخْـرِقٍ ومُكَـذِّبِ

٢٥٣ـ فصل

[خادم السلطان كراكب البحر]

طال تعجُّبي من مؤمنٍ باللهِ عزَّ وجلَّ، مؤمنٍ بجزائِهِ، يؤثرُ خدمةَ السُّلطانِ، مع ما يَرى منهُ من الجَوْرِ الظاهرِ؛ فوا عجبًا! ما الذي يُعْجِبُهُ؟!

إن كانَ الذي يعجبُهُ دنيويًّا؛ فليس ثَمَّ إلَّا أنْ يُصاحَ بين يديهِ بسم اللهِ، وأن يتصدَّرَ في المجالسِ، ويلويَ عُنُقَهُ كِبْرًا على النُّظَراءِ، ويأخذَ الأسْحاتَ[2] وهو يعلمُ مِن أين حَصَلَ، وربَّما انبسطَ في البَراطيلِ[3]...

ثم يقابِلُ هذا أن يُصادَرَ ويُعْزَلَ، فتَسْتَخْرِجَ منه تلك المرارةُ كلَّ حلاوةٍ

(١) هو الشيخ، الإمام، العالم، المتفنن، مسند العصر، ولد سنة ٤٤٢هـ، وتوفي سنة ٥٣٥هـ. وانظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٢٠ / ٢٣)، و«البداية والنهاية» (٨ / ٣٥٨).

(٢) جمع سحت، وهو المال الحرام.

(٣) البراطيل: جمع برطيل، وهو الرشوة.

كانت في الولايةِ. . . وربَّما كانَ قريبَ الحالِ[١]، فافْتَقَرَ بالمصادرةِ جدًّا، ثم تنطلقُ الألسنُ المادحةُ بالذَّمِّ.

ثم لو سَلِمَ من هٰذا؛ فإنَّه لا يسلمُ مِن الرقيبِ له والحَذرِ منهُ؛ فهو كراكبِ البحرِ، إن سَلِمَ بدنُهُ من الغرقِ؛ لم يسلمْ قلبُهُ من الخوفِ.

وإن كان دَيِّنـا؛ فإنَّـه يعلمُ أنَّهم لا يمكِّنونَهُ في الغالبِ من العمل بمقتضى الدينِ؛ فإنَّهم يأمُرونَه بِتَرْكِ ما يجبُ وفِعْل ما لا يجوزُ، فيذهبُ دينُه على الباردِ! ولَعِقابُ الآخرةِ أشَقُّ.

٢٥٤ـ فصل

[سؤال الناس مذلة]

العَجَبُ مِن الذي أنِفَ الذُّلَّ! كيف لا يصبِرُ على جافِّ الخبزِ، ولا يتعرَّضُ لمِنَنِ الأنذال؟!

أتراه ما يعلمُ أنَّه ما بقيَ صاحبُ مروءةٍ؟! وأنَّه إنْ سألَ؛ سألَ بخيلاً لا يُعطي؛ فإنْ أعطى نَزْرًا؛ فإنَّه يَسْتَعْبِدُ المعطَى بذٰلك العُمُرَ؟!

ثم ذاك القَـدْرُ النَّـزْرُ يذهبُ عاجلاً، وتبقى المِنَنُ والخجلُ ورؤيةُ النفسِ بعينِ الاحتقارِ؛ إذ صارتْ سائلةً، ورؤيةُ المعطي بعينِ التعظيم أبدًا.

ثم يوجِبُ ذٰلـك السكوتَ عن معائبِ المُعْطي، والبِدارَ إلى قضاءِ حقوقِهِ وخدمتِهِ فيما يفي.

(١) قريب الحال: يعني: فقيرًا ليس غنيًّا.

وأعجبُ من هٰذا مَن يَقْدِرُ أنْ يَسْتَعْبِدَ الأحرارَ بقليل العطاءِ الفاني ولا يفعلُ؛ فإنَّ الحُرَّ لا يُشْتَرى إلَّا بالإحسانِ.

قالَ الشاعرُ:

تَفَضَّلْ على مَنْ شِئْتَ واعْنَ بأمْرِهِ فأنتَ ولَوْ كانَ الأميرَ أميرُهُ
وكُنْ ذا غِنىً عَمَّنْ تشاءُ مِن الورى ولو كانَ سُلْطانًا فأنتَ نَظيرُهُ
ومَن كُنْتَ مُحْتاجًا إليه وواقِفًا على طَمَعٍ منهُ فأنتَ أسيرُهُ

٢٥٥ ـ فصل

[في سر العلاقة بين الرجل والمرأة]

ينبغي للصبيِّ إذا بَلَغَ أن يَحْذَرَ كثرَة الجماع؛ ليبقى جَوْهَرُه، فيفيدَه ذٰلك في الكِبَرِ؛ لأنَّه مِن الجائزِ كِبَرُهُ، والاستعدادُ للجائزِ حزمٌ؛ فكيفَ للغالبِ؟! كما ينبغي أن يستعدَّ للشتاءِ قبل هُجومِهِ، ومتى أنفقَ الحاصلَ وقتَ القُدْرَةِ؛ تأذَّى بالفقرِ إليه وقتَ الفاقةِ.

وليعلمْ ذو الدِّينِ والفَهْم أنَّ المتعةَ إنَّما تكونُ بالقرب من الحبيب، والقربُ يَحْصُلُ بالتقبيل والضمِّ، وذٰلك يقوِّي المحبةَ، والمحبةُ يَلَذُّ وجودُها، والوطءُ يَنْقُصُ المحبةَ ويُعْدِمُ تلك اللَّذَّةَ(1)!!

وقد كان العربُ يعشَقونَ، ولا يَرَوْنَ وطءَ المعشوقِ! قالَ قائِلُهم: إنْ نَكَحَ الحُبُّ فَسَد!

(١) وليس هٰذا صحيحًا البتة، بل الوطء جزء من السكن الذي أشار إليه الله سبحانه في قوله: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينك مودة ورحمة إن في ذٰلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ [الروم: ٢١].

فأما الالتذاذُ بنفسِ الوطءِ؛ فشأنُ البهائم(١).

ولقد تأملتُ المرادَ مِن الوَطْءِ، فوجدتُ فيه معنىً عجيبًا يخفى على كثيرٍ مِن الناس، وهو أنَّ النفسَ إذا عَشِقَتْ شخصًا؛ أحبَّتِ القربَ منه؛ فهي تؤثِرُ الضمَّ والمعانقةَ؛ لأنَّهما غايةٌ في القُرْب. ثم تريدُ قُربًا يزيدُ على هذا، فَيُقَبِّلُ الخدَّ. ثم تطلبُ القُرْبَ مِن الرُّوح، فَيُقَبِّلُ الفمُ؛ لأنَّه منفَذٌ إلى الرُّوح. ثم تطلبُ الزيادةَ، فيُمَصُّ لسانُ المحبوبِ، وقد كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يتـوشَّحُ عائشةَ، ويقبِّلُها، ويَمَصُّ لسانَها(٢). فإذا طلبتِ النفسُ زيادةً في القُرْبِ إلى النفسِ؛ استعملتِ الوَطْءَ.

فهٰذا سِرُّهُ المعنويُّ، ويحصُلُ منه الالتذاذُ الحسيُّ.

---

(١) وهٰذه مكابرة عجيبة أيضًا! ولو صدق ابن الجوزي رحمه الله؛ لكان أهل الجنة أكثر الناس بهيمية!!

(٢) التوشح: المعانقة والتقبيل.

وأما أن النبي ﷺ كان يتوشح عائشة رضي الله عنها ويقبلها؛ فقد مضى تخريجه من «الصحيحين» في (فصل ١٦٢).

وأما أنها كان يمص لسانها؛ فلا يصح، وقد ورد فيه حديثان ضعيفان:

فأولهما: ما رواه: أبو داوود (٨ ـ كتاب الصيام، ٣٥ ـ باب الصائم يبلع الريق، ١ / ٧٢٦ / ٢٣٨٦)؛ من طريق محمد بن دينار، ثنا سعد بن أوس، عن مصدع بن يحيى، عن عائشة: أن النبي ﷺ كان يقبلها وهو صائم ويمص لسانها. وهٰذا سند ضعيف: مصدع: مقبول عند المتابعة، وإلا؛ فلين، ولا متابع له. وسعد: صدوق له أغاليط. ومحمد بن دينار: سيىء الحفظ. فالسند ضعيف، وضعفه الألباني.

والآخر: ما رواه الترقفي في «جزئه» (٤٦٢٧ ـ ضعيف الجامع) عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان يمص اللسان. وضعفه الألباني.

ولا وجه لتقوية أحد السندين بالآخر؛ للاختلاف الكبير بين متنيهما.

٢٥٦ـ فصل

[من أضرار علم الكلام]

ليس على العوامِّ أضرَّ من سماعِهم علمَ الكلام.

وإنما ينبغي أن يُحَذَّرَ العوامُّ من سماعِهِ والخوضِ فيه كما يُحَذَّرُ الصبيُّ من شاطئ النهر خوفَ الغَرَقِ.

وربما ظنَّ العاميُّ أنَّ له قوةً يدركُ بها هٰذا، وهو فاسدٌ؛ فإنَّه قد زَلَّ في هٰذا خَلْقٌ من العلماءِ؛ فكيفَ العوامُّ؟!

وما رأيتُ أحمقَ من جُمهور قصاصِ زمانِنا؛ فإنه يَحْضُرُ عندَهُم العوامُّ الغُشْمُ، فلا يَنْهَوْنَهم عن خمرٍ وزنى وغِيبةٍ، ولا يعلِّمونَهم أركانَ الصَّلاةِ ووظائفَ التعبُّدِ، بل يملؤونَ الزمانَ بذِكْرِ الاستواءِ وتأويلِ الصفاتِ، وأنَّ الكلامَ قائمٌ بالذَّاتِ، فيتأذَّى بذٰلك مَن كانَ قلبُهُ سليمًا.

وإنما على العاميِّ أنْ يؤمِنَ بالأصولِ الخمسةِ؛ باللهِ، وملائكتهِ، وكتبِهِ، ورسلِهِ، واليومِ الآخرِ، ويَقْنَعَ بما قال السَّلَفُ: القرآنُ كلامُ اللهِ غيرُ مخلوقٍ، والاستواءُ حقٌّ، والكيفُ مجهولٌ.

ولِيُعْلَمْ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يكلِّفِ الأعرابَ سوى مجرَّدِ الإيمانِ، ولم تتكلَّم الصحابةُ في الجواهِرِ والأعراضِ؛ فمَن ماتَ على طريقِهم؛ ماتَ مؤمنًا سليمًا من بدعةٍ. ومَن تعرَّضَ لساحل البحرِ، وهو لا يُحْسِنُ السباحةَ؛ فالظاهِرُ غَرَقُهُ[1].

(١) ما نعلم أحدًا دخل في متاهات علم الكلام فخرج منها فائزًا راضيًا؛ فأبعده الله من علم.

٢٥٧ ـ فصل

[أشد الناس جهلاً منهوم باللذات]

أشدُّ الناسِ جهلاً منهومٌ باللَّذَّاتِ.

واللَّذَّاتُ على ضربينِ: مباحةٌ ومحظورةٌ:

فالمباحةُ لا يكادُ يَحْصُلُ منها شيءٌ إلَّا بضَياع ما هو مهمٌّ من الدِّينِ؛ فإذا حَصَلَتْ منها حَبَّةٌ؛ قارنَها قنطارٌ من الهمِّ... ثم لا تكادُ تَصْفو في نفسِها، بل مكدِّراتُها ألوفٌ... فإذا صَوَّرَ عدمَها بعدَ انقضائِها وبقاءَ هٰذه الألوفِ المكدِّرةِ؛ صارَ التصويرُ مُغَلْصِمًا(١) للهوى محزنًا للنفسِ... فإذا أُنِفَتْ؛ أُنِفَتْ من الأسفِ على الدَّوام ما لا تحويه صفةٌ؛ فهي تغرُّ الغُمْرَ، وتَهْدِمُ العُمُرَ، وتُديم الأسى.

ومع هٰذا؛ فالمنهومُ كلَّما عَبَّ مِن لَذَّةٍ؛ طَلَبَ أختَها، وقد عَرَفَ جِنايةَ الأولى وخيانَتَها... وهٰذا مرضُ العقل وداءُ الطبع... فلا يزالُ هٰذا كذٰلك إلى أن يُخْتَطَفَ بالموتِ، فيُلْقى على بساطِ ندمٍ لا يُسْتَدْرَكُ.

فالعجبُ ممَّن هِمَّتُهُ هٰكذا مع قِصَرِ العُمُر، ثم لا يهتمُّ بآخرتِه؛ التي لَذَّتُها سليمةٌ من شائبٍ، منزهَّةٌ عن عائبٍ، دائمةُ الأمدِ، باقيةٌ ببَقاءِ الأبدِ!

وإنما يَحْصُلُ تقريبُ هٰذه بإبْعادِ تلكَ، وعِمرانُ هٰذه بتخريبِ تلك.

فوا عجبًا لعاقلٍ حَصيفٍ حسنِ التَّدْبيرِ؛ فاتَه النظرُ في هٰذه الأحوال، وغَفَلَ عن التمييزِ بين هٰذينِ الأمرينِ!

---

(١) صار التصوير مغلصمًا للهوى؛ يعني: صار غصة في حلقه.

وإن كانتِ اللَّذَّةُ معصيةً؛ انضمَّ إلى ما ذَكَرْناهُ: عارُ الدُّنيا، والفضيحةُ بينَ الخلقِ، وعقوبةُ الحدودِ، وعقابُ الآخرةِ، وغَضَبُ الحقِّ سبحانَه.

باللهِ؛ إنَّ المباحاتِ تَشْغَلُ عن تَحْصيل الفضائل؛ فَذُمَّ ذلك لبيانِ الحَزْم؛ فكيف بالمحرَّماتِ التي هي غايةُ الرَّذائل؟!

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ يَقَظَةً تحرِّكُنا إلى منافِعِنا وتُزْعِجُنا عن خوادِعِنا؛ إنَّه قريبٌ.

٢٥٨ ـ فصل

[في أسباب تراخي الخلق في الإقبال على الله تعالى]

تأملتُ على الخلقِ، وإذا هم في حالةٍ عجيبةٍ، يكادُ يُقْطَعُ معها بفسادِ العقل!

وذلك أنَّ الإنسانَ يَسْمَعُ المواعِظَ، وتُذْكَرُ له الآخرةُ، فيعلَمُ صِدْقَ القائل، فيبكي وينزعجُ على تفريطِهِ، ويعزمُ على الاستدراكِ، ثم يتراخى عملُهُ بمُقْتضى ما عَزَمَ عليه؛ فإذا قيلَ له: أتَشُكُّ فيما وُعِدْتَ به؟ قال: لا واللهِ. فيقالُ له: فاعْمَلْ! فينوي ذلك، ثم يتوقَّفُ عنِ العمل، وربَّما مالَ إلى لَذَّةٍ محرَّمةٍ، وهو يعلمُ النهي عنها!

ومِن هذا الجنسِ تأخُّرُ الثلاثةِ الذين خُلِّفوا، ولم يكنْ لهمْ عُذْرٌ، وهم يعلمونَ قُبْحَ التأخُّرِ(١)، وكذلك كلُّ عاصٍ ومفرِّطٍ.

---

(١) قصة الثلاثة الذين خلفوا رواها: البخاري (٦٤ ـ كتاب المغازي، ٧٩ ـ باب =

فتأملتُ السببَ، مع أنَّ الاعتقادَ صحيحٌ والفعلَ بطيءٌ؛ فإذا له ثلاثةُ أسبابٍ:

أحدُها: رؤيةُ الهوى العاجل؛ فإنَّ رؤيتَهُ تَشْغَلُ عن الفكرِ فيما يَجْنيهِ.

والثاني: التسويفُ بالتوبةِ؛ فلو حَضَرَ العقلُ؛ لحذَّرَ من آفاتِ التأخيرِ؛ فربَّما هَجَمَ الموتُ ولم تحصُلِ التوبةُ! والعجبُ ممَّن يُجَوِّزُ سَلْبَ روحِهِ قبل مُضِيِّ ساعةٍ، ولا يعملُ على الحزم! غيرَ أنَّ الهوى يطيلُ الأمدَ.

وقد قالَ صاحبُ الشرع ﷺ: «صلِّ صلاةَ مودِّع»(١)، وهذا نهايةُ

= حديث كعب بن مالك، ٨ / ١١٣ / ٤٤١٨)، ومسلم (٤٩ ـ كتاب التوبة، ٩ ـ باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، ٤ / ٢١٢٠ / ٢٧٦٩).

(١) **(حسن)**. رواه: أحمد (٥ / ٤١٢)، والبخاري في «التاريخ» (٣ / ٢ / ٢١٦)، وابن ماجه (٣٧ ـ كتاب الزهد، ١٥ ـ باب الحكمة، ٢ / ١٣٩٦ / ٤١٧١)؛ عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، ثني عثمان بن جبير، عن أبي أيوب الأنصاري؛ مرفوعًا.

قال أبو نعيم في «الحلية» (١ / ٣٦٢): «غريب من حديث أبي أيوب، لم يروه إلا عبد الله بن عثمان بن خثيم، وروى ابن عمر نحوه عن رسول الله ﷺ».

وقال في «الزوائد»: «إسناده ضعيف. وعثمان بن جبير: قال الذهبي في «الطبقات»: مجهول. وذكره ابن حبان في «الثقات». وقال البخاري وأبو حاتم: روى عن أبيه عن جده عن أبي أيوب». وقال السندي: «لكن كون الحديث من أوجز الكلمات وأجمعها للحكمة يدل على قربه للثبوت؛ فليتأمل».

والشاهد الذي أشار إليه أبو نعيم من حديث ابن عمر رواه الطبراني في «الأوسط» (٥/٢١٥/٤٤٢٤)، وقال في «المجمع» (١٠/٢٣٢): «وفيه من لم أعرفهم».

وله شاهد آخر من حديث سعد رواه الحاكم (٤ / ٣٢٦) وصححه. ووافقه الذهبي. وضعفه الألباني.

الدواءِ لهٰذا الداءِ؛ فإنَّه مَن ظَنَّ أنَّه لا يَبْقى إلى صلاةٍ أخرى؛ جَدَّ واجتهدَ.

والثالثُ: رجاءُ الرحمةِ، فيُرى العاصي يقولُ: ربي رحيمٌ! وينسى أنه شديدُ العقاب!! ولو عَلِمَ أنَّ رحمتَه ليستْ رِقَّةً ـ إذْ لو كانتْ كذٰلك؛ لما ذَبَحَ عُصفورًا ولا آلَمَ طِفلاً ـ وعقابَهُ غيرُ مأمونٍ ـ فإنَّه شَرَعَ قَطْعَ اليدِ الشريفةِ بسرقةِ خمسةِ قراريطَ[1] ـ؛ لجدَّ وأنابَ.

فنسأَلُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يَهَبَ لنا حَزْمًا يَبُتُّ المصالحَ جَزْمًا.

٢٥٩ ـ فصل
[في ذم ثياب العجب والزهد]

نظرتُ في قولِ رسولِ اللهِ ﷺ لما لَبِسَ الخاتَمَ ثم رمى به وقالَ: «شَغَلَني نَظَري إليكم ونَظَري إليه»[2]، وقولِهِ: «هٰذا رجلٌ يَتَبَخْتَرُ في حُلَّتِهِ،

والحديث بمجموع هٰذه الشواهد يرتقي إلى رتبة الحسن إن شاء الله؛ كما أفاده الألباني في «الصحيحة» (١ / ٧٥٨ / ٤٠١).

(١) كما روى: البخاري (٨٦ ـ كتاب الحدود، ١٣ ـ باب قول الله تعالى: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾، ١٢ / ٩٧ / ٦٧٩٥ ـ ٦٧٩٩)، ومسلم (٢٩ ـ كتاب الحدود، ١ ـ باب حد السرقة ونصابها، ٣ / ١٣١٣ / ١٦٨٦)؛ عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قطع سارقًا في مجنٍّ قيمته ثلاثة دراهم.

فلعل القراريط الخمسة المذكورة تساوي هٰذه الدراهم الثلاثة.

(٢) (صحيح). رواه: أحمد (١ / ٣٢٢)، والنسائي (٤٨ ـ كتاب الزينة، ٨١ ـ باب طرح الخاتم وترك لبسه، ٨ / ١٩٥ / ٥٣١٤)؛ من طريق عثمان بن عمر، ثنا مالك بن مغول، عن سليمان الشيباني، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما به.

وهٰذا سند صحيح، وصححه الألباني.

مُرَجِّلًا جُمَّتَهُ؛ خُسِفَ به الأرضُ؛ فهو يَتَجَلْجَلُ فيها إلى يوم القيامةِ»[١]، فرأيتُ أنه لا ينبغي للمؤمنِ أن يَلْبَسَ ثوبًا معجِبًا ولا شيئًا من زينةٍ؛ لأنَّ ذٰلك يوجِبُ النظرَ إلى النفسِ بعينِ الإعجابِ، والنفسُ ينبغي أن تكونَ ذليلةً للخالقِ.

وقد كانَ قدماءُ الأحبارِ في بني إسرائيلَ يمشونَ على العصي؛ لئلَّا يَقَعَ منهم بَطَرٌ في المشي.

ولبستْ أمُّ المؤمنينَ عائشةُ رضي الله عنها دِرْعًا لها، فأُعْجِبَتْ به، فقالَ لها رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إليكِ في حالتِكِ هٰذه»[٢].

ولما لَبِسَ رسولُ اللهِ ﷺ خَميصةً لها أعلامٌ؛ قالَ: «أَلْهَتْني هٰذه عن صلاتي»[٣].

---

(١) رواه: البخاري (٧٧ ـ كتاب اللباس، ٥ ـ باب من جر ثوبه من الخيلاء، ١٠ / ٢٥٨ / ٥٧٨٩)، ومسلم (٣٧ ـ كتاب اللباس والزينة، ١٠ ـ باب تحريم التبختر في المشي، ٣ / ١٦٥٣ / ٢٠٨٨)؛ من حديث أبي هريرة.

(٢) **(لا أصل له)**. رواه: أبو نعيم في «الحلية» (١ / ٣٧): ثنا أحمد بن السندي، ثنا الحسن بن علوية، ثنا إسماعيل بن عيسى، ثنا إسحاق ين بشر، ثنا ابن سمعان، عن محمد بن زيد، عن عروة، عن عائشة: لبست مرة درعًا جديدًا فنظرت إليه وأعجبت به، فقال أبو بكر: ما تنظرين؟ إن الله ليس بناظر إليك. قلت: ومم ذاك؟ قال: أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة؟

وليس بالمرفوع، وإنما هو مروي عن أبي بكر كما ترى، زد على ذٰلك أن سنده مظلم: ابن سمعان: لم أعرفه. وإسحاق بن بشر: صاحب كتاب «المبتدأ»؛ كذاب. وإسماعيل بن عيسى: راوي «المبتدأ»؛ ضعيف.

(٣) رواه: البخاري (٨ ـ كتاب الصلاة، ١٤ ـ إذا صلى في ثوب له أعلام ونظر إلى علمها، ١ / ٤٨٢ / ٣٧٣)، ومسلم (٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ١٥ ـ باب كراهة =

وهٰذا كلُّهُ يوجِبُ الإعراضَ عن الزِّينةِ وما يحرِّكُ إلى الفخرِ والزهوِّ والعُجْبِ.

ولهٰذا حُرِّمَ الحريرُ.

وأقـولُ على أسبـابِ هٰذا: إن المُرَقَّعاتِ التي يتنوَّقُ فيها المتصوفةُ بالسَّوارِكِ والتلميع، ربَّما أوجبتْ زُهُوَّ اللابس: إمّا لِحُسْنِها في ذاتِها، أو لعلمِهِ أنها تنبىء عنه بالتصوُّفِ والزُّهدِ... وكذٰلك الخاتَمُ في اليدِ، وطولُ الأكمام، والنِّعالُ الصَّرَّارةُ[1]... ولا أقولُ: إنَّ هٰذه الأشياءَ تَحْرُمُ، بل ربَّما جَلَبَتْ ما يَحْرُمُ من الزُّهُوِّ.

فينبغي للعاقل أن يَتَنَبَّهَ بما قلتُ في دفع كلِّ ما يَحْذَرُ مِن شرِّهِ.

وقد رَكِبَ ابنُ عمرَ نَجِيبًا، فأعْجَبَهُ مشيُهُ، فَنَزَلَ، وقالَ: يا نافعُ! أخلِهِ في البُدْنِ[2].

٢٦٠ـ فصل

[صلاح القلب في ترك مخالطة الناس]

مَن أرادَ اجتماعَ هَمِّهِ وإصلاحَ قلبِهِ؛ فليحذرْ مِن مخالطةِ الناسِ في هٰذا الزمانِ؛ فإنَّه قد كانَ يقعُ الاجتماعُ على ما يَنْفَعُ ذِكْرُهُ، فصار الاجتماعُ على ما يَضُرُّ!

= الصلاة في ثوب له أعلام، ١ / ٣٩١ / ٥٥٦)؛ عن عائشة رضي الله عنها.

(١) النعال الصرارة: التي لها صرير، وهو الصوت الذي يلفت انتباه الناس.

(٢) انظر الخبر في: «حلية الأولياء» (١ / ٢٩٤) لأبي نعيم. والنجيب: السريع من الإبل، والبدن: النوق التي تهدى للبيت الحرام.

وقد جربتُ على نفسي مرارًا أن أحْصُرَها في بيتِ العُزْلَةِ، فتجتمعُ هي، ويُضافُ إلى ذٰلك النظرُ في سِيَرِ السَّلفِ، فأرى العزلةَ حِمْيَةً، والنظرَ في سِيَرِ القوم دواءً، واستعمالَ الدواءِ معَ الحِمْيَةِ عن التخليطِ نافعٌ.

فإذا فسحتُ لنفسي في مجالسةِ الناسِ ولقائِهم؛ تَشَتَّتَ القلبُ المجتمعُ، ووقَعَ الذُّهولُ عمّا كنتُ أراعيهِ، وانتقشَ في القلبِ ما قد رأتْهُ العينُ، وفي الضميرِ ما تسمعُهُ الأذُنُ، وفي النفسِ ما تطمَعُ في تحصيلِهِ من الدُّنيا، وإذا جمهورُ المخالِطينَ أربابُ غفلةٍ، والطبعُ بمجالستِهم يَسْرِقُ من طِباعِهم.

فإذا عدتُ أطلبُ القلبَ؛ لم أجِدْهُ، وأرومُ ذاكَ الحضورَ فأفقِدُهُ، فيبقى فؤادي في غِمارِ ذٰلك اللقاءِ للناسِ أيامًا، حتى يَسْلُوَ الهوى.

وما فائدةُ تعريضِ البناءِ للنَّقْضِ؟! فإنَّ دوامَ العُزْلَةِ كالبناءِ، والنَّظرُ في سِيَرِ السلفِ يرفعُهُ؛ فإذا وقعتِ المخالطةُ؛ انتقضَ ما بُني في مدةٍ في لحظةٍ، وصَعُبَ التَّلافي، وضَعُفَ القلبُ!

ومَن له فهمٌ؛ يَعْرِفُ أمراضَ القلبِ، وإعراضَه عن صاحبِهِ، وخروجَ طائرِهِ من قفصِهِ.

ولا يُؤْمَنُ على هٰذا المريضِ أنْ يكونَ مرضُهُ هٰذا سببَ التَّلَفِ، ولا على هٰذا الطائرِ المحصورِ أنْ يَقَعَ في الشبكةِ.

وسببُ مرضِ القلبِ أنـه كان مَحْمِيًّا عن التخليطِ، مَغْذُوًّا بالعلم وسِيَرِ السلفِ، فخَلَّطَ، فلم يحتمِلْ مِزاجُهُ، فوقَعَ المرضُ.

فالجدَّ الجدَّ؛ فإنَّما هي أيامٌ.

وما نَرى مَن يُلْقى، ولا مَن يُؤخَذُ منه، ولا مَن تنفعُ مجالستُهُ؛ إلَّا أن يكون نادِرًا ما أعرِفُه.

ما في الصِّحابِ أخو وَجْدٍ نُطارِحُهُ حَدِيثَ نَجْدٍ ولا صَبٌّ نُجارِيهِ

فالزمْ خَلْوَتَكَ! وراعِ ما بَقِيَتَ النفسَ! وإذا قلقتِ النفسُ مشتاقةً إلى لقاءِ الخَلْقِ؛ فاعلمْ أنَّها بَعْدُ كَدِرَةٌ؛ فَرَضِّها، لِيَصيرَ لقاؤهم عندَها مكروهًا... ولو كانَ عندَها شُغْلٌ بالخالقِ؛ لما أحبَّتِ الزحمةَ؛ كما أنَّ الذي يَخْلو بحبيبِهِ لا يُؤْثِرُ حضورَ غيرِه... ولو أنها عَشِقَتْ طَريقَ اليمنِ؛ لم تلتفتْ إلى الشام.

٢٦١ ـ فصل

[الهدى نور يقذفه الله في قلب من شاء]

تفكرتُ في سببِ هِدايةِ مَن يَهْتدي وانتباهِ مَن يَتَيَقَّظُ من رُقاد غفلتِهِ، فوجدتُ السببَ الأكبرَ اختيارَ الحقِّ عزَّ وجلَّ لذلك الشخصِ؛ كما قيلَ: إذا أرادَكَ لأمرٍ؛ هيَّأَكَ له.

فتارةً تقعُ اليَقَظَةُ بمجرَّدِ فِكْرٍ يوجبُهُ نظرُ العقل، فيتلمَّحُ الإنسانُ وجودَ نفسِهِ، فيعلمُ أنَّ لها صانِعًا، وقد طالبَهُ بحقِّهِ وشكرِ نعمتِهِ، وخوَّفَهُ عقابَ مخالفتِهِ، ولا يكونُ ذلك بسببٍ ظاهرٍ.

ومن هذا ما جرى لأهل الكهفِ؛ ﴿إِذْ قاموا فَقالوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ والأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤].

وفي التفسيرِ: أنَّ كلَّ واحدٍ منهم ألفى في قلبِهِ يَقَظَةً، فقالَ: لا بدَّ

لهٰذا الخلقِ من خالقٍ. فَاشْتَدَّ كربُ بواطِنِهِم مِن وَقودِ نارِ الحَذَرِ، فخرجوا إلى الصحراءِ، فاجْتَمَعوا عن غيرِ موعدٍ؛ فكلٌّ واحدٍ يسأَلُ الآخَرَ: ما الذي أخْرَجَكَ؟ فَتَصادَقوا(١).

ومِن الناس مَن يَجْعَلُ الخالقُ سبحانَه وتعالى [عنده] لذٰلك السببِ - الذي هو الفِكْرُ والنَّظَرُ - سببًا ظاهرًا، إمّا مِن موعظةٍ يسمعُها أو يراها، فيحرِّكُ هٰذا السببُ الظاهرُ فكرةَ القلبِ الباطنةَ.

ثم ينقسمُ المتيقِّظونَ:

فمنهُم مَن يَغْلِبُهُ هواه ويَقْتَضيهِ طبعُه ما يشتهي مما قدِ اعتادَه، فيعودُ القَهْقَرى، ولا ينفعُهُ ما حَصَلَ له مِن الانتباهِ، فانتباهُ مثل هٰذا زيادةٌ في الحُجَّةِ عليه.

ومنهم مَن هو واقفٌ في مقامِ المجاهدةِ بين صفَّيْن: العقل الآمرِ بالتَّقْوى، والهوى المتقاضي بالشهواتِ: فمنهم مَن يُغْلَبُ بعدَ المجاهداتِ الطويلةِ، فيعودُ إلى الشرِّ، ويُخْتَمُ له به. ومنهم مَن يَغْلِبُ تارةً، ويُغْلَبُ أخرى؛ فجراحاتُهُ لا في مقتلٍ. ومنهم مَن يَقْهَرُ عدوَّه، فيَسْجُنُه في حبسٍ، فلا يبقى للعدوِّ مِن الحيلةِ إلّا الوساوسُ.

ومن الصفوةِ أقوامٌ؛ مُذْ تَيَقَّظُوا ما ناموا، ومُذْ سَلَكوا ما وَقَفوا؛ فهمُّهم صعودٌ وتَرَقٍّ، كلَّما عَبَروا مقامًا إلى مقامٍ؛ رأوا نَقْصَ ما كانوا فيه، فاسْتَغْفَروا.

---

(١) أخرج هٰذا المعنى: ابن أبي شيبة، وابن المنذر، وابن أبي حاتم؛ عن ابن عباس وعن مجاهد. وانظر: «الدر المنثور» (٤ / ٣٨٦ / الكهف ١٤).

ومنهم مَن يَرْقى عن الاحتياج إلى مجاهدةٍ: إما لِخِسَّةِ ما يَدْعو إليه الطبعُ عندَه، ولا وقعَ له، وإما لشرفِ مطلوبِه، فلا يَلْتَفِتُ إلى عائقٍ عنه.

واعلمْ أنَّ الطريقَ الموصِلَةَ إلى الحقِّ سبحانَه ليست مما يُقْطَعُ بالأقدام، وإنَّما يُقْطَعُ بالقلوبِ، والشهواتُ العاجلةُ قُطَّاعُ الطريقِ، والسبيلُ كالليل المدلهمِّ؛ غيرَ أنَّ عينَ الموفَّقِ بَصَرُ فرسٍ؛ لأنه يرى في الظُّلمةِ كما يرى في الضوء، والصدقُ في الطَّلَبِ منارٌ؛ أين وُجِدَ يَدُلُّ على الجادَّةِ.

وإنما يَتَعَثَّرُ مَن لم يُخْلِصْ... وإنما يمتنِعُ ممَّن لا يُرادُ.

فلا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله.

٢٦٢ ـ فصل

[حقيقة الإنسان من مبدئه إلى منتهاه]

عَجِبْتُ لِمَنْ يُعْجَبُ بصورتِهِ، ويختالُ في مِشْيَتِهِ، وينسى مبدأ أمرِهِ!

إنَّما أولُهُ لقمةٌ ضُمَّتْ إليها جُرعةُ ماءٍ. فإن شئتَ؛ فقلْ: كُسَيْرَةُ خبزٍ معها تمراتٌ، وقطعةٌ من لحم، ومِذْقَةٌ من لبنٍ، وجُرعةٌ من ماءٍ... ونحوُ ذلك، طَبَخَتْهُ الكبدُ، فأخرجتْ منه قطراتِ مَنِيٍّ، فاستقرَّ في الأنثيين، فحَرَّكتها الشهوةُ، فَصُبَّتْ، فبقيتْ في بطنِ الأمِّ مدةً حتى تكاملتْ صورتُها، فخرجتْ طفلاً، تتقلَّبُ في خِرَقِ البولِ.

وأما آخرُهُ؛ فإنَّه يُلقى في الترابِ، فيأكُلُه الدودُ، ويصيرُ رُفاتًا تَسْفيهِ السَّوافي(١)... وكم يخرجُ ترابُ بدنِهِ مِن مكانٍ إلى مكانٍ آخَرَ، ويُقَلَّبُ في

(١) السوافي: الرياح التي تحمل الرمل والغبار.

أحوالٍ، إلى أن يعودَ فيُجْمَعَ!

هٰذا خبرُ البدنِ.

إنَّما الرُّوحُ عليها العملُ: فإنْ تَجَوْهَرَتْ بالأدبِ، وتقوَّمَتْ بالعلم، وعرفتِ الصانعَ، وقامتْ بحقِّهِ؛ فما يَضُرُّها نَقْضُ المَرْكَبِ. وإن هي بَقِيَتْ على صِفَتِها من الجهالةِ؛ شابهتِ الطينَ، بل صارتْ إلى أخسَّ حالةً منهُ.

٢٦٣ ـ فصل

[نصائح لأهل العلم وطلابه]

هيهاتَ أنْ يَجْتَمِعَ الهمُّ مع التلبُّسِ بأمورِ الدُّنيا!

خصوصًا الشابَّ الفقيرَ الذي قد أَلِفَ الفَقْرَ؛ فإنَّه إذا تَزَوَّجَ، وليس له شيءٌ من الدُّنيا؛ اهتمَّ بالكسبِ، أو بالطلبِ من الناسِ، فَتَشَتَّتَتْ هِمَّتُهُ، وجاءهُ الأولادُ، فزادَ الأمرُ عليه، ولا يزالُ يرخِّصُ لنفسِهِ فيما يُحصِّلُ إلى أن يَتَلَبَّسَ بالحرام.

ومَن يُفَكِّرُ؛ فهمَّتُه ما يأكلُ، وما يأكلُه أهلُه، وما ترضى به الزوجةُ من النفقةِ والكسوةِ، وليسَ له ذٰلك؛ فأيُّ قلبٍ يحضُرُ له؟! وأيُّ همٍّ يجتمعُ؟!

هيهاتَ! واللهِ؛ لا يجتمعُ الهمُّ؛ والعينُ تنظُرُ إلى الناسِ، والسمعُ يسمَعُ حديثَهم، واللسانُ يخاطِبُهم، والقلبُ متوزِّعٌ في تحصيلِ ما لا بدَّ منهُ.

فإنْ قالَ قائلٌ: فكيفَ أصنعُ؟!

قلتُ: إنْ وجدتَ ما يكفيكَ من الدُّنيا، أو معيشةً تَكُفُّكَ؛ فاقنعْ بها،

وانفـرِدْ في خَلْوةٍ عن الخلقِ مهما قَدَرْتَ . . . وإنْ تزوَّجْتَ؛ فبفقيرةٍ تَقْنَعُ باليسيرِ، وتصبرُ أنتَ على صورتِها وفقرِها، ولا تترُكْ نفسَكَ تطمحُ إلى مَن تحتاجُ إلى فضل نفقتِهِ؛ فإنْ رُزِقْتَ امرأةً صالحةً جَمَعَتْ هَمَّكَ؛ فذاكَ، وإنْ لم تَقْدِرْ؛ فمعـالجـةُ الصبـرِ أصلحُ لك من المخـاطـرةِ . . . وإياكَ والمستحسنـاتِ؛ فإنَّ صاحبهنَّ ـ إذا سَلِمَ ـ كعابدِ صَنَم . . . وإذا حَصَلَ بيدِكَ شيءٌ؛ فأنْفِقْ بعضَه؛ فبحفظِ الباقي تحفظُ شَتاتَ قلبِكَ . . . واحذَرْ كلَّ الحذرِ من هٰذا الزمانِ وأهلِهِ؛ فما بقي مُواسٍ ولا مُؤثِر ولا من يَهْتَمُّ لِسَدِّ خَلَّةٍ[1] ولا مَن لو سُئِلَ أعطى؛ إلَّا أن يُعْطِيَ نَزْرًا بِتَضَجُّرٍ ومِنَّةٍ يستعبدُ بها المعطى بقيةَ العُمُرِ ويستثْقِلُهُ كلَّما رآه، أوَ يَسْتَدْعي بها خدمتَهُ له والتردُّدَ إليه . . .

وإنما كانَ في الزمانِ الماضي مثلُ أبي عمرِو بنِ نُجَيْدٍ، سمع أبا عثمانَ الحيريَّ يقولُ يومًا على المنبرِ: عليَّ ألفُ دينارٍ، وقد ضاقَ صَدْري . فمضى أبو عمرٍو إليه في الليل بألفِ دينارٍ، وقالَ: اقضِ دَيْنَكَ! فلمّا عادَ وصَعِدَ المنبرَ؛ قالَ: نَشْكُرُ اللهَ لأبي عمرٍو؛ فإنَّه أراحَ قَلْبي وقَضى دَيْني . فقامَ أبو عمرٍو فقالَ: أيُّها الشيخُ! ذٰلك المالُ كان لِوالدتي، وقد شَقَّ عليها ما فَعَلْتُ؛ فإنْ رأيتَ أن تتقدَّمَ بردِّهِ؛ فافعلْ. فلمَّا كانَ في الليل؛ عادَ إليهِ وقالَ له: لماذا شَهَرْتَني بين الناسِ؟! فأنا ما فعلتُ ذٰلك لأجل الخَلْقِ؛ فخُذْهُ ولا تَذْكُرْني[2]!

(١) الخلة: الحاجة.

(٢) أما أبو عمرو بن نجيد؛ فهو الشيخ، الإمام، القدوة، المحدث، الرباني، شيخ نيسابور، ومسند خراسان، ولد سنة ٢٧٢هـ، وتوفي سنة ٣٦٥هـ. انظر ترجمته في: «سير =

ماتوا وغُيِّبَ في التُّرابِ شُخوصُهُم والنَّشْـرُ مِسْـكٌ والعِظامُ رَميمُ(١)

فالبعدَ البعدَ عمَّن هِمَّتُهُ الدُّنيا؛ فإنَّ زادَهُمُ اليومَ إلى أن يَحْصُلَ أقربُ منه إلى أن يُؤْثَـرَ. . . ولا تكـادُ ترى إلاَّ عدوًّا في البـاطنِ، صديقًـا في الظاهرِ، شامتًا على الضُّرِّ، حَسودًا على النعمةِ.

فاشْتَرِ العزلةَ بما بِعتْ؛ فإنَّ مَن له قلبٌ إذا مشى في الأسواقِ وعاد إلى منزلِهِ؛ تغيَّرَ قلبُهُ؛ فكيفَ إن عَرْقَلَهُ بالميل إلى أسبابِ الدُّنيا؟!

واجتهدْ في جمع الهمِّ بالبعدِ عن الخَلْقِ؛ لِيَخْلُوَ القلبُ بالتفكُّرِ في المآبِ، وتتلمحَ عينُ البصيرةِ خِيَمَ الرحيلِ!

٢٦٤ ـ فصل

[الأولى للمريد مطالعة الكتب وزيارة المقابر]

كانَ المريدُ في بدايةِ الزَّمانِ إذا أظْلَمَ قلبُهُ أو مَرِضَ لُبُّهُ؛ قَصَدَ زيارةَ بعضِ الصالحينَ، فانْجلى ما أظلَمَ.

واليومَ؛ متى حَصَلَتْ ذَرَّةٌ من الصِّدقِ لمريدٍ، فردَّتْه في بيتِ عُزْلَةٍ،

= أعلام النبلاء» (١٦ / ١٤٦).

وأما أبو عثمان الحيري؛ فهو الشيخ، الإمام، المحدث، الواعظ، القدوة، سعيد بن إسماعيل النيسابوري، ولد سنة ٢٣٠هـ، وتوفي سنة ٢٩٨ هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (١٤ / ٦٢).

وأمـا الخبر؛ فقد أورده الذهبي في «السير» (١٦ / ١٤٦)، ولكن المال لم يكن لدين، وإنما كان يجمع لبعض الثغور.

وقد وقع في الأصول: «أبو عثمان المغربي»، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

(١) النشر: الرائحة الزكية.

ووجد نَسيمًا مِن رَوْح العافيةِ[1]، ونورًا في باطنِ قلبِه، وكاد همُّه يجتمعُ وشتاتُه يَنْتَظِمُ، فخرجَ، فلقي مَن يُومأُ إليه بعلم أو زُهدٍ؛ رأى عندَهُ البطالينَ، يجري معهُم في مَسْلَكِ الهَذَيانِ الذي لا ينفعُ، ورأى صورتَه صورةَ مُنَمِّسٍ[2]، وأهونَ ما عليه تضييعَ الأوقاتِ في الحديثِ الفارغ؛ فما يرجِعُ المريدُ عن ذلك الوطنِ؛ إلَّا وقدِ اكْتَسَبَ ظُلْمَةً في القلبِ، وشَتاتًا في العزمِ، وغَفْلَةً عن ذِكْرِ الآخرةِ، فيعودُ مريضَ القلبِ، يَتْعَبُ في معالجتِهِ أيامًا كثيرةً، حتى يعودَ إلى ما كانَ فيه، وربَّما لم يَعُدْ؛ لأنَّ المريدَ فيه ضَعْفٌ؛ فإذا رأى شيخًا قد جَرَّبَ وعَرَفَ، ثم يُؤْثِرُ البطالةَ؛ لم يأمنْ أنْ يَتْبَعَه الطبعُ.

فالأَوْلَى للمريدِ اليومَ أنْ لا يزورَ إلَّا المقابرَ، ولا يفاوِضَ إلَّا الكُتُبَ، التي قد حَوَتْ محاسنَ القوم، ولْيَسْتَعِنْ باللهِ تعالى على التوفيقِ لمراضيهِ؛ فإنَّه إن أرادَه؛ هيأَهُ لما يُرضيهِ.

٢٦٥ ـ فصل
[في صفات الأولياء الصالحين]

تأملتُ الذينَ يختارُهُم الحقُّ عزَّ وجلَّ لولايتِهِ والقربِ منه ـ فقد سَمِعْنا أوصافَهم ومن نظنُّه منهم ممَّن رأيْناه ـ، فوجدتُه سبحانَه لا يختارُ إلَّا شَخْصًا كاملَ الصُّورةِ؛ لا عَيْبَ في صورتِهِ، ولا نَقْصَ في خِلْقَتِهِ، فتراه حسنَ الوجهِ، معتدلَ القامةِ، سليمًا من آفةٍ في بدنِهِ، ثم يكونُ كاملًا في

(١) روح العافية: نسيمها ورائحتها.
(٢) المنمِّس: المحتال المراوغ.

باطنِـهِ، سخيًّا، جوادًا، عاقـلًا، غيرَ خَبٍّ، ولا خادعٍ، ولا حقـودٍ، ولا حسودٍ، ولا فيه عيبٌ من عُيوبِ الباطنِ؛ فذاك الذي يُربِّيهِ مِن صِغَرِه.

فتراهُ في الطُّفولةِ معتزِلًا عن الصِّبيانِ، كأنَّه في الصِّبا شيخٌ، يَنْبو[1] عن الرذائل، ويَفْزَعُ مِن النقائصِ.

ثم لا تزالُ شَجَرَةُ هِمَّتِهِ تنمو حتى يَرى ثَمَرَها متهدِّلًا على أغصانِ الشَّبابِ؛ فهو حريصٌ على العلم، منكَمِشٌ على العمل، مُحافظٌ للزمانِ، مُراعٍ للأوقاتِ، ساعٍ في طلبِ الفضائل، خائفٌ من النقائصِ.

ولو رأيتَ التوفيقَ والإلهامَ الربَّانيَّ كيفَ يأخُذُ بيدِهِ إن عَثَرَ، ويمنعُهُ من الخطإِ إنْ هَمَّ، ويستخدِمُهُ في الفضائل، ويَسْتُرُ عَمَلَهُ عنه حتى لا يراهُ منه.

ثم ينقسِمُ هؤلاء؛ فمنهُم مَن تَفَقَّهَ على قَدَمِ الزُّهْدِ والتعبُّدِ، ومنهم من تفقَّهَ على العلم واتباعِ السُّنَّةِ، ويندُرُ منهم مَن يَجْمَعُ [اللهُ] لهُ الكُلَّ ويرقِّيهِ إلى مزاحمةِ الكاملينَ.

وعلامةُ إثباتِ الكمالِ في العلمِ والعمل: الإقبالُ بالكُلِّيَّةِ على معاملةِ الحقِّ ومحبَّتِهِ، واستيعابُ الفضائل كلِّها، وسَناءُ الهمَّةِ في نُشدانِ الكمالِ الممكنِ؛ فلو تُصُوِّرَتِ النبوةُ أن تُكْتَسَبَ؛ لدخلتْ في كَسْبِهِ.

ومراتبُ هٰذا لا يحتمِلُها الوصفُ؛ لكونِهِ دُرَّةَ الوجودِ، التي لا تكادُ تنعقِدُ في الصَّدَفِ إلَّا في كلِّ ودودٍ.

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ توفيقَنا لمراضيهِ وقربِهِ، ونعوذُ به من طردِهِ وإبعادِهِ.

---

(١) ينبو: يتجافى ويبتعد.

٢٦٦ـ فصل

[في الغفلة الكبرى]

أكثرُ الخلائقِ على طبعٍ رديءٍ لا تقوِّمُهُ الرياضةُ؛ لا يَدْرونَ لِمَ خُلِقوا؟! ولا ما المرادُ منهُم؟! وغايةُ هِمَّتِهِم حصولُ بُغيتهم مِن أغراضهم! ولا يسألونَ عند نَيْلِها ما اجتلبتْ لهم مِن ذمٍّ! يبذُلونَ العِرْضَ دونَ الغَرَضِ، ويؤثرونَ لَذَّةَ ساعةٍ وإن اجتلبتْ زمانَ مرضٍ! يلبَسونَ عند التجاراتِ ثيابَ مُحتالٍ في شِعارِ مُختالٍ، ويُلَبِّسونَ في المعاملاتِ ويستُرونَ الحالَ! إن كَسَبوا؛ فشبهةٌ، وإنْ أكلوا؛ فشهوةٌ! ينامونَ الليلَ، وإن كانوا نيامًا بالنهارِ في المعنى ولا نومَ بهٰذه الصورةِ[1]! فإذا أصْبَحوا؛ سَعَوا في تحصيل شَهَواتِهِم؛ بحرصِ خِنْزيرٍ، وتَبَصْبُصِ[2] كلبٍ، وافتراسِ أسدٍ، وغارةِ ذئبٍ، ورَوَغانِ ثعلبٍ! ويتأسَّفونَ عندَ الموتِ على فَقْدِ الهوى لا على عدمِ التَّقْوى!

﴿ذٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠]!!

كيفَ يُفْلِحُ مَن يُؤثِرُ ما يراهُ بعينِهِ على ما يُبْصِرُهُ بعقلِهِ، وما يدرِكُهُ ببصرِهِ أعزُّ عندَه ممّا يراهُ ببصيرتهِ؟!

تاللهِ؛ لو فَتَحوا أسماعَهم؛ لَسَمِعوا هاتفَ الرَّحيلِ في زمانِ الإقامةِ يَصيحُ في عَرَصاتِ الدُّنيا: تَلَمَّحوا تَقْويضَ خيامِ الأوائلِ! لٰكنْ غَمَرَهُمْ سُكْرُ الجهالةِ، فلم يُفيقوا إلَّا بضربِ الحدِّ.

---

(١) يعني: وإن كانت صورتهم صورة المتيقظين؛ فعقولهم في غيبة وسكرة، وكأنهم نيام في الحقيقة.

(٢) بصبص الكلب: هزَّ ذنبه تقرباً لصاحبه، وهو هنا كناية عن النفاق.

٢٦٧ ـ فصل

[إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً]

رأيتُ بعضَ المتقدِّمين سُئِلَ عمَّنْ يَكْتَسِبُ حلالاً وحرامًا مِن السَّلاطينِ والأمراءِ، ثم يبني المساجدَ والأربطةَ: هل له فيها ثوابٌ؟ فأفتى بما يوجِبُ طِيبَ قلبِ المُنفِقِ، وأنَّ له في إنفاقِ ما لا يملِكُهُ نوعَ سَمْسَرَةٍ؛ لأنَّه لا يعرِفُ أعيانَ المغصوبينَ فيردُّها عليهم!

فقلتُ: وا عجبًا من المتصدِّينَ للفتوى الذين لا يعرِفونَ أصولَ الشريعةِ!!

ينبغي أن يُنْظَرَ في حال هٰذا المنفقِ أولاً:

فإنْ كانَ سُلطانًا؛ فما يَخْرُجُ مِن بيتِ المال قد عُرِفَتْ وجوهُ مصارِفِهِ؛ فكيف يَمْنَعُ مستحقَّهُ ويُشَغِّلُهُ بما لا يفيدُ من بناءِ مدرسةٍ ورِباطٍ؟!

وإن كان المنفِقُ من الأمراءِ ونُوَّابِ السلاطينِ؛ فإنَّه يَجِبُ أن يَرُدَّ ما يَجِبُ ردُّه إلى بيتِ المال، وليس له فيه إلَّا ما فُرِضَ مِن إيجابٍ يَليقُ به؛ فإنْ تَصَرَّفَ في غيرِ ذٰلك؛ كان مصروفًا فيما ليس له، ولو أُذِنَ له؛ ما كان الإذنُ جائزًا، وإن كانَ قد أُقْطِعَ ما لا يقاوِمُ عَمَلَهُ[1]؛ كانَ ما يأخذُه فاضِلاً من أموال المسلمينَ، لا حقَّ له فيه، وعلى مَن أَطْلَقَهُ في ذٰلك إثمٌ أيضًا.

هٰذا إذا سَلِمَ المالُ وكان من حِلِّه، فأما إذا كان حرامًا أو غصبًا؛ فكلُّ تصرُّفٍ فيه حرامٌ، والواجبُ ردُّه على مَن أخِذَ منه أو على ورثَتِهِم؛ فإن لم

(١) ما لا يقاوم عمله؛ يعني: ما لا يكافئه! وليس بالفصيح.

يُعْرَفْ طريقُ الرَّدِّ؛ كانَ في بيتِ مال المسلمينَ؛ يُصْرَفُ في مصالِحِهم، أو يُصْرَفُ في الصدقةِ، ولم يَحْظَ آخذُهُ بغيرِ الإثم.

أنبأنا أحمدُ بنُ الحسن بن البنا؛ قالَ: أخبرنا محمدُ بن عليٍّ الزَّجَّاجيُّ؛ قالَ: أخبرنا عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ الأسديُّ؛ قال: أخبرنا عليُّ بنُ الحسنِ؛ قالَ: حدَّثنا أبو داوودَ؛ قالَ: حدَّثنا محمدُ بن عوفٍ[1] الطائيُّ؛ قالَ: حدثنا أبو المغيرةِ؛ قالَ: حدثنا الأوزاعيُّ؛ قال: حدثني موسى بنُ سليمانَ؛ قالَ: سمعتُ القاسمَ بنَ مُخَيْمِرَةَ يقولُ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَن اكتسبَ مالاً مِن مَأثَم، فَوَصَلَ [به] رَحِمًا، أو تصدَّقَ به، أو أنْفَقَهُ في سبيل اللهِ؛ جُمِعَ ذلك جمعًا فقُذِفَ به في جهنَّم»[2].

فأما إذا كان الباني تاجرًا مكتسِبًا للحلال، فبنى مسجدًا، أو وَقَفَ وَقْفًا للمتفقِّهَةِ؛ فهٰذا مما يُثاب عليه.

ويَبْعُدُ مَن يَكْتَسِبُ الحلالَ حتَّى يَفْضُلَ عنه هٰذا المقدارُ، أو يُخْرِجُ الزَّكاةَ مستقصاةً ثمَّ يَطيبُ قلبُهُ بمثل هٰذا البناءِ والنفقةِ؛ إذ مثلُ هٰذا البنيانِ لا يجوزُ أن يكونَ مِن زكاةٍ.

وأين سلامةُ النيَّةِ وخلوصُ المقصِدِ؟!

ثم إنَّ بناءَ المدارسِ اليومَ مخاطرةٌ؛ إذ قدِ انْعَكَفَ أكثرُ المتفقِّهَةِ

(١) في الأصول: «محمد بن عون»، والتصويب من مصادر التخريج.

(٢) (**حسن**). رواه: أبو داوود في «المراسيل» (١٤٢/١٣١) بهٰذا السند. وموسى بن سليمان وثقه ابن حبان وروى عنه اثنان؛ فالسند مرسل قابل للتحسين.

وله شاهد مرفوع من حديث ابن مسعود عند أحمد (١/ ٣٨٧) بلفظ قريب، وصححه الألباني وقفه وقال: «في حكم المرفوع». وشاهد آخر ضعيف من حديث أبي هريرة عند ابن حبان. فهو حسن بهما إن شاء الله.

على علم الجَدَل، وأعرضوا عن علوم الشريعةِ، وتركوا التردُّدَ إلى المساجدِ، وقَنِعوا بالمدارسِ والألقابِ.

وأمّا بناءُ الأربطةِ؛ فليس بشيءٍ أصلًا؛ لأن جمهورَ المتصوِّفةِ جلوسٌ على بساطِ الجهلِ والكسل، ثم يَدَّعي مدَّعيهُم المحبةَ والقُرْبَ، ويكرهُ التشاغلَ بالعلم، وقد تركوا سيرةَ سَرِيٍّ وعاداتِ الجُنَيْدِ[1]، واقْتَنَعوا بأداءِ الفرائضِ، ورَضوا بالمُرَقَّعاتِ؛ فلا تَحْسُنُ إعانتُهم على بَطالَتِهِم وراحتِهِم، ولا ثوابَ في ذلك.

٢٦٨ - فصل

[أخلصوا أعمالكم لله ولا تراؤوا بها الخلق]

عجبتُ لمن يتصنَّعُ للناسِ بالزُّهدِ، يرجو بذلك قربَه من قلوبِهم، وينسى أنَّ قلوبَهم بيدِ مَن يعملُ له؛ فإنْ رضي عَمَلَهُ ورآه خالصًا؛ لَفَتَ القلوبَ إليه، وإنْ لم يَرَهُ خالصًا؛ أعرضَ بها عنه.

ومتى نَظَرَ العاملُ إلى التفاتِ القلوبِ إليه؛ فقد زاحمَ الشركَ[2]؛ لأنه ينبغي أن يَقْنَعَ بنظرِ مَن يعملُ له.

ومن ضرورةِ الإخلاص ألا يَقْصِدَ التفاتَ القلوبِ إليه؛ فذاك يحصُلُ لا بقصدِهِ، بل بكراهتِهِ لذلك.

وليعلم الإنسانُ أنَّ أعمالَه كلَّها يعلمُها الخَلْقُ جملةً، وإن لم يطَّلِعوا

(١) تقدمت ترجمة سَرِيٍّ والجنيد في (فصل ١٩ و٩٩).

(٢) زاحم الشرك: قاربه، وذلك لأن الرياء هو الشرك الخفي؛ كما جاء في غير واحد من الأحاديث الصحيحة.

عليها؛ فالقلوبُ تشهدُ للصالح بالصَّلاح وإن لم يشاهَدْ منه ذٰلك.

فأمّا مَن يَقْصِدُ رؤيةَ الخَلْق بعملِه؛ فقد مضى العملُ ضائعًا؛ لأنَّه غيرُ مقبول عندَ الخالق[1]، ولا عندَ الخَلْق؛ لأنَّ قلوبَهم قد أُلْفِتَتْ عنه؛ فقد ضاع العلمُ، وذهبَ العُمُرُ!

ولقد أخبرنا ابنُ الحصينِ؛ قال: أخبرنا ابنُ المذهبِ؛ قال: أخبرنا أحمدُ بن جعفرٍ؛ قال: حدثنا عبد الله بن أحمد؛ قال: حدثني أبي؛ قال: حدثنا حسنُ بن موسى؛ قال: حدثنا ابن لَهِيعَة؛ قال: حدثنا دَرَّاجٌ، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «لو أنَّ أحَدَكُم يعمـلُ في صخرةٍ صمَّاءَ، ليس لها بابٌ ولا كُوَّةٌ؛ لَخَرَجَ للناس عملُه، كائنًا ما كانَ»[2].

فليتَّقِ اللهَ العبدُ، ويقصِدْ مَن يَنْفَعُهُ قصدُه، ولا يتشاغلْ بمدح مَن عن قليل يَبْلى هُوَ وَهمْ.

---

(١) كما روى مسلم (٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق، ٥ ـ باب من أشرك في عمله غير الله، ٤ / ٢٢٨٩ / ٢٩٨٥)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه».

(٢) (ضعيف). رواه: أحمد (٣ / ٢٨)، وابن حبان (١٢ / ٤٩١ / ٥٦٧٨)، والحاكم (٤ / ٣١٤)؛ من حديث دارج أبي السمح، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا.

وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ٢٢٨): «رواه أحمد وأبو يعلى، وإسناده حسن». ودراج: قال الحافظ في «التقريب»: «صدوق، في حديثه عن أبي الهيثم ضعف». فالإسناد ضعيف. وضعفه الألباني: «الضعيفة» (٤ / ٢٨٨ / ١٨٠٧).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

٢٦٩ ـ فصل
[فقهاء آخر زمان]

قَدِمَ علينا بعضُ فقهاءَ من بلادِ الأعاجم، وكان قاضيًا ببلدِهِ، فرأيتُ على دابَّتِهِ الذهبَ، ومعه أتْوارُ(١) الفضةِ، وأشياءُ كثيرةٌ من المحرَّماتِ، فقلتُ: أيَّ شيءٍ أفادَ هٰذا العلمُ؟! بلى واللهِ؛ قد كَثُرَتْ عليه الحُجَجُ.

وأكبرُ الأسبابِ قِلَّةُ علمِ هٰؤلاءِ بسيرةِ السَّلفِ وما كان عليه رسولُ الله ﷺ!

إنهم يجهلونَ الجُمْلَةَ، ويتشاغَلونَ بعلم الخلافِ، ويقصِدونَ التقدُّمَ بقشورِ المعرفةِ، وليس يَعْنيهم سماعُ حديثٍ، ولا نظرٌ في سِيَر السَّلف... ويخالِطون السلاطينَ، فيحتاجونَ إلى التَّزَنِّي بزِيِّهم، وربما خَطَرَ لهم أنَّ هٰذا قريبٌ، وإن لم يَخْطُرْ لهم؛ فالهوى غالبٌ بلا صادٍّ... وربما خَطَرَ لهم أن يقولوا: هٰذا يُحْتَمَلُ ويُغْفَرُ في جانبِ تشاغُلِنا بالعلم... ثم يَرَوْنَ العلماءَ يكرِمونهم لنيل شيءٍ من دُنياهم، ولا ينكِرونَ عليهم.

ولقد رأيتُ من الذين ينتسبونَ إلى العلم مَن يَسْتَصْحِبُ المرادنَ ويشتري المماليك، وما كانَ يَفْعَلُ هٰذا إلاَّ مَنْ قد يَئِسَ من الآخرةِ.

ورأيتُ مَن قد بَلَغَ الثمانينَ من العلماءِ وهو على هٰذه الحالةِ.

فاللهَ اللهَ يا مَن يريدُ حفظَ دينِهِ، ويوقِنُ بالآخرةِ!

إياكَ والتأويلاتِ الفاسدةَ، والأهواءَ الغالبةَ؛ فإنَّك إن تَرَخَّصتَ

(١) جمع تور، وهو إناء يستعمل للشرب.

بالدخول في بعضِها؛ جرَّكَ الأمرُ إلى الباقي، ولم تقدرْ على الخروج لموضع إلفِ الهوى.

فاقبلْ نُصْحي، واقنعْ بالكِسْرَةِ. وابعُدْ عن أربابِ الدُّنيا؛ فإذا ضَجَّ الهوى؛ فدعه لهٰذا... وربما قال لكَ: فالأمرُ الفلانيُّ قريبٌ! فلا تفعلْ؛ فإنه ـ لو كانَ قريبًا ـ يدعو إلى غيرِهِ، ويصعُبُ التَّلافي.

فالصبرَ الصبرَ على شَظَفِ العيشِ! والبعدَ عن أربابِ الهوى! فما يَتِمُّ دينٌ إلَّا بذٰلك، ومتى وَقَعَ الترخُّصُ؛ حَمَلَ إلى غيره؛ كالشاطىء إلى اللُّجَّة... وإنما هو طعامٌ دونَ طعام، ولباسٌ دونَ لباسٍ، ووجهٌ أصْبَحُ من وجهٍ... وإنما هي أيامٌ يسيرةٌ.

٢٧٠ ـ فصل

[السلامة كل السلامة في التسليم]

مَن تَفَكَّرَ في عظمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ طاش عقلُه؛ لأنه يحتاجُ أن يُثْبِتَ موجودًا لا أوَّلَ لوجودِهِ، وهٰذا شيءٌ لا يعرِفُهُ الحسُّ، وإنما يُقِرُّ به العقلُ ضرورةً؛ وهو متحيِّرٌ بعد هٰذا الإقرارِ.

ثم يرى من أفعاله ما يَدُلُّ على وجودِهِ؛ فلا يخفى وجودُه.

ثم تجري في أقدارِهِ أمورٌ؛ لولا ثبوتُ الدليل على وجودِهِ؛ لأوجبتِ الجَحْدَ.

فإنه يَفْرُقُ البحرَ لبني إسرائيلَ ـ وذٰلك شيءٌ لا يَقْدِرُ عليه سوى الخالقِ ـ، ويُصَيِّرُ العصا حَيَّةً ثم يعيدُها عصًا تَلْقَفُ ما صَنَعوا ولا يزيدُ فيها

شيء؛ فهل بعد هٰذا بيانٌ؟! فإذا آمنتِ السحرةُ؛ تَركَهم مع فرعونَ يَصْلِبهم ولا يمنعُ، والأنبياءُ يُبْتَلَوْنَ بالجوعِ والقتلِ، وزكريّا يُنْشَرُ[1]، ويحيى تقتُلُه زانيةٌ[1]، ونبيُّنا ﷺ يقولُ كلَّ عام: «مَنْ يُؤْويني؟ مَنْ يَنْصُرُني»[2]؛ فيكادُ الجاهلُ بوجودِ الخالقِ يقولُ: لو كانَ موجودًا؛ لَنَصَرَ أولياءَهُ!

فينبغي للعاقلِ الذي قد ثَبَتَ عندَه وجودُهُ بالأدلةِ الظاهرةِ الجليَّةِ: أن لا يُمَكِّنَ عقلَه من الاعتراضِ عليه في أفعالِهِ، ولا يَطْلُبَ لها عِلَّةً؛ إذ قد ثَبَتَ أنه مالكٌ وحكيمٌ؛ فإذا خَفِيَ علينا وجهُ الحكمةِ في فعلِهِ؛ نَسَبْنا ذٰلك العَجْزَ إلى فُهومِنا.

وكيف لا؛ وقد عَجَزَ موسى عليه السلامُ أن يَعْرِفَ حِكْمَةَ خَرْقِ السفينةِ وقتلِ الغُلامِ، فلما بانَ له حكمةُ ذٰلك الفسادِ في الظاهرِ؛ أقرَّ؟!

فلو قد بانتِ الحكمةُ في أفعالِ الخالقِ؛ ما جَحَدَ العقلُ جَحْدَ موسى يومَ الخَضِرِ.

فمتى رأيتَ العقلَ يقولُ: لِمَ؟ فأَخْرِسْهُ بأن تقولَ له: يا عاجزُ! أنت لا تعرِفُ حقيقةَ نفسِكَ؛ فما لك والاعتراضَ على المالكِ؟!

وربما قالَ العقلُ: أيُّ فائدةٍ في الابتلاءِ؛ وهو قادرٌ أن يُثيبَ ولا بلاءَ؟! وأيُّ غرضٍ في تعذيبِ أهلِ النارِ؛ وليس ثَمَّ تَشَفٍّ؟! فقلْ له: حكمتُهُ فوقَ مرتبتِكَ؛ فسلِّمْ لما لا تعلمُ؛ فإنَّ أولَ من اعترضَ بعقلِهِ إبليسُ؛ رأى فضلَ النارِ على الطينِ، فأعرضَ عن السُّجودِ.

---

(١) تقدم هٰذا الكلام وتخريجه في (فصل ٨٧).

(٢) تقدم هٰذا الحديث وتخريجه في (فصل ٢١١).

وقد رأينا خَلْقًا كثيرًا وسَمِعْنا عنهم أنهم يقدَحون في الحكمةِ؛ لأنهم يحكِّمونَ العقولَ على مُقْتَضاها، ويَنْسَوْنَ أن حكمةَ الخالق وراءَ العقول.

فإياك أن تَفْسَحَ لعقلِكَ في تعليل، أو أن تطلُبَ له جوابَ اعتراضٍ، وقلْ له: سَلِّمْ تَسْلَمْ؛ فإنَّك لا تدري غَوْرَ البحرِ إلَّا وقد أدركك الغرقُ قبلَ ذٰلك.

هٰذا أصلُ عظيمٌ؛ متى فاتَ الآدميَّ؛ أخرجَهُ الاعتراضُ إلى الكفرِ.

٢٧١ ـ فصل

[اتعظ بنفسك، فإنها خير واعظ]

العجبُ ممَّن يقولُ: أخرُجُ إلى المقابر فأعتَبِرُ بأهل البِلى!! ولو فَطِنَ؛ عَلِمَ أنَّه مقبرةٌ؛ يغنيهِ الاعتبارُ بما فيها عن غيرِها!

خصوصًا مَن قد أوغل في السنِّ؛ فإنَّ شهوتَه ضَعُفَتْ، وقُواه قَلَّتْ، والحواسُّ كَلَّتْ، والنشاطُ فَتَرَ، والشعرُ ابيضَّ. . .

فليعتبرْ بما فَقَدَ، وليستغْنِ عن ذِكْرِ مَن فَقَدَ؛ فقدِ استغنى بما عندَه عن التطلُّع إلى غيرِهِ.

٢٧٢ ـ فصل

[لا يلتذ العاقل بشيء من العاجل]

متى تكامَلَ العقلُ؛ فُقِدَتْ لَذَّةُ الدُّنيا، فتضاءلَ الجسمُ، وقَوِيَ السُّقْمُ، واشتدَّ الحزنُ.

لأنَّ العقلَ كلَّما تَلَمَّحَ العواقبَ؛ أعرضَ عن الدُّنيا، والتفتَ إلى ما

تلمَّحَ، ولا لَذَّةَ عندَه بشيءٍ من العاجل، وإنما يلتذُّ أهلُ الغفلةِ عن الآخرةِ، ولا غفلةَ لكامل العقل، ولهٰذا لا يَقْدِرُ على مخالطةِ الخَلْقِ؛ لأنَّهم كأنَّهم من غيرِ جنسِهِ؛ كما قال الشاعر:

ما في الدِّيارِ أخو وَجْدٍ نُطارِحُهُ حَديثَ نَجْدٍ ولا خِلٌّ نُجاريهِ

٢٧٣ـ فصل

[الإيمان بالبعث ضرورة عقلية]

ادَّعى الطبائعيُّونَ أنَّ مادةَ الموجوداتِ الماءُ والترابُ والنارُ والهواءُ؛ فإذا كان في القيامةِ؛ أذهبَ الأصولَ، ثم أعادَ الحيوانَ؛ لِيُعْلَمَ أنَّها كانت بالقدرةِ، لا عن تأثيرِ الكُلِّيَّاتِ(١)!

أقولُ: مَن قَدَحَ في البعثِ؛ فقد بالَغَ في القَدْحِ في الحِكْمَةِ.

ومَن قالَ: الرُّوحُ عَرَضٌ؟ فقد جَحَدَ البعثَ؛ لأنَّ العَرَضَ لا يبقى، والأجسادُ تصيرُ ترابًا؛ فإنْ وُجِدَ شيءٌ؛ فهو ابتداءُ خَلْقٍ.

كلا واللهِ؛ بل يعيدُ النفسَ بعينِها روحًا وجسدًا؛ بدليل إعادةِ مذكوراتِها: ﴿قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إنِّي كانَ لي قَرينٌ﴾ [الصافات: ٥١].

وعِزَّتِهِ؛ إنَّ لطفَه في البداية لدليلٌ على النهايةِ...

حَنَّنَ الوالدينِ، وأجرى اللبنَ في الثدي، وأنشأ الأطعمةَ، وأطْلَعَ العقلَ على العواقبِ... أفَيَحْسُنُ أنْ يُقالَ بعد هٰذا التدبيرِ: إنَّه يُهْمِلُ

(١) وهٰذا قول ظاهر السقوط عقلاً وشرعًا، ولا ينبغي الالتفات إليه ولا الاشتغال برده، وإن كان ما سيذكره المصنف رحمه الله مفيدًا بلا شك.

بعدَ الموتِ؛ فلا يَبْعَثُ؟!

أترى مَن أحبَّ أنْ يُعْرَفَ فأنشأ الخَلْقَ وقالَ: «كنتُ كَنْزًا لا أُعْرَفُ، فأحببتُ أنْ أُعْرَفَ»[1]؛ يؤثِرُ أن يُعْدِمَهم فيُجْهَلَ قَدْرُهُ؟!

سبحانَ مَن أعمى أكثرَ القُلوبِ عن معرفتِهِ.

٢٧٤ ـ فصل

[في أن السلامة في التسليم]

سبحانَ مَن ظَهَرَ لخلقِهِ حتى لم يَبْقَ خفاءٌ، ثم خَفِيَ حتى كأنَّه لا ظُهورَ.

أيُّ ظهورٍ أجلى مِن هٰذه المصنوعاتِ التي تَنْطِقُ كلُّها بأنَّ لي صانعًا صَنَعَني ورتَّبَني على قانونِ الحكمةِ؟!

خصوصًا هٰذا الآدميَّ الذي أنشأه مِن قطرةٍ، وبناهُ على أعجب فطرةٍ، ورَزَقَهُ الفهمَ والذِّهنَ واليقظةَ والعلمَ، وبَسَطَ له المهادَ، وأجرى له الماءَ والريحَ، وأنبتَ له الزرعَ، ورفَعَ له مِن فوقِهِ السماءَ، فأوقَدَ له مصباحَ الشمسِ بالنهارِ، وجاءَ بالظُّلمةِ ليسكنَ... إلى غير ذٰلك ممّا لا يَخْفى... وكلُّه يَنْطِقُ بصوتٍ فصيحٍ يَدُلُّ على خالقِهِ... وقد تَجَلَّى الخالقُ سبحانَه بهٰذه الأفعالِ؛ فلا خفاءَ.

---

(١) (لا أصل له). قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ـ كما في «مجموع الفتاوى» (١٨/ ١٢٢ و٣٧٦) ـ: «هٰذا ليس من كلام النبي ﷺ، ولا أعرف له إسنادًا صحيحًا ولا ضعيفًا». وتابعه على ذٰلك الزركشي والعسقلاني والسخاوي والسيوطي وغيرهم. وانظر: «المقاصد الحسنة» (٣٢٧/ ٨٣٨)، و«تنزيه الشريعة المرفوعة» (١/ ١٤٨).

ثم بعثَ الرسلَ فقراءَ من الدُّنيا، ضعافَ الأبدانِ، فَقَهَرَ بهمُ الجبابرةَ، وأظْهَرَ على أيديهِم مِن المعجزاتِ ما لا يدخُلُ تحتَ مقدورِ بشرٍ.. وكلُّ ذٰلك يَنْطِقُ بالحقِّ... وقد تجلَّى سبحانه بذٰلك لعبادِهِ.

ثم يأتي موسى عليه السلامُ إلى البحرِ، فَيَنْفَرِقُ، فلا يَبْقى شكٌّ في أنَّ الخالقَ فَعَلَ هٰذا... ويكلِّمُ عيسى عليه السلامُ المَيِّتَ، فيقومُ... ويبعثُ طيرًا أبابيلَ تَحْفَظُ بيتَهُ، فيُهْلِكُ قاصديه...

وهٰذا أمرٌ يطولُ ذِكرُهُ كلِّه، يدلُّ على تجلِّي الخالقِ سبحانَه بغيرِ خَفاءٍ.

فإذا ثَبَتَ عندَ العقلاءِ ذٰلك مِن غيرِ ارتيابٍ ولا شكٍّ، ثم جاءتْ أشياءُ كأنها تَسْتُرُ الظاهرَ؛ مثلُ ما سَبَقَ من تسليطِ الأعداءِ على الأولياءِ... إذا ثَبَتَ التجلِّي بأدلةٍ لا تَحْتَمِلُ التأويلَ؛ علمت أن لهٰذا الخفاءِ سِرًّا لا نعلمُهُ، يُفْتَرَضُ على العقل فيه التسليمُ للحكيم.

فمَن سلَّمَ سَلِمَ، ومَن اعترضَ هَلَكَ.

٢٧٥ـ فصل

[العاملون بلا علم على شفا جرف هار]

قد يدَّعي أهلُ كل مذهبٍ الاجتهادَ في طلبِ الصوابِ، وأكثرُهُم لا يقصِدُ إلَّا الحقَّ؛ فترى الراهبَ يتعبَّدُ ويتجوَّعُ، واليهوديَّ يَذِلُّ ويؤدِّي الجزيةَ، وصاحبَ كلِّ مذهبٍ يبالغُ فيه ويحتمِلُ الضَّيْمَ والأذى طلبًا للهُدى وتحصيلَ الأجرِ في اعتقادِهِ، ومع هٰذا؛ فيَقْطَعُ العقلُ بضلالِ الأكثرينَ.

وهٰذا قد يُشْكِل.

وإنما كَشْفُهُ أنَّه ينبغي أن يُطْلَبَ الهدى بأسبابِه، ويُسْتَعْمَلَ الاجتهادُ بالإبانةِ، فأما من فاتَتْه الأسبابُ، أو فَقَدَ بعضَ الآلاتِ؛ فلا يقالُ له مجتهدٌ.

فاليهودُ والنصارى بين عالمٍ قد عَرَفَ صدقَ نبيِّنا ﷺ لٰكنَّه يَجْحَدُ إبقاءً لرئاستِهِ؛ فهٰذا معاندٌ. وبين مقلِّدٍ لا ينظرُ بعقلِهِ؛ فهٰذا مهملٌ؛ فهو يتعبَّدُ مع إهمـال الأصل، وذاكَ لا ينفعُ. وبينَ ناظرٍ منهم لا ينظُرُ حقَّ النَّظَرِ، فيقـولُ: في التـوراةِ: إنَّ دينَنا لا يُنْسَخُ! ونسخُ الشرائعِ لاختلافِ الأزمنةِ حقٌّ، ولٰكنَّـه يقولُ: النسخُ بَداءٌ! ولا ينظُرُ في الفرقِ بينَهما؛ فينبغي أن يَنْظُرَ حقَّ النظرِ.

ومن هٰذا الجنس تعبُّدُ الخوارجِ، مع اقتناعِهِم بعلمِهِم القاصرِ، وهو قولُهُم: لا حكمَ إلَّا للهِ، ولم يفهموا أنَّ التحكيمَ مِن حُكْمِ اللهِ، فجعلوا قتالَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنه وقتلَه مبنيًّا على ظَنِّهم الفاسدِ.

ولما نَهَبَ مسلمُ بن عقبةَ المدينةَ، وقَتَلَ الخَلْقَ؛ قال: إن دخلتُ النارَ بعد هٰذا إنني لشقيٌّ[1]. فظنَّ بجهلِهِ أنهم لما خالفوا بيعةَ يزيدَ؛ يجوزُ استباحتُهم وقتلُهم.

فالويلُ لعاميٍّ قليلِ العلم؛ لا يتَّهِمُ نفسَه في واقعةٍ، ولا يُذاكِرُ مَن هو

(١) مسلم بن عقبة هو المُرِّي أبو رباح، قائد من الدهاة القساة في العصر الأموي، أدرك النبي ﷺ، وشهد صفين مع معاوية رضي الله عنه، وولاه يزيد قيادة الجيش الذي وجهه لإخضـاع المـدينـة النبـوية، فأفحش فيهـا القول والفعل وأباحها ثلاثة أيام للقتل والنهب والفجور. وانظر ترجمته في: «الإصابة» (٣ / ٤٩٣).

أعلمُ منه، بل يَقْطَعُ بظنِّه ويُقْدِمُ.

وهٰذا أصلٌ ينبغي تأمُّلُه؛ فقد هَلَكَ في إهمالِهِ خلقٌ لا تُحصى، وقد رأينا خَلْقًا من العوامِّ إذا وَقَعَ لهم واقعةٌ؛ لم يقبلوا فتوى.

﴿وُجوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ . عامِلَةٌ ناصِبَةٌ . تَصْلى نارًا حامِيَةً﴾ [الغاشية: ٢ - ٤].

٢٧٦ـ فصل

[في حفظِ ذخائر الأبدان]

للنفسِ ذخائرُ في البدنِ:

منها الدمُ والمنيُّ وأشياءُ تتقوَّى بها؛ فإذا فُقِدَتِ الذَّخائرُ ولم يبقَ منها شيءٌ؛ ذهبتْ.

ومِن ذخائرِها التَّقَوِّي بالمال والجاهِ وما يوجِبُ الفرحَ؛ فإذا فَقَدَتْ ذٰلك، وكانت عزيزةً ذاتَ أنفةٍ؛ حَرِجَتْ.

وقد يهجُمُ عليها الخوفُ؛ فلا تجِدُ ذخيرةً من الرجاءِ يقاومهُ، فتذهبَ.

ويغلِبُ عليها الفرحُ؛ فلا تجدُ من الحزنِ ما يقاومُهُ، فتذهبَ.

فاجتهدْ في حفظِ ذخائرِها، وخصوصًا الشيخَ؛ فإنه ينبغي له أن لا يَفْرَحَ بإخراج الدَّم، ولا بإخراج المنيِّ، وإن وَجَدَ شَبَقًا(١)؛ إلَّا أن يكونَ الشَّبَقُ زائـدًا في الحـدِّ، فيُخْرِجُ المؤذيَ في كلِّ حينٍ، وعلامةُ أنْ يكونَ

---

(١) الشبق: شدة الرغبة في النكاح.

مؤذيًا: وجودُ الراحةِ عند خروجِهِ؛ فمتى وَجَدَ ضَعْفًا؛ فقد آذى خُروجُهُ.

ولْيَحْفَظْ ذو الأنفةِ على نفسِهِ حِشْمَتَهُ؛ بأن لا يَقِفَ في موقفٍ يُعاب بِهِ؛ فإنه يَتَمَتَّعُ بذخيرةِ العزِّ والأنفةِ، ويضادُّ النفسَ وجودُ ضدِّ ذلك.

وكذلك ينبغي أن يستعدَّ لآخر عُمُرِهِ بالمال؛ مخافةَ أن يحتاجَ فيذلَّ أو يسعى وقد كلَّتِ الآلةُ.

ولأنْ يُخَلِّفَ لعدوِّه أولى من أن يحتاجَ إلى صديقِهِ.

ولا يُلتفتُ إلى مَن يذمُّ المالَ؛ فإنَّهم الحمقى الجهالُ الذين اتَّكلوا على خُبْزِ الراحةِ، فاستطابوا الكَسَلَ والدَّعَةَ، ولم يأنفوا مِن تناول الصَّدقةِ ولا التعرُّضِ للسؤال؛ وقد كان لكلِّ نبيٍّ معاشٌ، ولجميع الصحابةِ، وخلَّفوا أموالاً كثيرةً.

فافهم هذا الأصلَ، ولا تلتفتْ إلى كلام الجهَّالِ.

٢٧٧ ـ فصل
[في الزهد الكذاب]

رأيتُ في زهَّادِ زمانِنا من الكِبْرِ وحفظِ الناموس ورتبةِ الجاهِ في قلوبِ العامَّةِ ما كِدْتُ أقطع به على أنهم أهلُ رياءٍ ونفاقٍ!

فترى أحدَهم يَلْبَسُ الثوبَ الذي يُرى بعينِ الزُّهْدِ، ويأكلُ أطايبَ الطعام، ويتكبَّرُ على أبناءِ الجنسِ، ويصادِقُ الأغنياءَ، ويباعِدُ الفقراءَ، ويحبُّ الخِطابَ بـ (مولانا) والمشيَ بجانبه؛ ويضيِّعُ الزمانَ في الهذيانِ، ويَتَقَوَّتُ بخدمةِ الناسِ له والتسليم عليه.

ولو أنَّه لَبِسَ ثوبًا يخلِطُه بالفقهاءِ؛ لَذَهَبَ الجاهُ، ولم يَبْقَ له متعلَّقٌ!

ولو أنَّ أفعالَه ناسبتْ ثيابَه؛ لهانَ الأمرُ، لٰكنَّهم بَهْرَجوا على مَن لا يَخْفى أمرُهم عليهِ مِن الخَلْق؛ فكيفَ الخالقُ سبحانَه وتعالى؟!

٢٧٨ ـ فصل

[لا بد للإنسان من الاشتغال بمعاشه]

كثيرًا ما أعيدُ هٰذا المعنى الذي أنا ذاكِرُهُ في هٰذا الكتابِ بعباراتٍ شتَّى.

ينبغي للمؤمنِ أنْ يتشاغَلَ بمعاشِهِ، ويرفُقَ في نفقتِهِ؛ فإنَّه قد كانَ للعلماءِ شيءٌ من بيتِ المالِ، ورفقٌ من الإخوانِ، ومعونةٌ من العوامِّ، فانقطعَ الكلُّ، وبقي المتشاغِلُ بالعلم أو التعبُّدِ مسكينًا، خصوصًا ذو[1] العائلةِ.

وما رأينا مثلَ هٰذا الزمانِ القبيح[2]؛ فما بَقِيَ مَن يُومَأ إليهِ بمعونةٍ ولا باستقراضٍ، فيحتاجُ الإنسانُ المؤمنُ أن يَدْخُلَ في مداخلَ لا تَليقُ بِهِ، وأنْ يَتَعَرَّضَ بما لا يَصْلُحُ.

فينبغي تقليلُ العائلةِ، وتقويتُ القوتِ، وترقيعُ الخَلَقِ[3].

وإن أمكنَ معاشٌ؛ فهو أولى من التَّشاغُلِ بالتعبُّدِ والتعلُّم لفضول

---

(١) كذا في الأصول! ولها وجه، والأفضل أن يقال: ذا العائلة.

(٢) ما ينبغي مثل هٰذا القول، وسوف يأتي للمصنف رحمه الله كلامًا يحذر فيه منه في (فصل ٢٩٨)؛ فكأنه سبق قلم.

(٣) تقويت القوت: القصد فيه وعدم الإسراف، والخَلَق: القديم البالي.

العلم، وإلاَّ ضاعَ الدِّينُ في مداخلَ لا تَصْلُحُ، أو التعرضِ لِبَذْل نذلٍ.

٢٧٩ ـ فصل

[لا بد لباغي السلامة من الاحتراز في كل أموره]

ينبغي للعاقل أن يَحْتَرِزَ غايةَ ما يُمْكِنُهُ؛ فإذا جرى القَدَرُ مع احترازِهِ؛ لم يُلَمْ.

والاحترازُ ينبغي من كل شيءٍ يمكنُ وقوعُه، وأخذُ العِدَّةِ لذٰلك واجبٌ، وهٰذا يكونُ في كلِّ حال؛ فقد قَصَّ رَجُلٌ ظُفْرَهُ، فجارَ عليه، فَخَبُثَتْ يدهُ فماتَ.

ومرَّ شيخُنا أحمدُ الحربيُّ وهو راكبٌ بمكانٍ ضيِّقٍ، فتطأطأ على السَّرْج، فانعصرَ فؤادُه، فمرِضَ، فماتَ.

وكان يحيى بن نزار[1] شيخًا يحضُرُ مجلسي، قد طَرَقَ عليه ثِقَلُ الأذنِ، فاستدعى طُرُقيًّا[2]، فمصَّ أُذُنَه، فجرى شيءٌ من مُخِّهِ؛ فماتَ.

وانظرْ إلى احترازِ رسول الله ﷺ حين مرَّ على حائطٍ مائل فأسرعَ[3].

---

(١) في الأصول: «بزاز»! ولم أعرفه.

(٢) يعني: أحد الدجالين الذين يمارسون مهنة الطب دون علم ولا هدى.

(٣) (ضعيف جدًّا). رواه: أحمد (٢/٣٥٦)؛ من طريق أسود بن عامر، ثنا إسرائيل، عن إبراهيم بن إسحاق، عن سعيد، عن أبي هريرة... فذكره.

قال الذهبي في «الميزان»: «إبراهيم بن إسحاق؛ لا أدري من ذا، والخبر؛ فمنكر، (ثم ساق هٰذا الخبر وقال:) وإنما يعرف هٰذا بإبراهيم بن الفضل». وإبراهيم بن الفضل هو إبراهيم بن إسحاق نفسه كما أفاد الحافظ في «اللسان»، وهو متروك؛ كما لخص حاله في «التقريب». وقال الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٣٢١): «رواه أحمد وأبو يعلى، وإسناده ضعيف».

وينبغي أن يحترزَ بالكسبِ في زمنِ شبابِهِ؛ ادِّخارًا لزمنِ شيبِهِ، ولا ينبغي أن يَثِقَ بمعامَلٍ إلَّا بوثيقةٍ، ويبادِرَ بالوصيَّةِ؛ مخافةَ أن يَطْرُقَه الموتُ، ويَحْتَـرِزَ من صديقِهِ فضلاً عن عدوِّهِ، ولا يثقَ بمودَّةِ مَن قد آذاهُ هو؛ فإنَّ الحقدَ في القلوبِ قلَّما يزولُ، وليحترزْ من زوجتِهِ؛ فربَّما أطْلَعَها على سِرِّهِ ثم طلَّقَها، فيتأذَّى بما تَفْعَلُ به.

وقد كان ابنُ أفلحَ الشاعرُ يكاتِبُ رئيسًا في زمنِ المسترشِدِ، فعَلِمَ بذلك بوابهُ، واتَّفَقَ أنه صَرَفَ بوابَهُ، فَنَمَّ عليهِ، ونُقِضَتْ دارُهُ[1].

فهٰذه المذكوراتُ أمثلةٌ تنبِّه على ما لم يُذْكَرْ.

وأهمُّ الكلِّ أن يَحْتَرِزَ بأخذِ العِدَّةِ وتحقيقِ التوبةِ قبل أن يَهْجُمَ عليه ما لا يؤمَنُ هجومُهُ، ولْيَحْذَرْ مِن لِصِّ الكسلِ؛ فإنه محتالٌ على سَرِقَةِ الزَّمانِ.

٢٨٠ـ فـصـل

[طيب العيش في القناعة باليسير واعتزال الناس]

تأملتُ خصوماتِ الملوكِ وحرصَ التُّجارِ ونفاقَ المتزهِّدينَ، فوجدتُ جمهورَ ذٰلك على لذاتِ الحسِّ.

وإذا تفكَّـرَ العاقلُ في ذٰلك؛ عَلِمَ أنَّ أمرَ الحسيَّاتِ قريبٌ، يندفعُ

(١) ابن أفلح هو العبسي (٤٧١ ـ ٥٣٥هـ)، سماه المسترشد: جمال الملك، له ديوان شعر. ترجمته في: «وفيات الأعيان» (١/ ٣٦٠)، و«النجوم الزاهرة» (٥/ ٢٦٤).

وأما المسترشد العباسي؛ فقد تقدمت ترجمته في (فصل ١٨٣).

وأما الخبر؛ فانظره في «المنتظم» (١٠ / ٨٠).

بأقلِّ شيءٍ، وأنَّ الغايةَ منه لا يمكنُ نَيْلُها، وإنْ بالغَ؛ عادَ بالأذى على نفسِهِ أضعافَ ما نالَه من اللَّذَّةِ؛ كَمَن يأكُل كثيرًا أو يَنْكِحُ كثيرًا.

فالسعيدُ مَن اهتمَّ لحفظِ دينِه، وأخذَ من ذٰلك بمقدارِ الحاجةِ.

وا عجبًا! هٰذا الملبوسُ: إذا كان وسطًا؛ خَدَمَ، وإذا كان مرتفعًا؛ خُدِمَ، فإنْ نَظَرَ اللابسُ إليه معجبًا به؛ فإنَّ اللهَ لا ينظُرُ إليه حينئذٍ[1]، وفي «الصحيح»: «بينما رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ في بردتِهِ؛ خُسِفَ به»[2].

والمشروبُ: إن كان حرامًا؛ فعقابُهُ أضعافُ لَذَّتِهِ، وهَتْكُهُ العرضَ بين الناس عقابٌ آخرُ. وإن كان مباحًا؛ فالشَّرَهُ فيه يؤذي البدنَ.

وأمـا المنكوحُ؛ فمُداراةُ المستحسنِ يؤذي فوقَ كلِّ أذى، ومقاساةُ المستقبح أشدُّ أذىً؛ فعليكَ بالتوسُّطِ.

وتفكَّرْ في أحوال السلاطينِ؛ كم قَتَلوا ظُلْمًا؟ وكم ارْتَكَبوا حرامًا؟ وما نالوا إلَّا يسيرًا مِن لَذَّاتِ الحسِّ، فانقشعَ غَيْمُ العُمُرِ عن حَسَراتِ الفضائل وحصول العقابِ.

فليسَ في الدُّنيا أطيبُ عيشًا من منفردٍ عن العالَم بالعلم؛ فهو أنيسُهُ وجليسُهُ، قد قَنِعَ بما سَلِمَ به دينُه من المباحاتِ الحاصلةِ، لا عن تكلُّفٍ ولا تضييع دينٍ، وارتدى بالعزِّ عن الذُّلِّ للدُّنيا وأهلِها، والتحف بالقَناعةِ

(١) كما في حديث أبي هريرة الذي رواه: البخاري (٧٧ ـ كتاب اللباس، ٥ ـ باب من جر ثوبه من الخيلاء، ١٠ / ٢٥٧ / ٥٧٨٨)، ومسلم (٩ ـ باب تحريم جر الثوب خيلاء، ٣ / ١٦٥٣ / ٢٠٨٧)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه: «إن الله لا ينظر إلى من يجر إزاره بطرًا».

(٢) تقدم تخريجه في (فصل ٢٥٩).

باليسيرِ إذ لم يقدِرْ على الكثيرِ. فوجدتُهُ يَسْلَمُ دينُهُ ودنياهُ، واشتغالُه بالعلم يَدُلُّهُ على الفضائل ويفرِّجُهُ في البساتينِ؛ فهو يَسْلَمُ من الشيطانِ والسلطانِ والعوامِّ بالعزلةِ.

ولٰكنْ؛ لا يَصْلُحُ هٰذا إلَّا للعالم؛ فإنَّه إذا اعتزلَ الجاهلُ؛ فاته العلمُ، فَتَخَبَّطَ.

٢٨١ ـ فصل

[العلم كثير، والموفق من طلب المهم]

تأملتُ حالةً تدخُلُ على طلَّابِ العلم توجِبُ الغفلةَ عن المقصودِ، وهو حرصُهُم على الكتابةِ، خصوصًا المُحَدِّثينَ، فيستغرقُ ذٰلك زمانَهم عن أن يَحْفَظوا ويَفْهَموا، فيذهبُ العُمُرُ وقد عَرَوْا عن العلم إلَّا اليسيرَ.

فمَن وُفِّقَ؛ جَعَلَ معظمَ الزمانِ مصروفًا في الإعادةِ والحفظِ، وجَعَلَ وقتَ التعبِ من التَّكْرارِ للنَّسْخ، فيحصُلُ له المرادُ.

والموفَّقُ من طَلَبَ المُهِمَّ؛ فإنَّ العُمُرَ يَعْجِزُ عن تحصيل الكُلِّ، وجمهورُ العلوم الفقهُ.

وفي الناس مَن حَصَلَ له العلمُ، وغَفَلَ عن العمل بمقتضاهُ، وكأنه ما حَصَّلَ شيئًا، نعوذُ بالله من الخِذْلانِ.

٢٨٢ ـ فصل

[في ضرورة التثبت في الأمور والنظر في عواقبها]

ما اعتمدَ أحدٌ أمرًا إذا هَمَّ بشيءٍ مثلَ التَّثَبُّتِ؛ فإنَّه متى عَمِلَ بواقعةٍ

من غير تأمُّل للعواقب؛ كان الغالبَ عليهِ النَّدَمُ، ولهذا أُمِرَ بالمشاورةِ(١)؛ لأنَّ الإنسانَ بالتَّثبُّتِ يَفْتَكِرُ، فَتَعْرِضُ على نفسِهِ الأحوالُ، وكأنَّه شاوَرَ، وقد قيل: خَميرُ الرأيِ خيرٌ من فَطيرِهِ.

وأشدُّ الناسِ تَفْريطًا مَن عَمِلَ مبادرةً في واقعةٍ، من غير تَثَبُّتٍ ولا استشارةٍ، خصوصًا فيما يوجِبُهُ الغضبُ؛ فإنَّه طلبُ الهلاكِ أو النَّدَم العظيم.

وكم مَن غَضِبَ، فَقَتَلَ، وضَرَبَ، ثم لما سَكَنَ غضبُهُ؛ بقي طولَ دهرِهِ في الحزنِ والبكاءِ والندم! والغالبُ في القاتلِ أنَّه يُقْتَلُ فتفوتُهُ الدُّنيا والآخرةُ.

فكذلك مَن عَرَضَتْ له شهوةٌ، فاستعجلَ لَذَّتَها، ونَسِيَ عاقبتَها؛ فكم مِن نَدَم يتجرَّعُهُ في باقي عُمُرِهِ، وعتابٍ يَسْتَقْبِلُهُ من بعدِ موتِهِ، وعقابٍ لا يؤمَنُ وقوعُهُ؛ كلُّ ذلك لِلَذَّةِ لحظةٍ كانتْ كَبَرْقٍ.

فاللهَ اللهَ! التثبتَ التثبتَ في كلِّ الأمورِ! والنظرَ في عواقِبِها! خصوصًا الغضبَ المثيرَ للخصومةِ وتعجيل الطلاقِ.

٢٨٣ ـ فصل

[من لم يحترز بعقله هلك بعقله]

سألني سائلٌ: قدْ قالَ بعضُ الحكماءِ: مَن لم يَحْتَرِزْ بعقلِهِ؛ هَلَكَ بعقلِهِ؛ فما مَعْنى هٰذا؟

---

(١) في قوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وهٰذا للنبي ﷺ، ومن باب أولى لأمته. وفي بعض المطبوعات: «ولهٰذا أمر الإنسان بالمشاورة».

فبقيتُ مدةً لا يَنْكَشِفُ ليَ المعنى، ثم اتَّضَحَ.

وذٰلك أنَّه إذا طُلِبَتْ معرفةُ ذاتِ الخالقِ سبحانَه مِن العقل؛ فَزِعَ إلى الحسِّ، فوقعَ التشبيهُ؛ فالاحترازُ مِن العقل بالعقل هو: أنْ يَنْظُرَ، فيعلمَ أنَّه لا يجوزُ أن يكونَ جسمًا[١] ولا شبهًا لشيءٍ.

وإذا نَظَرَ العاقلُ إلى أفعال الباري سبحانَه؛ رأى أشياءَ لا يقتضيها العقـلُ؛ مثلَ الآلام، والذَّبح للحيوانِ، وتسليطِ الأعداءِ على الأولياءِ مع القدرةِ على المَنْع، والابتلاءِ بالمجاعةِ للصَّالحينَ، والمعاقبةِ على الذَّنْبِ بعدَ البُعْدِ بزَلَّةٍ، وأشياءَ كثيرةً من هٰذا الجنس؛ يَعْرِضُها العقلُ على العاداتِ في تدبيرِهِ، فيرى أنَّه لا حكمةَ تَظْهَرُ له فيها؛ فالاحترازُ من العقل به أنْ يُقالَ له: أليسَ قد ثَبَتَ عندي أنه مالكٌ، أنَّه حكيمٌ، وأنَّه لا يفعلُ شيئًا عَبَثًا؟ فيقـولُ: بلى. فيُقالُ: فنحنُ نَحْتَرِزُ مِن تدبيرِكَ الثاني بما ثَبَتَ عندَكَ في الأول، فلم يَبْقَ إلَّا أنَّه خَفِيَ عليكَ وجهُ الحكمةِ في فعلِهِ، فيجبُ التسليمُ له؛ لِعلْمِنا أنه حكيمٌ. حينئذٍ يُذْعِنُ ويقولُ: قد سَلَّمْتُ.

وكثيرٌ من الخَلْقِ نَظَروا لِمُقْتضى واقع العقل الأول، فاعْتَرَضوا!

حتى إن العاميَّ يقولُ: كيفَ قضى عليَّ سوءَ عاقِبَتي؟! ولِمَ ضَيَّقَ رزقي؟! وما وجهُ الحكمةِ في ابتلائي بفنونِ البلاءِ؟! ولو أنه تلمَّحَ أنه مالكٌ حكيمٌ؛ لم يَبْقَ إلَّا التسليمُ لِما خَفِيَ.

ولقد أنِسَ ببديهةِ العقل خَلْقٌ من الأكابر[٢]، أوَّلُهم إبليسُ؛ فإنَّه رأى

---

(١) تقدم الكلام على هٰذا في (فصل ٢٣٧).

(٢) يعني: من أكابر المجرمين.

تفضيلَ النارِ على الطينِ، فاعْتَرَضَ.

ورأينا خَلْقًا مِمَّنْ نُسِبَ إلى العلم قد زَلُّوا في هٰذا، واعْتَرَضوا، ورأوا أنَّ كثيرًا من الأفعال لا حكمةَ تحتَها.

والسببُ ما ذَكَـرْنا، وهو الأُنسُ بِنَظَرِ العقل في البديهةِ والعاداتِ، والقياسُ على أفعال المخلوقينَ.

ولو استَخْرَجوا علمَ العقل الباطن، وهو أنَّه قد ثَبَتَ الكمالُ للخالق، وانتفتْ عنه النقائصُ، وعُلِمَ أنه حكيمٌ لا يَعْبَثُ؛ لَبَقِيَ التسليمُ لما لا يُعْقَلُ.

واعتبرْ هٰذا بحال الخَضِرِ وموسى عليهما السلام، لَمّا فَعَلَ الخَضِرُ أشياءَ تَخْرُجُ عن العاداتِ؛ أنْكَرَ موسى، ونَسِيَ إعلامَه له بأنِّي أنْظُرُ فيما لا تَعْلَمُهُ مِن العواقبِ؛ فإذا خَفِيَتْ مصلحةُ العواقبِ على موسى عليه السلامُ مع مخلوقٍ؛ فأولى أنْ يَخْفى علينا كثيرٌ من حكمةِ الحكيم.

وهٰـذا أصـلٌ؛ إنْ لم يَثْبُتْ عندَ الإنسانِ؛ أخرجَه إلى الاعتراضِ والكفرِ، وإن ثَبَتَ؛ استراحَ عند نُزولِ كلِّ آفةٍ.

٢٨٤ـ فـصـل
[في التوسل إلى الله بالعرفان والامتنان]

بلغني عن بعضِ الكرماءِ أنَّ رجلًا سألهُ، فقالَ: أنا الذي أحسنتَ إليَّ يومَ كذا وكذا. فقالَ: مرحبًا بمنْ يَتَوَسَّلُ إلينا بنا. ثم قضى حاجَتَهُ.

فأخذتُ من ذٰلك إشارةً، فناجيتُ بها، فقلتُ: أنت الذي هَدَيْتَهُ من

زمنِ الـطُّفـولـةِ، وحَفِظْتَهُ من الضَّلالِ ، وعَصَمْتَهُ عن كثيرٍ من الذُّنوبِ، وألهمتَهُ طلبَ العلم، ولا بِفَهْمٍ لشرفِهِ لموضِع الصِّغَرِ، ولا بحبٍّ والدِهِ، ورَزَقْتَهُ فهمًا لتفقُّهِهِ وتصنيفِهِ، وهيأتَ له أسبابَ جمعِهِ، وقمتَ برزقِهِ من غيرِ تعبٍ منه ولا ذُلٍّ للخَلْقِ بالسؤالِ، وحامَيْتَ عنه الأعداءَ فلم يقصِدْهُ جبارٌ، وجمعتَ له ما لم تَجْمَعْ لأكثرِ الخلقِ من فنونِ العلم التي لا تكادُ تجتمعُ في شخصٍ ، وأضفتَ إليهـا تَعلُّقَ القلبِ بمعـرفتِـكَ ومحبَّتِـكَ، وحسنَ العبارةِ ولُطْفَها في الدِّلالةِ عليك، ووضعتَ له في القلوبِ القبولَ، حتى إنَّ الخَلْقَ يُقْبِلونَ عليه، ويَقْبَلونَ ما يقولُهُ، ولا يشكُّونَ فيه، ويشتاقونَ إلى كلامِهِ، ولا يدركُهُمُ المللُ منه، وصُنْتَهُ بالعُزلةِ عن مخالطةِ مَن لا يَصْلُحُ، وآنَسْتَهُ في خَلْوتِه بالعلم تارةً، وبمناجاتِك أخرى، وإنْ ذهبتُ أعدُّ؛ لم أقدِرْ على إحصاءِ عُشَيْرِ العُشَيْرِ ﴿وإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فيا محسنًـا إليَّ قبـلَ أن أطلبَ! لا تُخَيِّبْ أملي فيكَ وأنا أَطْلُبُ؛ فبإنعامِكَ المتقدِّم أتوسَّلُ إليكَ.

٢٨٥ ـ فـصـل
[من حكايات البخلاء]

سبحانَ مَن جَعَلَ الخَلْقَ بينَ طَرَفَيْ نقيضٍ ، والمتوسِّطُ منهم يَنْدُرُ!

منهم مَن يَغْضَبُ فيقتُلُ ويضرِبُ، ومنهم مَن هو أبلهُ بقوَّةِ الحِلْمِ لا يؤثِّرُ عندَه السَّبُّ!

ومنهم شَرِهٌ يتناولُ كلَّ ما يشتهي. ومنهم متزهِّدٌ يتجفَّفُ فيمنعُ النفسَ

حقَّها!

وكذٰلك سائرُ الأشياءِ؛ المحمودُ منها المتوسِّطُ:

فالمُنْفِقُ كلَّ ما يَجِدُ مبذِّرٌ، والبخيلُ يخبِّىءُ المالَ ويمنعُ نفسَه حَظَّها.

ومعلومٌ أنَّ المالَ لا يُرادُ لنفسِهِ، بل للمصالح؛ فإذا بَذَّرَ الإنسانُ فيه؛ احتاجَ إلى بذل وَجْهِهِ ودينِهِ ومنةِ البخلاءِ عليه، وهٰذا لا يَصْلُحُ، ولأنْ يُخَلِّفَ الإنسانُ لعدُوِّهِ أحسنُ من أنْ يحتاجَ إلى صديقِهِ.

ومن الناس مَن يَبْخَلُ، ثم يتفاوتونَ في البخل، حتى ينتهيَ البلاءُ بهم إلى عِشْقِ عينِ المال؛ فربَّما ماتَ أحدُهُم هُزالاً وهو لا يُنْفِقُهُ، فيأخذُهُ الغيرُ، ويندَمُ المُخَلِّفُ!!

ولقد بلغني في هٰذا ما ليس فوقَه مزيدٌ، ذكرتُهُ لتعتبرَ به:

فحدَّثني شيخُنا أبو الفضل بنُ ناصرٍ عن شيخِهِ عبدِ المحسنِ الصُّوريِّ؛ قالَ: كان بصورٍ تاجرٌ في غرفةٍ له، يأخُذُ كلَّ ليلةٍ من البقَّال رغيفينِ وجوزةً، فيدخُلُ إلى غرفتِهِ وقتَ المغربِ، فيُضْرِمُ النارَ في الجوزةِ، فتضيءُ بمقدارِ ما ينزِعُ ثوبَه، وفي زمانِ إحراقِ القشرِ تكونُ قدِ استوتْ، فيمسَحُ بها الرغيفين ويأكُلُهما... فبقي على هٰذا مدةً، فماتَ، فأخَذَ منه ملكُ صورٍ ثلاثينَ ألفًا!!

ورأيتُ أنا رجلاً من كبارِ العلماءِ قد مَرِضَ، فاستلقى عند بعضِ أصدقائِهِ، ليس له مَن يَخْدُمُهُ ولا يُرافِقُهُ، وهو مُضِرٌّ[1]، فلما ماتَ؛ وجدوا بين كتبِهِ خمس مئة دينارٍ!!

(١) مضر: مريض أضر به المرض واشتد عليه.

وحدثني أبو الحسنِ الراندسيُّ؛ قالَ: مَرِضَ رجلٌ عندنا، فبعثَ إليَّ، فحضرتُ، فقالَ: قد خَتَمَ القاضي على مالي. فقلتُ: إن شئتَ قمتُ وفتحتُ الختمَ وأعطيتُكَ الثُّلُثَ تفرِّقُهُ وتعملُ به ما تشاءُ. فقال: لا واللهِ؛ ما أريدُ أن أفرِّقَهُ، بل أريدُ مالي يكونُ عندي. فقلتُ: ما يعطونَكَ، بلى أنا آخذُ لك الثلثَ كي تكونَ حُرًّا فيه. فقال: لا أريدُه. فماتَ وأُخِذَ مالُه!!

قالَ: وجاء رجلٌ، فحدَّثني بعجيبةٍ؛ قالَ: مرضتْ حماتي، فقالتْ لي: أريدُ أن تشتريَ لي خَبيصًا(١)، فاشتريتُ لها، وكانت مُلقاةً في صُفَّةٍ، ونحن في صُفَّةٍ أخرى، فجاءني ولدي الصغيرُ، وقالَ: يا سيدي! إنها تبلعُ الذهبَ!! فقمتُ، وإذا بها تجعلُ الدينارَ في شيءٍ من الخبيصِ فتبلعُهُ! فأمسكتُ يَدَها وزَجَرْتُها عن هذا، فقالتْ: أنا أخافُ أن تتزوجَ على ابنتي. فقلتُ: ما أفعلُ. فقالتْ: احلِفْ لي! فحلفتُ، فأعطتني باقي الذهبِ، ثم ماتتْ، فدفنتُها، فلمّا كان بعد أشهرٍ؛ ماتَ لنا طِفْلٌ، فحملْناه إليها، وأخذتُ معي خرقةَ خام، وقلتُ للحفَّارِ: اجمعْ لي عظامَ تلك العجوزِ في الخرقةِ، فجئتُ بها إلى البيتِ، وتركتُها في إجَّانةٍ(٢)، وصببتُ عليها الماءَ، وحرَّكْتُها، فأخرجتُ ثمانينَ دينارًا أو نحوَها كانت قدِ ابْتَلَعَتْها!!

وحكى لي صديقٌ لنا: أنَّ رجلًا ماتَ ودُفِنَ في الدارِ، ثم نُبِشَ بعد مدةٍ لِيُخْرَجَ، فوُجِدَ تحت رأسِهِ لَبِنَةٌ مُقَيَّرةٌ(٣)، فسُئِلَ أهلُه عنها؟ فقالوا: هو

---

(١) الخبيص: المعمول من التمر والسمن.

(٢) الإجانة: وعاء يستعمل لغسل الثياب.

(٣) مقيَّرة: مطلية بالقار، وهو الزفت أو القطران.

قَيَّرَ هٰذه اللبنةَ وأوصى أن تُتْرَكَ تحتَ رأسِهِ في قبرِهِ وقالَ: إن اللَّبِنَ يبلى سريعًا، وهٰذه لموضعِ القارِ لا تبلى. فأخذوها، فوجَدوها رَزينةً، فكَسَروها، فوجَدوا فيها تسعَ مئةِ دينارٍ، فتولَّاها أصحابُ التَّرِكاتِ!!

وبلغني أنَّ رجلًا كان يَكْنُسُ المساجدَ، ويجمعُ ترابَها، ثم ضَرَبَه لَبِنًا، فقيلَ له: هٰذا لأيِّ شيءٍ؟ فقال: هٰذا ترابٌ مباركٌ، وأريدُ أن يجعلوهُ على لحدي: فلما ماتَ؛ جُعِلَ على لحدِهِ، فَفَضَلَ منه لَبِناتٌ، فرَمَوْها في البيتِ، فجاء المطرُ، فتفسَّخَتِ اللبناتُ؛ فإذا فيها دنانيرُ، فمَضوا، وكَشَفوا اللَّبِنَ عن لحدِهِ، وكلُّه مملوءٌ دنانيرَ!!

ولقد ماتَ بعضُ أصدقائِنا، وكنتُ أعلمُ له مالًا كثيرًا، وطالَ مرضُه، فما أَطْلَعَ أهلَه على شيءٍ، ولا أكادُ أشكُّ أنه مِن شُحِّهِ وحرصِهِ على الحياةِ ورجائِهِ أن يبقى لم يُعْلِمْهُمْ بمدفونِهِ؛ خوفاً أن يؤخذَ، فيحيا هو وقد أخِذَ المالُ، وما يكونُ بعد هٰذا الخزي شيءٌ!!

وحدثني بعضُ أصحابِنا عن حالةٍ شاهدها من هٰذا الفنِّ؛ قالَ: كان فلانٌ له ولدانِ ذَكَرانِ وبنتٌ، وله ألفُ دينارٍ مدفونةٌ، فمرِضَ مرضًا شديدًا، فاحْتَوَشَتْهُ[1] أهلُه، فقالَ لأحدِ ابنيهِ: لا تبرحْ من عندي! فلما خَلا به؛ قالَ له: إنَّ أخاك مشغولٌ باللَّعِبِ بالطيورِ، وإن أختكَ لها زوجٌ تركيٌّ، ومتى وَصَلَ من مالي إليهما شيءٌ؛ أنفقوه في اللعب، وأنت على سيرتي وأخلاقي، ولي في الموضعِ الفلانيِّ ألفُ دينارٍ؛ فإذا أنا مِتُّ؛ فخُذْها وحدَكَ. فاشتدَّ بالرجل المرضُ، فمضى الولدُ، فأخذَ المالَ، فعوفي الأبُ،

(١) احتوشته أهله: أحاطت به.

فجعلَ يسألُ الولدَ أن يَرُدَّ المالَ إليه، فلا يفعلُ، فمرضَ الولدُ وأشفى[1]، فَجَعَلَ الأبُ يتضرَّعُ إليه ويقولُ: ويحكَ! خصصتُكَ بالمال دونَهم، فتموتُ، فيذهبُ المالُ! ويحكَ! لا تفعلْ! فما زالَ به حتى أخبرهُ بمكانِه، فأخذَه، ثم عوفي الولدُ، ومضتْ مدةٌ، فمرضَ الأبُ، فاجتهدَ الولدُ أن يخبِرَهُ بمكانِ المال وبالَغَ، فلم يخبِرْه، وماتَ، وضاعَ المال.

فسبحانَ من أعدمَ هٰؤلاءِ العقولَ والفُهومَ!

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبيلاً﴾ [الفرقان: ٤٤].

٢٨٦ ـ فصل

[في كثرة المعارف وندرة الأصدقاء]

كان لنا أصدقاءُ وإخوانٌ أعتدُّ بهم، فرأيتُ منهم مِن الجفاءِ وتركِ شُروطِ الصداقةِ والأُخُوَّةِ عجائبَ، فأخذتُ أعتبُ، ثم انتبهتُ لنفسي، فقلتُ: وما ينفعُ العتابُ؛ فإنَّهم إن صَلَحوا؛ فللعتابِ لا للصَّفاءِ، فهممتُ بمقاطعتِهم!

ثم تفكرتُ، فرأيتُ الناسَ بين معارفَ وأصدقاءَ في الظاهرِ وإخوة مباطنينَ، فقلتُ: لا تَصْلُحُ مقاطعتُهم، إنما يَنْبَغي أن تَنْقُلَهم من ديوانِ الإخوةِ إلى ديوانِ الصداقةِ الظاهرةِ؛ فإن لم يَصْلُحوا لها؛ نَقَلْتَهم إلى جملةِ المعارفِ، وعاملْتَهم معاملةَ المعارفِ، ومن الغَلَطِ أن تعاتِبَهم.

فقد قالَ يحيى بن معاذٍ: بئسَ الأخُ أخٌ تحتاجُ أن تقولَ له: اذكرني

---

(١) أشفى المريض: أشرف على الموت.

في دعائِكَ(١).

وجمهورُ الناسِ اليومَ معارفُ، ويَنْدُرُ فيهم صديقٌ في الظاهرِ، فأما الأُخُـوَّةُ والمصـافاةُ؛ فذاكَ شيءٌ نُسِخَ؛ فلا يُطْمَعُ فيه، وما أرى الإنسانَ تصفو له إخوةٌ من النسبِ ولا ولدُهُ ولا زوجتُهُ؛ فدع الطمعَ في الصَّفا، وخُذْ عن الكلِّ جانبًا، وعامِلْهُم معاملةَ الغرباءِ! وإياكَ أن تنخدعَ بمن يُظْهِرُ لك الـوُدَّ؛ فإنَّه مع الزمانِ يَبين لك الحالُ فيما أظهرَه، وربَّما أظهرَ لك ذٰلك لسببٍ ينالُه منك!!

وقد قال الفُضيلُ بن عِياضٍ: إذا أردتَ أن تصادِقَ صديقًا؛ فأغْضِبْهُ؛ فإنْ رأيتَه كما ينبغي؛ فصادِقْه(٢).

وهٰذا اليومَ مخاطرةٌ؛ لأنَّك إذا أغضبتَ أحدًا؛ صار عدوًّا في الحال.

والسببُ في نسـخ حكم الصَّفـا: أنَّ السَّلَفَ كان هِمَّتَهم الآخـرةُ وحدَها، فصفتْ نِيَّاتُهم في الأخوةِ والمخالطةِ، فكانت دينًا لا دُنيا. والآنَ؛ فقد استولى حبُّ الدُّنيا على القلوبِ؛ فإن رأيتَ متملِّقًا في بابِ الدينِ؛ فاخْبُرْه تَقْلِهِ(٣).

٢٨٧ ـ فـصـل

[اتباع رغبات النفس وأهوائها حسرات]

رأيتُ المعافى لا يعرِفُ قَدْرَ العافيةِ إلَّا في المرضِ كما لا يعرِفُ

(١) هو الواعظ، من كبار المشايخ، ترجمه الذهبي في «السير» (١٣ / ١٥).

(٢) تقدمت ترجمة الفضيل في (فصل ١٢).

(٣) اخبره تَقْلِهِ؛ يعني: اختبر حقيقته تبغضه.

شُكْرَ الإطلاقِ إلاَّ في الحبس.

وتأملتُ على الآدميِّ حالةً عجيبةً، وهو أن تكونَ معه امرأةٌ لا بأسَ بها؛ إلاَّ أنَّ قَلْبَهُ لا يتعلَّقُ بمحبَّتِها تعلُّقًا يلتذُّ به ـ ولذلك سببانِ: أحدُهما: أن تكونَ غيرَ غايةٍ في الحسنِ. والثاني: أن كلَّ مملوكٍ مكروهٌ، والنفسُ تطلُبُ ما لا تقدِرُ عليه. ـ فتراه يَضِجُّ ويشتهي شيئًا يحبُّه أو امرأةً يعشقُها، ولا يدري أنه إنما يطلُبُ قَيْدًا وثيقًا؛ يمنعُ القلبَ من التصرُّفِ في أمورِ الآخرةِ أو في أيِّ علمٍ أو عملٍ، ويخبِطُه في تصريفِ الدُّنيا، فيبقى ذلك العاشقُ أسيرَ المعشوقِ، همُّه كلُّه معه.

فالعجبُ لمطلَقٍ يُؤْثِرُ القيدَ، ومستريحٍ يؤثِرُ التعبَ!!

فإن كانتْ تلكَ المرأةُ تحتاجُ أن تُحْفَظَ؛ فالويلُ له، لا قرارَ له ولا سكونَ. وإن كانت مِن المتبرِّجاتِ اللَّواتي لا يؤمَنُ فسادُهُنَّ؛ فذاك هلاكُه بمرةٍ؛ فلا هو إن نام يلتذُّ بنومِهِ، ولا إن خَرَجَ من الدارِ يأمنُ مِن محنةٍ. وإن كانتْ تريدُ نفقةً واسعةً وليسَ له؛ فكم يَدْخُلُ مُدْخَلَ سَوْءٍ لأجلِها. وإن كانتْ تُؤْثِرُ الجماعَ وقد عَلَتْ سِنُّه؛ فذاك الهلاكُ العظيمُ. وإن كانت تُبْغِضُهُ؛ فما بَقِيَتْ من أسبابِ تلفِهِ بقيةٌ، فيكونُ هذا ساعيًا في تلفِ نفسهِ؛ كما قالَ القائلُ:

نُحِبُّ القُدودَ ونَهْوَى الخُدودَ ونَعْلَمُ أنَّا نُحِبُّ المَنونا

وهذا على الحقيقةِ كعابدِ صنم.

فليتَّقِ اللهَ مَن عندَه امرأةٌ لا بأسَ بها، وليُعْرِضْ عن حديثِ النَّفْسِ ومُناها؛ فما له منتهى... ولو حَصَلَ له غرضُه كما يريدُ؛ وَقَعَ المللُ وطلبَ

ثالثةً، ثم يقعُ الملَلُ ويطلَبُ رابعةً. . . وما لهٰذا آخرٌ، إنما يفيدُه ذٰلك في العاجلةِ تعلُّقَ قلبِهِ وأسْرَ لُبِّه، فيبقى كالمبهوتِ، فِكْرُهُ كلُّه في تحصيل ما يريدُ محبوبُهُ؛ فإن جَرَتْ فُرقةٌ أو آفةٌ؛ فتلكَ الحَسَراتُ الدائمةُ إن بَقِيَ، أو التلفُ عاجلاً.

وأين المستحسنُ المصونُ الدينِ القنوعُ بِمَنْ[1] يحبُّه؟!

هٰذا أقلُّ من الكبريتِ الأحمرِ.

فَلْيَنْظُرْ في تحصيل ما يجمعُ معظمَ الهمِّ، ولا يلتفتْ إلى سوادِ الهوى وغايةِ المنى؛ يَسْلَمْ.

٢٨٨ ـ فصل

[العلم النافع يورث التواضع ورؤية التقصير]

إذا تَمَّ علمُ الإنسانِ؛ لم يَرَ لنفسِهِ عملاً، وإنما يرى إنعامَ الموفِّقِ لذٰلك العملِ، الذي يمنعُ العاقلَ أن يرى لنفسِهِ عَمَلاً أو يُعْجَبَ به، وذٰلك بأشياءَ:

منها: أنه وَفَّقَ لذٰلك العمل: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإيمانُ وزَيَّنَهُ في قُلوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

ومنها: أنَّه إذا قِيسَ بالنِّعم؛ لم يَفِ بمعشارِ عشرِها.

ومنها: أنه إذا لوحِظَتْ عَظَمَةُ المخدوم؛ احتقَرَ كلَّ عمل وتَعَبُّدٍ.

هٰذا إذا سَلِمَ من شائبةٍ وخَلَصَ من غفلةٍ.

---

(١) في الأصول: «القنوع لمن يحبه»! وما أثبتناه أولى.

فأما والغفلاتُ تحيطُ به؛ فينبغي أن يَغْلِبَ الحَذَرُ من ردِّه، ويَخافَ العتابَ على التقصيرِ فيه، فيَشْتَغِلَ عن النظرِ إليه.

وتأمَّلْ على الفُطَناءِ أحوالَهم في ذلك:

فالملائكةُ الذين يسبِّحون الليلَ والنهارَ لا يفتُرونَ قالوا: ما عبدناكَ حقَّ عبادَتِكَ.

والخليلُ عليه السلامُ يقول: ﴿والَّذي أطْمَعُ أنْ يَغْفِرَ لي﴾ [الشعراء: ٨٢]، وما أدَلَّ[١] بتصبُّرِهِ على النارِ وتسليمِهِ الولدَ إلى الذَّبح.

ورسولُ اللهِ ﷺ يقولُ: «ما منكم مَن يُنجيهِ عملُهُ». قالوا: ولا أنتَ؟ قال: «ولا أنا؛ إلاَّ أن يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ برحمتِهِ»[٢].

وأبو بكرٍ رضي الله عنه يقولُ: وهل أنا ومالي إلاَّ لك يا رسولَ اللهِ[٣]؟!

وعمرُ رضيَ الله عنه يقولُ: لو أنَّ لي طلاعَ الأرضِ؛ لافتديتُ بها

(١) أدل بعمله: نظر إليه، ورأى أنه أهل للإكرام بسببه.

(٢) رواه: البخاري (٧٥ ـ كتاب المرضى، ١٩ ـ باب تمني المريض الموت، ١٠ / ١٢٧ / ٥٦٧٣)، ومسلم (٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين، ١٧ ـ باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، ٤ / ٢١٧١ / ٢٨١٦)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه: البخاري (٦٣ ـ كتاب مناقب الأنصار، ٤٥ ـ باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ٧ / ٢٢٧ / ٣٩٠٤)، ومسلم (٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة، ١ ـ باب من فضائل أبي بكر الصديق، ٤ / ١٨٥٤ / ٢٣٨٢)؛ من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ: «فديناك بآبائنا وأمهاتنا»، وجاء في لفظ عند الترمذي: «بل نفديك بآبائنا وأموالنا». وانظر: «جامع الأصول» (٨ / ٥٨٨).

مِن هول ما أمامي قبل أن أعلَم ما الخبرُ(١).

وابنُ مسعودٍ يقولُ: ليتني إذا مِتُّ لا أُبْعَثُ(٢).

وعائشةُ رضي الله عنها تقولُ: ليتني كنتُ نسيًا مَنْسِيًّا(٣).

وهٰذا شأنُ جميع العقلاءِ؛ فرضي اللهُ عنِ الجميع.

وقد رُوي عن قوم من صُلحاءِ بني إسرائيلَ ما يَدُلُّ على قلةِ الأفهام لما شرحتُه؛ لأنهم نظروا إلى أعمالِهِم، فأَدَلُّوا بها:

فمنهُ حديثُ العابدِ الذي تعبَّدَ خمسَ مئةِ سنةٍ في جزيرةٍ، وأخرجَ له كلَّ ليلةٍ رُمانةً، وسألَ اللهَ تعالى أن يميتَه في سجودِهِ؛ فإذا حُشِرَ؛ قيلَ له: ادخلِ الجنةَ برحمتي! قال: بل بعملي. فيوزَنُ جميعُ عملِهِ بنعمةٍ واحدةٍ؛ فلا يفي، فيقولُ: يا ربِّ! برحمتِكَ(٤).

---

(١) رواه البخاري (٦٢ ـ كتاب فضائل الصحابة، ٦ ـ باب مناقب عمر بن الخطاب، ٧ / ٤٣ / ٣٦٩٢)؛ من حديث المسور بن مخرمة.

(٢) رواه: أحمد في «الزهد» (ص ١٩٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١ / ١٣٣).

(٣) رواه: أحمد في «الزهد» (ص ٢٠٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢ / ٤٥).

(٤) (ضعيف). رواه الحاكم (٤ / ٢٥٠)؛ من طريق سليمان بن هرم، عن محمد بن المنكدر، عن جابر مرفوعًا في سياق طويل.

قال الحاكم: «هٰذا حديث صحيح الإسناد؛ فإن سليمان بن هرم العابد من زهاد أهل الشام، والليث بن سعد لا يروي عن المجهولين». ورده الذهبي فقال: «لا والله، وسليمان غير معتمد». وذكره في «الميزان» في ترجمته وقال: «لم يصح هٰذا، والله تعالى يقول: ﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ [النحل: ٣٢]، ولٰكن لا ينجي أحدًا عمله من عذاب الله؛ كما صح، بلى؛ أعمالنا الصالحة هي من فضل الله علينا ومن نعمه، لا بحول منا ولا بقوة؛ فله الحمد على الحمد له». وأقره الحافظ في «اللسان».

وكـذٰلك أهلُ الغارِ الذينَ انطبقتْ عليهم الصخرةُ(١): فإنَّ أحدَهُم توسَّلَ بعملِ كانَ ينبغي أن يَسْتَحْيِيَ مِن ذِكْرِهِ، وهو أنه عَزَمَ على الزِّنى، ثم خافَ العقوبةَ، فتَرَكَهُ؛ فليتَ شِعْري، بماذا يُدِلُّ مَن خافَ أن يعاقَبَ على شيءٍ فَتَرَكَهُ تخوُّفَ العقوبةِ؟! إنما لو كان مباحًا فَتَرَكَهُ؛ كانَ فيه ما فيه. ولو فَهِمَ؛ لَشَغَلَهُ خَجَلُ الهمةِ عنِ الإدلال؛ كما قالَ يوسفُ عليهِ السلامُ: ﴿وما أُبَرِّئُ نَفْسي﴾ [يوسف: ٥٣](٢)!! والآخرُ تَرَكَ صبيانَه يتضاغَوْنَ إلى الفجرِ

(١) وحديثهم مشهور وقد تقدمت الإشارة إليه وتخريجه في (فصل ٧٠).

(٢) الراجح أن هٰذا من كلام امرأة العزيز لا يوسف عليه السلام.

ثم ما كان ينبغي لابن الجوزي غفر الله له أن يقول هٰذا! كيف وقد ذكرهم النبي ﷺ في موضع المدح والثناء؟!

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٦ / ٥١٠ / ٣٤٦٥) بعد أن أورد هٰذا الاستشكال: «أجاب [المحب الطبري] عن قصة أصحاب النار بأنهم لم يستشفعوا بأعمالهم، وإنما سألوا الله إن كانت أعمالهم خالصة وقبلت أن يجعل جزاءها الفرج عنهم. فتضمن جوابه تسليم السؤال لٰكن بهٰذا القيد، وهو حسن.

وقد تعرض النووي لهٰذا، فقال في كتاب «الأذكار» (باب دعاء الإنسان وتوسله بصالح عمله إلى الله) وذكر هٰذا الحديث، ونقل عن القاضي حسين وغيره استحباب ذٰلك في الاستسقاء، ثم قال: وقد يقال إن فيه نوعًا من ترك الافتقار المطلق، ولٰكن النبي ﷺ أثنى عليهم بفعلهم، فدل على تصويب فعلهم.

وقال السبكي الكبير: ظهر لي أن الضرورة قد تلجىء إلى تعجيل جزاء بعض الأعمال في الدنيا، وأن هٰذا منه، ثم ظهر لي أنه ليس في الحديث رؤية عمل بالكلية؛ لقول كل منهم: «إن كنت تعلم أني فعلت ذٰلك ابتغاء وجهك»؛ فلم يعتقد أحد منهم في عمله الإخلاص، بل أحال أمره إلى الله؛ فإذا لم يجزموا بالإخلاص فيه مع كونه أحسن أعمالهم؛ فغيره أولى، فيستفاد منه أن الذي يصلح في مثل هٰذا أن يعتقد الشخص تقصيره في نفسه، ويسيء الظن بها، ويبحث على كل واحد من عمله يظن أنه أخلص فيه، فيفوض أمره إلى الله، ويعلق الدعاء على علم الله به؛ فحينئذ يكون إذا دعا راجيًا للإجابة خائفًا من الرد؛ =

ليسقيَ أبـويهِ اللبنَ. وفي هٰذا البرِّ أذىً للأطفال، ولٰكنَّ الفهمَ عزيزٌ[١].
وكأنَّهم لما أَحْسَنوا فيما ظنُّوا؛ قالَ لسانُ الحال: أعْطوهم ما طَلَبوا؛ فإنَّهم يَطْلُبونَ أجرةَ ما عَمِلوا.

ولولا عِزَّةُ الفهم؛ ما تكبَّرَ متكبِّرٌ على جنسِهِ، ولكانَ كلُّ كامل خائفًا محتقِرًا لعملِهِ حَذرًا من التقصيرِ في شكرِ ما أنعمَ عليهِ.

وفَهْمُ هٰذا المشـروح يُنْكِسُ رأسَ الكِبْـرِ، ويوجِبُ مسـاكنةَ الذُّلِّ؛ فتأمَّلْه؛ فإنَّه أصلٌ عظيمٌ.

٢٨٩ـ فـصـل

[لا يزال العاقل خائفاً خجلاً من ذنبه حتى يموت]

ينبغي للعاقلِ أن يكونَ على خوفٍ مِن ذنوبِهِ، وإن تابَ منها وبكى

= فإن لم يغلب على ظنه إخلاصه، ولو في عمل واحد؛ فليقف عند حده، ويستحي أن يسأل بعمل ليس بخالص. قال: وإنما قالوا: «ادعوا الله بصالح أعمالكم» في أول الأمر، ثم عند الـدعـاء لم يطلقـوا ذٰلـك، ولا قال واحـد منهم: أدعـوك بعملي، وإنما قال: «إن كنت تعلم...»، ثم ذكر عمله. انتهى ملخصًا، وكأنه لم يقف على كلام المحب الطبري الذي ذكرته؛ فهو السابق إلى التنبيه على ما ذكر، والله أعلم».

وقد تقدم للمصنف غفر الله له مثل هٰذا الكلام في (فصل ٧٠)، ثم ناجى ربه وتوسل إليه بعمله في نصر السنة والذب عنها في (فصل ١٦٠)!! فتأمل.

(١) غفر الله لابن الجوزي! أفيليق أن يقال هٰذا؟! قال الحافظ: «وقد استشكل تركه أولاده الصغار يبكون من الجوع طول ليلتهما مع قدرته على تسكين جوعهم، فقيل: كان في شرعهم تقديم نفقة الأصل على غيرهم. وقيل: يحتمل أن بكاءهم ليس عن الجوع! وقد تقدم ما يرده. وقيل: لعلهم كانوا يطلبون زيادة على سد الرمق. وهٰذا أولى» اهـ. وربما كان لبنه لا يكفي لإشباعهم جميعًا، فمنع ولده ـ على شدة جوعهم ـ حصة أبويه.

عليها.

وإني رأيتُ أكثرَ الناسِ قد سَكَنوا إلى قَبول التوبةِ، وكأنَّهم قد قَطَعوا على ذٰلك! وهٰذا أمرٌ غائبٌ!! ثم لو غُفِرَتْ؛ بَقِيَ الخجلُ مِن فِعْلِها.

ويؤيِّدُ الخوفَ بعد التوبةِ أنه في «الصحاح»: أنَّ الناسَ يأتونَ إلى آدمَ عليه السلامُ، فيقولونَ: اشفعْ لنا! فيقولُ: ذَنْبي... وإلى نوحٍ عليهِ السلامُ، فيقولُ: ذَنْبي... وإلى إبراهيمَ... وإلى موسى... وإلى عيسى صلوات الله وسلامُهُ عليهم[1]. فهٰؤلاءِ إذا اعتُبِرَتْ ذنوبُهم؛ لم يكنْ أكثرُها ذنوبًا حقيقةً، ثم إن كانتْ؛ فقد تابوا منها، واعتذروا، وهم بَعْدُ على خوفٍ منها.

ثم إنَّ الخجلَ بعدَ قَبول التوبةِ لا يَرْتَفِعُ... وما أحسنَ ما قال الفضيلُ بنُ عياضٍ رحمهُ الله: وا سوأتاهُ منك وإنْ عَفَوْتَ[2]!

فأفٍّ واللهِ لمختارِ الذُّنوبِ ومُؤْثِرِ لَذَّةِ لحظةٍ تبقى حسرةً لا تزولُ عن قلبِ المؤمنِ وإن غُفِرَ له.

فالحذرَ الحذرَ من كلِّ ما يوجِبُ خَجَلاً.

وهٰذا أمرٌ قلَّ أن يَنْظُرَ فيه تائبٌ أو زاهدٌ؛ لأنَّهُ يرى أنَّ العفوَ قد غَمَرَ الذنبَ بالتوبةِ الصادقةِ! وما ذكرتهُ يوجِبُ دوامَ الحَذَرِ والخجلِ.

---

(١) جزء من حديث الشفاعة الذي رواه: البخاري (٦٠ ـ كتاب الأنبياء، ٣ ـ باب ﴿ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه﴾، ٦/ ٣٧١/ ٣٣٤٠)، ومسلم (١ ـ كتاب الإيمان، ٨٤ ـ باب أدنى أهل الجنة منزلة، ١/ ١٨٤/ ١٩٤)؛ من حديث أبي هريرة.

(٢) انظره في: «الحلية» (٨ / ٨٨) لأبي نعيم.

٢٩٠ ـ فصل

[في معنى قوله تعالى لأهل بدر: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم]

نعوذُ باللهِ من سوءِ الفَهْم، وخصوصًا من المتَّسِمينَ بالعلم.

روى أحمدُ في «مسنده»: أنَّه تنازعَ أبو عبد الرحمٰن السلميُّ وحِبَّانُ بنُ عطيةَ[١]، فقالَ أبو عبدِ الرحمٰنِ لِحبَّانَ: قد علمتَ ما الذي جرَّأ[٢] صاحبَك (يعني: عليًّا). قالَ: ما هو؟ قال: قولُ النبي ﷺ: «لعلَّ اللهَ اطَّلَعَ إلى أهل بدرٍ فقالَ: اعمَلوا ما شئتُم؛ فقد غفرتُ لكم»[٣].

وهٰذا سوءُ فَهْم من أبي عبدِ الرحمٰن حين ظنَّ أن عليًّا قاتَلَ وقُتِلَ اعتمادًا على أنه قد غُفِرَ له!!

وينبغي أن يعلَمَ أنَّ معنى الحديثِ: لتكنْ أعمالُكُم المتقدِّمةُ ما كانت؛ فقدْ غفرتُ لكُم. فأما غفرانُ ما سيأتي؛ فلا يتضمَّنه ذٰلك.

أتراه لو وَقَعَ من أهلِ بدرٍ ـ وحاشاهُمْ ـ الشركُ ـ إذ ليسوا بمعصومينَ ـ؛ أما كانوا يُؤاخَذونَ به؟! فكذٰلك المعاصي.

ثم لو قلْنا: إنه يتضمَّنُ غفرانَ ما سيأتي؛ فالمعنى أنَّ مآلَكُم إلى

(١) في الأصول: «عبد الله»، والتصويب من «المسند» (١ / ١٠٥).

(٢) في الأصول: «حدا»، والتصويب من «المسند» (١ / ١٠٥).

(٣) جزء من حديث رواه: البخاري (٦٤ ـ كتاب المغازي، ٤٦ ـ باب غزوة الفتح وما بعث به حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، ٧ / ٥١٩ / ٤٢٧٤)، ومسلم (٤٤ ـ كتاب فضائل الصحابة، ٣٦ ـ باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة، ٤ / ١٩٤١، برقم ٢٤٩٤)؛ من حديث علي رضي الله عنه.

والقصة بهٰذا السياق عند أحمد في «المسند» (١ / ١٠٥).

الغفرانِ[١].

ثم دَعْنـا مِن معنى الحديثِ؛ كيفَ يَحِلُّ لمسلم أن يَظُنَّ في أمير المؤمنينَ عليٍّ رضي الله عنه أنه فَعَلَ ما لا يجوزُ اعتمادًا على أنه سَيُغْفَرُ له؟! حوشي من هٰذا، وإنما قاتَلَ بالدليل المُضْطَرِّ له إلى القتالِ، فكانَ على الحقِّ.

ولا يختلفُ العلماءُ أنَّ عليًّا رضي الله عنه لم يقاتِلْ أحدًا إلَّا والحقُّ مع عليٍّ؛ كيفَ؛ وقد قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اللهمَّ! أدِرْ معهُ الحقَّ كيفَما دارَ»[٢]؟!

فقد غَلِطَ أبو عبدِ الرحمٰنِ غلطًا قبيحًا، حَمَلَهُ عليه أنَّه كان عثمانيًّا[٣].

---

(١) وقد ضعف الإمام ابن القيم رحمة الله عليه قول ابن الجوزي هٰذا في «الفوائد» (ص ٣٤) من وجهين؛ فانظره فإنه مهم. وانظر أيضاً: «الفتح» (٧ / ٣٠٥ / ٣٩٨٣)؛ ففيه عدة توجيهات أخرى لمعنى الحديث. والله أعلم.

(٢) **(ضعيف جدًّا)**. رواه: الترمذي (٥٠ ـ كتاب المناقب، ٢٠ ـ باب مناقب علي بن أبي طالب، ٥ / ٦٣٣ / ٣٧١٤)؛ من طريق المختار بن نافع، ثنا أبو حيان التيمي، عن أبيه، عن علي . . . فذكره مرفوعًا.

قال الترمذي: «هٰذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هٰذا الوجه، والمختار بن نافع شيخ بصري كثير الغرائب، وأبو حيان التيمي اسمه يحيى بن سعيد بن حيان التيمي، كوفي، وهو ثقة». وعلة الحديث المختار بن نافع؛ منكر الحديث؛ كما في ترجمته في «الميزان»، وساق الذهبي له هٰذا الحديث من منكراته. وقال الألباني: «ضعيف جدًّا».

(٣) أبو عبد الرحمٰن السلمي هو عبد الله بن حبيب، مقرىء الكوفة، ولد في حياة النبي ﷺ، وتوفي سنة ٧٤هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٤ / ٢٦٧)، و«تهذيب التهذيب» (٥ / ١٨٣).

٢٩١ ـ فصل

[في الزهد الكذاب]

تأملتُ على متزهِّدي زمانِنا أشياءَ تَدُلُّ على النفاقِ والرياءِ وهم يدَّعونَ الإخلاصَ:

منها: أنَّهم يلتزمون زاويةً، فلا يزورونَ صديقًا، ولا يعودونَ مريضًا، ويدَّعونَ أنهم يريدونَ الانقطاعَ عنِ الناسِ؛ اشْتِغالاً بالعبادةِ، وإنَّما هي إقامةُ نواميسَ؛ لِيُشارَ إليهِم بالانقطاعِ؛ إذْ لو مَشَوْا بينَ الناسِ؛ زالتْ هيبتُهم!

وما كانَ الناسُ كذٰلك... كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يعودُ المريضَ ويشتري الحاجةَ من السوقِ[١]، وأبو بكرٍ رضي الله عنهُ يَتَّجِرُ في البَزِّ[٢]، وأبو عبيدةَ بنُ الجراحِ يَحْفُرُ القبورَ، وأبو طلحةَ أيضًا[٣]، وابنُ سيرينَ يَغْسِلُ الموتى[٤]... وما كانَ عندَ القومِ إقامةُ ناموسٍ.

---

(١) عيادته ﷺ لأصحابه كثيرة جدًّا ومشهورة لا داعي للإطالة بذكرها، وكذٰلك شراؤه ﷺ لحاجاته.

(٢) انظر قريبًا من هٰذا في: «الزهد» للإمام أحمد (ص ١٤٠).

(٣) أبو طلحة هو زيد بن سهل رضي الله عنه. وانظر لهٰذا: «مسند أحمد» (١ / ٨)، و«سنن ابن ماجه» (٦ ـ كتاب الجنائز، ٦٥ ـ باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ، ١ / ٥٢٠، برقم ١٦٢٨).

(٤) وقد روى صاحبا «المصنف» في كتاب الجنائز كثيرًا من الآثار التي تؤيد هٰذا الكلام، ولٰكن يجب أن يتنبه إلى أن ذٰلك كان على سبيل التطوع وطلب الأجر من الله تعالى لا على سبيل المهنة، وإلا؛ فمعلوم أن ابن سيرين كان يتجر بالطعام والزيت؛ كما أطبقت على ذٰلك مصادر ترجمته، وقد تقدمت ترجمته في (فصل ١٨).

وأصحابُنا يلزمونَ الصَّمْتَ بين الناسِ والتخشُّعَ والتماوتَ، وهٰذا هو النفاقُ؛ فقد كانَ ابنُ سيرينَ يَضْحَكُ بالنهارِ وبين الناسِ ويبكي بالليل(١).

وقد رأيتُ من المتزهِّدينَ مَن يلزمُ المسجدَ ويصلِّي، فيجتمعُ الناسُ، فيصلُّونَ بصلاتِهِ ليلاً ونهارًا، وقد شاعَ هٰذا له، فتقوى نفسُهُ عليه بحبِّ المَحْمَدَةِ؛ والنبيُّ ﷺ قالَ في صلاةِ التطوُّع: «اجْعَلوا هٰذه في البيوتِ»(٢).

وفي أصحابِنا مَن يُظْهِرُ الصومَ الدائمَ، ويتقوَّتُ بقول الناسِ: فلانٌ ما يُفْطِرُ أصلاً!! وهٰذا الأبلهُ ما يدري أنه لأجل الناسِ يَفْعَلُ ذٰلكَ، لولا هٰذا؛ كانَ يُفْطِرُ، والناسُ يرونَه يومينِ أو ثلاثةً، حتى يَذْهَبَ عنه ذٰلك الاسمُ، ثم يعودُ إلى الصوم، وقد كانَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ إذا مَرِضَ؛ يَتْرُكُ عندَه مِن الطعام ما يأكُلُه الأصحاءُ(٣).

ورأيتُ في زهّادِنا مَن يصلي الفجرَ يومَ الجمعةِ بالناسِ ويقرأ المعوِّذَتَيْنِ، والمعنى: قد خَتَمْتُ(٤)!!

فإنَّ هٰذه الأعمالَ هي صريحةٌ في النفاقِ والرياءِ.

---

(١) انظر خبره هٰذا في: «الزهد» للإمام أحمد (ص ٣٧٤).

(٢) رواه: البخاري (٨ ـ كتاب الصلاة، ٥٢ ـ باب كراهية الصلاة في المقابر، ١ / ٥٢٨ / ٤٣٢)، ومسلم (٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها، ٢٩ ـ باب استحباب صلاة النافلة في بيته، ١ / ٥٣٨ / ٧٧٧)؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا بلفظ: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم . . . ».

(٣) حتى يراه الذين يعودونه، فيظنوا أنه مفطر يتمتع بالطيبات. وقد تقدمت ترجمة ابن أدهم في (فصل ١٩).

(٤) يعني: قرأت ختمة كاملة الليلة، وهٰذا آخرها!!

وفيهم مَن يأخُذُ الصدقاتِ وهو غنيٌّ ولا يُبالي أخَذَ من الظَّلَمَةِ أو مِن أهل الخيرِ، ويمشي إلى الأمراءِ يسألُهم وهو يدري مِن أينَ حَصَلَتْ أموالُهم.

فاللهَ اللهَ في إصلاح النياتِ؛ فإنَّ جمهورَ هٰذه الأعمال مردودٌ.

قالَ مالكُ بنُ دينارٍ: وقولوا لمنْ لم يكنْ صادقًا: لا يَتَعَنَّى(١)!

ولِيَعْلَمِ المرائي أنَّ الذي يقصِدُهُ يفوتُه، وهو التفاتُ القلوبِ إليه؛ فإنَّه متى لم يَخْلِصْ؛ حُرِمَ محبةَ القلوبِ، ولم يلتفتْ إليه أحدٌ، والمخلصُ محبوبٌ.

فلو عَلِمَ المرائي أنَّ قلوبَ الذين يُرائيهم بيدِ مَن يَعْصيه؛ لما فَعَلَ.

وكم رَأَيْنا مَن يَلْبَسُ الصوفَ ويُظْهِرُ النُّسُكَ لا يُلْتَفَتُ إليه، وآخرُ يَلْبَسُ جَيِّدَ الثيابِ ويبتسمُ والقلوبُ تحبُّهُ.

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ إخلاصًا يُخَلِّصُنا، ونستعيذُ به مِن رياءٍ يُبْطِلُ أعمالَنا؛ إنه قادرٌ.

٢٩٢ ـ فصل

[الدنيا دار امتحان وبلاء]

مِن الجهل أن يَخْفى على الإنسانِ مرادُ التكليفِ؛ فإنَّه موضوعٌ على عكسِ الأغراضِ.

فينبغي للعاقل أن يأنَسَ بانعكاسِ الأغراضِ؛ فإن دعا وسألَ بلوغَ

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢ / ٣٦٠).

غرضٍ؛ تَعَبَّدَ اللهَ بالدُّعاءِ: فإن أُعْطِيَ مرادَه؛ شَكَرَ، وإن لم ينلْ مُرادَهُ؛ فلا ينبغي أن يُلِحَّ في الطلب[1]؛ لأنَّ الدُّنيا ليستْ لبلوغ الأغراضِ، وليقلْ لنفسِهِ: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ومن أعظم الجهل أن يَمْتَعِضَ في باطنِهِ لانعكاس أغراضِهِ، وربَّما اعترضَ في الباطنِ، أو ربَّما قالَ: حصولُ غرضي لا يَضُرُّ، ودعائي لم يُسْتَجَبْ!! وهٰذا كلُّه دليلٌ على جهلِهِ وقلةِ إيمانِهِ وتسليمِهِ للحكمةِ.

ومَن الذي حَصَلَ له غرضٌ ثم لم يُكَدَّرْ؟!

هٰذا آدمُ؛ طابَ عيشُهُ في الجنةِ وأُخْرِجَ منها، ونوحٌ سألَ في ابنِهِ فلم يُعْطَ مرادَه، والخليلُ ابْتُلِيَ بالنارِ، وإسحاق[2] بالذَّبحِ، ويعقوبُ بفقدِ الولدِ، ويوسُفُ بمجاهدةِ الهوى، وأيوبُ بالبلاءِ، وداوودُ وسليمانُ بالفتنةِ... وجميعُ الأنبياءِ على هٰذا... وأمَّا ما لَقِيَ نبيُّنا محمدٌ ﷺ من الجوعِ والأذى وكَدَرِ العيشِ؛ فمعلومٌ.

فالدُّنيا وُضِعَتْ للبلاءِ.

فينبغي للعاقلِ أن يُوَطِّنَ نفسَه على الصبرِ، وأن يَعْلَمَ أنَّ ما حَصَلَ

---

(١) بل ينبغي ذلك لأدلة كثيرة في السنة لا محل للتفصيل بذكرها هنا، وحسبنا من ذلك حديث أبي هريرة في «الصحيحين» مرفوعًا: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل؛ يقول: قد دعوت فلم يستجب لي».

(٢) كذا في الأصول، وقد صحح في بعض المطبوعات إلى: «إسماعيل»؛ فلعله ـ والله أعلم ـ كذلك في بعض النسخ، وهو الصواب.

والقول بأن الذبيح إسحاق متلقى عن أهل الكتاب، وقد أبطل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ذلك بنص كتابهم، وذكر ابن القيم في «زاد المعاد» (١ / ٧١ ـ ٧٥) أنه باطل من أكثر من عشرين وجهًا، ثم فصل في بعض هذه الوجوه؛ فلينظر ذلك من شاء.

مِن المرادِ؛ فَلُطْفٌ، وما لم يَحْصُلْ؛ فعلى أصل الخَلْقِ والجِبِلَّةِ[1] للدُّنيا؛ كما قيلَ:

طُبِعَتْ على كَدَرٍ وأنتَ تُريدُها ... صَفْوًا مِن الأقْذاءِ والأكْدارِ
ومُكَلِّفُ الأيَّامِ ضِدَّ طباعِها ... مُتَطَلِّبٌ في الماءِ جَذْوَةَ نارِ

وها هنا تتبيَّنُ قوةُ الإيمانِ وضَعْفُهُ.

فَلْيَسْتَعْمِلِ المؤمنُ مِن أدويةِ هٰذا المرضِ التسليمَ للمالكِ والتحكيمَ لِحكْمَتِهِ، وليقلْ: قد قيل لِسَيِّدِ الكلِّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]... ثم لْيُسَلِّ نفسَه بأنَّ المنعَ ليسَ عن بُخل، وإنَّما هو لمصلحةٍ لا يعلَمُها، ولِيُؤْجَرَ الصابرُ عن أغراضِهِ، ولِيَعْلَمَ اللهُ الذينَ سلَّموا ورَضُوا... وأن زمنَ الابتلاءِ مقدارٌ يسيرٌ، والأغراضُ مدَّخَرَةٌ تُلْقى بعدَ قليل، وكأنه بالظُّلمةِ قدِ انجلتْ، وبفجرِ الأجرِ قد طَلَعَ.

ومتى ارتقى فَهْمُهُ إلى أنَّ ما جرى مرادُ الحقِّ سبحانه؛ اقتضى إيمانُه أنْ يريدَ ما يريدَ، ويرضى بما يُقَدِّرُ؛ إذ لو لم يكنْ كذٰلك؛ كان خارِجًا عن حقيقةِ العبوديَّةِ في المعنى.

وهٰذا أصلٌ ينبغي أن يُتَأَمَّل ويُعْمَلَ عليه في كلِّ غَرَضٍ انْعَكَسَ.

٢٩٣ ـ فصل

[إياكم وأبواب السلاطين وعطاياهم]

رأيتُ خلقًا من العلماءِ والقُصَّاصِ تَضيقُ عليهم الدُّنيا، فيفزعونَ إلى

(١) الجِبِلّة: الخلقة والفطرة.

مخالطةِ السلاطينِ لينالوا مِن أموالهم، وهم يعلمونَ أنَّ السَّلاطينَ لا يكادونَ يأخُذونَ الدُّنيا مِن وَجْهِها ولا يُخْرِجونها في حقِّها.

فإنَّ أكْثَرَهُمْ: إذا حَصَلَ له خراجٌ يَنْبَغي أن يُصْرَفَ إلى المصالح؛ وهَبَهُ لشاعرٍ! وربَّما كانَ معه جنديٌّ يَصْلُحُ أن تكونَ مشاهرتُهُ[1] عشرةَ دنانيرَ؛ فأعطاه عشرةَ آلافٍ! وربَّما غَزا؛ فأخَذَ ما ينبغي أن يُقْسَمَ على الجيشِ فاصْطفاه لنفسِهِ! هٰذا غيرُ ما يجري من الظُّلم في المعاملاتِ.

وأولُ ما يجري على ذاك العالم أنَّه قد حُرِمَ النفع بعلمِهِ.

وقد رأى بعضُ الصالحينَ رجلًا عالمًا يَخْرُجُ من دارِ يحيى بن خالدٍ البرمكيِّ، فقالَ: أعوذُ باللهِ مِن علم لا يَنْفَعُ[2].

ألم يَرَ المنكراتِ ولا يُنْكِرُ؟! ويتناولُ من طعامِهم الذي لا يكادُ يَحْصُلُ إلَّا بظلم؛ فينطَمِسَ قلبُهُ، ويُحرمَ لَذَّةَ المعاملةِ للحقِّ سبحانَه، ثم لا يُقَدَّرَ أن يهتديَ به أحدٌ؟ بل ربَّما كان فعلُ هٰذا سببًا لإِضلال الناسِ وصرفِهم عن الاقتداءِ به!

فهو يؤذي نفسَه. ويؤذي أميرَه؛ لأنَّه يقولُ: لولا أنني على صوابٍ؛ ما صَحِبَني، ولأنْكَرَ عليَّ. ويؤذي العوامَّ؛ تارةً بأن يَرَوا أنَّ ما فيه الأميرُ

(١) مشاهرته: الأجرة التي تدفع له عن كل شهر.

(٢) يحيى بن خالد: هو الوزير الكبير، أحد رجال الدهر حزمًا ورأيًا وسياسة وعقلًا وحذقًا، استوزره الرشيد وأعلى مكانته وجعل أولاده ملوكًا حتى جرت محنتهم وذهبت دولتهم، توفي سنة ١٩٠هـ. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (١٤ / ١٢٨)، و«سير أعلام النبلاء» (٩ / ٨٩).

صوابٌ، وتارةً بأنَّ الدخولَ عليه والسكوتَ عن الإنكارِ جائزٌ، أو يحبِّبُ إليهم الدُّنيا، ولا خيرَ ـ واللهِ ـ في سَعَةٍ من الدُّنيا ضَيَّقَتْ طريقَ الآخرةِ.

وأنا أفتدي أقوامًا صابَروا عَطَشَ الدُّنيا في هجيرِ الشَّهَواتِ زمانَ العُمُرِ حتى رُووا يومَ الموتِ من شرابِ الرِّضى وبقيتْ أذكارُهُم تُرْوَى فَتَرْوِي صدى القلوبِ، وتَجْلو صَدَأها[1].

هٰذا الإمامُ أحمدُ؛ يحتاجُ، فَيَخْرُجُ إلى اللِّقاطِ، ولا يقبلُ مالَ سلطانٍ[2].

هٰذا إبراهيمُ الحربيُّ؛ يتغذَّى بالبقلِ، ويَرُدُّ على المعتضدِ ألفَ دينارٍ[3].

هٰذا بِشْرٌ الحافي؛ يشكو الجوعَ، فيقالُ له: يُصْنَعُ لك حساءٌ من دقيقٍ؟ فيقولُ: أخافُ أن يقولَ اللهُ لي: هٰذا الدقيقُ من أين لك[4]؟!

بَقِيَتْ واللهِ أذكارُ القوم وما كان الصبرُ إلَّا غفوةَ نوم، ومضتْ لَذَّاتُ المترخِّصينَ وبَلِيَتِ الأبدانُ وَوَهَنَ الدينُ.

فالصبرَ الصبرَ يا من وُفِّقَ! ولا تغبطنَّ مَن اتَّسَعَ له أمرُ الدُّنيا؛ فإنَّك

(١) صدى القلوب: عطشها، وصدؤها معروف، وإنما يأتي من الانشغال بالدنيا والاهتمام بتحصيلها.

(٢) تقدم التعليق على هٰذا في (فصل ١٧٩)؛ فراجعه؛ فإنه مهم.

(٣) في الأصول: «المعتصم»، والصواب ما أثبتناه؛ كما في: «تاريخ بغداد» (٦ / ٣٢)، و«سير أعلام النبلاء» (١٣ / ٣٦٠). وقد تقدمت ترجمة إبراهيم الحربي في (فصل ١٩)، وترجمة المعتضد في (فصل ١١٠).

(٤) تقدمت ترجمة بشر بن الحارث الحافي في (فصل ١٩).

إذا تأملتَ تلك السَّعَةَ؛ رأيتَها ضِيقًا في باب الدِّين! ولا ترخِّصْ لنفسِكَ في تأويل؛ فعُمُرُكَ في الدُّنيا قليل!

وسواءٌ إذا انْقَضَى يَوْمُ كسرى في سُرورٍ ويومُ صابِرِ كِسْرَهْ[١]

ومتى ضَجَّتِ النفسُ لقلَّة صبرٍ؛ فاتْلُ عليها أخبارَ الزهَّادِ؛ فإنها تَرْعَوي[٢] وتَسْتَحي وتَنْكَسِرُ إن كانت لها هِمَّةٌ أو فيها يَقَظَةٌ، ومَثِّلْ لها بين تَرَخُّصِ عليِّ بن المديني وقَبولِهِ مالَ ابنِ أبي دؤادٍ وصبرِ أحمدَ، وكم بينَ الرجلينِ والذِّكْرَيْنِ، وانظرْ ما يُروى عن كلٍّ واحدٍ منهما وما يُذْكَرانِ به... وسيندمُ ابنُ المديني إذا قالَ أحمدُ: سَلِمَ لي ديني[٣].

٢٩٤ـ فصل

[في سوء أحوال المسلمين وشدة بعدهم عن دينهم]

تأملتُ أحوالَ الناس، فرأيتُ جمهورَهم مُنْسَلًّا من رِبقةِ العبوديةِ؛ فإن تعبَّدوا؛ فعادةً، أو فيما لا ينافي أغراضَهم منافاةً تؤذي القلوبَ:

فأكثرُ السلاطينِ يُحَصِّلونَ الأموالَ من وجوهٍ رَدِيَّةٍ، وينفِقونها في وجوهٍ لا تَصْلُحُ، وكأنَّهم قد تملَّكوها، وليستْ مالَ اللهِ! إذا غزا أحدهم باسمِهِ[٤]،

---

(١) يعني: أن اليوم إذا انقضى؛ انقضت معه لذات المتمتع به وآلام الحزين فيه، وأصبح حالهما سواء.

(٢) ترعوي: تكف وتمتنع.

(٣) تقدم للمصنف مثل هذا الكلام في الإمام الحافظ علي بن المديني وأجبنا عنه في (فصل ٢٢٢).

(٤) يعني: باسم الله سبحانه.

فَغَنِمَ الأموالَ؛ اصطفاها لنفسِهِ وأعطاها أصحابَه كيفَ اشتهى!!

والعلماءُ لقوةِ فقرِهِم وشدةِ شرهِهِم يوافقونَ الأمراءَ وينخرِطون في سِلْكِهِم!

والتجارُ على العقودِ الفاسدةِ!

والعوامُّ في المعاصي والإهمال لجانب الشريعةِ؛ فإن فاتَ بعضُ أغراضِهِم؛ فربَّما قالوا: ما نُريدُ نصلِّي! لا صلَّى الله عليهم... وقد مَنَعوا الزكاةَ وتركوا الأمرَ بالمعروفِ.

فمِن الناس من يَغُرُّهُ تأخيرُ العقوبةِ، ومنهم مَن كانَ يَقْطَعُ بالعفوِ، وأكثرُهم متزلزلُ الإيمانِ، فنسألُ الله أن يُميتنا مسلمينَ.

٢٩٥ ـ فصل

[نعم المال الصالح للرجل الصالح]

من العجيب سلامةُ دين ذي العيال إذا ضاقَ به الكسبُ؛ فما مَثَلُهُ إلَّا كَمَثَل الماءِ؛ إذا ضُرِبَ في وجهِهِ سَكْرٌ؛ فإنَّه يَعْمَلُ باطنًا ويبالِغُ حتى يفتحَ فتحةً؛ فكذلك صاحبُ العيال؛ إذا ضاقَ به الأمرُ؛ لا يزالُ يحتالُ؛ فإذا لم يَقْدِرْ على الحلال؛ ترخَّصَ في تناول الشُّبهاتِ؛ فإن ضَعُفَ دينُه؛ مَدَّ يدَه إلى الحرام.

فالمؤمنُ إذا عَلِمَ ضَعْفَهُ عن الكسبِ؛ اجتهدَ في التعفُّفِ عن النكاح، وتقليل النفقةِ إذا حَصَلَ الأولادُ، والقناعةِ باليسيرِ.

فأمَّا مَن ليس له كسبٌ ـ كالعلماءِ والمتزهِّدين ـ؛ فسلامتُهم

ظريفةٌ[١]؛ إذ قد انقطعتْ مواردُ السلاطينِ عنهم ومراعاةُ العوامِّ لهم؛ فإذا كَثُرَتْ عائلتُهم؛ لم يؤمَنْ عليهم شَرٌّ ما يجري على الجهال.

فمَن قَدَرَ منهم على كسبٍ بالنسخ وغيرِه؛ فليجتهدْ فيه، مع تقليل النفقةِ، والقناعةِ باليسيرِ؛ فإنَّه مَن تَرَخَّصَ منهم اليومَ؛ أكلَ الحرامَ؛ لأنَّه يأخُذُ من الظَّلَمَةِ، خُصوصًا بحجةِ التنمُّس[٢] والتزهُّد.

ومَن كان له منهم مالٌ؛ فليجتهدْ في تنميتِه وحفظِه؛ فما بقي مَن يُؤْثِرُ ولا مَن يُقْرِضُ، وقد صارَ الجمهورُ ـ بل الكلُّ ـ كأنَّهم يَعْبُدونَ المال؛ فمَن حَفِظَهُ؛ حَفِظَ دينَه.

ولا يُلْتَفَتُ إلى قول الجَهَلَةِ الذين يأمُرونَ بإخراجِ المالِ؛ فما هٰذا وقتُهُ.

واعلمْ أنَّه إذا لمْ يجتمعِ الهمُّ؛ لم يَحْصُل العلمُ، ولا العملُ، ولا التشاغلُ بالفِكْرِ في عظمةِ اللهِ.

وقد كان هَمُّ القدماءِ يجتمعُ بأشياءَ؛ جُمهورُها أنه كان لهم من بيتِ المال نصيبٌ في كلِّ عام، وكان يَصِلُهُم، فيفضُلُ عنهم... وفيهم مَن كانَ له مالٌ يَتَّجِرُ به؛ كسعيدِ بن المسيِّبِ وسفيانَ وابنِ المباركِ، وكان همُّه مجتمعًا[٣].

وقد قال سفيانُ في مالِه: لولاكَ لَتَمَنْدَلوا بي[٤]!

---

(١) يعني: عجيبة أو نادرة أو بعيدة.

(٢) التنمس: الاحتيال والمخاتلة وطلب الدنيا بعمل الآخرة.

(٣) وقد تقدم قريب من هٰذا الكلام والتعليق عليه في (فصل ١٠٢ و١١٠).

(٤) تقدم هٰذا في (فصل ١٥٠).

وفقدتْ بِضاعةٌ لابنِ المبارِكِ، فبكى، وقال: هو قِوامُ ديني[١]!

وكانَ جماعةٌ يسكُنونَ إلى عطاءِ الإخوانِ الذين لا يَمُنُّونَ:

وكانَ ابنُ المبارِكِ يَبْعَثُ إلى الفضيلِ وغيرِهِ[٢].

وكانَ الليثُ بن سعدٍ يتفقَّدُ الأكابِرَ؛ فَبَعَثَ إلى مالكٍ ألفَ دينارٍ، وإلى ابنِ لَهيعةَ ألفَ دينارٍ، وأعطى منصورَ بن عمارٍ ألفَ دينارٍ وجاريةً بثلاثِ مئةِ دينارٍ[٣].

وما زال الزمانُ على هذا إلى أن آلَ الأمرُ إلى انمحاقِ ذلك؛ فقلَّتْ عطايا السلاطين، وقلَّ مَن يؤثِرُ من الإخوانِ... إلَّا أنَّه كان في ذلك القليل ما يدفَعُ الزمانَ... فأما زمانُنا هذا؛ فقدِ انقبضتِ الأيدي كلُّها، حتى قَلَّ مَن يُخْرِجُ الزكاةَ الواجبةَ!

فكيفَ يجتمعُ هَمُّ مَن يريدُ من العلماءِ والزُّهادِ أن يُعْمِلَ هَمَّهُ ليلاً ونهارًا في وجوهِ الكسبِ، وليس مِن شأنِهِ هذا، ولا يهتدي له؟!

فقد رأينا الأمرَ أحوجَ إلى التعرُّضِ للسلاطينِ، والترخُّصِ في أخذِ ما لا يَصْلُحُ، وأخرجَ المتزهِّدينَ إلى التصنُّعِ لتحصيلِ الدُّنيا.

فاللهَ اللهَ يا مَن يريدُ حِفْظَ دينِهِ! قد كررتُ عليك الوصيةَ بالتقليلِ جَهْدَكَ، وخفِّفِ العلائقَ مهما أمكنكَ، واحتفظْ بدرهمٍ يكونُ معك؛ فإنه دينُك! وافهمْ ما قد شَرَحْتُهُ!

(١، ٢) انظر كثيرًا من هذه الأخبار في ترجمته في: «تاريخ بغداد» (١٠ / ١٥٢)، و«سير أعلام النبلاء» (٨ / ٣٧٨).

(٣) انظر: «حلية الأولياء» (٧ / ٣١٩)، و«تاريخ بغداد» (١٣ / ٧).

فإن ضجَّتِ النفسُ لمراداتها؛ فقلْ لها: إن كانَ عندَكِ إيمانٌ؛ فاصبري، وإن أردتِ التحصيلَ لما يفنى ببذل الدِّين؛ فما يَنْفَعُكِ؛ فتفكَّري في العلماءِ الذين جَمَعوا المالَ مِن غير وجهِهِ، وفي المُتَمَسِّينَ؛ ذَهَبَ دينُهم، وزالتْ دُنْياهُم! وتفكَّري في العلماءِ الصادقينَ؛ كأحمدَ وبشرٍ؛ اندفعتِ الأيامُ، وبَقِيَ لهم حسنُ الذِّكْرِ.

وفي الجملةِ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]... ورِزْقُ اللهِ قد يكونُ بتيسيرِ الصبرِ على البلاء، والأيام تندفعُ، وعاقبةُ الصبرِ الجميل جميلةٌ.

٢٩٦ ـ فصل

[عاشروا نساءكم بالمعروف ولو كرهتموهن]

شَكا لي رجلٌ مِن بُغْضِهِ لزوجتِهِ، ثم قالَ: ما أقدِرُ على فراقِها؛ لأمورٍ؛ منها: كَثْرَةُ دَيْنِها عليَّ وصبري قليلٌ، ولا أكادُ أسلمُ مِن فَلَتات لِساني في الشَّكوى، وفي كلماتٍ تَعْلَمُ بُغْضي لها.

فقلتُ له: هٰذا لا يَنْفَعُ، وإنَّما تُؤتى البيوتُ مِن أبوابِها!

فينبغي أنْ تَخْلُوَ بنفسِك، فتعلمَ أنَّها إنَّما سُلِّطَتْ عليكَ بذُنوبِكَ، فتبالغَ في الاعتذارِ والتوبةِ.

فأمَّا التضجُّرُ والأذى لها؛ فما يَنْفَعُ؛ كما قالَ الحسنُ بنُ الحجَّاج: عقوبةٌ مِن اللهِ لكم؛ فلا تُقابِلوا عقوبَتَهُ بالسيفِ، وقابِلوها بالاستغفارِ.

واعلمْ أنَّك في مقام مُبتلىً، ولك أجرٌ بالصَّبْرِ، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٦١]!

فعامِلِ اللهَ سبحانَه بالصبرِ على ما قَضى، واسألْهُ الفَرَجَ؛ فإذا جمعتَ بينَ الاستغفارِ وبينَ التوبةِ من الذُّنوبِ والصبرِ على القضاءِ وسؤالِ الفَرَجِ؛ حَصَلَتْ ثلاثةُ فنونٍ مِن العبادةِ تُثابُ على كلٍّ منها.

ولا تُضَيِّعِ الزمانَ بشيءٍ لا يَنْفَعُ، ولا تَحْتَلْ ظانًّا منكَ أنَّك تدفعُ ما قُدِّرَ، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧].

وقد رُوِّينا أنَّ جنديًّا نَزَلَ يومًا في دارِ أبي يزيدَ، فجاءَ أبو يزيدَ، فرآهُ، فوقَفَ وقالَ لبعضِ أصحابِهِ: ادخلْ إلى المكانِ الفلانيِّ؛ فاقلعِ الطينَ الطَّرِيَّ؛ فإنَّه مِن وجهٍ فيه شُبهةٌ. فَقَلَعَهُ، فخَرَجَ الجنديُّ.

وأمَّا أذاكَ للمرأةِ؛ فلا وجهَ له؛ لأنَّها مُسَلَّطَةٌ؛ فليكنْ شُغْلُك بغيرِ هٰذا.

وقد رُوي عن بعضِ السَّلَفِ أنَّ رجلًا شَتَمَهُ، فَوَضَعَ خدَّه على الأرضِ، وقالَ: اللهمَّ! اغفرْ ليَ الذنبَ الذي سَلَّطْتَ هٰذا بِهِ عليَّ.

قالَ الرجلُ: وهٰذه المرأةُ تُحِبُّني زائدًا في الحدِّ، وتبالِغُ في خِدمتي؛ غيرَ أنَّ البغضَ لها مركوزٌ في طبعي.

قلتُ له: فعامِلِ اللهَ سبحانَه بالصبرِ عليها؛ فإنَّك تُثابُ.

وقد قيلَ لأبي عثمانَ النَّيْسابوريِّ: ما أرجى عَمَلَكَ عندَك؟ قال: كنتُ في صَبْوَتي يجتهدُ أهلي أن أتزوَّجَ، فأبى، فجاءَتْني امرأةٌ، فقالتْ: يا أبا عثمان! إني قد هَوِيتُك، وأنا أسأَلُكَ باللهِ أن تتزَوَّجَني. فأحضرتُ أباها -وكانَ فقيرًا-، فزوَّجَني، وفَرِحَ بذٰلك. فلمَّا دَخَلَتْ إليَّ؛ رأَيْتُها عوراءَ عرجاءَ مشوهةً، وكانتْ لمحبَّتِها لي تمنعني مِن الخُروجِ، فأقعُدُ حِفْظًا

لقلبهـا، ولا أظْهـرُ لها من البُغْضِ شيئًا، وكأني على جمرِ الغَضا[١] من بُغْضِهـا. . . فبقيتُ هٰكذا خمسَ عشرةَ سنةً حتى ماتتْ؛ فما مِن عملي شيءٌ هو أرجى عندي من حفظي قَلْبَها.

قلتُ له: فهٰـذا عمـلُ الـرجـال! وأيُّ شيءٍ ينفعُ ضجيجُ المبتلى بالتضجُّرِ بإظهارِ البُغْضِ؟! وإنما طريقُه ما ذكرتُه لك؛ من التوبةِ، والصبرِ، وسؤالِ الفَرَجِ.

وَتَذَكَّرْ ذُنوبًا كانتْ هٰذه عقوبَتَها؛ فإنْ وَقَعَ فَرَجٌ في الحساب، وإلَّا؛ فاستعمالُ الصبرِ على القضاءِ عبادةٌ.

وتكَلَّفْ إظهارَ المَودَّةِ لها، وإن لم تكنْ في قلبِكَ تَثْبُتُ على هٰذا.

وليس للقيدِ ذنبٌ فيُلامَ، إنَّما ينبغي التشاغلُ معَ مَن قَيَّده.

والسلامُ.

٢٩٧ ـ فـصـل
[لا بد للقلب المؤمن من جمع همه والخلوة بربه]

لا ريبَ أنَّ القلبَ المؤمنَ بالإلٰـهِ سبحـانَـه وبـأوامِـرِهِ يحتـاجُ إلى الانعكافِ على ذِكرِهِ وطاعتِهِ وامتثال أوامرِهِ، وهٰذا يفتقرُ إلى جَمْعِ الهمِّ، وكفى بما وُضِعَ في الطَّبْعِ مِن المنازعةِ إلى الشَّهَواتِ مشتِّتًا للهمِّ المجتمع.

فينبغي للإنسـانِ أنْ يَجْتَهِـدَ في جَمْعِ هَمِّهِ؛ لينفردَ قلبُهُ بذِكْرِ اللهِ سبحانَه وتعالى، وإنفاذِ أوامرِهِ، والتهيُّؤِ للقائِهِ، وذٰلك إنَّما يَحْصُلُ بقطع

(١) الغضا: نوع من شجر البوادي.

القواطعِ والامتناع عنِ الشَّواغِل، وما يُمْكِنُ قطعُ القواطع جملةً؛ فينبغي أن يُقْطَعَ ما يمكن منها.

وما رأيتُ مشتِّتًا للهَمِّ مبدِّدًا للقلبِ مثلَ شيئينِ:

أحدُهما: أنْ تُطاعَ النفسُ في طلبِ كلِّ شيءٍ تشتهيهِ، وذٰلك لا يوقَفُ على حدٍّ فيهِ، فيذهبُ الدينُ والدُّنيا، ولا يُنالُ كلُّ المرادِ؛ مثلُ أن تكونَ الهِمَّةُ في المستحسناتِ، أو في جَمْعِ المالِ، أو في طَلَبِ الرياسةِ... وما يشبهُ هٰذه الأشياءَ. فيا له مِن شَتاتٍ لا جامعَ له؛ يذهَبُ العُمُرُ ولا يُنال بعضُ المُرادِ منه!

والثاني: مخالطةُ الناسِ ـ خصوصًا العوامَّ ـ والمشيُ في الأسواقِ؛ فإنَّ الطبعَ يتقاضى الشَّهَواتِ، وينسى الرحيلَ عن الدُّنيا، ويحبُّ الكسلَ عن الطاعةِ والبَطالَة والغفلَة والراحةَ، فيَثْقُلُ على مَن ألِفَ مخالطةَ الناس التشاغلُ بالعلم أو بالعبادةِ، ولا يزالُ يخالِطُهم حتى تَهونَ عليهِ الغِيبةُ وتضيعَ الساعاتُ في غيرِ شيءٍ.

فمَن أرادَ اجتماعَ هَمِّهِ؛ فعليهِ بالعُزلةِ؛ بحيثُ لا يسمعُ صوتَ أحدٍ؛ فحينئذٍ يَخْلو القلبُ بمعارفِهِ، ولا تجدُ النفسُ رَفيقًا مثلَ الهوى يُذَكِّرُها ما تشتهي؛ فإذا اضطُرَّ إلى المخالطةِ؛ كان على وِفاقٍ[1]؛ كما تتهوَّى الضفدعُ لحظةً ثم تعودُ إلى الماءِ.

فهٰذه طريقُ السلامةِ؛ فتأمَّلْ فوائِدَها؛ تَطِبْ لكَ.

---

(١) يعني: على قدر، ومحدود.

٢٩٨ـ فصل

[لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر]

ما رأتْ عيني مصيبةً نزلتْ بالخَلْق أعظمَ من سَبِّهم للزَّمانِ وعَيْبِهم للدَّهْرِ.

وقد كان هٰذا في الجاهليةِ، ثم نهى رسولُ اللهِ ﷺ عن ذٰلك، فقالَ: «لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فإنَّ اللهَ هوَ الدَّهْرُ»(١)، ومعناهُ: أنتم تَسُبُّونَ مَن فَرَّقَ شَمْلَكُم وأماتَ أهالِيَكُم، وتنسبُونَه إلى الدهرِ، واللهُ تعالى هو الفاعلُ لذٰلك.

فتعجبتُ؛ كيف أعْلَمَ أهلَ الأسقام بهٰذه الحال، وهم على ما كان أهلُ الجاهليةِ عليه ما يتغيَّرونَ؟! حتَّى ربَّما اجتمعَ الفُطَناءُ الأدباءُ الظِّرافُ ـ على زعمِهِم ـ، فلم يكنْ لهم شغلٌ إلاَّ ذمَّ الدَّهْرِ! وربَّما جَعَلوا اللهَ الدُّنيا، ويقولونَ: فَعَلَتْ وصَنَعَتْ!! وحتَّى رأيتُ لأبي قاسم الحريريِّ(٢) يقولُ:

وَلَمَّا تَعامى الدَّهْرُ وَهْوَ أبو الرَّدَى ... عَنِ الرُّشْدِ في أنْحائِهِ ومقاصِدِهْ
تعامَيْتُ حَتَّى قِيلَ إنِّي أخو عَمىً ... ولا غَرْوَ أنْ يَحْذو الفَتَى حَذْوَ والِدِهْ(٣)

(١) رواه: البخاري (٧٨ ـ كتاب الأدب، ١٠١ ـ باب لا تسبوا الدهر، ١٠ / ٥٦٤ / ٦١٨٢)، ومسلم (٤٠ ـ كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، ١ ـ باب النهي عن سب الدهر، ٤ / ١٧٦٢، برقم ٢٢٤٦)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هو نجم الدين، عبد الله بن القاسم الحريري، روى عن أبيه، وأبوه هو صاحب المقامات المشهور. وانظر: «سير أعلام النبلاء» (١٩ / ٤٦٠ ـ ٤٦٥).

(٣) وهٰذا كلام من أسوإ ما يقال وأردئه، وما ينبغي لمؤمن أن يقول هٰذا، بل ولا لعاقل، ولا عذر لصاحب هٰذا القول إلا أن يكون جاهلاً ما سمع بقول النبي ﷺ هٰذا، أو غافلاً ما تفكر فيما يقول. والله أعلم.

وقد رأيتُ خَلْقًا يعتقدونَ أنَّهم فقهاءُ وفُهَماءُ، ولا يتحاشَوْن مِن هٰذا!

وهٰؤلاءِ إن أرادوا بالدَّهْرِ مرورَ الزَّمانِ؛ فذاكَ لا اختيارَ له ولا مرادَ، ولا يعرِفُ رُشْدًا من ضلال، ولا ينبغي أن يُلامَ؛ فإنَّه زمانٌ مُدَبَّرٌ لا مُدَبِّرٌ، فَيُتَصَرَّفُ فيه ولا يَتَصَرَّفُ.

وما يُظَنُّ بعاقلٍ أنْ يُشيرَ إلى أنَّ المذمومَ، المعرِضَ عن الرُّشْدِ، السيِّىءَ الحُكْم، هو الزمانُ!

فلم يبقَ إلَّا أنَّ القومَ خَرَجوا عن رِبقةِ الإسلام، ونَسَبوا هٰذه القبائحَ إلى الصانِع، فاعْتَقَدوا فيه قُصورَ الحكمةِ، وفِعْلَ ما لا يَصِحُّ؛ كما اعْتَقَدَهُ إبليسُ في تفضيل آدمَ.

وهٰؤلاءِ لا ينفعُهُم مع هٰذا الزَّيْغِ اعتقادُ إسلام ولا فعلُ صلاةٍ، بل هم شَرٌّ من الكفَّارِ، لا أصلحَ اللهُ لهم شأنًا، ولا هداهُم إلى رشادٍ.

٢٩٩ ـ فصل

[اغتنم ساعات العمر؛ فإنها رأس مالك الوحيد]

من عجائبِ ما أرى مِن نَفْسي ومن الخَلْقِ كلِّهم: الميلُ إلى الغفلةِ عمَّا في أيْدينا؛ معَ العلم بِقِصَرِ العُمُرِ، وأنَّ زيادةَ الثَّوابِ هناك بِقَدْرِ العمل ها هنا.

فيا قصيرَ العُمُرِ! اغتنمْ يَوْمَي مِنًى[1]! وانتظرْ ساعةَ النَّفْرِ[1]! وإياك أن

(١) شبه العمر في قصره بيومي منى اللذين يتعجل فيهما الحاج بعض أعمال الحج استعدادًا للرحيل ساعة النفر، وهي الساعة التي ينفر فيها الناس من منى بعد انتهاء أعمال الحج، وكنى بها عن انتهاء العمر.

تَشْغَلَ قَلْبَكَ بغيرِ ما خُلِقَ له! واحملْ نَفْسَكَ على المُرِّ! واقْمَعْها إذا أبتْ! ولا تُسَرِّحْ لها في الطِوَل(١)؛ فما أنت إلاَّ في مرعى . . . وقبيحٌ بِمَن كان بين الصَّفَّيْنِ(٢) أن يتشاغلَ بغيرِ ما هو فيهِ.

٣٠٠ ـ فصل

[احفظ سرك واحذر من الانبساط مع الناس]

قد كَرَّرْتُ هٰذا المعنى في هٰذا الكتابِ، وهو الأمرُ بحفظِ السِّرِّ والحَذَرُ من الانبساطِ فيما لا يَصْلُحُ بين يدي الناسِ.

فربَّ منبسطٍ بين يدي مَن يَظُنُّه صديقًا، يقولُ في صديقٍ أو في سلطانٍ، لا يَهْتَمُّ في ذٰلك، فيكونُ سببَ هلاكِ ذاك.

فأُوصي السليمَ الصدرِ الذي يظنُّ في الناسِ الخيرَ: بأنْ يَحْتَرِزَ من الناسِ، وأن لا يقولَ في الخَلْقِ كلمةً لا تَصْلُحُ للخلقِ، ولا يغترَّ بمَن يُظْهِرُ الصداقةَ أو التديُّنَ؛ فقد عمَّ الخَبَثُ.

٣٠١ ـ فصل

[ذكر الله بين ألسنة الغافلين وقلوب المتفكرين]

تأملتُ على أكثرِ الناس عباداتِهم؛ فإذا هي عاداتٌ، فأمَّا أربابُ اليَقَظَةِ؛ فعاداتُهم عبادةٌ حقيقيةٌ.

فإنَّ الغافلَ يقولُ: سبحانَ اللهِ! عادةً، والمتيقِّظَ لا يزالُ فِكْرُهُ في

(١) الطِّوَل: الحبل الذي تشد به قائمة الدابة حتى لا تبتعد في المرعى.

(٢) في حمأة المعركة وشدة القتال.

عجائبِ المخلوقاتِ أو في عَظَمَةِ الخالقِ، فيحرِّكُهُ الفِكْرُ في ذٰلك، فيقولُ: سبحانَ اللهِ.

ولـو أنَّ إنسـانًـا تفكَّرَ في رُمَّانَةٍ، فنَظَرَ في تصفيفِ حَبِّها، وحِفْظِهِ بالأغشيةِ لئلَّا يتضاءَلَ، وإقامةِ الماءِ على عَظْمِ العَجَمِ [1]، وجَعْلَ الغشاءِ عليه يَحْفَظُهُ، وتصويرِ الفَرْخِ في بطنِ البيضةِ، والآدميِّ في حَشا الأمِّ... إلى غيرِ ذٰلـك من المخلوقـاتِ؛ أزعجَه هٰذا الفكرُ إلى تعظيم الخالقِ، فقالَ: سبحان اللهِ! وكان هٰذا التسبيحُ ثمرةَ الفِكْرِ.

فهٰذا تسبيحُ المتيقِّظينَ... وما تزالُ أفكارُهم تجولُ، فَتَقَعُ عباداتُهم بالتسبيحاتِ محقَّقةً.

وكذٰلك يتفكَّرونَ في قبائح ذُنوبٍ قد تقدَّمتْ، فيوجِبُ ذٰلك الفِكْرُ حركـةَ البـاطنِ وقلقَ القلبِ ونـدمَ النفسِ، فيثمِرُ ذٰلك أن يقولَ قائِلُهم: أستغفرُ اللهَ.

فهٰذا هو التسبيحُ والاستغفارُ.

فأمَّا الغافِلونَ؛ فيقولونَ ذٰلك عادةً.

وشتَّانَ ما بين الفريقينِ.

٣٠٢ ـ فـصـل

[مخالطة الناس تظلم القلب وتشتت الفكر]

لا يَصْفو التعبُّدُ والتزهُّدُ والاشتغالُ بالآخرةِ إلَّا بالانقطاع الكُلِّيِّ عن

(١) العجم: النوى والبذر، وعظم العجم: جسم البذرة.

الخَلْقِ؛ بحيثُ لا يُبْصِرُهم ولا يسمعُ كلامَهم إلَّا في وقتِ ضرورةٍ؛ كصلاةِ جُمُعَةٍ أو جماعةٍ، ويحترِزُ في تلك الساعاتِ منهم.

وإنْ كانَ عالمًا يريدُ نَفْعَهُم؛ وَعَدَهُم وقتًا معروفًا، واحترزَ في الكلام معهُم.

وأمَّا مَن يمشي في الأسواقِ اليومَ، ويبيعُ ويشتري مع هٰذا العالَم المظلِم، ويرى المنكراتِ والمستهجَناتِ؛ فما يعودُ إلى البيتِ إلَّا وقد أظلَمَ القلبُ.

فلا ينبغي للمريدِ أن يكونَ خروجُهُ إلَّا إلى الصحراءِ والمقابرِ.

وقد كان جماعةٌ من السَّلَفِ يبيعونَ ويشترونَ ويحترِزونَ، ومع هٰذا؛ ما صفا لصافيهم وقتٌ حتى قاطَعَ الخَلْقَ.

قالَ أبو الدَّرداءِ: زاولتُ العبادةَ والتِّجارةَ فلم يَجْتَمِعا، فاخترتُ العبادةَ[1].

وقد جاء في الحديثِ: «الأسواقُ تُلْهي وتُلْغي»[2].

فمَن قَدَرَ على الحِمْيَةِ النافعةِ، واضطُرَّ إلى المخالطةِ والكسبِ

---

(١) رواه: أحمد في «الزهد» (ص ١٧٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١ / ٢٠٩).

(٢) رواه أحمد في «الزهد» (ص ١٦٨) موقوفًا من كلام أبي الدرداء رضي الله عنه، ولم أجد من رفعه كما ذكر المصنف رحمه الله تعالى.

ويغني عنه ما رواه النسائي (٣٥ ـ كتاب الأيمان، ٢٣ ـ باب في اللغو والكذب، ٧ / ١٥ / ٣٨٠٨)؛ عن قيس بن أبي غرزة؛ قال: أتانا النبي ﷺ ونحن في السوق، فقال: «إن هٰذه السوق يخالطها اللغو والكذب؛ فشوبوها بالصدقة»، وصححه الألباني.

للعائلةِ؛ فَلْيَحْتَرِزِ احترازَ الماشي في الشَّوْكِ، وبعيدٌ سلامتهُ.

٣٠٣ـ فصل

[من اتقى الشبهات سلم قلبه من الشتات]

مَن رُزِقَ قلبًا طيِّبًا ولَذَّةَ مناجاةٍ؛ فليراعِ حالَه، ولْيَحْتَرِزْ من التغييرِ! وإنَّما تدومُ له حالُه بدوامِ التَّقوى.

وكنتُ قد رُزِقْتُ قلبًا طيِّبًا ومناجاةَ خَلْوَةٍ، فأحضرني بعضُ أربابِ المناصبِ إلى طعامِهِ، فما أمكنَ خلافُهُ، فتناولتُ وأكلتُ منه، فلَقيتُ الشدائدَ، ورأيتُ العقوبةَ في الحال، واستمرَّتْ مُدَّةً، وغُصِبْتُ[1] على قلبي، وفقدتُ كلَّ ما كنتُ أجِدُه.

فقلتُ: وا عجبًا! لقد كُنْتُ في هٰذا كالمُكْرَهِ[2]!

فتفكَّرْتُ، وإذا به قد يمكنُ مداراةُ الأمرِ بلُقَيْماتٍ يسيرةٍ، وإنَّما التأويلُ جَعَلَ تناولَ هٰذا الطعام بشهوةٍ أكثرَ مما يُدْفَعُ بالمداراةِ.

فقالتِ النفسُ: ومِن أينَ لي أنَّ عينَ هٰذا الطعام حرامٌ؟!

فقالتِ اليَقَظَةُ: وأينَ الورعُ عن الشُّبهاتِ؟!

فلمّا تناولْتُ بالتأويل لُقمةً، واستجلبتُها بالطَّبع؛ لقيتُ الأمَرَّيْنِ بفقدِ القلبِ؛ فاعْتَبِروا يا أولي الأبصارِ!

---

(١) في الأصول: «وغضبت»! ولا معنى لها! وما أثبتناه أولى.

(٢) يعني: فلماذا عوقبت هٰذه العقوبة؟!

رَفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

٣٠٤ـ فصل

[فكر المؤمن وقلبه متعلقان بالآخرة]

هِمَّةُ المؤمنِ متعلقةٌ بالآخرةِ؛ فكلُّ ما في الدُّنيا يُحرِّكُهُ إلى ذِكْرِ الآخرةِ، وكلُّ مَن شَغَلَهُ شيءٌ؛ فهِمَّتُهُ شغلُه.

ألا ترى أنَّه لو دَخَلَ أربابُ الصنائعِ إلى دارٍ معمورةٍ؛ رأيتَ البَزَّازَ يَنْظُرُ إلى الفَرْشِ، ويحرزُ قيمتَه، والنَّجَّارَ إلى السَّقْفِ، والبنَّاءَ إلى الحيطانِ، والحائكَ إلى النسيجِ المَخيطِ...

والمؤمنُ إذا رأى ظُلمةً؛ ذَكَرَ ظُلمةَ القبرِ، وإن رأى مُؤلِمًا؛ ذَكَرَ العقابَ، وإنْ سَمِعَ صوتًا فظيعًا؛ ذَكَرَ نفخةَ الصُّورِ، وإن رأى الناسَ نِيامًا؛ ذَكَرَ الموتى في القبورِ، وإن رأى لَذَّةً؛ ذَكَرَ الجنةَ؛ فَهِمَّتُهُ متعلقةٌ بما ثَمَّ، وذلك يشغَلُه عن كلِّ ما ثَمَّ.

وأعظمُ ما عندَه أنَّه يتخايلُ دوامَ البقاءِ في الجنةِ، وأنَّ بقاءَه لا ينقطعُ ولا يزالُ ولا يعتريهِ منغِّصٌ، فيكادُ إذا تخايَلَ نفسَه متقلِّبًا في تلك اللَّذَّاتِ الدائمةِ التي لا تفنى يطيشُ فَرَحًا، ويسهُلُ عليه ما في الطريقِ إليها؛ من ألم، ومرضٍ، وابتلاءٍ، وفقدِ محبوبٍ، وهُجومِ الموتِ، ومعالجةِ غُصَصِهِ؛ فإنَّ المشتاقَ إلى الكعبةِ يهونُ عليه رَمْلُ زَرُودَ[1]، والتائقُ إلى العافيةِ لا يُبالي بمرارةِ الدواءِ، ويعلمُ أنَّ جَوْدَةَ الثمرِ ثَمَّ على مقدارِ جَوْدَةِ البِذْرِ ها هُنا؛ فهو يتخيَّرُ الأجودَ، ويغتنِمُ الزرعَ في تِشرينِ العُمُرِ من غيرِ فُتورٍ. ثم يتخايلُ المؤمنُ دخولَ النارِ والعقوبةَ، فيتنغَّصُ عيشُه ويقوى قلقُه.

(١) بادية كثيرة الرمل في طريق القادم إلى مكة.

فعندَه بالحالينِ شُغْلٌ عن الدُّنيا وما فيها، فقلبُهُ هائم في بيداءِ الشوقِ تارةً وفي صحراءِ الخوفِ أخرى؛ فما يرى البنيانَ.

فإذا نازَلَهُ الموتُ؛ قَوِيَ ظَنُّه بالسلامةِ، ورجا لنفسِهِ النجاةَ، فيهونُ عليه.

فإذا نَزَلَ إلى القبرِ، وجاءَه مَن يسألونَه؛ قالَ بعضُهم لبعضٍ: دَعوهُ؛ فَما استراحَ إلَّا الساعةَ.

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ يَقَظَةً تامَّةً؛ تحرِّكُنا إلى طلبِ الفضائلِ، وتمنعُنا من اختيارِ الرَّذائلِ؛ فإنَّه إنْ وَفَّقَ، وإلَّا؛ فلا نافعَ.

٣٠٥ـ فصل

[الكاملون صورة ومعنى هم الذين يختارهم الله لمحبته وولايته]

لقد اعتبرتُ على مولايَ سبحانَه وتعالى أمرًا عجيبًا، وهو أنَّه تعالى لا يختارُ لمحبَّتِهِ والقربِ منه إلَّا الكاملَ صورةً ومعنى.

ولستُ أعني حُسْنَ التخاطيطِ، وإنَّما كمالُ الصورةِ اعتدالُها، والمعتدِلةُ ما تخلو من حُسْنٍ، فيتبعُها حسنُ الصورةِ الباطنةِ، وهو كمالُ الأخلاقِ وزوالُ الأكدارِ، ولا يُرى في باطنِهِ خَبَثًا ولا كَدَرًا، بل قد حَسُنَ باطِنُه كما حَسُنَ ظاهِرُهُ.

وقد كانَ موسى عليه السلامُ كلُّ مَن رآهُ يُحِبُّهُ[1].

---

(١) رواه عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما. ورواه ابن عساكر عن قتادة. وانظر: «الدر المنثور» (٤ / ٥٢٨ / طه: ٣٩).

وكان نبيُّنا ﷺ كالقمرِ ليلةَ البدرِ[1].

وقد يكونُ الوليُّ أسودَ اللونِ، لٰكنَّه حسنُ الصورةِ لطيفُ المعاني.

فعلى قَدْرِ ما عندَ الإنسانِ من التَّمام في كمال الخَلْقِ والخُلُقِ يكونُ عملُهُ، ويكـونُ تقـريبُهُ إلى الحَضْرَةِ بحَسَبِ ذٰلك؛ فمنهم كالخادم على البابِ، ومنهم حاجبٌ، ومنهم مقرَّبٌ...

ويندُرُ مَن يَتِمُّ له الكمالُ، ولعلَّه لا يوجدُ في مئةِ سنةٍ منهم غيرُ واحدٍ.

وهٰذه حكايةُ ما تَحْصُلُ بالاجتهادِ، بل الاجتهادُ يَحْصُلُ منها؛ لأنَّه إذا وَقَـعَ تمامٌ؛ حَثَّ على الجِدِّ على قَدْرِ نقصانِهِ... وهٰذا لا حيلةَ في أصلِهِ، إنما هو جِبِلَّةٌ، وإذا أرادكَ لأمرٍ؛ هيَّأكَ له.

٣٠٦ ـ فصل

[في الرد على من يعترض على حكمة الخالق]

تأملتُ على قوم يدَّعونَ العقولَ ويعترضونَ على حِكْمَةِ الخالقِ!

فينبغي أن يُقـالَ لهم: هٰذا الفهمُ الـذي دلَّكم على رَدِّ حكمتِـهِ؛ أفليس هو مِن مِنَحِهِ؟! فأعطاكُمُ الكمالَ ورَضِيَ لنفسِهِ بالنقصِ؟! هٰذا هو الكُفْرُ المحضُ الذي يزيدُ في القُبح على الجَحْدِ.

فأولُ القوم إبليسُ؛ فإنَّه رأى بعقلِهِ أنَّ جَوْهَرَ النارِ أشرفُ من جَوْهَرِ الطينِ، فردَّ حِكْمَةَ الخالقِ.

---

(١) أخرج البخاري (٦١ ـ كتاب المناقب، ٢٣ ـ باب صفة النبي ﷺ، ٦ / ٥٦٥ / ٣٥٥٢) عن البراء أنه سئل: أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف؟ قال: لا؛ بل مثل القمر.

ومرَّ على هٰذا خَلْقٌ كثيرٌ من المعترِضينَ؛ مثلُ ابنِ الرَّاوَنْدِيِّ[1]، والبقريِّ[2]. . .

وهٰـذا المعَـرِّيُّ[3] اللعينُ يقـولُ: كيفَ يُعـابُ [ابنُ] الحجَّـاجِ[4] بالسُّخْفِ، والدهرُ أقبحُ فعلاً منه؟! أتُرى يَعْني به الزمانَ؟! كلَّا؛ فإنَّ مَمَرَّ الأوقاتِ لا يفعلُ شيئًا، وإنما هو تعريضٌ باللهِ جلَّ شأنُه! وكان يستعجِلُ الموتَ؛ ظنًّا منه أنَّه يستريحُ! وكان يوصي بتَرْكِ النِّكاحِ والنُّسْكِ! ولا يرى في الإِيجادِ حِكْمَةً إلَّا العناءَ والتعبَ! ومصيرَ الأبدانِ إلى البلى!!

وهٰذا لو كان كما ظنَّ؛ كان الإِيجادُ عَبَثًا، والحقُّ منزَّهٌ عن العَبَثِ؛ قال تعالى: ﴿وما خَلَقْنا السَّماءَ والأَرْضَ وما بَيْنَهُما باطِلاً﴾ [صٓ: ٢٧].

فإذا كان ما خُلِقَ لنـا لم يُخْلَقْ عَبَثًا؛ أفنكونُ نحنُ ـ ونحنُ مَواطِنُ معرفتِهِ ومجالُ تكليفِهِ ـ قد وُجِدْنا عَبَثًا؟!

ومثلُ هٰذا الجهل إنما يصدُرُ ممَّن ينظُرُ في قضايا العقول التي يُحْكَمُ بها على الظواهِرِ؛ مثلُ أنْ يرى مَبْنِيًّا يُنْقَضُ، والعقلُ بمجرَّدِهِ لا يرى ذٰلك

(١) تقدمت ترجمته في (فصل ١٥٤).

(٢) لم أعرفه، ولعل في الاسم تصحيفًا أو تحريفًا.

(٣) أحمد بن عبد الله بن سليمان، الفيلسوف، الشاعر، صاحب التصانيف السائرة، والمتهم في نحلته، ولد سنة ٣٦٣هـ، وتوفي سنة ٤٤٩هـ، وأحسن ما قيل فيه: إنه متحير لم يجرم بنحلة! وأردأ تواليفه «رسالة الغفران». انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٤ / ٢٤٠ ـ ٢٤١)، و«سير أعلام النبلاء» (١٨ / ٢٣).

(٤) أبو عبدالله، الحسين بن أحمد بن الحجاج البغدادي، شاعر العصر، وسفيه الأدباء، وأمير الفحش وحامل لوائه، كان شيعيًا ماجنًا مزاحًا هجاء، توفي سنة ٣٩١هـ وقد شاخ. له ترجمة في: «وفيات الأعيان» (٢/ ١٦٨)، و«أعلام النبلاء» (١٧/ ٥٩).

حِكمةً، ولو كُشِفَتْ له حِكْمَةُ ذٰلك؛ لَعَلِمَ أنَّه صوابٌ؛ كما كُشِفَ لموسى مرادُ الخَضِرِ في خَرْقِ السفينةِ وقَتْلِ الغُلام.

ومعلومٌ أنَّ ذبحَ الحيوانِ وتقطيعَ الرَّغيفِ ومَضْغَ الطعام لا يَظْهَرُ له فائدةٌ على الإطلاقِ؛ فإذا عُلِمَ أنَّه غِذاءٌ لبدنِ مَنْ هُو أشرفُ بَدَنًا مِن المذبوحِ؛ حَسُنَ ذٰلك الفعلُ.

وا عجبًا! أوَما تقضي العقولُ بوجوب طاعةِ الحكيم الذي تَعْجزُ عن معرفةِ حِكَمِ مخلوقاتِهِ؟! فكيفَ تعارِضُه في أفعالِهِ؟! نعوذُ بالله مِنَ الخِذْلانِ.

٣٠٧ـ فصل

[في لزوم التلطف في موعظة السلاطين]

ينبغي لمن وَعَظَ سُلطانًا أن يبالِغَ في التلطُّفِ، ولا يواجِهَهُ بما يقتضي أنه ظالمٌ؛ فإنَّ السلاطينَ حظُّهُمُ التفرُّدُ بالقهرِ والغَلَبَةِ؛ فإذا جرى نوعُ توبيخ لهم؛ كان إذلالاً، وهم لا يحتمِلونَ ذٰلك، وإنما ينبغي أن يَمْزُجَ وعظَه بذِكْرِ شَرَفِ الولايةِ، وحُصولِ الثوابِ في رعايةِ الرَّعايا، وذِكْرِ سِيَرِ العادلينَ مِن أسلافِهِم...

ثم لينظرِ الواعظُ في حال الموعوظِ قبلَ وَعْظِهِ:

فإنْ رأى سيرتَهُ حميدةً ـ كما كانَ منصورُ بن عمارٍ[1] وغيرُه يَعِظونَ

---

(١) الواعظ، البليغ، الرباني، كان عديم النظير في الموعظة، وفاته في حدود المئتين. انظر ترجمته في: «الحلية» (٩ / ٣٢٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٩ / ٩٣).

الرشيدَ[١] وهو يَبْكي ـ وقصدَهُ الخيرَ؛ زادَ في وعظِهِ ووصيتِهِ.

وإن رآه ظالمًا، لا يلتفِتُ إلى الخيرِ، وقد غَلَبَ عليه الجهلُ؛ اجتهدَ في أن لا يراهُ ولا يَعِظُهُ؛ لأنَّه إن وَعَظَهُ؛ خاطَرَ بنفسِهِ، وإن مَدَحَهُ؛ كان مداهنًا... فإنِ اضْطُرَّ إلى موعظتِهِ؛ كانتْ كالإشارةِ.

وقد كانَ أقوامٌ من السلاطينِ يلينونَ عند الموعظةِ، ويحتمِلونَ الواعظينَ، حتى إنَّه قد كان المنصورُ[٢] يواجَهُ بأنَّك ظالمٌ فيصبِرُ...

وقد تغيَّرَ الزمانُ، وفَسَدَ أكثرُ الولاةِ، وداهَنَهُمُ العلماءُ، ومَن لا يداهِنُ؛ لا يَجِدُ قَبولاً للصوابِ، فيسكُتُ.

وقد كانتِ الولاياتُ لا يسألُها إلَّا مَن أحْكَمَتْهُ العلومُ وثقَّفَتْهُ التجاربُ، فصار أكثرُ الولاةِ يتساوَوْنَ في الجهلِ، فتأتي الولايةُ على مَن ليس مِن أهلِها.

ومثلُ هٰؤلاءِ يَنْبَغي الحذرُ منهم والبعدُ عنهُم؛ فمَنِ ابْتُلِيَ بوعظِهِم؛ فليكنْ على غايةِ التحرُّزِ فيما يقولُ، ولا ينبغي أن يَغْتَرَّ بقولِهِم: عِظْنا! فإنَّه لو قالَ كلمةً لا توافِقُ أغراضَهم؛ ثارتْ حراراتُهم.

ولْيَحْذَرْ مُذَكِّرُ السلطانِ أنْ يُعَرِّضَ له بأربابِ الولاياتِ؛ فإنَّهم إذا

---

(١) هارون بن محمد المهدي بن المنصور العباسي، أشهر الخلفاء العباسيين، ولد سنة ١٤٩هـ، وتوفي سنة ١٩٣هـ. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (١٤ / ٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٩ / ٢٨٦).

(٢) أبو جعفر، عبد الله بن محمد، فحل بني العباس هيبة وشجاعة ورأيًا وحزمًا ودهاء وعقلاً، ولد سنة ٩٥هـ، وتوفي سنة ١٥٨هـ. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (١٠ / ٥٣)، «سير أعلام النبلاء» (٧ / ٨٣).

سَمِعوا بذلك؛ صارَ الواعظُ مقصودًا لهم بالإهلاكِ؛ خوفًا مِن أن يَعْتَبِرَ السلطانُ أحوالَهم فَتَفْسُدَ أمورُهم.

والبعدُ في هذا الزمانِ عنهم أصلحُ، والسكوتُ عن المواعِظِ لهم أسلمُ؛ فمَنِ اضطُرَّ؛ تَلَطَّفَ غايةَ التلطُّفِ، وجَعَلَ وَعْظَهُ للعوامِّ، وهم يسمعونَ، ولا يُعَيِّنُهم منه بشيءٍ. واللهُ الموفقُ.

٣٠٨ ـ فصل

[في بعض مخازي المتنبئين والمموهين والممخرقين وفضائحهم]

الحقُّ لا يشتبِهُ بباطل، إنَّما يموِّهُ الباطلُ عند مَن لا فَهْمَ له.

وهٰذا في حقِّ مَن يدَّعي النبوَّاتِ وفي حقِّ مَن يدَّعي الكراماتِ.

أما النبوَّاتُ؛ فإنَّه قدِ ادَّعاها خَلْقٌ كثيرٌ؛ ظهرتْ قبائحُهم، وبانتْ فضائِحُهُم، ومنها ما أوجبتْهُ خِسَّةُ الهمةِ، والتهتُّكُ في الشَّهَواتِ، والتهافتُ في الأقوال والأفعال، حتى افتُضِحوا.

فمنهم الأسودُ العَنْسِيُّ[١]: ادَّعى النبوةَ، ولَقَّبَ نفسَه ذا الخمار؛ لأنَّه كان يقولُ: يأتيني ذو الخمارِ[٢]، وكان أولَ أمرِهِ كاهنًا يُشَعْوِذُ فيظهرُ الأعاجيبَ، فخرجَ في أواخرِ حياةِ النبيِّ ﷺ، فكاتبَتْهُ مَذْحِجٌ ونجرانُ،

(١) تقدمت له ترجمة في (فصل ٢١٥).

(٢) في الأصول: «ولقب نفسه ذا الحمارة؛ لأنه كان يقول: يأتيني ذو الحمار»! والصواب ما أثبتناه.

قال ابن الأثير في «الكامل» (٢ / ٢٠١ / سنة ١١هـ): «وكان يلقب ذا الخمار؛ لأنه [كان] معتمًّا متخمرًا أبدًا». وانظر أيضًا: «تاريخ الطبري» (٢ / ٢٤٧ / سنة ١١هـ).

وأخرجوا عمرَو بنَ حزم وخالدَ بن سعيدٍ صاحبي رسولِ اللهِ ﷺ، وصفا له اليمنُ، وقاتلَ شهرَ بنَ باذانَ فقتَلَهُ وتزوجَ ابنتَه، فأعانت على قتلِهِ، فهَلَكَ في حياةِ رسول اللهِ ﷺ، وبانَ للعقلاءِ أنَّه كان يُشَعْبِذُ.

ومنهم مُسَيْلِمَةُ[١]؛ ادَّعى النبوةَ، وتسمى رحمانَ اليمامةِ؛ لأنه كان يقولُ: الذي يأتيني رحمانٌ! فآمنَ برسول اللهِ ﷺ، وادَّعى أنه قد أُشْرِكَ معهُ! فالعجبُ أنه يؤمنُ برسول، ويقولُ: إنَّه كذابٌ!

ثم جاء بقرآنٍ يُضْحِكُ الناسَ؛ مِثْل قولِهِ: يا ضفدعُ بنتَ ضفدعينْ! نُقِّي ما تَنُقِّينْ، أعلاكِ في الماءِ وأسفَلُكِ في الطينْ! ومن العجائبِ شاةٌ سوداءُ، تَحْلِبُ لَبَنًا أبيضَ! فانْهَتَكَ سَتْرُهُ في هٰذه الفصاحةِ.

ثم مسحَ بيدِهِ على رأس صبيٍّ، فذهبَ شعرُهُ! وبَصَقَ في بئرٍ، فيبِسَتْ!

وتزوَّجَ سَجَاح[٢] التي ادَّعَتِ النبوةَ، فقالوا: لا بُدَّ لها مِن مهرٍ. فقال: مَهْرُها أني قد أسقطتُ عنكم صلاتَي الفجرِ والعَتَمَةِ!

وكانت سَجَاح هٰذه قدِ ادَّعتِ النبوةَ بعد موتِ رسول الله ﷺ، فاستجابَ لها جماعةٌ، فقالتْ: أعِدُّوا الرِّكابْ، واستعدُّوا للنِّهابْ، ثم اعبُروا على الرِّبابْ[٣]؛ فليس دونَهُم حِجابْ؛ فقاتِلُوهم!

---

(١) تقدمت له ترجمة في (فصل ٢١٥).

(٢) بنت الحارث التميمية، كانت شاعرة أديبة عارفة بعلم الكتاب والأخبار، توفيت حوالي ٥٥هـ بعد أن تابت. وانظر: «تاريخ الطبري» (٢ / ٢٦٨ / سنة ١١هـ).

(٣) من قبائل العرب.

ثم قصدتِ اليمامةَ، فهابها مُسَيْلِمَةُ، فراسَلَها وأهدى لها، فحضرتْ عنـدَه، فقالتْ: اقرأ عليَّ ما يأتيكَ به جبريلُ! فقال: إنَّكُنَّ معشرَ النساءِ خُلِقْتُنَّ أفـواجـا، وجُعِلْتُنَّ لنـا أزواجـا، نولجُـهُ فيكُنَّ إيلاجـا. فقـالتْ: صَدَقْتَ؛ أنت نبيٌّ. فقـالَ لهـا: قومي إلى المَخْـدَعْ؛ فقـد هُيِّىءَ لك المَضْجَعْ؛ فإن شئتِ مستلقاةً وإن شئتِ على أربعْ وإن شئتِ بثُلُثَيْهِ وإن شئتِ به أجْمَعْ. فقالتْ: بل بِهِ أجْمَعْ؛ فهو للشمل أجْمَعْ!

فافتُضِحَتْ عند العقلاءِ من أصحابِها، فقالَ منهم عُطارِدُ بن حاجبٍ[1]:

أضْـحَتْ نَبيَّتُنـا أنثى يُطافُ بهـا ... وأصْبَحَتْ أنْبِياءُ النَّـاسِ ذُكْـرانـا
فَلَعْـنَـةُ الـلهِ ربِّ النـاسِ كُلِّهِمُ ... على سَجَاحِ ومَنْ بالإفْـكِ أغْوانا
أعْني مُسَيْلِمَـةَ الكذَّابَ لا سُقِيَتْ ... أصْـداؤهُ مِن رُعَيْثٍ حَيْثُمـا كانا[2]

ثم إنها رَجَعَتْ عن غيِّها، وأسلمتْ.

وما زالتْ تَبينُ فضائحُ مُسَيْلِمَةَ حتى قُتِلَ[3].

ومنهم طُلَيْحَةُ بنُ خُوَيْلِدٍ[4]؛ خرج بعد دعوى مُسَيْلِمَةَ النبوةَ، وتبعَه

---

(١) خطيب، شاعر، من سراة بني تميم، وفد على النبي ﷺ، ثم ارتد واتبع سجاح، ثم عاد إلى الإسلام، توفي نحو ٢٠هـ. انظر ترجمته في: «الإصابة» (٢ / ٤٨٣).

(٢) الرُّعيث: مصغرًا: نوع من الآنية.

(٣) وانظر هذه الأخبار وكثيرًا من أشباهها في: «تاريخ الطبري» (٢ / ٢٧٥ / سنة ١١هـ)، و«الكامل» لابن الأثير (٢ / ٢١٨ / سنة ١١هـ).

(٤) الأسدي: من الفصحاء، وفد على النبي ﷺ سنة ٩هـ، ثم ارتد وادعى النبوة، فقاتله خالد، وفر إلى الشام، ويقال: رجع إلى الإسلام، وبايع عمر في المدينة، واستشهد بنهاوند سنة ٢١هـ. انظر: «الإصابة» (٢ / ٢٣٤).

عوامٌ، ونَزَلَ سَميراءَ، فتسمَّى بذي النُّونِ؛ يقولُ: إنَّ الذي يأتيه يُقالُ له ذو النُّونِ!

وكانَ من كلامِهِ: إنَّ الله لا يَصْنَعُ بتعفيرِ وجوهِكُم، ولا فَتْح أدبارِكُم شيئًا؛ فاذْكُرُوا اللهَ أعفَّةً قيامًا! ومن قرآنِهِ: والحَمَام واليَمامْ، والصُّرَدِ[1] الصَّوَّامْ، لَيَبْلُغَنَّ مُلْكُنا العراقَ والشامْ!!

وتبعهُ عُيَيْنَةُ بنُ حِصْنٍ[2]، فقاتَلَهُ خالدُ بن الوليدِ، فجاء عيينةُ إلى طليحةَ، فقال: وَيْحَكَ! أجاءَكَ المَلَكُ؟ قال: لا؛ فارجعْ فقاتِلْ. فقاتلَ، ثم عادَ، فقالَ: أجاءكَ؟ فقال: لا. فعادَ فقاتلَ، ثم عادَ، فقالَ: أجاءكَ؟ قال: نعمْ. قالَ: ما قالَ لكَ؟ قالَ: قالَ: إن لكَ [رحىً كرحاهُ وحديثًا] لا تنساهُ. فصاحَ عُيَيْنَةُ: الرجلُ واللهِ كذابٌ. فانصرفَ الناسُ منهزمينَ، وهَرَبَ طُلَيْحَةُ إلى الشام، ثم أسْلَمَ، وصحَّ إسلامُه، وقُتِلَ بنَهاوَنْدَ[3].

وذكر الواقديُّ: أنَّ رجلًا من بني يربوعَ يقالُ له: جُنْدَبُ بنُ كُلْثوم[4]، كانَ يلقَّبُ كردانًا، ادَّعى النبوةَ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ، وكان يَزْعُمُ أنَّ دليلَه على نبوتِهِ أنه يُسْرِجُ مساميرَ الحديدِ والطينِ!! وهذا لأنَّهُ كانَ يَطْلي

(١) الصرد: نوع من أنواع الطيور.

(٢) في الأصول: «حصين»، وهو خطأ، وعيينة بن حصن فزاري، أسلم قبل الفتح، وشهد حنينًا والطائف، وارتد، ثم رجع إلى الإسلام، وعاش حتى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. انظر: «الإصابة» (٣ / ٥٥).

(٣) انظر الخبر في: «تاريخ الطبري» (٢ / ٢٦١ / سنة ١١هـ)، و«الكامل» لابن الأثير (٢ / ٢٠٨ / سنة ١١هـ). وقد وقع في الأصول المخطوطة والمطبوعة: «إن لك جيشًا لا تنساه»! والتصويب والزيادة من مصادر التخريج.

(٤) لم أجد له ترجمة.

ذٰلك بدُهْنِ البَيْلسانِ، فتَعْمَلُ فيه النارُ.

وقد تَنَبَّأَ رجلٌ يقالُ له كَهْمَشٌ الكلابيُّ(١)، وكانَ يَزْعُمُ أنَّ الله تعالى أوحى إليه: يا أيُّها الجائعْ! اشربْ لَبَنًا تَشْبَعْ، ولا تضربِ الذي لا يَنْفَعْ؛ فإنَّه ليس بمقنعْ!! وزعَمَ أنَّ دليلَه على نبوَّتِهِ أنه يُطْرَحُ بين السِّباع الضارية فلا تأكُلُه، وحيلتُـه في ذٰلك: أنَّه يأخُذُ دُهْنَ الغارِ وحَجَرَ البرسانِ وقُنْفُذًا مُحْرَقًا وزُبْدَ البحرِ وصَدَفًا مُحْرَقًا مسحوقًا وشيئًا مِن الصَّبِرِ والحَبَطِ، فيَطْلي به جسمَه، فإذا قَرُبَتْ منهُ السباعُ، فَشَمَّتْ تلكَ الأرياحَ وزُفورَتَها؛ نَفَرَتْ.

وتنبَّأَ بالطائفِ رجلٌ يقالُ له أبو جعوانة العامريُّ(١)، وزعَمَ أنَّ دليلَه أنَّه يَطْرَحُ النارَ في القطنِ فلا يَحْتَرِقُ! وهٰذا لأنَّه يَدْهَنُهُ بدُهْنٍ معروفٍ.

ومنهم هُذيلُ بنُ يعفـورٍ(١)، من بني سعـدِ بن زهيرٍ، حكى عنه الأصمعيُّ أنَّـه عارَضَ سورةَ الإخـلاصِ، فقـالَ: قُلْ هوَ اللهُ أحدْ، إلٰهٌ كالأسدْ، جالسٌ على الرَّصَدْ، لا يفوتُهُ أحدْ!

ومنهم هُذَيْلُ بنُ واسع(١)، كان يَزْعُمُ أنه من وَلَدِ النابغةِ الذبيانيِّ، عارضَ سورةَ الكوثرِ، فقال له رجلٌ: ما قلتَ؟ فقال: إنا أعطيناكَ الجواهِرْ، فصلِّ لربِّكَ وجاهِرْ، فما يَرُدُّكَ إلَّا كلُّ فاجرْ. فَظَهَرَ عليه السنوريُّ، فقتلَه، وصلبَه على العمودِ، فَعَبَرَ عليه الرجلُ، فقالَ: إنا أعطيناكَ العَمودْ، فصلِّ لربِّكَ مِن قُعودْ، بلا ركوعٍ ولا سُجودْ؛ فما أراكَ تَعودْ.

وممَّنْ ظَهَرَ فادَّعى أنَّه يُوحى إليهِ المختارُ بن أبي عُبَيْدٍ، وكان متخبِّطًا في دعـواهُ، وقَتَـلَ خَلْقًا كثيرًا، وكان يَزْعُمُ أنه يَنْصُرُ الحسينَ رضوانَ اللهِ

(١) لم أعرفه.

عليه، ثم قُتِلَ[١].

ومنهم حنظلةُ بنُ يزيدَ الكوفيُّ[٢]، كانَ يزعُمُ أنَّ دليلَه أنَّه يُدْخِلُ البيضةَ في القنينةِ ويُخْرِجُها منها صحيحةً! وذاكَ أنه كانَ ينقَعُ البيضةَ في الخلِّ الحامضِ، فَيَلِينُ قِشْرُها، ثم يصبُّ ماءً في قنينةٍ، ثم يَدُسُّ البيضةَ فيها؛ فإذا لَقيتِ الماءَ؛ صَلُبَتْ.

وقد تنبَّأ أقوامٌ قبلَ نبيِّنا ﷺ كزرادشتَ[٣] وماني[٤] وافتُضِحوا.

وما مِن المدَّعين إلَّا مَن خُذِلَ.

وقد جاءتِ القرامطةُ[٥] بحيلٍ عجيبةٍ، وقد ذكرتُ جمهورَ هٰؤلاء

---

(١) كان أبوه من جلة الصحابة، ولد عام الهجرة، وليست له صحبة ولا رؤية، وأخباره ظلمات بعضها فوق بعض، قتله مصعب بن الزبير سنة ٦٧هـ. انظر عن ترجمته وسوء سيرته: «الإصابة» (٣ / ٥١٨).

(٢) لم أجد له ترجمة.

(٣) الذي تزعم المجوس أنه نبيهم، كان ـ فيما زعم أهل الكتاب ـ خادمًا لبعض تلامذة النبي إرميا، فخانه وكذب عليه، فدعا عليه، فبرص، فلحق بأذربيجان وشرع فيها المجوسية، وذٰلك في أيام بختنصر. انظر: «تاريخ الطبري» (١ / ٣١٧).

(٤) الزنديق الذي ظهر أيام سابور بن أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بعد أن خبره وعلم أنه داعية للشيطان، وأمر بقتله وسلخ جلده وتعليقه على باب مدينة جنديسابور.

(٥) فرقة باطنية تنسب إلى حمدان قرمط، أصله من خوزستان، ظهر بسواد الكوفة سنة ٢٥٨هـ، وأظهر الزهد والتقشف حتى اغتر به كثير من الطغام، ثم دعاهم إلى معتقده الخبيث، وأظهر الكفر والإلحاد، وكثر دعاته، واشتهر أمره، حتى كان مقتله ـ في أغلب الظن ـ سنة ٢٩٣هـ على يد المكتفي العباسي، لكن أمر جماعته ظل في نمو وازدياد حتى صارت لهم دولة واجتاحوا مكة سنة ٣١٧هـ، وقتلوا المسلمين، وقلعوا الحجر الأسود من مكانه وبقي عندهم حتى مزق الله دولتهم وشتت شملهم سنة ٣٣٩هـ فتفرقوا في الفرق =

وحِيَلَهم في كتابي التاريخ المسمَّى بـ «المنتظم»، وما فيهم مَن يَتِمُّ له أمرٌ إلَّا ويُفْتَضَحُ.

ودليلُ صِحَّةِ نبوةِ نبيِّنا ﷺ أجلى من الشمسِ:

فإنَّـه ظَهَـرَ فقيرًا والخلقُ أعداؤه، فوُعِدَ بالمُلكِ فمَلَكَ، وأخْبَرَ بما سيكونُ فكان، وصِينَ مِن زمن النبوةِ[1] عن الشَّرَهِ وخساسةِ الهِمَّةِ والكذبِ والكِبْرِ، وأُيِّدَ بالثقةِ والأمانةِ والنزاهةِ والعفةِ، وظهرت معجزاتُه للبعيدِ والقريبِ.

وأنزلَ عليه الكتابُ العزيزُ الذي حارتْ فيه عقولُ الفصحاءِ ولم يقدِروا على الإتيانِ بآيةٍ تشبهُهُ فضلاً عن سورةٍ، وقد قال قائِلُهم وافتُضِحَ.

ثم أخْبَرَ أنَّه لا يُعارَضُ فيه فكان كما قالَ، وذلك قولُه تعالى: ﴿فأْتوا بسورَةٍ...﴾ ثم قالَ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلوا ولَنْ تَفْعَلوا﴾ [البقرة: ٢٣ ـ ٢٤]. وكذلك قولُه: ﴿فَتَمَنَّوا الْمَوْتَ... ولَنْ يَتمَنَّوْهُ﴾ [البقرة: ٩٤ ـ ٩٥]؛ فما تمنَّاه أحدٌ؛ إذ لو قالَ قائلٌ: قد تَمَنَّيْتُهُ؛ لبطلتْ دعواهُ.

وكان يقولُ ليلةَ غزاةِ بدرٍ: غدًا مَصْرَعُ فلانٍ ها هنا؛ فلا يتعدَّاه[2].

وقالَ: «إذا هَلَكَ كِسْرى؛ فلا كِسْرى بعدَه، وإذا هَلَكَ قَيْصَرُ؛ فلا

= الباطنية الأخرى كالنصيرية والإسماعيلية. وانظر: «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (ص ١٢٢).

(١) بل ومنذ ولادته ﷺ.

(٢) رواه: مسلم (٣٢ ـ كتاب الجهاد والسير، ٣٠ ـ باب غزوة بدر، ٣ / ١٤٠٣ / ١٧٧٩)؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

قَيْصَرَ بعدَه»(١)؛ فما مَلَكَ بعدَهما مَن له كبيرُ قدرٍ، ولا مَن استتبَّ له حالٌ.

ومن أعظم دليل على صدقِهِ أنه لم يُرِدِ الدُّنيا؛ فكان يبيتُ جائعًا، ويؤثِرُ إذا وَجَدَ، ويَلْبَسُ الصوفَ، ويقومُ الليل(٢)... وإنما تطلبُ النواميسُ لاجتلابِ الشَّهواتِ، فلمَّا لم يُرِدْها؛ دَلَّ على أنه يدلُّ على الآخرةِ التي هي حقٌّ.

ثم لم يزلْ دينُـــهُ يعلو حتى عمَّ الـدُّنيا، وإن كان الكفـرُ في زوايا الأرضِ؛ إلَّا أنه مخذولٌ.

وصــار في تابعيهِ من أمَّتِهِ: الفقهاءُ الذين لو سَمِعَ كلامَهم الأنبياءُ القدماءُ؛ تحيَّروا في حُسْنِ استخراجِهم(٣)، والزُّهَّادُ الذين لو رآهُم الرُّهبانُ؛ تحيَّروا في صدقِ زهدِهم، والفطناءُ الذين لا نظيرَ لهم في القدماءِ.

---

(١) رواه: البخاري (٥٧ ـ كتاب فرض الخمس، ٨ ـ باب قول النبي ﷺ: أحلت لكم الغنائم، ٦ / ٢١٩ / ٣١٢١)، ومسلم (٥٢ ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة، ١٨ ـ باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكانه، ٤ / ٢٢٣٧ / ٢٩١٩)؛ من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) وكل ذلك ثابت صحيح ومعروف.

والنبي ﷺ قد لبس الصوف؛ كما روى البخاري (٧٧ ـ كتاب اللباس، ١١ ـ باب لبس جبة الصوف في الغزو، ١٠ / ٢٦٨ / ٥٧٩٩)، ومسلم (٢ ـ كتاب الطهارة، ٢٢ ـ باب المسح على الخفين، ١ / ٢٢٨ / ٢٧٤)؛ من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، ولٰكنه لم يقتصر عليه، بل لبس القطن وغيره كما هو معلوم.

(٣) وهٰذه مبالغة مستبشعة غير مستساغة!! والأنبياء صفوة الله من خلقه، وهم أعظم عقلًا وأعلى درجة وأدق فهمًا من كل من يليهم بدرجات؛ فما أدري ما وجه حيرتهم بعد هٰذا؟!

أوليسَ قومُ موسى يعبُـدونَ بقرةً، ويتوقَّفونَ في ذبح بقرةٍ، ويعبُرونَ البحرَ، ثم يقولونَ: اجْعَلْ لنا إلٰهًا؟! وقومُ عيسى يدَّخِرونَ من المائدةِ وقد نُهوا؟! والمعتدونَ في السبتِ يعصونَ اللهَ لأجل الحيتانِ؟! وأُمَّتنا بحمدِ الله تعالى سليمةٌ من هٰذه الأشياءِ، وإنَّما في بعضِها ميلٌ إلى الشَّهَواتِ المنهيِّ عنها، وذٰلك مِن الفروع لا مِن الأصول؛ فإذا ذُكِّروا؛ بَكَوْا ونَدِموا على تفريطهم[١].

فنحمدُ اللهَ على هٰذا الدينِ، وعلى أنَّنا مِن أمةِ هٰذا الرسول ﷺ.

وقـد كان جمـاعـةٌ من المتصنِّعينَ بالـزُّهْـدِ مالـوا إلى طلبِ الدُّنيا والـرياسـةِ، فاستغـواهُمُ الهـوى، فخَـرَّقـوا[٢] بإظهارِ ما يُشْبِهُ الكراماتِ؛ كالحـلاج[٣] وابنِ الشَّـاش[٤] وغيرِهما ممَّن ذكرتُ حالَ تلبيسِهِ في كتابِ «تلبيس إبليس». . . وإنما فَعَلوا ذٰلك لاختلافِ أغراضِهم.

ولم يزلِ اللهُ ينشىءُ في هٰذا الدينِ مِن الفقهاءِ مَن يُظْهِرُ ما أخفاه القاصرونَ؛ كما ينشِىءُ من علماءِ الحديثِ مَن يَهْتِكُ ما أشاعَه الواضِعونَ؛ حفظًا لهٰذا الدينِ، ودفعًا للشُّبُهاتِ عنهُ؛ فلا يزالُ الفقيهُ والمحدِّثُ يُظْهِرانِ عُوارَ كلِّ مُلَبِّسٍ بوضع حديثٍ أو بإظهارِ دعوى تزهُّدٍ وتنميسٍ، فلا يؤثِّرُ ما

(١) بل والله؛ لو رأى ابن الجوزي الحيل التي يحتال بها كثير من المسلمين اليوم لأكل الربا ومنع الزكاة واستحلال ما حرم الله؛ لهان عنده فعل بني إسرائيل في سبتهم. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

(٢) التخريق والمخرقة: نوع من أنواع الشعوذة والتدجيل.

(٣) تقدمت ترجمته في (فصل ١٦١).

(٤) لم أعرفه، ولعل فيه تصحيفًا.

ادَّعياهُ؛ إلَّا عندَ جاهلٍ بعيدٍ من العلمِ والعملِ.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ ويُبْطِلَ الباطِلَ ولَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمونَ﴾ [الأنفال: ٨].

٣٠٩ ـ فصل

[ويحك! اغتنم ساعات عمرك فإنها محدودة]

وا عجبًا من موجودٍ لا يفهمُ معنى الوجودِ؛ فإن فَهِمَ؛ لم يعملْ بمقتضى فهمِهِ!!

يعلمُ أنَّ العُمُرَ قصيرٌ، وهو يضيِّعُهُ بالنوم والبَطالةِ والحديثِ الفارغِ وطلبِ اللَّذَّاتِ، وإنَّما أيامُه أيامُ عملٍ لا زمانُ فراغٍ.

وقد كُلِّفَ بَذْلَ المالِ بمخالفةِ الطَّبعِ من الشَّرعِ، فبَخِلَ به، إلى أنْ يتضايقَ الخِناقُ، فيقولَ حينئذٍ: فَرِّقوا عني بعد موتي! وافعلوا كذا! فأين يقعُ هٰذا لو فُعِلَ؟! وبعيدٌ أن يُفْعَلَ، وإنما يُرادُ بإنفاقِكَ في صحَّتِكَ مخالفةُ الطبعِ في تكلُّفِ مشاقِّ الإخراجِ في زمنِ السَّلامةِ؛ فافرُقْ بين الحالتينِ إن كانَ لك فهمٌ!

فالسعيدُ مَن انتبهَ لنفسِهِ، وعَمِلَ بمقتضى عقلِهِ، واغتنمَ زمنًا نهايتُهُ الزَّمَنُ[1]، وانتهبَ عُمُرًا يا قربَ انقطاعِهِ!

ويحكَ! ما تصنعُ بادِّخارِ مالٍ لا يُؤَثِّرُ حسنةً في صحيفةٍ ولا مَكْرُمَةً في تاريخ؟! أما سمعتَ بإنفاقِ أبي بكرٍ وبُخْلِ ثعلبةَ[2]؟! أما رأيتَ تأثيرَ

(١) الزَّمن: المرض المزمن المقعد.

(٢) أما إنفاق أبي بكر؛ فقد أنفق ماله كله في سبيل الله، ولم يبق لأهله إلا الله ورسوله؛ كما تقدم في (فصل ٣٤).

=

مَدْح حاتمٍ وبخل الحباحبِ؟!

ويحكَ! لو ابتلاكَ في مالِكَ، فقلَّ؛ لاسْتَغَثْتَ، أو في بدنِكَ ليلةً بمرضٍ؛ لشَكَوْتَ؛ فأنتَ تستوفي مطلوباتِكَ منهُ، ولا تستوفي حقَّه عليكَ، ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]!

ولْتَعْلَمْ أنَّ هٰذا القدرَ المفرَّطَ فيه يُحِلُّ الخلودَ الدائمَ في ثوابِ العمل فيه.

فسبحانَ مَنْ منَّ على أقوامٍ فَهِموا المرادَ فأتْعبوا الأجسادَ، وغطَّى على قلوبِ آخرينَ فوجودُهم كالعَدَمِ.

وكيفَ لا يُتْعِبُ العاقلُ بدنَه إتعابَ البُدْنِ والمقصودُ مِنيً؟!

أترى ما بالُ الحقِّ متجليًا في إيجادِكَ أيُّها العبدُ؟!

بلى واللهِ؛ إنَّ وجودَكَ دليلُ وجودِهِ، وإنَّ نعمَه عليك دليلُ جودِهِ؛ فكما قدَّمَكَ على سائرِ الحَيَواناتِ؛ فقدِّمْهُ في قلبِكَ على كلِّ المطلوباتِ.

وا خيبةَ مَنْ جَهِلَهُ! وا فقْرَ مَن أعرضَ عنه! وا ذُلَّ من اعتزَّ بغيرِهِ! وا حسرةَ مَنِ اشتغلَ بغيرِ خِدمتِهِ!

= وأما ثعلبة رضي الله عنه؛ فأنصاري بدري، وقصة بخله واهية بمرة، رواها ابن جرير الطبري في «جامع البيان» (٦ / ٤٢٤ / التوبة ٧٥) بأربعة أسانيد عن ابن عباس وأبي أمامة وقتادة والحسن، ولا يخلو واحد منها من متهم أو متروك أو شديد الضعف، والقصة ظاهرة الصناعة والنكارة، وضعفها جدًّا جمع من أهل العلم؛ منهم القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٨ / ١٣٣ / التوبة ٧٨)، والعراقي في «تخريج الإحياء» (٣ / ٢٧٢)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧ / ٣٥)، والحافظ في «تخريج الكشاف» (٤ / ٧٧ / ١٣٣)، والألباني في «الضعيفة» (٤ / ١١١ / ١٦٠٧). ولا حاجة لمزيد على هٰذا.

٣١٠ ـ فصل

[الكيس من دان نفسه واستعد لساعة الرحيل]

إني أعجبُ من عاقل يرى استيلاءَ الموتِ على أقرانِهِ وجيرانِهِ؛ كيف يطيبُ عيشُه؟! خصوصًا إذا عَلَتْ سِنُّهُ!

وا عجبًا لمن يرى الأفاعيَ تَدِبُّ إليه، وهو لا ينزعِجُ!! أما يرى الشيخُ دبيبَ الموتِ في أعضائِهِ، قد أخرجَ سكينَ القُوى، وأنزل متغشرمَ الضَّعْفِ، وقَلَبَ السوادَ بياضًا، ثم في كلِّ يوم يزيدُ الناقصُ.

ففي نَظَرِ العاقل إلى نفسِهِ ما يَشْغَلُهُ عن النظرِ إلى خراب الدُّنيا وفِراقِ الإخوانِ، وإن كانَ ذلك مزعجًا، ولكنَّ شُغْلَ من احترقَ بيتُه بنقل متاعِهِ يُلهيه عن ذِكْرِ بيوتِ الجيرانِ.

وإنَّه لَمِمّا يُسَلِّي عن الدُّنيا ويهوِّنُ فِراقَها استبدالُ المعارفِ بمَن تنكرُه... فقد رأيْنا أغنياءَ كانوا يؤثِرونَ، وفقراءَ كانوا يصبِرونَ، ومحاسبينَ لأنفسِهِم يتورَّعونَ... فاسْتُبْدِلَ السُّفَهاءُ عن العقلاءِ والبخلاءُ عن الكرماءِ.

فيا سُهولةَ الرَّحيل! لعلَّ النفسَ تَلْقى مَن فقدتْ فتلحقَ بمَن أحبَّتْ.

٣١١ ـ فصل

[فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور]

نظرتُ في قول اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ في السَّماواتِ ومَنْ في الأرْضِ والشَّمْسُ والْقَمَرُ والنُّجومُ والْجِبالُ والشَّجَرُ والدَّوابُّ...﴾ ثم قال: ﴿وكَثيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]... فرأيتُ

الجماداتِ كلُّها قد وُصِفَتْ بالسُّجودِ، واسْتُثْنِيَ من العقلاءِ! فذكرتُ قولَ بعضِهم:

ما جَحَدَ الصَّامِتُ مَنْ أنْشَأَهُ ومِنْ ذَوي النُّطْقِ أتى الجُحودُ

فقلتُ: إنَّ هٰذه لَقدرةٌ عظيمةٌ، يُوْهَبُ عقلٌ للشخصِ ثم يُسْلَبُ فائدتَه! وإنَّ هٰذا لأقوى دليل على قادرٍ قاهرٍ، وإلَّا؛ فكيفَ يَحْسُنُ مِن عاقل أن لا يعرِفَ بوجودِهِ وجودَ مَن أوجَدَهُ؟! وكيفَ يَنْحِتُ صنمًا بيدِهِ ثم يعبُدُه؟!

غير أنَّ الحقَّ سبحانَه وتعالى وَهَبَ لأقوام مِن العقل ما يُثْبِتُ عليهمُ الحُجَّة، وأعمى قلوبَهم كما شاءَ عن المَحَجَّة[1].

٣١٢ ـ فصل

[في ترك مخالطة الناس والعمل على تزكية النفس]

ما رأيتُ أكثرَ أذىً للمؤمن مِن مخالطةِ مَنْ لا يَصْلُحُ؛ فإنَّ الطبعَ يَسْرِقُ؛ فإنْ لم يتشبَّهْ بهم، ولم يسرِقْ منهم؛ فَتَرَ عن عملِه.

فإنَّ رؤيةَ الدُّنيا تَحُثُّ على طلبِها؛ وقد رأى رسولُ اللهِ ﷺ سِترًا على بابِهِ، فَهَتَكَهُ، وقال: «ما لي وللدُّنيا؟!»[2]، ولَبِسَ ثوبًا له طرازٌ، فرماهُ،

---

(١) المحجة: الطريق البينة الواضحة.

(٢) خلط المصنف رحمه الله بين حديثين:

فأما هتكه للستر عن باب عائشة؛ فقد جاء عنها فيما رواه البخاري (٤٦ ـ كتاب المظالم، ٣٢ ـ باب هل تكسر الدنان التي فيها الخمر، ٥ / ٢٢ / ٢٤٧٩).

وأما قوله: «ما لي وللدنيا؟!»؛ فإنما جاء فيما رواه البخاري (٥١ ـ كتاب الهبة، ٢٧ ـ باب هدية ما يكره لبسها، ٥ / ٢٢٨ /٢٦١٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال: أتى النبي ﷺ بيت فاطمة فلم يدخل عليها، وجاء علي فذكرت له ذٰلك، فذكره للنبي ﷺ؟ قال: =

وقالَ: «شَغَلَتْني أعلامُه»(١)، ولَبِسَ خاتَمًا، ثم رَماه، وقالَ: «نظرتُ إليكُم، ونظرتُ إليهِ»(١).

وكذلك رؤيةُ أربابِ الدُّنيا ودورِهم وأحوالِهم، خصوصًا لِمَنْ له نفسٌ تَطْلُبُ الرِّفعةَ.

وكذا سماعُ الأغاني ومخالطةُ الصوفيةِ الذين لا نَظَرَ لهم اليومَ إلَّا في الرزقِ الحاصل، لو كانَ مِن أيِّ مكانٍ؛ قَبِلوهُ، ولا يتورَّعونَ أن يأخُذوا مِن ظالم، وليس عندَهم خوفٌ كما كانَ أوائِلُهم؛ فقد كانَ سَرِيٌّ السَّقْطِيُّ يبكي طولَ الليل وكان يبالِغُ في الورع، وهم ليسَ لهم وَرَعُ سَرِيٍّ ولا لهم تعبُّدُ الجُنَيْدِ(٢)، وإنَّما ثَمَّ أكلٌ ورقصٌ وبَطالةٌ وسماعُ أغانٍ من المردانِ، حتَّى قال بعضُ مَن يُعْتَبَرُ قولُه: حضرتُ مع رجل كبيرٍ يُومأ إليه من مشايخ الرُّبُطِ، ومغنيهم أمردُ، فقام الشيخُ ونقطهُ بدينارٍ على خدِّه(٣).

وادِّعاؤهم أنَّ سماعَ هٰذه الأشياءِ يدعو إلى الآخرةِ فوقَ الكَذِبِ!

وليس العجبُ منهم، إنما العجبُ مِن جُهَّال يَنْفُقُونَ عليهم فيُنْفِقونَ(٤) عليهم!

ولقد كان جماعةٌ من القدماءِ يرونَ أوائلَ الصوفيةِ يتعبَّدونَ ويتورَّعونَ،

= «إني رأيت على بابها سترًا موشيًّا». فقال: «ما لي وللدنيا؟!». فأتاها علي، فذكر ذٰلك لها، فقالت: يأمرني فيه بما شاء. قال: «ترسلي به إلى فلان»؛ أهل بيت فيهم حاجة.

(١) تقدم تخريجه في (فصل ٢٥٩).

(٢) تقدمت ترجمة سري السقطي والجنيد في (فصل ١٩ و٩٩).

(٣) يعني: كما يجري في حفلات المغنين والمغنيات والراقصات في هٰذه الأيام.

(٤) يعني: يروج عليهم كذبهم وخداعهم فيصرفون عليهم أموالهم.

فيعجبُهم حالُهم، وهم معذورونَ في إعجابهم بهم، وإن كانَ أكثرُ القومِ في تعبُّدِهم على غيرِ الجادَّةِ؛ كما ذكرتُ في كتابي المسمَّى بـ «تلبيس إبليس».

فأمَّا اليومَ؛ فقد بَرِحَ الخَفاءُ[1]؛ أحدُهم يتردَّدُ إلى الظَّلَمَةِ، ويأكلُ أموالَهم، ويصافِحُهم بقميص ليسَ فيه طِرازٌ! وهٰذا هو التصوُّفُ فحسبُ!!

أوَلا يستحيي مِن اللهِ مَنْ زَهِدَ رفيع الأثوابِ لأجل الخلائقِ لا لأجل الحقِّ ولا يزهدُ في مَطْعَم ولا في شبهةٍ؟!

فالبعدُ عن هٰؤلاءِ لازمٌ.

وينبغي للمنفردِ لطاعةِ اللهِ تعالى عن الخَلْق أن لا يَخْرُجَ إلى سوقٍ جَهْدَهُ؛ فإنْ خَرَجَ ضرورةً؛ غضَّ بصرَه، وأن لا يزورَ صاحبَ منصِبٍ ولا يلقاهُ؛ فإن اضْطُرَّ؛ دارَى الأمرَ، ولا يخالِطَ عاميًا إلَّا لضرورةٍ مع التحرُّزِ، ولا يفتحَ على نفسِهِ بابَ التزوُّج، بل يَقْنَعَ بامرأةٍ فيها دِينٌ؛ فقد قالَ الشاعرُ:

والمرءُ ما دامَ ذا عينٍ يُقَلِّبُها ... في أعيُنِ العِيْنِ مَوْقوفٌ على الخَطَرِ
يَسُرُّ مُقْلَتَهُ ما ضَرَّ مُهْجَتَهُ ... لا مَرْحَبًا بِسرورٍ عادَ بالضَّرَرِ

فإن كان يغلِبُ عليه العلمُ؛ انفردَ بدراستِهِ واحترزَ من الأتباعِ المتعلِّمينَ، وإن غلبتْ عليه العبادةُ؛ زادَ في احترازِه! ولْيَجْعَلْ خَلْوَتَهُ أنيسَه والنَّظَرَ في سِيَرِ السلفِ جليسَه! ولِيَكُنْ له وظيفةٌ من زيارةِ قبورِ الصالحينَ والخَلْوة بها[2]! ولا ينبغي أن يفوتَه وِرْدُ قيام الليل، ولْيَكُنْ بعدَ النصفِ

(١) يعني: بان المخفي وظهر المستور.

(٢) على أن تكون شرعية؛ للاعتبار بأحوال أهل المقابر من الصالحين وغيرهم، وتذكر أحوالهم، وما حل بهم، وما سيحل بالزائر. . . .

الأول؛ فَلْيُطِلْ مهما قَدَرَ؛ فإنَّه زمانٌ بعيدُ المِثْلِ! ولْيُمَثِّلْ رحيلَه عن قربٍ؛ لِيَقْصُرَ أملُه! وليتزوَّدَ في الطريقِ على قَدْرِ طول السفرِ!

نسـألُ اللهَ عزَّ وجلَّ يَقَظَةً من فضلِهِ، وإقبالاً على خِدْمتِهِ، وأن لا يَخْذِلَنا بالالتفاتِ عنه؛ إنَّه قريبٌ مجيبٌ.

٣١٣ ـ فصل

[نعم الله سبحانه وتعالى لا تُحصى عداً ولا شكراً]

كلَّما نظرتُ في تواصل النِّعَم عليَّ؛ تحيرتُ في شُكْرِها!

وأعلمُ أنَّ الشُّكْرَ من النعم؛ فكيفَ أشكُرُ؟! لٰكني معترفٌ بالتقصيرِ، وأرجو أنْ يكونَ اعترافي قائمًا ببعضِ الحقوقِ.

وعندي خَلَّةٌ[١] أرجو بها كلَّ خيرٍ، وهي أنَّ مَن يصومُ أو يصلِّي يرى أنه تَعَبَّدَ ويَخْدُمُ كأنَّه يقضي حقَّ المخدوم، وأنا أرى أنِّي إذا صليتُ ركعتينِ؛ فإنَّما قمتُ أُكْدي[٢]؛ فلنفسيَ أعملُ؛ إذِ المخدومُ غنيٌّ عن طاعتي[٣].

وكان بعضُ المشايخ يقولُ: جاء في الحديثِ: «الدُّعاءُ عبادةٌ»[٤]،

(١) الخَلَّة: الخصلة.

(٢) أكدي: أستجدي.

(٣) تقدم في (فصل ١٩) الكلام عما في استعمال لفظ (الخدمة) و(المخدوم) من الكراهة.

(٤) (صحيح). رواه: أحمد (٤ / ٢٦٧ و٢٧١ و٢٧٦)، وابن ماجه (٣٤ ـ كتاب الدعاء، ١ ـ باب فضل الدعاء، ٢ / ١٢٥٨ / ٣٨٢٨)، وأبو داوود (٢ ـ كتاب الصلاة، ٢٣ ـ باب الدعاء، ١ / ٤٦٦ / ١٤٧٩)، والترمذي (٤٨ ـ كتاب تفسير القرآن، ٤٢ ـ باب =

وأنا أقولُ: العبادةُ دعاءٌ[1].

فالعجبُ ممَّن يَقِفُ للخدمةِ يسألُ حظَّ نفسِهِ؛ كيفَ يرى أنَّه قد فعلَ شيئًا؟! إنَّما أنت في حاجتِكَ، ومِنَّةُ مَن أيقظَكَ لا تقاوِمُها خِدمتُك؛ فأنا أقولُ كما قالَ الأولُ:

يا مُنتهى الآمالِ أنْـ ـتَ كَفَلْتَني وَحَفِظْتَني
وعَدا الزَّمانُ عَلَيَّ كَيْ يَجْتاحَني فَمَنَعْتَني
فانْقادَ لي مُتَخَشِّعًا لَمَّا رآكَ نَصَرْتَني
وكَسَوْتَني ثَوْبَ الغِنى ومِنَ المُغالِبِ صُنْتَني
فإذا سَكَتُّ بَدَأْتَني وإذا سَأَلْتُ أَجَبْتَني
فإذا شَكَرْتُكَ زِدْتَني فَمَنَحْتَني وبَهَرْتَني
أوْ إنْ أجُدْ بالمالِ فَالْـ أمْوالُ أنتَ أفَدْتَني

٣١٤ـ فصل

[من قصد الخلق بعمله أعرض الحق عنه]

رأيتُ أكثرَ العلماءِ يتشاغَلونَ بصورةِ العلمِ؛ فَهَمُّ الفقيهِ التدريسُ،

= ومن سورة المؤمن، ٥ / ٣٧٤ / ٣٢٤٧)، والنسائي في التفسير من «الكبرى»؛ كما في «التحفة» (٩ / ٣٠)، وابن حبان (٣ / ١٧٢ / ٨٩٠)، والحاكم (١ / ٤٩٠)، والبغوي في «شرح السنة» (٥ / ١٨٤ / ١٣٨٤)؛ من طرق عن ذر، عن يسيع الحضرمي، عن النعمان بن بشير. . فذكره مرفوعًا بلفظ: «الدعاء هو العبادة».

قال الترمذي: «حسن صحيح». وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وقال البغوي: «لا يعرف إلا من حديث ذر»، وهو ثقة، وكذا يسيع الحضرمي، وصححه الألباني.

(١) ولا يصح هٰذا دائماً؛ فبعض العبادات لا يتنزل عليها معنى الدعاء إلا بالتكلف والتمحل؛ فما له غفر الله له يعارض قول من أوتي جوامع الكلم؟!

وهَمُّ الواعظِ الوعظ . . .

فهٰذا يرعى دَرْسَهُ، فيفرحُ بكَثرةِ مَن يسمعهُ، ويقدَحُ في كلام مَن يخالِفُه، ويمضي زمانهُ في التفكُّرِ في المناقضاتِ ؛ ليقهَرَ مَن يجادِلُه، وعينُه إلى التصدُّرِ والارتفاع في المجالسِ ، وربما كانت هِمَّته جمعُ الحطام ومخالطةُ السلاطين!

والواعظُ همَّتُه ما يُزَوِّقُ به كلامَه، ويُكَثِّرُ جمعَه، ويجلِبُ به قلوبَ الناسِ إلى تعظيمِهِ؛ فإن كانَ له نظيرٌ في شغلِهِ؛ أخذَ يَطْعُنُ فيه.

وهٰذه قلوبٌ غافلةٌ عن اللهِ عزَّ وجلَّ؛ إذ لو كانتْ لها به معرفةٌ؛ لاشتغلتْ به، وكان أنسُها بمناجاتِهِ، وإيثارُها لطاعاتِهِ، وإقبالُها على الخَلْوةِ به . . . لٰكنَّها لما خلتْ مِن هٰذا؛ تشاغلتْ بالدُّنيا، وذاك دُنيا مثلها؛ فإذا خلتْ بخدمةِ الله تعالى[1]؛ لم تجدْ لها طَعْمًا، وكان جمعُ الناسِ أحبَّ إليها، وزيارةُ الخلقِ لها آثَرَ عندَها . . . وهٰذه علامةُ الخِذلانِ.

وعلى ضدِّ هٰذا؛ متى كان العالِمُ مقبلًا على اللهِ سبحانَه، مشغولًا بطاعتِهِ؛ كانَ أصعبَ الأشياءِ عندَه لقاءُ الخَلْق ومحادثتُهم، وأحبَّ الأشياءِ إليهِ الخلوةُ، وكان عندَه شغلٌ عن القَدْح في النُّظَراءِ أو عن طَلَبِ الرياسةِ؛ فإنَّ ما عَلَّقَ به هِمَّتَهُ من الآخرةِ أعلى مِن ذٰلك.

والنفسُ لا بدَّ لها مما تشاغلُ به؛ فمَن اشتغل لخدمةِ الخَلْق[1] وأعرضَ عن الحقِّ؛ فإنَّما يربِّي رياسَتَهُ، وذٰلك يوجِبُ الإعراضَ عن الحقِّ، وما جَعَلَ اللهُ لرجل مِن قلبينِ في جَوْفِهِ.

---

(١) تقدم التعليق على مثل هٰذه اللفظة في (فصل ١٩).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

٣١٥ ـ فصل

[اللهم! أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه]

قد جاء في الأثرِ: اللهمَّ! أرِنا الأشياءَ كما هي!

وهٰذا كلامٌ حسنٌ غايةً، وأكثرُ الناس لا يَرَوْنَ الأشياءَ بعينِها؛ فإنهم يرونَ الفاني كأنَّه باقٍ، ولا يكادونَ يَتَخايلونَ زوالَ ما هُم فيه؛ وإن عَلِموا ذٰلك؛ إلَّا أنَّ عينَ الحِسِّ مشغولةٌ بالنظرِ إلى الحاضرِ.

ألا ترى زوالَ اللَّذَّةِ وبقاءَ إثمِها؟!

ولو رأى اللِّصُّ قَطْعَ يدِهِ؛ هانَ عندَه المسروقُ.

فمَن جَمَعَ الأموالَ، ولم يُنْفِقْها؛ فما رآها بعينِها؛ إذ هي آلةٌ لتحصيل الأغراضِ، لا تُرادُ لذاتِها.

ومَن رأى المعصيةَ بعيني الشهوةِ؛ فما رآها؛ إذ فيها من العيوبِ ما شئتَ، ثم ثمرتُها عقوبةٌ آجلةٌ وفضيحةٌ عاجلةٌ.

وانظرْ إلى أكبرِ شهواتِ الحسِّ، وهو الوطءُ!

فإنَّ الماءَ لا يحصُلُ إلَّا بعدَ مطعم ومشربٍ.

ومن تفكَّرَ في المطعم؛ نظر إلى حَرْثِ الأرضِ، وأنَّها تفتقرُ إلى بَقَرٍ للحراثةِ عليهنَّ بالمحراثِ، وهو حديدٌ ومعه خشبٌ ويتعلَّق به حبالٌ... فمَن تفكَّرَ في عمل الحبالِ؛ نَظَرَ في زرع القِنَّبِ وتسريحِهِ وفتلِهِ، والحديدِ وجلبِهِ وضربِهِ، والخشبِ ونباتِهِ ونجارتِهِ، ودورانِ الدولابِ وعملِهِ، ثم استحصادِ الزرع وحصدِهِ وتذريتِهِ وطحنِهِ وعجنِهِ وخبزِهِ، ومن عَمَلِ التنُّورِ

وجَلْبِ الشوكِ. . . ومن هٰذا الجنس إذا نَظَرَ فيه كَثُرَ جدًّا، حتى قالوا: لا تُنالُ لقمةٌ إلَّا وقد عمل فيها ثلاثُ مئةِ نفسٍ أو نحوِهم.

فإذا أكلَ تلكَ اللقمةَ؛ فلْيُفَكِّرْ في خَلْقِ الأسنان لِقَطْعِها، والأضراس لِطَحْنِها، وعذوبةِ ماءِ الفم لِخَلْطِها، واللسانِ لِيَقْلِبَها، وعضلاتِ الفم يصعدُ منها شيءٌ ويبقى شيءٌ حتى يَصْلُحَ البلعُ. . . ثم يتناولُها المَعْيُ، فيوصِلُها إلى الكبدِ، فيقومُ طابخًا لها؛ فإذا صارتْ دمًا؛ نفتْ رسوبَها إلى الطِّحال ومائيَّتَها إلى المثانةِ، واسْتَخْلَصَتْ من أخلص الدَّم وأصفاهُ للكبدِ والدماغ والقلبِ، وأخذتْ أجودَ ذٰلك فَحَدَرَتْهُ إلى الأنثيينِ معدًّا لِخَلْقِ آدميٍّ[1].

فإذا تحركتْ نيرانُ الشهوةِ؛ تدفَّقَتْ تلكَ النطفةُ. . . وقد حَكَمَ الشرعُ بطهارَتِها، وحَكَمَ لها بطهارةِ الرَّحِم والمَحَلِّ الذي يُباشِرُهُ الذَّكَرُ. . . فيُخْلَقُ منها الآدميُّ الموحِّدُ.

فما جاءَ هٰذا الشخصُ إلَّا بأغلى الغلاءِ، وبعد عجائِبَ أشَرْنا إليها، لا أنا عَدَدْناها!!

أفَمَن فَهِمَ هٰذا يَحْسُنُ منه أن يبدِّدَ تلكَ النطفةَ في حرام أو أن يَطَأ في محلٍّ نَجِسٍ فتضيعَ؟!

فكم يتعلَّقُ بالزِّنى من مِحَنٍ لا يفي معشارُ عُشْرِها بِلَذَّةِ لحظةٍ!

منها هَتْكُ العِرْضِ بين الناس، وكشفُ العوراتِ المحرَّمَةِ، وخيانةُ

---

(١) هٰذا الكلام جزء من النظرية الطبية اليونانية التي سادت في عصر ابن الجوزي، واعتنى بها أطباء عصره كثيرًا، ومعظم هٰذا الكلام صحيح طبيًّا، وبعضه لا وجه له، وليس هٰذا محل تفصيله.

الأخ المسلم في زوجتِهِ إن كانتْ متزوجةً، وفضيحةُ المزنيِّ بها وهي كأختٍ له أو بنتٍ... فإنْ عَلِقَتْ منه ولها زوجٌ؛ ألحقته بذلك الزوج، وكان هذا الزَّاني سببًا في ميراثِ مَن لا يستحقُّ ومَنْع مَن يستحقُّ... ثمَّ يَتَسَلْسَلُ ذلك من ولدٍ إلى ولدٍ.

وأما سَخَطُ الحقِّ سبحانَه؛ فمعلومٌ: قالَ تعالى: ﴿ولا تَقْرَبوا الزِّنى إنَّهُ كانَ فاحِشَةً وساءَ سَبيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال ﷺ: «ما من ذنبٍ بعدَ الشِّرْكِ أعظمُ عندَ اللهِ تعالى مِن نطفةٍ وَضَعَها رجلٌ في رحم لا تَحِلُّ له»(١).

ومَن له فَهْمٌ؛ يَعْلَمُ أنَّ المرادَ من النُّطْفَةِ إيجادُ الموحِّدينَ.

ولولا تركيبُ الشهوةِ؛ لم يقع الوطءُ؛ لأنَّه التقاءُ عضوين غير مُسْتَحْسَنَيْنِ، ولا صورتُهما حسنةٌ، ولا ريحُهما طيِّبٌ... وإنَّما الشهوةُ تغطِّي عينَ الناظرِ؛ ليحصُلَ الولدُ أصلاً؛ فهي عارضٌ.

فَمَنْ طَلَبَ الشهوةَ، ونَسِيَ جنايته بالزِّنى؛ فما رأى الأشياءَ على ما هي.

وقِسْ على هذا المطعمَ والمشربَ وجمعَ المال... وغيرَ ذلك.

---

(١) (مرسل ضعيف). عزاه ابن كثير في «التفسير» (٣ / ٣٨ / الإسراء ٣٢) لابن أبي الدنيا، والسيوطي في «الدر المنثور» (٤ / ٣٢٥ / الإسراء ٣٢) لأحمد وابن أبي الدنيا، ومن طريق ابن أبي الدنيا رواه ابن الجوزي في «ذم الهوى» (ص١٩٠) من طريق عمار بن نصر، ثنا بقية، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن الهيثم بن مالك الطائي؛ مرفوعًا.
وهذا سند مرسل ضعيف كما أفاد الألباني في «الضعيفة» (٤ / ٨٢ / ١٥٨٠).

٣١٦ ـ فصل

[إنا كل شيء خلقناه بقدر]

إنْ قالَ قائلٌ: أيُّ فائدةٍ في خَلْق ما يؤذي[١]؟!

فالجوابُ: أنـه قد ثَبَتَتْ حِكْمَةُ الخالق؛ فإذا خَفِيَتْ في بعض الأمورِ؛ وَجَبَ التسليمُ.

ثم إنَّ المستحسناتِ في الجملةِ أُنموذَجُ ما أُعِدَّ من الثَّوابِ، والمؤذياتِ أُنموذَجُ ما أُعِدَّ من العقابِ.

وما خُلِقَ شيءٌ يَضُرُّ؛ إلَّا وفيه منفعةٌ.

قيلَ لبعض الأطبَّاءِ: إنَّ فلانًا يقولُ: أنا كالعقربِ أضرُّ ولا أنفعُ؟ فقالَ: ما أقلَّ علمَه! إنها لَتَنْفَعُ إذا شُقَّ بَطْنُها ثم شُدَّ على موضِع اللَّسعةِ. وقد توضَعُ في جَوْفِ فخارٍ مسدودِ الرأس مُطْبَقِ الجوانبِ، ثم يوضَعُ الفخارُ في تنُورٍ؛ فإذا صارتْ رمادًا؛ سُقِيَ مِن ذٰلك الرمادِ مقدارُ نصفِ دانِقٍ[٢] أو أكثرُ مَنْ بهِ الحصاةُ، فيفتِّتُها مِن غيرِ أن يَضُرَّ بشيءٍ من سائرِ الأعضاء! وقد تلسعُ العقربُ مَن به حُمَّى عتيقةٌ فتزولُ. ولَسَعَتْ رجلًا مفلوجًا فزالَ عنه الفالجُ. وقد تُلقى في الدُّهْنِ حتى يجتذِبَ قُواها فيزيلُ ذٰلك الدُّهنُ الأورامَ الغليظةَ... ومثل هٰذا كثيرٌ.

فالجاهلُ عدوٌّ لما جَهِلَهُ، وأكبرُ الحماقةِ ردُّ الجاهل على العالم.

---

(١) لو لم يكن في خلق المؤذيات إلا أنها جزء من هٰذا النظام الكوني المتناسق المتوازن المتناغم الذي حارت بدقته العقول؛ لكفى.

(٢) الدانق: سدس الدرهم، وحدة وزن كانت سائدة في عصر المصنف.

٣١٧ ـ فصل
[على قدر معرفتك بالله يكون حبك له]

كلَّما أوْغَلَتِ الفهومُ في معرفةِ الخالق، فشاهدتْ عظمتَهُ ولطفَهُ ورِفعتَهُ؛ تاهت في محبَّتِهِ، فخرجتْ عن حدِّ الثُّبوتِ.

وقد كان خَلْقٌ من الناس غلبتْ عليهم محبَّتُهُ، فلم يقدِروا على مخالطةِ الخلق، ومنهُم مَن لم يقدِرْ على السكوتِ عن الذِّكْرِ، وفيهم مَن لم يَنَمْ إلَّا غَلَبَةً، وفيهم مَن هامَ في البراري، وفيهم مَن احترقَ في بدنِهِ... فيا حُسْنَ مخمورِهِم ما ألذَّ سُكْرَهُ! ويا عيشَ قَلِقِهِمْ ما أحسنَ وَجْدَهُ[١]!

كان أبو عُبيدةَ الخوَّاصُ قد غَلَبَهُ الوَجْدُ، فكان يمشي في الأسواقِ يقولُ: وا شوقاه إلى مَنْ يراني ولا أراه[٢].

وكان فتحُ بن شخرفَ يقولُ: قَدْ طالَ شَوْقي إليكَ؛ فعجِّلْ قُدومي عليكَ[٣].

وكان قيسُ بنُ الربيع كأنَّه مخمورٌ من غيرِ شرابٍ[٤].

---

(١) لا والله؛ بل ما أحسن محبة الأنبياء والصديقين والصحابة والتابعين لربهم! وما أحسن اتباعهم ولزوم هديهم!

(٢) هو عباد بن عباد. انظر ترجمته في «الحلية» (٨ / ٢٨١ ـ ٢٨٢).

(٣) الفتح بن شخرف، أبو نصر الخراساني المروزي، أحد العابدين، توفي سنة ٢٧٣هـ. انظر ترجمته في «تاريخ بغداد» (١٢ / ٣٨٤).

(٤) قيس بن الربيع، أبو محمد الأسدي الكوفي، أحد أوعية العلم، ولد في حدود ٩٠هـ، وتوفي سنة ١٦٧هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» ٨ / ٤١)، و«تهذيب التهذيب» (٨ / ٣٩١).

وكان ابنُ عَقيل يقولُ: إنَّ التَّبَذُّلَ فيه سبحانَه أحسنُ من التجمُّل في غيرِه[١].

هل رأيتَ قطُّ عُراةً أحسنَ مِن المُحْــرِمينَ؟! هل رأيتَ للمتـزيِّنين برياشِ الدُّنيا سَمْتًا كأثوابِ الصالحينَ؟! هل رأيتَ خِمارًا أحسنَ مِن نُعاسِ المتهجِّدين؟! هل رأيتَ سُكْرًا أحسنَ من صَعَقِ الواجِدينَ؟! هل شاهدتَ ماءً صافيًا أصفى من دُموعِ المتأسِّفينَ؟! هل رأيتَ رؤوسًا مائلةً كرؤوسِ المنكسِرينَ؟! هل لَصِقَ بالأرضِ شيءٌ أحسنُ من جِباهِ المصلِّينَ؟! هل حَرَّكَ نسيمُ الأسحار أوراقَ الأشجارِ فَبَلَغَ مبلغَ تحريكِهِ أذيالَ المتهجِّدين؟! هل ارتفعتْ أكفٌّ وانبسطتْ أيدٍ فضاهتْ أكفَّ الرَّاغبينَ؟! هل حَرَّكَ القلوبَ صوتُ تَرْجيع لَحْنٍ أو رَنَّةُ وَتَرٍ كما حَرَّكَ حنينُ المشتاقينَ؟!

وإنَّمـا يَحْسُنُ التبذُّل في تحصيل أوفى الأغراضِ؛ فلذلك حَسُنَ التبذُّلُ في خدمةِ المنعِم.

٣١٨ ـ فـصـل
[في سبب فساد أولي الأمر وضلالهم]

أكثرُهُم لا يعرِفُ الدِّينَ ولا يتأدَّبُ بآدابِهِ بِمَرَّةٍ...

يتَّفِقُ له قلةُ العقل في أصل الوَضْع، ثم ذُلك القليل لا يُعاوَنُ، بل يُعانُ عليهِ... وذاكَ أنَّ الجارِحَةَ إذا دام تعطُّلُها عن عملِها الذي هُيِّئَتْ له؛

(١) تقدمت ترجمة ابن عقيل في (فصل ٣١). ومعنى الكلام أن ثوب الصلاح وكسوة العبودية أحسن وأبهى من كل ثوب وكسوة.

تَعَطَّلَتْ وخَمَدَتْ، ولهٰذا تَنْقُصُ أبْصارُ النُّساخ والرَّفائينَ[١]، وتحتدُّ أبصارُ أهل البوادي؛ لأنه لا صادَّ لأبصارِهم[٢].

وشُغْلُ العقل التفكُّرُ والنظرُ في عواقبِ الأحوال والاستدلالُ بالشاهِدِ على الغائبِ...

وهٰؤلاء يمتلئونَ من الطعام دائمًا، وذٰلك يؤذي العقلَ... ثم يُطيلونَ النومَ؛ فإذا انْتَبَهوا؛ شَرِبوا المسكِرَ... فاتَّفَقَ للعقل تعطيلٌ وتغطيةٌ، فساءَ التدبيرُ.

٣١٩ ـ فصل

[حدثوا الناس بما تبلغه عقولهم]

من المخاطراتِ العظيمةِ تحديثُ العوامِّ بما لا تحتمِلُهُ قلوبُهم أو بما قدْ رَسَخَ في نفوسِهم ضدُّه.

مثالُه: أنَّ قومًا قد رَسَخَ في قلوبِهِمُ التشبيهُ، وأنَّ ذاتَ الخالق سبحانَه ملاصقةٌ للعرش! وهي بِقَدْرِ العرشِ ويفضُلُ من العرشِ أربعُ أصابعَ! وسمعوا مثلَ هٰذا مِن أشياخِهِم، وثَبَتَ عندَهم أنَّه إذا نَزَلَ وانتقلَ إلى السماءِ الدُّنيا فَخَلَتْ منه ستُّ سماواتٍ!! فإذا دُعِيَ أحدُهم إلى التنزيهِ، وقيلَ له: ليس كما خَطَرَ لكَ، إنما ينبغي أن تُمَرَّ الأحاديثُ كما جاءتْ؛ من غيرِ مساكنةِ ما توهَّمْتَهُ؛ صَعُبَ هٰذا عليه لوجهينِ:

---

(١) الرفاء: الذي يرقع الأثواب البالية.

(٢) وهٰذا غير صحيح طبيًّا؛ فإن أبصار النساخ والرفائين إنما ضعفت كللاً من طول العمل لا من قلته!!

أحدُهما: لِغَلَبَةِ الحسِّ عليه، والحسُّ على العوامِّ أغلبُ.

والثاني: لما قد سَمِعَهُ من ذٰلك من الأشياخ الذينَ كانوا أجهلَ منه.

فالمخاطِبُ لهٰذا مخاطِرٌ بنفسِهِ.

ولقد بلغني عن بعض مَن كانَ يَتَدَيَّنُ ممَّن قد رَسَخَ في قلبِهِ التشبيهُ أنَّه سَمِعَ من بعضِ العلماءِ شيئًا من التنزيهِ، فقالَ: واللهِ؛ لو قدرتُ عليهِ؛ لقتلتُه.

فاللهَ اللهَ أنْ تُحَدِّثَ مخلوقًا مِن العوامِّ بما لا يحتمِلُه دونَ احتيالٍ وتلطُّفٍ؛ فإنَّه لا يزولُ ما في نفسِهِ، ويخاطِرُ المحدِّثُ له بنفسِهِ[1].

فكذٰلك كلُّ ما يتعلَّقُ بالأصول.

٣٢٠ـ فصل

[الموفق من يراعي حدود الله ويخلص العمل له]

لا يَغُرَّكَ مِن الرجل طنطنتُهُ وما تراهُ يفعلُ من صلاةٍ وصوم وصدقةٍ وعزلةٍ! إنَّما الرجلُ هو الذي يراعي شيئين: حفظِ الحُدودِ، وإخلاصِ العمل.

فكم قد رأينا متعبِّدًا يَخْرِقُ الحدودَ بالغِيبةِ وفعل ما لا يجوزُ مما يوافِقُ هواه!

وكم قدِ اعتبرْنا على صاحبِ دِينٍ أنَّه يَقْصِدُ بفعلِهِ غيرَ اللهِ تعالى!

---

(١) انظر ما قدمناه عن هٰذه المسألة بالذات في الفصل الذي أفردناه لعقيدة ابن الجوزي في مقدمة الكتاب.

وهٰذه الآفة تزيدُ وتنْقُصُ في الخلقِ.

فالرجلُ كلُّ الرجل هو الذي يراعي حدودَ اللهِ، وهي ما فُرِضَ عليه وأُلزِمَ به، ولا يتعدَّاها إلى هواهُ، ويُحْسِنُ القصدَ، فيكونُ عملُه وقولُه خالصًا للهِ تعالى، لا يريدُ به الخلقَ ولا تعظيمَهم له.

فربَّ خاشعٍ ليقالَ: ناسكٌ! وصامتٍ ليقالَ: خائفٌ! وتاركٍ للدُّنيا لِيُقالَ: زاهدٌ!

وعلامةُ المخلصِ أن يكونَ في جلوتِهِ كخلوتِهِ، وربَّما تكلَّفَ بين النـاسِ التبسُّمَ والانبساطَ لِيَنْمَحِيَ عنه اسمُ الزاهدِ؛ فقد كانَ ابنُ سيرينَ يَضْحَكُ بالنهارِ؛ فإذا جُنَّ الليلُ؛ فكأنه قَتَلَ أهلَ القريةِ[١].

واعلم أنَّ المعمـولَ معـه[٢] لا يريدُ الشُّـركاءَ؛ فالمخلصُ مفردٌ له بالقصدِ، والمرائي قد أشركَ لِيَحْصُلَ له مدحُ الناسِ، وذٰلك ينقلِبُ؛ لأنَّ قلوبَهم بيدِ من أشركَ معه؛ فهو يقلِّبها عليه لا إليه.

فالموفَّق من كانت معاملتُهُ باطنةً وأعمالُهُ خالصةً، وذاكَ الذي تحبُّه الناسُ وإنْ لم يُبالِهِم؛ كما يمقُتونَ المرائيَ وإنْ زادَ تعبُّدُه.

ثم إنَّ الرجلَ الموصوفَ بهٰذه الخصال لا يَتناهى عن كمال العلوم، ولا يُقَصِّرُ عن طَلَبِ الفضائلِ؛ فَمَلأَ الزمانَ أكثرَ ما يسعُهُ من الخيرِ، وقلبُهُ لا يفتُرُ عن العملِ القلبيِّ، إلى أن يصيرَ شُغْلُهُ بالحقِّ سبحانَه وتعالى.

---

(١) تقدمت ترجمة ابن سيرين وخبره هٰذا في (فصل ١٨ و٣٦).
(٢) يعني: الله عز وجل! وليس بالمستساغ.

٣٢١ـ فصل

[حب المظاهر حتى زيارة المقابر]

رأيتُ خَلْقًا يفرِّطونَ في أديانِهِم ثم يقولونَ: احْمِلونا إذا مِتْنا إلى مقبرةِ أحمدَ!!

أتُراهم ما سمِعوا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ امتنعَ من الصَّلاةِ على مَن عليهِ دَيْنٌ[١] وعلى الغَالِّ وقالَ: «ما يَنْفَعُهُ صلاتي عليه»[٢].

ولقد رأيتُ أقوامًا من العلماءِ حَمَلَهُم حبُّ الصِّيتِ على أنِ استخرجوا إذنًا مِن السلطانِ، فدُفِنوا في دَكَّةِ أحمدَ بن حنبل، وهم يعلمونَ أنَّ هناك خلقاً رُفاتُ بعضِهم على بعضٍ، وما فيهِم إلَّا مَن يعلمُ أنَّه ما يستحقُّ القربَ من مثل ذٰلك!

فأينَ احتقارُ النفوسِ؟!

---

(١) رواه البخاري (٣٨ ـ كتاب الحوالة، ٣ ـ باب من أحال دين الميت على رجل جاز، ٤ / ٤٦٦ / ٢٢٨٩)؛ من حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.

(٢) (**ضعيف**). رواه: ابن ماجه (٢٤ ـ كتاب الجهاد، ٣٤ ـ باب الغلول، ٢ / ٩٥٠ / ٢٨٤٨)، وأبو داوود (٩ ـ كتاب الجهاد، ١٣٣ ـ باب في تعظيم الغلول، ٢ / ٧٥ / ٢٧١٠)، والنسائي (٢١ ـ كتاب الجنائز، ٦٦ ـ باب الصلاة على من غل، ٤ / ٦٦ / ١٩٥٨)؛ من طرق عن أبي عمرة عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

وأبو عمرة في عداد المجهولين؛ قال الذهبي في «الميزان»: «ما روى عنه سوى محمد بن يحيى بن حبان». وضعفه الألباني.

وأما زيادة: «ما ينفعه صلاتي عليه»؛ فلم أجدها في شيء من طرق هٰذا الحديث ولا في غيرها. والله أعلم.

أما سمِعوا أنَّ عمرَ بنَ عبد العزيزِ قيلَ له: تُدْفَنُ في الحجرةِ[١]؟! فقالَ: لأنْ ألقى اللهَ بكلِّ ذنبٍ ما خلا الشركَ أحبُّ إليَّ من أرى نفسي أهلاً لذٰلك[٢]؟!

لٰكنَّ العاداتِ وحبَّ الرياسةِ غلبتْ على هٰؤلاءِ، فَبَقِيَ العلمُ يجري على الألسنِ عادةً لا للعمل به.

ثم آلَ الأمرُ إلى جماعةٍ خالَطوا السلاطينَ وباشَروا الظُّلم، يزاحمونَ على الدفنِ بمقبرةِ أحمدَ ويوصونَ بذٰلك!!

فليتهم أوْصَوا بالدَّفْنِ في موضعٍ فارغ، إنما يُدْفَنونَ على موتى، ويُخْرَجُ عظامُ أولٰئك، فيَجْرونَ[٣] على ما ألِفوا من الظُّلم حتى في موتِهم، ويَنْسَوْنَ أنَّهم كانوا مِن أعوانِ الظَّلَمةِ.

أتُرى ما عَلِموا أنَّ مساعدَ الظَّالم ظالمٌ؟!

وفي الحديثِ: «كفى بالمرءِ خيانةً أن يكونَ أمينًا للخَوَنَةِ»[٤].

قال السجَّانُ لأحمدَ بن حنبل: هل أنا مِن أعوانِ الظَّلَمةِ؟ فقالَ: لا؛ أنتَ مِن الظَّلَمةِ، إنَّما أعوانُ الظَّلَمةِ مَن أعانَكَ في أمرٍ.

---

(١) يعني: حجرة عائشة رضي الله عنها التي دفن فيها النبي ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه: ابن سعد في «الطبقات» (٥/ ٢٠٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٣٥).

(٣) في الأصول: «فيحشرون»، والأولى ما أثبتناه، والله أعلم.

(٤) لم أجده.

٣٢٢ ـ فصل

[في صفة الحسد المذموم]

رأيتُ الناسَ يذمُّونَ الحاسدَ، ويبالِغونَ، ويقولونَ: لا يَحْسُدُ إلَّا شريرٌ؛ يُعادي نعمةَ اللهِ، ولا يَرْضى بقضائِهِ، ويبخَلُ على أخيهِ المسلم.

فنظرتُ في هٰذا؛ فما رأيتُهُ كما يقولونَ.

وذاكَ أنَّ الإنسانَ لا يحبُّ أن يَرْتَفِعَ عليه أحدٌ؛ فإذا رأى صديقَهُ قد عَلا عليه؛ تأثَّرَ هو، ولم يُحِبَّ أنْ يَرْتَفِعَ عليه، وودَّ لو لم يَنَلْ صديقُه ما ينالُ، أو أنْ ينالَ هُو ما نالَ ذاك؛ لئلَّا يرتفعَ عليه.

وهٰذا معجونٌ في الطِّينِ، ولا لومَ على ذٰلك، إنَّما اللومُ أنْ يَعْمَلَ بمقتضاهُ مِن قول أو فِعْل.

وكنتُ أظنُّ أنَّ هٰذا قد وَقَعَ لي عن درسي وفحصي، فرأيتُ الحديثَ عنِ الحسنِ البصريِّ قد سَبَقَني إليه؛ قالَ: أخبرنا عبدُ الخالقِ بنُ عبدِ الصَّمدِ؛ قال: أخبرنا ابن النَّقُّور؛ قال: أخبرنا المخلِّصُ؛ قالَ: حدَّثنا البغويُّ؛ قالَ: حدَّثنا أبو رَوْح؛ قال: حدثنا مَخْلَدُ بن الحسين، عن هشام، عن الحسن؛ قالَ: ليسَ مِن وَلَدِ آدمَ أحدٌ إلَّا وقد خُلِقَ معه الحسدُ؛ فمَن لم يجاوِزْ ذٰلك بقول ولا بفعل؛ لم يَتْبَعْهُ شيءٌ.

٣٢٣ ـ فصل

[كثرة النساء شتات للقلب وداء للبدن]

مِن أعظم الضَّرَرِ الداخل على الإنسانِ كَثْرَةُ النساءِ.

إنَّه أولاً يَتَشَتَّتُ همُّه في محبَّتهنَّ ومداراتهنَّ وغيرتهنَّ والإنفاقِ عليهنَّ.

ولا يأمنُ إحداهُنَّ أن تكرَهَهُ وتريدَ غيرَهُ؛ فلا تتخلَّص إلَّا بقتلِهِ!

ولو سَلِمَ مِن جميع ذٰلك؛ لم يسلمْ في الكسبِ لهنَّ.

فإنْ سَلِمَ؛ لم يَنْجُ من السآمةِ لهنَّ أو لبعضهنَّ، ثم يَطْلُبُ ما لا يَقْدِرُ عليه من غيرهنَّ، حتى إنَّه لو قَدَرَ على نساءِ بغدادَ كلِّهِنَّ، فقَدِمَتِ امرأةٌ مستترةٌ من غيرِ البلدِ؛ ظَنَّ أنَّه يَجِدُ عندَها ما ليس عندهنَّ! ولَعَمْري؛ إنَّ في الجِدَّةِ لَذَّةً، ولٰكنْ؛ رُبَّ مستورٍ إذا انكشفَ افْتُضِحَ.

ولو أنَّه سَلِمَ مِن كلِّ أذىً يتعلَّقُ بهنَّ؛ أنْهَكَ بَدَنَهُ في الجماع، فيكونُ طَلَبُهُ للالتذاذِ مانعًا مِن دوام الالتذاذِ، ورُبَّ لقمةٍ منعتْ لُقُماتٍ! وربَّ لَذَّةٍ كانتْ سببًا في انقطاع لَذَّاتٍ!!

والعاقلُ مَن يقتصِرُ على الواحدةِ إذا وافقتْ غَرَضَهُ، ولا بدَّ أن يكونَ فيها شيءٌ لا يوافقُ، إنَّما العملُ على الغالبِ، فتوهَبُ الخَلَّةُ الرديَّةُ للمجيدةِ.

وينبغي أن يكونَ النَّظَرُ إلى بابِ الدِّين قبل النظرِ إلى الحُسْنِ؛ فإنَّه إذا قَلَّ الدِّينُ؛ لم ينتفعْ ذو مروءةٍ بتلكَ المرأةِ.

ومما يُهْلِكُ الشيخَ سريعًا الجماعُ؛ فلا يَغْتَرّ بما يرى من انبساطِ الآلةِ وحُصول الشهوةِ، فإنَّ ذٰلك مستخرِجٌ من قوَّتِهِ ما لا يعودُ مثلُه؛ فلا ينبغي أنْ يَغْتَرَّ بحركةٍ وشهوةٍ، ولا يَقْرُبَ من النساءِ؛ إن كان له رأيٌ في البقاءِ.

٣٢٤ ـ فصل

[لا يحمل هذا الدين إلا العقلاء]

إذا رأيتَ قليلَ العقل في أصل الوَضْع؛ فلا تَرْجُ خيرَهُ!

فأمّا إنْ كانَ وافرَ العقل، لكنَّه يَغْلِبُ عليه الهوى؛ فارْجُه!

وعلامةُ ذلك أنَّه يدبِّرُ أمرَهُ في جهلِهِ؛ فَيَسْتَتِرُ من الناس إذا أتى فاحشةً، ويراقِبُ في بعضِ الأحوال، ويبكي عندَ الموعظةِ، ويحترِمُ أهلَ الدِّينِ... فهذا عاقلٌ مغلوبٌ بالهوى؛ فإذا انْتَبَهَ بالندم؛ خَنَسَ شيطانُ الهوى، وجاءَ مَلَكُ العقل.

فأمّا إذا كان قليلَ العقلِ في الوضع ـ وعلامتُه أنْ لا يَنْظُرَ في عاقبةٍ عاجلةٍ ولا آجلةٍ، ولا يستحيَ من الناس أن يَرَوْهُ على فاحشةٍ، ولا يُدَبِّرَ أمرَ دُنياه... ـ؛ فذاك بعيدُ الرَّجاءِ، وقد يَنْدُرُ مِن هؤلاءِ مَن يُفْلِحُ، ويكونُ السببُ فيه[1] خميرةً من العقل غَطّى عليها الهوى ثم تَكَشَّفَ قليلاً ليعودَ؛ فَمَثَلُهُم كَمَثَل مصروع أفاقَ.

٣٢٥ ـ فصل

[النظر في العواقب شأن العقلاء]

ينبغي الاحترازُ من كلِّ ما يجوزُ أنْ يكونَ، ولا ينبغي أنْ يُقالَ: الغالبُ السلامةُ.

وقد رأيْنا مَن نَزَلَ مع الخيل في سفينةٍ، فاضطَرَبَتْ، فغرِقَ مَنْ في

---

(١) يعني: في فلاحه.

السفينةِ، وإنْ كان الغالبُ في هٰذه الحالةِ السلامةَ.

وكـان ينبغي أن يَقْدِرَ(١) الإنسانُ في نَفَقَتِهِ، وإن رأى الدُّنيا مقبلةً؛ لجوازِ أن تَنْقَطِعَ تلك الدُّنيا، وحاجةُ النفس لا بدَّ مِن قضائِها؛ فإذا بَذَّرَ وقت السَّعَةِ، فجاءَ وقتُ الضيقِ؛ لم يأمنْ أنْ يدخُلَ في مداخلِ سَوْءٍ وأن يَتَعَرَّضَ بالطلبِ من الناسِ.

وكذٰلك ينبغي للمعافَى أن يُعِدَّ للمرضِ، وللقويِّ أن يَتَهَيَّأَ للهرم...

وفي الجملةِ؛ فالنظرُ في العواقبِ وفيما يجوزُ أنْ يَقَعَ شأنُ العقلاءِ.

فأما النظرُ في الحالةِ الراهنةِ فحسبُ؛ فحالةُ الجَهَلَةِ الحمقى؛ مثلُ أن يرى نفسَه مُعافىً وينسى المرضَ، أو غنيًّا وينسى الفقْرَ، أو يرى لَذَّةً عاجلةً وينسى ما تجني عواقِبُها...

وليس للعقل شُغْلٌ إلَّا النَّظَرَ في العواقبِ، وهو يُشيرُ بالصوابِ من أينَ يُقْبِلُ.

٣٢٦ ـ فصل

[لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل إجابة الدعاء]

يَبِينُ إيمانُ المؤمنِ عندَ الابتلاءِ؛ فهو يبالغُ في الدُّعاءِ، ولا يرى أثرًا للإجـابةِ، ولا يتغيَّرُ أملُه ورجاؤه ولو قويتْ أسبابُ اليأس؛ لعلمِهِ أنَّ الحقَّ أعلمُ بالمصالح، أو لأنَّ المرادَ منه الصبرُ أو الإيمانُ؛ فإنَّه لم يَحْكُمْ عليه

(١) يقْدِر: يقتصد.

بذلك إلَّا وهو يريدُ من القلبِ التسليمَ؛ لينظُرَ كيفَ صبرُهُ، أو يريدُ كَثْرَةَ اللجإِ والدُّعاءِ.

فأمّا مَن يريدُ تعجيلَ الإجابةِ ويَتَذَمَّرُ إنْ لم تَتَعَجَّلْ؛ فذاكَ ضعيفُ الإيمانِ، يرى أنَّ له حقًّا في الإجابةِ، وكأنه يَتَقاضى أُجْرَةَ عملِهِ.

أما سمعتَ قصةَ يعقوبَ عليه السلامُ؛ بَقِيَ ثمانينَ سنةً في البلاءِ ورجاؤه لا يتغيَّرُ، فلما ضُمَّ إلى فَقْدِ يوسُفَ فَقْدُ بنيامينَ؛ لم يتغيَّر أملُه، وقال: ﴿عَسَى اللهُ أنْ يَأتِيَنِي بِهِمْ جَميعًا﴾ [يوسف: ٨٣][1]؟

وقد كَشَفَ هٰذا المعنى قولُه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلوا الْجَنَّةَ ولَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذينَ خَلَوا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأساءُ والضَّرَّاءُ وزُلْزِلوا حَتَّى يَقولَ الرَّسولُ والَّذينَ آمَنوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللهِ ألا إنَّ نَصْرَ اللهِ قريبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

ومعلومٌ أنَّ هٰذا لا يَصْدُرُ من الرسول والمؤمنينَ إلَّا بعدَ طول البلاءِ وقُرْبِ اليأس مِن الفَرَج.

ومن هٰذا قولُ رسول اللهِ ﷺ: «لا يزالُ العبدُ بخيرٍ ما لَمْ يَسْتَعْجِلْ». قيلَ لهُ: وما يَسْتَعْجِلُ؟ قالَ: «يقولُ: دَعَوْتُ فلم يُسْتَجَبْ لي»[2].

فإيَّاك إيَّاك أن تستطيلَ زمانَ البلاءِ، وتَضْجَرَ مِن كَثْرَةِ الدُّعاءِ؛ فإنَّك مبتلىً بالبلاءِ، متعبَّدٌ بالصَّبرِ والدُّعاءِ، ولا تيأَسْ مِن رَوْحِ اللهِ وإنْ طال البلاءُ.

(١) تقدم ذكر هٰذا وتخريجه في (فصل ١٣٦).
(٢) تقدم تخريجه في (فصل ٣٨).

٣٢٧ ـ فـصـل

[لا تغرنك شهوات الدنيا؛ فإنها متاع قليل]

تذكـرتُ في سببِ دُخـول جهنَّمَ؛ فإذا هو المعاصي، فنظرتُ في المعـاصي؛ فإذا هي حاصلةٌ من طَلَبِ اللَّذَّاتِ، فنظرتُ في اللَّذَّاتِ، فرأيتُهـا خِدَعًـا ليست بشيءٍ، وفي ضمنِها من الأكدارِ ما يصيِّرُها نَغَصًا، فتخرجُ عن كونِها لذَّاتٍ؛ فكيفَ يَتْبَعُ العاقلُ نفسَه ويَرْضى بِجَهنَّمَ لأجل هٰذه الأكدارِ؟!

فمِن اللَّذَّاتِ الـزِّنى؛ فإن كانَ المـرادُ إراقـةَ المـاءِ؛ فقدْ يُراقُ في حلال، وإن كانَ في معشوقٍ؛ فمُرادُ النفس دوامُ البقاءِ مع المعشوقِ؛ فإذا هي مَلَكَتْهُ؛ فالمملوكُ مملولٌ، وإن هُو قارَبَهُ ساعةً ثم فارَقَهُ؛ فحسرةُ الفراقِ تَرْبـو على لَذَّةِ القُـرْبِ، وإنْ كان وُلِـدَ له مِن الزِّنى؛ فالفضيحةُ الدائمةُ والعقوبةُ التامَّةُ وتنكيسُ الرأس عندَ الخالقِ والمخلوقِ. . . وأمّا الجاهلُ؛ فيرى لَذَّتَهُ في بلوغِ ذٰلك الغَرَضِ، ويَنسى ما يجني مما يُكَدِّرُ عيشَ الدُّنيا والآخرةِ.

ومن ذٰلك شُرْبُ الخمرِ؛ فإنَّه تنجيسٌ للفم والثَّوْبِ، وإبعادٌ للعقلِ، وتأثيراتُهُ معلومةٌ عندَ الخالقِ والمخلوقِ؛ فالعجبُ ممَّن يُؤْثِرُ لَذَّةَ ساعةٍ تَجْني عِقابًا وذَهابَ جاهٍ! وربَّما خَرَجَ بالعربدةِ إلى القتلِ!!

وعلى هٰذا فَقِسْ جميعَ المَـذوقـاتِ؛ فإن لَذَّاتِهـا إذا وُزِنَتْ بميزانِ العقلِ لا تفي بمعشارِ عُشَيْرِ عواقِبِها القِباحِ في الدُّنيا والآخرةِ، ثم هي نفسُها ليستْ بكثيرِ شيءٍ . . .

فكيفَ تُباعُ الآخرةُ بمثل هٰذا؟!

سبحـانَ مَنْ أنعمَ على أقوام، كلَّما لاحَتْ لهم لَذَّةٌ؛ نَصَبوا ميزانَ العقـل، ونَـظَروا فيما يَجْني، وتَلَمَّحوا ما يُؤَثِّرُ تركُها، فرجَّحوا الأصلحَ! وطَمَسَ على قلوبٍ؛ فهي ترى صورةَ الشيءِ، وتنسى جِناياتِهِ!!

ثم العجبُ أنَّا نرى مَن يَبْعُدُ عن زوجتِهِ وهو شابٌّ لِيَعْدُوَ في الطريق فيُقالَ: ساعٍ! فيغلبُ هواه لِطَلَبِ ما هو أعلى، وهو المدحُ؛ كيفَ لا يَتْرُكُ مُحَرَّمًا لِيُمْدَحَ في الدُّنيا والأخرى؟!

ثم قدِّرْ حصولَ ما طلبتَ من اللَّذَّاتِ وذَهابها، واحسبْ أنَّها قد كانتْ وقد هانتْ وتخلَّصْتَ مِن محنِها؛ أين أنتَ من غيرِكَ؟! أينَ تَعَبُ عالم قد دَرَسَ العلم خمسينَ سنةً؟! ذَهَبَ التعبُ وحَصَلَ العلمُ. وأينَ لَذَّةُ البَطَّال؟! ذهبتِ الراحةُ وأعقبتِ النَّدَمَ.

٣٢٨ ـ فصل

[في اتباع العقل السلامة وفي اتباع الشهوات الندامة]

مَن وَقَفَ على موجَبِ الحسِّ؛ هلك، ومَن تَبِعَ العقلَ؛ سَلِمَ:

لأنَّ مجردَ الحسِّ لا يرى إلَّا الحاضرَ، وهو الدُّنيا.

وأما العقلُ؛ فإنه ينظرُ إلى المخلوقاتِ، فيعلمُ وجودَ خالقٍ قد مَنَحَ، وأباحَ، وأطلقَ، وحَظَرَ، وأخبرَ أني سائِلُكم ومبتليكُم؛ ليظهرَ دليلُ وجودي عندَكم بتركِ ما تشتهونَ طاعةً لي، وأني قد بنيتُ لكُم دارًا غيرَ هٰذه؛ لإثابةِ مَن يُطيعُ وعقوبةِ مَن يخالِفُ.

ثم لو تُرِكَ الحسُّ وما يشتهي مع أغراضِهِ؛ قَرُبَ الأمرُ! إنما يزني فيُجْلَدُ، ويشربُ الخمرَ فيُعاقَبُ، ويسرِقُ فيُقْطَعُ، ويفعلُ زَلَّةً فيُفْضَحُ بين الخلقِ، ويُعْرِضُ عن العلم إلى البطالةِ فيقعُ الندمُ عند حصول الجهل. . .

ثم إنَّا نرى الكثيرَ ممَّنْ عَمِلَ بمقتضى عقلِهِ قد سَلِمَتْ دُنياه وآخرتُهُ، ومُيِّزَ بين الخَلْقِ بالتعظيم، وكان عيشُه في لَذَّاتِهِ غالبًا خيرًا من عيشٍ موافقٍ للهوى.

فَلْيَعْتَبِرْ ذو الفهم بما قلتُ، ولْيَعْمَلْ بمقتضى الدَّليل، وقد سَلِمَ.

٣٢٩ ـ فصل

[لا تسرفوا في شهوات الدنيا؛ فإن في ذلك هلاككم]

العَجَبُ لمؤثِرِ شَهَواتِ الدُّنيا!

ألا يتدبَّرُ أمرَها بالعقل قبلَ أن يصيرَ إلى منقولاتِ الشرعِ؟!

إنَّ أعظمَ لَذَّاتِ الحسِّ الوطءُ؛ فالمرأةُ المُسْتَحْسَنَةُ إنَّما يكونُ حالُ كمالِها من وقتِ بلوغِها إلى الثلاثينَ؛ فإذا بَلَغَتْها؛ أثَّرَ فيها[1]، وربما ابْيَضَّتْ شَعَراتٌ مِن رأسِها فيَنْفِرُ الإنسانُ منها، وقد يَقَعُ المللُ قبلَ ذلك، وطولُ الصُّحْبَةِ يكشِفُ العيوبَ. . .

وما عِيبَ نساءُ الدُّنيا بأبلغَ من قولِهِ: ﴿ولَهُمْ فيها أزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥]؛ فلو تَفَكَّرَ الإنسانُ في جسدٍ مملوءٍ بالنَّجاسةِ؛ ما طابَ له ضمُّه؛ غيرَ أنَّ الشهوةَ تغطِّي عينَ الفِكْرِ.

---

(١) يعني: مضي الزمان وتتالي الأيام.

فالعاقلُ مَن حَفِظَ دينَه ومروءتَه بتركِ الحرام، وحَفِظَ قوَّتَهُ في الحلال فأنْفَقَها في طلبِ الفضائل من علم أو عمل، ولم يَسْعَ في إفناءِ عُمُرِهِ وتشتيتِ قلبِهِ في شيءٍ لا تحسُنُ عاقبتُه:

ما في هَوادِجِكُمْ مِنْ مُهْجَتي عِوَضٌ   إنْ مِتُّ شَوْقًا ولا فيها لها ثَمَنُ

وعمومُ مَن رأينا من الكبارِ غلبتْ عليهم شَهْوَةُ الوطءِ فانهدمتْ أعمارُهم ورَحَلوا سريعًا.

وقد رأيْنا مِن العقلاءِ مَنْ زَجَرَ نفسَه عن هٰذه المحنةِ، ولم يستَعْمِلْها إلَّا وقتَ الحاجةِ، فبقي لهم سوادُ شُعورِهم وقوَّتُهم، حتى تمتَّعوا بها في الحياة، وحصَّلوا المناقبَ، وعَرَفَتْ منهم النفوسُ قوةَ العزيمةِ، فلم تطالِبْهم بما يؤذي.

٣٣٠ ـ فصل
[في رؤية رسول الله ورؤية الله سبحانه وتعالى]

قد أشْكَلَ على بعض الناسِ رؤيةُ النبيِّ ﷺ وقولُهُ: «مَنْ رآني في المنام؛ فقدْ رآني»[١]، فقال: ظاهرُ الحديثِ أنَّه يراهُ حقيقةً!

وفي الناسِ مَن يراهُ شيخًا وشابًّا ومريضًا ومعافى!

فالجوابُ: أنَّه مَن ظنَّ أنَّ جسدَ رسول الله ﷺ المودَع في المدينة

(١) رواه: البخاري (٩١ ـ كتاب التعبير، ١٠ ـ باب من رأى النبي ﷺ في المنام، ١٢ / ٣٨٣ / ٦٩٩٣)، ومسلم (٤٢ ـ كتاب الرؤيا، ١ ـ باب قوله ﷺ: من رآني في المنام، ٤ / ١٧٧٥ / ٢٢٦٦)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وفي الباب عن أنس وجابر وأبي سعيد وأبي قتادة، وكلها في «الصحيحين».

خَرَجَ من القبرِ وحَضَرَ في المكان الذي رآه فيه ؛ فهٰذا جَهْلٌ لا جَهْلَ يُشْبِهُهُ ؛ فقد يراه في وقتٍ واحدٍ ألفُ شخص في ألفِ مكانٍ على صورٍ مختلفةٍ ؛ فكيفَ يُتَصَوَّرُ هٰذا في شخصٍ واحدٍ؟!

وإنما الذي يُرَى مثالُه لا شَخْصُهُ.

فيبقى «من رآني . . . فقد رآني» ؛ معناهُ : قد رأى مثاليَ الذي يُعَرِّفُهُ الصوابَ وتحصُلُ به الفائدةُ المطلوبةُ[1].

---

(١) وقد ساق الحافظ في «الفتح» (١٢ / ٣٨٥ / ٦٩٩٧) كلامًا طويلاً في معنى قول النبي ﷺ هٰذا، ثم قال في آخره : «والحاصل من الأجوبة ستة : إحداها : أنه على التشبيه والتمثيل، ودل عليه قوله في الرواية الأخرى : «فكأنما رآني في اليقظة» . ثانيها : أن معناها سيرى في اليقظة تأويلها بطريق الحقيقة أو التعبير. ثالثها : أنه خاص بأهل عصره ممن آمن به قبل أن يراه. رابعها : أنه يراه في المرآة التي كانت له إن أمكنه ذٰلك! وهٰذا من أبعد المحامل. خامسها : أنه يراه يوم القيامة بمزيد خصوصية لا مطلق من يراه حينئذ ممن لم يره في المنام. سادسها : أنه يراه في الدنيا حقيقة ويخاطبه! وفيه ما تقدم من الإشكال» اهـ.

ونحب أن ننبه هنا إلى أنه ليس كل من رأى النبي ﷺ في منامه ؛ فقد رآه حقًا ؛ فمن الوارد أن يتمثل الشيطان بصورة رجل ما ـ أي رجل ـ ثم يقول للنائم : أنا النبي! ثم يأمره بما شاء من الضلالات وأكل حقوق الناس والبغي عليهم ، فيظن الجاهل وصاحب الهوى الذي لا يعرف صورة النبي ﷺ أن ما رآه هو النبي ﷺ حقًا! ! وقد سمعنا عن كثير من مثل هٰذا عند الطرقية وأشباههم.

ومن عظيم فقه الإمام البخاري وفهمه أنه أتبع هٰذا الحديث في «صحيحه» بقوله : «قال ابن سيرين : إذا رآه في صورته».

قال الحافظ (١٢ / ٣٨٤ / ٦٩٩٧) : «وقد رويناه موصولاً من طريق إسماعيل بن إسحاق القاضي عن سليمان بن حرب (وهو من شيوخ البخاري)، عن حماد بن زيد، عن أيوب ؛ قال : كان محمد (يعني : ابن سيرين) إذا قص عليه رجل أنه رأى النبي ﷺ ؛ قال : صف لي الذي رأيته ؛ فإن وصف له صفة لا يعرفها ؛ قال : لم تره! وسنده صحيح . ووجدت =

فإنْ قيلَ: فما تقولونَ في رؤيةِ الحقِّ سبحانَه؟!

فنقولُ: يُرى مِثالاً لا مِثْلاً، والمثالُ لا يَفْتَقِرُ إلى المساواةِ والمشابهةِ؛ كما قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها﴾ [الرعد: ١٧]، فضرَبَه مثالاً للقرآنِ وانتفاعِ الخَلْقِ به.

ويوضِّحُ هٰذا أنَّه إنَّما يرى مَن رأى الحقَّ سبحانَه وتعالى على هيئةٍ مخصوصةٍ، والحقُّ سبحانَه وتعالى مُنَزَّهٌ قد توَحَّدَ، فَوَضَحَ ما قُلْنا[1].

= له ما يؤيده: فأخرج الحاكم من طريق عاصم بن كليب، حدثني أبي؛ قال: قلت لابن عباس: رأيت النبي ﷺ في المنام. قال: صفه لي. قال: ذكرت الحسن بن علي فشبهته به. قال: قد رأيته. وسنده جيد» اهـ.

فانظر كيف كان أهل العلم لا يجزمون لكل من ذكر الرؤية بصحتها حتى يستوثقوا من الوصف ويتأكدوا من تفاصيله.

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ـ كما في «مجموع الفتاوى» (٥/ ٣٩٠) ـ: «وقد يرى المؤمن ربه في المنام في صور متنوعة على قدر إيمانه ويقينه؛ فإذا كان إيمانه صحيحًا؛ لم يره إلا في صورة حسنة، وإذا كان في إيمانه نقص؛ رأى ما يشبه إيمانه. ورؤيا المنام لها حكم غير رؤيا الحقيقة في اليقظة، ولها تعبير وتأويل؛ لما فيها من الأمثال المضروبة للحقائق. وقد يحصل لبعض الناس في اليقظة أيضًا من الرؤيا نظير ما يحصل للنائم في المنام؛ فيرى بقلبه مثل ما يرى النائم. وقد يتجلى له من الحقائق ما يشهده بقلبه؛ فهٰذا كله يقع في الدنيا. وربما غلب أحدهم ما يشهده قلبه وتجمعه حواسه، فيظن أنه رأى ذٰلك بعيني رأسه، حتى يستيقظ فيعلم أنه منام، وربما علم في المنام أنه منام. فهٰكذا من العباد من يحصل له مشاهدة قلبية تغلب عليه حتى تفنيه عن الشعور بحواسه، فيظنها رؤية بعينه، وهو غالط في ذٰلك.

وكل من قال من العباد والمتقدمين أو المتأخرين: إنه رأى ربه بعيني رأسه! فهو غالط في ذٰلك بإجماع أهل العلم والإيمان.

نعم؛ رؤية الله بالأبصار هي للمؤمنين في الجنة، وهي أيضًا للناس في عرصات =

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

٣٣١ ـ فصل

[العلم كثير والعمر قصير فخذ الأهم فالمهم]

هٰذا فصلٌ غزيرُ الفائدةِ:

اعلمْ أنَّه لو اتَّسَعَ العُمُرُ؛ لَمْ أمنعْ مِن الإيغال في كلِّ علم إلى منتهاهُ؛ غير أنَّ العُمُرَ قصيرٌ، والعلمَ كثيرٌ:

فينبغي للإنسانِ أن يَقْتَصِرَ مِن القراءاتِ إذا حَفِظَ القرآنَ على العَشْرِ.

ومن الحديثِ على الصِّحاح والسُّنن والمسانيدِ المصنَّفةِ؛ فإنَّ علومَ الحديثِ قد انبسطتْ زائدةً في الحدِّ، وما في هٰذا الجزء[1]، وإنَّما الطرقُ تختلفُ.

وعلم الحديثِ يتعلَّقُ بعضُه ببعض، وهو مشتهىً، والفقهاءُ يسمُّونَه علمَ الكُسالى؛ لأنَّهم يتشاغلون بكتابتِه وسماعِه، ولا يكادونَ يعانونَ

= القيامة؛ كما تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ» اهـ.

وقال الحافظ في «الفتح» (١٢/٣٨٧/٦٩٩٧): «تنبيه: جوز أهل التعبير رؤية الباري عز وجل في المنام مطلقًا، ولم يجروا فيها الخلاف في رؤيا النبي ﷺ، وأجاب بعضهم عن ذٰلك بأمور قابلة للتأويل في جميع وجوهها؛ فتارة يعبر بالسلطان وتارة بالوالد وتارة بالسيد وتارة بالرئيس في أي فن كان، فلما كان الوقوف على حقيقة ذاته ممتنعًا، وجميع من يعبَّر به يجوز عليهم الصدق والكذب؛ كانت رؤياه تحتاج إلى تعبير دائمًا؛ بخلاف النبي ﷺ؛ فإذا رئي على صفته المتفق عليها وهو لا يجوز عليه الكذب؛ كانت في هٰذه الحالة حقًّا محضًا لا يحتاج إلى تعبير» اهـ.

(١) يعني: وما في هٰذا من المتون الصحيحة إلا الشيء اليسير، وإنما الكثرة في الطرق.

حفظَه، ويفوتُهم المهمُّ، وهو الفقهُ.

وقد كان المحدِّثونَ قديمًا هم الفقهاءَ، ثم صار الفقهاءُ لا يعرِفونَ الحديثَ، والمحدِّثونَ لا يعرِفونَ الفقهَ[1]!!

فمَن كانَ ذا هِمَّةٍ، ونَصَحَ نفسَه؛ تشاغَلَ بالمهمِّ من كلِّ علم، وجَعَلَ جُلَّ شُغْلِهِ الفقهَ، فهو أعظمُ العلوم وأهمُّها.

وقد قالَ أبو زُرعةَ: كتبَ إليَّ أبو ثورٍ: فإنَّ هٰذا الحديثَ قد رواه ثمانيةٌ وتسعونَ رجلاً عن رسول الله ﷺ، والذي صحَّ منه طرقٌ يسيرةٌ[2].

فالتشاغلُ بغيرِ ما صحَّ يمنعُ التشاغلَ بما هو أهمُّ.

---

(١) يقصد المصنف رحمه الله بالمحدثين هنا الرواة الذين تشاغلوا بجمع الطرق وكثرتها والبحث عن الغرائب والعجائب في المتون والأسانيد، وقد انتشر مثل هٰذا النوع من طلاب علم الحديث في عصر المصنف، ونبه كثير من أعلام المحدثين على خطورة هٰذه الطريقة وخطئها. وأما المحدثون بالمعنى الاصطلاحي المعروف؛ فلا ينطبق عليهم هٰذا؛ لأن مرتبة المحدث مرتبة شريفة سامية لا يوصف بها إلا من أتقن علم الحديث رواية ودراية وفقهًا.

وكذٰلك لا يقصد المصنف رحمه الله بالفقه والفقهاء المعنى الاصطلاحي المنتشر اليوم، وهو دراسة مذهب معين وتقليده، وإنما يقصد به فهم نصوص الكتاب والسنة واستيعابها والاستدلال بها والاستفادة منها؛ كما في المثال الذي سيذكره بعد قليل.

(٢) أبو زرعة: محدث الري، وإمام الجرح والتعديل، وسيد الحفاظ، عبيد الله بن عبد الكريم الرازي، ولد نحو ٢٠٠هـ، وتوفي سنة ٢٦٤هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (١٣ / ٦٥)، و«تهذيب التهذيب» (٧ / ٣٠).

وأبو ثور هو الإمام، الحافظ، الحجة، المجتهد، إبراهيم بن خالد، ولد في حدود ١٧٠هـ، وتوفي سنة ٢٤٠هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (١٢ / ٧٢)، و«تهذيب التهذيب» (١ / ١١٨).

ولو اتَّسعَ العُمُرُ؛ كان استيفاءُ كلِّ الطرقِ في كلِّ الأحاديثِ غايةً في الجودةِ، ولٰكنَّ العُمُرَ قصيرٌ.

ولمَّا تشاغَلَ بالطُّرُقِ مثلُ يَحيى بنِ مَعين؛ فاتَهُ من الفقهِ كثيرٌ، حتَّى إنَّه سُئِلَ عن الحائض: أيجوزُ أنْ تَغْسِلَ الموتى؟ فلم يعلمْ، حتى جاء أبو ثورٍ، فقالَ: يجوزُ؛ لأنَّ عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: كنتُ أُرَجِّلُ رأسَ رسولِ اللهِ ﷺ وأنا حائضٌ[1]. فيحيى أعلمُ بالحديثِ منه، ولٰكن لم يتشاغَلْ بفهمِهِ[2].

فأنا أنهى أهلَ الحديثِ أن تَشْغَلَهُم كَثْرَةُ الطرقِ.

ومن أقبحِ الأشياءِ أن تجريَ حادثةٌ، يُسْأَلُ عنها شيخٌ قد كَتَبَ الحديثَ ستينَ سنةً؛ فلا يعرفُ حكمَ اللهِ عزَّ وجلَّ فيها!

وكذٰلك أنهى مَن يتشاغَلُ بالتزهُّدِ والانقطاعِ عن الناس أن يُعْرِضَ عن العلم، بل ينبغي أن يجعلَ لنفسِهِ منه حظًّا؛ ليعلمَ إن زَلَّ كيفَ يتخلَّصُ.

---

(١) رواه: البخاري (٦ ـ كتاب الحيض، ٢ ـ باب غسل الحائض رأس زوجها وترجيله، ١ / ٤٠١ / ٢٩٥)، ومسلم (٣ ـ كتاب الحيض، ٣ ـ باب جواز غسل الحائض رأس زوجها وترجيله، ١ / ٢٤٤ / ٢٩٧).

(٢) يحيى بن معين هو الإمام، الحافظ، الجهبذ، شيخ المحدثين، أحد الأعلام، ولد سنة ١٥٨هـ، وتوفي سنة ٢٣٣هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (١١ / ٧١)، و«تهذيب التهذيب» (١١ / ٢٨٠).

والقصة رواها الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (٢٤٩ / ١٥٧)، وفي سندها مجهول، ولئن صحت؛ فما يضير هٰذا الإمام العظيم أن يتوقف في مسألة ولا يقول فيها دون علم أو أثر، بل هٰذا يزيد في قدره، ويلحقه بسلفه من الصحابة والتابعين والأئمة الذين كانوا يتوقفون في مسائل أصبح يتجرأ عليها اليوم من لا يحسن ـ والله ـ تلاوة القرآن الكريم.

٣٣٢ ـ فصل

[خير الهدي وأحسنه وأعدله هدي النبي عليه الصلاة والسلام]

معرفةُ اللهِ سبحانَه لا تحصُلُ إلَّا لكامل العقل صحيح المِزاج، والترقِّي إلى محبَّتِهِ بذلك يكونُ.

وإنَّ أقوامًا قَلَّتْ عقولُهم، وفَسَدَتْ أمزجتُهم، فساءتْ مطاعِمُهم وقلَّتْ، فتخايلتْ لهمُ الخيالاتُ الفاسدةُ، فادَّعَوْا معرفةَ الحقِّ ومحبَّتَهُ، ولم يكنْ عندَهم من العلم ما يصدُّهم عما ادَّعوا، فهَلَكوا.

وليُعْلَمْ أنَّ في المأكولاتِ ما يسبِّبُ إفسادَ العقل، وفيها ما يزيدُ في السوداءِ فيوجِبُ الماليخوليا، فترى صاحِبَها يحبُّ الخَلْوَةَ ويهرُبُ من الناس، وقد يقلِّلُ المطعمَ، فيقوى مرضُهُ، فيتخايلُ خيالاتٍ يظنُّها حقًّا؛ فمنهم مَن يقولُ: إنِّي رأيتُ الملائكةَ! وفيهم مَن يخرجُهُ الأمرُ إلى دعوى محبةِ الحقِّ والوَلَهِ[1] فيه، ولا يكونُ ذلك عن أصل معتمدٍ عليه.

وإنَّما العاقلُ العالمُ يسيرُ في الطريقِ بينَ الرَّفيقينِ: العلم والعقل.

فإنْ تقلَّلَ من الطعام؛ فبعقل، وحدُّ التقلُّل: تركُ فضول المطعَم، وما يخافُ شَرَّهُ من شبهةٍ أو شهوةٍ يحذرُ تعوُّدَها.

وأما زيادةُ التقلُّل مع القدرةِ؛ فليس لعقل ولا شرع؛ إلَّا أن يكونَ الفقرُ عمَّ، فيتقلَّلُ ضرورةً.

ومن تأمَّل حالَ رسول الله ﷺ وأصحابِهِ؛ وجَدَهم يأخُذونَ بمقدارٍ،

(١) الوله: ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد.

ولا يتركونَ حظوظَ النفس التي تُصْلِحُها.

وأحسنُ الأمـرِ وأعـدَلـهُ قولُ رسـول الله ﷺ: «ثُلُثٌ طعامٌ، وثُلُثٌ شرابٌ، وثُلُثٌ نَفَسٌ»[1].

وقد قال لعليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه وهو مريضٌ: «أصِبْ مِن هٰذا الطعام؛ فهو أوفقُ لك مِن هٰذا»[2].

وكـانَ ﷺ يشـاوِرُ الأطباءَ[3]، ويحتجِمُ[4]، ويحثُّ على التداوي، ويقولُ: «ما أنزلَ اللهُ داءً إلَّا وأنزلَ له شفاءً؛ فتداوَوْا»[5].

فجاء أقوامٌ جَهلوا العلمَ والحكمةَ في بنيانِ الأبدانِ؛ فمنهم مَن أقامَ في الجبال يأكُلُ البلُّوطَ فأصابَهُ القولَنْجُ[6]، ومنهم من قلَّلَ المطعمَ إلى أن ضَعُفَتْ قُواه، ومنهم مَن اقتصـرَ على نباتِ الصحراءِ، ومنهم مَن كانَ لا يتقوَّتُ إلَّا الباقلاَّءَ والشعيرَ. . .

فأوجبت هٰذه الأفعالُ أمراضًا في البدنِ، وترقَّتْ إلى إفسادِ العقل.

واتَّفَقَ لهم قلةُ العلم؛ إذ لو عَلِموا؛ لَفَهموا أنَ الحكمةَ تنهى عن مثل هٰذا؛ فإنَّ البدنَ مبنيٌّ على أخلاطٍ، إذا اعتدلَتْ؛ وافقتِ السلامةُ، وإذا زادَ بعضُها؛ وَقَعَ المرضُ.

وأكثـرُ هٰؤلاءِ مَرِضـوا وتعجَّـلَ لهم المـوتُ، وفيهم من خَرَجَ إلى

(١) تقدم تخريجه في (فصل ١٩).

(٢، ٥) تقدم تخريجه في (فصل ٥١).

(٣، ٤) تقدم ذكر هٰذا والتعليق عليه في (فصل ٤١).

(٦) القولنج: المغص، آلام ناشئة عن التقلصات الشديدة في أي موضع من البدن.

التسودُنِ، وفيهم من لاحتْ له لوائحُ فادَّعى رؤيةَ الملائكةِ. . . إلى غيرِ ذٰلك.

فأمّا أهلُ العلم والعقل؛ فهربُهم من الخَلْق لخوفِ المعاصي ورؤيةِ المنكرِ، وفيهم مَن قَوِيَتْ معرفتُه فشغلتْهُ معرفةُ الحقِّ ومحبتُه عن ملاقاةِ الخَلْق.

فهٰذه هي الخَلَواتُ الصافيةُ؛ لأنها تصدُرُ عن علم وعقل، فتحفظُ البدنَ؛ لأنَّه ناقةُ توصِلُ.

ولا ينبغي أن يُتهاونَ بالمأكولاتِ، خصوصًا مَن لم يَعْتَدِ التقشُّفَ، ولا يَلْبَس الصوفَ على البدنِ مَن لم يعتدْه.

ولْيَنْظَرْ في طريقِ رسول الله ﷺ وصحابتِهِ؛ فإنَّهم القدوةُ، ولا يُلْتَفَتْ إلى بُنياتِ الطريق؛ فيقالَ: فلانٌ الزاهدُ قد أكلَ الطِّينَ! وفلانٌ كان يمشي حافيًا! وفلانٌ بقي شهرًا ما أكلَ! فإنَّ المحققينَ من هٰؤلاءِ المخلصينَ للهِ تعالى على غيرِ الجادَّةِ؛ لأنَّ الجادةَ اتِّباعُ رسول الله ﷺ وأصحابِهِ وما كانوا يفعلونَ.

هٰذا؛ ولَعَمري؛ إنه قد كانَ فيهم من يَقْنَعُ بالمِذْقَةِ من اللبنِ، ويصبرُ الأيامَ عن الطعام، ولٰكن إما لضرورةٍ، أو لأنَّه معتادٌ لذٰلك؛ كما يعتادُ البدويُّ شُرْبَ اللبنِ وحدَه ولا يؤذيهِ ذٰلك، وفي الحديثِ: «عوِّدوا كُلَّ بدنٍ ما اعتادَ»[1].

---

(١) (لا أصل له). أورده الغزالي في «الإحياء» (٣ / ٨٧) مرفوعًا إلى النبي ﷺ بلفظ: «البطنة أصل الداء، والحمية أصل الدواء، وعودوا كل جسم ما اعتاد».

قال الإمام الرباني ابن قيم الجوزية في «زاد المعاد» (٤ / ١٠٤): «وأما الحديث =

وفي المتـزهِّـدينَ مَن أخـرجَ مالَـه كلَّه عن يدِهِ زُهـدًا، ومعلومٌ أنَّ الحاجاتِ لا تنقضي، فلمَّا احتاجَ؛ تعرَّضَ للطلبِ، وافتقرَ إلى أخذِ مال مِنْ يدِ مَنْ يعلمُ أنَّه ظالمٌ وبَذْل وجهِهِ!

وقـد كانتِ الصحابةُ تَتَّجِرُ وتحفظُ المالَ، وجهَّالُ المتزهِّدين يَرَوْنَ جمعَ المال ينافي الزهدَ!!

فمَمْخَضَةُ[1] هٰذا الفصل أن أقولَ: ينبغي لمن رُزِقَ فهمًا أن يسعى في صلاح بدنِهِ، ولا يحملَ عليه ما يؤذيه، ولا يناولَهُ مِن القوتِ ما لا يوافقُه، ولا يُضَيِّعَ مالَه، ولْيجتهدْ في استثمارِهِ لئلَّا يحتاجَ؛ فإنه ما نافَقَ زاهدٌ إلَّا لأجل الدُّنيا، ولْينظرْ في سِيَرِ الكاملينَ من السَّلَفِ، ولْيتشاغلْ بالعلم؛ فإنَّه الدليلُ؛ فحينئذٍ يحملهُ الأمرُ على الخَلْوَةِ بربِّه والاشتغال بحبِّه، فيكونُ ما ظَهَرَ منه ثمرةً نَضِجةً لا فَجَّةً. واللهُ الموفقُ.

٣٣٣ ـ فـصـل

[الكيس من نظر في عواقب الأمور ولم يغره بريق الدنيا]

ما رأيتُ أظرفَ من لَعِبِ الدُّنيا بالعقول!

= الدائر على ألسنة كثير من الناس: «الحمية رأس الدواء، والمعدة بيت الداء، وعودوا كل جسم ما اعتاد»؛ فهٰذا الحديث إنما هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب، ولا يصح رفعه إلى النبي ﷺ، قاله غير واحد من أئمة الحديث». ثم عاد فنسبه في (٤ / ١١٧) إلى الحارث بن كلدة أيضًا. وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء»: «لم أجد له أصلًا». وأقره الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» (٣٨٩ / ١٠٣٥) والألباني في الضعيفة (١ / ٤١٨ / ٢٥٢).

(١) يعني: فنتيجة الكلام وخلاصة هٰذا الفصل.

وقد سمعْنا ورأيْنا جماعةً من الفطناءِ الكاملي العقل، لعبتْ بهمُ الدُّنيا حتى صاروا كالمجانين، فَوَلُوا الولاياتِ، فخَرَجوا إلى القتلِ والضَّرْبِ والحبس والشَّتْم وذَهابِ الدِّينِ والمباشرةِ للظُّلم، كلُّه لأجل دُنيا تذهبُ سريعًا، وهي في مدةِ إقامَتِها معجونةٌ بالنَّغَصِ.

فيا أيُّها المرزوقُ عقلًا! لا تبخسْهُ حقَّه، ولا تطفىء نورَه، واسمعْ ما نشيرُ بهِ، ولا تلتفتْ إلى بكاءِ طفل الطبع لفواتِ غرضِهِ؛ فإنَّك إن رحمتَ بكاءَه؛ لم تقدِرْ على فطامِهِ، ولم يمكنْكَ تأديبُهُ، فيبلغَ جاهلًا فقيرًا:

لا تَسْهُ عن أدبِ الصَّغيـ ـرِ وَلَوْ شَكا أَلَمَ التَّعَبْ
وَدَعِ الكَبيرَ لِشَأْنِهِ كَبُرَ الكَبيرُ عَنِ الأَدَبْ

واعلمْ أنَّ زمانَ الابتلاءِ ضيفٌ قِراهُ[1] الصبرُ؛ كما قالَ أحمدُ بنُ حنبل: إنَّما هُو طعامٌ دونَ طعام، ولِباسٌ دونَ لِباس، وإنَّها أيامٌ قلائلُ؛ فلا تَنْظُرْ إلى لَذَّةِ المترفينَ، وتَلَمَّحْ عواقِبَهم، ولا تَضِقْ صدرًا بضيقِ المعاشِ، وعلِّل الناقةَ بالحَدْوِ تَسِرْ:

طاوِلْ بها الليلَ مالَ النجمُ أمْ جَنَحا وماطِلِ النَّوْمَ ضَنَّ الجَفْنُ أمْ سَمَحا
فإنْ تَشَكَّتْ فَعَلِّلْها المَجَرَّةَ مِنْ ضَوْءِ الصَّباح وعِدْها بالرَّواح ضُحى[2]

وقد كانَ أهدِيَ إلى أحمدَ بنِ حنبل هديةٌ، فردَّها، ثم قالَ بعدَ سنةٍ لأولادِهِ: لو كُنَّا قَبِلْناها؛ كانتْ قد ذَهَبَتْ.

ومرَّ بِشْرٌ على بئرٍ، فقالَ لهُ صاحبُهُ: أنا عطشانُ. فقالَ: البئرَ

---

(١) القِرى: طعام الضيف.

(٢) يعني: ألهها بضوء المجرة وأوهمها أنه ضوء الصباح حتى تنشط في سعيها.

الأخرى! فَمَرَّ عليها، فقالَ لهُ: الأخرى! ثم قالَ: كذا تُقْطَعُ الدُّنيا.

ودَخلوا إلى بشرٍ الحافي، وليسَ في دارِهِ حَصيرٌ، فقيلَ له: ألا بذا تؤذى؟ فقالَ: هٰذا أمر ينقضي[1].

وكان لداوودَ الطائيِّ دارٌ يأوي إليها، فوَقَعَ سقفٌ، فانتقلَ إلى سقفٍ، إلى أن ماتَ في الدهليز[2].

فهٰؤلاءِ الذين نَظَروا في عواقبِ الأمورِ.

وبعد هٰذا؛ فلا أطالِبُكَ بهٰذه الرتبةِ، بل أقولُ لكَ: إنْ حَصَلَ لكَ شيءٌ من المباح، لا مَنٍّ فيه، ولا أذىً، ولا نلتَهُ بسؤال، ولا مِن يدِ ظالم تعلمُ أنَّ مالَـه حرامٌ أو فيه شبهةٌ؛ فافسحْ لنفسِكَ في مباحاتِها بمقدارِ ما تحتاجُ إليه، وكنْ مُقدِّرًا للنفقةِ غيرَ مبذِّرٍ؛ فإنَّ الحلالَ لا يَحْتَمِلُ السَّرَفَ، ومتى أسْرَفْتَ؛ احتجتَ إلى التعرُّضِ للخلقِ، والتناول مِن الأكدارِ.

وإنْ ضاقَ بكَ أمرٌ؛ فاصْبِرْ؛ فإن ضَعُفَ الصبرُ؛ فَسَلْ فاتحَ الأبوابِ؛ فهو الكريمُ، وعندَه مفاتحُ الغيبِ، وإيَّاكَ أن تَبْذُلَ دينَك بتصنُّعٍ للخَلْقِ أو بتقرُّبٍ إلى الأمراءِ وتستعطي أموالَهم، واذكرْ طريقَ السَّلفِ.

كان ابنُ سمعونَ له ثيابٌ يجلِسُ فيها للناسِ ثم يطويها إلى المجلسِ الآخرِ، ورِثَها عن أبيه، وبقيتْ أربعينَ سنةً[3].

---

(١) تقدمت ترجمة بشر بن الحارث الحافي في (فصل ١٩).

(٢) تقدمت ترجمته في (فصل ٥٢)، وانظر هٰذا الخبر في «الحلية» (٧ / ٣٤٧).

(٣) ابن سمعون هو الشيخ، الإمام، الواعظ، المحدث، محمد بن أحمد البغدادي، ولد سنة ٣٠٠هـ، وتوفي سنة ٣٨٧هـ. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (١ / ٢٧٤)، و«سير أعلام النبلاء» (١٦ / ٥٠٥).

وكانتْ ميمونةُ بنتُ شاقولةَ تَعِظُ الناسَ ولها ثيابٌ قد بقيتْ أربعينَ سنةً

ومَن صَفا نَظَرُهُ وتهذَّبَ لفظُهُ ؛ نَفَعَ وَعْظُهُ ، ومَن كَدَّرَ ؛ كُدِّرَ عليه .

والحالةُ العاليةُ في هٰذا : إقبالُ القلبِ على اللهِ عزَّ وجلَّ ، والتوكُّلُ عليه ، والنظرُ إليهِ ، والتفاتُ القلبِ عن الخلقِ ؛ فإنِ احتجتَ ؛ فاسأله ، وإنْ ضَعُفْتَ ؛ فارغبْ إليه .

ومتى ساكنتَ الأسبابَ ؛ انقطعتَ عنه ، ومتى استقامَ باطِنُك ؛ استقامتْ لك الأمورُ .

٣٣٤ ـ فصل

[لا يصفو العيش إلا لمن علق قلبه بالله وترك ما سواه]

رأيتُ نفسي تأنسُ بخُلَطاءَ نسمِّيهم أصدقاءَ ، فبحثتُ بالتجاربِ عنهم ؛ فإذا أكثرُهم حُسَّادٌ على النعم ، وأعداءٌ ؛ لا يستُرونَ زَلَّةً ، ولا يعرِفونَ لجليسٍ حقًّا ، ولا يواسونَ من مالِهم صديقًا .

فتأملتُ الأمرَ ؛ فإذا الحقُّ سبحانَه يغارُ على قلبِ المؤمنِ أن يَجْعَلَ له شيئًا يأنَسُ به ؛ فهو يكدِّرُ عليه الدُّنيا وأهلَها ؛ ليكونَ أنسُهُ بهِ .

فينبغي أن يَعُدَّ الخلقَ كلَّهم معارفَ ، ليس فيهم صديقٌ ، بل تحسَبُهم أعداءً ، ولا تُظْهِرُ سرَّكَ لمخلوقٍ منهم ، ولا تَعِدَّنَّ مَن يَصْلُحُ لشدةٍ لا ولدًا ولا أخًا ولا صديقًا ، بل عامِلْهم بالظاهرِ ، ولا تخالِطْهم إلَّا حالةَ الضَّرورةِ بالتَّوَقي لحظةً ، ثم انْفِرْ عنهم ، وأقبلْ على شأنِكَ ؛ متوكِّلًا على

خالِقِـك؛ فإنَّـه لا يَجْلِبُ الخيرَ سواه، ولا يصرفُ السوءَ إلا إيَّاه، فليكنْ جليسَك وأنيسَك وموضعَ توكُّلِك وشكواكَ؛ فإنْ ضَعُفَ بصرُك؛ فاستغثْ به، وإن قَلَّ يقينُك؛ فسلْه القوةَ، وإيَّاك أن تميلَ إلى غيرِهِ؛ فإنه غيورٌ، وأن تَشْكُوَ من أقدارِهِ؛ فربَّما غَضِبَ ولم يُعْتِبْ[1].

أوحى اللهُ عزَّ وجـلَّ إلى يوسفَ عليه السـلام: مَنْ خَلَّصَـكَ من الجُبِّ؟ مَن فَعَلَ؟ مَن فعَلَ؟ قال: أنتَ. قال: فلِمَ ذكرتَ غيري؟ فلأطيلَنَّ حَبْسَكَ! أو كما قالَ[2]. هٰذا وإنَّما تعرَّضَ يوسفُ عليه السلام بسببٍ مباح: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢].

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥].

وما أعرفُ العيشَ إلَّا لمن يعرفُه جلَّ شأنُه، ويعيشُ معهُ، ويتأدبُ بين يديهِ في حركاتِهِ وكلماتِهِ كأنَّه يراهُ، ويقِفُ على باب طَرْفِهِ حارسًا من نظرةٍ لا تَصْلُحُ، وعلى باب لسانِهِ حافظًا له من كَلِمَةٍ لا تَحْسُنُ، وعلى باب قلبِهِ حمايةً لمسكنِهِ من دُخول الأغيارِ، ويستوحِشُ من الخَلْقِ شغلًا به. وهٰذا يكونُ على سيرةِ الرُّوحانيينَ.

فأما المخلِّطُ؛ فالكَدَرُ غالبٌ عليه.

والمحقُّ لا يَطْلُبُ إلَّا الأرفعَ.

---

(١) يعني: لم يمهلك حتى تتوب وتعتذر إليه.

(٢) رواه ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أنس رضي الله عنه. وانظر: «الزهد» (ص ١٠٤)، و«الدر المنثور» (٤ / ٣٧ / يوسف ٤٢). وانظر ما علقناه على هٰذا في (فصل ٦٧)؛ فإنه مهم جدًا.

قال القائلُ:

ألا لا أحِبُّ السَّيْرَ إلَّا مُصاعِدًا! ولا البَرْقَ إلَّا أنْ يكونَ يمانِيًا

٣٣٥ ـ فصل

[العلم الحقيقي هو الذي يورث خشية الله تعالى]

رأيتُ أكثرَ العلماءِ مشتغلينَ بصورةِ العلم دونَ فَهْم حقيقتِهِ ومقصودِهِ.

فالقارىءُ مشغولٌ بالرواياتِ، عاكفٌ على الشواذِّ، يرى أنَّ المقصودَ نفسُ التلاوةِ، ولا يتلمَّحُ عَظَمَةَ المتكلِّم، ولا زَجْرَ القرآنِ ووعدَه، وربما ظنَّ أن حِفْظَ القرآنِ يَدْفَعُ عنه؛ فتراهُ يترخَّصُ في الذُّنوبِ، ولو فَهِمَ؛ لعَلِمَ أنَّ الحجةَ عليه أقوى ممَّنْ لم يقرأْ!

والمحدِّثُ يجمعُ الطرقَ، ويحفظُ الأسانيدَ، ولا يتأمَّلُ مقصودَ المنقول، ويرى أنَّه قد حَفِظَ على الناس الأحاديثَ؛ فهو يرجو بذلك السلامةَ، وربَّما ترخَّصَ في الخطايا؛ ظنًّا منه أن ما فَعَلَ في الشريعةِ يَدْفَعُ عنه!

والفقيهُ قد وَقَعَ له أنَّه بما قد عَرَفَ من الجدال الذي يقوِّي به خصامَه، أو المسائل التي قد عَرَفَ فيها المذهبَ؛ قد حَصَّلَ بما يُفتي به الناسَ ما يَرْفَعُ قَدْرَهُ ويمحو ذَنْبَهُ؛ فربما هَجَمَ على الخطايا؛ ظنًّا منه أنَّ ذلك يَدْفَعُ عنه! وربَّما لم يحفظِ القرآنَ ولم يعرفِ الحديثَ، وأنَّهما ينهيانِ عن الفواحش بزَجْرٍ ورفقٍ، وينضافُ إليه مع الجهل بهما حبُّ الرِّياسةِ وإيثارُ الغَلَبَةِ في الجدل، فتزيدُ قسوةُ قلبِهِ!

وعلى هٰذا أكثرُ الناس؛ صورُ العلم عندَهم صناعةٌ، فهي تُكْسِبُهم الكِبْرَ والحماقةَ.

وقد حكى بعضُ المعتَبَرينَ عن شيخ أفنى عُمْرَهُ في علوم كثيرةٍ أنَّه فُتِنَ في آخرِ عُمُرِهِ بفسقٍ أصرَّ عليه وبارزَ اللهَ به، وكانت حالُه تعطي بمضمونها: أنَّ علمي يدفعُ عني شرَّ ما أنا فيه ولا يبقى له أثرٌ! وكان كأنه قد قَطَعَ لنفسِهِ بالنجاةِ؛ فلا يُرَى عنده أثرٌ لخوفٍ ولا ندمٌ على ذنبٍ!! قال: فتغيَّرَ في آخرِ عُمُرِهِ، ولازمَهُ الفقرُ، فكان يلقى الشدائدَ، ولا ينتهي عن قُبْحِ حالِهِ، إلى أن جُمِعَتْ له يومًا قراريطُ على وجهِ الكُدْيَةِ(١)، فاستحى من ذٰلك، وقالَ: يا ربِّ! إلى هٰذا الحدِّ؟! قال الحاكي: فتعجبتُ من غفلتِهِ؛ كيف نَسِيَ اللهَ عزَّ وجلَّ وأرادَ منه حُسْنَ التدبيرِ له والصيانةِ وسَعَةِ الرزقِ؟! وكأنَّه ما سَمِعَ قولَه تعالى: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقاموا على الطَّريقَةِ لأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]، ولا عَلِمَ أنَّ المعاصي تسدُّ أبوابَ الرِّزقِ، وأنَّ مَن ضيَّعَ أمرَ اللهِ ضيَّعَهُ اللهُ؟! فما رأيتُ علمًا ما أفادَ كعلم هٰذا! لأنَّ العالمَ إذا زَلَّ؛ انكسرَ، وهٰذا مصرٌّ لا تؤلِمُهُ معصيتُه، وكأنَّه يجوزُ له ما يفعلُ، أو كأنَّ له التصرُّفَ في الدينِ تحليلًا وتحريمًا، فَمَرِضَ عاجلًا، وماتَ على أقبحِ حالٍ!!

قالَ الحاكي: ورأيتُ شيخًا آخرَ حَصَّلَ صورَ علمٍ فما أفادتْه؛ كان أيَّ فسقٍ أمْكَنَهُ؛ لم يتحاشَ منه، وأيُّ أمرٍ لم يعجبْه من القَدَرِ؛ عارَضَه بالاعتراضِ على المقدِّرِ واللوم، فعاش أكْدَرَ عيشٍ، وعلى أقبحِ اعتقادٍ،

(١) الكُدْيَة: الاستعطاء وسؤال الناس.

حتى دَرَجَ[١].

وهؤلاء لم يفهَموا معنى العلم، وليس العلمُ صُوَرَ الألفاظِ، إنما المقصودُ فهمُ المرادِ منه، وذاك يورِثُ الخشيةَ والخوفَ ويُرِي المنةَ للمنعِم بالعلم وقوةَ الحجةِ له على المتعلِّم.

نسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ يَقَظَةً تفهِمُنا المقصودَ وتعرِّفُنا المعبودَ.

ونعوذُ باللهِ من سبيلِ رَعاعٍ يتسمَّوْنَ بالعلماءِ؛ لا ينهاهُم ما يحمِلون، ويعلَمون ولا يعمَلون، ويتكبَّرون على الناس بما لا يعملون، ويأخُذون عَرَضَ الأدنى[٢] وقد نُهوا عمَّا يأخذون، غلبتْهم طباعُهُم وما راضَتْهُم علومُهم التي يدرُسون؛ فهم أخسُّ حالاً من العوامِّ الذين يجهلون، ﴿يَعْلَمونَ ظاهِرًا مِنَ الحَياةِ الدُّنْيا وهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غافِلون﴾ [الروم: ٧].

٣٣٦ ـ فصل

[اعرف شيئاً عن كل شيء، واعرف كل شيء عن شيء]

للفقيهِ أن يطالِعَ من كلِّ فنٍّ طَرَفًا، من تاريخ وحديثٍ ولغةٍ وغير ذلك؛ فإنَّ الفقهَ يحتاجُ إلى جَميع العلوم؛ فليأخذْ من كلِّ شيءٍ منها مهمًّا.

ولقد رأيتُ بعضَ الفقهاءِ يقولُ: اجتمعَ الشِّبليُّ وشَريكٌ القاضي! فاستعجبتُ له! كيفَ لا يدري بُعْدَ ما بينَهما[٣]؟!

(١) درج: مات.

(٢) عرض الأدنى: حطام الدنيا.

(٣) شريك القاضي هو: ابن عبد الله، النخعي، الكوفي، الفقيه، العلامة، الحافظ. انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٩ / ٢٧٩)، و«سير أعلام النبلاء» (٨ / ٢٠٠). =

وقال آخرُ في مناظرةٍ: كانتِ الزوجيَّةُ بين فاطمةَ وعليٍّ رضي الله عنهما غيرَ منقطعةِ الحُكْمِ؛ فلهٰذا غسَّلَها! فقلتُ له: ويحكَ! فقد تزوَّجَ أمامةَ بنتَ زينبَ، وهي ابنةُ أختِها! فانقطعَ.

ورأيتُ في كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي من هٰذا ما يُدْهِشُ من التخليطِ في الأحاديثِ والتواريخ، فجمعتُ من أغاليطِهِ في كتابٍ.

وقد ذَكَرَ في كتابٍ له سماه «المستظهري» وعَرَضَهُ على المستظهرِ بالله: أنَّ سليمانَ بنَ عبد الملك بعثَ إلى أبي حازم، فقالَ له: ابعثْ لي من فطورِكَ! فبعثَ إليه نُخالةً مَقْلُوَّةً، فأفطرَ عليها، ثم جامعَ زوجتَه، فجاءت بعبدِ العزيزِ، ثم وُلِدَ له عمرُ[1]!!

وهٰذا تخليطٌ قبيحٌ؛ فإنَّه جَعَلَ عمرَ بنَ عبدِ العزيز بنِ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ! فجَعَلَ سليمانَ جدَّه، وإنما هو ابنُ عمِّه.

وقد ذكر أبو المعالي الجُوَيْنيُّ في أواخرِ كتابِ «الشامل في الأصول»؛ قال: قد ذكرَتْ طائفةٌ من الثقاتِ المعتنينَ بالبحثِ عن البواطنِ أنَّ الحلاجَ والجَنَّابيَّ[2] القرمطيَّ وابنَ المقفَّع تواصَوْا على قَلْبِ الدُّوَلِ وإفسادِ المملكةِ واستعطافِ القلوبِ وارتادَ كلٌّ منهم قُطْرًا، فَقَطَنَ

= وأبو بكر الشبلي تقدمت ترجمته في (فصل ٨١). ولا وجه لاجتماعهما؛ لأن وفاة القاضي كانت سنة ١٧٧هـ، وولادة الشبلي كانت سنة ٢٤٧هـ.

(١) انظر الخبر في «فضائح الباطنية» (ص ٢١٧)، وهٰذا الكتاب يعرف أيضًا باسم: «فضائح الإباحية»؛ كما ذكر الذهبي في «السير» (١٩ / ٣٤٣)، ويعرف بـ «المستظهري»؛ لأنه ألفه للمستظهر بالله العباسي. وانظر: «السير» (١٩ / ٤٠٣)، و«الأعلام» (٧ / ٢٢).

(٢) في الأصول: «الجبائي»! والصواب ما أثبتناه.

الجَنَّابيُّ[١] في الأحسا، وتَوَغَّلَ ابنُ المقفَّع في أطرافِ بلادِ الترك، وقطن الحلاجُ ببغدادَ، فحَكَمَ عليه صاحباه بالهَلَكَةِ والقصورِ عن بلوغ الأمنيةِ؛ لبعدِ أهل بغدادَ عن الانخداع، وتوفُّرِ فِطنتهم، وصدقِ فِراستِهم.

قلتُ: ولو أنَّ هٰذا الرجلَ أو مَنْ حَكَى عنه عَرَفَ التاريخَ؛ لَعَلِمَ أنَّ الحلاجَ لم يدرِك ابنَ المقفَّع؛ فإنَّ ابنَ المقفَّع أمَرَ بقتلِهِ المنصورُ، فقُتِلَ في سنةِ أربع وأربعين ومئةٍ، وأبو سعيدٍ الجنَّابيُّ القرمطيُّ ظَهَرَ إلى سنةِ ست وثمانين ومئتينِ، والحلاجُ قُتِلَ سنة تسع وثلاث مئةٍ؛ فزمانُ القرمطيِّ والحلاج متقاربانِ؛ فأما ابنُ المقفَّع؛ فكَلَّا[٢].

فينبغي لكلِّ ذي علم أنْ يُساهِمَ بباقي العلوم، فيطالِعَ منها طَرَفًا؛ إذ لكلِّ علم بعلم تعلُّقٌ.

وأقْبِحْ بمحدِّثٍ يُسْأَلُ عن حادثةٍ؟ فلا يدري، وقدْ شَغَلَهُ منها جمعُ الأحاديثِ.

---

(١) في الأصول: «الجبائي»! والصواب ماأثبتناه.

(٢) ابن المقفع هو عبدالله الكاتب المشهور المتهم بالزندقة والمقتول عليها. وقال الشيخ الطنطاوي: «ابن المقفع الكاتب، وابن المقفع الذي توغل في بلاد الترك غيره، ذكره الطبري؛ فالتخليط من المؤلف لا من الجويني» اهـ. فلعله! لكن لم أجد ذكرًا لابن المقفع الآخر في «تاريخ الطبري» ولا في غيره!!

وأما أبو سعيد الجنابي القرمطي الذي قطن الأحساء وناحية البحرين؛ فهو الحسن بن بهرام الفارسي، وقد قتله غلام له سنة ٣٠١هـ. وانظر: «تاريخ الطبري» (٥ / ٦٧٨)، و«الكامل» لابن الأثير (٦ / ٤٨٢).

وأما الحسين بن منصور الحلاج؛ فهو الصوفي الحلولي المقتول على الزندقة؛ وقد تقدمت ترجمته في (فصل ١٦١).

وقبيحٌ بالفقيهِ أن يُقالَ له: ما معنى قولِ رسول الله ﷺ كذا؟ فلا يدري صحةَ الحديثِ ولا معناهُ!

نسأل اللهَ عزَّ وجلَّ هِمَّةً عاليةً لا ترضى بالنقائصِ بمنِّه ولُطفِه.

٣٣٧ـ فصل

[في علو همة أهل العلم من السلف وتقاصر همم الخلف]

كانت هِمَمُ القدماءِ من العلماءِ عَلِيَّةً، تدلُّ عليها تصانيفُهم التي هي زُبدةُ أعمارِهم؛ إلَّا أنَّ أكثرَ تصانيفِهم دَثَرَتْ؛ لأنَّ هِمَمَ الطُّلابِ ضَعُفَتْ، فصاروا يطلُبونَ المختصراتِ، ولا يَنْشطونَ للمطوَّلاتِ، ثم اقتصَروا على ما يدرُسونَ به من بعضِها، فدَثَرَتِ الكتبُ، ولم تُنْسَخْ!

فسبيلُ طالبِ الكمال في طَلَبِ العلم الاطِّلاعُ على الكتبِ التي قد تخلَّفَتْ من المصنَّفاتِ؛ فَلْيُكْثِرْ من المطالعةِ؛ فإنَّه يرى من علوم القومِ وعلوِّ هِمَمِهِم ما يَشْحَذُ خاطِرَهُ ويحرِّكُ عزيمتَه للجدِّ، وما يخلو كتابٌ من فائدةٍ.

وأعوذ باللهِ من سِيَرِ هٰؤلاء الذين نعاشِرُهم! لا نرى فيهم ذا هِمَّةٍ عاليةٍ فيقتدي بها المبتدي، ولا صاحبَ ورع فيستفيدُ منه الزاهدُ.

فاللهَ اللهَ! وعليكُم بملاحظةِ سِيَرِ السَّلفِ ومطالعةِ تصانيفِهم وأخبارِهم؛ فالاستكثارُ من مطالعةِ كُتُبِهم رؤيةٌ لهم؛ كما قالَ:

فاتَني أنْ أرى الدِّيارَ بِطَرْفي ... فَلَعَلِّي أرى الدِّيارَ بِسَمْعي

وإني أُخْبِرُ عن حالي: ما أشبعُ من مطالعةِ الكُتُبِ، وإذا رأيتُ كتابًا لم أره؛ فكأني وقعتُ على كنزٍ، ولقد نظرتُ في ثَبَتِ الكتبِ الموقوفةِ في

المدرسةِ النظاميَّةِ[١]؛ فإذا به يحتوي على نحوستةِ آلاف مجلَّدٍ، وفي ثَبَتِ كتبِ أبي حنيفةَ وكتبِ الحُمَيْدِيِّ[٢] وكتبِ شيخِنا عبدِ الوهاب بن ناصرٍ[٣] وكتبِ أبي محمـدِ بن الخشَّاب[٤] وكانت أحمالاً... وغير ذٰلك من كلِّ كتابٍ أقدرُ عليه، ولو قلتُ: إني طالعتُ عشرينَ ألفَ مجلَّدٍ؛ كانَ أكثرَ، وأنـا بعـدُ في الطلبِ! فاستفدتُ بالنظرِ فيها من ملاحظةِ سِيَرِ القوم وقَدْرِ هِمَمِهِم وحِفْـظِهِم وعباداتِهِم وغرائبِ علومِهِم ما لا يعرفُه مَن لـم يطالِعْ، فصرتُ أستزري ما الناسُ فيه وأحتقِرُ هِمَمَ الطلابِ. ولله الحمدُ.

٣٣٨ ـ فـصـل

[المخاطرة بالنفس وإلقاؤها في التهلكة غباء وحماقة]

ليس للآدميِّ أعزُّ من نفسِهِ، وقد عجبتُ ممَّن يخاطِرُ بها ويعرِّضُها للهلاكِ! والسببُ في ذٰلك قِلَّةُ العقل وسوءُ النَّظَر!!

فمنهم مَن يعرِّضُها للتلفِ لِيُمْدَحَ بزعمِهِ؛ مثلُ قوم يخرُجون إلى قتل السَّبُع! ومنهم من يَصْعَدُ إلى إيوانِ كِسرى؛ لِيُقالَ: شاطرٌ! وساع يمشي ثلاثينَ فرسخًـا! وهٰؤلاء إذا تَلِفـوا؛ حُمِلوا إلى النـارِ؛ فإنْ هَلَكَ؛ ذهبتِ

---

(١) هي المـدرسـة الكبـرى ببغـداد، أنشـأهـا الوزير المشهور الحسن بن علي الطوسي، المعروف بنظام الملك، وبدأ التدريس فيها سنة ٤٥٩هـ.

(٢) هو محمد بن أبي نصر فتوح الحميدي، الأندلسي، الميورقي، الفقيه، ولد قبل ٤٢٠هـ، واستـوطن بغداد، وتوفي سنة ٤٨٨هـ، وقد وقف كتبه. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (١٩ / ١٢٠).

(٣) تقدمت ترجمته في (فصل ٩٥).

(٤) تقدمت ترجمته في (فصل ٢٢٧).

النفسُ التي يُرادُ المالُ لأجلِها.

وأعجبُ من الكلِّ مَن يخاطِرُ بنفسِهِ في الهلاكِ ولا يدري؛ مثلُ أن يَغْضَبَ فيقتلَ المسلمَ فيشفيَ غيظَه بالتعذيبِ في جهنَّم.

وأظرفُ من هٰذا اليهودُ والنَّصارى؛ فإنَّ أحدَهم يبلُغُ، فيجبُ عليه أن يَنْظُرَ في نبوَّةِ نبيِّنا ﷺ؛ فإذا فرَّطَ فماتَ؛ فله الخلودُ في جهنَّمَ.

ولقد قلتُ لبعضِهم: ويحكَ! تخاطِرُ بنفسِك في عذابِ الأبدِ! نحن نؤمنُ بنبيِّكُم فنقولُ: لو أنَّ مسلمًا آمنَ بنبيِّنا وكذَّب بنبيِّكُم أو بالتوراةِ؛ خَلَدَ في النارِ؛ فما بينَنا وبينَكم خلافٌ[1]!! إذ نحنُ مؤمنونَ بصدقِهِ وكتابِهِ؛ فلو لَقيناهُ؛ لم نَخْجَلْ، ولو عاتَبَنا مثلًا وقالَ: هل قُمْتُم بسبتٍ بالسبتِ؟ والسبتُ من الفروعِ، والفروعُ لا يعاقَبُ عليها بالخلودِ. فقالَ لي رئيسُ القوم: ما نطالِبُكم بهٰذا؛ لأنَّ السبتَ إنما يلزمُ بني إسرائيلَ. فقلتُ: فقد سَلِمْنا بإجماعِكُم، وأنتم هالكونَ؛ لأنَّكم تخاطِرون بأرواحِكُم في العذابِ الدائم!! والعجبُ بمن يُهْمِلُ النَّظَرَ فيما إذا توانى فيه أوجبَ الخلودَ في العقابِ الدائم.

وأعجبُ من الكلِّ جاحدُ الخالقِ، وهو يرى إحكامَ الصَّنْعَةِ، ويقولُ: لا صانعَ!!

والسببُ في هٰذه الأشياءِ كلِّها قِلَّةُ العقل وتركُ إعمالِهِ في النظر والاستدلال.

---

(١) كيف؟! هم لا يؤمنون بنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام أصلًا، هم اتخذوه إلٰهًا من دون الله أو معه!!

٣٣٩ـ فصل
[في وجوب كتمان الأسرار]

لا ينبغي للعاقل أن يُظْهِرَ سرًّا حتى يَعْلَمَ أنه إذا ظَهَرَ لا يتأذَّى بظهورِهِ.

ومعلومٌ أن السببَ في بثِّ السرِّ طلبُ الاستراحةِ ببثِّهِ، وذلك ألمٌ قريبٌ؛ فليصبرْ عليه.

فربَّ مظهرٍ سرًّا لزوجتِهِ؛ فإذا طُلِّقَتْ؛ بَثَّتْهُ وهلكَ، أو لصديقِهِ، فيُظْهِرُ عليهِ حَسَدًا له إذا كان مماثلاً، وإن كان عاميًّا؛ فالعامِيُّ أحمقُ.

وربَّ سرٍّ أُظْهِرَ فكانَ سببَ الهلاكِ.

٣٤٠ـ فصل
[في مواساة فقراء أهل العلم والعمل]

ما يتناهى في طَلَبِ العلم إلاَّ عاشقُ العلم، والعاشقُ ينبغي أن يصبرَ على المكارِهِ، ومِن ضرورةِ المتشاغِلِ به البعدُ عن الكَسْبِ.

ومُذْ فُقِدَ التفقُّدُ لهم من الأمراءِ ومن الإخوانِ؛ لازَمَهُمُ الفقرُ ضرورةً، والفضائلُ تنادي: ﴿هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤمِنونَ وزُلْزِلوا زِلْزالاً شَديدًا﴾ [الأحزاب: ١١]؛ فكلَّما خافتْ من ابتلاءٍ؛ قالتْ:

لا تَحْسَبِ المَجْدَ تَمْرًا أنتَ آكِلُهُ ... لَنْ تَبْلُغَ المَجْدَ حتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرا

ولمّا آثَرَ أحمدُ بن حنبلٍ رضي الله عنه طَلَبَ العلم، وكان فقيرًا؛ بقي

أربعينَ سنةً يتشاغلُ به ولا يتزوَّجُ(١).

فينبغي للفقيرِ أن يصابرَ فقرَه كما فعلَ أحمدُ! ومَن يُطيقُ ما أطاقَ؟! فقد رَدَّ من المال خمسينَ ألفًا، وكانَ يأكلُ الكامَخَ ويتأدَّمُ بالملح؛ فما شاعَ له الذِّكْرُ الجميلُ جِزافًا، ولا تردَّدتِ الأقدامُ إلى قبرِهِ إلَّا لمعنىً عجيبٍ(٢). فيا له ثناءً ملأ الآفاقِ، وجَمالاً زيَّنَ الوجودَ، وعِزًّا نَسَخَ كلَّ ذُلٍّ! هٰذا في العاجل، وثوابُ الآجل لا يوصَف.

وتَلَمَّحْ قبورَ أكثرِ العلماءِ؛ لا تُعْرَفُ ولا تُزارُ... ترخَّصوا، وتأوَّلوا، وخالَطوا السلاطينَ، فذهبتْ بركةُ العلم، ومُحِيَ الجاهُ، ووردوا عندَ الموتِ حياضَ الندم! فيا لها حَسَراتٍ لا تُتلافى، وخُسْرانًا لا يَنْجَبِرُ! وكانت صحبةُ اللَّذَّاتِ طرفةَ عينٍ، ولازَمَ الأسفُ دائمًا.

فالصبرَ الصبرَ أيُّها الطالبُ للفضائل! فإنَّ لَذَّةَ الراحةِ بالهوى أو بالبطانةِ تذهبُ، ويبقى الأسى.

وقال الشافعيُّ رضي الله عنه:

يا نَفْسُ ما هو إلَّا صَبْرُ أيامٍ ... كأنَّ مُدَّتَها أضْغاثُ أحْلامِ
يا نَفْسُ جوزي عنِ الدُّنيا مبادِرَةً ... وخَلِّ عنها فإنَّ العيشَ قُدَّامي

ثم أيُّها العالِمُ الفقيرُ! أيسرُّكَ ملكُ سلطانٍ من السلاطينِ وأنَّ ما تَعْلَمُهُ من العلم لا تَعْلَمُهُ؟! كلَّا؛ ما أظنُّ بالمتيقِّظِ أن يُؤْثِرَ هٰذا!

ثم أنت إذا وَقَعَ لك خاطرٌ مستحسَنٌ أو معنىً عجيبٌ؛ تَجِدُ لَذَّةً لا

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١١ / ١٨٥).

(٢) انظر كثيرًا طيبًا من هٰذه الأخبار في ترجمته في «السير» (١١ / ١٧٧).

يَجِدُها ملتذٌّ باللَّذَّاتِ الحسيَّةِ. فقد حُرِمَ مَن رُزِقَ الشَّهواتِ ما قد رُزِقْتَ، وقد شاركْتَهم في قِوامِ العيشِ، ولم يَبْقَ إلَّا الفضولُ الذي إذا أخِذَ لم يَكَدْ يضُرُّ. ثم هم على المخاطرةِ في بابِ الآخرةِ غالبًا، وأنت على السلامةِ في الأغلبِ.

فتلمَّحْ يا أخي عواقبَ الأحوالِ! واقمع الكسلَ المثبِّطَ عن الفضائل! فإنَّ كثيرًا من العلماءِ الذين ماتوا مفرِّطين يتقلَّبونَ في حَسَراتٍ وأسفٍ.

رأى رجلٌ شيخَنَا ابنَ الزَّاغونيَّ[1] في المنام، فقالَ له الشيخُ: أكثرُ ما عندَكم الغفلةُ، وأكثرُ ما عندَنا الندامةُ.

فاهـربْ وفَّقـكَ الله قبلَ الحبسِ! وافسخْ عَقْدَ الهوى على الغَبْنِ الفاحشِ! واعلمْ أنَّ الفضائلَ لا تُنال بالهُوَيْنا، وأنَّ يَسيرَ التفريطِ يَشينُ وجهَ المحاسنِ!

فالبـدارَ البدارَ؛ ونَفَسُ النَّفْسِ يتردَّدُ، ومَلَكُ الموتِ غائبٌ ما قَدِمَ بعدُ، وانهضْ بعزيمةِ عازمٍ:

إذا هَمَّ ألْـقـى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَـهُ ... ونَكَّبَ عَنْ ذِكْـرِ العَـواقِبِ جانِبـا

ولم يَسْتَشِـرْ في أمْـرِهِ غَيْرَ نَفْسِـهِ ... ولم يَرْضَ إلَّا قائِمَ السَّيْفِ صاحِبا

وارفضْ في هذه العزيمةِ الدُّنيا وأربابَها؛ فبارَكَ اللهُ لأهلِ الدُّنيا في

(١) في الأصول: «ابن الزغواني»! والصواب ما أثبتناه.

وهو أبو الحسن، علي بن عبيد الله، البغدادي، الإمام، العلامة، شيخ الحنابلة، ولد سنة ٤٥٥هـ، وتوفي سنة ٥٢٧هـ. انظر ترجمته في: «المنتظم» (١٠ / ٣٢)، و«سير أعلام النبلاء» (١٩ / ٦٠٥).

دُنياهم؛ فنحنُ الأغنياءُ وهم الفقراءُ؛ كما قال إبراهيمُ بن أدهمَ: لو عَلِمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه؛ لجالَدونا عليه بالسيوفِ(١).

فأبناءُ الدُّنيا؛ أحدُهم لا يكادُ يأكلُ لقمةً إلَّا حرامًا أو شُبهة، وهو وإنْ لم يؤثِرْ ذلك؛ فوكيلُه يفعلُه، ولا يبالي هو بقلَّةِ دِينِ وكيلِه، وإنْ عَمَروا دارًا؛ سَخَّروا الفَعَلَةَ، وإن جَمَعوا مالاً؛ فمن وجوهٍ لا تَصْلُحُ، ثم كلٌّ منهم خائفٌ أن يُقْتَلَ أو يُعْزَلَ أو يُشْتَمَ؛ فعيشُهم نَغِصٌ.

ونحن نأكلُ ما ظاهِرُ الشرعِ يشهدُ له بالإباحةِ، ولا نخافُ من عدوٍّ، ولا ولايَتُنا تَقْبَلُ العزلَ، والعِزُّ في الدُّنيا لنا لا لهم، وإقبالُ الخَلْقِ علينا، وتقبيلُ أيْدينا وتعظيمُنا عندَهم كثيرٌ، وفي الآخرةِ بيننا وبينَهم تفاوتٌ إن شاءَ اللهُ تعالى.

فإنْ لَفَتَ أربابُ الدنيا أعناقَهم؛ يعلمونَ قَدْرَ مزيَّتِنا، وإن غُلَّتْ أيديهم عن إعطائِنا؛ فَلَذَّةُ العفافِ أطيبُ ومرارةُ المِنَنِ لا تفي بالمأخوذِ، وإنَّما هو طعامٌ دون طعامٍ، ولباسٌ دونَ لباسٍ، وإنَّها أيامٌ قلائلُ...

والعجبُ لمن شَرُفَتْ نفسُه حتى طَلَبَ العلمَ ـ إذ لا يطلبُهُ إلا ذو نفسٍ شريفةٍ ـ؛ كيف يَذِلُّ لِبَذْلِ مَن لا عزَّه إلَّا بالدنانيرِ ولا مفخرةَ له إلَّا بالمَكِنَةِ؟! ولقد أنشدني أبو يعلى العلويُّ:

رُبَّ قَوْمٍ في خَلائِقِهِمْ عَرَرٌ قَدْ صُيِّروا غُرَرا(٢)

---

(١) انظره في: «حلية الأولياء» (٧ / ٣٧١).

(٢) يعني: رب قوم قبيحة أفعالهم سيئة أخلاقهم، لكنهم حازوا على المكانة العلية ونظر الناس إليهم بما يملكون من مال.

سَتَــرَ الـمــالُ القَبيحَ لَهُمْ   سَتَــرى إنْ زالَ ما سَتَــرَا

أيقظنا اللهُ من رَقْدَةِ الغافلينَ، ورَزَقَنا فِكْرَ المتيقِّظينَ، ووفَّقنا للعمل بمقتضى العلم والعقل؛ إنَّه قريبٌ مجيبٌ.

٣٤١ ـ فصل

[عليكم بالتوسط، فإنه خير الأمور]

لا ينبغي للإنسانِ أن يَحْمِلَ على بدنِهِ ما لا يُطيقُ؛ فإنَّ البدنَ كالرَّاحلةِ؛ إن لم يُرْفَقْ بها؛ لم تَصِلْ بالراكبِ.

فترى في الناس من يتزهَّدُ وقد ربَّى جَسَدَهُ على الترفِ، فيُعْرِضُ عما ألِفَهُ، فتتجدَّدُ له الأمراضُ، فتقطعُه عن كثيرٍ من العباداتِ.

وقد قيلَ: عَوِّدوا كلَّ بدنٍ ما اعتادَ[1]!

وقد قُرِّبَ إلى رسول اللهِ ﷺ ضَبٌّ، فقالَ: «أجِدُني أعافُهُ؛ لأنَّه ليس بأرضِ قومي»[2].

وفي حديث الهجرةِ: أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه طَلَبَ لرسول اللهِ ﷺ الظِّلَّ، وفَرَشَ له فروةً، وصبَّ على القدح الذي فيه اللبنُ ماءً حتى بَرَدَ[1].

وجاء رسولُ اللهِ ﷺ على قوم، فقالَ: «إنْ كانَ عِنْدَكُم ماءٌ باتَ في

(١) وقد تقدم جميع ما ورد في هذا الفصل من أحاديث وآثار وتخريجها في فصول سابقة، وانظر (فصل ١٩، ١٥٣، ٢٤٧، ٣٣٢).

(٢) رواه: البخاري (٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد، ٣٣ ـ باب الضب، ٩ / ٦٦٣ / ٥٥٣٧)، ومسلم (٣٤ ـ كتاب الصيد والذبائح، ٧ ـ باب إباحة الضب، ٣ / ١٥٤٣ / ١٩٤٦)؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

شَنٍّ، وإلَّا؛ كَرَعْنا»(١).

وكان ﷺ يأكُلُ لحمَ الدَّجاجِ(١).

وفي «الصحيح»: أنَّه كان يحبُّ الحلوى والعسلَ(١).

وكانَ إذا لم يقدِرْ؛ أكَلَ ما حَضَرَ.

ولَعَمري؛ إنَّ في العربِ وأهلِ السوادِ من لا يؤثِّرُ عندَه التخشُّنُ في المطعم والمَلْبَسِ، وذاك إذا جرى بعد توبتِهِ على عادتِهِ؛ لم يستضرَّ. فأمَّا مَن قد ألِفَ اللُّطْفَ؛ فإنَّه إذا غَيَّرَ حالَتَه؛ تغيَّرَ بدنُهُ، وقلَّتْ عبادتُهُ.

وقد كان الحسنُ يديمُ أكلَ اللحم، ويقولُ: لا رغيفي مالكٍ، ولا صحني فَرْقَدٍ(١).

وكان ابنُ سيرينَ لا يُخْلي منزلَه من حلوى(١).

وكان سفيانُ الثوريُّ يسافرُ وفي سُفْرَتِهِ الحَمَلُ المشويُّ والفالوذَجُ(١).

وقالتْ رابعةُ: ما أرى لبدنٍ يُرادُ به العملُ للهِ إذا أكَلَ الفالوذَجَ عيبًا(١).

فمَن ألِفَ التَّرفَ؛ فينبغي أن يتلطَّفَ بنفسِهِ إذا أمكنَهُ.

وقد عرفتُ هٰذا من نفسي؛ فإني رُبِّيتُ في تَرَفٍ، فلما ابتدأتُ في التقلُّلِ وهَجْرِ المشتهى؛ أثَّر معي مَرَضًا قَطَعني عن كثيرٍ من التعبُّد، حتى إني قرأتُ في أيام كلَّ يوم خمسةَ أجزاءٍ من القرآنِ، فتناولتُ يومًا ما لا يَصْلُحُ، فلم أقدرْ في ذٰلك اليوم على قراءَتِها، فقلتُ: إنَّ لقمةً تُؤَثِّرُ قراءةَ

---

(١) انظر: (فصل ١٩ و١٥٣ و٢٤٧ و٣٣٢).

خمسةِ أجزاءٍ بكلِّ حرفٍ عشرُ حسناتٍ؛ إنَّ تناوُلَها لطاعةٌ عظيمةٌ! وإنَّ مَطْعَمًا يؤذي البدنَ فيفوتُهُ فعلُ خيرٍ ينبغي أن يُهْجَرَ!

وقد رأى رسولُ اللهِ ﷺ رجلًا من أصحابِهِ حَضَرَ عندَه وقد تَغَيَّرَ من التقشُّفِ، فقال له: «مَن أمَرَكَ بهٰذا؟!»[1].

فالعاقلُ يعطي بَدَنَهُ من الغذاءِ ما يوافِقُه كما ينقي الغازي شعيرَ الدَّابَّةِ.

ولا تظنَّنَّ أني آمر بأكلِ الشَّهَواتِ ولا بالإكثارِ من الملذوذِ! إنَّما آمُرُ بتناوُل ما يَحْفَظُ النفسَ وأنهى عما يؤذي البدنَ؛ فأمَّا التوسُّعُ في المطاعم؛ فإنَّه سببُ النوم، والشِّبَعُ يُعمي القلبَ ويُرَهِّل البدنَ ويُضْعِفُهُ.

فافهمْ ما أشرتُ إليه؛ فالطَّريقُ هي الوسطى[1].

٣٤٢ ـ فصل

[في فضل الفطنة وعاقبة الغفلة]

إذا تكامَلَ العقلُ؛ قَوِيَ الذَّكاءُ والفِطنةُ، والذكيُّ يتخلَّصُ إذا وَقَعَ في آفةٍ؛ كما قال الحسنُ: إذا كان اللِّصُّ ظريفًا؛ لم يُقْطَعْ، فأمَّا المغفَّلُ؛ فيجني على نفسِهِ المحنَ.

هٰؤلاء إخوةُ يوسفَ عليهم السلامُ؛ أبعدوه عن أبيهِ لِيَتَقَدَّموا عنده، وما عَلِموا أن حُزْنَهُ عليه يشغَلُه عنهم، وتُهْمَتَهُ إياهم تُبَغِّضُهم إليه!

ثم رَمَوْهُ في الجبِّ فقالوا: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: ١٠]،

---

(١) انظر: (فصل ١٩ و١٥٣ و٢٤٧ و٣٣٢).

وليس بطفل، إنَّما هو صبيٌّ كبيرٌ، وما علموا أنَّه إذا الْتُقِطَ؛ يحدِّثُ بحالِهِ، فيبلغُ الخبرُ إلى أبيهِ! وهٰذا تغفيلٌ!!

ثم إنَّهم قالوا: أكَلَه الذئبُ؛ وجاؤوا بقميصِهِ صحيحًا! ولو خرَّقوه؛ احتملَ الأمرُ(١).

ثم لما مَضَوا إليه يمتارونَ؛ قالَ: ﴿ائْتوني بِأَخٍ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٥٩]؛ فلو فَطِنوا؛ عَلِموا أنَّ مَلِكَ مصرَ لا غَرَضَ له في أخيهم.

ثم حَبَسَهُ بحجَّةٍ، ثم قالَ: هٰذا الصُّواعُ يُخْبِرُني أنه كان كذا وكذا! هٰذا كلُّه وما يَفْطَنونَ.

فلما أحَسَّ بهٰذه الأشياءِ يعقوبُ عليه السلام؛ قالَ: ﴿اذْهَبوا فَتَحَسَّسوا مِنْ يوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وكان يوسفُ عليه السلامُ قد نُهِيَ بالوحي أنْ يُعْلِمَ أباه بوجودِهِ، ولهٰذا؛ لما التقيا؛ قال له: هلَّا كتبت إليَّ! فقالَ: إن جبريلَ عليه السلامُ منعني. فلما نُهِيَ أن يعرِّفَه خَبَرَهُ لِيَنْفُذَ البلاءُ؛ كان ما فَعَلَ بأخيهِ تنبيهًا، فصار كأنَّه يُعَرِّضُ بِخطبةِ المعتدَّةِ.

وعلى فهم يوسفَ ـ واللهِ ـ بكى يعقوبُ لا على مجرَّدِ صورتِهِ.

٣٤٣ ـ فصل

[اصبر وصابر لنيل الفضائل]

الآدميُّ موضوعٌ على مطلوباتٍ تشتِّتُ الهمَّ؛ العينُ تطلُبُ المنظورَ، واللسانُ يطلُبُ الكلامَ، والبطنُ يطلُبُ المأكولَ، والفرجُ المنكوحَ، والطبعُ

---

(١) هٰذا لا يثبت، والأرجح الذي عند أهل الكتاب أنهم خرقوه.

يحبُّ جمعَ المال.

وقد أمِرْنا بجمع الهمِّ لذِكْرِ الآخرةِ والهوى يشتِّته؛ فكيف إذا اجتمعتْ إليه حاجاتٌ لازمةٌ من طَلَبِ قوتِ البدنِ وقوتِ العيال؟!

وهذا يُبكِّرُ إلى دكانِهِ، ويفتكِرُ في التحصيل، ويستعملُ آلةَ الفَهْم في نيل ما لا بدَّ منه؛ فأيُّ هَمٍّ يجتمعُ منه؟! خصوصًا إن أخَذَه الشَّرَهُ في صورةٍ، فيمضي العُمُر، فينهضُ من الدكانِ إلى القبرِ؛ فكيف يحصُلُ العلمُ أو العملُ أو إخلاصُ القصدِ أو طلبُ الفضائل؟!

فمَن رُزِقَ يَقَظَةً؛ فينبغي أن يصابِرَ لنيل الفضائل:

فإن كان متزهِّدًا بغير عائلةٍ؛ اكتفى بسعي قليل؛ فقد كان السبتيُّ يعملُ يومَ السبتِ فيكتفي به طولَ الأسبوع.

فإنْ كانَ له مالٌ؛ باضَعَ[1] به من يَكْفيهِ بدينِه وثِقَتِهِ من أن يهتمَّ هو.

وإن كانَ له عائلةٌ؛ جَمَعَ همَّه في نيةِ الكسبِ عليهم فيكونُ متعبِّدًا.

أو أن يكونَ قِنْيَةُ مال كعِقارٍ؛ ناصفَه في نفقتِهِ؛ لِيَكْفِيَهُ دخلَه، وليقلِّلَ الهمَّ على مقدارِ ما يُمْكِنُهُ من حذفِ العلائقِ جهدَه؛ ليجمعَ الهمَّ في ذِكْرِ الآخرةِ.

فإن لم يفعلْ؛ أُخِذَ في غفلتِهِ وندِمَ في حفرتِهِ.

وأقبحُ الأحوال حالُ عالم فقيهٍ، كلَّما جَمَعَ همَّه لذِكْرِ الآخرةِ؛ شَتَّتَهُ

(١) باضع: اشترى بضاعة وأعطاها لمن يتاجر له فيها ويبيعها... إلخ، وهي ما يعرف بشركة المضاربة.

طَلَبُ القوت للعائلةِ، وربَّما احتاجَ إلى التعرُّضِ للظَّلَمَةِ وأخذِ الشُّبُهاتِ وبَذْل الوجهِ، فيلزمُ هٰذا التقديرُ في النَّفَقَةِ، وإذا حَصَلَ له شيءٌ من وجهٍ؛ دَبَّرَ فيه. ولا ينبغي أن يحمِلَهُ قِصَرُ الأمل على إخراج ما في يدِهِ؛ فقد قالَ ﷺ: «لأنْ تَتْرُكَ وَرَثَتَكَ أغنياءَ خيرٌ مِن أن تَتْرُكَهُم عالةً يتكفَّفونَ الناسَ»(١). وأذلُّ من كلِّ ذلٍّ التعرضُ للبخلاءِ والأمراءِ؛ فليدبِّرْ أمرَه، ويقلِّل العلائقَ، ويحفظْ جاهَه؛ فالأيامُ قلائلُ.

وقـد بُعِثَ إلى أحمـدَ بنِ حنبـل مالٌ، فسألَهُ ابنُه قَبولَه، فقالَ: يا صالحُ! صُنِّي! ثم قالَ: أستخيرُ اللهَ. فأصبحَ فقالَ: يا بنيَّ! قد عُزِمَ لي أن لا أَقْبَلَهُ(٢).

هٰذا؛ وكان العطاءُ هَنِيًّا، وجاءَه من وجوهٍ! فانعكسَ الأمرُ اليومَ.

٣٤٤ـ فصـل

[في لزوم الحكمة والمداراة في معاملة الناس]

العزلةُ عن الخَلْقِ سببُ طِيبِ العَيْش، ولا بدَّ مِن مخالطةٍ بمقدارٍ.

فدارِ العدوَّ واستحِلَّه؛ فربما كادَكَ فأهلَكَكَ!

وأحسنْ إلى مَن أساءَ إليك! واستعنْ على أمورِك بالكتمانِ!

ولْتكنِ النـاسُ عندك معارفَ، فأمّا أصدقاءَ؛ فلا؛ لأنَّ أعزَّ الأشياءِ وجودُ صديقٍ، ذاك أنَّ الصديقَ يجبُ أن يكونَ في مرتبةِ مماثلٍ؛ فإن صادفْتَهُ

(١) تقدم تخريجه في (فصل ٣٤).

(٢) وانظر كثيرًا طيبًا من هٰذه الأخبار في «سير أعلام النبلاء» (١١/١٧٧).

عاميًّا؛ لم تنتفعْ به؛ لسوءِ أخلاقِهِ وقلةِ علمِهِ وأدبِهِ، وإن صادفتَ مماثلاً أو مقارِبًا؛ حَسَدَكَ، وإذا كانَ لكَ يَقَظَةٌ؛ تَلَمَّحْتَ من أفعالِهِ ما يدُلُّ على حسدِكَ، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، وإذا أردتَ تأكيدَ ذلك؛ فضعْ عليه مَن يَضَعُكَ[1] عندَه؛ فلا يَخْرُجُ إليه إلَّا بما في قلبِهِ.

فإن أردتَ العيشَ؛ فابعُدْ عن الحسودِ؛ لأنه يرى نعمتَكَ؛ فربَّما أصابَها بالعينِ!

فإنِ اضطُرِرْتَ إلى مخالطتِهِ؛ فلا تُفْشِ له سِرَّكَ ولا تشاوِرْه، ولا يَغُرَّنَّكَ تملُّقُه[2] لك ولا ما يُظْهِرُه من الدينِ والتعبُّدِ؛ فإنَّ الحسدَ يغلِبُ الدِّينَ! وقد عرفتَ أنَّ قابيلَ أخرجَه الحسدُ إلى القتلِ! وأنَّ إخوةَ يوسُفَ باعوه بثمنٍ بَخْسٍ! وكان أبو عامرٍ الراهبُ من المتعبِّدين العقلاءِ، وعبدُ اللهِ بنُ أبيٍّ من الرؤساءِ؛ أخرجَهُما حسدُ رسول الله ﷺ إلى النفاقِ وتَرْكِ الصوابِ.

ولا ينبغي أن تَطْلُبَ لحاسِدِك عقوبةً أكثرَ ممّا هو فيه؛ فإنَّه في أمرٍ عظيمٍ متَّصلٍ، لا يرضيهِ إلَّا زوالُ نعمتِكَ، وكلَّما امتدَّت؛ امتدَّ عذابُه؛ فلا عيشَ له!

وما طابَ عيشُ أهلِ الجنةِ إلَّا حين نُزِعَ الحسدُ والغِلُّ من صدورِهم، ولولا أنَّه نُزِعَ؛ تحاسَدوا وتَنَغَّصَ عيشُهم[3].

---

(١) يعني: يحط من قدرك.

(٢) تملُّقه: تودده وتقربه منك.

(٣) قال سبحانه وتعالى في وصفهم: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانًا على سرر متقابلين﴾ [الحجر: ٤٧].

٣٤٥ ـ فصل
[من نهى النفس عن الهوى نال نعيم الدنيا والآخرة]

مَن سارَ مع العقل، وخالَفَ طريقَ الهوى، ونَظَرَ إلى العواقِب؛ أمْكَنَهُ أن يتمتَّعَ مِن الدُّنيا والذِّكْرِ الجميل ويكونَ ذلك سببًا لفواتِ مُرادِهِ من اللَّذَّاتِ، وبيانُ هذا من وجهين:

أحدُهما: أنَّ مَن مال إلى شَهَواتِ النِّكاح وأكثرَ منها؛ قَلَّ التذاذُه، وفَنِيَتْ حرارتُهُ، وكان ذلك سببًا في عدم مطلوبِهِ منها! ومن استعملَ ذلك بمقدارِ ما يُجيزُهُ العقلُ ويحتمِلُه؛ كان التذاذُه أكثرَ لِبُعدِ ما بينَ الجماعَيْنِ، وأمكَنَهُ التردُّدُ لبقاءِ الحرارةِ.

وكذلك مَن غشَّ في معاملتِهِ أو خانَ؛ فإنَّه لا يُعامَلُ، فيفوتُه ربحُ المعاملةِ الدائمةِ لخيانتِهِ مَرَّةً، ولو عُرِفَ بالثِّقَةِ؛ دامتْ معاملةُ الناسِ لهُ، فزادَ رِبْحُهُ.

والثاني: أنَّه مَن اتَّقى اللهَ وتشاغَلَ بالعلم أو تحقيقِ الزُّهْدِ؛ فُتِحَ له من المباحاتِ ما يلتذُّ به كثيرًا، ومَن تقاعَدَ به الكسلُ عن العلم أو الهوى عن تحقيقِ الزُّهْدِ؛ لم يحصُلْ له إلَّا اليسيرُ مِن مرادِهِ.

قال عزَّ وجلَّ: ﴿وأنْ لوِ اسْتَقاموا على الطَّريقَةِ لأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

٣٤٦ ـ فصل
[في عيش الصديقين وعيش المخبطين]

ينبغي أن يكونَ العملُ كلُّه للهِ ومعهُ ومن أجلِهِ؛ وقد كفاكَ كلَّ

مخلوقٍ، وجَلَبَ لك كلَّ خيرٍ.

وإياكَ أن تميلَ عنه بموافقةِ هوىً وإرضاءِ مخلوقٍ؛ فإنه يُعْكَسُ عليك الحالُ، ويفوتُكَ المقصودُ، وفي الحديثِ: «مَنْ أرضى الناسَ بِسَخَطِ اللهِ؛ عادَ حامِدُهُ مِن الناسِ ذامًّا»(١).

وأطيبُ العيشِ عيشُ مَن يعيشُ مع الخالقِ سبحانَه.

فإنْ قيلَ: كيفَ يعيشُ معهُ؟

قلتُ: بامتثالِ أمرِهِ، واجتنابِ نهيِهِ، ومراعاةِ حدودِهِ، والرِّضى بقضائِهِ، وحسنِ الأدبِ في الخَلْوةِ، وكَثْرَةِ ذِكرِهِ، وسلامةِ القلبِ من الاعتراضِ في أقدارهِ؛ فإن احتجتَ؛ سألتَهُ؛ فإنْ أعطى، وإلَّا؛ رضيتَ بالمَنْعِ، وعلمتَ أنَّه لم يَمْنَعْ بُخلاً، وإنما نظرًا لك، ولا تَنْقَطِعْ عن السؤالِ؛ لأنَّك تتعبَّدُ به، ومتى دُمْتَ على ذٰلك؛ رَزَقَكَ محبَّتَهُ وصدقَ التوكُّلِ عليه،

---

(١) (حسن). رواه: البزار في «مسنده» (رقم ٣٥٦٨ ـ كشف)، والبيهقي في «الزهد» (رقم ٨٨٧)؛ من طريق قطبة بن العلاء الغنوي، عن أبيه، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة مرفوعًا.

قال البزار: «لا نعلم أحدًا أسنده إلا قطبة عن أبيه، ورواه غيره عن هشام عن أبيه موقوفًا». وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ٢٢٨): «رواه البزار من طريق قطبة بن العلاء عن أبيه، وكلاهما ضعيف». وقال العقيلي: «لا يتابع عليه». وفي قطبة وأبيه ضعف؛ كما في ترجمتهما في «الميزان» و«لسانه».

لٰكن يشهد له ما صح عنها رضي الله عنها موقوفًا ومرفوعًا عند الترمذي وابن حبان وأبي نعيم في «الحلية» والبغوي في «شرح السنة» وغيرهم بلفظ: «من التمس رضى الله بسخط الناس؛ كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله؛ وكله الله إلى الناس». والحديث قواه الألباني في «الصحيحة» (٥ / ٣٩٤ / ٢٣١١) بهٰذا اللفظ.

فصارتِ المحبةُ تدلُّك على المقصودِ، وأثمرتْ لك محبَّتَهُ إياك؛ فحينئذٍ تعيشُ عَيْشَ الصديقينَ... ولا خيرَ في عيش إنْ لم يكنْ كذا.

فإنَّ أكثـرَ الناس مخبِّطٌ في عيشِهِ، يداري الأسبابَ، ويميلُ إليها بقلبـهِ، ويتعبُ في تحصيل الرزقِ بِحرْصٍ زائدٍ على الحدِّ وبرغبةٍ[1] إلى الخَلْق، ويعترِضُ عند انكسارِ الأغراضِ؛ والقَدَرُ يجري ولا يُبالي بِسَخَطٍ، ولا يحصُلُ له إلَّا ما قُدِّرَ، وقد فاتَه القُرْبُ من الحقِّ والمحبةُ له والتأدبُ معه... فذلك العَيْشُ عَيْشُ البهائم.

٣٤٧ ـ فصل

[من مال إلى تدبير العقل؛ سلم في دنياه وآخرته]

نظرتُ في حِكْمَةِ المَطْعم والمَشْربِ والمَلْبسِ والمَنْكحِ:

فرأيتُ أنَّ الآدميَّ لما خُلِقَ من أصول تتحلَّلُ، وهي الماءُ والترابُ والنارُ والهواءُ، وبقاؤه إنما يكونُ بالحرارةِ والرُّطوبةِ، والحرارةُ تحلِّلُ الرطوبةَ دائمًا؛ فلم يكن له بدٌّ من شيءٍ يُخْلِفُ ما بَطَلَ.

ولما كان اللحمُ لا ينوبُ عنه إلَّا اللحمُ؛ أباحَ الشرعُ ذَبْحَ الحيوانِ ليتقوَّى به مَن هو أشرفُ منه.

ولما كان بدنُهُ يحتاجُ إلى كسوةٍ، وله قدرةُ تمييزٍ، وقدرةٌ يصنعُ بها ما يَقيه الأذى من القـطنِ والصُّـوفِ؛ لم يجعـلْ على جلدِهِ ما يقيهِ خِلْقةً؛ بخلافِ الحيوانِ البهيم؛ فإنَّه لما لم يكن له قدرةٌ على ما يغطي جلدَهُ؛ عوَّضَهُ بالريش والشعرِ والوبرِ.

---

(١) في الأصول: «وبرغبه»! ولا محل لها هنا، وما أثبتناه أولى.

ولما لم يكن بدٌّ من فَناءِ الآدميِّ والحيوانِ؛ هيَّجَ شهوةَ الجِماع؛ لِتُخْلِفَ النسل.

فمقتضى العقل الذي حُرِّكَ على طَلَبِ هٰذه المصالح أن يكونَ التناولُ للمطعم والمشرب مقدارَ الحاجةِ والمصلحةِ؛ ليقعَ الالتذاذُ بالعافيةِ، ومن البليَّةِ طَلَبُ الالتذاذِ بالمَطْعَم وإن كانَ غيرَ صالح، والإكثارُ منه، والشَّرَهُ في تناولِهِ، وكذٰلك الكسوةُ والنكاحُ!

ومن الحزم جَمْعُ المال وادِّخارُهُ لعارض حاجةٍ مِن ذٰلك، ومن التغفيل إنفاقُ الحاصل؛ فربَّما عَرَضَتْ حاجةٌ، فلم يُقْدَرْ عليها، فأثَّرَ عدمُها في البدنِ أو في العِرْضِ بطَلَبِها من الأنذال!

ومن أقبح الأمورِ الانهماكُ في النكاح طلبًا لصورةِ اللَّذَّةِ؛ ناسيًا ما يجني ذٰلك من انحلال القوةِ، ويزيدُ في الحرام بالعقوبةِ.

فمَن مالَ إلى تدبيرِ العقل؛ سَلِمَ في دنياه وآخرتِهِ، ومن أعرضَ عن مشاورتِهِ أو عن القَبول منه؛ تَعَجَّلَ عَطَبَه.

فليُفْهَمْ مقصودُ الموضوعاتِ وحِكَمُها والمرادُ منها!

فمَن لم يفهمْ ولم يعملْ بمقتضى ما فَهِمَ؛ كانَ كأجهل العوامِّ، وإنْ كانَ عالمًا.

٣٤٨ ـ فصل

[في مخاطر مخالطة الأمراء]

العجبُ ممَّن له مُسْكَةٌ من عقل، أو عندَه قليلٌ من دينٍ؛ كيف يؤثِرُ

مخالَطَتهُم؟!

فإنَّه بالمخالطةِ لهم أو العمل معهُم يكونُ قَطْعًا خائفًا من عزل أو قتل أو سمٍّ، ولا يمكِنُه أن يعملَ إلَّا بمقتضى أوامرِهم؛ فإن أمروا بما لا يجوزُ؛ لم يقدرْ أن يراجِعَ؛ فقد باعَ دينَه قَطْعًا بدُنياه، فمنعَهُ الخوفُ من القيام بأمرِ اللهِ، وضاعتْ عليه آخرتُهُ، ولم يبقَ بيدِهِ إلَّا عاجلُ التَّعظيم، وأن يُقالَ بين يديهِ: بسم اللهِ! وأن يُنَفَّذَ أوامرُه! وذلك بعيدٌ من السلامةِ في بابِ الدِّين، وما يلتذُّ به منه في الدُّنيا ممزوجٌ بخوفِ العَزْل أو القَتْل.

٣٤٩ـ فصل

[رحم الله من تلمح العواقب وعمل بمقتضى العقل]

من الغلطِ العظيم أن يُتَكَلَّمَ في حقِّ معزول بما لا يَصْلُحُ؛ فإنَّه لا يُؤمَنُ أن يَلِيَ فينتقمَ.

وفي الجملةِ؛ لا ينبغي أن يُظْهِرَ العداوةَ لأحدٍ أصلًا؛ فقد يَرْتَفعُ المُحْتَقَرُ، وقد يتمكَّنُ مَن لا يُعَدُّ(١).

بل ينبغي أن يُكْتَمَ ما في النُّفوس من ضَغَنٍ على الأعداءِ؛ فإن أمكنَ الانتقامُ منهم؛ كان العفوُ انتقامًا؛ لأنه يُذِلُّهم.

وينبغي أن يُحْسَنَ إلى كلِّ أحدٍ، خصوصًا مَن يجوزُ أن يكونَ له ولايةٌ، وأن يُخْدَمَ المعزولُ؛ فربما نَفَعَ في ولايتِهِ.

وقد رُوِّينا أنَّ رجلًا استأذنَ على قاضي القضاةِ ابنِ أبي دُؤادٍ وقال:

---

(١) من لا يُعَدُّ: يعني: من لا يعد من أهلها ولا يُتوقع أن ينالها.

قولوا: أبو جعفرٍ بالبابِ! فلمَّا سَمِعَ؛ هشَّ لذلك وقالَ: ائْذَنوا له! فَدَخَلَ، فقامَ، وتلقَّاه، وأكرمَه، وأعطاه خمسةَ آلافٍ، وودَّعَه. فقيلَ له: رجلٌ من العـوامِّ فعلتَ به هٰذا؟! قالَ: إني كنتُ فقيرًا، وكان هٰذا صديقًا، فجئتُه يومًـا، فقلتُ له: أنا جائعٌ. فقالَ: اجلسْ! وخَرَجَ، فجاء بشواءٍ وحلوى وخبزٍ، فقال: كُلْ. فقلتُ: كُلْ معي. قال: لا. قلتُ: واللهِ؛ لا آكلُ حتّى تأكُلَ معي. فأكَلَ، فجعلَ الدَّمُ يجري من فمِهِ. فقلتُ: ما هٰذا؟ فقال: مرضٌ. فقلتُ: واللهِ؛ لا بدَّ أن تخبرَني. فقال: إنَّك لما جئتني؛ لم أكنْ أملكُ شيئًا، وكانت أسناني مضبَّبةٌ بشريطٍ من ذهبٍ، فنزعتُه، واشتريتُ به! فهلَّا أكافىءُ مثلَ هٰذا[1]؟!

وعلى عكسِ هٰذه الأشياءِ كان ابنُ الزَّيَّاتِ وزيرَ الواثقِ، وكان يَضَعُ من المتوكِّل، فلمَّا وَلِيَ؛ عذَّبَه بأنواع العذابِ[2].

وكذٰلك ابنُ الخزريِّ؛ كان لا يُوَقِّرُ المسترشدَ قبلَ الولايةِ، فجَرَتْ عليهِ الآفاتُ لمَّا وَلِيَ[3].

(١) تقدمت ترجمة ابن أبي دؤاد في (فصل ٢٠٧).

(٢) الواثق بالله هو هارون بن المعتصم بن الرشيد، الخليفة العباسي، توفي سنة ٢٣٢هـ، فبويع أخوه المتوكل على الله جعفر بن المعتصم، وهو الذي أظهر السنة وأوقف القول بخلق القرآن، توفي سنة ٢٤٧هـ، وكان ابن الزيات محمد بن عبد الملك أديبًا علامة وزر للمعتصم والـواثق، فأغـرى به ابن أبي دؤاد المتوكل، فناله ما ناله، حتى توفي سنة ٢٣٣هـ. وانظر: «سير أعلام النبلاء» (١٠ / ٣٠٦، ١١ / ١٧٢، ١٢ / ٣٠).

(٣) وقع في الأصول: «ابن الجزري»، ولم أجد من اتصل بالمستظهر أو المسترشد ممن يسمى بهٰذا الاسم، والذي يغلب على الظن ما أثبتناه من أنه ابن الخزري؛ كما أورده الذهبي في «السير» (١٩ / ٥٦٦) فيمن قتل مع المسترشد من حاشيته. وقد مضت ترجمة المسترشد في (فصل ١٨٣).

فالعاقل من تأمَّلَ العواقبَ ورعاها، وصَوَّرَ كلَّ ما يجوز أن يَقَعَ، فَعَمِلَ بمقتضى الحزم.

وأبلغُ من هٰذا تصويرُ وجودِ الموتِ عاجلاً؛ لأنه يجوزُ أن يأتِيَ بغتةً من غيرِ مرض؛ فالحازمُ مَن استعدَّ له، وعَمِلَ عَمَلَ مَن لا يندمُ إذا جاءَه، وحَذِرَ من الذنوبِ؛ فإنَّها كعدوٍّ مراصِدٍ بالجزاءِ، وادَّخَرَ لنفسِهِ صالحَ الأعمال؛ فإنَّها كصديقٍ صِدِّيقٍ ينفعُ وقتَ الشِّدَّةِ.

وأبلغُ من كلِّ شيءٍ أن يَعْلَمَ المؤمنُ أنَّه كلَّما زاد عملُه في الفضائل؛ علتْ مرتبتُه في الجنةِ، وإن نَقَصَ نَقَصَتْ؛ فهو وإن دَخَلَ الجنةَ في نَقْص بالإضافةِ إلى كمال غيرِهِ؛ غير أنَّه قد رَضِيَ به ولا يشعُرُ بذٰلك.

فرحم اللهُ من تَلَمَّحَ العواقبَ، وعَمِلَ بمقتضى التلمُّح، والله تعالى الموفِّقُ.

٣٥٠ ـ فصل

[في اغترار الناس بالدنيا وتلاعبها بهم]

لما جمعتُ كتابي المسمَّى بـ «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»؛ اطَّلعتُ على سِيَرِ الخلقِ من الملوكِ والوزراءِ والعلماءِ والأدباءِ والفقهاءِ والمحدِّثين والزُّهَّادِ وغيرِهم، فرأيتُ الدُّنيا قد تلاعبتْ بالأكثرينَ تلاعُبًا أذهبَ أديانَهم، حتَّى كانوا لا يؤمنونَ بالعقابِ.

فمِن الأمراءِ مَن يَقْتُلُ ويُصادِرُ ويَقطعُ ويَحبِسُ بغير حقٍّ، ثم ينخرطُ في سِلْكِ المعاصي، كأنَّ الأمرَ إليه، أو قد جاءَهُ الأمنُ من العقابِ، فربَّما تخايلَ أنَّ حِفْظي الرَّعايا يَرُدُّ عَنِّي، وينسى أنَّه قد قيلَ لرسول الله ﷺ: ﴿قُلْ

إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥]!!

وقدِ انخرطَ جماعةٌ ممَّن يتَّسِمَ بالعلم في سلكِ المعاصي لتحصيل أغراضِهم العاجلةِ؛ فما نَفَعَهُمُ العلمُ!

ورأينا خلقًا من المتزهِّدين خالَفوا لنيل أغراضِهِم!

وهٰذا لأنَّ الدُّنيا فَخٌّ، والناسُ كعصافيرَ، والعصفورُ يريدُ الحبَّةَ وينسى الخَنْقَ... قد نسي أكثرُ الخَلْقِ مآلَهم مَيْلًا إلى عاجلِ لَذَّاتِهِم، فأقبلوا يسامِرون الهوى، ولا يلتفِتون إلى مشاورةِ العقل... فلقد باعوا بِلَذَّةٍ يسيرةٍ خيرًا كثيرًا، واستحقُّوا بشهواتٍ مرذولةٍ عذابًا عظيمًا... فإذا نَزَلَ بأحدِهِم الموتُ؛ قالَ: ليتني لم أكنْ! ليتني كنت ترابًا! فيُقالُ له: آلآن؟!

فوا أسفا؛ لفائتٍ لا يمكنُ استدراكُه، ولمُرْتَهنٍ لا يَصِحُّ فكاكُه، ولندم لا ينقطِعُ زمانُه، ولمعذَّبٍ عزَّ عليه إيمانُه بالله!

باللهِ؛ ما نفعتِ العقولُ إلَّا لمن يَلْتَفِتُ إليها ويعوِّلُ عليها، ولا يمكِنُ قَبول مشاورِها إلَّا بعزيمةِ الصبرِ عمَّا يَشْتَهي.

فتأمَّلْ في الأمراءِ عمرَ بنَ الخطابِ وابنَ عبدِ العزيز رضي الله عنهما، وفي العلماءِ أحمدَ بنَ حَنْبل رحمةُ الله عليه، وفي الزُّهَّادِ أُوَيْسًا القَرَنيَّ[1]؛ لقد أعْطَوُا الجِدَّ حقَّه، وفهموا مقصودَ الوجودِ.

وما هَلَكَ الهالكونَ إلَّا لقلَّةِ الصبرِ عن المُشْتَهى، وربَّما كان فيهم مَن

(١) في الأصول: «أويس»، والصواب ما أثبتناه، وإن كان للرفع وجه يضعف المعنى، وهو الزاهد، القدوة، خير التابعين بشهادة سيد المرسلين. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٤ / ١٩)، و«ميزان الاعتدال» (١ / ٢٧٨).

لا يؤمِنُ بالبعثِ والعقاب.

وليس العجبُ من ذاك، إنَّما العجبُ من مؤمنٍ يوقنُ ولا ينفعهُ يقينُه! ويعقِلُ العواقبَ ولا ينفعُهُ عقلُهُ!

٣٥١ ـ فصل

[إذا كانت الهمم علية؛ تعبت في مرادها الأجسام]

مَن رُزِقَ هِمَّةً عاليةً؛ يُعَذَّبُ بمقدار عُلُوِّها!

كما قالَ الشاعرُ:

وإذا كانَتِ النُّفوسُ كِبارًا　　تَعِبَتْ في مُرادِها الأجسامُ

وقالَ الآخرُ:

ولِكُلِّ جسم في النُّحول بَلِيَّةٌ　　وبَلاءُ جِسْمي مِن تَفاوُتِ هِمَّتي

وبيانُ هٰذا أنَّ مَن عَلَتْ هِمَّتُهُ؛ طَلَبَ العلومَ كلَّها، ولم يقتصِرْ على بعضِها، وطَلَبَ مِن كلِّ علم نهايَتَهُ، وهٰذا لا يحتمِلُه البدنُ.

ثم يرى أنَّ المرادَ العملُ، فيجتهِدُ في قيام الليل وصيام النَّهارِ، والجمعُ بينَ ذٰلك وبينَ العلم صعبٌ.

ثم يرى تَرْكَ الدُّنيا ويحتاجُ إلى ما لا بدَّ منه، ويحبُّ الإيثارَ ولا يَقْدِرُ على البُخل ويتقاضاه الكرمُ البَذْلَ ويمنعُه عزُّ النفس عن الكسب من وجوهِ التبذُّل[1]؛ فإنْ هُوَ جرى على طبعِهِ من الكَرَم؛ احتاجَ وافتقرَ وتأثَّر بدنه

(١) التبذل: ترك التصاون والترفع.

وعائلته، وإن أمسَكَ؛ فطبعُه يأبى ذٰلك.

وفي الجملةِ؛ يحتـاجُ إلى معاناةٍ وجمع بينَ أضدادٍ؛ فهو أبدًا في نَصَبٍ لا ينقضي وتعبٍ لا يَفْرَغُ.

ثم إذا حقَّقَ الإخلاصَ في الأعمال؛ زادَ تعبُهُ وقَوِيَ وَصَبُه[1].

فأين هو ومَن دَنَتْ هِمَّتُهُ؟!

إن كان فقيهًا، فسُئِل عن حديثٍ؛ قالَ: ما أعرِفُه! وإن كان محدِّثًا، فسُئِلَ عن مسألةٍ فقهيَّةٍ؛ قالَ: ما أدري! ولا يبالي إن قيلَ عنه: مقصِّرٌ!! والعالي الهمَّةِ يرى التقصيرَ في بعض العلوم فضيحةً قد كَشَفَتْ عَيْبَهُ وقد أرتِ الناسَ عَوْرَتَهُ.

والقصيرُ الهمَّةِ لا يبالي بمنن الناسِ، ولا يستقبِحُ سؤالَهم، ولا يأنَفُ من ردٍّ!! والعالي الهمَّةِ لا يَحْمِلُ ذٰلك.

ولٰكنَّ تَعَبَ العـالي الهمَّة راحةٌ في المعنى، وراحةُ القصيرِ الهمَّةِ تعبٌ وشَيْنٌ؛ إن كان ثَمَّ فهمٌ.

والدُّنيا دارُ سباقٍ إلى أعالي المعالي؛ فينبغي لذي الهِمَّةِ أن لا يُقَصِّرَ في شوطِهِ؛ فإن سَبَقَ؛ فهو المقصودُ، وإن كَبا جوادُه مع اجتهادِهِ؛ لم يُلَمْ.

٣٥٢ ـ فصل

[الرضى عن النفس يورد المهالك]

المصيبةُ العظمى رضى الإنسانِ عن نفسِهِ واقتناعُه بعلمِهِ!

---

(١) الوصب: المرض والتعب.

وهٰذه محنةٌ قد عمَّتْ أكثرَ الخَلْق:

فترى اليهوديَّ أو النصرانيَّ يرى أنه على الصواب، ولا يبحثُ ولا ينظرُ في دليل نبوَّةِ نبيِّنا ﷺ، وإذا سَمِعَ ما يُلينُ قلبَه مثلَ القرآنِ المعجزِ؛ هَرَبَ؛ لئلَّا يسمعَ!

وكذٰلك كلُّ ذي هوىً يَثْبُتُ عليه: إما لأنَّه مذهبُ أبيهِ وأهلِهِ، أو لأنَّه نَظَرَ نظرًا أولَ فرآه صوابًا، ولم يَنْظُرْ فيما يناقِضُه، ولم يباحِثِ العلماءَ ليبيِّنوا له خطأَهُ!

ومِن هٰذا حالُ الخوارج على أميرِ المؤمنينَ عليٍّ رضي الله عنه؛ فإنهم استحسنوا ما وَقَعَ لهم، ولم يرجِعوا إلى مَن يعلم، ولما لَقِيَهُم عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما، فبَيَّنَ لهم خطأَهُم؛ رَجَعَ عن مذهبِهِ منهم ألفانِ[1].

ومِمَّن لم يَرْجِعْ عن هواه ابنُ ملجم، فرأى مذهبَه هو الحقَّ، فاستحلَّ قَتْلَ أميرِ المؤمنينَ رضي الله عنه، ورآه دِينًا، حتَّى إنه لما قُطِّعَتْ أعضاؤُهُ؛ لم يمانِعْ، فلما طُلِبَ لسانُه لِيُقْطَعَ؛ انزعجَ، وقال: كيفَ أبقى ساعةً في الدُّنيا لا أذكرُ اللهَ[2]؟! ومثلُ هٰذا ما له دواءٌ.

---

(١) (صحيح). رواه أحمد (١ / ٨٦) في حديث مطول في قصة الخوارج، وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (٥ / ٣٨٢ / ٣٧هـ) وقال: «تفرد به أحمد، وإسناده صحيح، واختاره الضياء»، ووقع عندهما أن الذين رجعوا كانوا أربعة آلاف لا ألفين.

(٢) هو ذاك المقبوح المغتر الخارجي، عبد الرحمٰن بن ملجم، وكان مقتله سنة ٤٠هـ. وانظر ترجمته وخبره هٰذا في: «طبقات ابن سعد» (٣ / ٢٣)، و«لسان الميزان» (٣ / ٥٤٣).

وكذٰلك كان الحجاجُ يقولُ: واللهِ؛ ما أرجو الخيرَ إلَّا بعد الموتِ[1]! هٰذا قوله! وكم قد قَتَلَ مَن لا يحلُّ قتلُه، منهم سعيدُ بن جُبيرٍ[2].

وقد أخبرنا عبد الوهابِ وابن ناصرٍ الحُفَّاظُ؛ قالا: أخبرنا المباركُ بنُ عبدِ الجبارِ؛ قال: أخبرنا الحسينُ بن محمدٍ النصيبيُّ؛ قال: أخبرنا إسماعيلُ بن سعيدٍ؛ قال: حدثنا أبو بكرِ بنُ الأنباريِّ؛ قالَ: حدثنا أبو عيسى الختلي؛ قال: حدثنا أبو يعلى؛ قال: حدثنا الأصْمَعِيُّ؛ قال: حدثنا أبو عاصم، عن عبادِ بن كَثيرٍ، عن قحذم؛ قال: وجد في سجن الحجَّاج ثلاثةٌ وثلاثون ألفًا، ما يجِبُ على واحدٍ منهم قطعٌ ولا قتلٌ ولا صلبٌ.

قلتُ: وعمومُ السلاطينِ يقتُلون ويقطعُون ظنًّا منهم جوازَ ذٰلك! ولو سألوا العلماءَ؛ بيَّنوا لهم.

وعموم العوامِّ يبارِزونَ بالذُّنوب اعتمادًا على العفوِ، وينسَوْن العقابَ! ومنهم من يعتمِدُ أني من أهل السنَّة، أو أنَّ لي حسناتٍ قد تنفعُ، وكلُّ هٰذا لقوةِ الجهل.

فينبغي للإنسانِ أن يبالِغَ في معرفة الدَّليل، ولا يساكنَ شبهتَه، ولا يَثِقَ بعلم نفسِهِ.

فنسألُ اللهَ السلامةَ من جميع الآفاتِ.

---

(١) تقدمت ترجمة الحجاج في (فصل ٣٠٦)، وانظر خبره هٰذا في «البداية والنهاية» (٦ / ٢٥٨).

(٢) الإمام، الحافظ، المقرىء، المفسر، الشهيد، قتله الحجاج سنة ٩٥هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٤ / ٣٢١)، «تهذيب التهذيب» (٤ / ١١).

٣٥٣ ـ فصل

[عواقب المعاصي وخيمة وعقوباتها لا بد آتية]

اعلمْ أنَّ الجزاءَ بالمرصادِ: إنْ كانتْ حسنةً، أو كانتْ سيئةً.

ومن الاغترارِ أن يَظُنَّ المذنبُ إذا لم يَرَ عقوبةً أنَّه قد سُومِحَ، وربَّما جاءتِ العقوبةُ بعد مدةٍ، وقلَّ مَن فَعَلَ ذنبًا إلَّا وقوبل عليهِ؛ قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سوءً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

هٰذا آدمُ عليه السلامُ أكلَ لُقْمةً؛ فقد عرفتُم ما جرى عليه.

قال وَهْبُ بن منبِّهٍ: أوحى الله تعالى إليهِ: ألم أَصْطَنِعْكَ لنفسي وأحلَلْتُك داري وأسجدتُ لك ملائِكَتي؟! فعصيتَ أمري ونسيتَ عَهْدي!! وعزَّتي؛ لو ملأتُ الأرضَ كلَّهم مثلَكَ يعبُدونَ ويسبِّحونَ في الليل والنهارِ، ثم عَصَوْني؛ لأنزلتُهم منازلَ العاصينَ[1].

فَنَزَعَ جبريلُ التاجَ عن رأسِهِ، وحلَّ ميكائيلُ الإكليلَ عن جبينِهِ، وجَذَبَ بناصيتِهِ، فأهبِطَ، فبكى آدمُ ثلاثَ مئةِ عام على جبل الهندِ؛ تجري دموعُه في أوديةِ جبالها، فنبتت بتلكَ المدامع أشجارُ طِيبِكم هٰذا[2].

وكذٰلك داوودُ عليه السلام؛ نَظَرَ نظرةً، فأوجبتْ عتابَه وبكاءَه الدائمَ، حتى نبتَ العشبُ من دموعِهِ[3].

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١ / ١٠٩ / البقرة ٣٦).

(٢) رواه: أبو نعيم في «الحلية» (٥ / ١١٣)، وابن عساكر (٧ / ٤٠٩).

(٣) هٰذه الأخبار من الإسرائيليات التي لا ينبغي أن يتشاغل المرء بذكرها أصلاً؛ فهي أولاً لا تثبت عن المعصوم، ثم فيها ذم واتهام للأنبياء بغير علم ولا مستند إلا أقوال من =

وأما سليمانُ عليه السلامُ؛ فإنَّ قومًا اختصَموا إليه، فكانَ هواهُ مع أحدِ الخصمينِ، فعُوقِبَ وتغيَّرَ في أعينِ الناسِ، وكانَ يقولُ: أطْعِموني فلا يُطْعَمُ(١)!

وأما يعقوبُ عليه السلامُ؛ فإنَّه يُقال: إنَّه ذَبَحَ عجلًا بين يدي أمِّه، فعوقِبَ بفراقِ يوسفَ(٢).

وأما يوسفُ عليه السلامُ؛ فأُخِذَ بالهمِّ، وكلُّ واحدٍ من إخوتِهِ وِلَدَ له اثنا عشر ولدًا، ونُقِصَ هو ولدًا لتلك الهمَّةِ(٣).

وأما أيوبُ عليه السلامُ؛ فإنَّه قصَّرَ في الإِنكارِ على ملكٍ ظالم لأجل خيل كانتْ في ناحيتِهِ، فابتُلِيَ(٤).

وأما يونسُ عليه السلامُ؛ فَخَرَجَ عن قومِهِ بغيرِ إذنٍ، فالتقمَهُ الحوتُ.

وأوحى الله عزَّ وجلَّ إلى أرميا: إنَّ قومَك تركوا الأمر الذي أكرمتُ به آباءَهم، وعزَّتي؛ لأهْيجنَّ عليهم جنودًا لا يرحَمون بكاءَهم. فقال: يا ربِّ! هم ولدُ خليلِكَ إبراهيمَ، وأمةُ صفيِّكَ موسى، وقومُ نبيِّك داوودَ. فأوحى الله تعالى إليه: إنَّما أكرمتُ إبراهيمَ وموسى وداوودَ بطاعتي، ولو عَصَوْني؛ لأنزلتُهم منازلَ العاصينَ(٥).

= أنبأنا الله أنهم آذوا أنبياءهم وعصوهم وكذبوهم وقتلوهم ثم حرفوا كتاب ربهم وبدلوه، وأمرنا سبحانه ألا نكون كذلك، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، أضف إلى ذلك أنها روايات واهية متضاربة يكذب بعضها بعضًا في أغلب الأحيان.

(١ ـ ٤) انظر الحديث السابق.

(٥) ذكره ابن جرير في «التاريخ» (١ / ٣٢١) من كلام وهب بن منبه.

ونَظَرَ بعضُ العبَّادِ شخصًا مستحسنًا، فقالَ له شيخُه: ما هٰذا النَّظَرُ؟! ستجدُ غِبَّه. فنسي القرآنَ بعد أربعينَ سنةً(١).

وقالَ آخرُ: قد عِبْتُ شخصًا قد ذَهَبَ بعضُ أسنانِهِ، فانتثرتْ أسناني! ونظرتُ إلى امرأةٍ لا تَحِلُّ، فنَظَرَ إلى زوجتي من لا أريدُ!

وكان بعضُ العاقِّين ضَرَبَ أباه وسَحَبَهُ إلى مكانٍ، فقالَ له الأبُ: حسبُك! إلى ها هنا سحبتُ أبي!!

وقال ابنُ سيرينَ: عيَّرْتُ رجلًا بالإفلاسِ، فأفلستُ(٢).

ومثلُ هٰذا كثيرٌ.

ومن أعجبِ ما سمعتُ فيه عن الوزير ابن حصير الملقَّب بالنظام: أن المقتفي غَضِبَ عليه، وأمرَ بأن يُؤخَذَ منه عشرةُ آلافِ دينارٍ، فدخلَ عليه أهلُه محزونينَ، وقالوا له: من أينَ لك عشرةُ آلافِ دينار؟! فقالَ: ما يؤخَذُ مني عشرةٌ ولا خمسةٌ ولا أربعةٌ. قالوا: من أين لكَ؟ قال: إني ظلمتُ رجلًا، فألزمتُهُ ثلاثةَ آلافٍ؛ فما يؤخَذُ مني أكثرُ منها. فلما أدَّى ثلاثةَ آلافِ دينارٍ؛ وَقَّعَ الخليفةُ بإطلاقِهِ ومسامحتِهِ في الباقي.

وأنا أقولُ عن نفسي: ما نزلتْ بي آفةٌ أو غمٌّ أو ضيقُ صدرٍ؛ إلَّا بزللٍ أعرفُه، حتى يمكِنُني أن أقولَ: هٰذا بالشيء الفلانيِّ. وربَّما تأوَّلتُ [ما] فيه بعدُ، فأرى العقوبةَ.

فينبغي للإنسانِ أن يَتَرَقَّبَ جزاءَ الذُّنوبِ؛ فقلَّ أن يَسْلَمَ منه.

(١) هو ابن الجلاء، وقد تقدم هٰذا في (فصل ١٨).

(٢) تقدم في (فصل ١٨).

وليجتهدْ في التوبة؛ فقد رُوي في الحديث: «ما من شيءٍ أسرعُ لحاقًا بشيءٍ من حسنةٍ حديثةٍ لذنبٍ قديم»(١)، ومع التوبةِ يكونُ خائفًا من المؤاخذةِ متوقِّعًا لها؛ فإنَّ اللهَ تعالى قد تابَ على الأنبياءِ عليهم السلامُ، وفي حديثِ الشفاعةِ يقولُ آدمُ ذنبي ويقولُ إبراهيمُ وموسى ذنبي(٢). . .

فإنْ قال قائـلٌ: قولُـه تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سوءً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]: خبرٌ؛ فهو يقتضي أن لا يجاوِزَ عن مذنبٍ، وقد عَرَفْنا قَبولَ التوبةِ والصَّفْحَ عن الخاطئين؟

فالجوابُ: من وجهينِ:

أحدُهما: أن يُحْمَلَ على من ماتَ مصرًا ولم يَتُبْ؛ فإنَّ التوبة تَجُبُّ ما قبلها(٣).

والثاني: أنَّه على إطلاقِهِ، وهو الذي أختارُه أنا وأستدلُّ بالنقل والمعنى: أما النقلُ؛ فإنَّه لما نَزَلَتْ هٰذه الآيةُ؛ قالَ أبو بكرٍ: يا رسولَ اللهِ! أوَنُجـازى بكـلِّ ما نعمـلُ؟ فقالَ: «ألستَ تمرضُ؟ ألستَ تحزنُ؟ أليس يُصيبُكَ اللَّأواءُ؟ فذٰلك ما تُجْزَوْنَ به»(٤). وأما المعنى؛ فإنَّ المؤمنَ إذا تابَ

---

(١) (**لا أصـل له مرفوعًا**). لٰكن أخرجه الحكيم الترمذي والطبراني في «الكبير» (١٢٧٩٨) وابن مردويه عن ابن عبـاس من قولـه. وكـذٰلـك أخـرجـه ابن أبي حاتم عن الحسن من قوله. وانظر: «الدر المنثور» (٣ / ٦٤٠ و٦٤٤ / هود ١١٤).

(٢) تقدم تخريجه في (فصل ٢٨٩).

(٣) وهٰذا كلام صحيح المعنى، ولٰكنه لا أصل له في المرفوع كما يظن كثير من الناس. وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٣ / ١٤١ / ١٠٣٩).

(٤) (**حسن**). رواه: الترمـذي (٤٨ ـ كتـاب تفسير القرآن، ٥ ـ باب ومن سورة النساء، ٥ / ٢٤٨ / ٣٠٣٩) من طريق يحيى بن موسى وعبد بن حميد؛ قالا: حدثنا روح =

ونَدِمَ؛ كانَ أسفُه على ذنبِه في كلِّ وقتٍ أقوى مِن كلِّ عقوبةٍ.

فالويلُ لمن عَرَفَ مرارةَ الجزاءِ الدائم ثم آثَرَ لَذَّةَ المعصيةِ لحظةً!

٣٥٤ـ فصل

[يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله]

تفكـرتُ في نفسي يومًا تفكُّرَ محقِّقٍ، فحاسبتُها قبلَ أن تُحاسَبَ، ووزنْتُها قبل أن توزنَ، فرأيتُ اللطفَ الربانيَّ:

فمنـذُ الطفولةِ وإلى الآنَ أرى لُطفًا بعد لُطفٍ، وسَترًا على قبيحٍ، وعَفوًا عمّا يوجِبُ عقوبةً، وما أرى لذٰلك شكرًا إلَّا باللسانِ!

ولقد تفكَّرتُ في خطايا؛ لو عوقِبْتُ ببعضِها؛ لَهَلَكْتُ سريعًا، ولو

= بن عبادة، عن موسى بن عبيدة، عن مولى ابن سباع، عن ابن عمر، عن أبي بكر. . . فذكره وقـال: «هٰـذا حديث غريب، وفي إسناده مقال، موسى بن عبيدة يضعف في الحديث، وضعفه يحيى بن سعيد وأحمد بن حنبل، ومولى ابن سباع مجهول، وقد روي هٰذا الحديث من غير هٰذا الوجه عن أبي بكر، وليس له إسناد صحيح أيضًا».

ورواه: أحمد (١ / ١١)، وابن حبان (٧ / ١٧٠ / ٢٩١٠)، والحاكم (٣ / ٧٤ ـ ٧٥)؛ من طرق عن إسماعيل بن أبي خالد، عن أبي بكر بن أبي زهير الثقفي، عن أبي بكر. . . به. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وليس كذٰلك، بل فيه ضعف وانقطاع؛ فأبو زهير لم يسمع من أبي بكر، ثم هو مستور لم يذكر بجرح ولا تعديل.

وله طرق أخرى كثيرة لا يخلو شيء منها من ضعف، وقد ذكر كثيرًا منها الطبري في «التفسير» (١٠٥٢٥ ـ ١٠٥٣٩) وابن كثير في «التفسير» (١ / ٥٢٨ / النساء ١٢٣).

وله شاهد من حديث عائشة عند الترمذي بمثله.

وآخر من حديث أبي هريرة عند مسلم قريب منه.

وبالجملة؛ فالحديث بمجموع طرقه وشواهده يدخل في باب الحسن إن شاء الله، وقد صححه الشيخ الأرناؤوط في تخريجه لـ «صحيح ابن حبان».

كُشِفَ للنّاسِ بعضُها؛ لاستحييتُ. . . ولا يعتقِدْ معتقدٌ عندَ سماعِ هٰذا أنَّها من كبائرِ الذُّنوبِ حتَّى يَظُنَّ فيَّ ما يظنُّ في الفسَّاقِ، بل هي ذنوبٌ قبيحـةٌ في حقِّ مثلي، وقعتْ بتـأويلاتٍ فاسدةٍ. . . فصرتُ إذا دعوتُ؛ أقولُ: اللهمَّ! بحمدِكَ وسَتْرِكَ عليَّ اغفِرْ لي!

ثم طالبتُ نفسي بالشكرِ على ذٰلك؛ فما وجدتُه كما ينبغي.

ثم أنا أتقاضى القدرَ مراداتي، ولا أتقاضى نفسي بصبرٍ على مكروهٍ ولا بشكرٍ على نعمةٍ.

فأخـذتُ أنـوحُ على تقصيري في شكرِ المنعم وكوني أتلذَّذُ بإيرادِ العلم من غيرِ تحقيقِ عمل بهِ! وقد كنتُ أرجو مقاماتِ الكبارِ؛ فذهبَ العُمُرُ وما حَصَلَ المقصودُ!! فوجدتُ أبا الوفاءِ بنَ عَقيل[1] قد ناح نحوَ ما نُحْتُ، فأعجبتْني نياحتُهُ، فكتبتُها ها هنا. . .

قال لنفسِهِ: يا رعناءُ! تقوِّمينَ الألفاظَ ليقالَ: مناظرًا! وثمرةُ هٰذا أن يقالَ: يا مناظِرُ! كما يقالَ للمصارعِ الفارِهِ[2].

ضيعتِ أعـزَّ الأشياءِ وأنْفَسَها عند العقلاءِ ـ وهي أيامُ العُمُرِ ـ حتى شاعَ لك بين من يمـوتُ غدًا اسمُ مناظرٍ، ثم يُنْسَى الذاكرُ والمذكورُ إذا درستِ القلوبُ! هٰذا إن تأخَّـرَ الأمـرُ إلى موتِكِ، بل ربَّما نشأ شابٌّ أفرهُ منكِ، فموَّهوا له، وصار الاسمُ له!! والعقلاءُ عن اللهِ تشاغلوا بما إذا انْطَوَوا نَشَرَهم[3]، وهو العملُ بالعلم، والنظرُ الخالصُ لنفوسِهم.

(١) تقدمت ترجمته في (فصل ٣١).

(٢) الفاره: الجيد البارع.

(٣) يعني: إذا ماتوا أحيا ذكرهم.

أفٌّ لنفسي! وقد سطرتُ عدةَ مجلَّداتٍ في فنونِ العلوم وما عَبَقَ بها[١] فضيلةٌ، إنْ نوظِـرْتُ؛ شَمَخْتُ، وإنْ نوصِحْتُ؛ تَعَجْرَفْتُ، وإن لاحتِ الـدُّنيا؛ طارتْ إليهـا طيرانَ الرَّخَم[٢] وسقطتْ عليها سقوطَ الغرابِ على الجِيَفِ! فليتَها أخذتْ أخْذَ المضطرٍّ من الميتةِ! توفر في المخالطةِ عيوبًا تُبلي ولا تحتشمُ نَظَرَ الحقِّ إليها!! وإنِ انكسرَ لها غرضٌ؛ تضجَّرَتْ؛ فإن أمِدَّت بالنعم؛ اشتغلتْ عن المنعم!!

أفٍّ واللهِ مني اليومَ على وجهِ الأرض وغدًا تحتها!

واللهِ؛ إنَّ نَتْنَ جسدي بعدَ ثلاثٍ تحت التراب أقلُّ من نَتْنِ خلائقي وأنا بين الأصحاب!

واللهِ؛ إنني قد بَهَرَني حِلْمُ هٰذا الكـريم عني؛ كيف يستُرُني وأنا أتهتَّكُ ويجمعني وأنا أتشتَّتُ؟! وغدًا يُقالُ: مات الحَبْرُ العالمُ الصالحُ، ولو عَرَفوني حقَّ معرفتي بنفسي؛ ما دَفَنوني.

واللهِ؛ لأنادينَّ على نفسي نداءَ المكشِّفينَ معائبَ الأعداء، ولأنوحنَّ نَوْحَ الشاكلينَ للأبناء؛ إذ لا نائحَ لي ينوحُ عليَّ لهٰذه المصائبِ المكتومةِ والخلالِ المغطاةِ التي قد سَتَرَها مَن خَبَرَها وغطَّاها مَن عَلِمَها.

واللهِ؛ ما أجِدُ لنفسي خَلَّةً أستحسنُ أن أقولَ متوسِّلًا بها: اللهمَّ! اغفِرْ لي كذا بكذا.

والله؛ ما التفتُّ قطُّ إلَّا وجدتُ منه سبحانَه بِرًّا يكفيني ووقايةً تحميني

---

(١) يعني: ما علق بنفسه فضيلة.

(٢) الرخم: نوع من أنواع الطيور الجارحة.

مع تسلُّطِ الأعداءِ، ولا عَرَضَتْ حاجةٌ فمَدَدْتُ يدي إلَّا قضاها. . .

هٰذا فِعْلُهُ معي وهو ربٌّ غنيٌّ عني، وهٰذا فعلي وأنا عبدٌ فقيرٌ إليه!! ولا عذرَ لي فأقولُ: ما دريتُ! أو: سهوتُ! واللهِ؛ لقد خَلَقَني خَلْقًا صحيحًا سليمًا، ونَوَّرَ قلبي بالفِطْنَةِ، حتَّى إنَّ الغائباتِ والمكنوناتِ تنكشِفُ لِفَهْمي.

فو احسرتاه على عُمُرٍ انقضى فيما لا يطابِقُ الرضى! وا حرماني لمقاماتِ الرجال الفطناءِ! يا حسرتا على ما فَرَّطْتُ في جَنْبِ اللهِ وشماتةَ العدوِّ بي! وا خيبةَ مَن أحسنَ الظنَّ بي إذا شهدتِ الجوارحُ عليَّ! وا خذلاني عند إقامةِ الحجةِ!

سَخِرَ واللهِ مني الشيطانُ وأنا الفَطِنُ!!

اللهمَّ! توبةً خالصةً من هٰذه الأقذارِ، ونهضةً صادقةً لتصفيةِ ما بقي من الأكدارِ! وقد جئتُك بعد الخمسينَ، وأنا مِن خَلَقِ المتاع، وأبى العلمُ إلَّا أن يأخُذَ بيدي إلى معدِنِ الكرم، وليس لي وسيلةٌ إلَّا التأسفُ والندمُ؛ فواللهِ؛ ما عصيتُك جاهلًا بمقدارِ نِعَمِكَ، ولا ناسيًا لما أسلفتَ مِن كَرَمِك؛ فاغفرْ لي سالفَ فعلي.

٣٥٥ ـ فصل

[في تحاسد الأقارب وتعاديهم]

عداوةُ الأقاربِ صعبةٌ، وربما دامتْ كحرب بكرٍ وتغلبَ ابني وائل، وعبسٍ وذبيانَ ابني بغيضٍ، والأوسِ والخزرج ابني قَيْلَةَ. قال الجاحظُ: تعدَّتْ هٰذه الحربُ أربعين عامًا.

والسببُ في هٰذا أنَّ كلَّ واحدٍ من الأقاربِ يكرهُ أن يفوقَه قريبُه، فيقعُ

التحاسدُ.

فينبغي لمن فُضِّلَ على أقاربِهِ أن يتواضعَ لهم، ويرفَعَهم جَهْدَه، ويرفُقَ بهم؛ لعلَّه يسلمُ.

قال رجلٌ لرسول اللهِ ﷺ: لي أقاربُ أصِلُهم فيَقْطَعوني؟ فقالَ: «فكأنَّما تُسِفُّهُمُ المَلَّ، ولن يزالَ معكَ من الله ظهيرٌ ما دُمْتَ على ذٰلك»(١).

٣٥٦ ـ فصل

[المؤمن العاقل لا يلتفت إلى حاسده ولا يشغل نفسه به]

رأيتُ كلابَ الصيدِ؛ إذا مَرَّتْ بكلابِ المَحَلَّةِ؛ نَبَحَتْها هٰذه وبالغتْ وأسرعتْ خلفَها، وكأنَّها تراها مُكَرَّمَةً مُجَلَّلَةً، فتحسُدُها على ذٰلك! ورأيتُ كلابَ الصيدِ حينئذٍ لا تلتفتُ إليها، ولا تُعيرُها الطَّرْفَ، ولا تَعُدُّ نُباحها شيئًا!

فرأيتُ أنَّ كلابَ الصيدِ كأنَّها ليست من جِنْس تلك الكلابِ؛ لأنَّ تلكَ غليظةُ البدنِ كثيفةُ الأعضاءِ لا أمانةَ لها، وهٰذه لطيفةٌ دقيقةُ الخِلْقَةِ، ومعها آدابٌ قد ناسبتْ خِلْقَتَها اللطيفةَ، وأنها تحبِسُ الصيدَ على مالِكِها خوفًا من عقابِهِ أو مراعاةً لِشُكْرِ نعمتِهِ عليها.

فرأيتُ أنَّ الأدبَ وحُسْنَ العِشْرَةِ يتبعُ لطافةَ البدنِ وصفاءَ الرُّوح.

وهٰكذا المؤمنُ العاقلُ؛ لا يلتفِتُ إلى حاسدِهِ، ولا يَعُدُّهُ شيئًا؛ إذ هو

(١) رواه مسلم (٤٥ ـ كتاب البر والصلة، ٦ ـ باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، ٤ / ١٩٨٢ / ٢٥٥٨)؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والمل: هو الرماد الحار.

في وادٍ وذاكَ في وادٍ، ذاكَ يحسُدُه على الدُّنيا وهٰذا هِمَّتُهُ الآخرةُ؛ فيا بعدَ ما بين الواديينِ!

٣٥٧ ـ فصلٌ

[سلم لحكمة الله ولو خفيت عليك أوجهها]

هٰذا فصلٌ ملاحظتُه من أهمِّ الأشياءِ:

ينبغي لمن آمنَ بالله تعالى أن يُسَلِّمَ له في أفعالِهِ، ويعلمَ أنَّه حكيمٌ ومالكٌ، وأنَّه لا يَعْبَثُ؛ فإنْ خَفِيَتْ عليه حكمةُ فعلِهِ؛ نَسَبَ الجهلَ إلى نفسِهِ، وسلَّم للحكيم المالكِ؛ فإذا طالَبَهُ العقلُ بحكمةِ الفعلِ؛ قالَ: ما بانتْ لي؛ فيجبُ عليَّ تسليمُ الأمرِ لمالكِهِ.

وإنَّ أقوامًا نظروا بمجرَّدِ العقل إلى كثيرٍ من أفعال الحقِّ سبحانَه، فرأوْها لو صَدَرَتْ من مخلوقٍ؛ نُسِبَ فيها إلى ضدِّ الحكمةِ، فنسبوا الخالقَ إلى ذٰلك!! وهٰذا الكفرُ المَحْضُ والجنونُ الباردُ! والواجبُ نِسبةُ الجهل إلى النفوسِ؛ فإنَّ العقولَ قاصرةٌ عن مطالعةِ حكمتِهِ.

وأوَّلُ مَن فَعَلَ ذٰلك إبليسُ؛ فإنَّه قد رآه قد فَضَّلَ طينًا على نارٍ، والعقلُ يرى النارَ أفضلَ[1]، فعابَ حكمتَهُ.

---

(١) وليس هٰذا بصحيح جملةً ولا تفصيلاً.

قال القرطبي في «الجامع» (٧ / ١١١ / الأعراف ١٢): «قالت الحكماء: أخطأ عدو الله من حيث فضل النار على الطين، وإن كانا في درجة واحدة من حيث هي جماد مخلوق؛ فإن الطين أفضل من النار من وجوه أربعة:

أحدها: أن من جوهر الطين الرزانة والسكون والوقار والأناة والحلم والحياء والصبر، =

وعمَّتْ هٰذه المحنةُ خَلْقًا ممَّنْ يُنْسَبُ إلى العلم وكثيرًا من العوامِّ؛ فكم قد رأينا عالِمًا يعترِضُ وعاميًا يردُّ فيكفُرُ!

وهٰذه محنةٌ قد شملتْ أكثرَ الخَلْق؛ يرونَ عالمًا يضيَّقُ عليه وفاسقًا وُسِّعَ عليه، فيقولونَ: هٰذا لا يَليقُ بالحكمةِ!!

وقد علمَ العلماءُ أنَّ اللهَ تعالى قد فَرَضَ الزَّكَواتِ والخراجَ والجزيةَ والغنائمَ والكفاراتِ ليستغنيَ بها الفقراءُ، فاختصَّ بذٰلك الظَّلَمَةُ، وصانعَ مَن تجبُ عليه الزكاةُ بإخراج بعضِها، فجاع الفقيرُ! فينبغي أن نَذُمَّ هٰؤلاءِ الظَّلَمَةَ ولا نعترِضَ على مَنْ قَدَّرَ الكفايةَ للفقراءِ.

وقـد حَصَـلَ في ضمنِ هٰذا عقـوبةُ الظالمينَ في حبسِهِمُ الحقوقَ وابتلاءُ الفقراءِ بصبرِهِم عن حظوظِهم.

= وذلـك هو الـداعي لآدم عليه السـلام بعـد السعـادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضـرع، فأورثـه المغفـرة والاجتبـاء والهـداية. ومن جوهر النار الخفة والطيش والحدة والارتفاع والاضطراب، وذٰلك هو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار، فأورثه الهلاك والعذاب واللعنة والشقاء. قاله القفّال.

الثاني: أن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مسك أذفر، ولم ينطق الخبر بأن في الجنة ناراً وأن في النار ترابًا.

الثالث: أن النار سبب العذاب، وهي عذاب الله لأعدائه، وليس التراب سببًا للعذاب.

الرابع: أن الطين مستغن عن النار، والنار محتاجة إلى المكان، ومكانها التراب.

قلت: ويحتمل قولاً **خامسًا**: وهو أن التراب مسجد وطهور؛ كما جاء في صحيح الحديث، والنار تخويف وعذاب؛ كما قال تعالى: ﴿ذٰلك يخوف الله به عباده﴾ [الزمر: ١٦]» اهـ.

وللإمام ابن القيم والحافظ ابن كثير كلام شبيه بهٰذا.

وأكثرُ هٰؤلاء المعترِضين لا يكادون يَسْلَمونَ وقتَ خروج الرُّوح من اعتراض يُخْرِجُ إلى الكفرِ، فتخرُجُ النفسُ كافرةً.

فكم عاميٍّ يقولُ: فلانٌ قد ابْتُلِيَ وما يستحقُّ! ومعناه أنَّه قد فُعِلَ به ما لا يَليقُ بالصوابِ.

وقد قال بعضُ الخلعاءِ:

أيا ربُّ تَخْلُقُ أقْمارَ لَيْلٍ وأغْصانَ بانٍ وكُثْبانَ رَمْلِ
وتَنْهى عِبادَكَ أنْ يَعْشَقوا أيا حاكِمَ العَدْلِ ذا حُكْمُ عَدْلِ

ومثل هٰذا ينشِدُهُ جماعةٌ من العلماءِ ويستحسِنونَهُ[1] وهو كفرٌ محضٌ!!

وما فَهِمَ هٰؤلاء سرَّ النهي ولا معناه؛ لأنَّه ما نهى عن العشقِ، وإنَّما نهى عن العمل بمقتضى العشقِ من الأشياءِ المحرَّمَةِ؛ كالنظرِ واللمسِ والفعل القبيح... وفي الامتناع عنِ المُشْتَهى دليلٌ على الإيمانِ بوجودِ النَّاهي؛ كصبرِ العطشانِ في رمضانَ عن الماءِ؛ فإنَّه دليلٌ على الإيمانِ بوجودِ مَن أمَرَ بالصَّوْمِ، وتسليمُ النفوسِ إلى القَتْلِ والجهادِ دليلٌ على اليقينِ بالجزاءِ... ثم المُسْتَحْسَنُ أنموذجُ ما قد أُعِدَّ؛ فأين العقلُ المتأمِّلُ؟!

كلَّا؛ لو تأمَّلَ وصَبَرَ قليلاً؛ لربحَ كثيرًا.

ولو ذهبتُ أذكُرُ ما قد عرفتُ من اعتراض العلماءِ والعوامِّ؛ لطالَ.

---

(١) وهم اليوم كثر!! ويرون هٰذا ظرفًا وفكاهة!! ولا قوة إلا بالله.

ومن أحسن الناس حالاً في ذٰلك ما يُحكى عن ابن الرَّاونديِّ(١) أنَّه جاع يومًا واشتدَّ جوعُهُ، فجلسَ على الجسرِ وقد أمَضَّهُ الجوعُ، فمرَّتْ خيلٌ مزينةٌ بالحريرِ والدِّيباج، فقال: لِمَن هٰذه؟ فقالوا: لعليٍّ بن بَلْتَقٍ غلام الخليفةِ. فمرَّتْ جَوارٍ مستحسناتٌ، فقال: لمن هٰذه؟ فقالوا: لعليٍّ بن بَلْتَقٍ. فمرَّ به رجلٌ، فرآهُ وعليهِ أَثَرُ الضُّرِّ، فرمى إليه رغيفين، فأخذَهما ورمى بِهِما وقال: هٰذا لعليٍّ بن بَلْتَقٍ وهٰذان لي؟! ونسيَ الجاهلُ الأحمقُ أنَّه بما يقولُ ويعترِضُ ويفعلُ أهلُ هٰذه المجاعةِ.

فيا معترضينَ وهم في غايةِ النَّقْصِ على مَن لا عيبَ في فعلِهِ! أنتم في البدايةِ من ماءٍ وطِينٍ، وفي الثاني من ماءٍ مَهينٍ، ثم تحمِلون الأنجاسَ على الدوام، ولو حُبِسَ عنكُم الهواءُ؛ لصِرْتُم جِيَفًا، وكم مِن رأيٍ يراه حازمُكم؛ فإذا عَرَضَهُ على غيرِهِ؛ تبيَّنَ له قبحُ رأيِهِ، ثم المعاصي منكم زائدةٌ في الحدِّ؛ فما فيكم إلَّا الاعتراضُ على المالكِ الحكيم؟!

ولو لم يكنْ في هٰذه البلاوى إلَّا أن يُرادَ منَّا التسليمُ؛ لكفى.

ولو أنه أنشأ الخلقَ لِيَدُلُّوا على وجودِهِ، ثم أهلَكَهُم ولم يَعُدَّهُم؛ كانَ ذٰلك لهُ؛ لأنَّه مالكٌ، لٰكنَّه بفضلِهِ وَعَدَ بالإعادةِ والجزاءِ والبقاءِ الدائم في النعيم.

فمتى ما جرى أمرٌ لا تعرِفُ علَّتَهُ؛ فانسُبْ ذٰلك إلى قصورِ علمِك.

وقد ترى مقتولاً ظُلمًا، وكم قد قَتَلَ وظَلَمَ، حتى قوبل ببعضِهِ.

وقلَّ أن يَجْرِيَ لأحدٍ آفةٌ إلَّا ويستحقُّها؛ غير أنَّ تلك الآفاتِ

(١) تقدمت ترجمة هٰذا المقبوح وقصته هٰذه في (فصل ١٥٤).

المجازى بها غائبةٌ عنا، ورأينا الجزاءَ وحدَه.

فسلِّمْ تَسْلَمْ، واحذرْ كلمةَ اعتراض أو إضمارٍ؛ فربَّما أخْرَجَتْكَ من دائرةِ الإسلام.

٣٥٨ ـ فصل

[يوم العيد أنموذج مصغر ليوم الحشر]

رأيتُ الناسَ يومَ العيدِ، فشبهتُ الحالَ بالقيامةِ:

فإنَّهم لما انتبهوا من نومِهِم؛ خرجوا إلى عيدِهِم كخروج الموتى من قبورِهم إلى حشرِهم.

فمنهم مَن زينتُهُ الغايةُ ومركبُهُ النهايةُ، ومنهم المتوسطُ، ومنهم المرذولُ. وعلى هٰذا أحوالُ الناس يومَ القيامةِ: قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾؛ أي: رُكباناً. ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥ ـ ٨٦]؛ أي: عطاشًا. وقال عليه الصلاة والسلام: «يُحْشَرونَ رُكْبانًا ومشاةً وعلى وجوهِهِم»[1].

ومن الناس مَن يُداسُ في زحمةِ العيدِ، وكذٰلك الظَّلَمَةُ يطؤُهُمُ الناسُ بأقدامِهِم في القيامةِ.

---

(١) (صحيح). رواه: أحمد (٥ / ٣ و ٥)، والترمذي (٣٨ ـ كتاب صفة القيامة، ٣ ـ باب ما جاء في شأن الحشر، ٤ / ٦١٦ / ٢٤٢٤)، والحاكم (٤ / ٥٦٤)؛ من طرق عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده.

قال الترمذي: «وفي الباب عن أبي هريرة». قال: «هٰذا حديث حسن صحيح».

وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي والألباني.

ومن النـاس يومَ العيدِ الغنيُّ المتصـدقُ، كذلـك يومَ القيامةِ أهلُ المعروفِ في الدُّنيا هم أهلُ المعروفِ في الآخرةِ.

ومنهُم الفقيرُ السـائلُ الذي يطلُبُ أن يُعطى، كذلك يومَ الجزاءِ: «أعددتُ شفاعتي لأهل الكبائِرِ»[1].

ومنهم مَنْ لا يعــطفُ عليه؛ ﴿فَمـا لَنـا مِنْ شافِعينَ . ولا صَديقٍ حَميمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠ ـ ١٠١].

والأعلامُ منشورةٌ في العيد، كذلك أعلامُ المتقينَ في القيامةِ، والبوقُ يُضْرَبُ كذلك يخبرُ بحال العبدِ، فيقالُ: يا أهلَ الموقفِ! إنَّ فلانًا قد سَعِدَ سعادةً لا شقاوةَ بعدَها، وإنَّ فلانًا قد شَقِيَ شقاوةً لا سعادةَ بعدَها.

ثم يرجعونَ من العيدِ بالخواصِّ إلى بابِ الحجرةِ يخبرونَ بامتثالِ الأوامـرِ: ﴿أولٰئِـكَ الْمُقـرَّبـونَ﴾ [الواقعة: ١١]، فيخرُجُ التوقيعُ إليهم: ﴿وكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]. ومَن هو دونَهم يختلفُ حالُه: فمنهُم مَن يرجِــعُ إلى بيتٍ عامرٍ؛ ﴿بِمـا أَسْلَفْتُمْ في الأَيّامِ الخـالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، ومنهم متوسطٌ، ومنهم مَن يعودُ إلى بيتٍ قَفْرٍ.

﴿فاعْتَبِروا يا أولي الأَبْصارِ﴾ [الحشر: ٢].

---

(١) (صحيح). رواه: أحمد (٣ / ٢١٣)، وأبو داوود (٣٤ ـ كتاب السنة، ٢٠ ـ باب في الشفاعة، ٢ / ٦٤٩ / ٤٧٣٩)، والترمذي (٣٨ ـ كتاب صفة القيامة، ١١ ـ باب منه، ٤ / ٦٢٥ / ٢٤٣٥)، وابن حبان (١٤ / ٣٨٧ / ٦٤٦٨)، والحاكم (١ / ٦٩)؛ من طرق عن أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا.

قال الترمذي: «هٰذا حديث حسن صحيح غريب من هٰذا الوجه. وفي الباب عن جابر». وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين». ووافقه الذهبي والألباني.

٣٥٩ـ فصل

[يتضمن نصيحة للعلماء والزهاد]

يا قومُ! قد علمتُم أنَّ الأعمالَ بالنِّيَّاتِ، وقد فهمتُم قولَه تعالى: ﴿أَلا لِلهِ الدِّينُ الْخالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وقد سمعتُم عن السلفِ أنَّهم كانوا لا يعمَلونَ ولا يقولونَ حتَّى تتقدَّمَ النيةُ وتصِحَّ.

أيذهبُ زمانُكم يا فقهاءُ في الجَدَل والصِّياح، وترتفِعُ أصواتُكم عند اجتماع العوامِّ تقصِدونَ المغالَبَةَ؟! أوما سمعتُم: «مَنْ طَلَبَ العلمَ؛ لِيباهِيَ به العلماءَ، أو ليمارِيَ به السفهاءَ، أو لِيَصْرِفَ به وجوهَ الناس إليه؛ لم يَرِحْ رائحة الجنةِ»[١]؟! ثم يُقْدِمُ أحدُكم على الفتوى وليس من أهلِها؛ وقد كان السلفُ يتدافَعونها!

---

(١) (صحيح). رواه: ابن ماجه (المقدمة، ٢٣ ـ باب الانتفاع بالعلم والعمل به، ١/ ٩٣/ ٢٥٤)، وابن حبان (١/ ٢٧٨/ ٧٧)، والحاكم (١/ ٨٦)، من طرق عن: ابن أبي مريم، ثنا يحيى بن أيوب، عن ابن جريج، عن أبي الزبير، عن جابر... به مرفوعاً.

وصححه الحاكم، ومال الذهبي إلى موافقته، ووثق صاحب «الزوائد» رجاله، ومال المنذري في «الترغيب» (١/ ١٥٤/ ١٧٩) إلى تقويته.

قلت: في السند ابن جريج وأبو الزبير مدلسان وقد عنعنا، ولكني وقفت له على شواهد خمسة لا يخلو واحد منها من ضعف: فالأول والثاني: حديثا ابن عمر وأبي هريرة عند ابن ماجه قبل هذا الحديث وبعده وضعفهما صاحب «الزوائد». والثالث: حديث كعب بن مالك عند الترمذي واستغربه والحاكم وصححه. والرابع: حديث أنس عند الطبراني في «الأوسط» والبزار وضعفه الهيثمي (١/ ١٨٩). والخامس: حديث أم سلمة عند الطبراني وضعفه الهيثمي. وبمجموع هذه الشواهد؛ فالحديث لا ينزل عن رتبة الحسن، بل هو صحيح إن شاء الله، وقد حسنه الألباني.

ويا معشرَ المتزهِّدين! إنَّه يعلمُ السِّرَّ وأخفى! أتُظْهرونَ الفقرَ في لِباسِكُم وأنتم تستَوْفونَ شَهَواتِ النفوسِ، وتظهرونَ التخاشُعَ والبكاءَ في الجَلَواتِ دون الخَلَواتِ؟! كان ابنُ سيرينَ يَضْحَكُ ويُقَهْقِهُ؛ فإذا خلا؛ بكى أكثرَ الليل. وقال سفيانُ لصاحبِه: ما أوقَحكَ! تصلِّي والناسُ يَرَوْنَكَ؟!

أفْـدِي ظِبـاءَ فلاةٍ ما عَرَفْنَ بِهـا مَضْغَ الكَلام ولا صَبْغَ الحَواجِيبِ

آهٍ للمرائي من يوم ﴿وَحُصِّلَ ما في الصُّدورِ﴾ [العاديات: ١٠]، وهي النيَّاتُ!

فأفيقوا من سُكْرِكُم، وتوبوا من زَلَلِكُم، واستَقيموا على الجادَّةِ؛ ﴿أَنْ تَقولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتا على ما فَرَّطْتُ في جَنْبِ اللهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

٣٦٠ ـ فصل

[في تنكب معظم أهل العلم والزهد لمنهج السلف الصالح]

رأيتُ جمهورَ الناسِ حائدينَ عن الشريعةِ جارينَ على ما أَلِفوا من العادةِ، وقد يَخْلُصُ منهم فريقانِ: علماءُ وعبَّادٌ:

فتأملتُ جمهورَ العلماءِ، فرأيتُهم في تخليطٍ:

منهم مَن يقتصِرُ على معاملاتِ الدُّنيا ويعرِضُ عن معاملاتِ الآخرةِ: إما لجهلِهِ بها، أو لِثقَلِ أمرِها عليه؛ فهو لا يجري على ما يَثْقُلُ عليهِ مما يوجِبُهُ العلمُ، ويَتَّبِعُ في الباقي العاداتِ! وربما تخايَلَ أنه يسامَحُ في الخطايا لكونِهِ عالمًا؛ وقد نسي أن العلم حُجَّةٌ عليه.

ومنهم من هو واقفٌ مع صورةِ العلم غافلٌ عن المقصودِ بالعلم.

وفيهم من يخالِطُ السُّلطانَ، فيتأذَّى المخالِطُ بما يرى من الذُّنوبِ والظُّلم، ولا يمكِنُه الإنكارُ، وربما مَدَحَ! ويتأذَّى السلطانُ بصحبتِهِ، فيقولُ: لولا أني على صوابٍ؛ ما جالَسَني هٰذا! ويتأذَّى العوامُّ، فيقولونَ: لولا أنَّ أمْرَ السلطانِ قريبٌ؛ ما خالَطَهُ هٰذا العالِمُ!

ورأيتُ الأشرافَ يَثِقونَ بشفاعةِ آبائِهم وينسَوْن أنَّ اليهودَ من بني إسرائيلَ!

وأما الفريقُ الثاني، وهم العبَّادُ؛ فرأيتُ أكثرَهم في تِخليطٍ:

أما الصحيحو القصدِ منهُم؛ فعلى غيرِ الجادَّةِ في أكثرِ عملِهم:

قد وَضَعَ لهم جماعةٌ من المتقدِّمينَ كتبًا فيها دفائنُ قبيحةٌ وأحاديثُ غيرُ صحيحةٍ ويأمرونَ فيها بأشياءَ تخالِفُ الشريعةَ؛ مثلَ كُتُبِ الحارثِ المحاسبيِّ، وأبي عبدِ الله الترمذيِّ، و«قوت القلوبِ» لأبي طالبٍ المكيِّ، وكتاب «الإحياءِ» لأبي حامدٍ الطوسيِّ؛ فإذا فَتَحَ المبتدئُ عينَه، وهمَّ بسلوكِ الطريق بهٰذه الكتبِ؛ حَمَلَتْهُ إلى الخطايا؛ لأنَّهم قد بَنَوْا على أحاديثَ مُحالَةٍ[1].

ويذمُّونَ الدُّنيا، ولا يدرونَ ما المذمومُ منها؟ فيتصوَّرُ المبتدئُ ذمَّ ذاتِ الدُّنيا، فيهرُبُ المنقطِعُ إلى الجبل وربما فاتتهُ الجماعةُ والجُمُعَةُ، ويقتصرُ على البلوطِ والكمثرى فيورِثُه القولنجَ، ويَقْنَعُ بعضُهم بشربِ اللبنِ فيَنْحَلُ الطَّبْعُ، أو يأكلُ الباقلاءَ والعدسَ فيَحْدُثُ له قراقرُ!!

وإنما ينبغي لقاصِدِ الحجِّ أن يَرْفُقَ أولاً بالناقةِ لِيَصِلَ، ألا ترى للفَطِنِ

---

(١) محالة: ضعيفة أو ساقطة.

من الأتراكِ يهتمُّ بفرسِهِ قبل تحصيل قوتِ نفسِهِ؟!

وربَّما تصدَّى القاصُّ لشرح أحوال قوم من السلفِ والمتزهِّدين، فيتبعُهم المريدُ، فيتأذَّى بذلك! ومتى رَدَدْنا ذلك المنقولَ وبيَّنَّا خطأ فاعلِهِ؛ قالَ الجهالُ: أتردُّ على الزهادِ؟! وإنما ينبغي اتِّباعُ الصواب، ولا يُنْظَرُ إلى أسماءِ المُعَظَّمينَ في النفوس؛ فإنّا نقولُ: قال أبو حنيفةَ. ثم يخالِفُهُ الشافعيُّ! وإنما ينبغي أن يُتَّبَعَ الدَّليلُ.

قال المروزيُّ: مَدَحَ أحمدُ بن حنبل النِّكاحَ، فقلتُ له: قد قالَ إبراهيمُ بنُ أدهم. فصاحَ وقالَ: وَقَعْنا في بُنَيَّاتِ الطريقِ! عليكَ بما كان عليه رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُه.

وتكلَّمَ أحمدُ في الحارثِ المحاسبيِّ، وردَّ على سَرِيٍّ السَّقطِيِّ حينَ قال: لما خَلَقَ اللهُ الحروفَ؛ وَقَفَ الألفُ وسَجَدَتِ الباءُ! فقالَ: نفِّروا الناسَ عنه.

فالحقُّ لا ينبغي أن يُحابي؛ فإنه جَدٌّ.

وإني أرى أكثرَ الناس قد حادوا عن الشريعةِ، وصار كلامُ المتزهِّدينَ كأنَّه شريعةٌ لهم!

فيُقالُ: قال أبو طالبٍ المكيُّ: كان مِن السَّلَفِ مَن يَزِنُ قوتَه بكَرَبَةٍ[1]، فينقُصُ كلَّ يوم!! وهٰذا شيءٌ ما عَرَفَهُ رسولُ اللهِ ﷺ ولا أصحابُهُ، وإنما كانوا يأكُلونَ دونَ الشِّبَع؛ فأما الحملُ على النفس بالجوع؛ فمنهيٌّ عنهُ.

ويقولُ: قال داوودُ الطائيُّ لسفيان: إن كنتَ تَشْرَبُ الماءَ الباردَ؛ متى

(١) الكرب: أصول سعف النخل، واحدتها كربة، تيبس فتصير مثل الكتف.

تحبُّ الموتَ؟! وكان ماؤهُ في دَنٍّ[1]! وما علم أنَّ للنفس حظًّا، وأن شُرْبَ الماءِ الحارِّ يُرَهِّلُ[2] المَعِدَةَ ويؤذي، وأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يُبَرِّدُ الماءَ.

ويقولُ آخرُ منهم: منذ خمسينَ سنةً أشتهي الشِّواءَ، ما صفا لي درهمُهُ!! ويقولُ آخرُ: أشتهي أن أغمِسَ جزرةً في دِبْسٍ؛ فما صحَّ لي!! أَتُراهُم أرادوا حَبَّةً منذ خرجتْ من المعدنِ ما دخلتْ في شبهةٍ؟! هٰذا شيءٌ ما نَظَرَ فيه رسولُ اللهِ ﷺ! وإنْ كان الورعُ حسنًا، ولٰكن لا على حمل المشاقِّ الشديدةِ.

وهٰذا بشرٌ الحافي يقولُ: لا أحدِّثُ لأني أشتهي أن أحدِّثَ!! وهٰذا تعليلٌ لا يَصْلُحُ؛ لأنَّ الإنسانَ مأمورٌ بالنِّكاح، وهو من أكبر المُشْتَهى.

وكان بشرٌ حافيًا، حتى قيلَ له: الحافي! ولو سَتَرَ أمرَه بنعلينِ؛ كان أصلحَ، والحفاءُ يؤذي العينَ، وليس من أمرِ الدُّنيا في شيءٍ؛ فقد كان لرسول اللهِ ﷺ نعلانِ.

وما كانت سيرةُ رسول اللهِ ﷺ وأصحابِهِ على ما المتزهِّدونَ عليه اليومَ؛ فقد كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يَضْحَكُ، ويمزحُ، ويختارُ المستحسناتِ، ويسابِقُ عائشةَ رضي الله عنها، وكانَ يأكلُ اللحمَ، ويحبُّ الحلوى، ويُسْتَعْذَبُ له الماءُ... وعلى هٰذا كان طريقةُ أصحابِهِ.

فأظهرَ المتزهِّدونَ طرائقَ كأنَّها ابتداءُ شريعةٍ، وكلُّها على غيرِ الجادَّةِ، ويحتجُّونَ بقول المحاسبيِّ والمكِّيِّ! ولا يحتجُّ أحدٌ منهم بصحابيٍّ

---

(١) الدَّن: وعاء يوضع فيه الماء ويدفن في الأرض لئلا يبرد.

(٢) يرهِّل المعدة: يوسعها ويرخيها.

ولا تابعيٍّ ولا بإمام من أئمةِ الإسلام!! فإنْ رأوا عالمًا لَبِسَ ثوبًا جميلًا، أو تزوَّجَ مستحسنةً، أو أفْطَرَ بالنهارِ، أو ضَحِكَ؛ عابوهُ!!

فينبغي أن يُعْلَمَ أنَّ أكثرَ مَن صحَّ قصدُهُ منهم على غيرِ الجادةِ؛ لقلَّةِ علمِهِم، حتى إنَّ بعضَهم يقولُ: منذ ثمانينَ سنةً ما اضطجعتُ! ويقولُ آخرُ: حلفتُ لا أشربُ الماءَ سنةً!! وهٰؤلاء على غيرِ الصوابِ؛ فإن للنفسِ حقًّا.

فأما مَن ساء قصدُهُ ممَّن نافَقَ وراءى لاجتلابِ الدُّنيا وتَقْبيلِ الأيدي؛ فلا كلامَ معهُ، وهم جمهورُ المتصوفةِ؛ فإنَّهم رَقَّعوا الثيابَ الملوَّنَةَ؛ ليراهُمُ الناسُ بعينِ التركِ للزِّينةِ، وما معهم أحسنُ من السفلاطونَ[١]!! وإنما رَقَّعَ القدماءُ للفقرِ... فهم في اللَّذَّاتِ، وجمعِ المال، وأخذِ الشُّبُهاتِ، واستعمالِ الراحةِ واللعبِ، ومخالطةِ السلاطينِ... وهٰؤلاءِ قد كَشَفُوا القناعَ، وبايَنوا زُهْدَ أوائِلِهم!!

بلى؛ أعجبُ منهم مَن يَنْفَقُ هٰذا عليهم[٢]!

٣٦١ ـ فصل

[وفي الأرض آيات للموقنين]

إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جَعَلَ لأحوالِ الآدميِّ أمثلةً ليعتبرَ بها:

---

(١) يعني: الذي معهم من المال أحسن من السفلاطون!! ولا أدري ما هٰذا السفلاطون؟! والظاهر أنه من العامي الذي ساد عصر المصنف.

(٢) وكل ما تقدم في هٰذا الفصل من الآثار المرفوعة وأقوال السلف وتراجمهم قد تقدم في فصول سابقة وخرجناه فيها. وانظر على الأخص (فصل ١٩).

فمن أمثلةِ أحوالِه القمرُ، الذي يبتدِئُ صغيرًا، ثم يتكامَلُ بدرًا، ثم يتناقصُ بانمحاقٍ، وقد يَطْرَأ عليه ما يُفْسِدُهُ كالكسوفِ؛ فكذلك الآدميُّ أولُه نطفةٌ، ثم يترقَّى من الفسادِ إلى الصلاحِ؛ فإذا تَمَّ؛ كان بمنزلةِ البَدْرِ الكاملِ، ثم تتناقصُ أحوالُه بالضَّعْفِ، فربما هَجَمَ الموتُ قبل ذلك هجومَ الكسوفِ على القمرِ.

قال الشاعرُ:

والمَـرْءُ مِثْلُ هلالٍ عنـدَ طلعتِهِ يَبْـدو ضئيـلًا لَطيفًـا ثم يَتَّسِقُ
يَزْدادُ حتَّـى إذا ما تَمَّ أعْـقَـبَـهُ كَرُّ الجَـديدَيْنِ نَقْصًا ثم يَنْمَحِقُ[1]

ومن أمثلةِ حالهِ دودُ القَزِّ؛ فإنه يكونُ حبًّا[2] إلى أن يبتدىء نباتُ قوتِه، وهو ورقُ الفرصادِ[3]؛ فإذا اخضرَّ الورقُ؛ دبتِ الرُّوحُ فيه، ثم ينتقلُ من حال إلى حال كانتقال الطِّفْل، ثم يرقُدُ كغفلةِ الآدميِّ عن النَّظَرِ في العواقبِ، ثم ينتبهُ فيحرِصُ على الأكل كحِرْصِ الشَّرِهِ على تحصيل الدُّنيا، ثم يُسْدي[4] على نفسِهِ كما يَحْطِبُ الآدميُّ الأوزارَ على دينِهِ، فيرتهنُ في ذلك الحبس كما يرتهنُ الميتُ في قبرِهِ، ثم يَقْرُضُ فيخرجُ خلقًا آخرَ كما تُنْشَرُ الموتى غُرْلًا بُهْمًا[5].

(١) كر الجديدين: تتالي الليل والنهار.

(٢) في الأصول: «حيًّا»! ولا تتفق مع المعنى، ومعنى الحب هنا: البيوض الصغيرة التي هي كالحب في شكلها.

(٣) الفرصاد: التوت.

(٤) السدى: خيوط النسيج، ويسدي: يغزل خيوطًا ويلفها على نفسه كالسدى.

(٥) كما في حديث عائشة رضي الله عنها الذي رواه: البخاري (٨١ ـ كتاب الرقاق، ٤٥ ـ باب الحشر، ١١ / ٣٧٨ / ٦٥٢٧)، ومسلم (٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها =

وقد دلَّه على البعثِ؛ تَكونُ النطفةُ كالميتِ ثم تصيرُ آدميًّا، وإلقاءُ الحبِّ تحتَ الأرضِ فيفسدُ ثم يهتزُّ خَضِرًا.

إذا المَرْءُ كانَتْ لهُ فِكْرَةٌ ففي كلِّ شيءٍ لهُ عِبْرَةٌ

٣٦٢ ـ فصل

[تنبهوا للعواقب؛ فإنها الأمور بخواتيمها]

إنما فَضْلَ العقلُ بتأمُّلِ العواقبِ؛ فأمّا القليلُ العقلِ؛ فإنَّه يرى الحالَ الحاضرةَ، ولا ينظُرُ إلى عاقبتِها:

فإنَّ اللِّصَّ يرى أخذَ المالِ وينسى قطعَ اليدِ!

والبطالَ يرى لَذَّةَ الراحةِ، وينسى ما تجني من فواتِ العلمِ وكَسْبِ المالِ؛ فإذا كَبِرَ فسُئِلَ عن علمٍ؟ لم يدْرِ، وإذا احتاجَ؛ سألَ، فَذَلَّ؛ فقد أربى ما حَصَلَ له من التأسُّفِ على لَذَّةِ البطالةِ، ثم يفوتُه ثوابُ الآخرةِ بتركِ العملِ في الدُّنيا.

وكذٰلك شاربُ الخمرِ؛ يلتذُّ تلكَ الساعةَ وينسى ما يجني من الآفاتِ في الدُّنيا والآخرةِ!

وكذٰلك الزِّنى؛ فإنَّ الإنسانَ يرى قضاءَ الشهوةِ وينسى ما يجني من فضيحةِ الدُّنيا والحَدِّ، وربما كان للمرأة زوجٌ فألحقتِ الحملَ من هٰذا به وتسلسلَ الأمرُ. . .

= وأهلها، ١٤ ـ باب فناء الدنيا وبيان الحشر، ٤ / ٢١٩٤ / ٢٨٥٩). والغرل: غير المختونين. والبهم: الذين ليس بهم شيء مما كان في الدنيا من الآفات والأمراض.

فقِسْ على هٰذه النَّبْـذةِ، وانتبِـهْ للعواقبِ، ولا تؤثِرْ لَذَّةً تُفَوِّتُ خيرًا كثيرًا، وصابِرِ المشقةَ؛ تُحَصِّلْ ربحًا وافرًا.

٣٦٣ـ فصل

[القناعة كنز العالم والزاهد]

ليس في الدُّنيا عيشٌ إلَّا لعالم أو زاهدٍ.

بلى؛ قد يَقَعُ في صفاءِ حالِهما كَدَرٌ، وهو أنَّ العالمَ يشتغلُ بالعلم أو بالانقطاع عن الكَسْبِ، وقد يكونُ له عائلةٌ؛ فربما تَعَرَّضَ بالسُّلطانِ ففَسَدَ حاله. وكذٰلك الزاهدُ.

فينبغي للعالم والعابدِ أن يَتَحَرَّكا في معاشٍ؛ كَنَسْخ بأجرةٍ، أو عمل الخُوص [1]... وإنْ فُتِحَ له بشيءٍ؛ اقتنعَ باليسير؛ فلا يستعبِدُهُ أحدٌ؛ كما كان أحمدُ بنُ حنبل له أجرةٌ لعلَّها لا تبلغُ دينارًا يتقوَّتُ بها، ومتى لم يَقْنَعْ؛ أفسدتْ مخالطةُ السلاطينِ والعوامِّ دينَهُ.

وفي الناسِ مَن يريدُ التوسُّعَ في المطاعم، ومنهم مَن لا يوافِقُه خَشِنُ العيشِ، وهيهاتَ أن يصحَّ الدينُ مع تحصيل اللَّذَّاتِ!

وإذا قَنعَ العالمُ والزاهدُ بما يكفي؛ لم يتبذَّلْ أحدُهما للسلطانِ، ولم يُسْتَخْدَمْ بالتردُّدِ إلى بابِه، ولم يحتج الزاهدُ إلى تصنُّعٍ.

والعيشُ اللذيذُ للمنقطع الذي لا يُتَبَذَّلُ به ولا يُحَمَّلُ مِنَّةً.

---

(١) الخوص: ورق النخل.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

٣٦٤ ـ فصل
[في تفاوت أفهام الناس وإمكانيات عقولهم]

ما أكثرَ تفاوتَ الناس في الفهوم!

حتى العلماءُ يتفاوتونَ التفاوتَ الكثيرَ في الأصول والفُروع:

فترى أقواماً يسمعونَ أخبارَ الصِّفاتِ، فيحمِلونها على ما يقتضيهِ الحسُّ؛ كقول قائِلِهم: ينزِلُ بذاتِهِ إلى السماءِ وينْتَقِلُ!! وهٰذا فهمٌ رديءٌ؛ لأن المنتقـلَ يكونُ من مكانٍ إلى مكانٍ، ويوجِبُ ذٰلك كونَ المكانِ أكبرَ منه، ويلزمُ منه الحركةُ، وكلُّ ذٰلك محالٌ على الحقِّ عزَّ وجلَّ[١].

وأما في الفروع؛ فكما يُروى عن داوودَ[٢]: أنَّه قالَ في قولِهِ ﷺ: «لا

---

(١) تقدم الكلام عن هٰذا وأشباهه في فصول سابقة، وانظر (فصل ٤٣ و٤٩ و٦١ و٧١ و١٢٤ و١٩٥ و٣١٩).

(٢) الإمام، البحر، الحافظ، العلامة، الورع، الناسك، الزاهد، عالم الوقت، داوود بن علي، رئيس أهل الظاهر، ولد سنة ٢٠٠هـ، وتوفي سنة ٢٧٠هـ. وقد ترجم له الـذهبي في «السير» (١٣ / ٩٧) ترجمة منصفة وختمها بقوله عنه وعن الظاهرية عموماً: «وبكل حال؛ فلهم أشياء أحسنوا فيها، ولهم مسائل مستهجنة يشغب عليهم بها. وإلى ذٰلك يشير الإمام أبو عمرو بن الصلاح؛ حيث يقول: الذي اختاره الأستاذ أبو منصور وذكر أنه الصحيح من المذهب: أنه يعتبر خلاف داوود. ثم قال ابن الصلاح: وهٰذا الذي استقر عليه الأمر آخراً؛ كما هو الأغلب الأعرف من صفو الأئمة المتأخرين، والذين أوردوا مذهب داوود في مصنفاتهم المشهورة؛ كالشيخ أبي حامد الإسفراييني والماوردي والقاضي أبي الطيب؛ فلولا اعتدادهم به؛ لما ذكروا مذهبه في مصنفاتهم المشهورة. قال: وأرى أن يعتبر قوله؛ إلا فيما خالف فيه القياس الجلي، وما أجمع عليه القياسيون من أنواعه، أو بناه على أصوله التي قام الدليل القاطع على بطلانها؛ فاتفاق من سواه إجماع منعقد؛ كقوله في التغوط في =

يبولنَّ أحدُكم في الماءِ الدَّائم ثمَّ يَتَوضَّأُ منه»[1]. فقالَ: إن بالَ غيرُه؛ جازَ!! فما يفهمُ المرادَ من التنجيسِ، بل يأخُذُ بمجرَّدِ اللفظِ!! وكذلك يقولُ: لحمُ الخنزيرِ حرامٌ؛ لا جلدُهُ!! نعوذُ باللهِ من سوءِ الفَهْم.

وكذلك يتفاوتُ الشعراءُ الذين شَغَلَهُمُ التفطُّنُ لدقائقِ الأحوال:

كقول قائِلِهم:

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحى وأسْيافُنا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَما

والجَفَناتُ عددٌ يسيرٌ؛ فلو قالَ: الجِفانُ؛ لكانَ أبلغَ! ولو قالَ: بالدُّجى؛ لكانَ أحسنَ! ويَقْطُرْنَ دليلٌ على القِلَّةِ.

وكذلك قولُ القائل:

هَمُّها العِطْرُ والفِراشُ وَيَعْلو ها لُجَيْنٌ مُنَظَّمٌ ولآلي

وهذا قاصرٌ؛ فإنَّه لو فَعَلَتْ هذا سوداءُ؛ لَحَسَّنَها.

= الماء الراكد وتلك المسائل الشنيعة، وقوله: لا ربا إلا في الستة المنصوص عليها؛ فخلافه في هذا أو نحوه غير معتد به؛ لأنه مبني على ما يقطع ببطلانه».

قال الذهبي: «قلت: لا ريب أن كل مسألة انفرد بها وقطع ببطلان قوله فيها؛ فإنها هدر، وإنما نحكيها للتعجب، وكل مسألة له عضدها نص وسبقه إليها صاحب أو تابع؛ فهي من مسائل الخلاف؛ فلا تهدر.

وفي الجملة؛ فداوود بن علي بصير بالفقه، عالم بالقرآن، حافظ للأثر، رأس في معرفة الخلاف، من أوعية العلم، له ذكاء خارق، وفيه دين متين، وكذلك في فقهاء الظاهرية جماعة لهم علم باهر وذكاء قوي؛ فالكمال عزيز. والله الموفق» اهـ.

(١) رواه: البخاري (٤ ـ كتاب الوضوء، ٦٨ ـ باب البول في الماء الدائم، ١ / ٣٤٦ / ٢٣٩)، ومسلم (٢ ـ كتاب الطهارة، ٢٨ ـ باب النهي عن البول في الماء الراكد، ١ / ٢٣٥ / ٢٨٢)؛ من حديث أبي هريرة.

إنَّما المادحُ هو القائلُ:

أَلَـمْ تَرَ أنِّـي كُلَّمـا جئتُ طارِقًـا ... وَجَـدْتُ بهـا طِيْبًـا وإنْ لم تَطَيَّبِ

وكذا قولُ القائل:

أدْعـو إلى هَجْرِهـا قلبي فَيَتْبَعُني ... حتَّـى إذا قُلْتُ هٰذا صادِقٌ نَزَعـا

ولو كانَ صادقًا في المحبَّةِ؛ لما كانَ له قلبٌ يخاطِبُهُ، وإذا خاطَبَهُ في الهجرِ؛ لم يوافِقْه!

إنما المحبُّ الصادقُ هو القائلُ:

يقـولـونَ لو عاتَبْتَ قَلْبَـكَ لارْعَوى ... فَقُـلْتُ وهَـلْ للعـاشِـقـينَ قُلوبُ

ومثلُ هٰذا إذا نوقشَ كثيرٌ.

فأقلُّ موجودٍ في الناسِ الفَهْمُ والغَوْصُ على دقائِق المعاني.

٣٦٥ ــ فصل

[لذات الدنيا مشوبة بالمنغصات]

من تأمَّـلَ الدُّنيا؛ عَلِمَ أنه ليس فيها لَذَّةٌ أصلاً؛ فإن وُجِدَتْ لَذَّةٌ؛ شِيْبَتْ بالنَّغَصِ التي تزيدُ على اللَّذَّةِ أضعافًا.

فمن اللَّذَّات النساءُ؛ فربَّما لم تثبُتِ المستحسنةُ، وربما لم تحبَّ الزوجَ؛ فمتى عَلِمَ ذٰلك؛ يَعْزِلُ عنها، وربَّما خانتْ، وذٰلك الهلاكُ؛ فإن تَمَّتِ المراداتُ؛ فَذِكْرُ الفراقِ زائدٌ في التألُّم على الالتذاذِ.

ومن اللَّذَّاتِ الولدُ: ومقاساةُ البنتِ إلى أن تتزوَّجَ وما تَلْقى من زوجِها

وخوفُ عارِها مِحَنٌ قبيحةٌ. والابنُ؛ إن مَرِضَ؛ ذاب الفؤادُ، وإن خَرَجَ عن حدِّ الصلاحِ؛ زادَ الأسفُ، وإن كان عدوًّا؛ فمرادُهُ هلاكُ الأبِ، ثم إن تَمَّ المرادُ؛ فذِكْرُ فراقِهِ يُذيبُ القلوبَ.

ولو أنَّ فاسقًا أحبَّ بعضَ المُرْدانِ؛ انهتكَ عِرْضُهُ في الدُّنيا، وذهب دينُهُ، ثم لا يَلْبَثُ أن تتغيَّرَ حِلْيَتُهُ، فيصيرَ مبغوضًا، مع ما سَبَقَ من الهُتْكَةِ والإثم.

وكم قد غلبتْ شهوةُ رجلٍ وطِىءَ الجواريَ السودَ، فجاء الولدُ أسودَ؛ فبقي عارًا عليه(١).

ومن هٰذا الجنس الالتذاذُ بالمال، وفي تحصيلِهِ آثامٌ، وفراقُهُ حسرةٌ، وذَهابُ العُمُرِ فيه غَبْنٌ.

وهٰذا أنموذجٌ لما لم يُذْكَرْ!

فينبغي لمنْ وَفَّقَهُ اللهُ سبحانه: أن يأخذَ الضروريَّ الذي يميلُ إلى سلامةِ الدينِ والبدنِ والعافيةِ، ويَهْجُرَ الهوى الذي نُغَصُهُ تتضاعفُ على لَذَّتِهِ.

ومن صَبَرَ على ما يكرهُ قَصْدَ النفعِ في العاقبةِ؛ الْتَذَّ أضعافًا؛ كطالبِ العلمِ؛ فإنَّه يتعبُ يسيرًا، وينالُ خيرَ الدارينِ، مع سلامةِ العاقبةِ.

ولَذَّةُ البطالةِ تعقبُ عدمَ العلمِ والعملِ، فيزيدُ الأسى على اللَّذَّةِ أضعافًا.

فاللهَ اللهَ أن يغلِبَكَ هواكَ العاجلُ، ومتى هَمَّ الهوى بالتوثُّبِ؛

(١) يعني: على الولد؛ إذ يعرف بلونه أن أمه كانت أمة سوداء لا حرة.

فامْنَعْهُ؛ وزِنْ عاجِلَه بآجِلِهِ.

وما يتذكَّرُ إلَّا أولو الألبابِ.

٣٦٦ ـ فصل

[في تلبيس إبليس على العوام وأهل الكلام]

رأيتُ إبليسَ قد احتال بفنونِ الحيلِ على الخلقِ، وأمال أكثرَهُم عن العلم الذي هو مصباحُ السالكِ، فتركَهم يتخبَّطونَ في ظُلُماتِ الجهلِ، وشَغَلهم بأمورِ الحسِّ؛ فهم يحسِّنون ما يحسِّنُه الحسُّ، ولا يلتفتونَ إلى مشورةِ العقلِ.

فإذا ضاق بأحدِهم عيشُه، أو نُكِبَ؛ اعترضَ فَكَفَرَ:

فمنهم مَن ينسبُ ذلك إلى الدهرِ! ومنهم من يَسُبُّ الدُّنيا! وهٰذا إسفافٌ؛ لأنَّ الدهرَ والدنيا لا يفعلانِ، وإنما هو عيبٌ للمقدِّرِ!!

ومنهم من يخرِجُه الأمرُ إلى جحدِ الحكمةِ، فيقولُ: أيُّ فائدةٍ في نقض المبنى؟!

وزعمَ بعضُهم أنه لا يُتَصَوَّرُ عَوْدُ المنقوضِ، وأنكروا البعثَ، ويقولونَ: ما جاءَ من ثَمَّ أحدٌ! ونسوا أنَّ الوجودَ ما انتهى بعدُ، ولو خلَّفنا؛ لصارَ الإيمانُ بالغيبِ عِيانًا، ولا يصلحُ أن يستدلَّ على الإحياءِ بالأحياءِ.

ثم نظر إبليسُ، فرأى في المسلمينَ قومًا فيهم فِطنةٌ، فأراهم أنَّ الوقوفَ على ظواهرِ الشريعةِ حالةٌ يشارِكُهم فيها العوامُّ، فحسَّنَ لهم علومَ الكلامِ، وصاروا يحتجُّونَ بقول بُقراطَ وجالينوسَ وفيثاغورسَ!!

وهٰؤلاء ليسوا بمتشرِّعينَ، ولا تَبِعوا نبيَّنا ﷺ، وإنَّما قالوا بمقتضى ما سوَّلَتْ لهم أنفسُهم.

وقد كان السلف إذا نشأ لأحدِهم ولدٌ؛ شَغَلوهُ بحفظِ القرآنِ وسماع الحديثِ، فيثبُتُ الإيمانُ في قلبِهِ؛ فقد توانى الناسُ عن هٰذا، فصار الولدُ الفَطِنُ يتشاغَلُ بعلوم الأوائل، وينبُذُ أحاديثَ الرسول ﷺ، ويقولُ: أخبارُ آحادٍ! وأصحابُ الحديثِ عندَهم يسمَّوْنَ: حَشْوِيَّةً!!

ويعتقدُ هٰؤلاءِ أنَّ العلمَ الدقيقَ علم الطفرةِ والهُيولى والجزءِ الذي لا يتجزَّأ... ثم يتصاعدونَ إلى الكلام في صفاتِ الخالقِ، فيدفَعون ما صحَّ عن رسول اللهِ ﷺ بواقعاتِهِم:

فيقولُ المعتزلة: إن الله لا يُرى؛ لأنَّ المرئيَّ يكونُ في جهةٍ! ويخالفونَ قولَ رسول اللهِ ﷺ: «إنَّكم تَرَوْنَ ربَّكُم كما تَرَوْنَ القمرَ لا تُضامونَ في رؤيتِهِ»[1]؛ فأوجبَ هٰذا الحديثُ إيثارَ رؤيتِهِ وإن عَجَزْنا عن فهم كيفيَّتِها.

وقد عُزِلَ هٰؤلاء الأغبياءُ: عن التشاغل بالقرآنِ، وقالوا: مخلوقٌ! فزالتْ حُرْمَتُهُ من القلوبِ. وعن السنةِ، وقالوا: أخبارُ آحادٍ! وإنما مذاهِبُهم السَّرِقَةُ من بقراطَ وجالينوسَ.

وقد استفادَ مَن تَبِعَ الفلاسفةَ أنه يرفِّه نفسَه عن تعبِ الصلاةِ والصوم!

---

(١) رواه: البخاري (٩ ـ كتاب مواقيت الصلاة، ٢٦ ـ باب فضل صلاة الفجر، ٢ / ٥٢ / ٥٧٣)، ومسلم (٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ٣٧ ـ باب فضل صلاتي الصبح والعصر، ١/ ٤٣٩ / ٦٣٣)؛ من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

وقـد كان كبـارُ العلمـاءِ يذمُّونَ علمَ الكلام، حتى قال الشافعيُّ: حكمي فيهم أن يُرْكَبوا على البغال، ويُشَهَّروا، ويُقالَ: هٰذا جزاءُ مَن تَرَكَ الكتابَ والسنةَ واشتغلَ بالكلام.

وقد آلَ بهم الأمرُ إلى أنِ اعتقدوا أنَّ مَن لم يعرِفْ تحريرَ دليلِ التوحيدِ فليسَ بمسلم!!

فاللهَ اللهَ من مخالطةِ المبتدعةِ، وعليكم بالكتابِ والسُّنَّةِ؛ ترشُدوا.

٣٦٧ ـ فصل

[يا ابن آدم! اغتنم لحظاتك وتجهز لوفاتك]

رأيتُ العـاداتِ قد غلبتِ النـاسَ في تضييع الزَّمانِ، وكان القدماءُ يحذرونَ من ذٰلك:

قالَ الفضيلُ: أعرِفُ من يَعُدُّ كلامَه من الجُمعةِ إلى الجمعةِ(١).

ودخلوا على رجـل من السَّلَفِ، فقـالـوا: لعلَّنـا شَغَلْنـاك؟ فقالَ: أصدُقُكم؛ كنتُ أقرأ، فتركتُ القراءةَ لأجْلِكم.

وجاء رجلٌ من المتعبِّدينَ إلى سَرِيٍّ السَّقَطِيِّ، فرأى عنْدَه جماعةً، فقال: صِرْتَ مُناخَ البطَّالينَ؟ ثم مضى ولم يجلِسْ(٢).

ومتى لان المَزُورُ؛ طَمِعَ فيه الزائرُ، فأطالَ الجلوسَ، فلم يسلمْ من أذىً.

---

(١) تقدمت ترجمة الفضيل في (فصل ١٢).

(٢) يعني: صرت مقصدًا ومحطًّا للفارغين الذين لا شغل لهم إلا الكلام. وقد تقدم ترجمته في (فصل ١٩).

وقد كانَ جماعةٌ قعودًا عند معروفٍ، فأطالوا، فقالَ: إن مَلَكَ الشمس لا يَفْتُرُ في سَوْقِها؛ أفما تريدونَ القيامَ(١)؟!

وممَّن كان يَحْفَظُ اللَّحظاتِ عامرُ بنُ عبد قيسٍ؛ قالَ له رجلٌ: قِفْ أكلِّمْكَ. قال: فأمسكِ الشمسَ(٢).

وقيل لكُرْزِ بنِ وبرةَ: لو خرجتَ إلى الصحراءِ؟ فقال: يبطُلُ الزوجار(٣).

وكان داوودُ الطائيُّ يَسْتَفُّ الفَتِيْتَ، ويقولُ: بين سَفِّ الفَتِيْتِ وأكلِ الخبزِ قراءةُ خمسينَ آيةً(٤).

وكان عثمانُ الباقلانيُّ دائمَ الذِّكْرِ لله تعالى، فقال: إني وقتَ الإفطارِ أحِسُّ بروحي كأنها تخرُجُ؛ لأجل اشتغالي بالأكل عن الذِّكر(٥).

وأوصى بعضُ السلفِ أصحابَه، فقال: إذا خرجتُم من عندي؛ فتفرَّقوا؛ لعلَّ أحدَكم يقرأ القرآنَ في طريقِهِ، ومتى اجتمعتُم؛ تحدَّثْتُم.

واعلم أنَّ الزمانَ أشرفُ من أن يضيَّعَ منه لحظةٌ؛ فإن في «الصحيح»

---

(١) انظره في «الحلية» (٨ / ٣٦٦).

(٢) تقدمت ترجمة عامر بن عبد قيس والتعليق على هذا الخبر في (فصل ١٤).

(٣) الزاهد، القدوة، الكوفي، نزيل جرجان، أحد عباد التابعين. انظر ترجمته في: «الحلية» (٥ / ٧٩)، «سير أعلام النبلاء» (٦ / ٨٤).

(٤) الفتيت: هو الخبز اليابس المفتوت، ثم يصب فوقه الماء فيصبح طريًّا سهل الأكل. وقد تقدمت ترجمة داوود في (فصل ١٥٣)، والخبر في «الحلية» (٧/ ٣٥٠).

(٥) هو عثمان بن عيسى، أبو عمرو، أحد الزهاد المتعبدين المنقطعين للخلوة، توفي سنة ٤٠٢هـ. انظر ترجمته وخبره هذا في: «تاريخ بغداد» (١١ / ٣١٣).

عن رسول اللهِ ﷺ: أنه قال: «مَن قالَ: سبحانَ اللهِ العظيم وبحمدِهِ؛ غُرِسَتْ له بها نخلةٌ في الجنةِ»(١)؛ فكم يُضَيِّعُ الآدميُّ من ساعاتٍ يفوتُه فيها الثوابُ الجزيل!

وهٰذه الأيامُ مثلُ المزرعةِ؛ فكأنه قيلَ للإنسانِ: كلَّما بَذَرْتَ حبَّةً؛ أخرجْنا لكَ ألفَ كُرٍّ(٢)؛ فهل يجوزُ للعاقل أن يتوقَّفَ في البَذْرِ ويتوانى؟!

والـذي يعينُ على اغتنـام الـزَّمـانِ: الانفرادُ والعزلةُ مهما أمكنَ، والاختصارُ على السلامِ أو حاجةٍ مهمةٍ لمن يَلْقى، وقلةُ الأكل؛ فإنَّ كَثْرَتَهُ سببُ النوم الطويل وضياع الليل.

ومَن نَظَرَ في سِيَرِ السلفِ وآمنَ بالجزاءِ؛ بانَ له ما ذكرتُهُ.

---

(١) (صحيح). رواه: الترمذي (٤٩ ـ كتاب الدعوات، ٦٠ ـ باب، ٥ / ٥١١ / ٣٤٦٤ و٣٤٦٥)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (رقم ٨٢٧)، وابن حبان (٣ / ١٠٩ / ٨٢٦ و ٨٢٧)، والحاكم (١ / ٥٠١)، والبغوي (٥ / ٤٣ / ١٢٦٥)؛ من طرق عن أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه.

قال الترمذي: «هٰذا حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي الزبير عن جابر»، وصححه الحاكم على شرط مسلم، والذهبي على شرط البخاري (كذا في المطبوع! وهو تحريف)، وفيه عنعنة أبي الزبير وتدليسه.

لٰكن له شاهد حسن بمجموع طرقه من حديث ابن عمرو: رواه: ابن أبي شيبة (٦ / ٥٧ / ٢٩٤٢٩)، والبزار (٢ / ٤٠٣ / ٢٠٩٧ ـ مختصر الزوائد). وجود إسناد البزار المنذري والهيثمي.

وله شاهد آخر ضعيف رواه أحمد (٣ / ٤٤٠) من حديث معاذ بن أنس الجهني.

فالحديث صحيح بمجموع هٰذه الشواهد كما أفاده الألباني في «الصحيحة» (١ / ١٣٤ / ٦٤).

(٢) الكُر: مكيال عراقي يساوي ستة أوقار حمار.

٣٦٨ ـ فصل
[في بعض آداب عِشرة النساء وأحكامها]

ينبغي للعاقل أن يتخيَّرَ امرأةً صالحةً، من بيتٍ صالح، يغلبُ عليه الفقرُ؛ لترى ما يأتيها به كثيرًا!

ولْيَتَزَوَّجْ مَن يقارِبُه في السنِّ؛ فأما الشيخُ؛ فإنَّه إذا تزوَّجَ صبيةً؛ آذاها، وربما فَجَرَتْ، أو قتلَتْهُ، أو طلبتِ الطلاقَ وهو يحبُّها، فيتأذى، ولْيتمِّمْ نقصَه بحسنِ الأخلاقِ وكَثرةِ النفقةِ.

ولا ينبغي للمرأة أن تَقْرَبَ من زوجِها كثيرًا؛ فَتُمَلَّ، ولا تَبْعُدَ عنه؛ فينساها، ولْتكنْ وقتَ قُرْبِها إليه كاملةَ النظافةِ متحسنةً.

ولْتحذرْ أن يرى فَرْجَهـا أو جسمَها كلَّه؛ فإنَّ جسمَ الإنسانِ ليس بمستحسنٍ! وكذلك ينبغي له أن لا يُرِيَها جسمَه، وإنما الجماعُ في الفراشِ.

ورأى كِسرى يومًا كيف يُسْلَخُ الحيوانُ ويُطْبَخُ، فتقلَّبَتْ نفسُه، ونفى اللحمَ، فَذَكَرَ ذلك لوزيرِهِ، فقال: أيُّها الملكُ! الطبيخُ على المائدةِ، والمرأةُ في الفراشِ. ومعناه: لا تفتِّشْ عن ذلك.

قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: «ما رأيتُ من رسول الله ﷺ، ولا رآه منِّي»(١). وقام ليلةً عُرْيانًا؛ فما رأيتُ جِسْمَه قبلَها(٢). وهذا الحزمُ، وبذلك

(١) تقدم تخريجه في (فصل ١٤٢).

(٢) (ضعيف). رواه الترمذي (٤٣ ـ كتاب الاستئذان، ٣٢ ـ باب ما جاء في المعانقة والقبلة، ٥ / ٧٦ / ٢٧٣٢): ثنا محمد بن إسماعيل، ثنا إبراهيم بن يحيى، ثني =

لا يَعيبُ الرجلُ المرأةَ؛ لأنَّه لم يَرَ عيوبَها.

وليكنْ للمرأةِ فراشٌ، وله فراشٌ؛ فلا يجتمعانِ إلَّا في حال الكمال.

ومن الناسِ من يستهينُ بهٰذه الأشياءِ، فيرى المرأةَ متبذِّلةً[1]؛ تقولُ: هٰذا أبو أولادي! ويتبذَّلُ هو! فيرى كلُّ واحدٍ من الآخرِ ما لا يشتهي، فينفِرُ القلبُ، وتبقى المعاشرةُ بغيرِ محبَّةٍ.

وهٰذا فصلٌ ينبغي تأمُّلُه والعملُ به؛ فإنَّه أصلٌ عظيمٌ.

٣٦٩ ـ فصل

[أقبح الناس حالاً من تعرض للقضاء أو الشهادة]

لا عيشَ في الدُّنيا إلَّا للقنوع باليسير. فإنَّه كلَّما زاد الحرصُ على فضول العيش؛ زادَ الهمُّ، وتشتَّتَ القلبُ، واسْتُعْبِدَ العبدُ. وأما القَنوعُ؛ فلا يحتاجُ إلى مخالطةِ مَن فوقَه، ولا يبالي بمنْ هو مثلُه؛ إذ عندَه ما عندَه.

وإنَّ أقوامًا لم يَقْنَعوا، وطلبوا لذيذَ العيش، فأزْرَوْا بدينِهم، وذلُّوا لغيرِهم، وخصوصًا أربابَ العلم؛ فإنَّهم تردَّدوا إلى الأمراءِ فاستَعْبَدوهم، ورأَوا المنكراتِ فلم يقدِروا على إنكارِها، وربَّما مَدَحُوا الظالم اتقاءً لشرِّهِ؛

= أبي يحيى بن محمد، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن مسلم الزهري؛ عن عروة، عن عائشة.

قال الترمذي: «هٰذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث الزهري إلا من هٰذا الوجه». قلت: وسنده ضعيف: إبراهيم بن يحيى لين الحديث كما في «التقريب»، وأبوه ضعيف، ومحمد بن إسحاق مدلس وقد عنعن. وضعفه الألباني.

(١) يعني: تستهين بثيابها ولا تعتني بالتجمل والتزين لزوجها.

فالذي نالَهم من الذُّلِّ وقلَّةِ الدينِ أضعافُ ما نالوا من الدُّنيا.

ومن أقبح الناسِ حالاً مَن تعرَّضَ للقضاءِ والشهادةِ.

ولقد كانتا مرتبتينِ حسنيتنِ:

وكان عبدُ الحميد القاضي لا يحابي، فبعثَ إلى المعتضدِ، وقالَ له: قد استأجرتَ وقوفًا؛ فأدِّ أجْرَتَها! ففعلَ.

وقالَ له المعتضدُ: قد مات فلانٌ، ولنا عليه مالٌ. فقالَ: أنت تَذْكُرُ لمَّا وَلَّيْتَني؛ قلتَ لي: قد أخرجتُ هٰذا الأمرَ من عُنُقي ووضعتُهُ في عُنُقِكَ. ولا أقبلُ هٰذا الذي تقولُ إلَّا بشاهدينِ[1].

وكذٰلك كانَ الشهودُ:

دَخَلَ جماعةٌ على بعض الخلفاءِ، فقالَ الخادمُ: اشهدوا على مولانا بكذا! فشهِدوا، فتقدَّمَ المجزوعيُّ إلى السِّترِ، فقال: يا أميرَ المؤمنينَ! أشهدُ عليك بما في هٰذا الكتابِ؟ فقال: اشهدْ! قال: إنه لا يكفي في ذٰلك، لا أشهدُ حتى تقولَ: نعم. قال: نعم.

فأما في زمانِنا؛ فتغيرتْ تلك القواعدُ من الكلِّ، خصوصًا مَن يُتَقَرَّبُ إليه بالمال لِيُسْتَشْهَدَ، فتراه يُسْحَبُ ليشهدَ على ما لا يرى!

قال لي أبو المعالي بنُ شافع: كنتُ أُحْمَلُ إلى بعض أهل السوادِ وهو محبوسٌ وأشهدُ عليه، وأعلمُ أنَّه لولا مكرُه؛ لجاءَ إليَّ بقدميه، وأنا

---

(١) القاضي عبد الحميد هو أبو خازم بن عبد العزيز، كان عالمًا ورعًا بصيرًا عاقلاً، توفي سنة ٢٩٢هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (١٣ / ٥٣٩).

وأما المعتضد؛ فهو العباسي الخليفة، تقدمت ترجمته في (فصل ١١٠).

أستغفرُ اللهَ من ذٰلك[١].

وليس للشهودِ جِرايةٌ[٢] فَيَحْمِلونَ ذٰلك لأجلِها، وإنما الذي يحصُلُ جرُّ الطيلسانِ، وطرقُ البابِ، وقول المعرِّفِ: حَرَسَ اللهُ نعمتك، شهادةً!

ولما قيلَ لإبراهيمَ النخعيِّ: تكونُ قاضيًا! لبسَ قميصًا أحمرَ، وجلسَ في السوق، فقالوا: هٰذا لا يَصْلُحُ!

ودخل بعضُ الكبارِ على الرشيدِ وقد أحضَرَه ليوليهِ القضاءَ، فسلَّمَ وقالَ له: كيفَ أنت وكيف الصبيانُ؟ فقيل: هٰذا مجنونٌ!

فيا للهِ! جنونٌ هو العقلُ.

وما أظنُّ الإيمانَ بالآخرةِ إلَّا متزلزلاً في أكثرِ القلوبِ.

نسألُ الله سبحانه سلامةً للدينِ؛ فإنه قادرٌ.

٣٧٠ ـ فصل

[في أن السلامة في الرضى بقضاء الله والتسليم بحكمته]

قد تكرَّر معناه في هٰذا الكتابِ؛ إلَّا أنَّ إعادتَه على النفوسِ مهمَّةٌ؛ لئلا يُغْفَلَ عن مثلِهِ:

ينبغي للمؤمنِ أن يعلَم أنَّ اللهَ سبحانه مالكٌ حكيمٌ لا يَعْبَثُ، وهٰذا

(١) هو الإمام، الحافظ، المفيد، محدث بغداد، أحمد بن صالح بن شافع الجيلي، نال رئاسة مع علم ودين وتثبت وإتقان، ولد سنة ٥٢٠هـ. انظر ترجمته في: «سير أعلام النبلاء» (٢٠ / ٥٧٢).

(٢) الجراية: الرزق الذي يجري من الوظائف، ويعرف اليوم بالراتب أو المرتب.

العلمُ يوجِبُ نفي الاعتراضِ على القدرِ.

وقد لَهَجَ خَلْقٌ بالاعتراضِ قَدْحًا في الحكمةِ، وذلك كفرٌ.

وأوَّلُهم إبليسُ في قولِهِ: ﴿خَلَقْتَني مِنْ نارٍ وخَلَقْتَهُ مِنْ طينٍ﴾ [صَ: ٧٦]! ومعنى قولِهِ: إنَّ تفضيلَكَ الطينَ على النارِ ليس بحكمةٍ!!

وقد رأيتُ مَن كان فقيهًا دَأْبُه الاعتراضُ!

وهٰـذا لأنَّ المعترضَ ينظُر إلى صورةِ الفعل، ولو أن صورةَ الفعل صدرتْ من مخلوقٍ مثلِنا؛ حَسُنَ أن يُعْتَرَضَ عليه؛ فأما من نَقَصَتِ الأفهامُ عن مطالعةِ حكمتِهِ؛ فاعتراضُ الناقصِ الجاهل عليه جنونٌ.

فأمـا اعتراضُ الخلعاءِ؛ فدائمٌ؛ لأنَّهم يريدونَ جَرَيانَ الأمورِ على أغراضِهِم؛ فمتى انكسرَ لأحدِهِم غرضٌ؛ اعترضَ.

وفيهم من يتعدَّى إلى ذكر الموتِ، فيقولُ: بنى ونَقَضَ!!

وكان لنا رفيقٌ؛ قرأ القرآنَ والقراءاتِ، وسمعَ الحديثَ الكثيرَ، ثم وَقَعَ في الذنوبِ، وعاشَ أكثر من سبعينَ سنةً، فلما نَزَلَ به الموتُ؛ ذُكِرَ لي أنه قال: قد ضاقتِ الدُّنيا إلَّا مِن رُوحي!!

ومن هٰذا الجنسِ سمعتُ شخصًا يقولُ عندَ الموتِ: رَبِّي يظلِمُني!!

وهٰذا كثيرٌ! ويُكْرَهُ أنْ يُحكى كلامُ الخلعاءِ في جنونِهِم واعتراضاتِهِم الباردةِ.

ولو فهِموا أن الدُّنيا ميدانُ مسابقةٍ ومارستانُ[1] صَبْرٍ ليبينَ بذلك أثَرُ

(١) المارستان والبيمارستان: المستشفى.

الخالقِ؛ لما اعترضوا، والذي طلبوه من السلامةِ وبلوغ الأغراضِ أمامهم لو فَهِمُوا(١)؛ فَهُمْ كالزورجاري(٢)؛ يتلوَّثُ بالطينِ؛ فإذا فَرَغَ؛ لَبِسَ ثيابَ النظافةِ.

ولما أُريدَ نقضُ هٰذا البدن الذي لا يَصْلُحُ للبقاء؛ نُحِّيَتْ عنه النفسُ الشريفةُ، وبُنِيَ بناءً [لا] يقبلُ الدوامَ.

وبعد هٰذا؛ فقلْ للمعترضِ: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥].

قل له: إنِ اعترضَ؛ لم يمنعْ ذٰلك جريانَ القَدَرِ، وإن سَلَّمَ؛ جرى القدرُ؛ فلأنْ يجريَ وهو مأجورٌ خيرٌ من أن يجريَ وهو مأزورٌ.

وما أحسنَ سكوتَ وضاحِ اليمنِ لما اختبأ في صندوقٍ، فقال السلطانُ: أيُّها الصندوقُ! إن كان فيكَ ما نظنُّ؛ فقد مَحَوْنا أثَرَكَ، وإن لم يكنْ؛ فليس بدفن خشبٍ من جُناح. فلو أنَّه صاحَ؛ ما انتفعَ بشيءٍ، ولربَّما أُخْرِجَ فقُتِلَ أقبحَ قِتْلَةٍ.

٣٧١ ـ فصل

[العاقل يرى في أحوال الدنيا ما يدعوه لاجتنابها]

من تلمَّحَ أحوالَ الدُّنيا؛ عَلِمَ أنَّ مرادَ الحقِّ سبحانه اجتنابُها.

---

(١) يعني: سيأتي في يوم القيامة.

(٢) الظاهر أنها صنعة لها علاقة بالطين: كحفر الآبار، من الزور، وهو البئر. أو صناعة الجرار، من الزير، وهو الدن. والله أعلم.

فَمَن مال إلى مباحِها ليلتذَّ؛ وجد مع كل فرحةٍ تَرْحَةً، وإلى جانب كلِّ راحةٍ تعبًا، وآخرَ كلِّ لذةٍ نَغَصًا يزيدُ عليها، وما رُفِعَ شيءٌ من الدُّنيا؛ إلَّا ووُضِعَ.

أحبَّ الرسولُ ﷺ عائشةَ رضي الله عنها، فجاءَ حديثُ الإفكِ(١)... ومالَ إلى زينبَ، فجاءَ: ﴿فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧](٢).

ثم يكفي أنَّه إذا حَصَّلَ محبوبَه؛ فعينُ العقل ترى فراقَه، فيتنغَّصُ عندَه وجودُه؛ كما قال الشاعر:

أَتَمُّ الحُزْنِ عندي في سُرورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صاحِبُهُ انْتِقالاً

فيعلمُ العاقلُ أنَّ مرادَ الحقِّ بهٰذا التكديرِ التنفيرُ عن الدُّنيا، فيبقى أخذُ البُلْغَةِ منها ضرورةً وتركُ الشواغلِ، فيجتمعُ الهمُّ في خدمةِ الحقِّ، ومَن عَدَلَ عن ذٰلك؛ نَدِمَ على الفواتِ.

٣٧٢ ـ فصل

[العاقل من كتم أسراره وتوسط في معيشته]

العاقلُ يدبِّرُ بعقلِه عيشتَهُ في الدُّنيا:

فإن كانَ فقيرًا؛ اجتهدَ في كسبٍ وصناعةٍ تكفُّه عن الذُّلِّ للخلقِ،

(١) فكان ماذا؟! فوالله ما ازدادت في الدنيا إلا رفعة، وما ازداد شانيها إلا ضعة، وإنما الأمور بخواتيمها لا بمباديها. وقد قدمنا الكلام عن حديث الإفك.

(٢) فكان ماذا؟! ثم إن النبي ﷺ لم يمل لزينب رضي الله عنها بالطريقة التي قصدها المؤلف، وقد طولنا الكلام في ذٰلك في (فصل ٨٣)؛ فانظره؛ فإنه مهم.

وقلَّلَ العلائقَ، واستعملَ القناعةَ؛ فعاش سليمًا من مِنَنِ الناس عزيزًا بينَهم.

وإن كان غَنيًّا؛ فينبغي له أن يدبِّرَ في نفقتِه؛ خوفَ أن يَفْتَقِرَ، فيحتاجَ إلى الذُّلِّ للخَلْق، ومن البليةِ أن يُبَذِّرَ في النفقةِ، ويباهيَ بها لِيُكْمِدَ الأعداءَ، كأنه يتعرَّضُ بذلك ـ إن أكثرَ ـ لإصابتِهِ بالعينِ! وينبغي التوسُّطُ في الأحوال وكتمانُ ما يَصْلُحُ كتمانُه.

ولقد وَجدَ بعضُ الغسالينَ مالاً، فأكْثَرَ في النفقةِ، فعُلِمَ به، فأُخِذَ منه المالُ، وعاد إلى الفقرِ.

وإنما التدبيرُ حفظُ المال، والتوسُّطُ في الإنفاقِ، وكتمانُ ما لا يَصْلُحُ إظهارُه.

ومن الغلطِ إطْلاعُ الزوجةِ على قَدْرِ المال؛ فإنَّه إنْ كانَ قليلاً؛ هانَ عندها الزوجُ، وإنْ كانَ كثيرًا؛ طلبتْ زيادةَ الكسوةِ والحلي! قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ولا تُؤتوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُم﴾ [النساء: ٥]. وكذلك الولد.

وكذلك الأسرار؛ ينبغي أن تُحْفَظَ، وأن يُحْذَرَ منها ومن الصديقِ؛ فربَّما انقلبَ؛ فقد قال الشاعرُ:

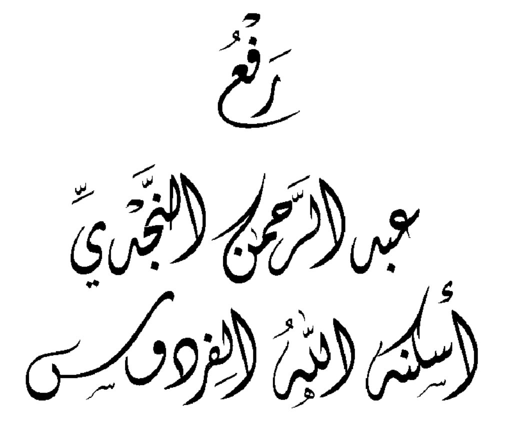
اِحْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً واحْذَرْ صَديقَكَ أَلْفَ مَرَّهْ
فَلَرُبَّما انْقَلَبَ الصَّديـ ـقُ فَكانَ أَعْلَمَ بِالْمَضَرَّهْ

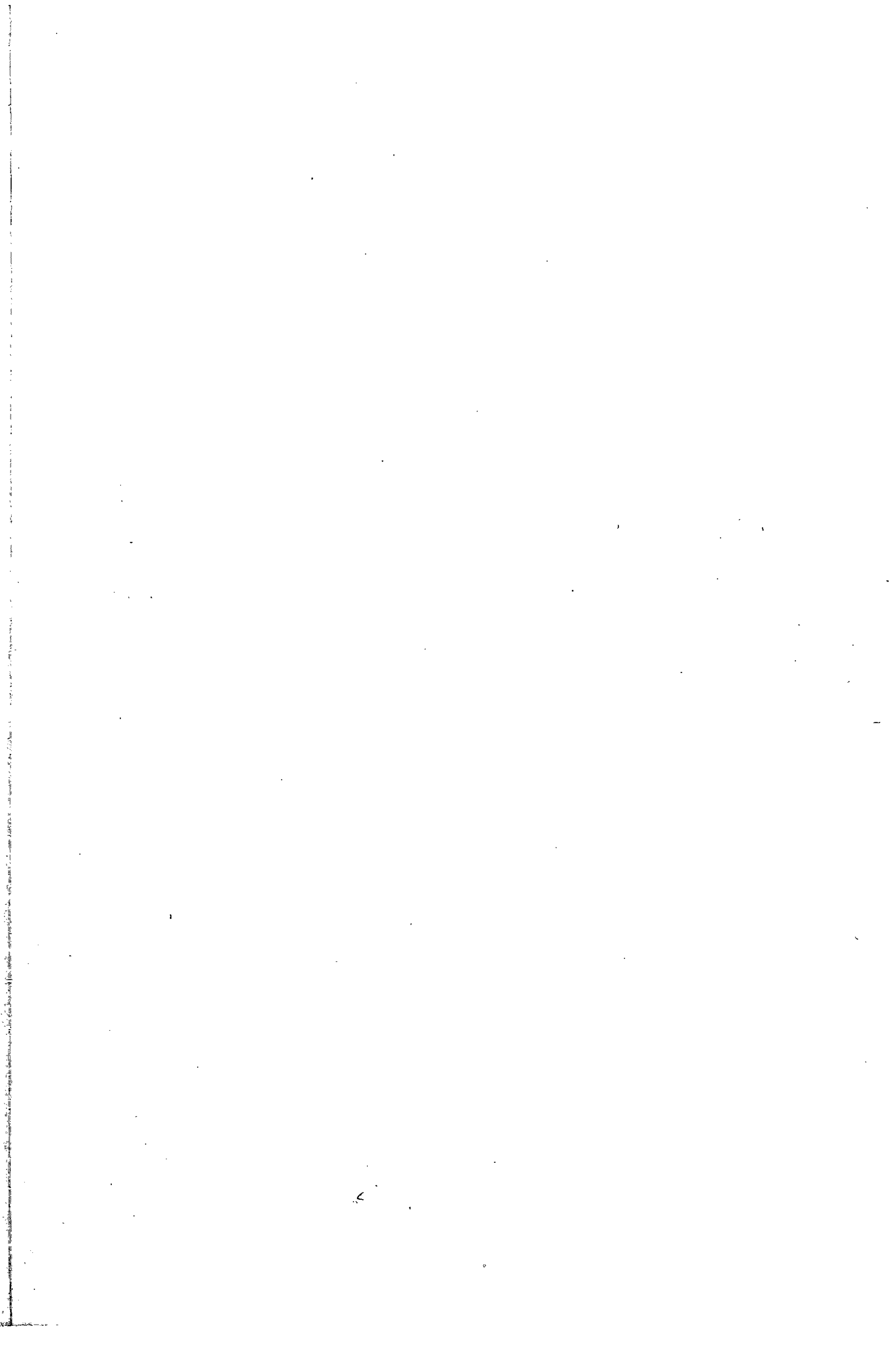
بحمدِ الله تعالى قد نَجزَ ما توخَّاه الفكرُ الفاترُ من تقييدِ ما جمعهُ القلمُ من صيدِ الخاطرِ، مقتصرًا فيه على ما به التَّخلِّي من الأمراضِ النفسيَّةِ والتحلِّي بالآدابِ الشرعيَّةِ والأخلاقِ المرضيَّةِ، جعلهُ الله تعالى خيرَ

هاد على منبرِ الوعظِ والإرشاد، وأنفعَ كتابٍ تجلَّى في مرايا الظهورِ لهدايةِ العباد.

والحمـدُ للهِ أولاً وآخـرًا، وصلَّى الله على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

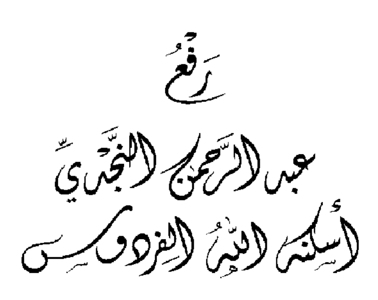
* * * * *





رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

فهرس الموضوعات


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس